
جولة في رياض
الأدب الفارسي
بديع محمد جمعة
محمد نور الدين عبد المنعم
المجلس الأعلى للثقافة

جولة فى رياض الأدب الفارسى

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جمعة، بديع محمد
جولة فى رياض الأدب الفارسي؛ تأليف: بديع جمعة؛
محمد نور الدين عبد المنعم
القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٣
٦٠٠ ص؛ ٢٤ سم.
١- الآداب الفارسى
(أ) عبد المنعم، محمد نور الدين (م. مشارك)
(ب) العنوان ٨٩١,٥٥

رقم الإيداع ٢٠١٢/٧٠٥٩
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 718 - 294 - 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التى تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هى اجتهادات أصحابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأى المجلس.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 27352396 Fax : 27358084.
www.scc.gov.eg

المجلس الأعلى للثقافة

جولة فى رياض الأدب الفارسى

بديع محمد جمعة

محمد نور الدين عبد المنعم



فهرس الموضوعات

تقديم ٧-٩

الفصل الأول :

نشأة الأدب الإسلامى فى إيران ١١-٧٧

الفصل الثانى :

الابتهال إلى الله ونعت الرسول ومناقب الخلفاء الراشدين ٧٩-١٦٨

الفصل الثالث :

أدب الفتوحات الإسلامية ١٦٩-٢٠٣

الفصل الرابع :

القصص الدينى فى الأدب الفارسى ٢٠٥-٢٦٧

الفصل الخامس :

الأدب الأخلاقى ٢٦٩-٣٢١

الفصل السادس :

أدب النصيحة والحكمة ٣٢٣-٣٨٢

الفصل السابع :

من أدب الرحلات ٣٨٣-٤٣٨

الفصل الثامن :

من الأدب الفارسى الحديث ٤٣٩-٥١٦

الفصل التاسع :

اللغة الفارسية وأدابها خارج إيران ٥١٧-٥٩٧

تقديـــــم

الأديب الحق ضـمـير أمـتـه، وله رسـالة ينقلهـا إلى الناس، وعلى هذا يجب على الأدباء والمبدعين أن يلتمسوا الطريق إلى القيم التى ترفع من شأن أمة الأديب بخاصة وعـالمـه البـشـرى بعـامـة، ويكون تعـبـيـرهم عن هذه القـيم شـعـراً أو نثـراً فى صـورة منظومات أو قصـائد أو مـقالات أو قـصص أو مـسرحيات، أو غير ذلك من فنون الأدب وأنماطه المتعددة.

وإذا انتقلنا إلى الأدب الفارسى المكتوب بالخط العربى الذى يطلق عليه أحـيانًا مصطلـح "الأدب الفارسـى الإسـلامـى"، حتى تتم التفرقة بينه وبين الآداب الفـارسيـة قبل دخـول الإسـلام أرض إيران، وكتبت بخطوط أخرى غيـر الخط العربى، فـإن هذا الأدب الفـارسى الإسـلامى قد بدأ فى الظهـور مع بداية القـرن الثالث الهـجرى عندما نجح الفرس فى استـعادة استـعمال لغتـهم الفارسيـة بعد أن هـجروها طوال قرنين من الزمـان، ولاشك أن هذا الأدب الفـارسى فى صـورته الحـديثة قد بدأ وتطور تحت مظلة الإسلام الحنيف وتعاليمه وقيمـه، ولهذا فإننا سنجد جميع من نظمـوا أو كتبوا أدبًا فـارسـيـا ابتـداء من القـرن الثـالث الـهـجرى وحـتـى الآن متـأثرين تـأثرًا بـالغًا بـأحكام الشريعة الإسـلامية وبما جـاء فى القرآن الكريم من قـصص وسـير ودعوات أخـلاقيـة، وهذا مـا سنتحدث عنه فى الفصل الأول حيث سنعرض بإيجاز لتاريخ الأدب الفـارسـى الإسلامى وكيف اختلف عما كان لدى الفرس من آداب قبل الإسلام.

أمـا فى الفصـول التاليـة فسنتناول فى كل فصل موضـوعًا هـامًـا من موضـوعات الأدب الإسـلامى حيث سيكون الفصل الثاني على سبيل المثال عن الابتـهالات إلى الله عز وجل وتقديم الحمد والثناء للعلى القدير على هذه النعم العديدة التى وفرها للمسلم

وغير المسلم فى حياتهما الدنيوية. وكذلك على ماوعد به المؤمن فى الحياة الأخرى من جنة ورضوان، وسيعقب ذلك تقديم نماذج مما قاله الشعراء والكتاب فى نعت المصطفى عليه الصلاة والسلام، وبيان سيرته العطرة وكراماته العديدة، وأنه سيكون الشفيع لأمته يوم الحشر؛ وننتقل فى هذا الفصل كذلك للحديث عن مناقب الخلفاء الراشدين والإشادة بأدوارهم البطولية فى سبيل نصرة الحق ونشر الإسلام والقضاء على الشرك والمشركين.

وتتوالى الفصول وتتوالى الموضوعات الإسلامية التى أبدع الفرس فى التعبير عنها، ومنها الدعوة إلى التمسك بالأخلاق القويمة والفضائل السامية، والاجتهاد فى تربية المسلم تربية إسلامية خالصة، عمادها أحكام القرآن الكريم، وسنن الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأخذ العبرة من مسيرة الأنبياء جميعا وكذلك سيرة المجاهدين وأبطال الإسلام وبخاصة من الصحابة والتابعين الذين قدموا أرواحهم فداء للإسلام والمسلمين، حتى نتأسى بأعمالهم ونسير على هداهم.

ومن الموضوعات التى تناولتها هذه الدراسة، السياحة الدينية وكيف صور أدباء الفرس الأماكن الإسلامية المقدسة وعلى رأسها الكعبة الشريفة ومسجد الرسول - عليه الصلاة والسلام - والمسجد الأقصى ببيت المقدس.

ولما كان الأدب الفارسى الإسلامى متداولا فى كل من الهند وباكستان وأفغانستان وبعض الجمهوريات الإسلامية المستقلة حديثًا عن الاتحاد السوفيتى، فإننا حرصنا على أن نقدم بعض النماذج الفارسية التى أبدعها أدباء هذه البلاد الإسلامية المجاورة لأرض إيران.

ومن الجدير بالذكر أننا حرصنا على الإشارة إلى المجهودات القيمة التي بذلها الدارسون للأدب الفارسى فى عالمنا العربى وبخاصة فى مصر، بل كنا ننقل عنهم بعض ترجماتهم لروائع الأدب الفارسى، وكان الغرض من ذلك تعريف القارئ العربى الكريم بما بذله هؤلاء الأساتذة الأجلاء والزملاء الكرام من مجهودات مشكورة فى

سبيل التعريف بالأدب الفارسى، وإثراء المكتبة العربية بترجمات عديدة لروائع الأدب الفارسى الإسلامى الذى يتفق مع الأدب العربى فى معظم أدواره وشتى موضوعاته وسائر اتجاهاته.

وأخيرا نرجو أن نكون قد قدمنا للمكتبة العربية صورة واضحة عن أهم سمات الأدب الفارسى الإسلامى، وأن تكون مشجعة فى ذات الوقت للتعرف على هذا الأدب أكثر وأكثر تدعيمًا للصلات الأخوية الراسخة التى تربط بين الناطقين بالعربية والمتحدثين بالفارسية.

والله الموفق ..

القاهرة فى ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

المؤلفان

الفصل الأول

نشأة الأدب الإسلامى
فى إيـران

نشأة الأدب الإسلامى فى إيران

١- الشعر

الشعر فى إيران قبل الإسلام:

اختلفت آراء الباحثين حول طبيعة الشعر فى إيران إبان عصورها القديمة؛ فمنهم من أنكر وجود شعر لدى الفرس القدماء، ومنهم من حاول إثبات وجوده. ويؤيد الرأى الأول صعوبة افتراض ضياع شعر أمة بأكمله وعدم بقاء أى أثر منه حتى ولا أسماء الشعراء. ويؤيد الرأى الثانى استبعاد أن تكون أمة عظيمة ذات حضارة عريقة كالأمة الإيرانية قد خلت من الشعر والمعروف أنه قد ظهرت مجموعة كبيرة من الشعراء الذين صاغوا أعمالا تعد من روائع الأدب العالمى بعد الفتح العربى لإيران، فكيف يمكن أن تكون تلك البلاد قد أقفرت من الشعراء قبل الفتح العربى لها، كما أن هناك إشارات تاريخية تؤكد وجود المغنيين الذين كانوا ينظمون الأغانى وينشدونها فى قصور الأكاسرة فى العصر الساسانى، والمعروف أن الغناء يقوم على الشعر.

وقد عرف لهؤلاء الفرس القدماء لغات متعددة هى: اللغة الفارسية القديمة؛ وهى اللغة التى استعملت فى كتابات الملوك الهخامنشيين الحجرية (٥٥٩ - ٣٣١ ق.م)، واللغة الأفستية (الأوستية)، والأثر الوحيد المتبقى بهذه اللغة هو كتاب الأفستا - وهو الكتاب المقدس عند الزرداشتيين، ثم اللغة البهلوية لغة الدولة الساسانية وتعرف بالفارسية الوسطى.

ومهما يكن الخلاف بين العلماء فى وجود شعر منظوم باللغات السابقة، فقد أصبح من المؤكد أن الشعر فى إيران قبل الإسلام كان يقوم على نظام عدد المقاطع، ويراعى فى ترتيبها كيفية المقطع من حيث الطول والقصر.

وأقدم هذه النماذج الشعرية القديمة فى إيران كتاب "كاثا" وهو قسم الأناشيد بكتاب الأفستا، ولفظ " كاثا " فى حد ذاته معناه الأنشودة، وقد تضمن أشعاراً استطاع علماء اللغة أن يتعرفوا على وزنها وقواعد نظمها؛ فالجزء الأول من هذا الكتاب، وهو خمسة أجزاء، يشتمل على سبعة فصول، وكل فصل يحتوى على عدة قطع، وكل قطعة تتكون من ثلاثة مصاريع، وكل مصراع يتكون من ستة عشر مقطعًا، وتوجد وقفة أو سكتة بعد المقطع السابع.

وتوجد بالإضافة إلى الـ " كاثا " أقسام أخرى من الأفستا منها قسم الـ "يشتها "، ولكن أوزان القسم الأول تختلف عن القسم الثانى.

وتعتبر المعلومات العلمية الدقيقة التى وصلتنا عن وجود أقسام منظومة فى الأفستا، نتيجة الجهود التى بذلها بعض المتخصصين فى دراسة هذا الكتاب من علماء القرن التاسع عشر الميلادى، مثل وسترجارد Westergard ووستفال Westfal وهرمان توربل Herman Torpel . وقد أوضحت بحوث المستشرقين أور توربل Aurel Mayer وجلدنر Gerldner فى ذلك الوقت قسما من قواعد النظم، ولاتزال هذه البحوث مستمرة ، وقد أمكن حتى الآن قراءة قسم كبير من مقطوعات الأفستا المنظومة.

أما عن الوزن فى اللغة البهلوية – أى لغة عصر الأشكانيين والساسانيين – فأول من اكتشف نظمًا فى أحد المتون هو أندرياس F.C. Andréas، إذ لاحظ ضمن مطالعة نقوش شاپور الأول فى "حاجى آباد " أنه من الممكن أن يكون آخر المتن البهلوى الساسانى مركبًا من سلسلة مصاريع ذات سبعة أو ثمانية مقاطع، وأن مواطن النبرات معينة فى كل مصراع.

واستطاع بعد ذلك العالم بنفنست Benvenist الفرنسى، وهو أكثر العلماء اجتهاداً فى مسألة البحث عن وجود شعر باللغة البهلوية، وكشف قواعد النظم، أن يرجح أن كتاب " درخت أسوريك " – أى الشجرة الآشورية – كتاب منظوم، وهو عبارة عن نص پهلوى موضوعه مناظرة بين العنزة والنخلة، وقد دعاه إلى ذلك تكرار عبارة ذات أحد عشر مقطعًا على لسان العنزة واستطاع بعد ذلك اكتشاف عبارات أخرى كثيرة ذات أحد عشر مقطعًا، ثم قسم متن الكتاب إلى قطع طبقًا لعدد المقاطع، فأوجد بهذه الطريقة نظمًا فى عبارات الكتاب المتناثرة.

وواصل العالم بنفنست أبحاثه بعد ذلك فاكتشف أن كتاب "أياد كار زريران" (ذكرى زريران) المكتوب باللغة البهلوية الأشكانية (الشمالية) منظوم أيضًا، وأنه أقدم المنظومات البطولية الإيرانية بعد مقطوعات الـ "يشت"، أو هو جسر بين منظومات "يشت" والمنظومات البطولية فى العصر الإسلامى. وتتألف هذه المنظومة من قطع ذات خمسة مصاريع، أحيانًا أربعة أو ستة مصاريع، والمصاريع ذات ستة مقاطع. وموضوع هذه المنظومة هو الحرب بين كشتاسپ وأرجاسپ الطورانى دفاعًا عن مذهب مزديسنا[1].

لم تعد البهلوية لغة الوطن الرسمية بعد سقوط الإمبراطورية الساسانية، غير أن تغلب العرب وازدياد رواج اللغة العربية لم يمنعا من استمرار بعض الفئات من الفرس من غير المسلمين – الذين كان تعدادهم لايزال وفيراً فى إيران حتى أواخر القرن الرابع الهجرى، وكان عددهم فى بعض النواحى أكثر من عدد المسلمين – من التأليف بلغتهم والكتابة بالخط البهلوى أو السريانى.

وكانت اللهجات الإيرانية الأخرى ماتزال رائجة فى تلك الفترة، إلا أنها تطورت بسرعة على أثر احتكاكها باللغة العربية، وشاع إنشاد الشعر فى هذه اللهجات، وفى

(١) هذه الكلمة مركبة من ثلاثة أجزاء : مه بمعنى كبير، ومزدا بمعنى العالم الذى لا نظير له. ويسنى بمعنى عبادة، وكلها بمعنى العالم الذى لا نظير له، وتطلق على الديانة الزرادشتية.

أيدينا أبيات مكتوبة بعضها بالكردية والطبرية والكازونية ولهجات محلية أخرى. ويلاحظ فى معظم هذه الأبيات تطور الشعر فى إيران من حالته القديمة إلى هيئة جديدة؛ ففى هذه الأشعار تظهر القافية، كما يتضح فيها التناسب بين عدد المقاطع والاهتمام بترتيبها من حيث الطول والقصر.

وقبل أن ننهى الحديث عن الشعر القديم فى إيران نتحدث عن نموذج من نماذجه وهو كتاب " درخت أسوريك " ويعد هذا الكتاب من النصوص غير الدينية التى بقيت باللغة البهلوية، وقد نشر هذا النص البهلوى مع ترجمة فارسية له، وروعى فى الترجمة أن تكون كلماتها الفارسية الحديثة مساوية للكلمات البهلوية حتى يتضح للقارىء تطور الكلمات من الفارسية الوسطى إلى الفارسية الحديثة، وقد أعد الأستاذ ماهيار نوابى ناشر النص ومترجمه فهرساً لكل الكلمات البهلوية المستعملة فى ذلك النص، وذكر فيه عدد المرات التى استعملت فيها كل كلمة وفى أى من المصاريع والأبيات.

ومن أهم ما كتب حول نظم هذه القصة تلك المقالة القيمة التى كتبها المستشرق هيننج W.B. Henning تحت عنوان " شعر باللغة البهلوية " وقد ترجم هذه المقالة إلى الفارسية الدكتور فريار ونشرها فى مجلة " مهر " (السنة الثامنة - العدد الثانى)، كما نشرها أيضاً الأستاذ ماهيار نوابى فى مقدمة ترجمته الفارسية لمنظومة " درخت آسوريك ".

ولاننسى أن نقول إن أول من عرفنا بنظم هذه القصة هو المستشرق بنفنست، وقد أثبت ذلك فى مقالة له بعنوان " متن درخت أسوريك ونظم الشعر البهلوى " وذلك فى المجلة الأسيوية[١].

---

(١) Texte du Draxt Assurik et la Versification Pehlevi - Journal Asiatique.

(أكتوبر - ديسمبر ١٩٣٠ ص ١٩٢ - ٢٢٥).

ويرى بعض المحققين ومنهم الدكتور خانلرى أن ما قال به الباحثون الأوروبيون ومن تبعهم من العلماء الإيرانيين من أن التساوى التقريبى لعدد المقاطع هو ميزان الشعر فى اللغة الپهلوية غير صحيح، وذلك لأنه إذا كان الشعر كلامًا موزونًا فى هذا الشكل، فإنه لايمكن تحديد العبارات الوزنية، وإذا كانت أصول الشعر فى اللغة الپهلوية هى التساوى التقريبى للمقاطع فقط؛ فيجب القول بأن الشاعرين عبد الله الأنصارى وسعدى الشيرازى (فى كتابه الگلستان) كانا يقولان شعرًا بطريقة اللغة البهلوية، إذ توجد قرينة فى كثير من عباراتهم، ويراعى فى أجزائها تساوى المقاطع، بالإضافة إلى أنه يمكن رؤية السجع والقافية فى نثرهما وهما غير موجودين فى الشعر الپهلوى، أو من النادر رؤيتهما.

وفى النهاية يستخلص رأيًا بخصوص الوزن فى الپهلوية، وهو : أن أساس الوزن فى الشعر الپهلوى كان يقوم على أساس كمية المقاطع ونبرة الكلمة، كما هو الحال فى الأشعار العامية والمحلية، وربما تكون دراسة الأشعار المحلية مفتاحًا للكشف عن وزن الشعر الفارسى قبل الإسلام(١).

الشعر فى إيران بعد الإسلام:

من المعروف أن العلاقة بين العرب والفرس لم تبدأ ببداية الفتح العربى لإيران، وإنما كانت هناك روابط تجارية وسياسية قديمة، يذكرها لنا التاريخ، قائمة بين الشعبين المتجاورين، وعلى هذا يكون تأثير أحدهما على الآخر ثقافيًا واجتماعيًا أقدم بكثير من بداية دخول الإسلام والعرب إلى إيران.

(١) انظر كتاب «وزن شعر فارسى» د. پرويز ناتل خانلرى - تهران ١٣٣٧ ش - ص ٤٤ وما بعدها وأيضًا كتاب «عقايد ورسوم عامه، مردم خراسان» ص ٣٥٧ وما بعدها - تأليف إبراهيم شكور زاده - تهران ١٣٤٦).

انتصر العرب على الفرس، ودخلوا المدائن عاصمة ملكهم سنة ١٦ هـ (٦٣٧م). ثم استطاعوا بعد ذلك القضاء التام على الجيش الفارسى وجعل تلك البلاد جزءاً من دولتهم الإسلامية فى موقعة نهاوند الفاصلة التى سميت بفتح الفتوح سنة ٢١ هـ (٦٤٣م) ومنذ ذلك الحين خضعت إيران سياسيا للعرب، وأصبحت اللغة العربية هى اللغة الرسمية لشئون الدولة جميعها.

بدأت اللغة العربية تنتشر بسرعة عجيبة بعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجًا، وأصبح الفرس ينظرون إليها نظرة مقدسة بصفتها لغة القرآن الكريم والدين الجديد، فكان لابد لهم من دراستها والتعمق فيها حتى يستطيعوا فهم دينهم وكتابهم الكريم، وقد ساعد هذا الأمر على انتشار اللغة العربية، ويذكر لنا بارتولد سببًا آخر لسرعة انتشارها ورواجها إذ يقول: " ويمكن تفسير رواج اللغة العربية هذا الرواج بأن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح فقط كالجرمان والمغول والإيرانيين القدماء، ولكنهم أنشأوا منذ القرن السابع الميلادى لغة أدبية متقدمة فى ساحة الفكر تقدمًا واضحًا، وأخذت البلاغة والشعر مكانة عظيمة عندهم واخترعت الأشكال الأدبية المعروفة اليوم"(١).

وقد ظلت اللغة العربية المتداولة فى إيران فى المرتبة الأولى من الناحية الأدبية حتى أواخر القرن الثالث تقريبًا، حتى أخذت القومية الفارسية تنهض وتحاول أن تحيى معها اللغة الفارسية الحديثة التى اعتمدت على اللغة العربية فى كثير من كلماتها ومصطلحاتها، والتى تكتب أيضًا بالحروف العربية.

ومن المعروف أن أوائل كتاب الفارسية الحديثة كانوا من ذوى اللسانين، وهذا مايفسر لنا تأثر اللغة الفارسية بعد الفتح باللغة العربية إلى أبعد الحدود فى مفرداتها وبلاغتها بل وفى قواعد النحو أيضا؛ إذ أصبح من الضرورى أن يشتمل النحو

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية - ترجمة حمزه طاهر، ص ٦٢ - مصر ١٩٦٦م.

الفارسى على بعض أبواب من النحو العربى نتيجة دخول الألفاظ والتراكيب العربية فى ثنايا اللغة الفارسية.

وقد استخدم الإيرانيون كثيراً من المفردات العربية لأنها كانت - فى بعض الأحيان - أسهل بكثير من الكلمات الإيرانية القديمة، أو لأنهم لم يجدوا مقابلا لها فى لغتهم، ويدخل فى هذا الموضوع من المفردات: المصطلحات الدينية وبعض المصطلحات الأساسية والديوانية والعلمية. كما أخذت بعض المصطلحات من أصول فارسية ثم عربت واستعملت فى اللهجات الإيرانية. وقد ساعدهم فى هذا الأمر أن اللغة العربية من أغنى اللغات بالأصول والمشتقات الناتجة عن هذه الأصول، والمعروف أن الخط العربى قد استعمل بدلا من الخط البهلوى نظراً لسهولته.

ودليلنا على أن حكام إيران قد ظلوا فترة طويلة لايعترفون إلا باللغة العربية لغة لكل ما يصدر عنهم أو يقدم إليهم مارواه نظام الملك فى كتابه "سياستنامه" عندما قال: " منذ زمان الخلفاء الراشدين إلى أيام السلطان محمود الغزنوى كانت القوانين والأوامر والمنشورات تصدر بالعربية، وكان استعمال الفارسية فيها يعتبر من أشنع العيوب، واستمر الحال على ذلك حتى أيام عميد الملك أبى نصر الكندرى الذى تولى الوزارة لألب أرسلان السلجوقى، فأمر رجاله أن يصدروا القوانين والأحكام والأوامر باللغة الفارسية ".

وقد نسب العتبى فى تاريخه اليمينى هذا العمل إلى أبى العباس قضب بن أحمد الإسفرابينى وزير السلطان محمود، وأنه أول من أمر بتحويل الدواوين من العربية إلى الفارسية، ونقض هذا الأمر بعد ذلك بأمر أحمد بن حسن الميمندى[١].

بل إن بعض الحكام كان يرى أن النظر فى كتب الفرس القديمة أو الاطلاع عليها أمر يتعارض مع الدين الإسلامى، وقد جاء فى كتاب "تذكرة الشعراء" لدولتشاه

---

(١) تاريخ أدبيات در إيران - دكتر ذبيح الله صفا - جلد أول ص ١٧٤ - تهران ١٣٣٨.

السمرقندى " أن عبد الله بن طاهر أمير خراسان فى عهد الخلفاء العباسيين والفارسى الأصل كان يجلس فى نيسابور فجاءه أحد الفرس يعرض عليه إحدى قصص الفرس القديمة وهى قصة (وامق وعذراء) وهى التى وضعها أحد القدماء (لأنو شيروان)، فسأل: ما هذا الكتاب؟ فقيل له هو قصة وامق وعذراء، وهى قصة جيدة، فقال الأمير: نحن أناس نقرأ القرآن والحديث، وهذا كتاب المجوس فهو مردود إليك، وأمر بأن يلقى فى الماء وتحرق الكتب التى صنفها المجوس أينما كانت"[1].

وهكذا نرى أن الطاهريين (٢٠٥-٢٥٩ هـ) وهم أول أسرة إسلامية من أصل فارسى، لم يكونوا ينظرون إلى الأدب الفارسى نظرة حسنة، ويرون العناية به مخالفة للدين، كل هذا لايعنى أن الفرس قد تركوا لغتهم ولم يتكلموا بها منذ دخولهم فى الإسلام واهتمامهم بالعربية ولكنهم ظلوا يتحدثون بهذه اللغة، إلا أنه لم يظهر لهم إنتاج أدبى فيها خلال القرنين الأول والثانى للهجرة، وماوصل إلينا لايعدو أن يكون أدبًا فى لهجات محلية.

وقد وصلت إلينا بعض الأشعار التى أنشئت فى لهجات محلية، وكلها ذات وزن مقطعى، ونلاحظ القافية فى بعضها ويدل هذا على تطور الشعر فى إيران من اعتماده على الأوزان المقطعية القديمة إلى اعتماده على أوزان مقطعية جديدة، قريبة من الأوزان العروضية العربية، ومن الأمثلة التى تؤيد ذلك ما ذكره الطبرى فى تاريخه مرتين، مرة فى حوادث سنة ثمان ومائة ، ومرة أخرى فى حوادث سنة تسع عشرة ومائة والخبران يتحدثان عن غزوة أسد بن عبد الله القسرى لخاقان صاحب الترك، وكيف رجع منها مغلولا؛ فتغنى عليه الصبية من أهل خراسان بشطرات معناها:

لقد عدت من بلاد الختل، فاذهب فقد عدت محطمًا ضائعًا.

---

(١) تذكرة الشعراء ص ٣٠ - تصنيف دولتشاه السمرقندى - ليدن ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠م.

وعدت تائهاً مشرداً، وعدت جباناً خائفاً[1].

ومن أمثلة ذلك أيضاً ذلك الشعر الذى ينسب إلى يزيد بن مفرغ الحميرى، وهو شاعر عربى الأصل كان يعيش فى إيران فى بداية العصر الأموى، وقد غضب عليه عبيد الله بن زياد نظراً لولعه بهجاء بنى زياد، فقبض عليه وأمر به فسقى نبيذاً حلواً وشبرما، فأسهل بطنه، وقرنه بهرة وخنزير، وطيف به وهو على تلك الحال والصبيان يتبعونه ويصيحون بالفارسية ابن چيست ؟ أى : ما هذا؟ فيجيبهم بما معناه:[2].

إنه ماء وإنه نبيذ، وهو عصارات الزبيب

وسمية عاهرة فاجرة

وهذه المصاريع الثلاثة السابقة هى شعر ذو سبع مقاطع، وله قافية ناقصة، كما أن النموذج السابق عليه شعر ذو ثمانية مقاطع، وله قافية ناقصة أيضاً.

والواقع أن هذين النموذجين يكفيان للدلالة على حالة الشعر فى القرنين الأول والثانى من الهجرة إلى أن تطور الشعر بعد ذلك ونشأ الشعر الفارسى الإسلامى الذى تأثر باللغة العربية وبالشعر العربى وأوزانه وبحوره.

اشتدت الحركة القومية منذ أواخر القرن الثانى وبداية الثالث الهجرى بقيام الدويلات الفارسية المستقلة؛ فأخذ الفرس يحاولون جاهدين الرقى بلغتهم الفارسية، وجعلها لغة أدبية وأخذ حكام الولايات المستقلون يشجعون على ذلك،

---

(١) أز ختلان آمذيه   برور تباه آمذيه

آوار باز آمذيه   بيدل فراز آمذيه

(٢) آبست نبيذ أست   عصارات زبيب أست

سميه روسبيد أست

سميه : هى أم زياد بن أبيه وجدة عبد الله وعباد بن زياد.

انظر : البيان والتبيين جـ ١، ص ١٤٣ – أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ – القاهرة ١٣٨٨.

ويرفضون سماع الأشعار العربية، لأنهم أصبحوا لايفهمونها، وأخذوا يميلون لكل ما هو فارسي خالص.

والواقع أن عصر النهضة الفارسية لم يقم معتمداً على اللغة الفارسية الخالصة فى حد ذاتها، بل كان الكتاب والشعراء يأخذون من العربية بعض مفرداتها وعباراتها، ويقتبسون من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والحكم والأمثال العربية، كما استخدموا فى أشعارهم بحور الشعر العربى، وزادوا عليها وغيروا فيها بعض التغيير، واستحدثوا صورا شعرية جديدة فى مقدمتها المثنوى والرباعى. ولاريب أن العروض العربى قد أثر فى الشعر الفارسى تأثيراً كبيراً، واستعار الفرس من العرب الأوزان والبحور المختلفة، كما اقتبسوا بعض ضروب النظم كالقصيدة والقطعة، وقد وضعوهما على نسق المعلقات الجاهلية من حيث الصياغة والأسلوب وإن كان قد أصابهما شىء من التعديل على أيدى الفرس كما فعلوا أيضاً بالغزل. وقد أخذ الفرس كل مصطلحات العروض عن العرب كالأوتاد والفواصل والأسباب وغير ذلك..

ونتيجة لهذا التأثر بالعربية وآدابها، فقد أصبح من غير الممكن أن يكتب الكاتب أو ينظم الشاعر شيئاً بالفارسية بحيث تكون كتابته خلوا من الألفاظ العربية والدليل الواضح على هذا هو شاهنامة الفردوسى التى قصد ناظمها أن يصوغها فى أقدم العبارات والأساليب، خصوصاً وأنه يتحدث عن تاريخ الفرس وأمجادها، ورغم هذا فإن أحداً لايستطيع أن يدعى أنها خالية من الألفاظ العربية.

ونجد بعض كتاب الفرس ينصحون باستعمال الكلمات العربية فى ثنايا اللغة الفارسية، ومن هؤلاء كيكاوس مؤلف كتاب "قابو سنامه" (٣٧٥ هـ = ١٠٨٢م) الذى يقول لابنه گيلانشاه: " ويجب أن تمتزج الكتابة بشىء من العربية، فإن الفارسية الخالصة كريهة معيبة"[(١)] وكذلك ينصح العروضى السمرقندى فى كتابه "چهار مقاله"

---

(١) قابوسنامه، تأليف كيكاوس قابوس بن وشمكير الزيارى - تهران ١٣٤٣ ص ١٦٤.

أو «المقالات الأربع» (المؤلف حوالى سنة ٥٥٠ هـ) بأنه يجب على الكاتب أن يقرأ كلام رب العزة وأخبار المصطفى (صلعم) وآثار الصحابة وأمثال العرب، كما ينصح بقراءة الكتب والدواوين العربية كمقامات البديع والحريرى وديوان المتنبى.[١]

ونلاحظ أنه قد نشأت بعض الفنون البلاغية نتيجة امتزاج اللغتين العربية والفارسية، وكثرة من أجادوا اللغتين وكتبوا بهما، كفن الترجمة؛ ويكون بأن ينظم الشاعر بالفارسية معنى البيت العربى، أو ينظم البيت الفارسى بالعربية، ومثال ذلك ما جاء فى كتاب " لباب الألباب" لمحمد عوفى (متوفى سنة ٦٣٥ هـ[٢])، فقد أنشد سيف الدولة الأبيات التالية فى وصف قوس قزح:

وساق صبوح للصبوح دعوته — فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم — فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا — على الجو دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأصفر — على أحمر فى أخضر تحت مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل — مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقد ترجم هذه الأبيات الأمير طاهر بن الفضل، فقال:

آن ساقى مه روى صبوحى بر من خورد
وز خواب دوچشمش چودوتانرگس خودم
وآن جام مى أندر كف أو همچو ستاره
ناخورده يكى جام وذكر داده دمادم

(١) چهار مقاله، نظامى عروضى سمرقندى – تهران ١٣٤١ – ص ١٤.

(٢) لباب الألباب – محمد عوفى – ليدن ١٣٢٤ هـ – ١٩٠٦م – جـ ١ ص ٢٧.

وآن ميغ جنوبى چو يكي مطرب خور بود

دامن بزمين بر زده همـچـون شب أدهم

بر بسته هوا چون كمرى قوس قزح را

أز اصفر واز أحمر واز أبيض معلم

گوئى كه دو سه پيرهن است از دوسه گونه

وز دامن هر يك ز دگر تاريكى كم

ولم يقتصر الأمر على هذا بل ظهر فيما بعد من بين الفرس أنفسهم من كان ينشد الشعر باللغة العربية بعد أن أتقنها وأصبح على علم بدقائقها، ونجد أمثلة ذلك كثيرة فى كتاب "يتيمة الدهر" للثعالبى، وما نكاد نصل إلى القرن السادس الهجرى إلا ونجد شاعراً كسعدى الشيرازى (متوفى سنة ٦٩١ أو ٦٩٤ هـ) يضم إلى أشعاره الفارسية عدة قصائد وقطع بالعربية. ومن قصائده العربية قصيدته المشهورة فى رثاء أمير المؤمنين المستعصم بالله وذكر واقعة بغداد، والتى يقول فيها:

حبست بجفنى المدامع لاتجرى | فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها | تمنيت لو كانت تمر على قبرى
لأن هلاك النفس عند أولى النهى | أحب له من عيش منقبض الصدر
زجرت طبيبا جس نبضى مداويا | إليك فما شكواى من مرض تبرى
لزمت اصطبارا حيث كنت مفارقا | وهذا فراق لا يعالج بالصبر
تسائلنى عما جرى يوم حصرهم | وذلك مما ليس يدخل فى الحصر
أديرت كؤوس الموت حتى كأنه | رؤوس الأسارى ترجحن من السكر

بكت جدر المستنصرية ندبة على العلماء الراسخين ذوى الحجر

نوائب دهر ليتنى مت قبلها ولم أر عدوان السفيه على الحبر

وتقع هذه القصيدة فى حوالى ثلاثة وتسعين بيتًا.(١)

أثرت الأوزان والبحور العربية فى الشعر الفارسى تأثيرًا كبيرًا كما ذكرنا؛ فقد حاكى الفرس الأوزان العربية، وأخذوا مصطلحات العروض كلها، ومن يرجع إلى كتاب "المعجم فى معايير أشعار العجم" (مؤلف حوالى سنة ٦٣٠ هـ)، وخاصة فى الجزء الذى يتناول العروض، يجد ذلك واضحًا جليا، يقول مؤلف الكتاب: "ويحكم أن صناعة الشعر كانت فى بادئ الأمر من اختراع طبع العرب وابتداع خاطرهم، وتبعهم العجم فى كل أبوابه، ولم يضعوها، ونقلوا تسمية الأركان والأجزاء وتصدير البحور والأوزان، وتقرير مايجوز ومالا يجوز فيها، وليسوا مستقلين، فلابد لنا فى هذا الكتاب أن نبدأ بشرح أوضاعهم ومصطلحاتهم فى تقرير البحوث وثبت الدوائر وذكر أجناس الشعر، وتعديد أوزانهم، حتى يعرف الخطأ من الصواب فيما زاده العجم على أشعارهم وما أنقصوه منها، ويعرف غثه من ثمينه".(٢)

والشعر الفارسى بعد الإسلام لايعتمد على كيفية المقاطع بل على كمية الحروف الموجودة فى المقاطع كما هو الحال فى الشعر العربى، ولكن لابد لنا أن نوضح هنا الاختلافات العروضية الفرعية بين الشعر العربى والفارسى، وهى تتلخص فيما يلى:(٣).

(١) كليات شيخ سعدى ص ٤١٠- طهران ١٣٣٧.

(٢) المعجم فى معايير أشعار العجم ص ٦٨، شمس قيس الرازى - تهران ١٣٣٨.

(٣) انظر: «بدء الشعر الفارسى» على أكبر فياض»، ص ٨ و٩من محاضراته المطبوعة بجامعة فاروق الأول ١٩٥٠ م، والمعجم ص ٤٥.

١- ذكر العروضيون أن العروض الفارسي أخذ من أصول الأوزان العربية العشرة سبعة أصول فحسب ورفض الثلاثة الأخرى لم يستعملها في شعره وأصول الأوزان العربية هي : فعولن، فاعلن، مفاعلين، مستفعلن، فاعلاتن، مفاعلتن، متفاعلن، مفعولات،، فاع لاتن، مس تفع لن، أما في الفارسية فهي سبعة مفاعيلن، فاعلاتن، مستفعلن، مفعولات، فاع لاتن، مس تفع لن، فعولن.

٢- أما بالنسبة للبحور فهي في العربية ستة عشر بحرًا، ولكن الفرس اقتصروا على أحد عشر بحرًا منها وتركوا خمسة لايستعملونها، وهي : الطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل، وقد ذكر شمس قيس الرازي صاحب "المعجم" أن ما جاء في الشعر الفارسي على هذه البحور كان من قبل إظهار المهارة في علم العروض، ويصف هذه البحور بأنها بعيدة عن الطبع السليم.(١)

وهناك اختلاف أخر في انتخاب شكل البحر؛ فنرى الفارسي لايستعمل الرمل مثلا إلا مثمنًا، بينما لايستعمله العربي إلا مسدسًا.

٣- يوجد أيضًا اختلاف في الزحافات والعلل؛ فقد زاد الفرس أنواعًا من الزحافات لاوجود لها في الشعر العربي، وتركوا زحافات عربية لايستعملونها في شعرهم كما يقول صاحب "المعجم" : " إن جملة زحافات شعر العجم خمسة وثلاثون زحافا، اثنان وعشرون منها من زحافات العرب وثلاثة عشر زحافًا من وضع عروضيي العجم".(٢)

والواقع أن التأثيرات العربية التي نتحدث عنها في الشعر الفارسي ليست تأثيرات شكلية فحسب، بل هي تأثيرات من حيث المضمون أيضًا، فكل من يقرأ الشعر الفارسي لابد وأن يجد فيه كثيرًا من الأفكار والصور والتشبيهات المقتبسة من الشعر

---

(١) المعجم ص ٧٨.

(٢) المعجم ص ٥٠.

العربى، فقد كان الشعر العربى هو المصدر والإلهام الذى كان الفرس يستوحونه فى نظم قصائدهم. وكانت الثقافة العربية هى الثقافة الرئيسية بالنسبة لشعراء الفرس وكتابهم. ومن هنا يتضح لنا أن مانجده من تأثير عربى على الشعراء الفرس، لايكون مجرد توارد أفكار بين شاعرين، وإنما هو تأثير عربى لا شك فيه. وسنذكر فيما بعد نمودجًا لتأثر الشعراء الفرس بالشعر العربى وبالثقافة العربية، وهو الشاعر منوچهرى الدامغانى (متوفى سنة ٤٣٢ هـ).

ومن أوائل الشعراء الفرس الذين نظموا شعرًا بأسلوب جديد بعد الإسلام:

١- الشاعر حنظلة البادغيسى (من بادغيس بخراسان) المتوفى سنة ٢٢٠ هـ، وهو من معاصرى الطاهريين، وكان يعيش فى عصر عبد الله بن طاهر، وقد ذكر له عوفى بيتين يقول فيهما:[(١)]

- مهما يلقى صديقى بالبخور على النار، حتى لايصيبه أذى عين الحسود.

- فلن يفيده البخور والنار، مادام له وجه كالنار وخال كالبخور.

ويروى له نظامى عروض السمرقندى بيتين آخرين يقول فيهما :[(٢)]

- إذا كانت العظمة بين أنياب الأسد، فخاطر وانتزعها من بين أنيابه.

- فإما العظمة والعز والنعمة والجاه، وإما مواجهة الموت كأبطال الرجال.

---

(١) لباب الألباب جـ١، ص ٢.

يارم سپند اكرچه بر اتش همه فگند   آز بهر چشم تا نرسد مرور أورا گزند

أوراسپند وآتش نايد همى بكار   با روى همچو أتش وبا خاك چون سپند

(٢) مهترى گر بكام شير در است   شد خطركن زكام شير بجوى

يابزركى وعزونعمت وجاه   يا چو مردانت مرگك رويا روى

(چار مقاله ص ٢٦)

٢- الشاعر فيروز المشرقى (متوفى سنة ٢٨٣ هـ) وهو من شعراء الصفاريين ومن معاصرى عمرو بن الليث، ومن أشعاره هذان البيتان اللذان يصف فيهما سهماً فيقول:(١)

- عجباً لهذا السهم الذى يشبه الطائر، وهو كالطائر تكون الأرواح كل صيده.

- وقد أعطاه النسر جناحة هدية، حتى لايحمل صغاره إلى الضيوف.

٣- الشاعر أبو سليك الگرگانى، وهو من شعراء القرن الثالث، ومن معاصرى عمرو بن الليث الصفارى أيضاً، ومن أبياته قوله:(٢).

- إن ترق دمك على الأرض، خير لك من أن تريق ماء وجهك؛

- فعابد الصنم أفضل من عابد الناس، فخذ النصيحة واستمع إليها واعمل بها.

ونذكر بالإضافة إلى هؤلاء أيضا الشعراء محمود الوراق الهروى (متوفى سنة ٢٢١ هـ)، ومحمد بن وصيف السگزى المعاصر ليعقوب بن الليث الصفارى؛ ومسعود المروزى صاحب أول شاهنامه قبل الفردوسى، وقد نظم شاهنامة فى أواخر القرن الثالث الهجرى. ويظهر بعد هذه الطبقة من الشعراء الثانويين الذين ذكرناهم أول شاعر كبير من الشعراء الفرس وهو الرودكى السمرقندى (المتوفى سنة ٣٢٩هـ) الذى

---

(١) مرغيست خدنك أى عجب ديدى ... مرغى كه شكار أو همه جانا
داده پر خويش گركسش هديه ... تا نه بچه اش برد بمهمانا

(٢) خون خود راگربريزى بر زمين ... به كه آب روى ريزى دركنار
بت پرستنده به أز مردم پرست ... پند گير وكار بند وگوش دار

لقب بحق أستاذ الشعراء واشتهر بنظم الشعر الغنائى الذى بقى لنا منه كثير جمع فى ديوانه، وكان من أشهر ممدوحيه نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ - ٣٢١ هـ) ثم وزيره أبو الفضل البلعمي. وقد نال منهما الصلات الوافرة، وأروع قصائده فى شكوى الزمان، ويقال إنه نظم "كليلة ودمنة" ولم يبق من نظمه لها سوى أبيات متفرقة، يقول فى إحدى قصائده ناعيًا شبابه:(١)

- تآكلت أسناني وتساقطت جميعًا، لم تكن أسنانا.

لا، بل كانت مصباحا وضاءً

- كانت منضدة في بياض الفضة،

وكانت درا ومرجانا، وكانت نجم السحر وقطرات المزن.

- والآن لم تبق منها واحدة، بليت كلها وتساقطت،

فأى نحس ذلك؟ أمن الفلك؟ قد يقال،

- كلا، لا من الفلك، ولا امتداد الأجل،

فما هو إذن؟ أقل لك: هو قضاء الله.

---

(١) مرا بسود وفرو ريخت هرچه دندان بود — نبـــود دندان لا بـل چراغ تابان بـود

سپيد سيم زده بيود ودر ومرجان بود — ستاره، سحرى بود وقطره باران بود

يكى نماند كنون زآنهمه بسود وبريخت — چه نحس بود هماناكه نحس كيوان بود

نه نحس كيوان يود ونه روزگار دراز — چه بود منت بگويم قضاى يزدان بود

مختارات من الشعر الفارسى، الدكتور محمد غنيمى هلال، ص ١٠، القاهرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.

ويقول فى قصيدة أخرى يصف الربيع:[1]

- أقبل الربيع البهيج بألوانه الزاهية وعطره الفواح،

مع مائة ألف نوع من الزينة والزخرف العجيب.

- وربما تحول الشيخ المسن إلى شاب حينئذ.

وتبدلت الدنيا من حالة المشيب إلى حالة الشباب.

- وقد أعد الكون العظيم جيشًا.

مكونًا من السحب المظلمة تقودها ريح الصبا.

---

(١) آمد بهار خرم بارنگ وبوی طیب — با صد هزار زینت وارایش عجیب

شاید که مرد پیر بدین گه جوان شد — گیتی بدیل یافت شباب أز پی مشیب

چرخ بزرگوار یکی لشکری بکرد — لشکرش أبر تیره وباد صبا نقیب

نفاط برق روشن وتندرش طبل زن — دیدم هزار خیل وندیم چنین مهیب

آن ابر بین که گرید چون مرد سوگوار — وآن رعد بن که نالد چون عاشق کئیب

خورشید زایر تیره دهد روی گاه گاه — چونان حصاری که گذر دارد از رقیب

بیك چند روزگار جهان دردمند بود — به شد که یافت بوی سمن را دوای طیب

بارات مشك بوی بیارید نو بنو — وز برف بر کشید یکی حلهء قصیب

کنجی که برف پیش همی داشت گل گرفت — هر جو یکی که خشك همی بود شد رطیب

لاله دبان کشت در خشد همی ز دور — چون پنجهٔ عروس بحنا شده خضیب

بلبل همی بخواند در شاخسار بید — سار از درخت سروا مرا وراشده مجیب

صلصل بسرو بن با نغمهء کهن — بلبل بشاخ گل بر بالحنك غریب

- قاذف النفط فيه البرق الساطع، وقارع الطبل فيه الرعد.

لقد شاهدت آلاف الجيوش من قبل ولم أر جيشاً بهذه المهابة.

- انظر إلى ذلك السحاب وهو يبكى وكأنه إنسان حزين،

وانظر إلى ذلك الرعد وهو ينوح وكأنه عاشق بائس.

- والشمس تطل بوجهها بين الحين والآخر من بين السحب المظلمة

كسجين يتحين الفرصة ليفلت من حارسه.

- لقد عانت الدنيا من المرض فترة،

ولكنها تحسنت عندما وجدت فى عطر الياسمين دواء لها.

- وقد أخذت الأمطار المسكية الرائحة تهطل من جديد،

وارتدت الدنيا حلة مقصبة من الثلوج.

- وازدهرت الورود فى الأماكن التى غطتها الثلوج،

وجرت المياه فى الجداول بعد أن كانت متجمدة.

- وتلألأت زهور الشقائق من بعيد بين الخضرة.

ككف العروس وقد تخضب بالحناء.

- وأخذ البلبل يغرد على أغصان شجرة الصفصاف،

وأخذ العصفور يرد عليه من فوق شجرة السرو.

- وأخذت الحمامة تغنى فوق شجرة السرو ألحانًا قديمة ،

وأخذ البلبل يغنى على أغصان الورد بألحان غريبة .

ويقول فى قصيدة أخرى :[1]

- قضى جميع عظماء العالم نحبهم ،

وأحنوا رؤوسهم جميعًا للموت .

- وأصبح تحت الثرى أولئك الذين ،

شيدوا كل هذه القصور العالية .

- وكان هذا كل نصيبهم من النعم

مهما امتلكوا ومهما أكلوا !

---

(١) مهتران جهان همه مردند | مرگ را سرهمه فرو كردند
زير خاك اندرون شدند آنان | كه همى كوشكها بر أوردند
از هزاران هزار نعمت وناز | نه بأخر جز از كفن بردند
بود از نعمت آنچه پوشيدند | وآنچه دارند وآنچه را خوردند

ويقول في قصيدة أخرى :[1]

- أيتها المحبوبة، لقد سمعت أنه كان ليوسف ثلاثة قمصان،

ارتداها طوال عمره في أوقات المحنة والراحة.

- أحدها تلوث بالدم كيداً، والثاني تمزق بالاتهام،

والثالث أضاء برائحته عيني يعقوب الباكية.

- فوجهي يشبه الأول، وقلبي يشبه الثاني،

ونصيبي من الوصل يشبه الثالث.

تحدثنا فيما سبق عن الشعر الفارسي الإسلامي خلال القرون الثلاثة الأولى للإسلام، ورغم أننا لاحظنا قلة الإنتاج الشعري في تلك الفترة، إلا أن هذا الإنتاج يدل على مدى التطور الذي طرأ على الشعر الفارسي في عهد الطاهريين والصفاريين، ثم يأتي بعد ذلك عصر السامانيين (٢٦١- ٣٨٩ هـ) الذي يتميز بكثرة الشعراء وعلى رأسهم الشاعر أبو عبد الله الرودكي.

---

(١) نگارينا شنيدستم كه گه گاه محنت وراحت

سه پيراهن سلب بودست يوسف را بعمر اندر

يگى از كيد شد پر خون دوم شد چاك أز تيمت

سوم يعقوب را از پوش روشن گشت چشم تر

رخم ماند بدان أول دلم ماند بدان ثاني

نصيب من شود در وصل أن پيراهن ديگر

وقد بذل السامانيون - وكانت عاصمتهم بخارى - جهداً كبيراً فى تشجيع النظم والنثر الفارسيين، وأخذوا يغدقون الأموال على الشعراء والكتاب من أجل أن ينظموا لهم الملاحم الوطنية كالشاهنامة، أو يترجموا لهم الكتب المختلفة. وقد ترجم إلى الفارسية تاريخ الطبرى بناء على أوامر السامانى منصور بن نوح، كما اشتغل بعض الوزراء بالترجمة إلى الفارسية كأبى على البلعمى وزير الأمير منصور. وبظهور أمر الغزنويين (٣٦٧-٤٣٣ هـ) أصبحت غزنة مركزاً أدبيا هاما، وخاصة فى عصر السلطان محمود الغزنوى (٣٨٧-٤٢١ هـ) وابنه مسعود (٤٢١-٤٣٢ هـ)، وقد ازدان بلاطهما بالعديد من الشعراء والكتاب والعلماء.

وتمتاز فترة القرنين الرابع والخامس الهجريين بكثرة الشعراء وتعدد آثارهم، والواقع أن تشجيع الملوك والحكام والوزراء كان السبب الرئيسى الذى ساعد على رواج الشعر فى هذه الفترة؛ إذ حاول كل حاكم أن يضم إلى بلاطه أكبر عدد ممكن من الشعراء والكتاب، وأخذ يجزل لهم العطاء، حتى وصل بعض الشعراء إلى درجة كبيرة من الثراء، وقد قيل فى ذلك إن أمتعة الرودكى كانت تحمل على أربعمائة جمل[١]، وأشار الشاعر الخاقانى إلى ثراء الشاعر العنصرى فقال:[٢]

- سمعت أن موقد العنصرى قد صيغ من فضة

وأن أدوات مائدته قد صنعت من الذهب.

---

(١) چهار مقاله، ص ٣٢.

(٢) شنيدم كه از نقره زد ديگدان — ز زر ساخت آلات خوان عنصرى

(مجمع الفصحاء، ج٢، ص ٣٥٥).

وصار بعض الشعراء يحسده على ماهو فيه من نعيم وجاه، كقول الفرخى (متوفى سنة ٤٢٩ هـ):[١]

- لقد صرت محسود العظماء بسبب خدمتى لمحمود،

وهذا ما يجب أن يكون عليه خادم محمود دائمًا

يقال أيضا إنه بلغ من شأن الفرخى أنه كان يركب خلفه عشرون غلامًا بمناطق من الفضة.[٢] وغير ذلك من الأمثلة كثير على ما كان للشعراء من مكانة، وما كان لهم من ثراء وجاه.

ونجد أيضًا أن كثيرًا من الحكم والأمراء والوزراء من كان هو نفسه من المشتغلين بالشعر أو الكتابة، ونذكر على سبيل المثال شمس المعالى قابوس (متوفى سنة ٤٠٣ هـ)، وابن العميد (متوفى ٣٦٠ هـ)، والعتبى (متوفى ٤٢٧ هـ)، والبلعمى (متوفى ٣٦٣ هـ) وهو وزير الأمير منصور بن نوح بن نصر السامانى.

ومن خصائص الشعر الفارسى الإسلامى فى تلك الفترة ما أظهره الشعراء من براعة فى نظم أفكار جميلة فى شعرهم، وإبداعهم فى التعبير عنها مع قلة التعقيد والإبهام، حتى صارت نماذجهم الشعرية قدوة لمن جاء بعدهم، ومن هؤلاء الشعراء الرودكى، والدقيقى (متوفى ٣٦٥ هـ)، والفردوسى (متوفى ٤١١ زو ٤١٦ هـ)، والعنصرى (متوفى ٤٣١ هـ) ، والفرخي، ومنوچهرى.

وقد كثر الإنتاج الشعرى حتى ليقال إن الرودكى نظم مائة ألف بيت، وإن عدد أبيات شاهنامة الفردوسى يصل إلى ستين ألف بيت، وشاعت فى أشعار هذه الفترة

(١) محسود بزرگان شدم از خدمت محمود خدمتگر محمود چنين بايد هموار

(٢) چهار مقاله، ص ٣٩.

التشبيهات المركبة والدقيقة التى تعتمد على الخيال فى معظم الأحيان، ويظهر ذلك بوضوح فى شعر منوچهرى الدامغانى، كما يلاحظ وصف الحروب وميادينها؛ مثلما نجد فى شعر العنصرى، والحديث عن مجالس السلاطين ومحافلهم، وما كان يدور فيها. وتتناثر هنا وهناك فى أشعارهم أسماء الألحان والألغاز الموسيقية، وأسماء المطربين والمطربات، وأخذ الشعراء يصفون أيضًا الاحتفالات التى كانت تقام فى المناسبات المختلفة من أعياد فارسية وإسلامية. كما أبدع الشعراء فى وصف المناظر الطبيعية، وتحولت بعض أشعارهم فيها إلى لوحات فنية بارعة، ومن الشعراء الذين قدموا لنا وصفًا بديعًا للطبيعة فرخى ومنوچهرى، وقد أخذ الأخير يفصل فى تصويره لها، ويذكر أسماء الطيور والأشجار والنباتات والزهور المختلفة، وكأنه درس كل هذه الأشياء وعرف خصائصها وتطور نموها. وغالبًا ما يقترن وصف الطبيعة عند الشعراء بقصيدة المديح، فقد كان فى بعض الأحيان المقدمة التى يضعها الشاعر فى مطلع قصيدته.

وأخذ بعض الشعراء يصف أشياء بذاتها ضمن قصيدته أو فى قطع أو رباعيات مستقلة، كوصفهم للسيف والقلم والجواد وغير ذلك، وبلغوا فى ذلك مرتبة عالية. كما نرى انعكاس الأحوال والأوضاع السياسية والاجتماعية فى الشعر، ويرجع ذلك إلى معرفة الشاعر بما يحيط به وتأثره بما حوله واهتمامه بالمحيط المادى إلى جانب اهتمامه بالخيال. فنجد العنصرى يتحدث عن حروب السلطان محمود الغزنوى فى الهند، فيقول:[1]

- من كثرة النيران التى أشعلها السلطان فى بلاد الهند،

تصاعد الدخان من معابدها حتى بلغ كوكب زحل.

---

(١) ز بسكه آتش زد شاه در ولايت هند   كشيده دود ز بتخانهاش بر كيوان

قد تميز شعر بعض الشعراء – ومنهم العنصرى – بالتفكير المنطقى الذى يقوم على قياس له نتائج بنيت على مقدمات. وهذا التفكير ومايخرج به من استنتاجات أدى إلى صوغ بعض أبياتهم وخاصة المصاريع الأخيرة منها بصيغة المثل السائر وصورته.

ويمثل ذلك قول العنصرى :[١]

– هو أمير المشرق الذى ينصره الله دائماً ،

وكل من يتقى الله ينصره على الدوام.

– كل الممالك ادعاء ، وسيفه هو البرهان ،

ما أجمل الدعوى التى يساندها البرهان.

– إن قطرة ماء سخائه صارت سبباً لدرر المعانى ،

وقطرة المطر أيضاً هى السبب لدر البحر.

– عندما يقصد مدحه من لايقول الشعر ،

يصير شاعراً وشعره كروضة رضوان.

---

(١) خسرو مشرق كه يزدانش هميشه ناصرست — هو كه يزدان را پرستد ناصرش يزدان بود

پادهشاهى ها همه دعويست برهان تيغ او — آن نكوتر باشد از دعوى كه با برهان بود

در معنى را سبب شد قطره باران سخاش — در دريا را سبب هم قطرهء باران بود

هر كه نا شاعر بود چون كرد قصد مدح أو — شاعرى گردد كه شعرش روضهء رضوان بود

زانكه نعتش جمع گردانيد معنيهاى نيك — چون معانى جمع گردد شاعرش آسان بود

- لأنه يجمع من صفاته المعانى الجميلة،

وطالما جمعت المعانى يصبح إنشاد الشعر سهلا يسيرا.

وقد حاول بعض الشعراء الإتيان بصور جديدة وأفكار مبتكرة، فاتجهوا إلى الأفكار العلمية ومصطلحاتها، ونجد هذا واضحًا فى العصر الغزنوى وما تلاه من العصور واستعمال المصطلحات العلمية لم يكن شائعًا بطبيعة الحال فى أوائل العصر السامانى. وقد مزج الشعراء هذه الأفكار والمصطلحات العلمية بالأخيلة الشعرية، ولم يكن هدف الشاعر من ذلك مجرد ذكر هذه المصطلحات، ولكنه كان يستخدمها ليرسم بواسطتها صورًا وتشبيهات شعرية جديدة. ويعتبر الفرخى من أشهر الشعراء الذين استخدموا المصطلحات العلمية فى الشعر، فنجده يستخدم فى نهاية بعض قصائده مصطلحات النجوم عند حديثه عن التأييد فى مدحه كقوله مثلا: طالما أنه يمكن إدراك مكان سير الكواكب عن طريق الإسطرلاب، فلتكن الدنيا محققة لكل رغباتك.

وأما عن موضوعات الشعر فى تلك الفترة فهى المديح والشعر البطولى أو الملاحم الوطنية، والوصف، والغزل، والقصة، والوعظ:

(أ) المديح : ظهر المديح منذ بداية الشعر الفارسى فى بلاط الطاهريين والصفاريين، إلا أنه اكتمل فى عهد السامانيين الذين كانوا يحكمون خراسان وما وراء النهر. وقد كثر الشعراء فى عصرهم، وكان على رأسهم الرودكى والشهيد البلخى (متوفى ٣٢٥ هـ) والدقيقى (متوفى ٣٦٥ هـ) وغيرهم. وقد أخرج الرودكى الشعر الفارسى من حالته البدائية البسيطة، وعالج كثيرًا من موضوعات الشعر بأجناسه.

وارتقى فن المديح بعد ذلك فى عصر السلطان محمود الغزنوى وابنه مسعود، وكان الشعراء ينظمون قصائدهم فى مديح السلاطين والوزراء والأمراء وغيرهم فى المناسبات المختلفة من أعياد وفتوحات وغير ذلك، وكانت الهبات التى تقدم لهم كثيرة، وخاصة فى عهد السلطان محمود؛ وذلك نتيجة لما حصل عليه فى غزواته التى قام بها

فى الهند، ومن أشهر شعراء المديح فى العصر الغزنوى: العنصرى والفرخى ومنوچهرى الدامغانى.

وقد تميز المديح فى هذا العصر بالمبالغة فى بعض الأحيان، وعادة ما تبدأ قصيدة المديح بوصف الطبيعة أو فصل من فصول السنة، أو الحديث عن عيد من الأعياد، وربما بدأها الشاعر بالغزل.

(ب) **الملاحم الوطنية** : تعد هذه الفترة من أهم الفترات الأدبية التى اهتمت بهذا النوع من الشعر؛ ففى أوائل هذه الفترة ظهر مسعودى المروزى الذى نظم شاهنامة فى أواخر القرن الثالث أو السنوات الأولى من القرن الرابع للهجرة، وكانت أبياتها من الشعر المثنوى (المزدوج) ومن بحر الهزج المسدس، وقد ضاعت هذه المنظومة، كما ظهر فى منتصف هذه الفترة الدقيقى الذى نظم ألف بيت فى قصة گشتاسب وحربه مع أرجاسپ الطورانى دفاعًا عن الدين الزرادشتى، ومع أن شاهنامته لم تتم، إلا أنه مهد السبيل للفردوسى الذى ظهر فى أواخر هذه الفترة، وشاهنامته التى تبلغ حوالى ستين ألف بيت منظومة فى البحر المتقارب. ويتحدث فيها عن تاريخ إيران منذ أقدم العصور وحتى سقوط الساسانيين، وتشتمل على أحداث أسطورية وتاريخية، وقد اقتفى أثره كل من جاء بعده من الشعراء ونظم فى هذا الموضوع.

وتعتبر شاهنامة الفردوسى من أغنى الكتب الأدبية بالمفردات والمصطلحات الفارسية، وقد كان الفردوسى ممن عاونوا على إحياء اللغة الفارسية ونشرها، خاصة وأن الشاهنامة كانت – ومازالت – موضع إعجاب وتقدير كل من يقرؤها، فاهتم الناس بقراءتها على مر العصور، وجرت ألفاظها على ألسنتهم، كما تعتبر الشاهنامة مصدرًا رئيسًا من مصادر النحو الفارسى، ذلك أن اللاحقين بالفردوسى من الشعراء اتخذوا من شعره معيارًا للتركيبات النحوية واقتدوا به فى استخداماته اللغوية.

وقد أعطى الفردوسى كل موضوع حقه؛ فتحدث عن الحرب والسلم، والفخر والمديح، والزهد والحكمة، والوصف والأخلاق، والمعروف أنه بدأ نظم شاهنامته حوالى

سنة ٣٧٠ أو ٣٧١ هـ وأتمها حوالى سنة ٤٠٠ هـ، ويمكن تقسيم الشاهنامة إلى ثلاثة أقسام هى: العصر الأسطورى، والعصر البطولى، والعصر التاريخى.

وتعتبر هذه المنظومة سجلا حافلا لعادات الشعب الإيرانى وتقاليده والعلوم والفنون الشائعة فى عصر الشاعر، وقد أجاد الفردوسى فى الوصف عموماً خاصة فى وصف الحروب وميادينها، والطبيعة وما فيها، وهو يدعو للعدل ويحبذه، ويحض على العلم، ويحترم العقل ويمدحه، كما تمتلئ منظومته بالحكم والمواعظ.

(جـ) **الغزل**: بدأ النظم فى الغزل منذ منتصف القرن الثالث الهجرى أى منذ ظهور الشعر الفارسى الحديث، وأقدم النماذج التى نجدها ماتبقى من شعر حنظلة البادغيسى، وتطور النظم فى هذا الموضوع خلال القرن الرابع، ونظم الشعراء نوعًا من الشعر سمى بالغزل، كما ضمنوا قصائدهم صوراً بديعة من الغزل والتشبيب.

وكان الرودكى صاحب أول غزل بديع فى الفارسية، وشاركه فى هذا أيضًا الشهيد البلخى، حتى إذا وصلنا إلى النصف الأول من القرن الخامس وجدنا الغزل يبلغ شأواً بعيداً فى الكمال على يد الفرخى.

(د) **القصص**: اهتم الشعراء فى هذه الفترة أيضًا بنظم القصص؛ فنظم الرودكى كليلة ودمنة شعراً، كما نظم أبو المؤيد البلخى الذى كان يعيش فى القرن الرابع قصة يوسف وزليخا. وقد امتلأت شاهنامة الفردوسى بالعديد من قصص الحب كقصة الجارية شيرين، وهى القصة التى نظمها فيما بعد نظامى الگنجوى (متوفى ٦٠٤ هـ) تحت عنوان "خسرو وشيرين"، وقصة زال ورودابه، وقصة بيثرن ومنيثره، وقصة رستم وتهمينه، ونظم العنصرى قصصاً أخرى كقصة "وامق وعذرا"، وهى قصة قديمة من بقايا العصر الساسانى، وقد نظمها فى البحر المتقارب، وقصة "خنگ بت وسخ بت"، وهى قصة كانت معروفة عن صنمين فى باميان ببلخ، وقصة " شاد بهر وعين الحياة".

وفى ختام النصف الأول من القرن الخامس نظمت قصة "ويس ورامين"، وهى إحدى قصص إيران القديمة، وقد نظمها الشاعر فخر الدين أسعد الگرگانى (متوفى ٤٦٦ هـ) عن متن قريب من الأصل الپهلوى فى بحر الهزج المسدس.

(هـ) الحكم والمواعظ: نال النظم فى هذا الموضوع اهتماماً كبيراً من الشعراء الفرس، وقد نظم فيه الشعراء أول ما نظموا فى أوائل القرن الرابع، وأول من اهتم بالنظم فيه الرودكى، ومازالت فى بقايا شعره الموجود بين أيدينا بعض القطع فى الوعظ والحكمة، والواقع أن كليلة ودمنة التى نظمها شعراً ما هى إلا منظومة حكمية أخلاقية، كما برع فى هذا الموضوع أيضاً شعراء آخرون مثل الشهيد البلخى والدقيقى وأبى شكور البلخى صاحب المنظومة الحكمية "آفرين نامه". كذلك تمتلئ الشاهنامة بالنصائح والمواعظ كما سبق أن ذكرنا، رغم أنها منظومة حماسية. وأهم أقسامها الحكمية نصائح بزر جمهور ومجالس أنو شروان معه، كما ترى النصائح فى ختام حكايات الملوك والأبطال.

ويعتبر الكسائى المروزى (متوفى ٣٩١ هـ) أول من نظم قصائد كاملة فى الوعظ والحكمة، وقد مهد بذلك السبيل لظهور شاعر العصر السلجوقى المشهور ناصر خسرو القباديانى (متوفى ٤٨١ هـ)، الذى نظم قسماً كبيراً من أشعاره فى هذا الموضوع.

الأجناس الشعرية عند الفرس:

١- القصيدة :

للقصيدة فى الشعر الفارسى نفس المنزلة التى لها عند العرب، وقد أنشد الفرس قصائدهم على غرار القصائد العربية، ملتزمين فيها بالوزن ووحدة القافية، إلا أنهم جعلوا الحد الأدنى لعدد أبياتها بين الثلاثة عشر بيتاً وبين العشرين، ولم يضعوا حداً أقصى لعدد أبياتها، وقد تتجاوز بعض القصائد عندهم مائتين من الأبيات.

ويقول شمس قيس الرازى فى كتابه "المعجم فى معايير أشعار العجم": " إذا زادت الأبيات عن خمسة عشر أو ستة عشر تسمى قصيدة، وإن كانت أقل من ذلك تسمى قطعة، ويلزم فى القصائد الفارسية أن يكون المطلع مصرعًا، أى أن تكون قافية كلا المصراعين متحدة فى الحروف والحركات وإلا سميت بالقطعة حتى ولو زادت عن العشرين بيتًا"، ويقول أيضًا "اشتقاق القصيدة من القصد وهو التوجه إلى شىء أو مكان، والمقصود هو محل قصد الناس بالطلب والتحصيل والقول والفعل، ومعنى ذلك أن القصيدة هى مقصود الشاعر لإيراد المعانى المختلفة والأوصاف المتنوعة من مدح وهجاء وشكر وشكوى وغير ذلك، والهاء فى آخرها للدلالة على وحدتها مثل شعير وشعيرة وذبيح وذبيحة"[١].

وقد تكون القصيدة الفارسية فى المدح أو الهجاء أو الحماسة أو الرثاء أو الوعظ أو الشكوى، وهى تقسم بحسب موضوعها إلى الأقسام التالية:

(أ) مديحة : إذا قصد منها المديح.

(ب) هجوية : إذا قصد منها الهجاء.

(جـ) مرثية : إذا قصد منها الرثاء.

(د) حكمية : إذا قصد منها الفلسفة والحكمة.

(هـ) ربيعية : إذا قصد بها وصف الربيع.

(و) شتائية : إذا قصد بها وصف الشتاء.

(ز) خزانية : إذا قصد بها وصف الخريف.

(ح) مناظرة : إذا قصد منها المناظرة.

---

(١) المعجم ص ٢٠١.

(ط) السؤال والجواب : إذا نظمت القصيدة على طريق محادثة بصورة السؤال والجواب[١].

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الفرس قد تأثروا تأثرًا كبيرًا بالطريقة التى كان ينشد العرب بها قصائدهم، وخاصة قصائد المديح التى كانت تبدأ بالنسيب والوقوف على الأطلال ثم ينتقلون بعد ذلك إلى المديح، فإن البيئة العربية وحياة البادية والرحيل والانتقال المتواصل من مكان لآخر، كل ذلك كان يثير فى نفوس الشعراء مزيدًا من الشوق والحنين إلى الأحباب الذين ارتحلوا عنهم، فيذكر الشاعر كل ذلك فى مطلع قصيدته مشيرًا إلى الأطلال والدمن والمساكن المهجورة.

وقد اتبع الفرس هذه الطريقة فى إنشاء قصائدهم، فأخذ بعضهم يبدؤها بالنسيب والبكاء على الأطلال، بل أخذ بعضهم يذكر كثيرًا من الأماكن التى ذكرها الشعراء العرب فى قصائدهم وكثيرًا من معشوقات العرب وبعض الجمل والعبارات العربية مقتبسًا إياها من القصائد العربية الشهيرة، بل قد ينظم الشاعر منهم قصيدته على وزن إحدى هذه القصائد. وخير من يمثل هذا الاتجاه الشاعر منوچهرى الدامغانى شاعر القرن الخامس الهجرى ومعزى شاعر القرن السادس الهجرى، وغيرهما من الشعراء الفرس.

ومن هنا نرى أن قصائد المديح الفارسية سارت على منوال القصائد العربية، فأخذ الشاعر يبدؤها بالنسيب وذكر الأطلال والرحيل حتى يصل إلى بيت الانتقال ويسمى بالفارسية " گريزگاه"، فينتقل إلى الموضوع الأصلى وهو المدح ويشير بعد ذلك إلى طلبه بلطف فى "بيت الطلب" ثم يفرغ من قصيدته بما يسمونه "بيت المقطع". والقصيدة الفارسية التى لاتبدأ بالتشبيب تسمى القصيدة " المحدودة" أو " المقتضبة".

---

(١) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى للسعدى، ص ٣٠- ادوارد براون - ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى - مصر ١٣٧٣ هـ- ١٩٥٤م.

ولما كانت القصيدة هى أهم أنواع النظم، فقد وضع لها الفرس بعض الخصائص والقواعد التى يسير عليها الشاعر ليصل بمنظومته إلى درجة الجودة، ومن هذه المحسنات:

(أ) أن تكون القصيدة مصرعة: أى أن يراعى الشاعر تقفية مصراعى البيت الأول من قصيدته.

(ب) حسن المطلع: أى أن يكون مطلع القصيدة سهلا، عذب الألفاظ، مما يجعل المستمع يميل إلى سماع بقية القصيدة.

(جـ) حسن التخلص : وهو الخروج من النسيب إلى موضوع القصيدة الرئيسى بطريقة حسنة لطيفة.

(د) حسن الاعتذار: وفيه يعتذر الشاعر بطريقة لطيفة عن قصور مدحه وعلو مقام الممدوح.

(هـ) الشريطة: وهى ختم القصيدة بالدعاء ، وفى القصائد الفارسية يدعو الشاعر للممدوح بدوام بقائه فى شكل الشرط؛ فمثلاً يتمنى خلوده طالما استمر طلوع الشمس وغروبها، وتتابع الليل والنهار.

(و) حسن المقطع: وهو أن يختم الشاعر قصيدته بأجود المعانى وأحسنها، وأعذب الألفاظ، لأن آخر أبياتها هو آخر ما يبقى فى الأسماع.

٢- القطعة :

هى كما يدل عليها اسمها عبارة عن قطعة من قصيدة كاملة انفصلت عنها لسبب من الأسباب، وقد تكون أيضًا جزءًا من قصيدة لم يقدر لها أن تكتمل، كما قد تكون وحدة قائمة بذاتها أنشأها الشاعر من البداية ليصوغ منها غرضًا من الأغراض، فلما سجله فيها تركها على حالها ولم يفكر مطلقًا فى أن يضيف إليها أبياتًا أخرى، وفى

كثير من الأحيان يدل أسلوب القطعة وموضوعها على أن الشاعر قصد بها منذ البداية أن تكون وحدة قائمة بذاتها[1].

ويجب ألا تقل القطعة عن بيتين، ومن الشعراء الفرس الذين أنشدوا قطعًا فارسية بالإضافة إلى قصائدهم الطويلة: الرودكي وسنائي (متوفى سنة ٥٤٥ هـ) وسعدى الشيرازي وغيرهم.

والقطعة موجودة في الشعر العربي أيضًا، والواقع أن الشاعر يحتاج إلى نظمها كما يحتاج إلى نظم القصائد الطويلة، ويقول ابن رشيق في هذا :" وقال بعض العلماء: يحتاج الشاعر إلى القطع حاجته إلى الطوال، بل هو عند المحاضرات والمنازعات والتمثل والملح أحوج إليها منه إلى الطوال.."[2].

٣- المسمط :

"المسمط عبارة عن مصطلح عام يشمل جميع أنواع القصائد المركبة، واشتقاق التسميط من السمط وهو: أن تجمع عدة سلوك في ياقوته أو خرزة ما، ثم تنظم كل سلك منها على حدته باللؤلؤ يسيرًا، ثم تجمع السلوك كلها في زبرجدة أو شبهها .. ثم تنظم أيضًا كل سلك على حدته. وتصنع به كما صنعت أولا إلى أن يتم السمط".[3]

هذا من الناحية اللغوية، أما من الناحية الاصطلاحية فالمسمط عند العرب: " هو أن يأتي الشاعر بخمسة أبيات على قافية، ثم يأتي ببيت على غير تلك القافية، ثم يأتي

---

(١) تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي للسعدي، ص ٢٧.

(٢) العمدة، جـ ١ ص ١٨٧- مصر ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣م.

(٣) العمدة، جـ ١ ص ١٨٠.

بخمسة أبيات على قافية أخرى، ثم يعود فيأتى على قافية البيت الأول وكذلك إلى آخر الشعر"[1].

ولا يقتصر التسميط على هذا النوع السابق، بل هناك أنواع أخرى ذكرها ابن رشيق عندما قال[2]: ومن الشعر جنس كله مصرع، إلا أنه مختلف الأنواع، وأنا منبه عليه.. فمن ذلك الشعر المسمط، وهو : أن يبتدئ الشاعر ببيت مصرع، ثم يأتى بأربعة أقسمة على غير قافيته، ثم يعيد قسيمًا واحدًا من جنس ما ابتدأ به، وهكذا إلى آخر القصيدة ومثال ذلك قول امرىء القيس، وقيل إنها منحولة :

توهمت من هند معالم أطلال	عفاهن طول الدهر فى الزمن الخالى
مرابع من هند خلت ومصايف	يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف	وكل مسف ثم آخر رادف

بأسحم من نوء السماكين هطال

وهكذا يأتى بأربعة أقسمة على أى قافية شاء، ثم يكرر قسيمًا على قافية الكلام، وربما كان المسمط بأقل من أربعة أقسمة، وربما جاءوا بأوله أبياتًا خمسة على شرطهم فى الأقسمة، وهو المتعارف، أو أربعة، ثم يأتون بعد ذلك بأربعة أقسمة.

وقد ذكر البعض[3] مثالاً آخر لأمرئ القيس إذ يقول:

---

(١) نقد النثر، ص ٦٤– قدامة بن جعفر – القاهرة ١٣٥١ هـ – ١٩٣٣م.

(٢) العمدة، جـ١ ص ١٧٨.

(٣) تاريخ أدبيات إيران أز قد يمترين عصر تاريخى تا عصر حاضر - جلال الدين همائى - چاپ دوم - تهران ١٣٤٠ هـ ش - جلد أول ص ٦٦.

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله　　　أقمت بعضب ذى سفاسق ميله

فجعت به في ملتقى الحي خيله　　　تركت عتاق الطير تحجل حوله

كأن على أثوابه نضح جريال

فإن صحت هذه النماذج من هذا الشعر المسمط لأمرئ القيس فيمكننا أن نقول إن الشعر المسمط كان معروفًا لدى العرب قبل الفرس، وإن الفرس قد اقتبسوا هذا النوع من الشعر كما اقتبسوا نظام القصيدة أو غيرها.

وإذا كنا قد لاحظنا وجود عدة أنواع للمسمط عند العرب، فإننا نلاحظ ذلك أيضًا عند الفرس، وأول تلك الأنواع هو أن يقسم الشاعر قصيدته إلى أجزاء أو شطرات تتفق أوائلها فى الروى وأما أواخرها فتكون موافقة لنظائرها فى القصيدة كلها، وقد اتخذ المسمط الفارسى طريقًا آخر غير هذا الطريق منذ القرن الخامس الهجرى، وتطور على يد بعض الشعراء مثل منوچهرى الدامغانى ولامعى الگرگانى (من شعراء القرن الخامس الهجرى) ، وأخذ الشعراء ينظمون مسمطًا يتكون كل قسم فيه من أربعة أو خمسة أو ستة مصاريع، ولكل المصاريع قافية واحدة ما عدا المصراع الأخير، والمصاريع الأخيرة فى كل قسم تتفق فى القافية مع غيرها حتى آخر المسمط وأخذوا يطلقون على المسمط أسماء أخرى طبقًا لعدد المصاريع التى يتكون منها مثل المربع أو المخمس أو المسدس.

وهناك نوع آخر من المسمطات للشاعر منوچهرى الدامغانى تتفق فيه كل ستة مصاريع فى قافية واحدة، وتختلف عن الستة مصاريع التالية لها.

٤٣- الغزل :

الغزل اصطلاحًا عبارة عن منظومة قصيرة تتراوح أبياتها بين سبعة أبيات وخمسة عشر بيتًا فى الغالب، وهى تشبه القصيدة من نواح كثيرة، فلابد أن يكون مطلعها مصرعًا ، وأن تسير على قافية واحدة.

ويختلف الغزل عن القصيدة فى الموضوع والتخلص، فموضوع القصيدة يتعلق غالبا بالمديح أو الهجاء أو التعليم أو الفلسفة أو الدين، أما الغزل فهو لايتعلق إلا بموضوع غزلى أو صوفي، ويلتزم الشاعر فيه بذكر لقبه الشعرى أو تخلصه، كما يقول الفرس، فى البيت الأخير منه، ولعلهم لجأوا إلى ذلك ليجعلوا أشعارهم فى مأمن من أن يسطو عليها الغير فيدعيها لنفسه، أو لعلها طريقة فارسية امتاز بها الشعر الفارسى وصارت بعد ذلك من خصائصه وميزاته.

والغزل أو التشبيب موجود عند العرب سواء فى مطالع قصائد المديح أو فى قصائد مستقلة كما نجد عند كُثير وعمر بن أبى ربيعة وجميل وغيرهم، ويمكن أن يكون الفرس قد اقتبسوا نظم قصائد مستقلة فى الغزل عن العرب، فقد تأثروا بالقصيدة الغنائية عند العرب عمومًا، إلا أنهم جعلوا للغزل هذا الطابع المميز الذى يمتاز به، وجعلوه محددا فى عدد الأبيات وبالتخلص فى آخره، وهذه الطريقة لم تكن موجودة عند العرب.

وممن اشتهر بين شعراء الفرس بنظم الغزليات سعدى الشيرازى وحافظ الشيرازى وجلال الدين الرومى وغيرهم، وقد مر الغزل عند الفرس بمراحل متعددة حتى اكتمل على يدى سعدى وحافظ، فكان يعيش فى العصور الأولى للشعر الفارسى فى كنف شعر المديح، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يوجد شعر مستقل فى الغزل فى تلك العصور، لأن الأدب يقتضى وجود شعر غنائى فى كل عصر، غير أنه لم يكن بالصورة المحددة التى ظهرت فيها بعد.

والمعروف أن كثيرًا من الشعراء الفرس القدامى قد اشتهروا بهذا الفن الشعرى، ونذكر من هؤلاء الرودكى.

تطور الشعر الفارسى بعد ذلك واستقل الغزل، فأصبح له نظامه الخاص، وتكونت طبقة من الشعراء الذين جعلوا هذا الفن حرفتهم ومهنتهم الخاصة، فاعتنوا به أكثر من غيره من الفنون. والواقع أن الغزل بدأ يستقل منذ عصر السلاجقة أى منذ ظهور

التصوف وتغلبه على الأفكار، ونبغ فى هذا النوع الشعرى لفيف من الشعراء كسنائى أحد شعراء القرن السادس الهجرى، والعطار من شعراء القرن السادس وأوائل السابع، وغيرهما.

ومن أعلام الغزل الفارسى فى العصر المغولى سعدى الشيرازى (متوفى ٦٩١ هـ) وعدد غزلياته كبير جدا، وتنقسم إلى أربعة أقسام هى: الغزليات والطيبات والبدايع والخواتيم، ولاننسى أن نقول إن لسعدى غزليات من الأسلوب الملمع أى المنظوم باللغتين العربية والفارسية.

كما أن الغزل قد بلغ مبلغًا كبيراً على يد الشاعر حافظ الشيرازى الذى تميز عن بقية شعراء الغزل بالتفكير الفلسفى، فكأنه أوجد نوعًا خاصا من الغزل يمكن أن نطلق عليه الغزل الفلسفى، أما من ناحية الأسلوب فقد كان حافظ يتوخى فى غزلياته السلاسة فى العبارة، وحسن التشبيه والتمثيل، كما كان يستخدم الصناعات اللفظية دون تكلف، مما جعله يحرز نجاحًا وسبقًا لم يتح لغيره.

٥- الترجيح بند والتركيب بند :

هما من أنواع القصائد التى اخترعها الفرس فى محاولة للتخلص من قيود القافية التى وضعها العرب كشرط من شروط إنشاء القصيدة، ويشبه التركيب بند والترجيع بند والمستزاد ما ظهر بعد ذلك فى العربية فى المغرب والأندلس تحت اسم الموشحات.

والنوعان عبارة عن قصائد تشتمل كل واحدة منها على عدد من الوحدات تكون فى العادة متساوية فى عدد أبياتها، وتكون كل واحدة منها على قافية واحدة، ويفصل بين الوحدة والأخرى بيت مستقل من الشعر ليبين لنا نهاية الوحدة التى سبقته وبداية الوحدة التى تليه، فإذا تكرر بيت بعينه بعد نهاية كل وحدة (بند) فإن المنظومة تسمى بـ "الترجيع بند"، أما إذا وردت أبيات مختلفة بعد نهاية الوحدات وكانت هذه الأبيات

متفقة القافية مع بعضها ومختلفة عن سائر الوحدات فإن المنظومة تسمى فى هذه الحالة بـ " التركيب بند "، ويجب أن تجرى المنظومة من هذين النوعين على وزن واحد فى جميع أبياتها[1].

٦- المستزاد :

هو من أنواع النظم الفارسية، إلا أن البعض لايعتبره نوعًا مستقلا من أنواع الشعر، وإنما يدخله ضمن أنواع التفنن والصنعة فى الشعر.

والمستزاد عبارة عن رباعية أو غزلية أو قصيدة بعد نهاية كل مصراع من مصاريعها زائدة موزونة ولا يستلزمها المعنى أو الوزن، وهذه الزوائد تقفى مع بعضها ويكون معناها متصلاً بحيث يمكن اعتبارها قصيدة منفصلة قائمة بذاتها، ويجب ملاحظة أن معنى القصيدة وكذلك قافيتها تتوافران بغير هذه الزيادات، وأنه ليس من الضرورى أن تبنى القصائد المركبة أو المستزادة على منظومة أخرى سابقة، فلقد أنشأت بعض القصائد أساسًا فى ضرب أو آخر من هذه الضروب، ومن محاولة النظم على هذا الأسلوب فى العربية قول الحريرى:[2]

يا خاطب الدنيا الدنية	إنهـــا شـــرك الردى	وقـــــرارة الأقــــــدار
دار متى ما أضحكت	فى يومها أبكت غدًا	يا لؤمـــهــــا من دار

(١) انظر : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى للسعدى ص ٥٣، ٥٤.

(٢) انظر : دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى - دكتور محمد نور الدين عبد المنعم - القاهرة ١٩٨٦، م ص ١٣٤.

٧- الرباعى:

من تصرفات الفرس فى الأوزان العربية، وزن الرباعى الذى استخرجوه من بحر الهزج واشتقوا منه أربعة وعشرين ضرباً. وهو عبارة عن بيتين من الشعر ولذلك سمى فى الفارسية باسم "دوبيت"، كما سمى بالرباعى لأنه يتكون من أربع شطرات.

ويجب أن يكون الرباعى على وزن من الأوزان المستخرجة من الهزج، وأن تقفى مصاريعه الأول والثانى والرابع مع بعضها، بينما يكون المصراع الثالث مقفى مع هذه المصاريع أو لا يكون كما هو الغالب والأعم.

ويعد الرباعى الذى أطلق عليه العديد من الأسماء مثل: "ترانه" و"دوبيتى" و"دو بيت"، و " و"چهار بيتى" و" چهار كانى" من الأنواع المهمة فى الشعر الفارسى، ويعتقد البعض أنه من أصعب أجناس الشعر، ذلك لأن الشاعر يضمن تلك الشطرات الأربع فكرة معينة ومعنى جديداً، بالإضافة إلى أنه مقيد بوزن خاص، فكأنه يضع بحراً فى إناء صغير. والقالب المعتاد لهذا الوزن هو جملة " لا حول ولا قوة إلا بالله" وهى فى اصطلاح العروض من زحافات بحر الهزج المثمن.

ويفرق البعض بين الرباعى والدوبيتى بقوله: إن الرباعى هو ما كان من أربعة مصاريع منظومة على أحد الأوزان المخصوصة من فروع بحر الهزج وهى أربعة وعشرون فرعًا، وإذا كانت هذه المصاريع الأربعة على وزن آخر سميت بالدوبيتى[١].

وأقدم الرباعيات المنظومة بالعربية ما ذكره صاحب "دمية القصر" إذ قال إن أباه كان يردد على مسمعه عدة رباعيات بالعربية[٢]. ومن الواضح أن هذا الجنس لم يكن

---

(١) تاريخ أدبيات إيران أز قد يمترين عصر تاريخى تا عصر حاضر - جلد أول ص ٦٢.

(٢) انظر : دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى ص ٢٤٢.

موجوداً عند العرب قديماً وإنما انتقل إليهم عن طريق الفرس، ومع ذلك فنماذجه قليلة نادرة. ومن شعراء الرباعيات فى الفارسية الرودكى وأبو سعيد بن أبى الخير (متوفى سنة ٤٤٠ هـ) وعمر الخيام وغيرهم.

٨- المثنوى :

هو من أجناس الشعر الشائعة فى الفارسية، والتى حاول الفرس فيها التخلص من قيود القافية، إذ أن القافية فيه تكون فى شطرى البيت الواحد، وتتغير بعد ذلك بتغير الأبيات، وقد أولع به شعراء الفرس فنظموا فيه المنظومات القصصية الطويلة التى تتناول قصص البطولة أو مسائل الأخلاق والتصوف، ومن أقدم أبيات المثنوى ماتجده متفرقًا فى كتاب "لغت فرس" لأسدى الطوسى لبعض الشعراء مثل أبى شكور البلخى والرودكى وغيرهما.

وأول منظومة طويلة تنظم فى هذا الشكل بين أيدينا هى الشاهنامة التى بدأها الدقيقى، وقد نظم منها ألف بيت فى قصة الملك گشتاسب وظهور زرادشت وأكملها الفردوسى فيما بعد، فوصلت إلى حوالى ستين ألف بيت، وتأتى بعدها منظومة " يوسف وزليخا" التى تنسب إلى الفردوسى، والمنظومتان على وزن المتقارب، ومن منظومات المثنوى التى وصلت إلى أيدينا منظومتا "روشنائى نامه" أو كتاب الضياء. و "سعاد تنامه" أو كتاب السعادة، وهما من مؤلفات ناصر خسرو، والمنظومة الأولى عبارة عن مثنوية تشتمل على ٥٧٩ بيتًا فى بحر الهزج المسدس، وقد أنشأها الشاعر فى سنة ٤٤٠ هـ، وتشتمل المنظومة الثانية على ٢٨٧ بيتًا، ويجب الإشارة إلى أن كلا من هذين الكتابين عبارة عن مثنوية تعليمية أخلاقية.

وتأتى بعد ذلك قصة "ويس ورامين" وهى مثنوية نظمها الشاعر فخر الدين أسعد الجرجانى وهو من شعراء آل سلجوق، وقد نظمها فى سنة ٤٤٠ هـ عقب تغلب طغرلبگ على

الرومان، وأهداها الشاعر لوزير هذا السلطان المسمى بـ "أمين الدين أبى الفتح النيسابورى".

والمعروف أن المثنوى قد ينظم على بحور أخرى غير المتقارب والهزج منها مثلا: الخفيف والرمل. ومن المثنويات التى بقيت أيضًا منظومة سنائى المسماه بـ " حديقة الحقيقة " وهى مثنوية أخلاقية أكثر منها صوفية، ويبلغ عدد أبياتها أحد عشر ألف بيت، وهى على وزن الخفيف المسدس المشعث المقصور، وقد أهداها الشاعر إلى بهرامشاه سلطان غزنه، ولاننسى ذكر مثنوية " تحفة العراقين" للشاعر خاقانى (متوفى سنة ٥٩٥ هـ) التى يصف فيها حجه إلى مكة المكرمة، ومثنويات نظامى الگنجوى المسماة بخمسة نظامى، وهى: مخزن الأسرار، وخسرو وشيرين، وليلي والمجنون، واسكندر نامه، وهفت پيكر.

وهناك رأيان بشأن نشأة هذا الجنس الشعرى، أحدهما أنه فارسى النشأة والثانى أنه عربى النشأة. ويؤيد الرأى الأول وجود قطعة أدبية من الأدب الإيرانى القديم كان يظن أنها مكتوبة بالنثر، إلا أنه اكتشف فيما بعد أنها ذات وزن وقافية، وهذا الوزن قريب من المتقارب المثنوى، وهى بعنوان "درخت أسوريك" أى الشجرة الآشورية، وموضوعها حوار بين الشجرة والعنزة أيهما أفضل من الأخرى.

والمعروف أن العرب قد عرفوا هذا النوع من النظم تحت اسم "المزدوج" فقد ذكره صاحب "نقد النثر" فقال فى حديثه عن أقسام الشعر[1]: "ومنه المزدوج وهو ما أتى على قافيتين إلى آخر القصيدة، وأكثر ما يأتى على وزن الرجز".

ويقول أصحاب الرأى الثانى إنه من الجائز أن يكون الشعر المزدوج قد نشأ فى الشعر العربى كمحاكاة لمطالع القصائد والأبيات المصرعة ، ومحاكاة

---

(١) نقد النثر – قدامة بن جعفر – القاهرة ١٣٥١ هـ ص ٦٥.

لشطور الرجز مع تغيير في الروى في شطرين بعد شطرين ، والملاحظ أن الفرس استعملوا هذا الجنس من النظم منذ زمن متأخر تخلصًا من قيود القافية التي وضعها العرب، ومازال الفرس ينظمون فيه حتى الآن، ولم يعطه العرب الاهتمام الذي أولوه لغيره من أجناس الشعر. ومن أقدم النماذج العربية للمزدوج ماذكره صاحب "يتيمة الدهر"، ومنها مزدوجة لأبى الفضل السكرى المروزى ترجم فيها أمثالاً فارسية، منها هذه الأبيات:(١)

من رام طمس الشمس جهلا أخطا	الشمس بالتطين لا تغطى
أحسن ما صفة الليل وجد	الليل حبلى ليس يدرى ما يلد
من مثل الفرس ذوى الأبصار	الثوب رهن فى يد القصار
إن البعير يبغض الخشاشا	لكنه فى أنفه ما عاشا

ونذكر أيضًا بعض الأبيات من أرجوزة أبى العتاهية المزدوجة المعروفة بذات الأمثال:(٢)

حسبك مما تبتغيه القوت	ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا	من اتقى الله رجا وخافا
إن كان لا يغنيك ما يكفيكا	فكل ما فى الأرض لا يغنيكا
إن القليل بالقليل يكثر	إن الصفا بالقذى ليكدر
هى المقادير فلمنى أو فذر	إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر

(١) يتيمة الدهر - أبو منصور الثعالبى - دمشق ١٣٠٣ هـ جـ ٤ ص ٢٢.

(٢) الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية - بيروت ١٨٨٦م ص ٣٤٦.

وقد نظمت أيضًا بالمثنوى فى العربية بعض القصص مثل كتاب : "كليلة ودمنة" لأبان بن عبد الحميد بن لاحق، و " الصادح والباغم" للشريف بن الهبارية المتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى، وفى التاريخ أرجوزة ابن عبد ربه (٢٤٦-٣٢٧ هـ) فى غزوات عبد الرحمن الناصر، وفى العلوم كالألفية فى النحو.[١]

وقد مهد هذا النوع من الشعر السبيل أمام شعراء الفرس كى يتناولوا الموضوعات الطويلة وخاصة الموضوعات القصصية والتعليمية والملاحظ أن المثنوى العربى اقتصر فى وزنه على بحر واحد هو الرجز المسدس، بينما تفنن المثنوى الفارسى فى استعمال بحور متعددة تجمعها صفة واحدة هى خفة الوزن وسهولته.

نموذج لتأثير الثقافة العربية والإسلامية فى الشعر الفارسى الإسلامى:

الشاعر منوچهرى الدامغانى:

هو أبو النجم أحمد بن قوص بن أحمد منوچهرى الدامغانى، الذى يعد من كبار شعراء اللغة الفارسية، وهو صاحب قريحة فذة وأسلوب جميل، جعله محط أنظار الملوك والأمراء فى عصره وحياته، وموضع دراسة وبحث فى عصرنا وبعد مماته، وقد عاش منوچهرى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، وتاريخ مولده مجهول إلا أنه توفى فى شبابه سنة ٤٣٢ هـ، وقد أخذ اسمه من فلك المعالى منوچهر بن شمس المعالى قابوس بن وشمگير بن زيار الديلمى (٤٠٣- ٤٢٣ هـ) الذى كان يحكم فى جرجان وطبرستان، وعاش فى بلاطه حتى وفاة هذا الأمير. وبعد أن توفى فلك المعالى انتقل شاعرنا من مازندران أو غيرها إلى الرى، وهناك مدح على بن عمران وطاهر الكاتب عميد العراق، ثم اتَّجه بعد ذلك إلى بلاط السلطان مسعود تلبية

---

(١) انظر كتاب " حافظ الشيرازى شاعر الغزل والغناء فى إيران " د. إبراهيم الشواربى، مصر ١٩٤٤م ص ٢٦٧.

لرغبة الأخير، وعلى أمل أن ينال مساعدة وزير مثل أحمد بن عبد الصمد الذى كان من أكفأ الرجال والكتاب المشهورين فى بلاط مسعود، كما أنه كان أديبًا محبا للشعر وراعيًا لأهله.

ويعتبر منوچهرى الدامغانى من النماذج الفريدة التى يتجلى فى شعرها بوضوح الأثر العربى والإسلامى ومدى تأثر الشعر الفارسى بالشعر العربى وأفكاره وصوره، ولايستطيع أحد أن ينكر ذلك التأثر فى شعره، ففى كل قصيدة له فكرة أخذها، أو قافية ووزن استعارهما، أو معانى وألفاظ اقتبسها من الأشعار العربية، كما تتناثر هنا وهناك فى ديوانه أسماء الشعراء العرب بكثرة حتى غدت بعض قصائده فهرسًا لأسمائهم، بل إن الطيور التى يتحدث عنها منوچهرى لاتغنى ولاتترنم إلا بالأشعار العربية.

كل هذا التأثير لا يعد عيبا من العيوب، وإنما هو خبرة ودراية واسعة بالأشعار العربية، جعلته يضعها نصب عينيه كنماذج جيدة يحتذيها، لأنه يفضلها على غيرها، ويتمنى أن يصل إلى مكانة العرب فى قول الشعر، فنجده يقول مثلا (قصيدة ٢٨) : [1].

- فليهبنى الله وأنا أنظم الشعر فى مدحك،

قلب بشار وطبع ابن مقبل.

ولابد أن نتساءل هنا: لماذا اتجه منوچهرى إلى الاقتباس الكثير من العربية وآدابها أكثر من زملائه المعاصرين له على الأقل؟ ويعلل ذلك بسببين رئيسيين: أحدهما أن منوچهرى كانت لديه معرفة عميقة بالشعر العربى ورغبة فى اقتدائه وتقليده، ونجده

---

(١) دهاد ايزد مرا در نظم شعرت — دل بشار وطبع ابن مقبل

دائمًا يفخر بتفوقه فى هذه الناحية، ويعيب على غيره عدم خبرته ودرايته بالأشعار العربية مما يعد نقصًا فى الشاعر (قصيدة ٣٤):[١]

- إننى أحفظ كثيراً من دواوين أشعار العرب ،

وأنت لاتستطيع قراءة : ألا هبى بصحنك فاصبحينا .

والسبب الآخر هو أن منوچهرى كان شاعراً شابا يريد أن يخطو بخطى واسعة وسريعة فى الحياة، ويتقدم على غيره من الشعراء الكبار الذين كان لهم نفوذ ومقام كبير فى البلاط الغزنوى آنذاك، فسلك سبيل الاقتباس من اللغة العربية وآدابها، واستعمل المهجور من ألفاظها، فأظهر براعة فائقة مما حقق له ما كان يرجوه ووقف يدافع عن نفسه أمام حاسديه والحاقدين عليه وعلى تقدمه، ومثال ذلك قوله (قصيدة ٣٤):[٢]

- لقد حسدنى الحساد وأنا وحيد هكذا ،

فانصف المظلومين يا عز أمير المؤمنين.

ونلاحظ من النماذج المقتبسة من الأشعار العربية أن منوچهرى تأثر بالمعلقات الجاهلية وخصوصًا معلقة امرئ القيس، كما تأثر بشعر أبى نواس والمتنبى، ويمكن القول أن منوچهرى قد تأثر بتلك المدرسة التى كان يتزعمها ابن المعتز (٢٤٧-٢٩٦ هـ) فى كثرة إيراد التشبيهات والاستعارات وغير ذلك من فنون البديع والبيان فى الشعر.

---

(١) من بسى ديوان شعر تازيان دارم زبر	تو ندانى خواند : ألا هبى بصحنك فاصبحين

(٢) حاسدان بر من حسد كردند ومن فردم چنين	داد مظلومان بده اى عز مير مؤمنين

وقد يعيب البعض على منوچهرى استعماله للكلمات العربية المهجورة، ولكن هذا العيب يتلاشى ويتضاءل أمام تشبيهاته وصوره البيانية الرائعة، وإنما كان ذلك لبيان مقدرته وتمكنه من اللغة العربية قديمها وحديثها.

وقد كانت الطريقة المتبعة فى إنشاء قصائد المديح لدى شعراء الفرس هى أن تبدأ بوصف الطبيعة أو أحد فصول السنة، ثم يخرج الشاعر من هذا إلى مدح الممدوح، ولكننا نرى البعض الآخر ممن تأثروا بالقصائد العربية - وخاصة الجاهلية منها ومنهم منوچهرى - يحاولون تقليد العرب فى الوقوف على الأطلال والبكاء عليها، وذكر المحبوبة وفراقه لها، ثم ينتقل إلى وصف الصحراء والناقة، ثم ينتهى بعد ذلك إلى مدح الممدوح، ويتضح هذا فى قصيدة منوچهرى (رقم ٢٨) التى يقول فى مطلعها:(١)

- ألا يأيها الخيام أنزل خيمتك، فقد تقدم دليل القافلة وخرج من المنزل.

ويتضح فى هذه القصيدة النهج أو النمط العربى الذى أخذ منوچهرى يقلده بدقة، فتبدأ قصيدته بوصف رحيله وفراقه لمحبوبته مما يؤثر فيها ويحزنها، ويستمر فى رحلته على نجيبه ويصفه بأنه كالشيطان أو العفريت الهائل، ثم يصف الصحراء وقسوتها وبرودتها، ويواصل سيره حتى يصل إلى مكان ممدوحه، فيأخذ فى مدحه ووصف محاسنه، ويشبه وصوله إلى ممدوحه بوصول الشاعر العربى أعشى باهلة إلى ممدوحه، ويدعو الله فى نهاية القصيدة بأن يهبه طبع بشار وابن مقبل فى نظم الشعر حتى يوفق فى مدح ممدوحه.

---

(١) ألا ياخيمگى خيمه فروهل   كه پيشاهنگ بيرون شد ز منزل

بعض الأفكار المقتبسة من الشعر العربى فى ديوانه:

ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن المعانى والأفكار والصور التى اقتبسها منوچهرى من الشعر العربى، ونضرب لذلك عدة أمثلة هى بالطبع وليدة اطلاعه على الشعر العربى بقسميه الجاهلى والإسلامى، وليست مجرد توارد أفكار عند شاعرين مختلفين فى اللغة والتعبير.

(أ) يقول فى قصيدة له (٢٨): [١]

- لقد صدق حكماء الزمان إذ قالوا:

إن العاقل يتحول إلى جاهل فى العشق

ويقول المتنبى فى مدح سيف الدولة:[٢]

إلام طماعية العاذل ولا رأى فى الحب للعاقل

(ب) يقول فى قصيدة له (٧٢): [٣]

- طرتاه ليلتان وخالاه مسكيان،

وكلهم ظلام فى ظلام فى ظلام.

---

(١) حكيمان زمانه راست گفتند كه جاهل گردد اندر عشق عاقل

(٢) انظر ديوان المتنبى - تحقيق الدكتور عبدالوهاب عزام - القاهرة ١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤م. ص ٢٥٨.

(٣) دو زلفش دو شب ودو خال مشكين ظلام أندر ظلام أندر ظلامست

وهناك بيت من الشعر لشاعر عربى ورد فى كتاب" حدائق السحر فى دقائق الشعر " لرشيد الدين الوطواط يقول فيه:[1]

فأحوالى وصدغك والليالى ظلام فى ظلام فى ظلام

وقال الشاعر محمود بن مسعود الأندخودى:[2]

لطرته وخالاه وحالى ليال فى ليال فى ليال
ومنطقه ومبسمه ودمعى لآل فى لآل فى لآل

(جـ) يقول فى قصيدة له (٢٨): [3]

- وصلت إلى جانب القافلة تماماً،

كما تصل السفينة إلى جوار الساحل.

ويشبه أبو نواس القافلة بالسفينة فى قوله:[4]

خف من المربد القطين وأقلقتهم نوى شطون
فاستفرغوا مشية المصلى كأن أظعانهم سفين

---

(١) حدائق السحر فى دقائق الشعر - رشيد الدين الوطواط - ترجمة إبراهيم أمين الشواربى القاهرة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م ص ١٧٨.

(٢) لباب الألباب - محمد عوفى - ليدن ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦م - جـ١ ص ٢٠٨.

(٣) رسيدم من فراز كاروان تنگ چو كشتى كو رسد نزديك ساحل

(٤) ديوان أبى نواس ص ٢٥٦ - مصر ١٨٩٨م.

(د) يقول فى قصيدة له (٥٤): [١]

- العظماء كقلادة من الخرز،

وأنت كالياقوتة في وسط هذا الخرز،

ويقول أبو نواس:[٢]

وإذا بنو العباس عد حصاهم فمحمد ياقوتها المستخلص

(هـ) ويقول فى قصيدة له (٢٣) يصف الحصان: [٣]

- هو كحجر أسقطه السيل من فوق جبل،

فأخذ يتدحرج من ناحية إلى أخرى ومن أعلى إلى أسفل.

وهذه الصورة تذكرنا بقول أمرئ القيس فى معلقته:[٤]

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل.

---

(١) بزركوا ران همچون قلادهء خرزند تو همچو ياقوت در ميانهء خرزى

(٢) ديوان أبى نواس ص ٤٢٣.

(٣) همچنان سنگى كه سيل أنرابگرداند زكوه گاه زانسو گاه زين سو گه فراز وگاه باز

(٤) شرح القصائد العشر - للإمام الخطيب التبريزى - طبعة صبيح ص ٤٠.

(و) ويقول فى قصيدة أخرى(٣):[١]

- وفى الصباح الباكر يرى فى الهواء قوس قزح، كأنه لباس ملكى.

- وعلى جسده خمس قطع من الديباج الملون وقد برز ذيل كل قطعة منها.

وهذا يشبه قول الأمير سيف الدولة فى وصف قوس قزح:[٢]

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا ... على الجو دكنا والحواشى على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأصفر ... على أحمر فى أخضر تحت مبيض

كأذيال خود أقبلت فى غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض

ويقول أبو نواس أيضا:[٣]

يباكرنا النوروز فى غلس الدجى ... بنور على الأغصان كالأنجم الزهر

يلوح كأعلام المطارف وشيه ... من الصفر فوق البيض والخضر والحمر

(ز) ويقول فى قصيدة له(٥):[٤]

---

(١) يا مداداان بر هوا قوس قزح ... بر مثال دا من شاهنشهى

پنج ديباى ملون بر تنش ... باز جسته دامن هر ديبهى

(٢) انظر لباب الألباب جـ ١ ص ٢٧.

(٣) ديوان أبى نواس ص ٢٢٢.

(٤) جرعه بر خاك همى ريزيم ازجام شراب ... جرعه برخاك همى ريزند مردان أديب

ناجوانمردى بسيار بود چون نبود ... خاك را از قدح مرد جوا نمرد نصيب

- نريق جرعة من كأس الشراب على الأرض،

فمن رسوم أهل الأدب أن يريقوا جرعة على الأرض دومًا،

- فيالشدة البخل حين لايكون للأرض نصيبها من قدح الكريم.

وهذا المعنى يذكرنا بقول بديع الزمان الهمذانى:(١)

شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة ... وللأرض من كـــأس الكرام نصـــيب

ومن مظاهر التأثير العربى فى شعر منوچهرى أنه أخذ ينظم بعض قصائده على وزن وقافية بعض القصائد العربية، ويذكر فى نهايتها بعض الأبيات العربية التى تشير إلى القصيدة التى نظم على وزنها؛ بل إنه أحيانًا يذكر اسم الشاعر العربى نفسه. ويشير فى بعض قصائده إلى بعض القصائد العربية المشهورة.

بعض المعانى المأخوذة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة:

(أ) يقول الشاعر

- لديك نعم كثيرة وشكرك عليها أكثر،

فكل من يشكر النعمة تزداد نعمه.

وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (سورة إبراهيم - آية ٧).

---

(١) أمثال وحكم - على أكبر دهخدا - طهران ١٣١٠، ص ٢١٨.

(ب) ويقول فى قصيدة له (٤٣):[١]

- ويوم غضبك لساعة واحدة يشبه ذلك اليوم الذى تطوى فيه السماء كطى السجل.

وذلك إشارة إلى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (سورة الأنبياء - آية ١٠٤).

(جـ) يقول فى قصيدة له (١١):[٢]

- إن ما أمرت به قد تم وما لم يعمل سيعمل، ومايجب أن يكون قد كان، جف القلم.

إشارة إلى الحديث الشريف: "جف القلم بما هو كائن إلى يوم الدين"[٣]

(د) يقول فى قصيدة له (٧):[٤]

- هو أفضل من كل خلق الدنيا بشيئين صغيرين،

نعم هو أفضل بأصغريه : قلبه ولسانه.

إشارة إلى الحديث الشريف: " المرء بأصغريه قلبه ولسانه".

---

(١) ماند بساعتى زيكى روز خشم تو أنروز كاسمان بنوردند همچو طى

(٢) رفته وفرمودنى مانده وفر سودنى بود همى بودنى كلك فرو ايستاد

(٣) انظر تعليقات دبير سياقى على ديوان منوچهرى ص ٢٤٢- تهران ١٣٢٦.

(٤) مهتر ز همه خلق جهان او بدو كوچك سيتر بدو كو چك بدلست وبز بانست

٢- النثـــر

كانت اللغة الشائعة فى عصر الساسانيين هى اللغة الفارسية الوسطى، والتى يطلق عليها أيضًا البهلوية أو البهلوية الساسانية. وقد ظلت هذه اللغة تستعمل كلغة دينية وعلمية وأدبية لفترة بعد انتشار الإسلام فى إيران لدى كل من ظل على دين أجداده من الإيرانيين، وباستعمال اللغة العربية أخذت هذه اللغة تضعف وتتوارى تدريجيا، وأخذت اللغة الفارسية الإسلامية - التى تكتب بحروف عربية - تشق طريقها وتفرض نفسها على الساحة الأدبية، وبهذا يبدأ عهد جديد فى الأدب الفارسى.

ولاشك أنه كانت للإيرانيين كتابات ومؤلفات منذ عهد زرادشت، ومنذ كتابة النقوش الهخامنشية وخاصة نقوش بيستون فى عهد داريوش وما تلاه، وظهرت بعد ذلك مؤلفات كثيرة كتبت بالفارسية الإسلامية فى القرون الأولى للإسلام، وقد فقد بعضها ولم يصل إلينا.

غير أن البداية الحقيقية للنثر الفارسى الإسلامى هى التى تبدأ فى القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) عندما حكمت الأسرة السامانية أجزاء كبيرة من المناطق الشرقية لإيران وحتى منطقة الرى. وقد أخذت هذه الأسرة على عاتقها إحياء اللغة الفارسية وآدابها، وشجعت الكتاب على تأليف الكتب بالنثر الفارسى الحديث. ووصلت إلينا مجموعة من المؤلفات التى تمتد على مدى قرن ونصف من الزمان، كما ضاعت مجموعة أخرى نتيجة عدم احتياج الناس إليها أحيانًا أو نتيجة الغزوات والحروب والاضطرابات أحيانًا أخرى.

ويمكن القول بأن العناية التى أولاها الحكام والأمراء للشعر والشعراء هى نفسها التى وجهوها للنثر وكتابه، وخاصة بالنسبة للمؤرخين ومؤلفى الكتب العلمية، وكانوا يغدقون الأموال والعطايا فى سبيل تأليف الكتب أو ترجمتها. وتعتبر قصة جمع شاهنامة أبى منصورى بأمر من أبى منصور محمد بن عبد الرزاق والمتاعب التى تحملها هو ووزيره فى هذا الصدد خير دليل على ذلك.

وكذلك تشجيع الأمير نصر بن أحمد على ترجمة كليلة ودمنة إلى الفارسية، وتشجيع الأمير منصور بن نوح على ترجمة تفسير وتاريخ الطبرى، وتشجيع علاء الدولة كاكويه على كتابة دانشنامه بالفارسية، وترجمة رسالة حى بن يقظان من العربية إلى الفارسية، وأمثال ذلك.

والمعروف أنه خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين تم وضع الأسس والمعايير التى يقوم عليها بناء النثر الفارسى، وكتبت عدة مؤلفات فى موضوعات مختلفة منها الموضوعات العلمية كالطب والصيدلة والفلك والرياضيات وغير ذلك، مما مهد السبيل أمام الكتاب فى العصور التالية. ويتميز النثر فى هذه الفترة بالسهولة والسلاسة والخلو من التعقيد والإبهام. كما بدأ تأثير اللغة العربية يظهر بوضوح فى تلك الفترة، إلا أن الكتاب - وخاصة ممن ألفوا فى الموضوعات العلمية - حاولوا وضع مصطلحات فارسية فى مقابل المصطلحات العلمية العربية، ومع هذاتظهر الألفاظ العربية بكثرة فى المتون الفارسية التى ترجمت عن العربية كما هو الحال فى ترجمة تاريخ الطبرى وتفسيره. ونلاحظ أن استعمال الألفاظ العربية فى الشعر الفارسى كان أكثر من استعمالها فى النثر الفارسى، وهذا أمر طبيعى حيث إن الشاعر يتعامل فى الشعر مع الوزن والقافية، فتكون حاجته إلى الألفاظ العربية أكبر.

وهناك مجموعة من المؤلفات الفارسية كتبت فى أوائل القرن الرابع ولم تصل إلى أيدينا، منها كتاب فى تفسير القرآن كتبه بالفارسية أبو على الجبائى فى القرن الثالث، وكتاب "المعالجة البقراطية" لأحمد بن محمد الطبرى، وبعض كتب الشاهنامات كشاهنامة أبى المؤيد البلخى، وشاهنامة أبى منصور محمد بن عبد الرزاق.

أما المؤلفات النثرية الباقية من القرنين الرابع والخامس فهى كثيرة نذكر منها على سبيل المثال :

(أ) رسالة فى أحكام الفقه الحنفى: ألفها أبو القاسم بن محمد السمرقندى (متوفى ٣٤٣هـ).

(ب) عجائب البلدان: وينسب إلى أبى المؤيد البلخى، ويتناول فيه مؤلفه عجائب البر والبحر، ويقال إنه ألفه لأبى القاسم نوح بن منصور الذى تولى السلطة عام ٣٦٥ هـ.

(جـ) تاريخ البلعمى: وهو ترجمة كتاب تاريخ الطبرى، إلا أن مؤلفه قد حذف وأضاف إليه لذلك ينسب إليه، وقد بدأ البلعمى وزير الأمير منصور بن نوح السامانى القيام بهذا العمل بأمر من ذلك الحاكم سنة ٣٥٢ هـ.

(د) ترجمة تفسير الطبرى: وهذا الكتاب ترجمة لكتاب " جامع البيان فى تفسير القرآن " لمحمد بن جرير الطبرى.

(هـ) كتاب البارع: وهو مدخل من أحكام النجوم من تأليف أبى نصر حسن بن على المنجم القمى، ألف حوالى سنة ٣٦٧ هـ.

(و) حدود العالم من المشرق إلى المغرب: ألف سنة ٣٧٢ هـ فى وصف الأرض وأقسامها ونواحيها، والأقوام المختلفة وأحوالهم، ومؤلفه مجهول.

(ز) التفهيم لأوائل صناعة التنجيم: لأبى الريحان البيرونى، وقد ألفه بالفارسية عام ٤٢٠ هـ، ثم نقله بنفسه بعد ذلك إلى العربية، والكتاب فى علم النجوم والهندسة والحساب.

(حـ) زين الأخبار : وهو كتاب فى التاريخ كتبه أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك ابن محمود الگرديزى المعاصر للغزنويين، ويشتمل كتابه على الأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة حتى نهاية عصر مودود بن مسعود الغزنوى (٤٣٢- ٤٤٠هـ)[١].

---

(١) انظر ترجمة " زين الأخبار " الدكتورة عفاف السيد زيدان ص ٧٩ ومابعدها جـ ١ الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢م القاهرة.

نص مترجم من كتاب "زين الأخبار" :

الباب السابع

فى أخبار خلفاء وملوك الإسلام

أبو بكر الصديق

هو أبو بكر عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب تولى الخلافة فى سقيفة بنى ساعدة يوم وفاة الرسول (ﷺ)، وصلى عليه عمر بن الخطاب . وكان اسمه فى الجاهلية "عبد الكعبة"، (وحينما أسلم أسماه الرسول : (ﷺ) عبد الله.

وفى عهده ارتدت بعض قبائل اليمامة، وامتنعوا عن إخراج الزكاة، فحاربهم وقتل الكثير منهم حتى أطاعوه وتابوا . وفى سنة إحدى عشرة أرسل عمر بن الخطاب فحج، وفتح اليمامة. وقتل مسيلمة الكذاب والأسود العنسى.

وفى عام اثنى عشر حج، وحينما وصل إلى المدينة أرسل جيشًا إلى الشام عام ثلاثة عشر، وحينما مات قفلوا عائدين من الطريق، وأولاده رضى الله عنهم هم : عبد الله، ومحمد، وأسماء، وعائشة.

النص الفارسي:

باب هفتم

اندر اخبار خلفا وملوك إسلام

أبو بكر صديق

أو أبو بكر عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بود، وأن روز كه رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمان يافت. أو بخلافت بنشست أندر سقيفهء بنى ساعده، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه، بر وى نماز كرد، و أو را أندر جاهليت عبد الكعب نام بود، وچون مسلمانى آمد، رسول الله صلى الله عليه وسلم أو را عبد الله نام كرد وبه أيام أو اندر أهل يمامه أهل ردت مرتد شدند، أزجهت دادن زكوة إبا كردند، واو جهاد كرد، ومردم بسيار از ايشان بكشت، تا بطاعت آمدند وتوبه كردند، وعمر بن الخطاب را اندر سنه احدى عشر بفرستاد تا حج كرد ويمامه را أو بگشاد، ومسيلمة الكذاب =

عمر بن الخطاب

وهو أبو حفص، عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزيز بن رياح بن عبد الله بن قرط بن زراح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، وهو الذى جهر بإسلامه على باب الكعبة، وفرق بين الحق والباطل، ولهذا لقبوه بالفاروق، وتمت فى خلافته كثير من الفتوحات للمسلمين، فقد فتحت مدن كثيرة مثل بيت المقدس ودمشق صلحا على يد خالد بن الوليد، وفتحت ميسان واليرموك والأهواز على يد أبى موسى الأشعرى، وفتحت نهاوند على يدالنعمان بن مقرن.

وفى خلافته كانت موقعة القادسية، فقد واجه جيش خالد بن الوليد جيش العجم، والتحم الجيشان فى صحراء القادسية، وهزمت جيوش العجم، وفر ملكهم يزد جرد بن شهريار، فتقدم خالد بن الوليد وفتح العراق، وحمل خزائن ملوك العجم وكنوزهم التى كانوا قد اكتنزوها منذ أربعة آلاف سنة، وأرسل إلى المدينة نصيب عمر.

= را وأسود العنسى راأو كشت، واندر سنه اثنى عشر حج بكرد، وچون بمدينه رسيد، لشكر بشام فرستاد، اندر سنه ثلث عشر، وچون أو بمرد ايشان أز راه باز كشتند. وفرزندان أو بن عبد ورضى الله عنه : عبد الله ومحمد وأسماء وعايشه بودند.

عمر بن الخطاب

أو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزيز بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بود، وندای حق بر كعبه أو آشكار كرد، وفرق كرد ميان حق وباطل، بدين سبب أو را «فاروق» لقب كردند، واندر خلافت أو افتحهاى بسيار مر مسلما نانرا بر آمد، وجايهاء، بسيار كشاده شد وچون بيت المقدس ودمشق گساده شد. بردست خالد بن الوليد بصلح، وميسان ويرموك واهواز شهرها كشاده شد بردست أبو موسى الأشعرى. ونهاوند كشاده شد بر دست نعمان بن مقرن. وحرب قادسيه بروزگار أو بود كه خالد بن الوليد بيامد ولشكر أو پيش عجم آمد وبدشت قادسيه بر آويختند وسپاه عجم هزيمت شدند، ويزدجرد بن شهريار كه ملك عجم بود بگريخت، وخالد بن الوليد بيامد وعراق را فتح كرد، وگنجهاى ملوك عجم را كه از چهار هزار سال باز نهاده بودند ، همه برداشت، وانچه نصيب عمر آمد به مدينه فرستاد، وفتح عراق اندر سنه ثمان عشر بود، وفرزندان أو عبد الله وحفصه وعبد الله وعاصم وفاطمه وأبو شحمه عبد الرحمن بودند، واو را بو لؤلؤه غلام مغيره كشت.

وكان فتح العراق عام ثمانية عشرة، وأبناوه هم: عبد الله، وحفصة، وعاصم، وفاطمة، وأبو شحمة عبد الرحمن، وقد قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة.

عثمان بن عفان

هو أبو عمرو عثمان بن عفان بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة، كنى أيضا بأبى عبد الله، وتزوج ببنتى رسول الله (ﷺ)، وكان معطاء عظيم الجود والإنعام، وحينما تولى الخلافة أرسل بأول جيش إلى الرى بقيادة أبى موسى الأشعرى، وفتحها، ثم فتح الإسكندرية، فشابور، ثم إفريقية، ثم قبرس من سواحل بحر الروم، ثم مرو على يد عبد الله بن عامر بن كريز، وأبناؤه هم: عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر، وعمر، وأبان، وخالد، وعمر، وسعيد، والوليد، وأم سعيد، والمغيرة، وعبدالملك، وأم أبان ، وأم عمر، وعائشة.

وكان يمكث فى بيته حينما قصده الغوغاء، وحاصروا المنزل عليه، ثم اقتحموه وقتلوه رضى الله عنه، وهو يضع أمامه المصحف يتلوه، وتخضب ذلك المصحف بدمائه،

عثمان بن عفان

أبو عمرو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد الشمس بن قصى بن كلاب بن مره بود، وكنيت أو أبو عبد الله نيز بود، واو به دو دختر مر رسول را صلى الله عليه وسلم داماد بود وسخت منم بود، وچون بخلافت بنشست نخستين سپاه برى ستاد بأبو موسى الأشعرى وآنرا بگشادند.

پس اسكندريه بگشاد، پس افريقيه، پس قيرس از سواحل درياء روم، پس مرو كشاده شد بر دست عبد الله ابن عامر بن كريز وفرزندان أو عبد الله الأكبر بود وعبد الله الأصغر وعمر وأبان وخالد وعمرو وسعيد ووليد وأم سعي ومغيره وعبد الملك وأم أبان وأم عمر عايشه بودند. وأو أندر خانهء خويش نشسته بود، كه غوغا بيامدند وقصد أو كردند وخانه بر وى حصار كرند. پس غوغا اندرو افتاد وأو را بكشتند. وأو جامع قرأن پيش نهاده بود وقرأن هميخواند واو بكشتد. أن جامع از خون أو بيالود وتا بدين غايت هم چنان مانده است. وقرأن او جمع كرد، وترتيب نهاد. ومال غنايم بيت المال أوردن أو بنهاد ولشكر را بيستگانى كرد، ودخل بيت المال را اندر خزينه نهاد.

وهو باق هكذا حتى الآن، وهو الذى جمع القرآن ورتبه، كما أودع الغنائم بيت المال، ورتب الرواتب العشرينية للجيش، وأودع دخل بيت المال فى الخزائن.

على بن أبى طالب كرم الله وجهه

وهو أبو الحسن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم رسول الله (ﷺ)، لقبه حيدر الكرار، وهو أول من آمن بالرسول (ﷺ) ودخل فى الإسلام.

وكان المدافع عن الإسلام، الضارب بسيف الدين، ويقولون: إنه لم يضرب كائنًا حيا أكثر من ضربة واحدة إلا وقتله فى الضربة الأولى. وأبناؤه هم : الحسن، والحسين، ومحسن، وأم كلثوم الكبرى، وزينب الكبرى، وهؤلاء جميعًا من فاطمة بنت

على بن أبى طالب كرم الله وجهه. رضى الله عنه

أبو الحسن على بن أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بود، پسر عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولقب أو حيدر الكرار بود، ونخستين كسى كه بر پيغمبر (ص) بگرويد واندر مسلمانى امد او بود، ومبارز إسلام وشمشير دين بزد، وچنين گويند كه: هرگز هيچ جانورى را بيش از يك زخم نزده بود إلا يزخم نخستين كشت.

وفرزندان أو حسن وحسين ومحسن وأم كلثوم الأكبر وزينب الأكبر اين همه از فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بودند ومحمد وعبيد الله وأبا بكر وعمر ورقيه ويحى وجعفر وعباس وعبد الله ورمله وأم الحسن وأم كلثوم الأصغر وجمانه وميمونه وخديجه وفاطمه وأم الكرام ونفيسه وأم سلمه وأمامه وأم أبيها از زنان ديگر بوده.

وحرب جمل أوكرد اندر سنه ست وثلثين، وحرب صفين أو كرد اندر سبع وثلثين با معاويه وشاميان ومعاويه باوى بسيار حيلتها كردند وذرع كردند وعمر بن العاص تدبيرها كرد از بهر معاويه، ومعاويه باشاره ء أو تلبيس ها كرد، تا ملك بگرفتند، وپيغمبر ما صلى الله عليه واله وسلم، أو را بستود وگفت: "إن إبنى" هذين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما". يعنى الحسن والحسين وأبوهما على خير منهما".
وبسيار خير آمده است اندر فضل أو ، وآيت آمده است اندر شان أو رضى الله عنه.

آخر كتشه وشهادت يافت بردست عبد الرحمن بن ملجم المرادى.

(زين الأخبار - أبو سعيد الگرديزى - ص ٥٣، ٥٤، ٥٥ - تهران ١٣٤٧).

رسول الله (ﷺ). ومن نسائه الأخريات: محمد، وعبيد الله، وأبو بكر، وعمر، ورقية، ويحيى، وجعفر، وعباس، وعبد الله، ورملة، وأم الحسن، وأم كلثوم الصغرى، وجمانه، وميمونة، وخديجة، وفاطمة، وأم الكرام، ونفيسة، وأم سلمة، وأمامة، وأم أبيها.

حارب فى موقعة الجمل عام ست وثلاثين، وحارب معاوية فى موقعة صفين سنة سبع وثلاثين.

وصرف معاوية وأهل الشام كل جهدهم فى الحيلة والخداع، كما كان عمرو بن العاص يدبر لمعاوية، وقد فعل معاوية بمشورته حتى استولى على الملك، وقد امتدحه رسولنا محمد (ﷺ) فقال: " إن ابنى هذين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما"، يعنى الحسن والحسين، وأبوهما على خير منهما. وقد رويت أخبار كثيرة عن فضائله، ونزلت آية فى شأنه رضى الله عنه، وأخيرًا قتل واستشهد على يد عبد الرحمن بن ملجم المرادى.

* * *

نموذج مترجم من كتاب تاريخ الطبرى وهو الترجمة الفارسية للكتاب العربى (تاريخ الرسل والملوك) تأليف الإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى الذى عاش فى القرنين الثالث والرابع والهجريين والمتوفى سنة ٣١٠ هـ، ويعرف هذا الكتاب عند الإيرانيين أحيانًا باسم تاريخ البلعمى نسبة إلى مترجمه كما ذكرنا.[1]

"فتح مدن فارس: ما أن هل العام الثالث والعشرون من الهجرة حتى نما إلى علمه فى بداية هذا العام أن شهرك ملك فارس قد جمع جيشًا جرارًا وتمركز فى

---

(١) انظر كتاب : من روائع الأدب الفارسى" - دكتر بديع محمد جمعه - بيروت ١٩٨٠م - ص ٣٤-٣٧.

النص الفارسى:

فتح شهرهاى فارسي

چون سال بيست وسيم إز هجرت شد، در أول سال أورا خبر أمد، كه شهرك ملك فارسى سپاه بسيار جمع كرده است بتوج، وتوج بفارسى توز است، وأن جامهء توزى از أنجا أوردند، وأن بكرانهء پادسى است، بجانب أهواز وسپاه اهواز وعجم وعجم همه جمع شدند. عمر چون سپاه را بفرستاد، كسى را سپهسالار نكرد، وليكن هر سرهنگى را بر شهرى أمير كرد وكفت: سپاه فارسى بيك جاى كرد آمدند، وتدبير حرب ميكنند، وشما چون=

منطقة توج، تلك التى تعرف فى الفارسية باسم توز وإليها تنسب الأردية التوزية، وتوج هذه تقع على مشارف فارس وعلى مقربة من الأهواز، كما تجمَّع جيش الأهواز وجيش العجم كله. وعندما بعث عمر بالجيش الإسلامى لم يعين له قائداً عاماً، ولكنه أمر على كل مدينة أحد القواد، وقال : لقد تجمع جيش فارس فى بقعة واحدة، وهم يستعدون للحرب، فإذا ما صرتم إلى فارس، فلا تتقدموا إلى حيث يتواجدون، حتى يفل التدبير والاستعداد من عزائمهم. وبعد ذلك فليحاربهم كل منكم فى البلدة التى يعين عليها. ثم عهد بمدينة توج إلى مجاشع بن الثقفى، وأعطى أمر شابور واصطخر إلى عثمان بن أبى العاص، وأقطع أمر شيراز إلى أخيه الحكم بن العاص، وعهد إلى سارية الربلى بأمر پسا ودار جرد وأخيراً توجه هؤلاء القواد بجيوشهم، أما عن جيوش فارس السابق تجمعها بقيادة شهرك بمدينة توج، فقد دبت الفرقة بين صفوفهم وانفرط عقد تدبيرهم، فكان هذا الأمر مساوياً للهزيمة، وهنا تقدم مجاشع الموكل إليه أمر توج وپشاور صوب شيراز، وكانت بعض الجيوش مازالت متواجدة بمدينة توج، فتمكن مجاشع وجيشه من التقدم والانتشار والتغلب على تلك الجيوش، وغنموا أموال تلك الديار ومجاشع هذا أخو أبى عبيدة بن مسعود الذى مات يوم موقعة الجسر تحت أقدام الفيل الأبيض، كما أنه والد مختار الثقفى، وقد تمكن من فتح مدن فارس واصطخر وتوج.

= بفارس شويد، أنجا كه ايشانند، مرويد. تا ايشان را تدبير شكسته شود. پس هر كسى با أن سپاه وى كه بشهرى آيند، حرب كنند. وشهر توج را بمجاشع ابن الثقفى داد وشاپور واصطخر را بعثمان ابن أبو العاصى داد وشيراز را به حكم بن العاص برادر أو وپسا ودار گرد را بسارية ابن وهم الربلى داد. اميران كه گفته أمد با سپاه برفتند بشهرك با همه سپاه فارسى بتوج جمع شده بودند پراكنده شدند، وتدبير هاى ايشان بشكست، واين كار برابر بهزيمتى بود. مجاشع حاكم توج وپشاور بشيراز آمدند، وجمعى سپاه در توج مانده بود. مجاشع با سپاه خويش تاختن برد، وأن سپاه را بكشت، وأموال أن ديار غنيمت نمود. ومجاشع برادر بو عبيدة بن مسعود بود، كه حرب وقعت الجسر بود، در زير پاى فيل سفيد كشته شد. واو پدر مختار بود، وأن شهوهاى فارسى، اصطخر وتوج گشاده بود... =

وبعد أن فتح مجاشع توج، وزع أموالها على المسلمين، كما أرسل خمس الغنائم إلى خليفة الزمان مصحوبًا بكتاب الفتح. أما عثمان بن أبى العاص فقد تقدم بجيوشه صوب اصطخر، فسارع اصطخر - وهو من سميت المدينة باسمه، ويعرف فى اللغة العربية باسم جور، وإلى هذه المدينة ينسب ماء الورد الجورى - إلى ملاقاته، فتحارب عثمان مع هذا الجيش وهزمه، ثم تقدم إلى بوابة اصطخر وحاصر المدينة وحارب جيشها وتم له فتحها.

وبعد ذلك أرسل إلى الخليفة ببشارة الفتح وجزء من الغنائم. أما الحكم بن العاص أخو عثمان فقد توجه صوب شيراز حيث أعاد شهرك جمع جيوشه والتمركز هناك، وكان جيشه الكثيف قد تدجج أفراده بالدروع لدرجة أنه لم يكن يرى من المحارب إلا عيناه فقط، وتجمع مع الحكم جيش كثيف كذلك حيث سارع جميع شيوخ العرب ووجهائهم ومبارزيهم ومنهم عبد الله معمر التميمى وشبل بن معبد البجلى وجارود العهدى وأبو مهلب بن أبى صفرة لملاقاة جيش شهرك.

وعندما أشرقت الشمس،، ووجهت أشعتها صوب جيش المسلمين، ألهبت عيونهم وحماسهم، لذا ما إن جاءت لحظة الحرب حتى ألحقوا الهزيمة بجيوش شهرك وقتلوا الكثيرين منهم، كما قتل الحكم بيديه كلاً من شهرك وابنه. ويقال إن أحد الأعاجم ويدعى إردانيان كان منضمًا إلى شهرك، ولكنه وجنده آثروا السلامة. وهكذا هزم

= پس مجاشع توج را بگشاد، وأموال آن بر مسلمانان قسمت نمود، وضمن آنارا بخليفهء زمان فرستاد با فتح نامه، وعثمان بن أبو العاص باسپاه خويش باصطخر شد. وسپاه اصطخر پيش وى آمد، شهرى نام وى كرد، وبتازى جور خوانند، واين ان شهريست كه گلاب جورى از آنجا آورند. عثمان با ايشان حرب كرد، وايشانرا هزيمت نمود، وبدر اصطخر آمد، وشهر بحصار گرفت، وبا ايشان حرب كرد، وشهر بگشاد، وخبر فتح با غنيمت بخليفه فرستاد، وحكم بن العاص برادر عثمان روى بشيراز نهاد. شهرك با سپاه بسيار از توج پيش باز أو آمد، همه سلاح، چنانكه جز چشمشان هيچ جا برهنه نبود، وباحكم نيز سپاه بسيار بود پيران ووجه عرب مهتران ومبارزان پيش آمدن، چون عبد الله معمر التميمى وشبل بن معبد البجلى وجارود وأبى مهلب أبو صفره با سپاه شهرك برابر شدند. =

شهرك وغنم الحكم (بن العاص) مغانم وفيرة قسمها بين المسلمين، ثم أرسل إلى عمر بن الخطاب أخبار الفتح والغنائم، أما سارية فقد توجه صوب پسا وداراجرد وقام بمحاصرتهما وظل المسلمون محاصرين لهما ثلاثة أشهر، حتى طلب المحاصرون المدد والعون من ذويهم من العجم، فجاءتهم جماعات عديدة من الأطراف المجاورة، وهنا خرج المحاصرون لكى ينضموا إلى صفوف الأعاجم الوافدين وليحاربوا المسلمين، ولذا تمكنوا من قتل عدد كبير من جيش المسلمين، وكان ذلك يوم الجمعة، يوم الصلاة، ومع ذلك استمرت الحرب، وكان على مقربة من مواقع الجيش الإسلامى جبل عظيم، فحاصر الكفار المسلمين وأعملوا فيهم قتلا حتى ضاق الأمر بالمسلمين ، وخافوا الهزيمة ، ولكن سارية والمسلمين واصلوا الحرب، حتى سمعوا صوت عمر يقول: يا سارية الجبل. أى يا سارية خذ حذرك من الجبل. فقال سارية للجيوش: لقد سمعت صوت عمر، ومازلت أسمعه، ولكن كيف يكون صوت عمر وبيننا وبينه مسيرة أيام عديدة. وأخيراً احتمى سارية بالجبل، فوجد وجيشه الأمن والأمان. وفى اليوم التالى واصلوا الحرب ونالوا الظفر.

وبعد ثلاثة أشهر من الحصار سمع عمر بأخبارهم، وشغل قلبه بأمورهم، وكانت الليلة ليلة الجمعة فرأى فى منامه أنهم قد واصلوا الحرب، وكلما حاربوا أصابوا غنائم

= چون آفتاب برايشان تافت، روشنى بر لشكر مسلمانان افتاد. چشمها از آن روشنى مى سوخت. چون لحظه، حرب نمودند، لشكر شهرك رو بهزيمت نهادند، ومسلمانان كشتن بسيار كردند، حكم بدست خويش شهرك وپسرش را بكشت، مردى از عجم با شهرك بود نام آو را اردانيان، أو باخيل خويش بزينهار حكم آمد. وسپاه شهرك به هزيمت شدند. حكم غنيمت بسيار يافت، وبر مسلمانان قسمت نمود، وخبر فتح وغنيمت بعمر بن الخطاب فرستاد. وساريه سوى پسا ودا را جرد شد، ايشان در حصان شدند، ومسلمانان مدت سه ماهبردر حصار ماندند، أهل حصار از عجمان يارى خواستند جمعى از أطراف وجوانب آمدند، وأهل حصار نيز بيرون آمده با يكديگر ملحق شدند وبا مسلمانان جنك كردند واز لشكر اسلام بسيارى كشته شد، روز آدينه بود، وقت نماز وحرب بر پياده دشت بود، وبنزديك لشكر مسلمانان در آمدند وكشتن ميكردند وكار بر مسلمانان تنگ شده بود، وبيم هزيمت بود، ساريه ومسلمان حرب ميكردند، آواز عمر شنيدند، چنانكه ميكفت : يا ساريه الجبل، الجبل . ميكويد: أىَ ساريه كوه گير. ساريه لشكر را گفت: من أواز عمر شنيدم ومى شنوم. وليكن اواز عمر نشايد بودن، چرا كه ميان ما وعمر چند روزه راهست. پس ساريه پشت بكوه داد آنشب أيمن شدند. پس ديگر روز حرب كردند، وظفر يافتند. =

وفيرة، وأخيراً أرسلت أخبار فتوحات سارية إلى عمر رضى الله عنه، ومن بين الأموال التى أرسلت إلى عمر سفط ملىء بالجواهر.

وعندما وفد الرسول إلى عمر، كان عمر بالمسجد حيث أقيمت الموائد، إذ كان يوزع الطعام على عدد كبير من الخلق. فقد كان عمر يذبح فى كل يوم جملا من بيت المال، ويخصصه لإطعام الخلق فى المسجد، وبخاصة المساكين والفقراء والغرباء وعابرى السبيل، فجاء هذا الرسول ووقف أمام عمر، فظنه عمر أحد الغرباء جاء يطلب طعاماً، فقال له : اجلس واطعم شيئًا، ثم شغل هو بتوزيع الطعام على الخلق دون أن يأكل شيئًا، إذ كان يأكل دائمًا مع أسرته. وعندما أكل الجمع، توجه عمر صوب داره، فسار ذلك الرسول فى أثره. فقال له: هيا، ادخل، فدخل ذلك الرجل، جلس عمر وطلب الطعام، فأحضرت إليه زوجته أم كلثوم ابنة أمير المؤمنين على كرم الله وجهه، وعاءً به خبز من شعير وقدر من الزيت وقليل من الملح الخشن، فقال لها عمر: ألم تطهى شيئًا ؟ فقالت: كيف أفكر فى الطهى وليس لى رداء أرتديه، فقد كانت أردية أم كلثوم ممزقة.

= بعد أز سه ماه كه بر در حصار يودند عمر خبر ايشان شنيده بود، ودلش مشغول بود: أنشب أدينه بخواب چنان ديد كه: ايشان حرب ميكردند، وچون حرب بود مال بسيار يافت. وخبر فتح ساريه بعمر – رضى الله عنه – فرستاد. ودر ميان آن أموال سفطي وو پر از گوهر آنچان به جنس، آن را بسوى عمر فرستاد چون رسول بيامد، عمر در مسجد بود وخوان نهاده، مردم را نان ميداد، وعمر هر روزى از بيت المال شترى بكشتي، ودر مسجد بمردم طعام دادى بتخصيص بدرويشان وفقيران وغريبان وره گذريان. اين رسول بيامد ودر پيش عمر بيستاد. عمر پنداشت كه أو غريب است. ويطلب طعام أمده است. او را گفت: بنشين وچيزى بخور وخود بمردم طعام ميداد. أما نميخورد وطعام با عيال خويش خوردى.

پس چون مردمان طعام بخوردند، بخانهء خود رفت. وآن رسول از عقب أو ميرفت. او را گفت: درآي، آن مرد درون شد. عمر بنتشست، طعام طلب نمود، وزن أو أم كلثوم دختر أمير المؤمنين على كرم الله وجهه زن أو بود. طشتى نان بنشست وقدرى روغن زيت وأندك نمك درشت پيش آورد. عمر أورا گفت: چون چيزى نپختى؟ گفت: چون تردد طبخ كنم كه مرا جامه نيست كه بپوشم، وجامه أم كلثوم دريده بود، عمر با أو مزاح كرد كه ترا جامه بچه كار آيد، ترا همان بس كه دختر على بن أبى طالب باشي وزن عمر. بعد أز آن عمر رسول را گفت: بسم الله طعام بخور كه أكر أم كلثوم أز ما خوشنود بودى، طعام ما بر ترتيب بودى. پس=

فمازحها عمر قائلاً: ما حاجتك للرداء؟ كفاك أنك إبنة على بن أبى طالب وزوجة عمر. بعد ذلك قال عمر للرسول: بسم الله تناول الطعام، إذا كانت أم كلثوم عنا راضية، لأعدت لنا طعامًا. وبعد أن تناولا الطعام أدرك الرجل أن عمر لايعرفه، فقال: يا عمر، أنا رسول سارية جئتك بأخبار الفتح والغنيمة والخمس. فقال عمر: الحمد لله، ثم نظر إليه وسأله عن كل شيء، فأخبره الرجل بكل شيء، ثم وضع السفط أمام الخليفة فقال عمر: أعد هذا إلى سارية، وقل له: وزعه بين المسلمين الذين شاركوا في الحرب، فهو حق لهم، وأخيرا خرج ذلك الرجل من البيت، وتوجه للالتحاق بخدمة سارية*.

=طعام بخوردند، آن مرد دانست كه مر أو را نميشناشد. كفت : يا عمر من رسول ساريه أم بخبر فتح وغنيمت وخمس. عمر كفت: الحمد لله وروى بدو نهاد. واز هر جاى از وى پرسيد واو ميگفت. پس آن سفط پيش خليفة نهاد. عمر كفت: اين را بنزد ساريه باز بر واورا كوى، اين را بر مسلمانان قسمت كن، كه با تو در حرب بوده أند كه بر إيشان واجب لست. پس آن مرد از خانه بيرون آمد ومتوجه خدمت ساريه شد.

الفصل الثانى

الابتهال إلى الله ونعت الرسول صلى الله عليه وسلم ومناقب الخلفاء الراشدين

أولاً: الابتهال إلى الله

حفلت جميع المنظومات والكتب النثرية الفارسية، وبخاصة تلك التى ألفت فى العصور الذهبية للأدب الفارسى امتداداً من العصر الغزنوى حتى العصر التيمورى، على أن يفتتحها مؤلفاها بحمد الله والثناء عليه، وتقديم فروض الشكر والعرفان على عظيم نعمه وجميل كرمه، وقد شارك فى هذا الأمر جميع من ألفوا ونظموا أيا كان موضوع كتاباتهم ونظمهم، سواء أكانت هذه المؤلفات والمنظومات تدور حول موضوعات الأدب أو التاريخ أو اللغة أو غيرها من الموضوعات التى تحفل بها المكتبة الفارسية الزاخرة بشتى الموضوعات، ولما كانت هذه المشاركة واسعة سعة ألوان الأدب والفكر الفارسى، متعددة بتعدد الشعراء والكتاب فإننا سنحاول أن نقصر حديثنا على تقديم نماذج جيدة من نظم وكتابات كبار الشعراء والأدباء توخياً لعدم الإطالة التى لا يتحملها فصل فى كتاب، ولأن هذا الموضوع إذا أردنا أن نوفيه حقه من الدراسة والتحليل فسيحتاج إلى عدة كتب لا إلى كتاب واحد.

وإذا كانت الشاهنامة للفردوسى(١) أكبر وأهم منظومة فارسية وفيها حرص ناظمها على أن يحكى تاريخ إيران الأسطورى قبل الإسلام، لتكون مجالا لفخر

---

(١) الفردوسى: ولد أبو القاسم الفردوسى عام ٣١٩ هـ بمدينة طوس، ولما نبغ فى النظم ضمه السلطان محمود الغزنوى إلى بلاطه وشجعه على نظم الشاهنامة مقابل مكافأة مجزية، ويقول الإيرانيون أن محمودا الغزنوى لم يف بما وعد وخفض مقدار المكافأة، ولعله فعل ذلك لما وجد أن الشاهنامة قد حفلت بالإشادة بالعنصر الإيرانى الآرى فى مقابل الإقلال من شأن العنصر التركى الذى ينتسب إليه محمود الغزنوى، والعنصر العربى الذى ينتسب إليه الخليفة العباسى الذى كان محمود الغزنوى يكن له كل احترام وتبجيل.

ويقال إن الفردوسى قد تأثر بذلك الموقف تأثرا شديدا واعتلت صحته وودع الحياة عام ٤١١ هـ أو ٤١٦ هـ ودفن بمسقط رأسه طوس حيث يوجد قبره حتى الآن.

الإيرانيين وبيان مكانتهم بين جيرانهم قبل أن تتشرف إيران بدخول الإسلام إليها . فإن الفردوسى – على الرغم من شعوبيته – لم يكن فى مقدوره أن ينظم منظومته دون مقدمة يبتهل فيها إلى الله عز وجل، وبخاصة أنه كان سيقدمها إلى الفاتح العظيم والقائد الإسلامى الكبير محمود الغزنوى الذى بفضله دخل الإسلام الهند بعد أن حطم أصنام الشرك والوثنية هناك. ومما جاء فى مقدمة الترجمة العربية للشاهنامة والتى أنجزها البندارى بنوع من التصرف والإيجاز، مايلي:

فاتحة الكتاب: **بسم الله الرحمن الرحيم**

باسم رب الروح والعقل الذى لا مجال للفكر فوق علائه، رب الاسم والمكان المقيت ومرسل الهداة بنعمائه، رب كيوان والفلك الدوار، ومنير الشمس والزهرة والقمر السيار، المتعالى على الأسماء والسمات والأوهام، الخالق فى السماء عوالى الأجرام، لاتدركه الأبصار فلا تجهد عينيك، ولا يحده الاسم والمكان، فماذا يجدى الفكر عليك؟ إن يعد الروح والعقل هذه الجواهر، فكلاهما فى الطريق إليه حائر، وإن تخير الفكر الكلام فقصاراه أن يصف مايراه، لاسبيل إلى الثناء عليه فى حقيقيته، وإنما واجبك أن تشمر لعبادته، هو للعقل والروح قائد، فكيف يحيط به الفكر الجاهد؟ لن تدركه برأيك هدا وعدتك، وإن شققت على روحك وعقلك، حسبك أن تقر بوجود الديان، وأن تكف عن الهذيان، وأن تعبده وتستهديه وتطيع أوامره ونواهيه، من عرف فقد قدر، وبالمعرفة يشب القلب إذا هتر، ليس للكلام وراء هذا الحجاب محال، وسعى الفكر لإدراكه خيال محال[1].

---

(١) الفردوسى: الشاهنامة، ترجمة البندارى، الجزء الأول، الطبعة الثانية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣، ص: ٥، وها هو النص الفارسى المقابل لهذه المقدمة نقلا عن منتخب شاهنامه باهتمام محمد على فروغى وحبيب يغمائى، ص: ١، طهران ١٣٥٤ هـ. ش. =

وهكذا بدأ الفردوسى منظومته بحمد الله والثناء عليه والاعتراف بجميله، والإقرار بعجز العقل البشرى عن إدراك ذاته. والدعوة إلى الإقرار بربوبيته وإطاعة أوامره ونواهيه طاعة العبد المؤمن بربه، الشاكر لأنعمه، المسبح بقدرته، وأن هذا الأمر بعيد عن الجدال والقيل والقال..

بنام خداوند جان وخرد
كزين برتر انديشه بر نگذرد

خداوند نام وخداوند جاى
خداوند روزى ده رهنماى

خداوند كيهان وگردان سپهر
فروزندهء ماه وناهيد ومهر

ز نام ونشان وگمان برترست
نگارندهء بر شده گوهرست

٥- بينذگان آفريندده را
نبينى برنجان دو بيننده را

نيابد بدو نيز انديشه راه
كه أو بر تر از نام واز جايگاه

سخن هر چه زين گوهران بگذرد
نيابد بدو راه جان وخرد

خرد گر سخن بر گزيند همى
همان راگزيند كه بيند همى

ستودن نداند كسى أو را جوهرست
ميان بندگى را ببايدت بست

١٠- خرد را وجان را همى سنجد أو
در أنديشهء سخنه كى گنجد أو

بدين آلت وراى وجان وروان
ستود آفرينده را چون توان؟

بهستيش بايد كه خستو شوى
ز گفتار بيگار يك سو شوى

پر ستنده باش وجوينده راه
بفرمانها ژرف گردن نگاه

توانا بود هر كه دانا بود
بدانش دل پير برنا بود

١٥- أزين پرده برتر سخن گاه نيست
بهستيش انديشه را راه نيست

وهذا شاعر كبير آخر هو نظامى الكنجوي،[1] شاعر الفضيلة صاحب مخزن الأسرار وخسرو وشيرين وليلى والمجنون وهفت پيكر وغيرها من المنظومات الرقيقة المستوى فى النظم والفكر، والتى أقبل العديدون من الشعراء داخل إيران وخارجها على محاكاتها وتقليدها والنظم على هداها. وقد بدأ منظومته الأولى مخزن الأسرار بأبيات عديدة فى التوحيد والمناجاة، أورد منها على سبيل المثال ترجمة لبعض أبياتها:

فى التوحيد والمناجاة

- بسم الله الرحمن الرحيم

مفتاح باب كنز الحكيم

- اسم الله فاتحة الفكرة وخاتمة الكلام

فلتختم باسمه على الدوام كل كلام

- هو السابق على وجود كل موجود

وهو الباقى بعد فناء كل مخلوق

---

(١) نظام الكنجوى شاعر من رجال القرن السادس الهجرى، ولد فى عام ٥٣٥ هـ، وتوفى عام ٥٩٩ هـ وكانت ولادته بمدينة كنجه، وقد تميز بين شعراء الفارسية عامة بالذكاء النادر والخلق الرفيع، حتى أطلق عليه الكثيرون لقب "شاعر الفضيلة" وشهرته ترجع إلى تفوقه فى ميدان القصص الشعرى، ومازال حتى الآن يحتل المكانة الأولى فى هذا المجال الهام، وله خمسة منظومات شهيرة هى : مخزن الأسرار، خسرو وشيرين، ليلى والمجنون، إسكندر نامه وهفت پيكر إلى جانب ديوانه الشعرى.

"لمعرفة المزيد يرجى الرجوع إلى كتاب المرحوم الدكتور/ عبد النعيم حسانين: نظامى الكنجوى، شاعر الفضيلة، عصره وبيئته، وشعره "القاهرة: ١٩٥٤م".

- هو الأول والآخر فى ا لوجود والصفات

وهو مانح الوجود والعدم لكل الكائنات

٥- هو الأول بلا ابتداء

وهو الآخر بلا انتهاء

- كل ما عداه لابقاء له

وهو المقدس حيث لا فناء له

- يا من جميع الوجود نفحة منك

ويا من استمد التراب الضعيف[١] القوة منك

- جميع الكائنات محيط بها علمك

ونحن قائمون بفضلك، أما أنت فقائم بذاتك

- وجودك لا تحده صورة

فلست شبيها بأحد ولا أحد شبيه بك

١٠- أنت من لايقبل التغيير أو التبديل

ومن لا يلحق به موت أو فناء

- جميعنا إلى فناء، والباقى أنت وحدك

(١) كناية عن الجسد.

وأنت الجدير بالملك العالي والتقدس وحدك

- بأمرك استقرت الأرض مكانها

وبأمرك ارتفعت القبة الخضراء بلا عمد[1].

* * *

---

(١) نظامى كنجوى: مخزن الأسرار: تهران ١٣٧٣ ش، الصفحة الأولى ومابعدها والنص الفارسى كما يلي:

در توحيد ومناجات

بسم الله الرحمن الرحيم — هست كليد در گنج حليم

فاتحهء فكرت وختم سخن — نام خداى است، بر او ختم كن

پيش وجود همهء آيندگان — بيش بقاى همهء پايندگان

أول وآخر به وجود وصفات — هست كن ونيست كن كائنات

٥- أول أو أول بى ابتداست — آخر أو آخر بى انتهاست

هر چه جز أوهست، بقاييش نيست — اوست مقدس كه فناييش نيست

أى همه هستى زتو پيداشده — خاك ضعيف، أز تو، توانا شده

زير نشين علمت كائنات — ما به تو قائم، چو تو قائم به ذات

هستى تو صورت پيوند، نه — تو به كس وكس به تو مانند، نه

١٠- آنچه تغيير نپذ يرد تويى — وانكه نه مرده است ونه ميرد تويى

ما همه فانى، وبقا پس تو را ست — ملك تعالى وتقدس تو را ست

خاك به فرمان تو دارد سكون — قبهء خضرا، توكنى بى ستون

لقد بدأ نظامى الكنجوى منظومته مخزن الأسرار بتوحيد الله عز وجل، وأنه منفرد بصفاته وذاته، وهو الأول والآخر، وهو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولانوم، ولايلحق به موت أو فناء، وهو مالك الملك القدوس المتعالى على كل ملك أرضى، ثم انتقل بعد ذلك إلى مناجاة الله عز وجل واهب الوجود لكل المخلوقات المحيط علمه بكل الكائنات خالق الأرض والسموات، إلى غير ذلك من الصفات القدسية اللائقة برب العزة والجلال.

* * *

وهذا شاعر فارسى كبير آخر نظم العديد من المنظومات الفارسية ذات القيمة العالية، هو الشاعر فريد الدين العطار[1] صاحب منطق الطير وإلهى نامه ومصيبت نامه وپند نامه وتذكرة الأولياء وغيرها من المؤلفات والمنظومات التى توضح علو مكانته فى النظم والفكر، وقد بدأ جميع منظوماته بحمد الله والثناء عليه، ولكننا سنكتفى بترجمة بعض ما قاله فى مقدمة منظومته الكبرى منطق الطير:

- حمدا لله الطهور خالق الروح

واهب حفنة التراب الإيمان والروح

- هو من شيد عرشه فوق سطح الماء

ونثر أعمار الخلق فى مهب الريح

(١) فريد الدين العطار: ولد بمدينة نيسابور عام ٥٤٥ هـ وتوفى بها عام ٦٢٧ هـ ومازال قبره موجوداً بها حتى الآن، عمل بالعطارة والطب فى بداية حياته العملية لذا لقب بالعطار، له عدة منظومات شهيرة أهمها منطق الطير وإلهى نامه ومصيبت نامه وپند نامه إلى جانب كتاب نثرى واحد يتحدث فيه عن سير الأولياء والمشايخ وهو كتاب تذكرة الأولياء.

- إنه من رفع السماء إلى أعلى عليين

وأنزل الأرض إلى أسفل سافلين

- فى ستة أيام خلق سبعة أنجم

كما خلق تسع سموات بحرفى الأمر كن

٥- وهو من أذاب البحر تسليما لأمره

كما دك صرح الجبل رهبة منه

- وهو من أمر بعوضة حقيرة بالوقوف على رأس عدوه

فاستقرت فى رأسه أربعمائة عام (١)

- وبحكمته وهب العنكبوت شباكًا (٢)

فكانت فيها سلامة الرسول

- وعقد للنملة وسطًا دقيقا كالشعرة (٣)

ثم كان لها الحوار مع سليمان

- وخلع عليها خلعة الخلافة السوداء

كما وهبها سورة "طس" بلا عناء (٤)

---

(١) إشارة إلى قصة البعوضة والنمرود: انظر قصص الأنبياء للثعالبى طبع مصر ١٣٥٨ هـ.

(٢) إشارة إلى نسج العنكبوت خيوطه على مدخل غار حراء يوم هجرة الرسول الكريم عليه السلام.

(٣) لمعرفة هذا الحوار، يرجى الرجوع إلى سورة النمل.

(٤) "طس" إشارة إلى سورة النمل.

١٠ – النهار والليل والشمس والقمر فى سجود دائم له

فقد وضعت جباهها على التراب فى طريقه

– لذا بدا على سيماهم أثر السجود

وأنى لأحد أن تكون له سيماء بلا سجود

– اتسم وجه النهار بالبياض من بسطه

بينما اتشح وجه الليل بالسواد من قبضه

– جميع الكائنات شاهدة على ذاته

وانبساط الأرض وارتفاع السماء شاهدان على عظمته

– لقد خلق التراب والريح والماء والنار

ولكن سره خارج عنها جميعًا ...

١٥ – يا ابن الخليفة، يا من عدمت المعرفة (١)

عليك بالإنصاف كأبيك بالمعرفة

– إن كل ما خلقه الحق من عدم ووجود

قد خرت كلها أمامه فى سجود

– أما من أبى السجود فقد مسخ ولعن (٢)

---

(١) يعنى بالخليفة آدم عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿وإذْ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ في الأرْضِ خليفةً﴾ البقرة، آية : ٣٠.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وإذْ قُلنا للملائكة اسْجُدُوا لآدَمَ فسجدُوا إلا إبْليس أبىٰ واستكْبر وكان من الْكافرين﴾، البقرة، آية : ٣٤.

وما أدرك هذا السر

- وما أن اسود وجهه، حتى قال:

أيها المتعال لاتتركني في ضياع ولتصلح أمرى

- فأجابه الحق تعالى: أيها الملعون في كل طريق

ما آدم إلا خليفة وسلطان

٢٠- فلتكن له اليوم طوع البنان

ولتحرق في الغد البخور حيثما كان (١)

---

(١) النص الفارسي لهذه الأبيات هو:

آفرين جان أفرين پاك را ... آنكه جان بخشيد وإيمان خاك را

عرش را بر آب بنياد أُو نهاد ... خاكيان را عمر برباد او نهاد

آسمان را در زير دستي بداشت ... خاك را در غايت پستي بداشت

كرد در شش روز هفت انجم پديد ... وز دو حرف أمر نه طارم پديد

٥- بحررا بگداخت در تسليم خوبش ... كوه را افرده كرد از بيم خويش

نيم پشه برسر دشمن گماشت ... در سر او چار صد سالش بداشت

عنكبوتي را بحكمنت دام داد ... صدر عالم را ازو آرام داد

بست موري را كمر چون موي سر ... كرد أورا با سليمان هم كمر

خلعت أولاد عباسش بداد ... ˆطاˆ و ˆسينˆ بيزحمت طاسش بداد

١٠- در سجودش روز وشب خورشيد وماه ... سوده پيشاني خود برخاك راه

هست آن سيماي إيشان از سجود ... كي بود بي سجده سيما را وجود

روز از بسطش سپيد افروخته ... شب زقبضش درسياهي سوخته =

بدأ العطار مناجاته بالحمد لله والثناء عليه والحديث عن بعض قدراته وكذلك بعض معجزاته التى تمثلت فى بعوضة النمرود وحديث النملة مع سيدنا سليمان وكذلك دور العنكبوت الذى نسج خيوطه على باب غار حراء مما ضلل الكفار وأقنعهم بأن الرسول عليه السلام لم يكن بداخل الغار عندما تعقبوه أيام الهجرة المحمدية المباركة. كما وجه العطار حديثه لابن آدم كى يتسلح بالمعرفة مثلما كان عليه أبوه الأول آدم عليه السلام حينما زوده الله بألوان من المعرفة لم تتح لغيره من الملائكة والجن، لذا يجب على الإنسان أن يتسلح بالمعرفة، معرفة الله حق المعرفة ليكون الإنسان جديراً بالمكانة الرفيعة التى وهبها الله للإنسان، وميزه بها عن سائر المخلوقات إلى غير ذلك من المعلومات التى أوردها العطار فى هذه المقدمة الطويلة والتى تقع فى حوالى مائتى بيت ولكننا اكتفينا بترجمة عشرين بيتًا فقط منعًا للإطالة والإسهاب.

پستى خاك وبلندى فلك   دو گواهش بس بود هريك بيك

باد وخاك وآتش وآب اورد   سر خويش از جمله درتاب آورد

١٥- أى خليفه زادهء بى معرفت   با پدر در معرفت شو هم صفت

هرچه آورد از عدم حق در وجود   جمله افتادند پيشش در سجود

آن يكى كز سجدهء او سر بتافت   مسخ وملعون گشت واين سردر نيافت

چون سيه روگشت، گفت أى بينياز   ضايعم مگذار وكار من بساز

حق تعالى گفت: أى ملعون راه   هم خليفه است آدم هم پادشاه

٢٠- باش چشما روى آر امروز تو   بعد از آن فردا سپندش سوز تو

فريد الدين العطار : منطق الطير، تصحيح دكتر محمد جواد مشكور، چاپ سوم، تهران ١٣٤٧ ش ويمكن مراجعة الترجمة الكاملة لمنطق الطير، ترجمة د. بديع محمد جمعة فى إحدى طبعاتها الخمس، بيروت أو القاهرة.

ونظراً لاهتمام فريد الدين العطار بأن ينظم فى مقدمة كل منظوماته العديد من الأبيات فى تقديم فروض الطاعة والابتهال لله عز وجل، فقد آثرت أن أذكر مثالاً آخر لهذه الابتهالات التى قدم بها لمنظومته الشهيرة الثانية؛ وهى منظومة «إلهى نامه" والتى قامت الزميلة الدكتورة ملكة على التركى بترجمتها إلى اللغة العربية: ومما قاله؛ ما ترجمته:

باسم من يخلد ملكه ولايزول، ويخرس أمام وصفه نطق الفصيح، اسمه مفرح لكتاب الأرواح، وذكره يتصدر فهرست الدواوين، فاضت حلوق الأرواح بحلاوة ذكره، وانتثرت اللآلئ على الأنس بوصفه، إن ذكر اسم دون اسمه، فهو عار، الله الذى مهما تعددت مظاهر الوجود، فكلها بجانب ذاته عين الضعة.. ذاته أعلى من كل شيء نعرفه، فكيف يتأتى لنا شرحها.. ولأن عقل أى إنسان لايسمو إليه، فلا أحد يعرف كنهه، فناء العالم إثبات لوجوده، وخلق العالم دليل على ذاته، صفاته هى ذاته، وذاته هى صفاته... كل الوجود ظل لحضرته وكل الآثار من صنع قدرته، أصاب القول فى الذات من قال هذا القول الحق: إن التوحيد إسقاط الإضافات.

يا إلهى رحمتك بحر عام، تكفينا قطرة واحدة منه، إن غسلت ذنوب الخلق الآثمين فى ذلك البحر دفعة واحدة، فلن يتعكر ذلك البحر لحظة، بل سيعم الضياء! وماذا يعتبر بحر الرحمة إن قسمت قطرة واحدة منه على الخلق، ما أجمل النداء من الحق والتلبية من العبد، فبين الحق والعبد نداء وتلبية![1]

* * *

(١) فريد الدين العطار : إلهى نامه، ترجمة : د. ملكة على التركى، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٠، ٢.

وقد شارك فى هذا الحمد والثناء شاعر الإنسانية وأديبها سعدى الشيرازى[١] سواء فى ديوانه أو فى كتابيه الشهيرين "كلستان" و"بوستان" ولحسن الحظ فقدترجم المرحوم الأستاذ الدكتور أمين عبد المجيد بدوى هذين الكتابين إلى اللغة العربية، وقد عنون ترجمة كلستان إلى اللغة العربية باسم "جنة الورد" بينما جاء عنوان الترجمة العربية للبوستان تحت عنوان "أريج البستان"[٢] وقد اخترت أبياتًا من ترجمةأريج البستان ليدرك القارئ كم كان سعدى الشيرازى عابداًمبتهلاً إلى الله عز وجل.

تمجيد الخالق

- باسم الله فاطر الروح، الحكيم المبدع الكلام فى اللسان.

- الإله الوهاب المعين، الكريم العفو، قابل التوب.

- العزيز الذى كلُّ من أعرض عن بابه، لم يجد عزه بأى باب قصده.

- رءوس الملوك الصيد ساجدة بحضرته على أرض الاحتياج

٥- لايأخذ الطغاة على الفور، ولايطرد التائبين بالجور.

---

(١) سعدى الشيرازى: ولد بمدينة شيراز بين عامى ٥٨٠ و ٦٠٠ هـ، التحق فى صغره بالمدرسة النظامية فى بغداد، تلك المدرسة الشهيرة التى أسسها الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك، وقد زار بعد ذلك كلا من الشام والجزيرة العربية وآسيا الصغرى ومصر ومراكش والحبشة، وقد وفرت له هذه الرحلات الفرصة للالتقاء بالمفكرين والعلماء فى هذه البلاد. نظم بالفارسية والعربية وله ديوان كبير إلى جانب كتابيه الشهيرين "بوستان" و"كلستان" وقد عاصر اجتياح المغول لبغداد فرثاها رثاءً مريرًا. ويقال إنه توفى عام ٦٩١ هـ.

(٢) ترجم هذان الكتابان عدة ترجمات عربية، بالإضافة إلى ترجمات الدكتور أمين عبد المجيد بدوى، فقد ترجمهما الدكتور محمد موسى هنداوى، ولكننى آثرت الأخذ عن ترجمة الدكتور أمين عبد المجيد لتقيده بالنص الفارسى وعدم الأخذ بالمعنى العام.

- كم يغضب من الفعل القبيح، ولكن إن رجعت إليه طوى ماجوى

- رب الأوج والحضيض، لم يغلق باب الرزق أمام أحد لعصيانه.

- الكونان قطرة من بحر علمه، يرى المجرم ويستره بحلمه.

- أديم الأرض سفرته العامة، والعدو والصديق سواء على هذا الخوان المباح.

١٠- لو كان يعجل على الظالم، فمن كان يجد الأمان من قهره؟

- بريئة ذاته من تهمة الضد والجنس، غنى ملكه عن طاعة الجن والإنس.

- طوع أمره كل شيء وكل شخص، بنو آدم والطير والنمل والذباب.

- اللطيف الباسط الكرم، المدبر الأمر، الحافظ الخلق، العالم السر.

- إليه ينتهى الكبرياء والعزة والعظمة والأنية، لأن ملكه قديم وذاته غنية.

١٥- حلمه بصير بالأحوال غير الموجودة، لطفه خبير بالأسرار غير المقولة.

- حافظ بقدرته اليفاع والقاع، ورب ديوان يوم الحساب.

- غير مستغن عن طاعته ظهر أحد، ولا اعتراض لأحد على قوله.

- العالم متفق على ألوهيته، وقد عجز عن كنه ماهيته.

- لم يدرك البشر ماوراء جلاله، ولم يدرك البصر منتهى جماله.

٢٠- لايطير فوق أوج ذاته طائر الوهم ولاتصل إلى ذيل وصفه يد الفهم.

- لا الإدراك يصل إلى كنه ذاته، ولا الفكر يصل إلى غور صفاته.

- لن يصل أبداً إلى المنزل، من اختار طريقًا خلا من طريق النبى

- فلا تخل أيها السعدى أنه يمكن السير فى طريق الصفا على غير أثر المصطفى [1]

(١) أريج البستان، سعدى الشيرازى ترجمة د. أمين عبد المجيد بدوى، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨ ص ١٨:٢٠

والنص الفارسى هو :

بنام خداوند جان آفرين	حكيم سخن در زبان آفرين
خداوند بخشندهء دستگير	كريم خطا بخش پوزش پذير
عزيزى كه هر گز درش سربتافت	بهر در كه شد هيچ عزت نيافت
سر پا دشاهان كرد نفراز	بدرگاه او بر زمين نياز
٥- نه گرد نكشان را بگيرد بفور	نه عذر آوران را براند بجور
وكَرخشم گيرد زكردارزشت	چو باز آمدى ما جرا در نوشت
وليكن خداوند بالا وپست	بعصيان در رزق بركس نبست
دو كونش يكى قطره از بحر علم	گنه بيند وپرده پوشد بحلم
اديم زمين سفرهء عام اوست	برين خوان يغماچه دشمن چه دوست
١٠- اگر برجفا پيشه بشتافتى	كه از دست قهرش امان يافتى؟
برى ذاتش أز تهمتى ضد وجنس	غنى ملكش از طاعت جن وانس
پرستار امرش همه چيزوكس	بنى آدم ومرغ ومور ومگس
لطيف كريم چيز كستر كار ساز	كه دار اى خلقست وداناى راز
موورا رسد كبريا ومنى	كه ملكش قديمست وذاتشب غنى
١٥- بر أحوال نابوده علمش بصير	باسرار ناكفته لطفش خبير
بقدرت نگهدار بالا وشيب	خداوند ديوان روز حسيب
نه مستغنى از طا عتش پشت كس	نه بر حرف أو جاى انگشت كسى =

كان سعدى شاعر الإنسانية، لذا نراه يركز على كرم الله وسخائه مع خلقه، وعفوه عن الخطائين وكلنا خطاءون، فهو لايعجل بمحاسبة المسىء ومعاقبته على أى فعل خاطئ اقترفه، بل يصبر عليه لعله يرجع عن المعصية ويستغفر ربه الغفور الودود ذا الرحمة قابل التوب وغافر الذنب، الذى لم يحرم عطاءه أحداً من خلقه، سواء فى ذلك المطيعون أو المسيئون لأنفسهم بكفرهم وصدهم عن سلوك طريق الإيمان والصلاح والتقوى.

وإذا انتقلنا إلى تصفح مقدمة كتابه الثانى وهو "كلستان" فسنجد سعدى الشيرازى قد قدم له بمقدمة يبتهل فيها إلى الله ابتهال العابد العائذ إلى حظيرة الإيمان المقر بربوبية الإله الأعظم، وإذا كانت مقدمة كتابه الأول "بستان" قد جاءت منظومة، فقد جاءت مقدمة كتابه الثانى "كلستان" وهو كتاب نثرى فى المقام الأول - نثراً ولكنها مدبجة بالعديد من الأبيات؛ ومنها ما ترجمته:

"المنة لله عز وجل، فإن طاعته موجبة المقربة، وفى شكره مزيد النعمة، كل نَفَس يدخل مُمدٌ للحياة، وعندما يخرج مفرحٌ للذات، ففى كل نفس نعمتان، وكل نعمة تستوجب شكراً.

= جهان متفق بر آلهيتش | فرو مانده از كنه ماهيتش

بشر ماوراى جلالش نيافت | بصر منتهاى جمالش نيافت

٢٠- نه برا وج ذاتش پرد مرغ وهم | نه در ذيل وصفش رسد دست فهم

نه ادراك در كنه ذاتش رسيد | نه فكرت بغور صفاتش رسيد

خلاف پيمبر كس ره گزيد | كه هرگز بمنزل نخواهد رسيد

مپندار سعدى كه راه صفا | توان رفت جز بر پى مصطفى

(كليات سعدى شيرازى: باهتمام محمد على فروغى : "بوستان" تهران ١٣٢٠ ش ص ١-٤).

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(١)

غيوث رحمته التى لاتحصى عمت جميع الأنام، وموائد نعمته التى لايضن بها مبسوطة فى كل مكان، لايهتك ستر العباد بما اقترفوا من الإثم الفاحش، ولا يقطع الرزق عن المرزوقين بما ارتكبوا من الخطأ المنكر.

بيت وترجمته

ياكريما ترزق المجوس والنصرانى من خزانة الغيب

كيف تحرم الأحباء، يا من ترعى الأعداء؟

وفى الخبر عن سيد الكائنات وفخر الموجودات، ورحمة العالمين، وصفوة الآدميين وتتمة درر الزمان، محمد المصطفى صلى الله عليه وآله:

شفيع مطاع نبى كريم ∴ قسيم جسيم وسيم بسيم

شعر

بلغ العلى بكماله ∴ كشف الدجى بجماله

حسنت جميع خصاله ∴ صلوا عليه وآله

إذا رفع عبد مذنب مشتت الحال فى حضرة الحق جل وعلا يد الإنابة بأمل الإجابة، فلم ينظر الله تعالى إليه، فدعاه ثانية فأعرض عنه كذلك، فدعاه مرة أخرى بتضرع واستكانة فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ياملائكتى قد استحييت من عبدى، وليس له غيرى فقد غفرت له، يعنى أجبت دعوته وقضيت حاجته لأنى أستحى من كثرة دعاء عبدى وضراعته.

(١) سورة سبأ، آية : ١٣.

بيت وترجمته

انظر إلى كـــرم الإله ولطفـــه .·. قـد أذنـب عـبـده واسـتـحى هو !

العاكفون على كعبة جلاله معترفون بالتقصير عن عبادته قائلين : ماعبدناك حق عبادتك، والواصفون حلية جماله حائرون يقولون: ماعرفناك حق معرفتك!(١)

هكذا حرص سعدى - كما فعل فى مقدمة بوستان على أن يعبر عن كرم الله وعفوه وقبوله عذر التائبين، وصفحه عن معاصيهم، ولعل فى ذلك دعوة لكل آثم وعاص ألا ييأس من رحمة الله، فبابه مفتوح أمام كل التوابين الأوابين، وكرمه يفوق كل جرم، وعفوه يشمل كل مذنب، فهيا إلى التوبة ياعباد الله!

ومن الكتب التى ازدانت مقدمتها بالحمد والثناء والابتهال إلى الله، كتاب راحة الصدور وآية السرور لمؤلفه محمد بن على بن سليمان الراوندى(٢)، وقد أورد فى مقدمة كتابه ديباجة فى حمد البارى جعلها مزيجًا من الشعر والنثر، ومما قاله فى هذه الديباجة، ماترجمته:

- الحمد لله مبدع الأكوان، وخالق الربيع ونيسان

- رب الصيف والخريف، ورب كل شىء فى العالم

- خالق العقل والروح أولا، لأنهما مفتاحا جميع المغلقات

---

(١) جنة الورد (كلستان) لسعدى الشيرازى: ترجمة د. أمين عبد المجيد بدوى، المركز العربى للصحافة، القاهرة ١٩٨٣ ص ٣٧، ٣٩.

(٢) الراوندى: اسمه الكامل هو أبو بكر نجم الدين محمد بن على بن سليمان بن محمد بن أحمد بن الحسين بن همة الراوندى، وهو ينتسب إلى أسرة من أهل العلم فى بلدة راوند من أعمال مدينة قاشان توفى والده وهو صغير فتكفل به خاله تاج الدين أحمد بن محمد بن على الراوندى حيث دربه على جمع العلوم والفنون المتداولة فى ذلك الوقت، ثم التحق بالبلاط السلجوقى وبدأ فى كتابة "راحة الصدور وآية السرور" عام ٥٩٩ هـ وأنجزه فى عامين أو ثلاثة.

- وهو أيضاً خالق النملة والفيل، وهو من أوجد نهر النيل

٥- وهو الذى يخرج النهار من الليل المظلم، وهو الذى يضىء شمس الكون

- وهو الذى بسط الأرض فوق الماء، وهو الذى أخرج الدر الحر من الماء

- وهو الذى رفع السماء فوق الأرض وزينها كما يليق

- هو الله الذى خلق الوهاد والجبال، وبسط عليها بساطًا من الخضرة(١)

شكرًا جزيلا لله جل جلاله وثناؤه، فإن التوفيق على شكره يعتبر من أجل نعمه، وحمدًا كثيرًا للخالق تعالى كماله وكبرياؤه، فإن اللسان الشاكر يعتبر من مُخبآت كرمه .

ولله مئات الآلاف من مثل هذا الثناء والحمد .. فهو الملك الذى لا تستطيع رياح العزل العاتية أن تقطع أطناب كبريائه، والشكر الحق لخالق الخلق الذى لا يجلس حاجب على أعتاب جلاله، حتى لايصد عنه طلاب أفضاله....

---

(١) هذا هو أصل الأبيات: النسخة الفارسية، ص ١.

سپاس از جهان أفرين كرد كار — خداوند نيسان وفصل بهار

خداوند فصل تموز وخزان — خداوند هر چيزى اندر جيهان

خرد را وجان را نخست آفريد — كه هستند مر بند هارا كليد

همو آفريننده‌ء مور وپيل — پديد أور يدست درياى نيل

٥- ز بعد شب تيره روز آورد — همان هو ر گيتى فروز آورد

همى دارد او گوى خاكى بر آب — پديد آرد از آب در خوشاب

بر از خاك چرخ بلند آفريد — بياراست اورا چنان چون سزيد

خدايى كه كوه وزمين آفريد — ز سبزه باطى بد و دركشيد

وهو القادر الذى لاتصل يد الزوال إلى كبريائه، وهو الرازق الذى لايبلغ الفهم والكمال حد آلائه وهو القادر ذو الكمال، والصانع ذو الجلال.. وهو الذى جعل بياض النهار فاتحة لأرزاق الخلق، وجعل الليل مطية لراحتهم.

- افتتحت هذا الكتاب باسم الله، فهو الذى يمنح العطاء، ويغفر الأخطاء

- وهو الملك الذى يخلق من القطرة عالما، ويبدع من الزفرة آلافًا من الأرواح

- لايحيط الوهم بجلاله، ولايحيط الفهم بكماله

- وهو المعبود مدبر الأنام والبلاد، وهوالمقصود اللطيف بالخلق والعباد

- لايتسرب الخيال إلى جلاله، ولايتطرق المحال إلى أقواله[1]

وهو عالم أبدًا، ناطق بذاته، خالق لايزال، رزاق ذو كمال، صفة خلقه ليست بإيجاد المخلوقات، ونعت رزقه ليس بإبداع المرزوقات، وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لايزال عليها أبديا.

---

(١) راحة الصدور وآية السرور: راجع الأصل الفارسي، نشر محمد إقبال وتصحيح مجيتى ينوى بالمنشور فى طهران عام ١٣٣٣ ش، ص ١-٥، وكذلك الترجمة العربية المنشورة بالقاهرة عام ١٩٦٠ ص ٣٥-٣٩.

وهذا هو الأصل، النسخة الفارسية ص : ٢، ٣.

كرديم آغاز اين بنام خداى   هم عطا بخش وهم خطا بخشاى

ملكى كز نمى جهان آرد   وز دمى صد هزار جان آرد

نه جلالش بوهم در گنجد   نه كمالش بفهم در گنجد

اوست معبود وكارساز همه   اوست مقصود ودلنواز همه

نه جلالش خيال بر تابد   نه كلامش محال بر تابد

الحدوث والقدم، والوجود والعدم، عبيد قدرته وخدم عزته، والرحمة هى صاحبة ديوان جلاله، والعزة هى حاجب باب كماله، وذاته المنزهة خارجة عن حدود الزمان والمكان،فلا الزمان يحد بقاءه، ولا المكان يبلى ذاته.

* * *

- هو الذى رفع قبة السماء الخضراء، وهو الذى خلق أديم الغبراء

- يجعل القمر أحيانًا يضيء أطراف الشهباء، ويجعل الشمس أحيانًا بأشعتها الذهبية تطوق أديم الدهماء

- هو الذى ذاته وحيدة، وهو منزه عن النظير وصفاته فريدة

- الرءوس ساجدة فى عبوديته، وقد أجمعت على ذلك طوعًا أو كرهًا.(١)

وهكذا شارك هذا الأديب المؤرخ أقرانه من المؤلفين والكتاب والشعراء فى بدء أعمالهم بحمد الله والثناء عليه، وتقديم الشكر على عظيم نعمائه، وجميل كرمه، وقد عبر عن أفكاره شعرًا ونثرًا، مما يدل على قدرته على النظم والنثر، ومع أن هذا الكتاب - راحة الصدور - مؤلف فى التاريخ، حيث سجل فيه الراوندى تاريخ السلاجقة منذ

---

(١) وهذا هو أصل الأبيات، النسخة الفارسية، ص :٥.

كـه بر افـراخت قـبـهء خـضـرا	كـه درو سـاخـت كلهء غـبـرا
كـه ز خـور كـرد طرف اشـهب مـاه	كـه ز زر سـاخـت طوق ادهـم شـاه
آن خـد ايبى كـه ذات أو يكتـاسـت	در صـفـت بى نظيـر وبى همـتـاسـت
بـر خـط بـنـدگى أو سـرهـا	مـجـتـمـع گـشـتـه طوعـا أو كـرهـا

بداية عـهدهـم وحـتـى النهـاية تقريبًـا، فقـد حـرص على أن تكون الديبـاجـة قطعة أدبيـة متميزة فى مدح الخالق، والشكر على نعمه الظاهرة والخفية، وذلك طمعًا فى رضـائه والفوز بجنته.

* * *

ومن الكتب النثرية ذات الاهتمـام الكبيـر لدى كل محبى الأدب الفـارسى كتاب قابوسنامه، تأليف الأمير عنصر المعالى كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمگير بن زيار[١] والذى كتبه ليكون درسا لابنه وذخيرة ينهل منها بعد وفاة أبيه، وقد بدأه بحمد الله وضرورة معرفته حق المعرفة؛ وقد قال ماترجمته:

اعلم يابنى أنه لاشىء قط من كائن أو معدوم أو يمكن أن يكون لم يصر معلومًا للخلق كما هو، وأنت فى معرفة الخالق عاجز، إذ ليس للمعرفة إليه سبيل، وكل ماعداه صار معروفا وإنما تكون عارفا لله عندما تكون غير معروف، ومثال المعرفة كالمنقوش والعارف كالنقاش، فما لم يكن فى المنقوش قبـول للنقش، لايستطيع نقاش أن ينقش عليه... فعليه يكون فى كل معرفة قبول للعرفان والخالق غير قابل للمعرفة ، فتأمل فى نفسك ولاتتـأمل فى الخـالق... انظر إلى المصنوع واعرف الصانع، وتفكر فى آلاء الخالق ونعمـائه ولاتفكـر فى ذاته.. كما قال النبى عليه السلام "تفكروا فى آلاء الله

---

(١) الأميـر عنصـر المعـالى كيكاوس بن اسكندر بن قـابوس بن وشـمگيـر بن زيار، الملك السـابع من ملوك الزياريين وقد حكم بين عامى ٤٤١ هـ و٤٦٢هـ فى منطقة كوهستان، وماروى عنه فى كتب التاريخ جد قليل أو عادة يكتفون بذكر أنه مؤلف "قابوس نامه، ويقال إنه قد قضى فترة طويلة من عمره فى حروب مع الغزنويين فى الهند والسداويين فى بلاد الروم، ويقال إنه كان مشغولاً سـواء فى شبابه أو فى كهولته بتحصيل العلوم، وكان إلى جانب كتاباته النثرية قد نظم بعض الأشعار ولكنها تقل جودة عن مستوى نثره.

انظر مقدمة قابوسنامه، تهران ١٣٤٣ ش. ص ١٩-٢١.

ولا تفكروا فى ذاته .. إذا أردت حقيقة التوحيد، فاعلم أن كل شىء فى المجاز صدق فى الربوبية، وكل من عرف الواحد حقا برئ من محض الشرك، الواحد فى الحقيقة هو الله عز وجل، وكل ماسواه مثنى"...[1]

* * *

كان مؤلف قابوسنامه حريصًا كل الحرص على أن يعلم ابنه كيف يعبد الله العبادة الحقة ويعرف من خلال آلائه المعرفة الصحيحة وأن يرى قدرة الله فى صنعه فيدرك عظمته وجبروته، وألا يشغل نفسه بمعرفة ذات الله لأن هذا فوق طاقة كل البشر، وأن يدرك أن الواحد هو الله لاشريك له، أما كل ماعداه فمتصف بالأثنينية. والواحد هو الجدير بالعبادة والتوحيد، وهكذا كان درسًا تربويا نتيجة لما تمتع به المؤلف من حنكة ودراية وإعداد جيد فى الحياة، مكنه كل هذا من أن يبصر ابنه بكل مايضمن له التوفيق والنجاح فى حياته، وأفضل سلاح له فى ذلك سلاح المعرفة الحقة؛ معرفة الله عز وجل .

* * *

(١) كتاب النصيحة المعروف باسم قابوسنامه للأمير عنصر كيكاوس، ترجمة: صادق نشأت وأمين عبد المجيد بدوى، الطبعة الأولى – القاهرة ١٩٥٨، ص : ٥-٥١، وهذا هو النص الفارسى:

بدان أى پسر كه هيچ چيز أز بودنى ونابودنى وشايد كه بود كه آن شناخته مردن نگشت چناكه أوست. وتو در شناخت أفريد كار عاجزى،چه شناخت را در وى راه نيست وجز او همه شناخته گشت. شناسندهء خدا نگاه شوى كه ناشناى شوى، ومثال شناخته چون منقوش است وشناسنده چون نقاش، كه تادر منقوش قبول نقش نبو، هيچ نقاش بروى نقش نتواند كرد.. پس همه شناخنه قبول شناس است، وافريد كار قابل شناخت نيست، وتويگمان در خود نگر، ودر آفريد كار منگر، در ساخته نگر وسازنده را بشناس. در آلا ونعماى آفريدگار أنديسشه كن ودر آفريد گار آنديشه مكن... چنانكه پيغمير ﷺ گفت: تفكروا فى آلاء الله ولاتفكروا فى ذاته.. أگر حقيقت توحيد خواهى، بدانكه هر چيزى كه در مجازاست در ربوبيت صدق لست، وهركه يكى را بحقيقت بدانست از محض شرك برى گشت، يكى بحقيقت خداى عز وجل است، باقى همه دو اند.

(قابوس نامه: تصحيح ومقدمة دكتر أمين عبد المجيد بدوى، تهران ١٣٤٢ ش ص ٧-٨).

وها هو آخر شعراء إيران الكبار، أو مايطلقون عليه: المتحدث باسم إيران بعد الحافظ الشيرازى، صاحب العديد من المؤلفات النثرية والشعرية، إنه الأديب الكبير نور الدين عبد الرحمن الجامى[1] المولود فى خراسان عام ٨١٧ هـ، صاحب نفحات الأنس، وناظم "يوسف وزليخا" عام ٨٨٨ هـ أى وله من العمر سبعون عامًا والذى اعتمد فى نظم بعض جوانب هذه القصة على آيات من القرآن الكريم من سورة يوسف، وعلى ما جاء فى بعض كتب التفاسير وقصص الأنبياء، ومما قاله فى مقدمة هذه المنظومة من ابتهالات إلى الله عز وجل، نذكر ما ترجمته:

- يا إلهى اجعل برعم أملى يتفتح . واجعلنى وردة تتفتح من روضة الخلد

- ثم اجعل روضتى باسمة من تفتح تلك البرمة ، وعطر أنفى من شذى هذه الوردة .

- واجعلنى مقرا بنعمك فى دار الأحزان هذه ، والتى خلت من المواسين

- واجعل لى قلبًا شاكراً ولسانًا ذاكراً

....

٥- تعالى الله القيوم العالم ، مانح القدرة لكل عاجز

- الذى زين الفلك بالكواكب ، وجمّل الأرض بالخلائق

- مانح الرفعة لكل ذى همة عالية ، ومذل كل عابد لنفسه

---

(١) عبد الرحمن الجامى: آخر الشعراء العظام فى إيران، وقد ولد فى خراسان عام ٨١٧ هـ بمدينة جام ومنها أخذ لقبه "الجامى؛ كما يقال بأن شيخه كان اسمه جام أيضًا، وهو شاعر وكاتب له العديد من المؤلفات النثرية الشعرية، وأهمها نثرا: نفحات الأنس، وأهمها شعرا ليلى والمجنون ويوسف وزليخا وكان جامى مجيداً للغتين العربية والفارسية، كما كان واسع المعرفة بالعلوم القرآنية والحديث النبوى الشريف. وقد وظف هذا فى كتبه ومنظوماته وكانت وفاته عام ٨٩٨ هـ.

- غافر الذنب لكل المذنبين، محاسب بالعقاب كل المرائين

- من بحر لطفه تجود سحائب الربيع برونقها على الأشواك والياسمين

١٠ - ومن منجم جوده تملأ ريح الخريف ساحة الخميلة بفُرش ذهبية

- ذاته مبرأة عن الكيف والكم، منزهة عن الانخفاض والارتفاع

- العقل مضطرب أمام ذاته، والقلب عاجز عن المضى فى طريقه

- فإن لم يهدنا بلطفه، لازددنا بعداً عنه لحظة بعد لحظة[1]

(١) راجع ترجمة منظومة يوسف وزليخا إلى العربية والمنشورة بمجلة أخبار الأدب العدد ٣٩ ومابعده القاهرة ١٩٩٤ وقد أعد هذه الترجمة الدكتور عبد العزيز بقوش.

والأصل الفارسى ص ١-٣ من طبعة نادرى١٣٤٧ هـق.

الهی غنچهء أمید بگشای　　گلی از روضهء جاوید بنمای

بخندان از لب آن غنچه باغم　　وزآن گل عطر پرور کن دماغم

درین محنت سرای بی مواسا　　بنعمتهای خویشم کن شناسا

ضمیرم را سپاس اندیشه گردان　　زبانم را ستایش پیشهء گردان

٥- تعالی الله زاهی قیوم دانا　　توانائی ده ء هر نا توانا

فلك را انجمن افروز انجم　　زمین را زیب الجسم ده بمردم

بلندی بخش هر همت بلندی　　به پستی افگن هر خود پسندی

گناه امرز رندان قدح خوار　　بطاعت گیر پیران ریا کار

ز بحر لطف أو ابر بهاری　　کند خار وسمن را آبیاری

١٠- زکان جود او باد خزانی　　کند فرش چمن را زر فشانی

مبرآ ذاتش از چونی وچندی　　مبراتر ز پستی وبلندی

خرد در ذات أو آشفته رائی　　طلب در راه أو میدست ریائی

اگر نهد بلطف خود قدم پیش　　شود زان دوری باد میدم پیش

كما قال مناجياً رب العزة والجلال.

- إلهى ! لقد كنا طلقاء من صورة الوجود، كما كنا أحراراً من خوف الفناء !

- فى البداية خلقتنا من العدم، وقيدتنا بقيد الماء والطين

- وخلصتنا من الضعف والعجز، وأوصلتنا من الجهل إلى العلم

- وأرسلت إلينا كتابا مبيناً، خاطبتنا فيه بالأمر والنهى

٥ - فخلطنا بين الحسن والقبيح، وافرطنا تارة وفرطنا أخرى

- ونادرا ماسلكنا سبيل الأوامر، وكنا نمضى فى طريق النواهى

- ومع ذلك لم تتخل عن دستور العناية، ولم تحجب عنا نور الهداية

- أنت الذى هيأت لى الأسباب، وفتحت أمامى ما للنعمة من أبواب

- وكرمتنى بسعادة الخدمة، ورفعت رأسى بتوفيق السجود

١٠ - وأطلقت لسانى، بشكرك ومنحت قلبى ذكرك !(١)

* * *

(١) الأصل الفارسى من طبعة نادرى ص ٥، ٦.

خداوندا زهستى ساده بوديم ... زبيم نيستى آزاده بوديم

نخست ارنيست ماراهست گردى ... بقيد آب وگل مابست كردى

زضعيف ناتوانائى رهاندى ... زناد زنادانى بدانائى رساندى

فرستادى بما روشن كتابى ... بامر ونهى فرمودى خطابى

٥- ميان خوب وبد تخليط كردم ... گهى افراط وگه تفريط كردم

ره فرمودنيها گم سپرديم ... بنا فرمودنيها پا فشرديم

نكذشتي زدستور عنايت ... نه پوشيدى زما نور هدايت =

وقد وردت بعض هذه الابتهالات فى بداية الكتب الفارسية مسطرة باللغة العربية، ومن هذه المقدمات العربية أورد مثالين:

الأول: تلك المقدمة التى كتبها جلال الدين الرومى[1] فى مقدمة كتابه الكبير المثنوى المعنوى، وعلى الرغم من أن الكتاب بأجزائه الستة جاء نظمًا إلا أن جلال الدين كتب المقدمة التالية نثرًا وباللغة العربية، ومنها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب المثنوى، وهو أصل أصول الدين فى كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر، وشرع الله الأزهر، وبرهان الله الأزهر، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، يشرق إشراقًا أنور من الإصباح، وهو جنان الأظهر ذو العيون والأغصان ، منها عين تسمى عند أبناء السبيل سلسبيلا، وعند أصحاب الكرامات خيرٌ مقامًا وأحسن مقيلاً، الأبرار فيه يأكلون ويشربون، والأحرار منه يفرحون، وهو كنيل مصر شراب للصابرين وحسرة على آل فرعون والكافرين، كما قال يُضل به كثيرًا ويهدى به كثيرًا، وإنه شفاء للصدور وجلاء للأحزان وكشاف القرآن وسعة الأرزاق وتطبيب

= تونى كاسباب كارم ساز كردى	در نعمت برديم باز كردى
كرامت كردى ازخدمت پسندى	بتوفيق سجودم سر بلندى
١٠- زبانم را بذكر خود گشادى	دلم را ذوق باد خويش دادى

(١) جلال الدين الرومى: ولد ببلخ عام ٦٠٤ ثم هاجر مع والده إلى أسيا الصغرى واستقر بمدينة قونية، أعظم شعراء العرفان فى اللغة الفارسية، ديوانه المشهور أطلق عليه اسم ديوان شمس تبريز على اسم مرشده، وكتابه الشعرى الثانى هو المثنوى المعنوى الذى يقع فى ستة أجزاء، وقد ترجم الدكتور محمد كفافى الجزء ين الأول والثانى بينما ترجم الزميل المرحوم الدكتور إبراهيم شتا الأجزاء الستة.

الأخلاق بأيدى سفرة كرام بررة، يمنعون أن لايمسه إلا المطهرون، لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، والله يرصده ويرقبه، وهو خير حافظًا وهو أرحم الراحمين(١).

لقد حرص جلال الدين الرومى على تقديم كتابه المثنوى على أنه معنى بشرح وتفسير ماجاء فى القرآن الكريم من أحكام وسير، وأنه قد ألزم نفسه بعدم الخروج فى أى كلمة أو أى حكاية عما جاء من حكم ومواعظ وسير فى كتاب الله العزيز الذى لايأتيه الباطل، ولا يمسه إلا المطهرون الصالحون وكما تعهد الله بالحفاظ على القرآن الكريم أبد الأبدين، فإن الله سيحفظ كذلك كل ماكتب من تفاسير وشروح وتوضيح للقرآن الكريم ومنها هذا الكتاب ألا وهو كتاب المثنوى المعنوى لجلال الدين الرومى، وقد حفلت هذه العبارة بالإشارة إلى العديد من الآيات القرآنية سواء بنصها أو بمعناها، دلالة على عمق الوعى الدينى والثقافة الإسلامية لدى جلال الدين الرومى، وليس هذا بغريب مادام قد جعل كتابه المثنوى كما قال شرحًا وتفسيرًا وتوضيحًا لبعض ماجاء فى القرآن الكريم من تعاليم وقصص وسير.

ومن الكتب الفارسية النثرية التى حرصت على أن تكتب الحمد والثناء الوارد فى مقدمة الكتاب باللغة العربية، كتاب مقامات حميدى لمؤلفه حميد الدين عمر بن محمود البلخى(٢) ومما جاء فى هذه المقدمة مايلى:

الحمد لله الذى شرفنا بالعلم الراسخ، وعرفنا بالدين االناسخ، وعلمنا حقائق الأحكام وحملنا دقائق الحلال والحرام، ميزنا عن طبقات الأنعام وخصصنا بمزايا الإنعام، الذى أنشأ فى الهواء من السحب أمواجًا، وأبدع فى السماء من الشهب

---

(١) مثنوى جلال الدين الرومى: ترجمة . محمد عبد السلام كفافى حـ ١ الطبعة الأولى صيدا ١٩٦٦، ص: ٧٠ -٧٢.

(٢) حميد الدين البلخى: من علماء خراسان وقد تولى منصب قاضى القضاة فترة فى بلخ أيام السلطان سنجر، وله عدة مؤلفات نثرية وشعرية، أهمها مقاماته التى عارض بها الهمدانى والحريرى.

أفواجًا، وأنزل من المعصرات ماءً ثجاجًا، دارت الأفلاك بتدويره، وسارت الأملاك بتقديره. له الفضل والأفضال والقدرة والكمال، لا إله إلا هو الكبير المتعال، نشهد به لا عن ارتياب ونؤمن به لاعن اختلاب، ونتوكل عليه فى جيئة وذهاب. إيمان من اعترف بذنوبه، وإيقان من أقر بعيوبه، ونشهد أن محمدًا خير العباد وسيد البشر فى البلاد، وصاحب القضيب[1] والسنان الخضيب وراكب البراق إلى المعراج، السائق الذى أنقذنا من تيه الحيرة بمصابيح جبينه، وفتح لنا أبواب المناجح بمفاتيح يمنه، وعلمنا دقائق شرعه ودينه، صلى الله عليه وآله وعلى الذاهبين فى سبيل الله والمهاجرين والأنصار وسلم تسليمًا كثيرًا[2].

لقد ألف حميد الدين كتابه هذا تقليدًا لمقامات بديع الزمان ومقامات الحريرى ولعل هذا هو الذى دفعه لكتابة المقدمة باللغة العربية ليثبت أنه قادر على الكتابة بها، وتقليد أستاذيه بديع الزمان والحريرى. كما يلاحظ أن أسلوبه مفعم بالمحسنات شأنه فى ذلك شأن كل من كتبوا المقامات، أضف إلى ذلك ماتضمنه من جمل مستوحاة من القرآن الكريم فى معناها ومبناها، مما يدل على سعة معرفته بعلوم القرآن وآياته وأحكامه.

ولم تقتصر هذه المقدمات الحافلة بالأثر الإسلامى فى إنتاج الأدباء الفرس شعراء كانوا أم كتابًا على تلك الكتب التى ارتبطت بالعلوم الإسلامية وبالدعوة إلى الأخلاق، أو حتى بالكتب التى ألفت أصلا بعد دخول الإسلام أرض إيران، بل تعدت ذلك إلى مقدمات الكتب التى كانت موجودة قبل الإسلام سواء أكانت هندية الأصل وترجمت إلى البهلوية قبل الإسلام أو كانت من أصل پهلوى. وعندما أراد الفرس بعد الإسلام ترجمة هذه الكتب إلى الفارسية الإسلامية، فقد حرص مترجموها على أن يكتبوا لها

(١) أى السيف.

(٢) قاضى حميد الدين البلخى، مقامات حميدى، نشر دانشكده ، أدبيات أصفهان ١٣٣٩ ش ، ص ١.

مقدمات جديدة تتفق والدين الإسلامى الذى سيطر على كل مناحى الحياة فى إيران الإسلامية، ومن هذه الكتب المترجمة إلى الفارسية الإسلامية نقلاً عن اللغة البهلوية، والتى نقلتها بدورها عن السنسكريتية، كتاب سندباد نامه(1) شأنه فى ذلك شأن كليلة ودمنة، وسأكتفى بذكر بعض ماجاء فى مقدمة سندباد نامه حيث إن كتاب كليلة ودمنة متداول بالعربية ولسنا فى حاجة للنقل عنه:

خطبة الكتاب(2)

الحمد والثناء والشكر والمنة .. للقادر الذى لايحط غبار الزوال على جمال كماله، والكامل الذى لا تأخذ به النقصان بذيل جلاله، لاتنتهى خطرات الخواطر إلى ساحة جبروته، ولاتصل خطوات الضمائر إلى سياحة مساحة ملكوته، شيد بناء قصر السماء المشيد دون آلة أو أداة، وخاط قباء الزمان الزمردى المُعلم دون حاجة إلى خياط ومقراض، وأوصل جوهر الماء إلى جرم النار بواسطة الحرارة، وأرسل جسم الهواء إلى مركز الثرى بواسطة البرودة ...

وبامتزاج البخار والدخان فى فضاء الهواء، وجد الرعد والبرق والسحاب والرياح والشهب.. وفطر أجناس وأنواع الحيوان واصطفى الآدمى من بين أنواع الحيوان وأصناف الأحياء، وصيره زبدة الموجودات وفهرست المخلوقات، كما قال: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(70).(3)

---

(1) سندباد نامه: أصله هندى نقل قبل الإسلام إلى البهلوية وترجم بعد ذلك إلى الفارسية الإسلامية، وقد قام الدكتور أمين عبد المجيد بترجمته إلى اللغة العربية ونشر بالقاهرة عام ١٩٧٨.

(2) المرجع السابق ص ٢٥ ومابعدها، والأصل الفارسى ص ١١ ومابعدها، انظر النسخة الفارسية، تهران ١٣٣٣ ش.

(3) سورة الإسراء، آية ٧٠.

وبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أجل مصالح العباد ومناظر المعاش وترتيب البلاد وتنظيم العباد، فأمر بإبلاغ الرسالة وإظهار الدلالة،، وبعث بالرسالة على ألسنتهم بطريق الوحى والإلهام، ووضع قوانين الشرائع على خلاف الطبائع، وأمر بالطاعة والعبادة بالعدل والسياسة. كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1] وبين العلم والحكمة والشريعة والطريقة من أجل إحكام واستحكام قواعد عقائد العقلاء، وتأكيد وتمهيد أساس مباني أعمالهم وأفعالهم، كما قال الله تعالى عز وجل: ﴿وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾[2] .. وهو القائل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[3] .. الكتاب: العقل، الميزان: الاجتهاد، الحديد: السيف، لينظر العقلاء فى إعجاز القرآن، ويعرفوا شواهد القدرة ودلائل الصنعة بالعقل والحكمة والقياس والمجاهدة، ويمتنعوا عن سير الأفعال الذميمة وصور الأعمال غير المرضية، ويخاطبوا الجهال سينى المآل أولاً بالحجة ثم يعرضوا السيف، لأن الجاهل لايخشى العذاب الآجل بلا عقاب عاجل، ولايجتنب تهييج الفتنة والتحريض على الفساد.

وكما أن الانقياد لأولى العزم من فرائض الفعل، فإن الامتثال لأولى الأمر من لوازم الشرع، وكما أمر الأنبياء والرسل بتبليغ الرسالة وإفشاء الدلالة وإظهار المعجزات، أمر الولاة والسلاطين باستعمال العدل واستظهار الفضل كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[4].

* * *

(١) الذاريات: آية : ٥٦.

(٢) الأنعام: آية : ٥٩.

(٣) الحديد: آية : ٢٥.

(٤) النحل: آية : ٩٠.

وهكذا تأثر جميع الأدباء الذين عاشوا فى إيران منذ الفتح الإسلامى وحتي اليوم بالإسلام قلبًا وقالبًا، وإذا أقدم أحدهم على نقل كتاب باق عن أيامهم قبل الإسلام إلى لغتهم الفارسية الحديثة، فإنه سيخضع هذا الكتاب إلى الاتجاه الإسلامى العام فى إيران، سواء فى المقدمات التى يدبجونها فتأتى مليئة بالعديد من الآيات القرآنية والإشارات الإسلامية، أو حتى لو كان فى الكتاب إشارات تتنافى مع الإسلام فإنهم يبدلونها بما يتواءم مع الإسلام، وهذا ماحدث فى الترجمات الفارسية الإسلامية لكتاب كليلة ودمنة وكذلك هذه الترجمة لكتاب سندباد نامه، والذى جاءت مقدمته غاصة بالآيات القرآنية والنابضة بالروح الإسلامية.

* * *

إذا كنا قد ركزنا حتى الآن على ما جاء فى مقدمات المنظومات والكتب من حمد لله والثناء عليه والابتهال إلى المولى عز وجل، فليس معنى هذا أن الأدب الفارسى قد قصر هذه المعانى على تلك المقدمات، وإنما حفلت العديد من المنظومات الشعرية والكتب النثرية بالعديد من هذه المعاني داخل متون هذه المؤلفات النثرية أو الشعرية أو فى نهايتها، ومما جاء فى خاتمة پند نامه للعطار، أورد ما ترجمته:

- إلهى لتشملنا جميعًا برحمتك، ولتصفح عن جميع ذنوبنا
- إننا عاجزون، وما أكثر آثامنا، ولكن ليس لنا من ملجأ سواك
- إن تدعُنا أو تبعدنا، فنحن عبيدك، وكلنا رضاء وسرور بحكمك[1].

---

(١) النص الفارسي: هو :

يا إلهى رحم كن برما همه — عفو كن جمله كناه ما همه
عاجزيم وجرمها كرده بسى — نيست مارا غير تو ديكر كسى
كر بخوانى ور برانى بنده ايم — هرچه حكم تست از آن خرسنده ايم

- فريد الدين العطار: پند نامه، كتانجانه شمس ١٣١٧ ش تهران، ص ١٢٨.

وقد جاء فى خاتمة الباب العاشر من "بوستان" سعدى وهو آخر الكتاب، تلك المناجاة التي أورد ترجمة لبعض أبياتها:

في التضرع إلى الله

- إلهى، انظر إلينا بعين الجود، لأن الجرم جاء من العباد فى الوجود
- جاء الجرم من العبد الذليل الحقير، بأمل العفو من الله العلى الكبير
- أيها الإله الكريم لقد تربينا برزقك، وقد اعتدنا إنعامك ولطفك
- مادمت قد جعلتنا أعزاء فى الدنيا، فإننا نتطلع ونتوقع عين هذا أيضًا فى العقبى
٥- أنت وحسب تهب العزة والذلة، وعزيزك لايرى من أحد مذلة
- يا إلهى! بعزتك لاتجعلنى ذليلا، ولا تخجلنى بذل جرمى
-لاتسلط على رأسى من هو مثلى، وإذا عوقبت، فمن يدك أفضل
- يا إلهى بحق ذات ألوهيتك، وبأوصافك التي لامثيل ولا شبيه لها
- وبلبيك حجاج البيت الحرام، وبمدفون يثرب عليه السلام
١٠- إن تدركنا وتغيثنا من عار القول بالثنوية فى تلك الورطة، ورطة الاحتضار
- ولاتعصب عينى عن وجه السعادة، ولا تعقل لسانى وقت النطق بالشهادة
- ارفع سراج يقينى على الطريق واقصر يدى عن العمل السيئ.
- وحول عينى عما لايليق رؤيته، ولاتساعدنى على ا لمستقبح غير المرضى

- يكفيني شعاع شمس لطفك، لأنه لايراني أحد إلا في شعاعك

١٥- يا إلهي لاتطردني بذلة من بابك، لأنه لايوجد لي باب آخر[1]

* * *

ومن ابتهالات ناصرو خسرو[2] نذكر ما ترجمته:

---

(١) النص الفارسي؛ هو :

- خداوند گارا نظر کن بجود | گه جرم آمد از بند گان در وجود
- گناه آید از بندهء خاکسار | بامید عفو خداوند گار
- کریما برزق تو پرورده ایم | بانعام ولطف تو خو کرده ایم
- چو ما را بدنبال کردی عزیز | بعقبی همین چشم داریم نیز
٥- عزیزی وخواری تو بخش وبس | عزیز تو خواری نبیند ز کسي
- خدایا بعزت که خوارم مکن | بذل گنه شرمسارم مکن
- مسلط مکن چون منی برسرم | ز دست تو به گر عقوبت برم
- خدایا بذات خداوندیت | باوصاف بیمثل ومانندیت
- بلبیك حجاج بیت الحرام | بمدفون يثرب علیه السلام
١٠- که مارا در آن ورطهء یکنفس | زننگ دو گفتن بفریاد رس
- که چشم زروی سعادت مبند | ز بانم بوقت شهادت مبند
-چراغ یقینم فرا راه دار | ز بد کردنم دست کوتاه دار
- بگردان نادیدنی دیده ام | مده دست بر ناپسندیده ام
- ز خورشید لطف شعاعی بسم | که جزدر شعاعت نبیند کسم
١٥- خدایا بذلت مران از درم | که صورت نبندد دری دیگرم

(سعدى شيرازى: بوستان، باب دهم، ص : ١٦ ومابعدها)

والترجمة العربية منقولة عن أريج البستان ترجمة د. أمين عبد المجيد بدوى ص: ٢٦٨.

(١) ناصرو خسرو: ولد فى قباديان ببلغ عام ٣٩٢ التحق بالبلاط الغزنوى ثم بالبلاط السلجوقى بعد ذلك، ولكنه زهد هذه الأعمال وآثر السياحة حيث زار الشام والجزيرة العربية واستقر فترة بالقاهرة وقد سجل رحلته هذه فى كتابه الشهير سفر نامه. وله ديوان شعر كبير كذلك إلى جانب كتاب آخر هو زاد المسافرين . وقد توفى عام ٤٨١ هـ.

- أربعة أشياء هى التى تؤنس روحى طوال الزمان

هى الزهد والعلم والعمل وترتيل القرآن

- وعينى وقلبى وأذنى أثناء الليل الطويل

تكرر النصح والموعظة لجسدى الضعيف إلى كل أمر حرام

- فتقول العين: بربك احفظنى من التطلع إلى كل حرام

وصنى من الوقوع فى الشرور والخطايا والآثام

- وتقول الأذن: اسدد على السبيل وأغلق على الطريق

حتى لا أستمع للأكاذيب والأباطيل المليئة بالتلفيق

- يقول القلب: بربك احفظنى من التردى فى المطامع والأهواء

وحصنى من نزعات الهوى، كما يفعل الرجال الأصفياء[1]

* * *

(١) أدوارد براون: تاريخ الأدب فى إيران حـ٢ ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربى القاهرة ١٩٥٤ ص ٢٩٥، وعنه أيضا ننقل النص الفارسى:

- خواندن فرقان وزهد وعلم وعمل ... مؤنس جانند هر چهار مرا

- جشم ودل وگوش هريكى همه شب ... پند دهد باتن نزار مرا

- چشم هميگويد از حرام وحرم ... بسته همىدار زينهار مرا

- گوش هميگويد از محال ودروغ ... راه بكن سخت واستوار مرا

- دل چكد گويدم همى زهوا ... سخت نگهدار مرد وار مرا

وهكذا نرى أن الابتهال إلى الله عز وجل وتقديم الشكر والثناء على عظيم نعمه التي لاتعد ولاتحصى قد حفل به الأدب الفارسى شعره ونثره سواء فى مقدمة المنظومات أو فى متونها أو حتى فى خواتيمها، هذا الابتهال الذى يعبر عن روح إسلامية، وعن نزعة إيمانية ترجو رضاء الله ورضوانه، وتبغى عفوه وصفحه، وأن يتقبل خالص الأعمال الحسنة، ويطهر القلوب من كل ما يبعدها عن الطريق القويم، فهو نعم المولى ونعم النصير.

ثانيًا : نعت الرسول محمد عليه السلام

كما حفلت المنظومات الفارسية وكذلك الكتب النثرية بمقدمات فى الابتهال إلى الله عز وجل وتقديم الشكر والثناء على عظيم نعمه وواسع كرمه وتعدى ذلك إلى متون هذه المنظومات والكتب، فقد حظيت هذه المنظومات والعديد من الكتب النثرية كذلك بنعت الرسول محمد - عليه الصلاة والسلام - وتقديم مظاهر التبجيل والاحترام لشخصه ورسالته، وكذلك طلب شفاعته لكى ينقذ أمته الإسلامية من العقاب نتيجة للأخطاء والآثام التى ارتكبوها، ومازال يرتكبها العديد من أتباع دين محمد عليه السلام، وكما فعلنا فى الحديث عن الابتهال إلى الله عز وجل وتقديم الثناء والحمد لذاته العلية، فسنحاول هنا كذلك الاقتصار على تقديم عدة نماذج محدودة مستقاة من أقوال كبار الأدباء فى إيران عبر عصور الازدهار وبخاصة فى العصرين السلجوقى والمغولى.

وقد ورد مدح الرسول - عليه السلام - وطلب شفاعته وهداه فى مقدمة مخزن الأسرار لنظامى الگنجوى، نذكر مما قاله، ترجمة لبعض الأبيات:

- خاتم الرسل، خاتم الأنبياء، الشمس المضيئة جميع الأفلاك،

- إنه المرسل أحمد الذى يتعلق بأذيال ترابه كلا العالمين،

- يامن جسدك أطهر من الروح الطاهرة، وروحك جديرة بأن تردد روحى فداك!

- لقد أحاط تاجك وعرشك بالدنيا كلها، حتى أصبح عرشك الأرض وتاجك السماء!

- بفضلك أحلت تراب المساكين روضة زاهرة، وبفضلك أنرت عيون عابرى السبيل والمحرومين.

- إننا مجرد أجساد، فأقبل، إذا أنت الروح لنا، ولسنا إلا نملاً فلتكن أنت سليماننا.

- أنت الحارس الأمين فكيف تترك القافلة وحيدة؟ وأنت القلب فمن ذا يرفع العلم؟

- لتكن حافظ أسرارنا فى كل خلوة، ولتوقظنا إن ستسلمنا إلى النوم والغفلة.

- إذا كان أول بيت فى القصيد بدأ باسمك، فإن اسمك سيكون قافية آخر بيت فى القصيد[1]

---

(١) وهذا هو النص الفارسي:

شمسه نه مسند هفت اختران	ختم رسل، خاتم پيغمبران
أحمد مرسل كه خرد خاك أوست	هر دوجهان، بستهء فتراك اوست
أى تن تو پاكتراز جان پاك	روح تو پروردهء روحى فداك
تاج تو وتخت تو دارد جهان	تخت، زمين آمد وتاج، أسمان
٥- خاك ذليلان شده گلشن به تو	چشم غريبان، شده روشن به تو
ما همه جسميم، بيا جان تو باش	ما همه موريم، سليمان تو باش
شحنه تو يى، قافله تنها چراست	قلب تو آري، علم آنجا چراست ؟
خلوتى پرده أسرار شو	ما همه خفتيم، تو بيدار شو
أول بيت ار چه به نام تو بست	نام تو چون قافيه اخر نشست

(نظامى كنجوى: مخزن الأسرار، ص ٢١-٢٥.)

بدأ نظامى نعته ببيان أن محمداً عليه السلام هو خاتم الأنبياء والرسل وبأذياله تتعلق أمال البشرية أملاً فى الخلاص من أوثان الشرك والمعصية، ثم انتقل إلى مناجاة الرسول ومخاطبته حتى يمد يده إلى عامة المسلمين والمؤمنين ليكون عونًا لهم فى حياتهم فيهديهم طريق الرشاد ويباعد بينهم وبين الأخطاء والآثام، فإذا كان التعساء والمظلومون والمحرومون قد أنصفهم الرسول عليه السلام بدعوته إلى الإخاء والمساواة وعدم التفرقة بين بنى البشر، وأنه لافضل لإنسان إلا بعمله لا بحسبه ولابنسبه، ولافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، فما أحوجنا اليوم أن يكون الرسول حارسنا وموقظنا، بعد أن سيطرت علينا الغفلة ورحنا فى سبات عميق كله دعة وتراخ فى أداء الرسالة التى خلق من أجلها الآدميون، وأرسل للتذكير بها الأنبياء والرسل، وإذا كان محمد عليه السلام خاتم الرسل كما جاء فى أول كلامه، فهو أول الخلق وخاتمهم كما جاء فى آخر كلامه.

وممن أفاضوا فى نعت الرسول الكريم فى جميع منظوماته وكتبه فريد الدين العطار، فنقد نظم مائة وأربعة وأربعين بيتا فى مدحه الرسول فى منظومة منطق الطير وحدها، وسنكتفى بتقديم ترجمة لبعض ما قاله.(١)

المصطفى سيد الدنيا والدين، كنز الوفاء وصدر العالمين وبدرهما، هو شمس الشرع وبحر اليقين، ونور العالم والرحمة للعالمين ... إنه سيد الكونين وسلطان الجميع، صاحب المعراج وصدر الكائنات ظل الحق وسيد شمس الذات.

كلا العالمين يمضيان فى ركابه، ترابه قبلة العرش والكرسى، إنه سيد هذين العالمين وصاحب القدوة فى الخفاء والعيان، أعظم الأنبياء ومرشد الأصفياء والأولياء، إنه المهدى إلى الإسلام الهادى السبل، هو السيد الذى يفوق كل ما

(١) يمكن مراجعة نعت الرسول الكريم كاملا فى الترجمة العربية لمنطق الطير، ترجمة بديع جمعة، ص: ١٥٦ وما بعدها.

أقـول، والسـبـاق فى كل شـىء على الكل،[1] وقـد قـال سـيـد الكونين[2] عن نفسـه: « إنما أنا رحمة مهداة»[3]

استمد العالمان اسميهما من وجوده، ووجد العرش راحته من اسمه، وتم خلق كل شيء كقطرات ندى من بحر جوده، نوره مقصد جميع المخلوقات، وهو أصل جميع الموجودات والمعدومات..

إنه المبعوث إلى الجميع ولاجرم، إنه المبعوث حتى يوم الميزان إلى جميع الخلق فى كل عـصـر وزمـان، ... ولما كـان نوره أصل كل الموجودات، ولما كـانت ذاته مـانحـة كل ذات، وجب أن تكون دعوته لكل العالمين ولكل المخلوقات فى الخفاء والعيان، فأقبل عليه الجميع كما أقبلت عليه أمته، فكانوا جميعًا قاطفى ثمار همته، ويوم الحشر يقول من أجل حفنة بلا عمل صالح: هذه أمتى فترد بعد هذا شفاعته، فيرسل الحق الفداء لهذه الأمة إكرامًا لروح النبى نور الهدى.

جاءت دعوته من أجل الخاص والعام وأتم الله به نعمته على التمام، ثم أعطى مهله للكافرين فى مجازاتهم بالعقاب، حيث كف فى عهده إرسال العذاب. الدين والدنيا في كف همته، كما وهب حياته من أجل أمته. سار فى معراجه بالليل فوضح أمامه سر الكل، وأصبح ذا القبلتين لسمو رفعته وشـأنه ... وتلقى من الحق أعظم كتاب، فوجد الاحترام والتقدير من الجميع والأحباب.

---

(١) هذا الكلام إشارة إلى الحديث النبوى: " أول ماخلق الله نورى"؛ إذ أن العطار يعتقد أن أول ما صدر عن مصدر الوجود هو النور المحمدى، ثم تم خلق جميع الموجودات من هذا النور المحمدى. انظر شرح أحوال ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدين محمد عطار نيشابورى، تأليف بديع الزمان فروزا نفر ص ٤٢، ٣٥١، طهران ١٣٤٠ ش.

(٢) إشارة إلى الحديث" أنا سيد ولد آدم يوم القيامة". الجامع الصغير جـ ١ ص ٣٦٣، القاهرة ١٣٥٢ هـ.

(٣) ورد هذا الحديث بنصه فى الجامع الصغير، جـ ١ ص : ٣٤٨.

زوجاته أمهات المؤمنين، ومعراجه تعظيم للمرسلين، وخلفه سار الأنبياء حيث كان رائدهم، وعلماء أمته كالأنبياء فى مراتبهم، وتبجيلاً له ذكر الحق اسمه فى التوراه والإنجيل[1] واستمد الحجر منه المنزلة والرفعة، وأطلق عليه اسم يمين الله[2] وبعثه قضى على الأصنام وأمته خير الأنام.

استمدت الكعبة منه التشريف، فأصبحت بيت الله الحرام، وأصبح كل من دخلها آمنًا، وعظم شأن الأرض فى عهده؛ حيث حظيت بالمساجد، وجعلت كلها طهورًا.

... كلما غاص قلبه فى بحر الأسرار، انخرط فى الصلاة والأذكار، لذا كان يقول « أرحنا يا بلال حتى نخرج من ضيق هذا الخيال » وإذا ما سيطر عليه الاضطراب ثانية؛ كان يقول : كلمينى ياحميرا.[3]

حينما تقدم موسى صوب بساط الجناب الأعلى، جاء أمر الحق بأن اخلع نعليك[4] وما أن اقترب وأصبح بعيدًا عن نعليه حتى أصبح غارقًا فى بحار النور بالوادى المقدس، أما فى المعراج فكان الرسول شمع ذى الجلال يسمع صوت نعلى بلال، ومع أن موسى كان ملكًا وسلطانًا فما سلك الطريق وفى قدميه النعلان، فانظر إلى أى منزلة حظى بها تابع الرسول فى بلاط الحق إكرامًا للرسول، إذ سمح لتابعه بسلوك

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ . الأعراف، آية : ١٥٧.

(٢) ورد فى لسان العرب: الحجر الأسود يمين الله فى الأرض. وقال ابن الأثير: هذا كلام تمثيل وتخيل وأصله أن الملك إذا صافح رجلاً قبل الرجل يده، فكان الحجر الأسود لله بمنزلة اليمين للملك حيث يستلم ويلثم: نقلا عن تعليقات القاضى طباطبائى، المدرجة بآخر منطق الطير طبعة طهران ١٣٤٧ ش.

(٣) يقصد بحميرا السيدة عائشة، رضى الله عنها، زوجة الرسول عليه السلام.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ . طه، آية : ١١، ١٢.

الطريق مرتديًا نعليه، وما أن رأى موسى العمرانى تلك المنزلة، وما لتابعه من قربة، حتى قال: إلهى ! لتجعلنى من أمته، واجعلنى تابعًا لهمته، ومع أن موسى أراد ذلك على الدوام؛ فقد أدرك عيسى سمو هذا المقام، فلا جرم أنه عندما يترك الخلوة؛ سيدعو الخلق إلى اتباع دينه، ويهبط من السماء الرابعة إلى الأرض واضعًا جبهته على ترابه وروحه تحت إمرته وهكذا أصبح المسيح تابعه، لذا أسماه الحق باسم «المبشر» (١) إنه فصيح العالم وأنا عاجزه، فكيف يمكننى وصفه وشرح حاله؟(٢)

هكذا نعت فريد الدين العطار رسول الله ﷺ فى منظومته الشهيرة منطق الطير وكل هذه الصفات وغيرها، تتفق ومشاعر عامة المسلمين وحبهم للرسول - عليه السلام - ومع أن فريد الدين العطار قد نظم العديد من منظومته فقد حرص على أن يمدح فى كل منظومة من منظوماته رسول الإسلام محمداً عليه أزكى السلام، ولم يكن مكرراً نفسه فى كل مرة، وهكذا فعل فريد الدين العطار كما فعل غيره من كبار أدباء الفارسية الذين مدحوا الرسول فى كل أعمالهم وإنتاجهم دون الوقوع فى دائرة التكرار، بل كانوا يأتون بجديد فى كل مرة، ولندلل على ذلك يحسن بنا أن نذكر بعض ما مدح به العطار النبى محمداً فى مقدمة منظومته الشهيرة الثانية «إلهى نامه»، فقد جاء فى ترجمة هذه المدائح مانقدم بعضاً منه، راجين ممن يريد الاستزادة أن يرجع إلى الترجمات العربية لمنظومات العطار وأشهرها : منطق الطير ترجمة الدكتور بديع جمعة، وإلهى نامه ترجمة الدكتورة ملكة التركى، ومصيبت نامه ترجمة الدكتورمحمد يونس، وكلها ترجمات منشورة فى القاهرة بعد أن كانت رسائل جامعية مابين ماجستير أو دكتوراه، وهذه نماذج من مدائحه الواردة فى مقدمة إلهى نامه:

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى على لسان عيسى ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ الصف آية : ٦

(٢) نظراً لطول الاستشهاد، اكتفيت بذكر بعض ما جاء فى الترجمة دون ذكر النص الفارسى منعا للإطالة والإسهاب، وللاستزادة يرجع إلى الترجمة العربية لمنطق الطير.

محمد قدوة العالمين، ومهدى آل آدم، محمد شمس الخلق وقمر الأفلاك، محمد مصباح المعرفة وشمع النبوة، سراج الأمة[1]، ومنهاج الملّة وقائد ميدان الشريعة وأمير جيش السيرة، ملك العالم وفخر لولاك، سلطان الأرض والأفلاك، أمين الأنبياء وبرهان المنهاج، ملك بلا خاتم وسلطان بلا تاج الملك الدنيا ولكنه التزم بالفقر فخرى، آيته من ناحية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾[2] ورايته من ناحية أخرى ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾[3] ﴿لَعَمْرُكَ﴾[4] تاج مفرقة الذكى، و﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾[5] طراز عهده، هو حقا تاج القاعدة، وهو قطعًا سيد الأنبياء، لايوجد أفضل منه على الإطلاق، ولايوجد أمين للحق سواه .. هو مفاتيح الهدى للعالمين، ومصابيح الدجى للدنيا والآخرة، حامل لأمانة رب العالمين.

... مع أنه خاتم الأنبياء، فقد وجد قبلهم، فحينما رفع آدم بصره لأول مرة، رأى اسم محمد مكتوبًا فوق العرش، فسجد أمام اسم محمد الذى خلق من التراب الطاهر.[6]

عند ميلاد محمد أصاب الطوفان عبدة النار، حيث انطفأت نيران معابدهم بسببه فى الحال، فإذا كانت النار قد خمدت عن إبراهيم، فقد خمدت بسببه عن العالم بأسره وهو طفل رضيع.

---

(١) مصداقًا لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ㊺ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ㊻ ﴾ الأحزاب، آية : ٤٥، ٤٦.

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ سورة الفتح، آية : ١

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة :﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ سورة الصف، آية : ١٣.

(٤) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ㊲﴾ سورة الحجر، آية : ٧٢.

(٥) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾ سورة الشرح، آية : ١.

(٦) ينسب إلى الرسول (ص) قوله إنه يفضل الأنبياء بست فضائل. منها التراب الطاهر. تعليقات روحانى ص ٣٢٤ (إلهى نامه).

ما أن ارتفع خفه بالخطو فى طريق الدين، حتى سقط التاج عن رأس كسرى[1]، كما أن ثنايا نؤابته قد أسقطت تاج قيصر، وأطاحت بخاقان الصين:

كان محمد المقصود بكل الأنبياء، وعندما بعث ختمت به النبوة، ألم تر الجند يأتون فى البداية، ثم يتبعهم بعد ذلك الملك العظيم، الأنبياء كالجند الهدف من وجودهم هو الملك، وعندما ظهر سلطان الأنبياء، ختمت به النبوة، لأنه المراد.

... ومع كل هذه المكانة فقد كان يكنس المنزل أحيانًا، وأحيانًا أخرى ينام على الأرض هادئ البال مطمئنًا، وكان تارة يسرع مع عائشة لأداء بعض الأعمال، وتارة أخرى يرفع الآجر والطين لبناء المسجد، وفى بعض الأوقات كان يرتق نعليه، وفى أوقات أخرى يجالس الأطفال ... حتى إنه كان من حلمه يفعل كالجمل أحيانًا، وذلك للتسرية عن حفيديه الحسن والحسين.

وذات ليلة صعد إلى العرش والسماء، واعتلى العالمين، كان البراق ملتاعًا شوقًا إليه، لذا فقد دخل جبريل – عليه السلام – وقال، أيها الطاهر لماذا تلازم الأرض؛ توجه إلى الأفلاك لأن الحق شرفك بملك العرش، فتقدم إلى إيوان العرش ... فإن كنت ضيفًا على الأرض فترة، فقد حل الدور الآن على الأفلاك ... وما أن انطلق براق صدر العالم؛ حتى وصل إلى السماء السابعة كالبرق، فانكشف له عالم العرش ووضع قدمه فى مقعد صدق[2] وهنا انطلقت صيحات ساكنى السماوات قائلة : لقد جاء سيد العالم إلى الميقات، جاء اليتيم من سلالة أبى طالب، جاء درًا يتيمًا طالبًا للحق، فخرجت من الحضرة فى الحال مئات الألوف من الأرواح العلية لاستقباله.

---

(١) إشارة إلى اهتزاز عرش كسرى ليلة ميلاد الرسول عليه السلام.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ سورة القمر، آية : ٥٥.

... ماذا أقول يارسول الله أكثر من هذا، فأنا عاجز، ولا أعلم أكثر من هذا، ما أفضل أن أصبح جبريل رسول بلاطك، وكان كل عمله التردد فى طريقك، وعندما أبصر ميكائيل عين ملكك؛ أصبح أجيراً لجند جيشك، ونتيجة لشجاعتك ظل عزرائيل مستعدا دائمًا بسيفه، وأصبح الأمين حارسًا لأعتابك، والملائكة حجابًا على بابك، وكرام الكاتبين حارسيك.

ماذا أقول وصفاتك على هذا النحو، لا أعلم كيف يتأتى ثناؤك، وإن قيل؛ فهل تقبله؟ أنت تعلم أنه من بين المتحدثين لم يقل أحد مثل هذا المديح، إلا العطار فقط، هذه الأشعار عروس ... قبولك لها زينتها وحليتها، إن تقبلها منى يرتفع شأنى، وإلا زهقت روحى الحزينة ... ماذا أقول يارسول الله بعد ذلك، لقد تحدثت بهذا القدر، قدر استطاعتى[1].

هكذا مدح فريد الدين العطار رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فى مقدمة مثنوياته وألهج فى المدح والثناء. دون أن يكرر فى كل مرة ما قاله فى أى عمل سابق، وكما فعل فريد الدين العطار فعل غيره من أدباء إيران الذين أنتجوا أكثر من عمل، فكان مدحهم الرسول مبتكراً فى كل عمل، متفرداً فى كل منظومة أو كتاب سواء كان هذا المدح فى مقدمة هذه الأعمال أو فى متونها، وقد حرص معظمهم على ذكر بعض من سيرة الرسول فى هذه المدائح، ولكننا سنرجئ الحديث عن هذه السيرة، وعن القصص النبوى والقرآنى إلى فصل لاحق، مركزين هنا على المدائح المباشرة وحدها.

وشاعر كبير آخر هو سعدى الشيرازى قد خص الرسول - عليه السلام - بالكثير من مدائحه وسنكتفى بإيراد ترجمة لبعض أبيات هذا النعت الذى قدم به كتابه العظيم «بوستان»:

(١) يمكن مراجعة هذا النعت والمدح كاملا وهو يقع فى حوالى ثلاثمائة بيت من خلال الترجمة العربية لإلهى نامه والتى أنجزتها الدكتور ملكة على التركى.

- كريم السجايا جميل الشيم، نبى البرايا شفيع الأمم

- إمام الرسل، هادى السبل، أمين الله، مُهبط جبريل

- شفيع الورى سيد البعث والنشر، إمام الهدى صدر ديوان الحشر

- شفيع مطاع، نبى كريم، قسيم جسيم، نسيم وسيم

٥- اليتيم الذى لم يصطنع القرآن، وإنما غسل ومحا مكاتبات عدة أمم

- حين سل عزمه سيف الخوف، شق القمر نصفين بالمعجزة[١]

- ولما وقع صيته فى أفواه الدنيا، وقع التزلزل فى إيوان كسرى

- بلا[٢]، حطم قامة اللات جذاذا، وبإعزاز الدين أذهب ماء رواء العزى

- لم يثر غبار الدمار من اللات والعزى فحسب، بل نسخ التوراة والإنجيل

١٠- ركب ليلة فجاور الفلك، وبالتمكين والجاه فاق الملك

- وساق بحرارة فى تيه القربة، بحيث تخلف عنه جبريل عند السدرة[٣]

- فقال له سيد البيت الحرام، ياحامل الوحى تبختر إلى أعلى

- ما دمت وجدتنى مخلصاً فى المحبة، لماذا لويت العنان عن صحبتى؟

- فقال لم يبق لى مجال إلى أعلى، فبقيت لأنه لم تبق لى قوة جناح

(١) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① ﴾ سورة القمر، آية : ١.

(٢) بلا : اختصار عبارة التوحيد: لا إله الله.

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬ عند سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ⑭ عندها جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ⑮ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ⑯ ﴾ سورة النجم، آيات : ١٣-١٦.

- إذا طرت أعلى قيد شعرة، يحرق نور التجلى جناحى

- أى نعت مرضىً أقوله لك : (عليك السلام أى نبى الورى)

- فليكن سلام الملك على روحك، وعلى أصحابك وعلى أتباعك

- لقد أثنى عليك الله وبجلك، وجعل جبريل مقبلا أرض قدرك

- السماء العالية خجلة أمام قدرك، لقد خلقت وآدم لم يزل ماء وطينًا

- أنت جئت أصل الوجود من البداية، وكل ما صار موجودًا بعد ذلك هو فرعك

- لا أدرى أى كلام أقوله لك، فأنت أسمى مما أقوله لك

- يكفى عز لولاك[1] تمكينًا لك، ويكفى (طه) و (يس) ثناء عليك

- كل ما يصفك به السعدى أقل مما يجب، (عليك الصلاة يا نبى السلام)[2]

---

(١) إشارة إلى الحديث الشريف : "لولاك لما خلقت الأفلاك".

(٢) أريج البستان (الترجمة العربية لبوستان سعدى) ترجمة د. أمين عبد المجيد بدوى، ص ٢١-٢٢.

أما النص الفارسى : فهو :

كـريم السـجـايا جـمـيل الشـيم	نـبى البـرايا شـفـيـع لأمم
أمـام رسل، پيـشـواى سـبـيل	أمين خـدا، مـهـبط جـبـرئيل
شـفيع الورى، خـواجـهء بعث ونشـر	أمـام الهـدى، صـدر ديوان حـشـر
شـفـيـع مطاع، نبى كـريم	قـيم جـسـيم نسـيم وسـيم
٥- يتـيـمى كـه ناكـرده قـرآن درست	كـتـبـخـانهء چند ملت بشـست
چو عـزمش برآهيخت شـمـشـير بيم	بمعـجـز مـيـان قـمـر زد دو نيم

هكذا مدح سعدى الشيرازى الرسول الكريم بما اتسم به نبى الورى من عظيم الخصال والسجايا، ومن كرام الشيم والأخلاق، مركزًا كغيره ممن مدحوا الرسول على ما أعطاه الله إياه من الشفاعة،، وكأنه وغيره من الأدباء وعامة المسلمين قد تمنوا على

= چو صيتش در أفواه دنيا فتاد — تزلزل در أيوان كسرى فتاد

بلا، قامت لات بشكست خرد — باعزاز دين آب عزى ببرد

نه از لات وعزى برآ ورد كرد — كه تورات وانجيل منسوخ كرد

١٠- شبى برنشت از فلك بر كذشت — بتمكين وجاه از ملك در گذشت

چنان گرم در تيه قربت براند — كه بر سدره جبريل ازو باز ماند

بدو گفت سالار بيت الحرام — كه أى حامل وحى چرا تافتى؟

چو در دوستى مخلصم يافتى — عنانم ز صحبت چرا تافتى؟

بگفتا فراتر مجالم نماند — بماندم كه نيرودى بالم نماند

١٥- اگر يكسر موى برتر پرم — فروغ تجلى بسوزد پرم

چه نعت پسنديده گويم ترا؟ — عليك السلام أى نبى الورا

درود ملك بر روان تو باد — بر أصحاب وبر پيروان توباد

خدايت ثنا گفت وتبجيل كرد — زمين بوس قدر تو جبريل كرد

بلند آسمان پيش قدرت خجل — تو مخلوق وآدم هنوز آب وگل

٢٠- تواصل وجود آمدى از دنخست — دگر هر چه موجود شد فرع تست

ندانم كدامين سخن گويمت — كه والا ترى آنچه من گويمت

ترا عز لولاك تمكين بست — ثناى تو طه ويسن بست

چه وصف كند سعدى، نا تمام — عليك الصلاة اى نبى السلام

(كليات سعدى، بوستان: ص ٤-٦)

الرسول الكريم ألا يتخلى عن أمته وأن يكون شفيعًا لهم يوم الحساب، كما أشار إلى يُتم الرسول عليه السلام، وكذلك أميته، وعلى الرغم من هذا اليتم وتلك الأمية، فقد أصبح سيد العرب والعجم بفضل بعثه رسولا ونبيا، وبفضل نزول القرآن عليه أصبح علمه من القرآن، وليس من علم الكهانة وغيرهم من معلمى الجاهلية.

وكم كان بعثه نورًا قد بدد الشرك والوثنية، وحطم آلهة الشرك والكفر كما حطم عروش الجبابرة والأكاسرة، وأشار سعدى إلى ما حظى به الرسول الكريم من مكانة علية لا فى الأرض وحدها، بل أيضًا فى السموات السبع فقد كان معراجه عليه السلام دليلاً على علو شأنه، ورفعة مكانته، تلك المنزلة التى لم يصل إليها نبى قبله ولارسول سابق عليه.

ومع كل ما قاله السعدى من مدح وثناء فإنه يشعر بالخجل، لأن كل ما قاله ويقوله أقل مما يستحقه الرسول عليه السلام، ولكن عذر سعدى فى أنه قال كل ما يستطيع، وليس لديه القدرة على أن يقول أفضل مما قال؛ لذا فهو يلتمس من الرسول الكريم أن يقبل عذره. إن كان فى كل ما قال مقصرًا وغير موف الرسول حقه من المدح والثناء!.

ومن الشعراء الكبار الذين أثروا الأدب الفارسى بالعديد من المنظومات والكتب النثرية وشارك فى مدح الرسول فى كل كتبه ومنظوماته؛ الشاعر عبد الرحمن الجامى، وعلى سبيل المثال اذكر ترجمة لبعض ما قاله فى مقدمة منظومته «يوسف وزليخا».

- عندما توج القلم الأزلى باسم محمد، جعل من ميمه حلقة تحيط به

- وبفضل هذا الاسم أمحى خط لوح العدم، وظهر الملوك والملائكة من هذه الحلقة .

- وحا شا لله أن يستطيع العقل، بكل ماله من إدراك، أن يقف على سر (حاله).

- فقد أضاءت «حاؤه» هذا الدير ذا الجهات الست، والروضة الثامنة من الجنات الثماني.

وعندما زين العدم بخلخل داله توالت أسماء بقية الأنبياء في عقبه

- فياله من اسم، ذلك الذى لم يسبقه اسم آخر في ديوان الوجود.

- وحين يترنم لساني باسمه، يفعم قلبي وروحي باللذة.

- فإن كان هذا هو شأن الاسم، فما بالك بالمسمى، إنه أكثر المخلوقات تعظيماً.

- إذا كان الله قد كرم بني آدم على جميع المخلوقات، فقد جعله أكثر أبناء الدم تكريمًا.

١٠- ومنحه الزعامة على كل الزعماء، ووهبه القيادة على ركب الأنبياء.

- فعندما خطا آدم في طريق الوجود، تنفس بمحبة وجه صاحبه المشرق.

- ومالم يفتح الطريق لجوده، فأنى لسفينة نوح أن تصل إلى «الجودى»؟.

- وتنسم الخليل نسيماً منه، جعل النار بهيجة كالبستان من حوله.

- وبشر المسيح بمقدمه، والتمس الكليم قبساً من نوره.

١٥- ووصل جاهه من كنعان إلى مصر، حين كان يوسف عبداً يباع فيها.

- إنه سروة باسقة في بستان الوفاء، وتدرج مزدان من حديقة الأصفياء.

.. مع أنه أصاب عين الكفر بالعمى، فقد أضاءت به عين الإسلام وكأنه الكُحل[1].

كما تحدث عن شفاعة الرسول الكريم لأمته يوم القيامة، راجيًا من النبى العظيم ألا يتخلى عن أمته مهما تعاظمت ذنوبها أو كثرت خطاياها، لأنه الملاذ والملجأ لهم يوم الحشر العظيم، ومما قاله؛ ماترجمته:

---

(١) راجع بقية هذه المناقب فى الترجمة العربية ليوسف وزليخا التى أعدها الدكتور عبد العزيز بقوش ونشرها فى مجلة أخبار الأدب، العدد ٣٩ وما بعده، أما عن الأصل الفارسى لهذه الأبيات (ضمن نسخة يوسف وزليخا) عام ١٣٤٧ ه ق، ص ٨.٧ وهذا هو النص الفارسى.

محمد كش قلم چون نا مور ساخت   زميمش حلقهء دور گر داشت

خط حرف عدم زان لوح حك شد   از آن سر حلقهء ملك وملك شد

تواند شد ز سر حالش آگه   خرد يا جمله دانش حاش لله

درين دور مشمن زدست روشن   مشمن گلشنى از آن هفت روزن

٥- چو پا انداخت از خلخال دانش   سردين پروران شد پايمالش

چونا مست اينكه ازديوان هستى   بر او نگرفت نامى پيش دستى

زبانم چون روى حرفى سر آبد   دل جانم زلذت در برآيد

چو نام اين است نام آور چه باشد   مكرم تر بود از هر چه باشد

مكرم شدز عالم نسل آدم   مكرم تر وى است از هر مكرم

١٠- خدا بر سرور ان سرداريش داد   ز خيل انبيا سالاريش دم زد

چو آدم در ره هستى قدم زاد   زمهر روى صبح آراش دم زد

ز جودش گر نگشتى راه مفتوح   بزدى ره بجودى كشتى نوح

خليل از وى نسيمى يافت كاتش   براو شد همچو خرم گلستان خوش =

ارتداء ثياب التضرع، والمثابرة في اقتباس نور الشفاعة.

- لقد فاضت أرواح الخلائق من فراقك، فترحم يانبي الله ترحم.

- ألست في النهاية رحمة للعالمين، فلماذا أنت غير آبه بالمحرومين؟

- أجل ليلة أحزاننا نهاراً، واجعل نهارنا مباركًا ببركة وجهك.

- ومع أننا غرقنا في بحار الذنوب، وسقطنا على تراب الطريق بشفاه صادية.

٥ - فإنك سحاب الرحمة، ومن الخير أن تلقى نظرة على الظمأى في بعض الأحيان.

- وما أطيبه ذلك الوقت الذى وصلنا فيه إليك، وكنسنا بأهدابنا غبار حبك.

- وسجدنا سجدة الشكر في مسجدك، وأحلنا أرواحنا فراشات لمصباحك.

- وسلكنا الطريق إلى منبرك، وذهبنا قوائمه بصفرة وجوهنا.

- وحققنا أما نينا بالسجود في محرابك، وغسلنا مواطئ أقدامك بدموع أعيننا.

١٠ - وطفنا حول الروضة بحماس، وبقلبي ثقوب كالنافذة.

= مسيح از مقدم أو مژده گوئى — كليم از مشعل أو شعله جوئى

١٥ - عصر جاهش آز كنعان رسيده — غلامى بود يوسف زر خريده

زبستان وفا آزاده سروى — زباغ اصطفى رعنا تذروى

اگرچه كور شد زد چشم هرخام — چو سرمه ساخت روشن چشم اسلام

- وبللنا بقطرات سحاب العين الساحرة أعتاب روضتك المقدسة.

- فتارة كنا نكنس الغبار من ساحتها وتارة كنا نلتقط القش والأشواك منها.

- فأصبح هذا الغبار نوراً لسواد العين، وتحولت الأشواك والقش بلسماً أجرح القلب.

- ورغبة إليك أضرمنا النار في قلوبنا، حتى تكون قناديل لك!

- ومالم تشملنا بعون لطفك، فلن يتأتى منا أى عمل!

- إنَّ القضاء يلقى بنا فى طريقك، لذا نستحلفك أن تطلب من الله

- أن يهبنا حياة عامرة باليقين، وأن يثبتنا فى أمور الدين.

- وألا يريق ماء وجوهنا بدخول النار، عندما يأتى هول يوم القيامة.

- وأن يمنحك الإذن بالشفاعة لنا، مع كل مانحن فيه من ضلال[1].

---

(١) المرجع السابق، الترجمة العربية، وكذلك الأصل الفارسى لهذه الأبيات بالنسخة الفارسية ص : ٦.٧.

لباس ضراعت پو شيدن ودراقتباس نور شفاعت كوشيدن

تو مهجورى برآمد جان عالم	ترحم يا نبى الله ترحم
نه آخر رحمة للعالمين	ز محرومان چرا فارغ نشينى
شب اندوه مارا روز گردان	ز روبت روز مافيروز گردان
اگر چه غرق دريای گناهيم	فتاده خشك أب برخاك را هيم
٥- تو ابر رحمتى آن به كه گاهى	كنى بر حال لب خشكان نگاهى
خوش آن كز گرد ره سويت رسيديم	بديده گردي از كويت كشبديم =

وأدلى الراوندى مؤلف راحة الصدور وآية السرور بدلوه كذلك فى مدح الرسول عليه السلام، ومما قاله فى مقدمة كتابه هذا ما ترجمته:[1]

= بمسجد سجده ء شكر أنه كرديم	چراغت را زجان پروانه كرديم
بسوى منبرت ره بر گرفتيم	وز اين بر ريش دل مرهم نهاديم
ز محرابت بسجده گاه جستيم	قدم گاهت بخون ديد شستيم
١٠- بگرد روضه ات گشتيم گستاخ	دلى چون پنجره سوراخ سوراخ
زديم از ابر اشك چشم بيخواب	حريم استان روضه أت آب
گهى رفتيم زان ساخت غبارى	گهى چيديم ز ان خاشاك وخارى
از ان نور سواد ديده داديم	وز اين بر ريش دل مرهم بنهاديم
زداغ اروزويت بادل خوش	زديم از دل بهرقنديل أتش
١٥- گر نبود زلطفت دستيارى	زادست ما نيابد هيچ كارى
قضامى افكند از راه مارا	خدا را از خدا در خواه مارا
كه يخشد از يقين أول حياتى	دهد آنكه بكار دين ثباتى
چو هول بروز رستاخيز خيزد	بآتش آبروى ما نريزد
كند با اين همه گمراهى ما	ترا اذن شفاعت خواهى ما

(١) الراوندى: راحة الصدور وآية السرور، الترجمة العربية ص ٤٠-٤١.

أما الأصل الفارسى، فهو نقلاً عن النسخة الفارسية ص : ٥.

خداوند كردنده چرخ كبود	از باد بر مصطفى صد درود
فرستادهء حق رسول درست	كزو معجزت بافت هر كس كه جست
دو داماد وخسرو گاه يا رش بدند	بروز وشب غمگسارش بدند =

- صلوات الله الذى يدير الأفلاك والسماوات، على نبيه المصطفى.

- الرسول الحق الذى تبدو معجزته لكل من أرادها.

- والتحيات أيضًا على صهريه (عثمان وعلى)، وعلى صاحبه (أبى بكر).

- فإنهم أصدقاؤه الذين كانوا يشاركونه السراء والضراء ليل نهار.

- وعلى سبطيه الشجاعين اللذين يسموان على جميع أهل الجنة.

٥ - وبغير محبة هؤلاء .. لن يكون لنا فى يوم المعاد ملجأ أو زاد

- وكل جوهر ثمين من الكلام. كان مستطابًا لدى خالق الأنام.

- قد نزل إلى خير الناس، كأنه هدية من السماء.

- وقد قال سيد العرب، لا كان من يرثنى عن طريق الندب!

- فمنذ أن كان الأنبياء حتى صرت سيدهم.

= دو سبط دلاور كه اندربهشت ... سرا فراز باشند بر خوب وزشت

٥- بجز دوستيشان ز بهر معاد ... نداريم با خويشتن هيچ زاد

كه گر جوهرى از سخن مه بدى ... ويا پيش جان آخرين به بدى

به يهتر كس آن فرود آمدى ... چو هديه ز چرخ كيود آمدى

چنين گفت آن سر فراز عرب ... كه كم باد ميراث گير از نسب

كه از معشر أنبيا تا بمن ... كه هستم سرا فراز هر انجمن

١٠ - نه ميراث كيرست از كس نه به كس ... زميراث ما بر خورد يك نفس

١٠- لم يرث الأنبياء شخصاً، ولم يرثهم أحد[١].

لقد شارك الراوندى غيره من الأدباء الإيرانيين فى مدح الرسول الكريم وذكر بعض مناقبة، ولكنه ذكر بعد ذلك أصحابه من الخلفاء الراشدين وكذلك سبطيه مع تركيزه بعد ذلك على أن الأنبياء ومنهم محمد عليه السلام لايرثون ملكًا عن أحد، كما أن النبوة ليست إرثًا ولا ملكًا يورثه الأنبياء لذويهم من بعدهم ، وهذا خلاف ما يدعيه بعض غلاة المذاهب غير السنية.

ويواصل الراوندى مدحه الرسول، فيقول ما ترجمته.

مئات الألوف من الصلوات والتحيات بعدد قطرات المطر وما فى الصحراء من مدر، على روح سيد المرسلين، ورسول رب العالمين الأكرم الأعظم «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، عليه أفضل الصلوات وأكرم التحيات، فقد خصه الله عز وعلا من بين الأنبياء بمزيد من الكرامة ومزية الفضيلة، فوضع على رأسة تاج الاصطفاء وجعله حارسًا على جهات العالم الأربع.

ورد فى الحديث « زويت لى الأرض، فأريت مشارقها ومغاربها »[٢] وجعل أهل أقاليم العالم مطيعين لأمره، فقد ورد فى الحديث « بعثت إلى الأحمر والأصفر »[٣].

(١) إشارة إلى الحديث الشريف : إنا معشر الأنبياء لا نورث ماتركناه، فهو صدقة "انظر لسان العرب، مادة : ورث.

(٢) حديث معروف رواه ثوبان قال : قل النبى (ﷺ) زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها ... (مشكاه، طبع دهلى ص :٥٠٤.

(٣) حديث معروف رواه ابن سعد (هكذا ورد فى أصل الكتاب وصحته. بعثت إلى الأحمر والأسود) : كنز العمال ج: ٦ ص ١٠٩.

وأمـر بسل السـيف على أعـداء الدولة، جـاء فى الحـديث الشـريف « بعـثت بالسـيف[1] كمـا ورد فى القـرآن: وأغلظ عليـهم[2] ﴿واغلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿وما كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأَنتَ فِيهِمْ﴾[3]

- البشرى، البشرى .. فقد صار مقامى فى رحاب المصطفى.

والبشرى البشرى .. فقد رأت عينى منبر المصطفى ومقره.

- فيا ليتنى أركب الصعاب، وأقدم مهجتى هدية للمصطفى.

حتى ولو طوقت بالآفاق رجاء لقاء المصطفى.

- ولتكن روحى وجسدى فداء للمصطفى.

التى تحمل عتادى صوت سراى المصطفى.

- ويا أسفاه على عجمتنا فى حضرة أفصح العرب.

ويا أسفاه على لكنتنا ونحن نتلهف على مدح المصطفى.

... خرج من غار حراء بالدين والقرآن، لا بالصنم والقربان، وهو الذى اتخذ شعار دعوته : ادع إلى سبيل ربك[4] طائعة فوقفت له جنود الكبرياء وأحاطت به

(١) إشارة إلى الحديث الشريف : « بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى تعبدوا الله وحده لاشريك له .. كنز العمال، ج: ٢ ص ٢٥٣، كتاب الجهاد.

(٢) سورة التوبة ، أية ٧٣ : ﴿ يا أيُّها النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ واغْلُظْ عليهِم ومأْواهُمْ جَهَنَّمُ وبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) ﴾

(٣) سورة الأنفال ، أية ٣٣.

(٤) سورة النحل ، أية ١٢٦.

جيوش القبة الخضراء، كما قال تعالى : ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) ﴾[١].

- هناك حيث يستشفع بك الجميع لاتغنى عنهم السموات ولا الصلوات ولا الأكوان.

- وتبقى أنت وحدك آخر الشفعاء، كما أنك خاتم الأنبياء[٢].

- فإذا لم تكن للناس بضاعة من طاعة، فلتكن منا الذنوب ومنك الشفاعة !! [٣].

هذه قطرات من بحر المديح الذى قيل فى سيرة محمد عليه السلام وفى وصف أخلاقه وشيمه، ومعصوميته، هذا المديح الذى يمكن أن يكون محوراً لعدة كتب لا لمجرد جزء من كتاب، هذا المديح الذى قال عنه المداحون، إننا مهما قلنا، ومهما أفضنا القول فإننا نشعر بالتقصير، وإننا لم نعط رسول البشرية محمداً مايستحقه من ثناء عاطر وشكر وافر على ما قدمه للبشرية نتيجة بعثه رسولاً ونبياً، وحاملاً أعظم رسالة فيها الهداية والرشاد لبنى البشر جميعًا، حيث لم يرسل إلى أمة دون أخرى، بل كان بعثه للبشرية جميعًا.

كما يلاحظ أن جميع ما دحيه قد ركزوا كذلك على الشفاعة مطالبين بالمزيد منها وكأنهم يقولون أغثنا يارسول الله، أغثنا يا شفيعًا عند الله، إننا خطاءون وأنت الشفيع، إذا لم تكن منك الشفاعة فلا أمل لنا فى النجاة فلا تكلنا يا رسول الله إلى أخطائنا بل خذ بأيدينا نحو بر الأمان وبعيداً عن نار جهنم والعياذ بالله !!

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٣٠.

(٢) إشارة إلى الحديث المعروف: " علىٌّ منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لانبى بعدى: كنز العمال، ج: ٦ ص ١٥٣.

(٣) يمكن مراجعة الترجمة كاملة بالترجمة العربية لراحة الصدور، ص ٤٠ - ٤٤.

ثالثًا : فى مناقب الخلفاء الراشدين

فى مناقب أمير المؤمنين أبى بكر الصديق رضى الله عنه:

حفل الأدب الفارسى وبخاصة قبل بداية العصر الصفوى (٩٠٥ هـ)، بالعديد من القصائد والقطع الشعرية والنثرية التى أنشدت فى حق الخلفاء الراشدين وصحابة رسول الله الكريم مشيدين بهم، وبتضحياتهم من أجل الإسلام والمسلمين، وباتخاذهم أمثلة يجب أن تحتذى فى الفعل والقول؛ حتى يحظى كل من يتأسوا بهم بالخلق الرفيع وبالعمل الصالح تقربًا إلى الله عز وجل، أول هؤلاء الصحابة كان رفيق الرسول (ﷺ) بالغار أبا بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه، فقد قال فى حقه فريد الدين العطار فى منظومته" إلهى نامه" ماترجمته:

قائد رجال الدين، الصديق الأكبر، والإمام الصادق لأصحاب المحشر، كان أعظم رحمة مهداة إلى الرسول، لأنه كان سابقًا بالخيرات فى الدين[1] قرين الخلوة وصديق الغار، هبته فى اليوم الأول أربعون ألفًا.[2] إنه الشخص الذى سن سنة حسنة، يصله أجرها دائمًا ، ولأن أبا بكر بدأ على هذا النحو، فقد منح أجر الدنيا كلها، ولأن إيمانه

---

(١) مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾ فاطر ، آية : ٣٢.

(٢) يقال إن أبا بكر عندما أسلم كان يملك أربعين ألف درهم، أنفقها كلها فى سبيل علو شأن الإسلام نقلاً عن حواشى الترجمة العربية لإلهى نامه للدكتورة ملكة التركى.

منذ الخليقة فهو يعلو كل إيمان لقدمه، ألم يعان آلام الأسنان عشر سنوات، ولم يخبر الرسول بهذا الأمر، وعندما كشف الحق للرسول أمر رفيقه، قال له الرسول : أيها الصديق لماذا لم تخبرني بهذا الأمر؟ ولكن ليس بمستغرب معرفة ذلك من الحق، إن الشخص الذي حفظ سر جسده على هذا النحو، ليس له من سبيل لحفظ سره سوى الحق... وكأنما ألقم فمه حجراً، حيث كانت روحه مستغرقة في الحق تماماً، ولذا قلما كان يجري الكلام على لسانه، ولأن روحه قد انشغلت بالمعرفة، فلم يُرو عنه إلا ثمانية عشر حديثًا فقط!.

... لم يكن يتزيد في أي شيء قط، ولم يتحدث إلا بأقيلوني[١].

... لقد تصدى أبو بكر وهو في الغار لأذى الحيات السامة حتى يكف أذاها عن الرسول.

لقد شبه الرسول (عليه السلام) أبا بكر وعمر، الأول بالسمع والثاني بالبصر.

ولما كان النبي قد شبههما بالسمع والبصر، فإن من لا يقبلهما أصم وضرير[٢].

---

(١) قال أبو بكر رضي الله عنه في أول خطبة له بعد مبايعته بالخلافة قولته الشهيرة: قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فاقيلوني...".

وفي رواية أخرى : " فقوموني! »

(٢) راجع بقية الحديث عن مناقب أبي بكر الصديق في الترجمة العربية لالهي نامه ص ١٥، ١٦ أما النص الفارسي فهو : انظر النسخة الفارسية، ص ١٩، ٢٠: تهران ١٣٦٤ ش:

سر مردان دين صديق أكبر	أمام صادق أصحاب محضر
مهين رحمت مهدات أو بود	كه در دين سابق الخيرات أو بود
شب خلوت قرين ديار غاراست	تشارش روز أول چل هزار است
كسبى كو سنتى نيكو تهادست	هميشه أجر آنش دست دادست
٥- بدين بو بكر چون كردست آغاز	بدو كردد همه أجر جهان باز =

ولم يكتف العطار بذكر هذه المناقب من السيرة العطرة للصديق أبى بكر، فقد ذكر بعض مناقبه مرة أخرى في مقدمة منظومته منطق الطير، ومما جاء فيها ماترجمته:

- السيد الأول صاحب الرسول، وثاني اثنين إذ هما في الغار[1].

= از آن إيمان أو در أصل خلقت ... همى چربد بر ايمان ها ز سبقت

مگر أو در د دندان داشت ده سال ... پيمبر را نكرد اگه از آن حال

حق گفت أن پيمبر را بتحقيق ... پيمبر گفتش أى در كار صديق

چرا با من نكردى أين حكايت ... زحق گفتا نكو نبود شكايت

١٠ - كسى كو سر تن زينسان نگه داشت ... بسر جان أو جز حق كه ره داشت؟

نهاده بود سنگى در دهانش ... كه تا كو هر نيفشاند زبانش

چنان مستغرق حق بود جانش ... كه كم رفتى حديثى بر زبانش

چو جانش بود مشغول درايت ... از أو هجده حديث آمد روايت

سزد عالم أگر هجده هزار أست ... كه أن هجده حديثش يا دگار است

١٥ - نفس هر كز در افزونى نميزد ... كه دم جز در "أقيلونى" نميزد

كسى كو در گزند مار يار است ... توان گفتن كه ابن كس يار غاراست

كه تا پر زهر نبود أنچنان مار ... نيابد در گزند آنچنان بار

چو پيغمبر أبو بكر وعمر را ... بصر خواند اين بك وسمع أن دكررا

نبى چون هر دو را سمع وبصر خواند ... كسى كاين دو ندارد گور وكر ماند

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ التوبة ، آية : ٤٠.

- صدر الدين، الصديق الأكبر، قطب الحق، له في كل شيء على الجميع السبق.

- كل ما ألقى به الحق من الحضرة العلية في صدر المصطفى.

- ألقى به المصطفى في صدر الصديق، ولاجرم أن ألقى الله في قلبه التصديق.

٥ - كان يقضي ليله كله حتى الصباح في سجود دائم، كما كان يتنهد آناء الليل مما به من حرقة.

- وقد سرت تنهداته عطرة حتى بلاد الصين، حيث عطرت دماء الغزال التترى.

- لذا قال الرسول شمع الشرع والدين: اطلبوا العلم ولو بالصين[1].

- مكانته نابعة من حكمته، وما كان لسانه ينطق إلا بكلمة "هو".

- وحكمته لم ترد على أي لسان، وغير اسم الله لم ينطق لسانه.

١٠ - لابد للإنسان من اعتبار حتى يكون ذا وقار، إذ كيف تتأتى جلال الأعمال من عديم الوقار[2].

(١) إشارة إلى قوله الرسول الكريم: اطلبوا العلم ولو بالصين، وإن طلب العلم فريضة على كل مسلم" الجمع الصغير، جـ ١ ص ١٤٣-١٤٤.

(٢) وهذا هو النص الفارسي، نقلاً عن منطق الطير ص ٢٧ تهران ١٣٤٧ ش.

خواجهء أول كه يار اوست	ثانى اثنين إذ هما فى الغار اوست
صدر دين صديق أكبر قطب حق	در همه چيز از همه، برده سبق
هر چه حق ازبار گه كبريا	ريخت در صدر شريف مصطفى
آن همه در سينهء صديق ريخت	لا جرم تا بود ازو تحقيق ريخت =

وهكذا ركز فريد الدين العطار على أن أبا بكر كان رفيق الغار، الذى قبل المخاطرة والهجرة مع الرسول عليه السلام، فكان الله خير حافظٍ لهما، وكذلك كونه الصادق الصديق الذى لم يشك ولو للحظة واحدة في صدق أى شيء قاله الرسول الكريم أو قيل عن الرسول، وبخاصة عندما نقل إليه حديث الرسول عن المعراج فما كان منه إلا أن قال قولته المشهورة : " إن كان قد قال هذا، فهو صادق".

أما ماقاله الراوندى من مناقب أبى بكر الصديق، فقد وصلت إلى بيان موقفه من الإسلام في حياة الرسول الكريم ومساندته له، ثم موقفه من حركة الردة بعد وفاة الرسول عليه السلام، حتى وصفه عمر بن الخطاب نتيجة لموقفه الصلب والحاسم مع المرتدين بأنه "الأسد" ومما قاله الراوندى فى مقدمة كتابه "راحة الصدور وآية السرور"؛ ماترجمته:

أول شخص نهل من الإسلام، وعانق عروس الإيمان هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه فهو خادم الخلافة، وإمامها المنزه، وأول من اعتلى منبر الخلافة، وأول نائب للمصطفى، صديقه فى الغار ومحل أسراره .. وهو رأس العشرة المبشرة رضى الله عنهم .. إن أبا بكر الصديق زعيم أهل التحقيق رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة منقلبه ومثواه، وقد ازدان به صدر الخلافة، فعندما غربت فى مغرب يثرب شمس زعيم الأنبياء محمد المصطفى صلوات الله عليه، وبدأ المنافقون والمشركون

= ٥- سر فرو بردى همه شب تا بروز   نيم شب هوئى بر آوردى بسوز

هوى أو تاچين برفتى مشكبار   مشك كردى خون آهوى تتار

زين سبب گفت آفتاب شرع ودين   علم بايد جست از اينجا ت پچين

سنگ از آن بودى بحكمت در دهانش   تا بسنگ وهنگ هو گويد زبانش

نى كه سنگش برزبان بگرفت راه   تا نگويد هيچ نامى جز إله

سنگ بايد تا پريد آيد وقار   مردم بى سنگ كى آيد بكار

يطلقون ألسنتهم بالسوء، وجزع الصحابة المخلصون، انبرى أبو بكر رضى الله عنه بيقين إسلامى وعناية رحمانية، وخاطبهم قائلاً: " من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌ لايموت، ألا وإن السيوف التى أظهر الله بها الإسلام على عواتقنا، فمن شاء منهم أن يبرز فليبرز" فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: " لقد كنت ثعلبًا فصرت أسدًا " ، فقويت قلوب الصحابة وخمدت فتنة المنافقين، وتمكن الصحابة من اقتلاع جذور الردة والنفاق، وبذروا بذور الدين فى سائر الآفاق[1].

هكذا كان موقف أبى بكر الصديق القوى والحازم وعدم قبوله أى حل وسط اقترح لتهدئة ثائرة المرتدين، علاجًا ناجعًا لهذه الفتنة، لأنه أدرك لو أنه وافقهم فى شىء فستزداد مطالبهم بعد ذلك، مما سيضعف شوكة الإسلام والمسلمين، ولكنه آثر أن يسلك طريق القوة والعنف مع هؤلاء المرتدين، حتي يكون لائقًا بالأمانة التى حملها إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد مماته، مما جعل عمر بن الخطاب يصفه بالأسد الهصور بعد أن خرج عما عهد عليه من هدوء وصمت وترو.

وقد أنهى الراوندى مدحه لأبى بكر الصديق بأبيات هذه ترجمتها:

- وهو شيخ الإسلام الملقب بالصديق والعتيق، وأعقابه يفخرون بأنه أسبق السابقين إلى الإسلام والإمامة.
- إذا كان محمد قد جعله إمام الإسلام، فإنه بسيرته إمام الصحابة وقدوة لهم .
- لقد جلس على سرير السلطنة في ملك الجنة، لأنه من حيث المعتقد واليقين من أعز أصحابه.

---

(١) راحة الصدور وآية السرور، الترجمة العربية ص : ٤٥، ٤٦.

- ولما كانت ابنته عائشة أم المؤمنين زوجة للمصطفى، فقد أصبح من غير شك يعرف بالصديق الأكبر.

- لقد وهب ماله للمصطفى وزوجه من ابنته، فهنيئًا له مافعل، وهنيئًا لمن اتخذه أسوة حسنة[1].

وهكذا أنهى الراوندى مدحه لأبى بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه، بأن دعا جميع المسلمين لاتخاذهم أبا بكر أسوة حسنة يحاولون السير على نهجه والتأسى بأعماله وأقواله، وهذا هو المقصود من ذكر مناقب الخلفاء الصالحين، ليس المقصود تسجيل تاريخ، بل تنبيه المسلمين إلى ما كان يفعله هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم من خير وصلاح حتى نحاول تقليدهم لعل الله يتقبلنا كما تقبلهم، فكان أبو بكر وصحبه من المبشرين بالجنة، فأين نحن منهم؟!

* * *

(١) المرجع السابق، ص: ٤٦، أما الأصل الفارسى فى النسخة الأصلية ص ٩، ١٠.

شيخ إسلام أنك صديق وعتيق القاب أوست
سبق إسلام وامامت مفخر أعقاب أوست
پيشواى عالمش گرچه محمد كرده بود
أو بسيرت پيشوا وسرور أصحاب اوست
بر سرير سلطنت در ملك جنت آن نشست
كزيقين واعتقاد نيكو از أحباب أوست
أنك أم المؤمنين است أهل بيت مصطفى
بى گمان صديق أكبر منشا أسباب أوست
بذل كرد او مال ودختر را براى مصطفى
فرخ وخرم كسى كش قبله هم محراب أوست

فى مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

كان الحديث عن عمر بن الخطاب حديثًا مستفاضًا، عن عدله وعن زهده وعن شجاعته، وعن تفقده أحوال المسلمين، وعن تواضعه الذى زاده مكانة فى نفوس الجميع، كما كان أكثر البعض من سوق القصص المتعلقة بما كان يفعله خدمة للإسلام والمسلمين، وقضاء على الشرك والمشركين، وكيف انتشر الإسلام فى عهده انتشارًا واسعًا شمل أكبر امبراطوريتين فى ذلك الوقت، وهما : امبراطورية الروم، وإمبراطورية الفرس. ومع كل هذا المجد وتلك الفتوحات ظل على تواضعه وعدله بل وعلى فقره أيضًا، ومما قاله فى حقه فريد الدين العطار فى منطق الطير نذكر ترجمة لبعض الأبيات :[١]

سيد الشرع وشمس المتدينين، ظل الحق الفاروق الأعظم شمع الدين، من ختم به الحق العدل والإنصاف، كما كان له فى الفراسة قصب السبق على الجميع، وأول من يسمح له بعبور الصراط هو عمر، كما قال الرسول - عليه السلام - كما أنه أول من يتسلم خلعة الخلافة فى دار السلام، ما أعظمه من صاحب مقام رفيع، فما أن وضع الرسول يده فى يده منذ البداية، حتى حمله معه إلى حيث يوجد فى النهاية.[٢]

بعدله وصل أمر الدين إلى أوجه، كما وجد النيل المضطرب راحته[٣]، إنه شمع الجنة وسراج الخلد، وكما تتلاشى الظلال أمام نور الشمعة، فإن الشياطين تسارع

---

(١) راجع حديث العطار عن مناقب عمر بن الخطاب فى الترجمة العربية لمنطق الطير، ص : ١٦٦.

(٢) إشارة إلى قول الرسول الكريم: "عمر معى، وأنا مع عمر، والحق بعدى مع عمر حيث كان". الجامع الصغير، جـ ٢ ص: ١٤٢.

(٣) يشير إلى فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى أيام خلافة عمر بن الخطاب، وما تبع ذلك من عدل بين الرعية وتخليص المصريين من عنت الدولة الرومانية.

بالهروب بعيداً عنه.[1] إذا تكلم فالحقيقة على لسانه. عندما رآه النبى يحترق فى ضراعة، قال : كم هو جدير بأن يسمى "سراج الدين".[2]

وقد تحدث العطار عن لقبه هذا سراج الجنة بتفصيل أكبر فى مقدمة منظومته "إلهى نامه" وربط بين هذا اللقب وبين حديث الرسول عنه بأنه بمثابة العين للرسول عليه السلام، فقال ما ترجمته :

- اعتبره الرسول عينيه فيا لها من مكانة !

وقال عنه سراج الجنة أيضاً فيا لها من مرتبة !

- إنه السراج الذى أضاء الشرق والغرب

وزيته لاشرقى ولاغربى

- ولما كان بمثابة العين والسراج من الحضرة

فكيف يتأتى لك خوض الطريق بلا عين أو سراج

- إن عدمت العين والسراج

فلن تستطيع التفرقة بين الحديقة أو الحمام

٥ - وإن لا يلازمك السراج والعين في الطريق

فلن تعرف الطريق من البئر ، ولا البئر من الطريق

- وإن تسلك الطريق بدون هذا وذاك

(١) إشارة إلى قول الرسول الكريم: " إن الشيطان ليفر منك يا عمر " الجامع الصغير جـ ١ ص ٢٧٤.

(٢) إشارة إلى قول الرسول الكريم: " عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة" المرجع السابق جـ ٢ ص : ١٤٢.

فستزل قدمك وتسقط فى البئر

- وغداً عندما ينفخ فى الصور

سينطفئ مصباح السماء إلى الأبد

- ولكن سراج الجنة الوضاء هذا

سيظل أكثر ضياء على الدوام صباح مساء[1].

وعلى الرغم من المكانة السامية لعمر بن الخطاب فى الدنيا والآخرة، فقد ظل على تواضعه، فلم يتخذ قصراً ولا سريراً للحكم، بل ظل بعد أن تولى أمر الخلافة فى بيته المتواضع وحياته الزاهدة المتقشفة، مما كانت مضرب الأمثال لكل الملوك فى جميع الأمصار، وقد تحدث عن هذا الأمر جلال الدين الرومى فى المثنوى وذلك عندما سرد حكاية مفادها أن قيصر الروم أرسل رسولاً إلى عمر، وعندما وصل الرسول إلى

---

(١) إلهى نامه : الطبعة الرابعة طهران ١٣٦٤ ش ص : ٢٠- ٢١، والنص الفارسى لهذه الأبيات هو :

پيمبر چشم خود خواند ش زهى قدر	چراغ خلد هم گفتش زهى صدر
چراغى كرده شرق وغرب روشن	كه نه شرقى ونه غربيش روغن
چو أو چشم وچراغ آمد زدرگاه	تو بى چشم چراغى چون روى راه
اگر نبود ترا چشم وچراغى	ز گلخن فرق تتوان كرد باغى
٥- كه گر نبود چراغ وچشم در راه	ندانى چاه از ره، راه ازچاه
تو بى اين هو دو گر در راه افتى	ز كورى عاقبت در چاه افتى
ز نفخ صور فردا جاودانى	فرو ميرود چراغ اسمانى
وليكن اين چراغ جنت افروز	بود رخشنده ترهر شام وهر روز

المدينة، فإذا به يسأل عن قصر الخليفة عمر، ولكنه لم يجد قصراً ولا دار حكم، ولا أى مظهر من مظاهر الأبهة التي تعودها هذا المبعوث الرومى فى بلاط ملوكه، وهذه ترجمة لأبيات هذه الحكاية:

- إن رسولاً من القصر جاء إلى عمر بالمدينة، بعد أن طوى الفلاة الشاسعة

- وقال : أيها الخدم! أين قصر الخليفة حتي اتجه إليه بحصانى ومتاعى؟

- فقال له القوم: ليس لعمر قصر، وإنما لعمر قصر الروح المضىء

- فهو وإن كان عظيم الشهرة بالإمارة، فإنه كالدراويش لايمتلك سوى كوخ!

٥- وحين تلقى رسول الروم بسمعه هذه الألفاظ النضرة، زاد اشتياقه

- فأرسل البصر منقبا عن عمر، كما ترك متاعه وحصانه للضياع

- ثم مضى يقتفى أثر ذلك العظيم، سائلا عنه كالمجنون فى كل صوب

- ورأته امرأة إعرابية، فعرفته غريباً، فقالت: إن عمر هناك تحت تلك النخلة

- لقد كان متفردا عن الخلق تحت جذع النخلة، فتأمل كيف نام ظل الله فى الظل؟!

١٠- جاء رسول الروم إلى ذلك المكان ووقف بعيداً، وما أن أبصر عمر حتي أخذته رجفة.

- لقد وقعت بنفس هذا الرسول مهابة لذلك النائم، ثم حلت بروحه حالة هدوء.

- فقال محدثًا نفسه: كم رأيت الملوك، وكم كنت عظيمًا أثيراً لدى السلاطين.

- ما أحسست من قبل بهيبة للملوك أو خوف منهم، فما بال هيبة هذا الرجل قد سلبت لبى؟

- هذا الرجل الأعزل النائم فوق الثرى، قد ارتعد منه كل كيانى، فما هذا ؟

١٥- إن هذه الهيبة من الخالق، وليست هيبة مخلوق، إنها ليست هيبة هذا الرجل صاحب الدلق.

- وبينما هذا الرسول يتفكر، وقد عقد يديه احتراماً، فإذا بعمر قد هب من نومه بعد ساعة.

- فأدى التحية لعمر ثم سلم عليه، إذ قال الرسول : السلام ثم الكلام!

- فرد عمر السلام، ودعاه للاقتراب منه، وأمنه، وأجلسه أمامه.

- إن عبارة "لاتخافوا لهى نزل الخائفين، وإنها لملائمة للخائف.

٢٠- لقد أسعد عمر ذلك القلب الهلع، وعمَّر ذلك الخاطر الخرب.

بعد ذلك تجاذب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أطراف الحديث مع هذا الرسول فى أمور شتى، جعلت هذا الموفد من قبل أمبراطور الروم يقبل على الإسلام ويرفض العودة إلى بلاد الروم.[1]

هكذا كان يحكم عمر الخلافة الإسلامية على اتساع رقعتها، كان العدل والتواضع هما سلاحاه، حتى قيل فى حقه تلك المقوله المشهورة: حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر"!

وعن تواضعه مع عامة المسلمين مهما كان وضعهم الاجتماعى نظم سعدى الشيرازى ماترجمته:

(١) راجع بقية القصة فى ترجمة الجزء الأول من المثنوى، سواء فى ترجمة الدكتور محمد كفافى المنشورة بيروت، أو الترجمة الحديثة للدكتور إبراهيم شتا المنشورة بالقاهرة.

حكاية الخليفة عمر مع الشحاذ

- سمعت أن شحاذًا فى مكان ضيق، قد وضع عمر قدمه فوق ظهر قدمه.

- لم يعرف الفقير المسكين من هو، لأن المتألم لا يعرف العدو من الصديق.

- فثار عليه قائلا: هل أنت أعمى، فقال له الأمير العادل عمر:

- لست أعمى، ولكن الأمر صار خطأ، ولم أعرف؛ فتجاوز عن ذنبى.

- أى منصفين كانوا، عظماء الدين؟ إذ كانوا هكذا مع الأتباع والمرءوسين.

- غدًا يتدلل المتواضعون، وينكس خجلاً رءوسهم المتكبرون.

- إذا كنت تخاف من يوم الحساب، فتجاوز عن خطأ ذاك الذى يخاف منك.

- لاتجر عبثًا واجتراء على من دونك والمرءوسين، فإن فوق يدك يدًا أيضًا! (١)

---

(١) أريج البستان: الترجمة العربية للبوستان، ترجمة د. أمين عبد المجيد بدوى، ص ١٦٧.

أما النص الفارسى فهو عن: بوستان، ص: ١٥٠ (نسخة فروغى).

گدايي شنيدم كه در تنگجاى — نهادش عمر پاى بر پشت پاى

ندا نست درويش بيچاره كوست — كه رنجيده دشمن نداند ز دوست

بر آشفت بر وى كه كورى مگر؟ — بدو گفت سالار عادل عمر

نه كورم وليكن خطا رفت كار — ندا نستم، از من گنه در گذار

٥- چه منصف بزرگان دين بوده آند — كه بازير دستان چنين بوده أند؟

بنازند فردًا تواضع كنان — نگون از خجالت سر گردنان

اگر مى بترسى ز روز شمار — از آن كز تو ترسد خطأ درگذار

مكن خيره بر زير دستان ستم — كه دستيست بالاى دست توهم

بينما كان عمر مع الرعية متواضعًا كان مع نفسه شديد الحساب، وخوفًا من يوم الحشر كان دائم التجوال لتفقد أحوال الرعية ليلاً ونهارًا لأنه يعتبر الحكم تكليفًا لاتشريفًا، فهو مسئول عن الرعية أمام الله عز وجل وقصص عمر بن الخطاب فى هذا الأمر مشهورة ومنها قصته مع المرأة التى كانت تطبخ الحصى لكى ينام أولادها، وقصته مع بائعة اللبن التى رفضت نصيحة أمها بغش اللبن لأن عمر لا يراهما؛ فقالت الفتاة إن رب عمر يراهما، وقد دفع عمر بن الخطاب أحد أبنائه للزواج من هذه الفتاة، ومن نسلها جاء عمر بن عبد العزيز، وقد حكيت الكثير من هذه الحكايات عن تفقده أحوال الرعية حتى بعد مماته، ومنها تلك الحكاية التى أوردها نظام الملك فى كتابه الشهير سياستنامه.[(١)]

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبيه : يا أبت متى أراك إن قبضك الله عن الدنيا؟ فقال عمر: فى الآخرة! قال : وددت لو رأيتك أسرع من هذا! قال: فإنك ترانى فى منامك، فى الليلة الأولى أو الثانية أو الثالثة. ثم انقضت اثنتا عشرة سنة دون أن يراه فى منامه، فلما رآه بعد اثنتى عشرة سنة فى رؤياه! قال: يا أبت! ألم تقل إنى أراك بعد ثلاث ليال ؟ فأجابه : كنت عنك فى شغل، فقد كان فى سواد بغداد جسر ركبه التلف، ولم يصلحه الموكلون به، عبرته أغنام، فولجت ساق شاه فرجة فيه؛ فانكسرت، فسألنى الله بها حتى اليوم!

وفى الحقيقة يجب أن يعلم مولى العالم أنه مسئول فى ذلك اليوم العظيم عمن وليهم من الخلائق وأنه لن يقبل منه إذا هو أحال أمرهم على أحد.[(٢)]

---

(١) نظام الملك: أشهر وزير إيرانى عبر التاريخ الإسلامى، وزر لكل من ألب أرسلان وملكشاه السلجوقيين (٤٥٥-٤٨٥ هـ)، أسس المدارس النظامية وأشهرها مدرسة بغداد التى كان أبو حامد الغزالى أحد أساتذتها، ومؤلفه الشهير سياسته نامه يعد من أشهر الكتب التى توضح واجبات الحاكم وكيف يسوس أمور الدولة.

(٢) روى هذه الحكاية أيضًا الإمام الغزالى فى كتابه نصيحة الملوك.

هكذا كان عمر بن الخطاب مسئولاً عن الرعية وعن الدواب أيضًا لا يهدأ له بال حتى يوفر للجميع أسباب الراحة والطمأنينة، وكيف ظل بعد موته اثنتى عشرة سنة يحاسب من الله عن كسر ساق شاة لإهمال من أحد عماله، وليس لإهمال منه».

ثم يختم نظام الملك حكايته بتوضيح المغزى وهو أن الحاكم مسئول أمام الله عن كل صغيرة أو كبيرة فى مملكته أو إمارته، وكأن لسان حاله يقول أين نحن الآن منك ياعمر؟

فى مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه:

عثمان ثالث الخلفاء الراشدين، صاحب النورين، والمتصف بالحلم، الحريص على صلة الرحم قد تحدث بعض الأدباء ذاكرين مناقبه، ومن هؤلاء كان الراوندى صاحب كتاب راحة الصدور وآية السرور، حيث قال فى مقدمة كتابه ما ترجمته:(١)

عثمان هو فريد العصر، جامع القرآن، زوج الكريمتين، وخاتم القرآن فى ركعتين، ذو النورين الطاهرين، وقد شرفه الرسول بما أورده فى حقه حينما قال: كيف لا أستحى ممن يستحى منه الملائكة؟(٢)

ثم أورد فى حقه بضعة أبيات هذه ترجمتها:

- لم يختم أحد القرآن فى ركعتين سوى عثمان

- ولم يكن بين الصحابة من هو خير من عثمان فى جمع القرآن!

---

(١) راحة الصدور، الترجمة العربية، ص : ٤٨.

(٢) صحيح مسلم، طبع مصر جـ٢، ص : ٢٣٥.

- هو القدوة والإمام والرائد والمقتدى

- الذى لم يبلغ أحد شأوه فى خدمة الدين والإسلام

- ذاق الجميع نعمه وجحدوها فصاروا كالغوغاء

- ولم ينتفع أحد بمثل هذا الكفر والجحود والنكران[1]

لقد تبرع عثمان بالكثير من ماله فى سبيل نصرة الدين الإسلامى، كما كان قريبًا من قلب الرسول عليه السلام حتى زوجه الرسول باثنتين من بناته هما: أم كلثوم ورقية، وقد تزوج الثانية بعد وفاة الأولى، تغمدهم الله جميعًا بواسع رحمته لذا أطلق عليه لقب «ذى النورين» حيث حظى بنورى محمد عليه السلام وهما ابنتاه، ثم زاده الله فضلاً ونوراً عندما أتم جمع القرآن وهو بهذا لم يعد صاحب النورين بل صاحب الأنوار الثلاثة كما قال العطار فى ذكر مناقبه بإلهى نامه:

أمير المؤمنين عثمان .. صاحب اللبين من نورى الرسول، ماذا أقول وقد أصبح ذا ثلاثة من الأنوار، اثنان من نورى الرسول، والنور الثالث من جمعه القرآن..

ولأنه كان مهتمًا بالحفاظ على القرآن، فقد آثر العزوف على الدنيا انشغالاً بهذا الأمر.

---

(١) نقلاً عن الترجمة العربية ص ٤٨، أما الأصل الفارسى فهو بالنسخة الفارسية هى: ١١ وهو :

در دو ركعت ختم قرآن جز كه عثمان كس نكرد
به ز عثمان از صحابه جمع قرآن كس نكرد

آن أمام پيشو وآن مقتداى رهنماى
كز براى دين جز أو انعام وإحسان كس نكرد

نعمتش خوردند وز كفران چو غوغايى شدند
سود بر ادبار ونا پاكى وكفران كس نكرد

إن نزعت بغضه لحظة من قلبك، تشرق شمسك ويضيء قمرك، إن الشخص الذى كسر عصا عثمان على ركبته، أصيبت قدمه بجذام دائم[١] وهكذا أصبحت عصاه رمزًا وصارت مثل عصا موسى خصمًا للأعداء، وإن وجد له عدو فى الحياة، يكون كنائب فرعون، كان قلبه بحرًا عظيمًا من العلم، وكان جسده جبلاً راسخًا من الحلم، كما كان قلبه فى الحقيقة جامعًا للقرآن، لذا كان الخلق يتحلقون حوله بالمسجد ليفسر القرآن للخاصة والعامة. ولما كان إمامًا للخاصة والعامة فى شئون القرآن فكيف يجانبه الصواب مع أقاربه[٢] .. وفى تلك الغوغاء أشهر غلمانه السلاح استعدادًا للنزال وإذا به يدعو الجميع إلى إلقاء السلاح .. وكان القرآن شغله الشاغل، حتى صار شهيدًا وأصبح القرآن وعاء دمائه[٣]

لقد كان الرسول - عليه السلام - حريصًا على الإشادة بعثمان بن عفان وإعلاء شأنه ثقة بفضل عثمان بن عفان على الدعوة الإسلامية، ووضع أمواله تحت تصرف النبى صلى الله عليه وسلم ليأخذ منها ما يدعم الدعوة ويقوى عودها، لذا قال الرسول فى حقه الكثير والكثير، وكان مما قاله نقلاً عما جاء فى مقدمة منطق الطير للعطار:[٤]

---

(١) هذه إشارة إلى أحداث الفتنة التى سبقت مقتل عثمان، حيث اجتمع عليه الثوار داخل مسجد الرسول عليه السلام، ومنعوه من الصلاة، وتطاول عليه أحدهم بعصا الرسول التى كان يحملها عثمان فى يده، ويقال إن هذا الرجل أصيب بعد ذلك بمرض الجذام .د فتحية النبراوى : دراسة فى عصر الخلفاء الراشدين ص ٥٤.

(٢) من الاتهامات التى وجهت إلى عثمان رضى الله عنه أنه اختص بنى أمية - وهم من أقاربه - بالملك والثروة دون المهاجرين والأنصار. ولكن هذا الاتهام مرفوض من كثير من المؤرخين وكذلك من فريد الدين العطار: انظر محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية : الدولة الأموية : للشيخ الخضرى، ص ٤٠.

(٣) عندما هاجم الثوار دار عثمان، كان عثمان عاكفًا على قراءة القرآن والعبادة، وكان يصلى وبين يديه المصحف فسالت دماؤه فوق المصحف: حواشى الترجمة العربية لإلهى نامه، ص : ٢٢٩.

(٤) راجع الترجمة العربية لمنطق الطير، ص ١٦٧، ١٦٨.

إنه يوسف الثانى،

- إنّ الفلك يظل دائمًا خجلاً من عثمان(١)

حدث أن عثمان لم يكن موجودًا أثناء بيعة الشجرة، لذا وضع الرسول الكريم يده بدلاً من يد عثمان، فقال أحد الحاضرين كم كنت أود أن أكون غائبًا مثل ذى النورين لأحوز هذا التكريم، فقال عنه الرسول شمس الدنيا والدين: آن له أن يفعل بعد هذا كل شىء دون خوف.

فى مناقب أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه:

حظى أمير المؤمنين على بن أبى طالب باهتمام ملحوظ من الأدباء الإيرانيين، وذلك لعلمه وشجاعته، وتضحيته بنفسه يوم الهجرة، حتى لا يدرك الكفار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غادر داره إلى غير ذلك من الصفات الحميدة التى اتسم بها على بن أبى طالب، لذا حيكت حوله العديد من القصص والحكايات التى تزخر بها منظوماتهم وكتبهم النثرية، وعلى الرغم من هذه الكثرة الهائلة فإننا سنكتفى بذكر بعض مناقبه، وكذلك حكاية أو حكايتين وردتا فى حقه الكريم، وقد قال فى حقه فريد الدين العطار ما ترجمته.

- سيد الحق وزعيم الصادقين، منبع الحلم وبحر العلم وقطب الدين.

- ساقى الكوثر والإمام الهادى، ابن عم المصطفى وأسد البارى.

- إنه المرتضى المجتبى قرين البتول، السيد المعصوم صهر الرسول.

---

(١) إشارة إلى الحديث الشريف: " عثمان حيى تستحيى منه الملائكة" الجامع الصغير جـ ٢، ص: ١١٢.

- إنه فريد فى اطلاعه على الحق، وليس للعقل أمام علمه أدنى شك.

- إذا كان الرسول قد قال: أقضاكم على، فإن عليا كذلك مشغول بذات الحق.

- إذا كان أحد الأشخاص قد استرد الحياة بنفخة من عيسى، فإن عليًا قد أعاد اليد المقطوعة بنفخة منه.

- لقد أصبح صاحب القبول - وهو معتمد على كتفى الرسول - محطمًا للأصنام بالكعبة![1]

كما نظم فى حقه الراوندى فى مقدمة راحة الصدور أبيات هذه؛ ترجمتها:

- هو صهر النبى وابن عمه المبجل، وهو زوج زهراء النبى، وهو أبو الحسن والحسين.

- ردد ما شئت فى رفعة الأحساب فى جميع العالم، وقل ما شئت فلن تجد من هو أرفع منه!

---

(١) منطق الطير: الترجمة العربية ص ١٦٩، أما الأبيات فبالأصل الفارسى ص: ٢٩.

خواجهء حق پيشواى راستين ... كان علم وبحر حلم وقطب دين

ساقى كوثر، أمام رهنما ... بن عم مصطفى، شير خدا

مرتضاى مجتبى، جفت بتول ... خواجهء معصوم وداماد رسول

مقتداى دين باستحقاق أوست ... مفتى مطلق على الإطلاق أوست

هم ز أقضكم على جان آگه است ... هم على مشغول فى ذات الله است

ازدم عيسى چو مرده زنده خاست ... أو بدم دست بريده كرد راست

گشت اندر كعبه أن صاحب قبول ... بت شكن بر پشتى دوش رسول

- لقد ثبتت به أصول الإسلام فى الأرض، وهو مقتلع الباب الحديدى لحصن خيبر.

- وهو على بن أبى طالب، أسد الله الغالب، الذى استطاع أن يكون فى المعارك قاتلا للكفار.

- إن الشمس قد امتلأت عيناها بالدماء وهى فى حجب المغرب، خجلاً لموت هذا الورع وهو يصلى.(١)

لقد كان على كرم الله وجهه بحراً للعلم، ومع هذا قد كان محيطاً للحلم، ومع علمه الغزير، فقد كان يحسن الاستماع لمن يخالفه الرأى، وهذه حكاية ساقها سعدى الشيرازى فى كتابه «بوستان» يدلل على علمه وحلمه؛ فقال ما ترجمته:

حكاية الإمام على ومخالفه فى الرأى

- عرض شخص مشكله أمام على، عساه يجلو ويكشف مشكلته.

- أجابه الأمير الآسر للعدو، الفاتح للبلاد، إجابة من قبل العلم والرأى.

---

(١) راحة الصدور: الترجمة العربية، ص ٤٩، وأصل الأبيات بالنسخة الفارسية ص ١٢٠.

آنك داماد نبى وابن عم مهترست	جفت زهراء نبى، باب شير وشبر ست
در نسب بادر حسب در كل عالم باز گوى	تا كجا كو كيست كزوى برترست
بيخ دين اندر زمين زومحكم آمد وآنگهى	بر كننده آهنين در را زحصن خيبرست
پور بو طالب على شير خدا كندر مصاف	قاتل كفار بد دينست وعمروعنترست
آفتاب از شرم آن كورا غازى فوت شد	پر زخون هرشب دوديده در حجاب خاورست

- ولكن، سمعت أن شخصاً في ذلك المجلس، قال: ليس هكذا يا أبا الحسن.

- لم يغضب منه حيدر البطل الشجاع، وقال: إن تعرف أحسن من هذا، فلتقل!

٥- فقال ما عرف وذكر ما ينبغي، إذ لايليق أن تستر عين الشمس بالطين،

- فارتضى منه ملك الرجال الجواب، وقال إننا على خطأ وهو على صواب!

- المتكلم العالم الأفضل منا، هو الواحد الذى لا علم أسمى من علمه[1]

* * *

هكذا فعل أسد الله على بن أبى طالب صاحب العلم الرفيع ومن قال فى حقه الرسول الكريم «أقضاكم على»، إذ تقبل رأى مخالفه، واعترف بأنه كان على خطأ فيما قال من رأى، وكان مخالفه الرأى على صواب، أى تواضع هذا؟ إنه تواضع العلماء، وأى خضوع للحق كان يتصف به أمير المؤمنين ؟ لقد كان كل ما يصدر عنه من قول

(١) أريج البستان، ص ١٦٦، والنص الفارسى نقلاً عن كليات سعدى، ص : ١٤٩.

كس مشكلى برد پيش على	مگر مشگلش را كند منجلى
أمير عدو بند كشور گشاى	جوابش بگفت از سر علم ورأى
شنيدم كه شخصى در أن أنجمنى	بگفتا چنين نيست يا با الحسن
ترنجيد ازو حيدر نامجوى	بگفت أر تو دانى از ين به بگوى
٥- بكفت آنچه دانست وبأيسته گفت	بگلچشمه خور نشايد نهفت
پسنديده أز أوشاه مردان جواب	كه من بر خطا بودم، أو بر صواب
به ازما سخنگوى دانا يكست	كه بالا تر از علم أو علم نيست

أو فعل مرده تقربه إلى الله وخشيته منه ولم يكن يستثار إلا من أجل الحق، لامن أجل نفسه بل كثيراً ما كان يتنازل عن حق من حقوقه أو الدفاع عن نفسه، إذا كان في غير هذا التنازل شبهة الأنا أو الذاتية. وهذا ما حدث في أحد المعارك بينه وبين أحد الكفار، تلك الحكاية التي رواها لنا جلال الدين الرومي في كتابه العظيم «المثنوى» ونذكر هنا ترجمة لبعض أبياتها.

علي وخصمه الكافر

- تعلم من علي الإخلاص في العمل، واعلم أن أسد الله كان مطهراً من الغش والخداع.

- لقد تغلب في إحدى الغزوات على رجل من الأبطال، فرفع السيف مسرعًا للقضاء عليه.

- فبصق هذا الخصم في وجه علي، الذى كان فخراً لكل نبي وولي.

- بصق على هذا الوجه، الذى كان وجه القمر يسجد أمامه حيث يكون السجود.

٥- وفي الحال ألقى علي بالسيف من يده، وتراخى في قتاله!

- فغدا المبارز حيران من هذا العمل، ومن إظهار علي هذا العفو وتلك الرحمة في غير محلها.

- وقال: كنت قد شهرت علي سيفك البتار، فلماذا رميته الآن وتركتني؟

- ماذا رأيت فأسكن غضبك هكذا، لقد كان كبارق بدا ثم احتجب!

- قال علي : إنني أضرب بالسيف في سبيل الله، إنني عبد الله ولست عبداً لجسدي !

١٠- إننى فى الحـرب مـصـداق لقـول الحق : «ومـا رمـيـت إذ رمـيت، ولـكن الله رمى»[١]

- أنا لست عـودًا من القش، بل أنا جبـل من الحلم والصبـر، فكيف تقتلع الجبل الرياح العاصفة؟

- فـريح الغـضـب وريح الشـهـوة وريح الطمـع، تعـصـف بمن لايكون من أهل الصلاة.

- الغضب سلطان على الملوك، لكنه غلام لنا، وهأنذا قيدته بسيطرة اللجام.

- ثم قال أمير المؤمنين : إنه فى القتال، حينما بصـقت فى وجهى تحركـت نفسى ففسد طبعى.

١٥- فـأصـبـح نـصـف قـتـالـى من أجـل الحـق، ونـصـفـه مـن أجـل الهـوى والنفس.

- سمع المجوسي هذا القول، فتجلى النور فى قلبه، ومزق زناره.

- وقال : لتعرض على الشهادة، فقد رأيتك مفخرة للزمان.

- واتجه نحـو الدين بمحـبة واشتيـاق، قرابـة خمسـين من ذوى قربـاه وقومه.

- فعلى بسـيف حلمه قد اشترى بدلاً من السيف كثيـرًا من الرقاب لكثيـر من الخلق.

---

(١) الأنفال، آية : ١٧.

٢٠- إن سيف الحلم أحد من سيف الحديد، بل إنه الأقدر على تحصيل الظفر من مائة جيش[١]!

(١) المثنوي ترجمة كفافي جـ ١، ص ٤١٩ ومابعدها، والنص الفارسي؛ كما يلي:

آز على آموز اخلاص عمل	شير حق را دان مطهر از دغل
در غزا بر پهلوانى دست يافت	زود شمشيرى بر آورد وشتافت
أو خدو انداخت بر روى على	افتخار هر نبى وهر ولى
آن خدو زد بررخى كه روى ماه	سجده آرد پيش أو در سجده گاه
٥- در زمان انداخت شمشير آن على	كرد أو اندر خراش كاهلى
گشت حيران آن مبارز زين عمل	ور نمودن عفو ورحمت بى محل
گفت بر من تيغ تيز افراشتى	از چه افگندى، مرا بگذاشتى
آن چه ديدى كه چنين خشمت نشست	تا چنان برقى نمود وباز جست
گفت: من تيغ از پى حق مى زنم	بندهء حقم نه مأمور تنم
١٠- ما رميت إذ رميت در حراب	من چو تيغم وآن زنند آفتاب
گه نيم، كوهم زحلم وصبر وداد	كوه را كى در ربايد تند باد؟
باد خشم وباد شهوت، باد آز	برد أو را كه نبود أهل نماز
خشم بر شاهان شه، ومارا غلام	خشم را هم بسته أم زير لگام
چون خدو انداختى در روى من	نفس جنبيد وتبه شد خوى من
١٥- نيم بهر حق شد ونيمى هوا	شركت آندر كار حق نبود روا
كبر اين بشنيد ونورى شد پريد	در دل أوتا كه زنارى بريد
عرض كن برمن شهادت را، كه من	مر تورا ديدم سر افراز زمن
قرب پنچه كس ز خويش وقوم أو	عاشقاته سوى دين كردند رو
أو بتيغ حلم چندين حلق را	واخريد از تيغ چندين خلق را
٢٠- تيغ حلم از تيغ آهن تيز تر	بل ز صد لشكر ظفر انگيز تر

(مثنوى معنوى): نشر عزيز الله كاسب ١٣٧١ ش الطبعة الأولى ص ١٦١- ١٧٢.

وهكذا انتصر حلمه على غضبة، وكسب الإسلام بحلمه هذا إسلام خمسين أو أكثر من ذوى ذلك الكافر الذى أسلم بدوره نتيجة لما فعله على بن أبى طالب من كبح لجماح نفسه، وهكذا كان على بن أبى طالب حليمًا مع من هم دونه من عامة المسلمين، ومع أعداء الله، ولكن دون أن يتنازل عن حق من حقوق الله عز وجل، بل كان فى حلمه متغاضياً عن حقه فقط.

* * *

رحم الله عليا وسابقيه من الخلفاء الراشدين رحمة واسعة لما قدموه للإسلام من تضحيات ونضال من أجل نصرة دين الإسلام وإعلاء شأنه حتى اليوم.

هكذا كان حال هؤلاء الرجال الذين عاشوا بالإسلام وللإسلام، وقد تخلى كل منهم عن الأنا والذاتية، ولم يكن أحدهم يفكر فى جاه أو سلطان، بل تولى كل منهم الخلافة لاطمعًا فى مكانة اجتماعية ولا أملاً فى ثروة أو أبهة، فكانت الخلافة بالنسبة لهم تكليفًا ثقيلاً وعبئًا ضخمًا، ولكنهم تحملوا العبء وأدوا الأمانة على خير وجه، ومع كل هذه التضحيات فقد ظهر نفر من غلاة المذاهب الإسلامية متهمين هؤلاء الرجال العظام وبخاصة الخلفاء الثلاثة الأول بأنهم استأثروا بالخلافة وسلبوا عليًا هذا الحق كما يدعون، وكانت هذه الدعوات المرفوضة قد وجدت أرضًا صالحة لازدهارها فى إيران، مما دفع العديد من الأدباء والمفكرين لنبذ هذا التعصب، ومن هؤلاء الأدباء الذين اهتموا بهذا الأمر فريد الدين العطار، حيث هاجم هؤلاء الغلاة ذوى المذاهب الضالة المضللة، ومما قاله ما ترجمته :

فى ذم التعصب

- يامن وقعت أسير التعصب، وظللت أبداً أسير البغض والحب.

- إن كنت تفاخر بالعقل واللب ؛ فكيف تنطق بعد ذلك بالتعصب ؟

- أيها الجاهل لارغبة في الخلافة، إذ كيف تتأتى لدى أبى بكر وعمر مثل هذه الرغبة؟

- لو كانت لديهما الرغبة وهما صاحبا قدوة، لأعطى كل منهما لابنه من بعده هذه الولاية.

٥- ولو كانا قد سلبا الحق من المستحق، لكان منعهما واجبًا على الآخرين

- إذا كان أحد لم يتقدم لمنع الصديق، فلك أن تكذب الجميع أو تلزم جانب التصديق.

- أما وإنك تكذب صحابة الرسول، فإنك بذلك تنكر أحاديث الرسول.

- فقد قال - الرسول - أصحابى نجوم زاهرة، وأفضل القرون قرنى.

- وأفضل الخلق صحابتى، وأقربائى ومن حظوا بصحبتى!

١٠- وإذا كان الأخيار هم الأشرار فى نظرك، فكيف تدعى أنك صاحب نظر؟

- كيف تجيز لصحابة الرسول أن يتقبلوا بقلوبهم رجلاً غير صاحب قبول؟

- أو أن يجلسوه مكان الرسول، فهذا الباطل غير مقبول من الصحابة.

- إذا كان اختيارهم خاطئًا، فإن اختيار جمع القرآن يكون كذلك خاطئًا.

- إن كل ما يفعله صحابة الرسول هوالحق ولا يفعلون إلا ما يليق بالحق.

١٥- إذا جاز أن تكون الرغبة في الخلافة لدى الصديق، لما قال «أقيلونى» على الإطلاق.

- كان الصديق رجل طريق دائمًا ومتخليًا عن الكل وللأعتاب كان ملازمًا.

- وكم نشر المال والابنة والروح، فالزم الحياء، فمثل هذا الرجل لايستمرئ الظلم.

- وقد تطهر من قشور الرواية لأنه كان في لب الدراية.

- لم يكن الرسول يجلس مكانه من يتعدى على منبر الدين!

٢٠- فإن يدرك شخص هذا كله، فكيف يستطيع القول بأنه لاحق له في الخلافة؟

- ولو قدر أن لدى عمر قدراً ضيئلاً من الرغبة، لما قتل ابنه ضرباً بالدرة.

- ولو قدر أنه قد تولى الخلافة عن طريق الخطأ، فلم كان نصيبه أسمال الدراويش؟

- كم افترش مرقعاً من مئات القطع، حيث عدم الرداء والكليم.

- إن كنت ضده متعصباً، فلست منصفاً، ولتمت بهذا القهر.

- لقد مات عمر بالسم، أما أنت فستموت دوما بقهره، وإن لم تذق سمه[1]

---

(١) الترجمة العربية لمنطق الطير ص ١٧٠، ١٧١، أما الأصل الفارسي، ص ك ٣٩ -٣١ من منطق الطير.

اى كرفتار تعصب ماندهء	دائما در بغض ودر حب ماندهء
گر تولاف از هوش واز لب ميزنى	پس چرا دم از تعصب ميزنى
در خلافت نيست ميل أى بيخير	ميل كى آيد ز بو بكر وعمر
ميل أگر بودى در آن دو مقتدا	هر دو كردندى پسر را پيشوا
٥- هر دو گر بردند حق از حقوران	منع واجب آمدى بر ديگران
.گر نيابد كسى درمنع يار	جمله را تكذيب كن يا اختيار =

ثم واصل العطار هجومه على هؤلاء المتعصبين فى موضع آخر من نفس المقدمة لكتابه منطق الطير، فقد قال ما ترجمته:

= وركني تكذيب أصحاب رسول ... قول پيغمبر نكر دستي قبول
گفت : هر يا ريم نجمي روشن أست ... بهترين قرنها قرن من است
بهترين خلق ياران منند ... أقربا ودوستار أن منند
١٠ - بهترين چون نزد تو باشد بتر ... كي توان گفتن ترا صاحب نظر
كي روا داري كه أصحاب رسول ... مرد ناحق را كنند از جان قبول
يا نشا نندش بجاي مصطفى ... از صحابه نيست اين باطل روا
اختيار جمله شان گرنيست راست ... اختيار جمع قرآن پس خطا ست
بلكه هرچ أصحاب پيغمبر كنند ... حق كنند ولايف ودرخو كنند
١٥- ميل در صديق اگر جايز بدى ... خود اقيلوني كجا هرگز بدى
دائما صديق مرد راه بود ... فارغ از كل لازم درگاه بود
مال ودختر كرد وجان پرسرتشار ... ظلم نكند اينچنين كس شرم دار
پاك از قشر روايت بود أو ... زانكه در مغز درايت بود أو
أنكه بر منبر ادب دارد نگاه ... خواجه را ننشيند أو بر جابگاه
٢٠ - چون ببيند اينهمه ز پيش ويس ... نا حق اورا كي تواند گفت كس
در عمر گر ميل بودي ذرهء ... كي پسر كشتي بزخم درهء
گر خلافت بر خطا ميداشت أو ... هفت من دلقي چرا ميداشت أو
چون نه جامه دست دادش نه گليم ... برمرقع دوخت صد پاره أديم
گر تعصب ميكني از بهر اين ... نيست انصافت بمير ازقهر اين
٢٥- أو بمرد آز زهر وتواز قهر أو ... چند ميري گر نخوردي زهر أو

- سواء أكان المقصود عليا أم أبا بكر الصديق، فروح كل منهما غارقة في التحقيق.

- فعندما توجه المصطفى صوب الغار، نام المرتضى تلك الليلة على فراشه.

- وهكذا أراد الحيدر أن يقدم روحه نثاراً، وذلك للحفاظ على روح الرسول الأعظم!

- كما خاطر الصديق رفيق الغار بروحه؛ وقدم روحه فداء لرفيق الغار.

٥- كلاهما قدما الروح نثاراً في طريقه، وكلاهما نثراً الروح حفاظًا عليه.

- فتعصب في الرأى على أنهما بمنطق الرجال، قدما الروح نثاراً في سبيل الحبيب.

- وإن كنت رجلاً كهذا أو ذاك، فهل لك أن تتحمل آلام هذا أو ذاك ؟

- فلتكن مثلهما باذلاً الروح، وإلا فالزم الصمت وتخل عن هذا الهزل!

- أنت في هذا الطريق لست إلهًا ولا رسولاً؛ اغلل يدك عن هذا الرد والقبول.

١٠- وتطهر من التبرؤ والتولى، وكن عبداً مطيعًا في هذا الطريق.[١]

---

(١) المقصود من التبرؤ والتولى : تبرؤ المتعصبين من الخلفاء الثلاثة الأول وتوليهم بعيداً عنهم.

- وما دمت حفنة من تراب ؛ فالزم جانبك ، وطهر مداركك وأقوالك(١)

هذه دعوة مباركة لنبذ التعصب بين الفرق والمذاهب الإسلامية، كم أحوجنا إليها الآن، توحيداً للقوى الإسلامية لعلنا نعيد للأمة الإسلامية سالف مجدها وعزتها، كما كانت على عهد الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - جميعًا، اللهم حقق هذا الرجاء، وألهمنا الهداية والرشاد ولنتخذ من سيرة المصطفى - عليه السلام - وصحبه الكرام القوة والأسوة الحسنة، وعلى الله قصد السبل!!.

---

(١) منطق الطير - الترجمة العربية ص ١٧٧-١٧٨، والأصل الفارسى لهذه الأبيات بنسخة جواد مشكور ص ٣٦-٣٧.

گر علی بود اگر صديق بود ... جان هريك غرقهء تحقيق بود

چون بسوى غار مبشد مصطفى ... خفت آن شب بر فراشش مرتضى

كردجان خويش را حيدر نثار ... تا بماند جان آن صدر كبار

پيش يار غار ، صديق جهان ... هم راى جان أو در باخت جان

٥- هر دو جانبازان راه أو شدند ... جانفشانان در پناه أو شدند

تو تعصب كن كه ايشان مردوار ... هر دو جان كردند برجانان نثار

گر تو هستى مرد اين يا مرد آن ... كو تو را يا درد اين يا درد آن

همچو ايشان جان فشاندن پيشه كن ... يا خموش وترك ابن أنديشه كن

تو درين ره نى خدائى نى رسول ... دست كوته كن از نين رد وقبول

١٠- از تولا وتبرا پاك شو ... تو كف خاكى درين ره خاك شو

چون كف خاكى سخن از خاك گوى ... جمله را پاكيزه دان وپاكيزه گوى

الفصل الثالث

آداب الفتوحات الإسلامية

برع الفرس منذ القدم فى الكتابة والنظم حول الحروب والغزوات، ومن أقدم الكتب التى دونت نثرًا بالفارسية فى القرن الرابع الهجرى فى وصف الحروب والبطولات مايسمى بالشاهنامات أو كتب الملوك، وكان الفرس يقلدون فيها كتاب "خداينامه" البهلوى وترجماته العربية، وهو الكتاب الذى ألف في العصر الساسانى وترجمه بعد ذلك إلى اللغة العربية ابن المقفع وسماه "سير الملوك"، وقد ضاع فيما ضاع من كتب.

ومن بين الشاهنامات التى كتبت نثرًا فى القرن الرابع شاهنامة أبى المؤيد البلخى، والتى تعد من أقدم الشاهنامات وأهمها، وتتناول تاريخ إيران القديم. كذلك شاهنامة أبى منصور محمد بن عبد الرازق الذى كان حاكمًا على خراسان وقد أمر وزيره أبا منصور محمد بن عبد الله المعمرى بجمع هذه الشاهنامة.

وأول من شرع فى نظم "شاهنامة" الشاعر مسعود المروزى وهو من شعراء أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل القرن الرابع، وجاء من بعده الشاعر الدقيقى ثاني الشعراء الذين نظموا شاهنامة، ويأتى بعد ذلك أبو القاسم الفردوسى صاحب الشاهنامة الخالدة التي وصلت إلينا كاملة، والتي يصل عدد أبياتها إلى مايقرب من ستين ألف بيت.

كل هذا يدل على أنّ الفرس كانوا يهتمون بتسجيل تاريخهم وحروبهم وفتوحاتهم وبطولاتهم على مدى العصور، وعندما دخلوا فى الدين الإسلامى وشاركوا فى الفتوحات الإسلامية التى كانت تهدف إلى نشر الإسلام فى أرجاء الدنيا، حاول كتابهم وشعراؤهم تسجل كل مايدور فى هذه الفتوحات فى مؤلفاتهم التاريخية أو دواوين أشعارهم. وقد تحولت فيما بعد المنظومات البطولية التي تمجد القومية الإيرانية إلى

منظومات تاريخية بحته، تتحدث عن تاريخ فترة من الفترات أو عهد من العهود، كما هو الحال فى منظومة "سلجوقنامه" التي تتناول تاريخ آل سلجوق، و"ظفر نامه" التى تتناول تاريخ إيران منذ ظهور الإسلام وحتي عصر مؤلفها حمد الله المستوفى القزوينى (متوفى ٧٥٠ هـ) وغيرهما.

ومن أقدم الكتب الفارسية التى احتفت بالحديث عن الفتوحات الإسلامية كتاب "زين الأخبار" تأليف أبى سعيد عبد الحى بن الضحاك بن محمود الگرديزى، وقد كتب المؤلف كتابه عام ٤٤٠ هـ فى عهد عبد الرشيد بن مسعود بن محمود بن سبكتگين. ويشتمل الكتاب على أحداث تاريخية من بدء الخليقة وحتى نهاية عصر السلطان مودود بن مسعود الغزنوى، ويعرض فيه المؤلف الأحداث التاريخية بإيجاز، كما يهتم فيه بعادات الشعوب وتقاليدهم، ويتميز أسلوبه بالبساطة والسهولة والبعد عن التكلف والتعقيد.

ويبدأ الكتاب بالحديث عن ملوك العجم، ويقسمهم المؤلف إلى خمس طبقات تحدث عن كل طبقة منها على حده. ففى الطبقة الأولى يتحدث عن مجموعة من ملوك إيران الأقدمين ثم يتناول فى الطبقة الثانية الكيانيين، وفى الطبقة الثالثة يتحدث عن ملوك الطوائف، وفى الرابعة يتحدث عن ملوك الساسانيين، وفى الخامسة يتحدث عن الأكاسرة، ويبدأ حديثه بالكلام عن أنو شيروان العادل ويقول عنه: " حينما جلس أنو شيروان بن قباد على العرش إستن سننًا طيبة؛ فأطلقوا عليه أنو شيروان العادل، لأنه كان رجلاً عادلاً، لم يسعد لظلم إنسان وأتى بتقاليد حميدة فى إحقاق الحق لم يعمل بها إنسان قبله قط، وأول عمل قام به أنه أعطى مُلك العرب للمنذربن امرئ القيس، لأنه كان السيد، وابن سيد العرب جميعًا، وكان له ولأسلافة مآثر كثيرة لدى ملوك العجم"[(١)]

(١) الترجمة العربية "زين الأخبار" للدكتورة عفاف السيد زيدان - جـ١، ص ٤٧، القاهرة ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢م.

النص الفارسى ص ٢١- تهران ١٣٤٧.

وعند حديثه عن يزد جرد بن شهريار يتناول معركة القادسية فيقول: "كان آخر ملوك العجم، وجلس على العرش وهو فى الخامسة عشرة من عمره، ولم تمض على خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه سوى اثنين وعشرين يومًا، وحينما تولى عمر رضى الله عنه الخلافة، أرسل جيوش المسلمين إلى العراق، وكان خالد بن الوليد أميرًا لتلك الجيوش، فلما أتت أخبار قدوم جيوش العرب إلى يزد جرد بن شهريار بعث بجيوشه للقائهم وولى رستم بن فرخ زاد قيادة هذه الجيوش، وحينما التقى الجمعان فى صحراء القادسية استمرت الحرب طويلا، وكان الظفر دائمًا للمسلمين وقدم يزد جرد بنفسه إلى المعركة، والتحم مع جيش المسلمين، ولكن الظفر كان للمسلمين أيضًا وهزمت جيوش العجم واندحرت، وفر يزد جرد ودخل مرو، وحينما علم ماهوي مرزبان مرو أرسل جماعة لطلبه، وكان ماهوى حانقًا عليه غاضبًا منه، ولكن رجاله لم يجدوه؛ فقد اختفى يزد جرد فى طاحونة، ولما أتى حارسها ورآه قال له: اخرج من طاحونتى، فإن دخلى كل يوم خمسة دراهم وسينقطع دخلى حينما تبقى هنا، ولما لم يكن مع يزد جرد ذهب أبو فضة حتى يعطيه إياه؛ وكان أيضًا جائعًا، فقد أعطاه جوهرة نفيسة وقال له: بع هذه وارفع غلالك، ثم أحضر لى شيئًا حتى أقتات به، ولاتخبر إنسانًا على مكانى. وحينما ذهب الحارس بالجوهرة إلى السوق أمسكوه واقتادوه إلى ماهوى، فسأله عن مكان يزد جرد فدله عليه، فأرسل ماهوى أشخاصًا قطعوا رأسه وأتوا بها إليه، ورموا جسده فى الماء واختتمت به مملكة العجم واستولى المسلمون بعد ذلك على إيران وهى فى أيديهم حتى الآن، وستظل فى ملكهم إلى يوم القيامة بمنة الله تعالى".(1)

ويشير المؤلف إلى هذه الموقعة مرة ثانية عند حديثه عن عمر بن الخطاب إذ يقول " وفى خلافته كانت موقعة القادسية ، فقد واجه جيش خالد بن الوليد العجم، والتحم الجيشان فى صحراء القادسية، وهزمت جيوش العجم، وفر ملكهم يزدجرد بن

(1) الترجمة العربية ص ٥٩ والنص الفارسى للكتاب ص ٤٠.

شهريار، فتقدم خالد بن الوليد وفتح العراق، وحمل خزائن ملوك العجم وكنوزهم التى كانوا قد أكتنزوها منذ أربعة آلاف سنة، وأرسل إلى المدينة نصيب عمر. وكان فتح العراق عام ثمانية عشر".[(١)]

وعندما يتحدث المؤلف عن دولة بنى العباس فى الباب السابع من الكتاب ويصل إلى خلافة القائم بأمر الله، يتناول أخبار أمراء خراسان قبل الإسلام ثم بعد استيلاء المسلمين عليها، فيقول:[(٢)]

" أما أمراء خراسان فقد كانت لهم فى القديم رسوم أخرى، فمنذ عهد أردشير بابكان كان للدنيا سپهسالار واحد، وحينما قدم أردشير جعلهم أربعة، أحدهم فى خراسان، والآخر فى المغرب، والثالث فى النيمروز، والرابع فى أذربيجان، وجعل لخراسان أربعة مرازبة: أولهم مرزبان مروشايكان، والثانى مرزبان بلخ وطخارستان، والثالث مرزبان ما وراء النهر، والرابع مرزبان هراة وپوشنگ وبادغيس.

وحينما استولى المسلمون على ملك العجم، وصارت خراسان للمسلمين أزالوا كل رسوم المغان، وفى عهد الرسول (ﷺ) لم تصل أيدى المسلمين إلى خراسان، وكذلك فى خلافة أبى بك الصديق رضى الله عنه، وحينما تولى عمر رضى الله عنه الخلافة بعث خالد بن الوليد إلى بلاد العجم ليفتحها، وحينما وصل إلى القادسية تقدم إليه جيش العجم بأمر يزدجر بن شهريار وكان رستم بن فرخ قائداً لهذاالجيش، ودارت رحى الحرب هناك، وكان الظفر والنصر للمسلمين. وهزموا المغان، وقبضوا على كثير منهم وباعوهم أرقاء، وهُزم يزدجر وقتل فى مرو شاهجهان، ودخلت جيوش المسلمين إلى العراق على هذا النحو فاتحين البلاد حتى وصلوا إلى خراسان.

---

(١) الترجمة العربية ص ٨٠ والنص الفارسى للكتاب ص ٥٢.

(٢) الترجمة العربية ص ١٤٦ والنص الفارسى للكتاب ص ٩٢.

وفى خلافة عمر رضى الله عنه لم يصل أحد إلى خراسان، وحينما تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة أرسل عبد الله بن عامر بن كريز إلى خراسان، فأرسل عبد الله بن عامر على مقدمته عبد الله بن خازم، وخرجوا عن طريق فارس وجرجان إلى طبسين[1] وفتحوهما. وكان أهلهما أول من أسلم فى خراسان، وقدم من بعد عبد الله بن عامر بن كريز كذلك أمراء آخرون مازالوا يفتحون حتى يومنا هذا".

ومن أهم الفتوحات الإسلامية التى تناولتها المؤلفات الفارسية تلك الفتوحات التى قام بها السلطان محمود الغزنوى فى الهند، وهو الذى تولى الملك بعد أبيه سبَاتيگين عام ٣٨٨ هـ، ونهضت بفضله الدولة الغزنوية إلى أن زالت بعد ذلك على يد السلاجقة عام ٤٢٨ هـ أى بعد موته بسبع سنين. وقد عرف محمود الغزنوى بعدة ألقاب منها: "بطل الإسلام" و" فاتح الهند" و" محطم الأصنام" و "يمين أمير المؤمنين" و "يمين الدولة" . أما أعماله فتدل على عبقرية حربية وسياسية فائقة؛ فقد استطاع أن يغلب السامانيين على أمرهم وأن يغزو الهند وينازل الهنود فى اثنتى عشرة معركة فى مدة أربع وعشرين سنة (٣٩٢ - ٤١٥هـ) وأن يزيد حدود مملكته التى ورثها حتى امتدت من بخارى وسمرقند إلى كجرات وقنوج وشملت فيما شملته أفغانستان وما وراء النهر وخراسان وطبرستان وسجستان وكشمير وجزءًا كبيرًا من الولايات الواقعة فى الشمال الغربى من الهند.[2]

والواقع أن أهم مايميز عصر السلطان محمود وأعماله تلك الغزوات والفتوحات التى قام بها فى الهند والتى كان لها جليل الأثر وعظيمه فى نشر الإسلام فى تلك البقاع، وكان ذلك هدفًا من أهداف محمود، وقد أعطى لها صبغة الجهاد الدينى الذى

---

(١) طبسين هما مدينتان فى غرب سيستان وكان العرب يسمون إحداهما طبس العناب والأخرى طبس التمر.

(٢) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى- تأليف ادوارد براون - ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى - مصر ١٩٥٤م، ص ١١٠، ١١١.

يجب على كل مسلم أن يقوم به. وفى كل هذه الغزوات حالفه النصر، وكان قد فرض على نفسه فى كل عام غزو الهند كما يقول ابن خلكان.[١] وقد ساعده فى تلك الغزوات قرب غزنه حاضرة ملكه من الهند، ولم تكن الهند غريبة عليه فقد سبق له أن شارك أبا فى غزواته لها من قبل، مما يسر له الاطلاع على أحوالها، والوقوف على قدر غير قليل من أساليب القتال عند أهلها. كما أنه كان قد استولى على بلاد ماوراء النهر التى آلت إلى إيلك خان بعد زوال الدولة السامانية، وعلى سجستان وبلاد الغور مما قوى مركزه الحربى فى الداخل، فبدأ يوجه حملاته إلى الهند.

ولاشك أن ثروات الهند أيضًا كانت عاملاً من العوالم المشجعة على تلك الفتوحات، ولكنها لم تكن العامل الأساسى فى ذلك، فلو كانت غاية محمود من غزواته الهندية مجرد جمع الأموال فحسب، إذن لقبل ما عرضه عليه الهنادكة من افتداء صنم سومنات بالأموال الطائلة، وقد رد عليهم بقوله المشهور بأنه يؤثر أن ينعته الناس بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بائع الأوثان.[٢]

وقد استطاع محمود الاستيلاء على صنم سومنات المشهور سنة ٤١٦ هـ والذى يزعم الهنود " أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت لديه على مذهب التناسخ، فينشئها فيمن يشاء، وكانوا يحملون إليه علق نفيس ويعطون سدنته كل مال جزيل وله من الموقوف مايزيد على عشرة آلاف قرية".[٣] وقد حطم يمين الدولة هذا الصنم.

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - ابن خلكان - مصر ١٢٠٠ هـ - جـ، ص ٥١٦.

(٢) تاريخ المسلمين فى شبة القارة الهندية وحضارتهم - جـ ١، ص ٨٧.

تأليف الدكتور أحمد محمود الساداتى - القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م.

(٣) حبيب السير فى أخبار أفراد البشر - خواند مير - بمباى ١٨٥٧ م، جـ ٢، ص ٢٤.

ولم يتوقف محمود عن توجيه حملاته إلى الهند طوال عهده، حتى أننا نرى نائبه أحمد بن ينا لتكين فى هذه البلاد يستولى سنه ٤٢١ هـ، - وهى السنة التى توفى فيها محمود - على مدينة نرسى التى تعد من أعظ مدن الهند أنذاك.

وبالإضافة إلى مهارة محمود وانتصاراته الحربية، فقد كان رجلاً متمسكًا بالدين، سنى المذهب، وقد حاول القضاء على الفرق المختلفة من قرامطة وملاحدة وغيرهما، وأخذ على نفسه القضاء على الشرك، وتميز بالعدل ورعاية الفنون والآداب والعلوم. وهو أيضًا صاحب فضل كبير على الأدب الفارسى، فقد بذل الجهد والمال من أجل جميع الكثير من الشعراء والكتاب، وأخذ يقربهم إليه بكافة الوسائل، وكان ممن ازدان بهم مجلسه أبو الريحان البيرونى المؤرخ المعروف صاحب المؤلفات المشهورة عن الهند (متوفى ٤٤٨ هـ)، والإمام أبو منصور الثعالبى (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) صاحب كتابى " يتيمة الدهر" و" فقه اللغة".

ويخصص الگرديزى عددًا كبيرًا من الصفحات للحديث عن السلطان محمود الغزنوى والفتوحات التى قام بها، وذلك تحت عنوان: " ملك الأمير الأجل السيد يمين الدولة وأمين الملة وكهف الإسلام أبى القاسم محمود بن ناصر الدين والدولة سبكتگين رحمة الله عليهما ، "ويقول الگرديزى:[(١)]

ولما انتهى السلطان محمود رحمة الله عليه من فتح مرو وصار أميرًا لخراسان، قدم إلى بلخ، وكان لايزال فيها حين أتاه رسول القادر بالله من بغداد بعهد خراسان واللواء والخلعة الفاخرة والتاج، ولقبه القادر بالله بيمين الدولة وأمين الملة أبا القاسم محمود ولى أمير المؤمنين.

---

(١) انظر الترجمة العربية لزين الأخبار - جـ ٢، ص ٢٨١ ومابعدها.

والنص الفارسى للكتاب ص ١٧٥ ومابعدها.

ولما وصل هذا العهد واللواء تسلم الأمير محمود عرش السلطة، ولبس الخلعة، ووضع التاج على رأسه، وأذن بالدخول فى البلاد للخاصة والعامة، وكان ذلك فى ذى القعدة سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، ثم رحل عن بلخ إلى هرات سنة تسعين وثلاثمائة، ومن هناك ذهب إلى سجستان، وحاصر خلف بن أحمد فى قلعة إسپهبد، ووسط خلف الوسطاء، وتصالح مع الأمير محمود على أن يعطى مائة ألف دينار، وأن يجعل الخطبة له، ولما فرغ الأمير محمود من هذا ذهب إلى غزنين، ومنها توجه إلى الهندوستان واستولى على الكثير من الحصون.

.... ورجع الأمير محمود إلى هرات فى الخامس من رمضان سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، ومن هناك ذهب إلى غزنين، ومنها دخل الهند وستان بجيش عظيم ونزل فى مدينة پيشاور على رأس عشرة آلاف غاز، وفى مواجهة محمود نصب جيبال ملك الهند معسكراً، وجلب للحرب اثنى عشر ألف فارس وثلاثين ألف مترجل وثلاثمائة فيل واصطفت الصفوف، ودارت رحى الحرب، فوهب الله عز وجل النصر للمسلمين، وظفر الأمير محمود رحمه الله بالنصر، وقهر جيبال، وهلك الكفار، وقتل المسلمون منهم فى هذه المعركة خمسة آلاف كافر، وأسروا جيبال مع خمسة عشر من أبنائه وأخوته، وغنموا كثيراً من الأموال والسبايا والدواب، ويقولون إن جيبال كان يتحلى بقلادة فى رقبته مرصعة بالدر والجوهر قيمها العارفون بمائة وثمانين ألف دينار. وكذلك وجدوا قلائد نفيسة فى أعناق سائر القواد. وكان هذا الفتح فى يوم السبت الثامن من محرم سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة. ومن هناك ذهب الأمير محمود رحمه الله إلى الهند وفتح كثيراً من هذه الولايات، وحينما حل الربيع رجع إلى غزنين.

... ولما رجع الأمير محمود إلى غزنين قصد بهاطية، ومر عن طريق الشستان، وترك الحصن، ووصل إلى بهاطية. وحارب هناك ثلاثة أيام وهيأ بجيراو راجا بهاطية جيشًا، وأرسله لمحاربة الأمير محمود، وذهب هو مع نفر من أتباعه إلى ساحل نهر السند، وحينما علم الأمير محمود أرسل خلفه عدداً من الفرسان فلحقوا به وقبضوا على كل من معه. وحينما رأى بجيراو هذا الحال انتحى ناحية وقتل نفسه، فحملوا رأسه،

وقبضوا على كل من كان معه، وأحضروهم إلى الأمير محمود فسر سروراً بالغا، وأمر فأعملوا السيوف فى الكفار فقتلوا كثيراً منهم، واستولوا على مائتين وثمانين فيلا.

... ثم اتجه السلطان محمود صوب الهندوستان سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وحارب انتدپال بن جيبال، وهزمه واستولى على ثلاثين فيلا، وغنم كثيراً من الغنائم ثم ذهب من هناك إلى قلعة بهيم نگر، وحاصر تلك القلعة، وحارب ثلاثة أيام حتى أتى أهل القلعة يطلبون الأمان، وفتحوا الباب، ودخل الأمير محمود القلعة مع نفر من خاصته، واستولى على خزائن الذهب والفضة والماس وكل ما اكتنزوه.

وحينما دخلت سنة إحدى وأربعمائة قصد الملتان من غزنين، وذهب إلى هناك واستولى على كل ماتبقى من الملتان، وقبض على أكثر القرامطة الذين كانوا هناك، وقتل بعضهم، وقطع أيدى البعض الآخر، ونكل بهم، وسجن الباقين فى القلاع حتى ماتوا فى هذه الأماكن.

وأخبروا السلطان محمود أن تانيسر مكان عظيم به أصنام كثيرة، وهو عند الهنادكة مثل مكة عند المسلمين، ويقدس الهنود هذه البقعة تقديساً عظيمًا، وفى هذه المدينة يوجد معبد عتيق به صنم يسمونه جرسوم ، فلما سمع الأمير محمود هذا الخبر تملكته الرغبة فى أن يذهب إلى هناك، ويستولى على هذه الولاية، ويهدم المعبد، ويحصل لنفسه على الأجر الجزيل.

وفى عام اثنين وأربعمائة ترك غزنين وقصد تانيسر، وحينما علم تروجنپال ملك الهند تكدر وأرسل رسولاً إلى الأمير محمود يقول له: لو تخليت عن هذا العزم ولم تأت إلى تانيسر سأعطيك خمسين فيلاً من خيار الفيلة، فلم يعبأ الأمير محمود لهذا الكلام، وذهب ووصل إلى ديار رام، فخرج أهل رام على الطريق، وكان به غابات كثيفة، وقبعوا فى الكمائن، وقتلوا كثيراً من المسلمين، وحينما وصل إلى تانيسر كان أهلها قد أخلوها، فأغار المسلمون على كل ما وجدوه، وحطموا كثيراً من الأصنام، وجاءوا بصنم جر سوم إلى غزنين ووضعوه فى البلاط واجتمع كثير من الخلق لرؤيته.

... وفى سنة أربع وأربعمائة قصد السلطان محمود قلعة نندنة، ولما علم تروجنپال ملك الهندوستان عين حراسًا على القلعة، أما هو فقد ذهب إلى وادى كشمير، وأخذ جيش الأمير محمود مكانًا فى نندنة، وحفر الحفارون سردابًا تحت الأرض، ومن حوائط القلعة رمى الترك السهام، ولما رأى أهل القلعة هذه الحرب طلبوا الأمان فى الحال وسلموا، وذهب الأمير محمود مع عدد من خاصته إلى القلعة، وحملوا ما فيها من مال وسلاح، وعين الأمير محمود سارغ كوتوالا (قائدًا) لهذه القلعة.

واتجه من هناك إلى وادى كشمير حيث يوجد تروجنپال، وحينما علم تروجنپال هرب، فأمر الأمير محمود أن يستولوا على كل القلاع التى فى وادى كشمير ويغيروا عليها، ووجد الجيش فيها غنائم كثيرة وسبايا. ودخل كثير من الكفار فى الإسلام، كما أمر فى هذا العام أن يشيدوا المساجد الجامعة فى كل مكان فتحوه من بلاد الكفار، وأمر فأرسلوا الأساتذة فى كل مكان حتى يعلموا الهنود شرائط الإسلام، أما هو فرجع مظفراً منصوراً إلى غزنين، وكان فتح نندنة هذا فى سنة خمس وأربعمائة.

... وحينما دخل عام تسعة وأربعمائة قرر السلطان محمود الذهاب إلى قنوج، وكانت ولاية غنية عامرة يكثر بهاالكفار، فعبر السلطان محمود سبعة أنهار خطيرة، ولما وصل إلى حدود قنوج أرسل بكوره أمير الحدود رسولاً، وأظهر الطاعة والولاء وطلب الأمان فأمنه السلطان محمود..

وحينما حل فصل الخريف عام عشر وأربعمائة قصد الأمير عين الدولة نندا لأنه قتل راجپال أمير قنوج ، ووبخه قائلاً: لماذا هزمت أمام جيش السلطان محمود؟ واستقبل نندا تروجنپال لينصره وليرسل جيشًا إلى ولايته، وحينما وصل خبر مجىء السلطان محمود إلى هذه الديار، عبر تروجنپال نهر الگنج وقدم إلى بارى، وعبر الأمير يمين الدول النهر وهزم الجيوش مجتمعة، وهرب تروجنپال مع نفر من الهنود ولم يتقدموا أمام السلطان محمود، ثم قصدوا مدينة بارى فوجدوا المدينة خالية من الناس، فأحرقوا المعابد كلها وغنموا كل ماوجدوه، ومن هناك قاد السلطان محمود جيشًا إلى ولاية نندا وعبر عدة أنهار كبيرة، وعلم نندا بخبر مجىء جيش الإسلام فتهيأ للحرب

وجمع جيشًا كبيرًا، ويقولون إن جيشه كان يحتوى على ستة وثلاثين ألف فارس، وخمسة آلاف ومائة وأربعين مترجلاً، وستمائة وأربعين فيلا، ومثل عدد هذا الجيش كانت توجد أسلحة وخزائن وعلف، وحينما اقترب الأمير محمود منه نزل وعبأ الجيش، وهيأ الميمنة والميسرة والقلب والجناحين والمقدمة والساقة، وأرسل الطلائع، ونزل بحزم واحتياط، وأرسل رسولا إلى نندا ونصحه وتوعده وبصره. كما أرسل إليه الرسائل مهددًا ومنذرًا: اسلم تسلم من هذه الحرب وهذه المحنة وهذا الفساد، فأجاب نندا: لن يكون لى معك أمر غير الحرب... وحينما جن الليل قذف الله تعالى الرعب والفزع فى قلب نندا فجمع الجيش وهرب ... فشكر الأمير يمين الدولة الله عز وجل، وأمر فاقتحموا معسكر نندا وغنموا مالا كثيرًا من كل نوع.

... وعندما دخل عام ثلاثة عشر وأربعمائة قصد الأمير محمود رحمه الله ولاية نندا، فلما وصل إلى قلعة كواليار أحاط بها وحاصرها، وأمر الجيش فطوق جميع جوانبها لشدة منعتها وقوة أحكامها، ولكثرة ما بها من الحجارة الصلدة شديدة المنعة لم يستطع الحفارون ولا الرماة الاستيلاء عليها، وأرسل قائد القلعة رسولاً يطلب الصلح وأعطى خمسة وثلاثين فيلا، ورجع جيش يمين الدولة من هناك، وذهب صوب قلعة كالنجر حيث قلعة نندا، وكان نندا فى هذه القلعة بكامل حشمه وحاشيته وأقربائه، وأمر الأمير محمود رحمه الله فطوق جيشه القلعة من جميع جوانبها، وظل يفكر، لأن القلعة كانت على مكان منيع شاهق الارتفاع لا طريق للحيلة والشجاعة إليها، كما كان بناء القلعة من الحجر الصلد، فتعذر حفره أو قطعه، ولم يسعفه تدبير آخر، فجلس يفكر، وقضى عدة أيام هناك، وحينما نظر نندا ورأى هذا الجيش الكثيف الذى سد كل الطرقات، وسط رسلاً تحدثوا فى أمر الصلح. واتفقوا على أن يدفع نندا جزية، وفى الحال يرسل هدية مقابل ذلك، ويقدم ثلاثمائة فيل من الفيلة المختارة، وسر نندا سرورًا بالغًا لهذا الصلح، وفى الحال أمر فخرجت الفيلة بدون حراسها من القلعة، وأمر الأمير محمود رحمه الله فدخل الترك والعسكر وأمسكوا هذه الفيلة وركبوها، وكان أهل القلعة ينظرون ويتعجبون من شجاعتهم، ثم قال نندا شعرًا فى السلطان محمود باللغة

الهندية وأرسله إليه، فأمر الأمير محمود فعرضوا هذا الشعر على شعراء الهند والعرب والعجم فأعجبهم وقالوا: ليس من الممكن نظم كلام أبلغ وأرفع منه، فافتخر محمود بهذا، وأمر فكتبوا منشوراً لنندا بإمارة خمس عشرة قلعة، وأرسلوه إليه وقال له السلطان: هذا عطاء ذلك الشعر الذى نظمته من أجلنا، وأرسل له أشياء كثيرة من الطرائف والجواهر والخلع، ورد نندا على ذلك بكثير من الأموال والجواهر، ورجع محمود من هناك بالنصر والظفر، وقدم إلى غزنين ... ".

وهكذا وصف الگرديزى فى كتابه كل الفتوحات والغزوات التى قام بها السلطان محمود الغزنوى فى الهند، ومحاولاته للقضاء على مراكز الكفر والإلحاد، ونشر الإسلام فى ربوع تلك البلاد، وإعلاء كلمة الحق، وإقامة المساجد وهدم المعابد وتحطيم الأصنام الموجودة بها، وقد حظى السلطان محمود بمؤلفات عديدة تتناول حياته وجهاده فى سبيل نشر الإسلام، ومن أقدم هذه المؤلفات كتاب" تاريخ اليمينى" الذى ألفه باللغة العربية أبو نصر العتبى وكان من ملازمى بلاطه، ويتناول المؤلف فى كتابه حياة السلطان محمود وأبيه سبكتگين. ولذلك عرف باسم تاريخ اليمينى نسبة إلى يمين الدولة. وتاريخ تأليف هذا الكتاب هو أوائل القرن الخامس الهجرى، وقام بعد ذلك بترجمته إلى الفارسية عام ٦٠٣ أبو الشرف ناصح بن ظفر بن سعد الكاتب الذى كان يعيش فى عصر أتابكة آذربايجان، وكتب المنينى شرحاً عليه باللغة العربية فى مطلع القرن الحادى عشر الهجرى سماه "الفتح الوهبى"، ويعتبر كتاب تاريخ اليمينى من أهم الكتب التى تتناول تاريخ الغزنويين وحياة السلطان محمود.

* * *

ومن الكتب الهامة التى تحدثت عن الغزوات والفتوحات الإسلامية كتاب "طبقات ناصرى" الذى ألفه منهاج الدين عثمان بن سراج الدين المعروف بالقاضى منهاج السراج الجوزجانى عام ٦٥٨ هـ، وهو عالم من علماء خراسان الأفذاذ، تولى مناصب

كبيرة فى الهند بعد سفره إليها، ويشتمل الكتاب على ثلاث وعشرين طبقة، تبدأ بطبقة الأنبياء وتنتهى بظهور المغول، ويضم بين هاتين الطبقتين طبقات أخرى منها طبقة الخلفاء الراشدين وبنى أمية وبنى العباس وملوك العجم وملوك اليمن والطاهريين والصفاريين والسامانيين والديالمة والغزنويين والسلاجقة والملوك السنجرية، وغيرهم، وقد ظل المؤلف يشغل منصب القضاء فى دهلى حتى سنة ٦٨٥ هـ، توفى سنة ٦٩٨ هـ أو قبل ذلك، ويمتاز كتاب "طبقات ناصرى" بالدقة فى سرد الأحداث التاريخية، كما يمتاز بأسلوبه السهل الممتنع البعيد عن الإبهام والغموض والمتأثر باللغة العربية إلى حد كبير.

عندما يتحدث المؤلف عن الطبقة الأولى وهى طبقة الأنبياء، والتى يبدؤها بأبى البشر آدم حتى يصل إلى ولادة المصطفى (ﷺ) وأخلاقه ومعجزاته وأسمائه وألقابه، ثم يتحدث عن سنوات الهجرة من السنة الأولى حتى السنة العاشرة، ويتناول فيها غزوات الرسول (ﷺ). ثم يتحدث عن الطبقة الثانية وهى طبقة الخلفاء الراشدين فيبدؤها بأبى بكرٍ ثم عمر، وفى عهده تمت فتوحات كثيرة يتحدث عنها المؤلف كفتح الشام ومصروالعراق وجبال أرمينيا والأهواز وفارس واصطخر والرى وأذربايجان وأصفهان وبيت المقدس ونهاوند، ويشير إلى أنه أنشأ الدواوين وخصص رواتب الجند، وأنه تولى الخلافة عشر سنوات وخمسة شهور وستة أيام.[١]

وفى حديثه عن الخليفة الثالث عثمان ذكر أن فتوحات كثيرة أيضاً تمت فى عهده منها ما تبقى من بلاد على حدود أصفهان والرى واصطخر وفارس ودار ابجرد وكرمان وسجستان وطبرستان وخراسان ونيشابور وهرات ومرو شاهجان وبلخ وطخارستان وغيرهما، وعندما يصل إلى بنى أمية يروى أن المسلمين فتحوا فى عهد معاوية بلاد الروم ومن بلاد إيران بلخ وكش ونخشب وسمرقند، كما فتح

(١) طبقات ناصرى - منهاج سراج - مجلد أول ص ٧٨ - كابل ١٣٤٢ ش.

فى عهد الوليد بن عبد الملك أجزاء من بلاد الروم ووصل المسلمون إلى الملتان فى بلاد الهند.[1]

وفى الطبقة الخامسة يتحدث عن طبقات ملوك العجم حتى ظهور الإسلام وهم خمس طبقات، وعندما يصل إلى آخر ملوك العجم وهو الملك الثانى عشر يزدجرد يقول: " ... وأرسل أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه سعد بن أبى وقاص إلى ناحية المدائن مع جيش الصحابة رضى الله عنهم، وانتقل يزدجرد من المدائن إلى خراسان عن طريق خوزستان وفارس، وأرسل رستم فرخ هرمز لمحاربة جيش الإسلام، وعندما رأى رستم أن الأمر قد بلغ نهايته أخبر يزدجرد حتى يذهب إلى خراسان مع ألف حارس لخزائنه، وألف حارس لصقوره، وألف حارس لكلابه، ومايلزم للصيد والملك والترفيه، وعاد رستم إلى جيش المسلمين، ودارت المعارك بينه وبين سعد بن أبى وقاص، إلى أن قتل رستم فى القادسية، واستولى المسلمون بعد ذلك فى السنة السادسة عشرة من الهجرة على المدائن، واتّجه يزدجرد إلى خراسان حتى قتله ماهوى الدهقان فى طاحونة سنة إحدى وعشرين من وفاة المصطفى (ﷺ) وانتهى بذلك أمر ملوك العجم ويبقى الملك لله، وكانت مدة سلطنة يزدجرد عشرين سنة، والله أعلم".[2]

وفى الطبقة الحادية عشرة من كتابه يذكر منهاج السراج الطبقة السبكتكينية اليمينية المحمودية (نسبة إلى سبكتكين والد يمين الدولة محمود الغزنوى)، فيتحدث عن فتوحات السلطان محمود وأنه كان "أول ملك من ملوك المسلمين يلقب بلقب سلطان من قبل دار الخلافة.. وعندما تولى السلطنة ظهر أثره على كل المسلمين، حيث حول عدة آلاف من المعابد إلى مساجد، وفتح بلاد الهند وهزم حكامها، وقبض على جيبال أعظم

(١) المرجع السابق ص ٨٠، ٩٣، ٩٧.

(٢) طبقات ناصرى - جـ ١، ص ١٧٢.

ملوكها، .. وقاد جيشه إلى ناحية نهر واله والگجرات، وحطم صنم سومنات وقسمه إلى أربعة أقسام، وضع قسماً منه فى مسجد غزنة، وقسمًا على باب قصر السلطنة، وأرسل القسم الثالث إلى مكة، والقسم الرابع إلى المدينة، وقد نظم الشاعر العنصرى فى هذا الفتح قصيدة طويلة يقول فيها :

- عندما سافر السلطان إلى سرمنات،

جعل آثار الغزو علما للمعجزات.

... وقد استولى هذا السلطان برجولته وشجاعته وسداد رأيه على بلاد الإسلام التى كانت تقع ناحية الشرق، وتولى ولاته حكم كل بلاد العجم من خراسان وخوارزم وطبرستان والعراق وبلاد نيمروز وفارس وجبال الغور وطخارستان، وخضع له ملوك التركستان، وشيد جسرا على نهر جيحون. وقاد جيشاً إلى بلاد توران والتقى به قدر خان حاكم الترك، وخضع له خاقانات التركستان وبايعوه ... وعاش ستين سنة وحكم لمدة ست وثلاثين سنة، وتوفى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة..".[١]

وهكذا رأينا ماذكرته كتب التاريخ الفارسية عن فتوحات المسلمين فى الهند وغزواتهم لها إلى أن تمت لهم السيطرة على جزء كبير منها، وانتشر الدين الإسلامى هناك، وقد ساهم السلطان محمود الغزنوى بنصيب وافر فى هذه الفتوحات، حيث فرض على نفسه غزو الهند كل عام. وتجلت فى حملاته على الهند قدرته العسكرية وحبه للجهاد وإصراره على تحدى العقبات مما جعل حياته أشبه بأسطورة تروى، فقد قاد جيوشه فى بلاد الهند أكثر من سبع عشرة مرة، وحطم ما بها من معابد وأصنام، ويقال إن مدينة قنوج الشهيرة وحدها كانت تضم نحو عشرة آلاف معبد.

---

(١) طبقات ناصرى - جـ ١ ، ص ٢٢٨.

وقد اتخذ الغزنويون فى الهند سياسة كانت بعيدة الأثر فى انتشار الإسلام، وساعدت على الاندماج بين الترك والهنود، من ذلك إباحتهم للمسلمين من الهنود أن يتولوا المناصب الكبرى، كما استخدم الغزنويون الهنود فى الجيش، وفرضوا لهم العطاء ووثقوا بهم وعاملوهم المعاملة نفسها التى ظفر بها الجند الأتراك، وغدت القوات الهندية تؤلف نحو نصف جيش مسعود بن محمود، وكانت تلك خطوة هامة على طريق الالتحام بين الهنود وبين الإسلام.(١)

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن فتوحات السلطان محمود الغزنوى، وسجلوا فى أشعارهم تفاصيل هذه الفتوحات ضمن مدائحهم التى نظموها فيه، الشاعر أبو القاسم حسن بن أحمد العنصرى شاعر العصر الغزنوى الشهير (متوفى ٤٣١ هـ)، وملك الشعراء فى بلاط السلطان محمود. وتدور معظم قصائده حول مدح هذا السلطان وأخيه الأمير نصر وابنه السلطان مسعود الغزنوى، وللعنصرى غير الديوان منظومات أخرى تتناثر أبيات منها فى المعاجم، وتتميز بالمعرفة التامة للغة العربية وآدابها، كما يعتبر رائدا فى فن إنشاد القصيدة الفارسية، وقد قلده شعراء كثيرون بعده.

وإذا طالعنا ديوان العنصرى نجده يتحدث دائمًا عن السلطان محمود على أنه بطل من أبطال المسلمين، وأنه استطاع بخبرته العسكرية وفتوحاته أن يحقق الكثير للمسلمين، ومثال ذلك ما قاله فى إحدى قصائده:(٢)

- إنه أمير المشرق يمين الدولة،

الذى يسهل بسيفه كل ماهو صعب على الدولة.

---

(١) انظر كتاب : الإسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحتين العربى والتركى - د/ حسن أحمد محمود من ص ٢٣٨ إلى ص ٢٥٢ - طبعة الهيئة العامة للكاتب ١٩٧٢م.

(٢) ديوان العنصرى - باهتمام وتصحيح ومقدمة وحواشى يحيى قريب - طهران ١٣٦٣ هـ - ١٣٢٣ ش . ص ١٨.

خسرو مشرق يمين الدولة أن كز تيغ أو   هرچه دشوار است بر دولت همى آسان بود

ويقول فى قصيدة ثانية واصفًا فيها تاثير محمود فى أعدائه ومايتركه فى بلادهم من خراب ودمار:[1]

- دائمًا ماينمو الموت فى بساتين أعدائه

فوق الأشجار بدلاً من نمو الأوراق.

- ودائمًا ما تجرى النيران فى الأنهار.

فى مدن أعدائه بدلاً من الماء.

ويؤكد العنصرى فى موضع آخر على انتصارات محمود وأمجاده، وأنها حقيقة وليست روايات تذكر فى الكتب، يقول فى مطلع إحدى قصائده:[2]

- هكذا يترك سيف الأمراء أثره،

وهكذا يتصرف العظماء بما يليق بهم.

- انظر إلى سيف السلطان ولاتقرأ كتب الماضى وقصصها،

فسيفه أصدق أنباء من هذه الكتب بكثير.

---

(١) همى در باغــهــاى دشــمنانش بجــاى برگك رويد مــرگ از اشــجــار

همى در شــهــرهاى حــاســدانش بجـــــاى أب نار آيد در أنهــــــار

(ديوان العنصرى، ص ٢٦)

(٢) چنان بماند شـمشـير خـسـروان آثار چنين كنند بزرگــان چو كــرد بايد كــار

به تيغ شاه نگر نامهء گذشته مخوان كـه را ستگوى تر از نامـه تيغ او بسـيـار

(ديوان العنصرى، ص ٤٨)

وفى هذه القصيدة أيضًا يشبه الشاعر موت أعداء السلطان محمود وغرقهم فى نهر جيحون بأنهم كفرعون وقومه، ويشبهه هو بأنه موسى الذى عبر النهر دون أن يصاب بأى أذى، يقول:[1]

- وغرقوا جميعًا فى النهر كفرعون وقومه،

بينما عبر السلطان النهر كموسى.

وفى نهاية هذه القصيدة يصف الشاعر حروب السلطان بأنها كانت لنصرة دين محمد، ثم يدعو له بالنصر الدائم والتوفيق المستمر، يقول:[2]

- قتل الأعداء واستولى على الكنوز وغنم الأموال،

من أجل نصرة دين محمد المختار.

- فطالما كانت الظلمة من نصيب الليل،

وطالما كان الضياء من نصيب النهار،

- فليكن العز والنصر والفتح من نصيب سلطان العالم،

وليكن الموت والمحن والمرض من نصيب أعدائه.

---

(١) بر آب در همه غرقه شدند چون فرعون چو برگذشت برآن آب شاه موسى وار

(ديوان العنصرى، ص ٤٩)

(٢) بكشت دشمن وبرداشت گنج ومال ببرد زبهر نصرت دين محمد مختار

هميشه صفت تيرگى نصيب شب است چنان كجا صفت روشنى نصيب نهار

نصيب شاه جهان باد عز ونصرت وفتح نصيب دشمن أو مرگك ومحنت وتيمار

هزار فتح چنين وهزار غزو چنان برو بر آمده وگفته عنصرى أشعار

(ديوان العنصرى، ص ٥١)

- وليكن له ألف فتح كهذا، وألف غزو كذاك،

وينشد له العنصرى الأشعار.

ويرى العنصرى أن السلطان محمود من الشخصيات التى يفخر بها الإنسان المسلم، وأن الدولة لاتستقيم أمورها إلا به وبأمثاله، وأن مايفعله يحالفه الصواب والتوفيق دائمًا، يقول:[1]

- إنه مراد العالم وسلطان الأرض وكنز الفضل،

وهو قوام الملك ونظام الهدى وفخر البشر.

- يمين الدولة الذى تشرفت الدولة به،

وأمين الملة الذى عظم شأن الملة به.

- لقد حظى سلطان العالم بأربعة أشياء.

فى أربعة أوقات عندما عزم على السفر.

- فعندما عزم كان نصيبه الصواب، وعندما قرر كان نصيبه التوفيق

(١) مراد عالم وشاه زمين وگنج هنر — قوام ملك ونظام هدى فخر بشر
يمين دولت ودولت بدو گرفته شرف — أمين ملت وملت بدو گرفته خطر
چهار چيز بود در چهار وقت نصب — خدايگان جهانرا چو كرد راى سفر
چو عزم كرد صواب وچو راى زد توفيق — چو باز گرد فتح وچو جنگك گرد ظفر
....
ز بيم شاه نماند همى بگيتى كفر — زخير شاه نماند همى بگيتى شر

(ديوان العنصرى، ص ٥٨)

وعندما عاد كان نصيبه الفتح، وعندما حارب كان نصيبه النصر.

إلى أن يقول في نفس القصيدة:

- لم يعد هناك كفر في العالم أجمع خوفًا من بطش السلطان،

ولم يعد به شر بسبب خيره وفضله،

ويتحدث الشاعر عن فتوحات محمود وحروبه في كثير من قصائده، ومثال ذلك القصيدة التي يبدؤها بقوله:(١)

- يامن سمعت من فضائل السلطان،

تعال وشاهد فضائل أمير المشرق بعينيك.

ويشير الشاعر في هذه القصيدة إلى فتوحات السلطان محمود في المولتان وما أصابه من نصر على الكفار، وماحققه من نشر للإسلام وقضاء على الشرك، يقول:(٢)

---

(١) أيا شنيده هنرهای خسروان بخبر — بیا ز خسرو مشرق عیان ببین تو هنر

(ديوان العنصري، ص ٧٨).

(٢) حکایت سفر مولتان همی دانی — وگر ندانی تاج الفتوح پیش أور

...

بمولتان شد ودر ره دويست قلعه گشاد — که هو یکی را صد بند بود چون خیبر

ز بوم وبتكده هائی که شاه سوخت هنوز — نبرده بادهمی توده های خاکستر

بسند وناحیت هند شهریار آن کرد — کجا بمردم خیبر نکرده بد حیدر

نه قلعه ماند که نگشاد ونه سپه که نزد — نه قرمطی نکشت ونه گبر ونه کافر

....

ببست رهگذر کفر وبیخ شرك بكند — بجای بتکده بنهاد بر که ومنبر

نجست زينهمه كافرستان که ویران کرد — بجز رضای خدا ورضای پیغمبر

(ديوان العنصري، ص ٧٨).

- استمع إلى حكاية السفر إلى المولتان وتعرف عليها،

وإذا لم تكن تعرفها فابدأ بها فهى حكاية تاج الفتوح

إلى أن يقول:

- لقد توجه السلطان إلى المولتان وفتح مائتى قلعة فى الطريق،

لكل واحدة منها مائة قفل ومانع كخيبر.

- ومن كثرة ما أحرقه السلطان من أماكن ومعابد،

لم تتمكن الرياح من حمل أكوام رمادها حتى الآن.

- لقد فعل الأمير فى السند وناحية الهند،

ما لم يفعله حيدر بأهل خيبر.

- فهو لم يترك قلعة بدون فتح، ولم يترك جيشًا بدون هزيمة،

ولم يترك قرمطيًا أو مجوسيًا أو كافرًا بدون قتل،

ثم يتحدث عن فتحه لمرو فى نفس القصيدة، ويقول:

- سد طريق الكفر، واقتلع جذور الشرك،

أقام المساجد والمنابر مكان المعابد.

- ولم يطمع فى شىء من وراء هدم بلاد الكفر،

سوى رضا الله ورسوله.

نذكر أيضًا من الشعراء الذين أفاضوا فى الحديث عن محمود الغزنوى وفتوحاته وغزواته من أجل نشر الإسلام فى الهند الشاعر أبا الحسن على بن جولوغ الفرخى

السيستانى (متوفى ٤٢٩ هـ)، وهو أيضًا من شعراء بلاط السلطان محمود، ومعظم قصائده فى مدح ذلك السلطان وأبنائه وإخوته ووزرائه وندمائه، ويشتمل ديوانه على أكثر من تسعة آلاف بيت من الشعر الذى يتميز بالسهولة والخلو من التعقيد والإبهام، وقد وصف غزوات محمود بشكل واقعى حيث إنه كان شاهد عيان على كل هذه الغزوات والحروب، ويمكن اعتباره من أشهر شعراء القصيدة فى إيران.

وفى إحدى قصائد الفرخى يصف الشاعر عودة السلطان محمود من الهند بعد فتح سومنات بقوله:[(١)]

- يمين الدولة سلطان العصر الذى عاد إلى مقره الآن،

بقلب مسرور وبفأل حسن.

- ذلك لأنه حطم الأصنام وهدم المعابد،

وفتح القلاع القوية قلعة بعد قلعة.

- وعبر الفيافى الشاسعة،

وعبرت جيوشه البحار الواسعة.

---

(١) ديوان حكيم فرخى سيستانى - بكوشش دكتر محمد دبير سياقى - تهران ١٣٤٩ (ص ٢٤ قصيدة ١٨).

يمين دولت شاه زمانه باد شاد — بفال نيك كنون سوى خانه روى نهاد

بتان شكسته وبتخانه ها فگنده زياى — حصارهاى قوى بر گشاده لاد از لاد

گذاره كرده بيا بانهاى بى فرجام — سپه گذاشته از أبهاى بى فرناد

خليفه گويد كامسال همچو هر سالى — گشاده باشد چندين حصار وآمده شاد

خبر ندارد كاسال شهريار جهان — بناى كفر فكنده ست وكنده از بنياد

ويتحدث الشاعر عن خليفة بغداد عندما وصل إليه خبر فتح سومنات، وقد اعتبره فتحًا عاديًا، إلا أن الشاعر يصف ذلك بشكل مختلف، ويرى هذا الفتح أمرًا غير عادى، لايقوى عليه إلا سلطان ذلك العصر محمود الغزنوى، يقول:

- يقول الخليفة إن هذا العام مثل كل عام،

فقد فتح عدة قلاع وعاد مسرورا.

- وهو لايعلم أن مليك الدنيا،

قد حط بناء الكفر هذا العام واقتلع جذوره.

ويدعو له بقوله:[1]

- ليبقه الله حيا، فبسيفه وساعده،

خرب بناء الكفر، وعمر بناء الدين.

ويصف الشاعر المعاناة التى عاناها السلطان محمود فى سفره وحروبه، وأنه كان يتحمل ذلك فى سبيل نصرة الإسلام، كما كان عبوره للبحار والأنهار معجزة كبيرة كمعجزة عبور موسى، يقول:[2]

- من كثرة ما عانى جسده الشريف من متاعب السفر وآلامه،

---

(١) بقاش باد كه از تيغ او وبازوى اوست   بناى كفر خراب وبناى دين آباد

(ديوان العنصرى، ص ٣٤).

(٢) ز بسكه رنج سفر بر تن شريف نهد   همى ندانم كان تنى تنست يا پولاد

برابر يكى از معجزات موسى بود   در آب دريا لشكر كشيدن شه راد

(الديوان ، ص ٣٤).

لم أعد أعرف هل جسده هذا جسد إنسان أم هو من الفولاذ.

- وما عبور السلطان الشجاع للبحر بجيشه،

إلا معجزة تعادل معجزة من معجزات موسى.

ويرى الشاعر أن ما فعله السلطان ليس بالمعجزة الوحيدة، فإن له معجزات كثيرة في الجهاد والحرب، وقد أعطاه الله هذه المواهب وذلك التوفيق منذ كان في سن العشرين من عمره، كما يعتقد أن ما فعله السلطان يفوق بكثير ما فعله ملوك إيران القدماء، يقول:[1]

- لا تقل إنه يشبه كيقباد أو جمشيد،

فإن الحديث عنه يختلف تماماً عن الحديث عن جمشيد وكيقباد.

- فعندما تتحدث عنه لا تتحدث عن غيره من الملوك،

فمن الخطأ أن نقارن بين طائر الهما[2] والحدأة.

والواقع أن استيلاء محمود الغزنوي على الگجرات ودخول سومنات يعتبر من أعظم فتوحاته الهندية، فقد اخترق إليها صحراء مهلكة هي صحراء الثار (تر) التي لم يجرؤ الإسكندر المقدوني من قبله على اقتحامها، فكانت قوة جلده واحتمال رجاله مثار الدهشة والإعجاب. وفي سومنات هذه كان يقوم معبد كبير له قداسة عظمى عند

---

(١) مگو مگوی كه چون كيقباد يا چوجم است — حديث أو دگر ست از حديث جم وقباد
چو زو حديث كنى از شهان حديث مكن — خطا بود كه تخلص كنى هماى به خاد
(الديوان، ص ٣٥).

(٢) الهما: طائر خرافي يقال إن كل من يقع عليه ظله تأتيه السعادة، ويتفاءل به الإيرانيون.

الهنادكة، حتى إنهم أعادوا بناءه من جديد فى العصر الحاضر عام ١٩٥١م، أى بعد مضى أكثر من تسعة قرون على هدم محمود له. ويعتقد الهنادكة أن الأرواح تتناسخ فى الأبدان عند هذا المعبد، وأن المد والجزر إن هما إلا صلاة البحر يؤديها إلى صنمهم الأكبر هناك.

ويحج الناس إلى هذا المعبد عادة فى جموع زاخرة ولاسيما عند خسوف القمر، وكان به من السدنة ألف من البراهمة ومن المنشدين خمسمائة[١].

وفى قصيدة أخرى يصف الفرخى أيضًا عودة السلطان محمود من الهند بعد فتحه الثانى، ويذكر فتح مدينة قنوج، ويعد هذا الفتح من بين وقائع محمود الحربية الباهرة، وكانت هذه المدينة تضم نحو عشرة آلاف من المعابد، ولم يستطع أميرها المقاومة، وتم الاستيلاء على مدينته، يقول[٢].

- يمين الدولة محمود قاهر الكفار،

الذى يدعم دين محمد المختار.

- عندما عاد منتصراً من قنوج،

كان الظفر والفتح عن يمينه وعن يساره.

---

(١) أنظر : محاضرات فى تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها - الدكتور أحمد محمود الساداتى - طبعة معهد الدراسات الإسلامية ١٩٧٦م القاهرة.

(٢) قوى كننده دين محمد مختار — يمين دولت محمود قاهر كفار

چو بازگشت به پيروزى از در قنوج — مظفر وظفر وفتح بر يمين ويسار

هنوز رايتش از گرد راه چون نسرين — هنوز خنجرش از خون تازه چون گلنار

هنوز ماه ز آواى كوس أو مدهوش — زعكس تيغش خيره ستارهء سيار

ز بهر ريختن خون دشمنان خداى — ز بهر قوت دين محمد مختار

رهى بپيش خود اندر گرفت وگرم براند — بزير رايت منصور لشكر جرار

رهى چگونه رهى، چون شب فراق دراز — چو عيش مردم درويش ناخوش ودشوار

- ومازالت رايته في لون زهرة النسرين من غبار الطريق،

ومازال خنجره في لون زهرة الجلنار من أثر الدماء.

- وما زال القمر مندهشاً من صوت طرقات طبوله،

ومازالت الكواكب السيارة حيرى من بريق سيفه.

- فمن أجل سفك دماء أعداء له،

ومن أجل دعم دين محمد المختار.

- طوى الطريق وقاد على عجل،

جيشه الجرار تحت لوائه المنتصر،

- طريق وأى طريق هو؟ إنه طريق طويل كليل الفراق،

أو هو كحياة الفقراء المعدمين كله ألم ومعاناة.

ثم يصف الشاعر بعد ذلك المعارك التى دارت بين جيش محمود وجيش نندا الهندى، وأنه استطاع القضاء عليه قضاء مبرما، ويشبه ذلك بقوله:[1].

---

(1) همى شدند وهمى ريخت آن سپاه سليح ... چنانگه وقت خزان برگ ريزد از أشجار

بجاى لشكر ايشان نگاه كرد ملك ... نديد زيشان جز خيمه بر زمين أثار

يرفت بردمشان يك دو منزل وهمه را ... بكشت ودشمن دينرا بكشت بايد زار

تبارك الله از أن خسروى كه در هنرش ... زبان خلق همى باز ماند از گفتار

أيا شجاعت را نوك نيزهء تو پناه ... أيا شريعت را تبغ تيز تو معيار

بسا بتاكه تو برداشتى ز بتكده ... چنان بتان گه زلاهور بر گرفتى پار

ز بهر أنكه بتان را همى پرستيدند ... مخالفان هدى اندر أن بلاد وديار

بتان زرين بشكستى وبپا لودى ... بنام ايزد از آن زرها زدى دينار

(ديوان الفرخى ص ٥٢، ٥٣).

- لقد انهار ذلك الجيش المسلح وتساقط جنوده،

كما تتساقط أوراق الأشجار فى فصل الخريف.

- ونظر الملك إلى مكان الجيش.

فلم ير منهم أحداً سوى آثار الخيام على الأرض.

- فتعقبهم لمسافة طويلة،

وقتلهم جميعًا وقضى على عدو الدين العاجز الذليل كما ينبغى.

- تبارك الله لمهارة ذلك المليك،

الذى عجزت ألسنة الخلق عن مديحه ووصفه.

- يا من تكون رأس حربتك ملجأ للشجاعة،

ويكون سيفك البتار معياراً لتطبيق الشريعة.

- كم من الأصنام حطمتها فى المعابد،

كتلك الأصنام التى أخذتها من لاهور فى العام الماضى.

- وبسبب أن مخالفى الهدى فى تلك البلاد،

قد عبدوا الأصنام.

- حطمت الأصنام الذهبية وطهرتها،

بعد أن سككت الدنانير الذهبية منها باسم الله.

ويصف الشاعر فى قصيدة أخرى له بعض فتوحات السلطان محمود، وما فعله بالطغاة والعصاة والملحدين وعبدة الأصنام فيقول:[1].

- لقد جعلت الطغاة والعصاة جميعًا مطيعين وخاضعين لك،

وقضيت على الملحدين والضالين كلهم.

- وجعلت حياة عبدة الأصنام مرة كالحنظل،

وجعلت أيام أعداء الدين سوداء كالقار.

ويصف نتائج فتوحاته وغزواته وأنها جعلت القلاع خالية من الرجال، والمدن خالية من الأمراء والحكام، وجعلت الأدغال خالية من الأسود، والصحارى خالية من الأفاعى، فيقول فى نفس القصيدة:

- لقد جعلت الأدغال خالية من الأسود، وجعلت الصحارى خالية من الأفاعى.

وجعلت القلاع خالية من الرجال، وجعلت المدن خالية من الأمراء.

---

(١) طاغيان وعاصيان را سر بسر كردى مطيع ملحدان وگمراها نرا جمله بر كردى بدار
عيشهاى بت پرستان تلخ كردى چون كبست روزهاى دشمنان دين سيه كردى چوقار
بيشه ها بى شير كردى، دشتها بى أژدها قلعه ها بى مرد كردى، شهرها بى شهريار
خسروى از خسروانى بستدى پيروز بخت تخت وملك از خانه هايى بر كرفتى نامدار
خانهء يعقوبيان وخانهء مأمونيان خانهء چبپاليان واين چنين صد بر شمار
لشكر إيشان شكستى كشور ايشان گرفت با كدامين شاه خواهى كرد زين پس كارزار
كارهاى شير مردان كرد واز رشك تو حاسدانت ياوه گوهستند وجمله ژاژ خور
گر كسى خواهد كه درگيتى چو تو كارى كند چون كند، چون در همه گيتى نيابد هيچ كار
عمرهاى نوح بايد تا شيهى خيزد دگر هم ازآن شاهان كه تو بركنده أى از بيخ وبار
(ديوان الفرخى ص ٨٧).

- فأنت الأمير الذى أخذ الإمارة من الأمراء ذوى الحظ الحسن،
وأخذت العرش والملك من البيوتات الشهيرة.
- كبيت اليعقوبيين وبيت المأمونيين،
وبيت جيپال الهندى، والمئات من أمثالهم.
- هزمت جيوشهم واستوليت على بلادهم،
فأى ملك سوف تحاربه بعد ذلك؟
- لقد فعلت ما يفعله شجعان الرجال،
مما جعل حسادك يشرعون فى الهذيان واللغو.
- ولو أراد أحد أن يفعل ما فعلته أنت فى هذه الدنيا،
وفعل ذلك، فلن يجد شيئًا آخر يفعله فيها.
- وسوف تنقضى أزمنة كعمر نوح حتى يظهر ملك آخر،
كهولاء الذين اقتلعت جذورهم وقضيت عليهم.

ويتناول الشاعر فتوحات السلطان محمود وعبوره لنهر الكنك فى الهند فى إحدى قصائده الشهيرة ويخطابه فيها بقوله:[1]

(١) تو أن شهى كه ترا هر كجاروى شب وروز همى رود ظفـر وفـتح يمين ويسـار
همیشه کار تو غزوست وپیشهء توجهاد از بن بن دو چیزکنی یاد، خفته کر بیدار
گواه این که سوی گنك روى آوردى پی غـزای بد اندیش فرقهء کفار
(ديوان الفرخى ص ٦١).

- إنك أنت السلطان الذى أينما ذهب ليلاً أو نهاراً،

يرافقه الظفر والفتح عن يمينه وعن شماله.

- فعملك دائماً هو الغزو، وحرفتك هى الجهاد.

وتتحدث عنهما دائماً سواء كنت نائماً أم مستيقظاً.

- والشاهد على ذلك أنك توجهت إلى الگنگ،

لغزو طائفة الكفار سيئة العقيدة،

إلى أن يقول واصفاً عبوره لهذا النهر وغرق أعدائه فيه:[١]

- وعبرت هذا النهر لحرب الكفار،

فقهرهم الله - تعالى - على يديك.

---

(٢) بجنگ كافر ازين رود بگذريد بهم ... گه هم بدست شما قهرشا ن كند قهار

همه سپاه بيكبار يا سليح وسپر ... فروشدند بدان رود نا دهنده گذار

چو قوم موسى عمران زرود نيل از آب ... بر آمدند همه بى گزند وبى آزار

چهل أمير زهندوستان در آن سپاه است ... بزير رايتشان سى وشش هزار سوار

علامتست در أن لشكر اندر وبر أو ... پيادگان گزيده صد وسى وسه هزار

قويست قلبكه لشكرش به نهصد پيل ... چگونه پيلان، پيلان نامدار خيار

همه چوكره بلندند روز جنگ وجدل ... بلند كوه بداندانها كنند شيار

خديگان زمانه چو ابن خبر بشنيد ... چه گفت، گفت هميخواستم من اين پيكار

(ديوان الفرخى ص٦٣، ٦٥).

- وغرق كل الجيش مرة واحدة بأسلحتهم ودروعهم

في النهر دون أن يتمكنوا من العبور.

- وعبرت جيوشك كلها النهر بدون ضرر أو أذى،

كما عبر قوم موسى بن عمران نهر النيل.

ثم يصف جيش العدو ومدى قوته وتسليحه، وعندما علم الملك بتلك القوة رغب فى قتال ذلك العدو، فيقول:

- كان على رأس هذا الجيش أربعون أميراً هنديا،

وكان تحت إمرتهم ستة وثلاثون ألف فارس.

- وكانت لهذ الجيش علامات ورايات،

كما ضم من المشاة المختارين مائة وثلاثة وثلاثين ألف جندى.

- ويدعم وسط الجيش تسعمائة فيل،

وأى أفيال؛ إنها أفيال مشهورة منتقاة.

- وهى ضخمة كالجبال فى وقت الحرب والنزال،

تكسر الجبال العالية بأسنانها.

- فماذا قال سيد العصر ومليكه عندما سمع هذا الخبر؟

قال : إننى أرغب فى منازلة هذا الجيش.

ويصف الفرخي في قصيدة أخرى له سفر السلطان إلى سومنات وفتحها، وتحطيم الصنم منات، وعودته منها منتصرًا، يقول في مطلعها:[1]

- أصبح الحديث عن الإسكندر حديثًا خرافيًا وقديمًا،

فتحدث اليوم حديثًا جديدًا، فالجديد له حلاوة أخرى.

- فالحديث عن الإسكندر وأين وصل وماذا فعل،

قد حفظه الناس من كثرة سماعه وتكراره

- أما السلطان فهو الذي لا يتمنى شيئًا بالليل أو النهار

سوى أن يهدم معابد الأصنام ويحطمها فوق رؤوس عبدة الأصنام.

---

(١) فسانه گشت وكهن شد حديث اسكندر — سخن نو آر كه نو را حلاوتيست دگر

حديث أنكه سكندر كجا رسيد وچه كرد — ز بس سنيدن گشته ست خلق را از بر

شهي كه روز وشب او را جز أين تمنانيست — كه چون زند بت وبتخانه بر سر بنگر

گهی ز جيجون لشكر كشد سوی سيحون — گهی سپه برد از باختر سوی خاور

ز كار نامهء أو گردو داستان خواني — بخنده يادكنی كارهای اسكندر

....

تو سومنات همی سوختی به بهمن ماه — شهان ديگر عود مثلث وعنبر

بوقت آنكه همه خلق گرم خواب شوند — تو در شتاب سفر بوده ای ورنج سهر

(ديوان الفرخي ص ٦٦، ٧٣).

- فأحيانًا يقود الجيش من جيحون إلى سيحون،

وأحيانًا يقوده من الغرب إلى الشرق.

- وإذا قرأت قصتين من سجل أعماله،

فسوف تضحك عندما تتذكر أعمال الأسكندر.

ويقارن الشاعر بين السلطان محمود وبين غيره من السلاطين فى نفس القصيدة، ويرى أنه يعمل بجد وإخلاص من أجل إعلاء كلمة الحق ورفع راية الإسلام عالية خفاقة، بينما يعيش غيره من الملوك فى راحة ورفاهية، يقول:

- لقد أحرقت سومنات في شهر بهمن،

بينما كان الملوك الآخرون يحرقون العود والعنبر.

- وبينما كان الناس جميعًا يغطون في سبات عميق،

كنت أنت تسرع في السفر وتعانى من السهر.

الفصل الرابع

القصص الديني في الأدب الفارسي

تقديـــم

الحديث عن القصة فى الأدب الفارسى حديث متشعب واسع. لأن الأدب الفارسى وبخاصة الشعر قد حفل بالعديد من المنظومات القصصية ، وقد ساعد على ذلك ابتكار الفـرس لفن شـعـرى جـديد ، هو فن المثنوى ، ذلك الفن الذى أتاح للفـرس انطلاق الشعراء فى التعبير دون قيد القافية الموحدة ، لأن هذا الفن يعتمد على التزام القافية بين شطرى البيت الواحد ، وليس كالقصيدة العربية التى كانت تلزم الشاعر بوحدة القافية طوال أبياتها ، مما جعل قدرة الشاعر العربى على الإطالة محدودة ، ومهما كانت المقدرة اللغوية للشاعر العربى ، فلن يستطيع أن يواصل النظم على قافية واحدة لأكثر من مائتى بيت ، وإن وجدت قصائد تفوق هذا العدد ، فهى جد قليلة بل ونادرة ، أما اكتفاء الفرس بالالتزام فى القافية على شطرى البيت الواحد ، فقد أتاح لهم نظم العديد من المنظومات التى تتعددى أبياتها عدة آلاف ، بل إن منظومة واحدة كالشاهنامة قد وصل عدد الأبيات فيها إلى ما يزيد عن الستين ألف بيت ، ونتيجة لهذه الانطلاقة فى النظم والتعبير فإن العديد من الشعراء قد أجادوا فن القص ، أو على الأقل فن نظم الحكايات .

وفى المقابل فإن كتاب النثر قد أدلوا بدلوهم فى هذا المضمار فزينوا كتبهم بالعديد من الحكايات التى ساقوها للتمثيل أو لتوضيح ما ينادون به من آراء وأفكار ، أو لسرد سير أبطالهم وشخصياتهم القومية أو المذهبية. وعلى هذا فقد راج فن القصة لدى الفرس منذ عدة قرون وتنوعت أغراض هذه القصص ما بين حماسية وورومانسية ومذهبية ودينية .

وما يهمنا فى هذا المضمار هو الحديث عن القصص الدينى فى الأدب الفارسى سواء ما حيك فى إطار الحكايات ؛ أو ما كتب أو نظم فى مجال القصة القصيرة ، وما جاء فى إطار القصة الطويلة .

ولما كانت هذه الحكايات أو تلك الروايات كثيرة كثرة هائلة؛ فإننا سنكتفى بذكر عدة حكايات على سبيل المثال ، ثم ينتقل بنا الحديث إلى أشهر القصص الدينية فى الأدب الفارسى ، وسنلاحظ أن الكثير من هذه الحكايات الدينية قد سردت متعلقة بقصص الأنبياء عليهم السلام ، ومنها هذه الحكاية عن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام والتى وردت فى كتاب «بوستان» نظم شاعر الإنسانية الكبير سعدى الشيرازى .

(حكاية إبراهيم الخليل عليه السلام وضيفه المجوسى)

– سمعت أنه فى أسبوع لم يأت ابن سبيل ، إلى دار ضيافة إبراهيم الخليل .

– وكان من طبعه المبارك أن يسارع بإعداد الأكل فى الصباح ؛ لعل مسكينًا يأتى فى الطريق

– فخرج ونظر فى كل جانب ، وأطل على الأطراف والوادى

– ثم رأى شخصًا وحيدًا فى البادية كشجرة صفصاف ، رأسه وشعره أبيضان من الغبار والشيب .

٥ – فرحب به بمودة ، ودعاه إلى الطعام على عادة الكرماء

– قائلا : يا إنسان عينى ، تكرم بتناول عيشى وملحى

– فقال نعم ، وهرول وخطا إلى الإمام ، لأنه عرف خلقه عليه السلام

– وأجلس رقباء مضيفة الخليل ، بإعزاز ذلك الشيخ الذليل

– فأمر (الخليل): ورتبوا الخوان ، وجلس الجميع حول ذلك الضيف

١٠ – فلما بدأ الجميع بـ (بسم الله) ، لم يسمع من الشيخ حديثًا

– فقال (إبراهيم الخليل) أيها الشيخ المعمر ! إنى لا أرى لك صدقًا ومحبة مثل الشيوخ .

– أليس الشرط والقاعدة أنك وقتما تأكل ، تذكر رب الرزق والإطعام؟

– فقال : لا أتبع سنة لم أسمعها من الشيخ عابد النار

– فعرف النبى الحسن البخت والفال ، أن الشيخ مجوسى فاسد الحال

١٥– فطرده بذلة حين رآه غريبًا عن الله ، لأن النجس يكون منكرًا عند الإطهار

– فجاء الوحى بهيبة لائمًا ، من الرب الجليل ، قائلا : أيها الخليل !

– لقد أعطيته أنا الرزق والروح مائة عام ، وأنت نفرت منه من لحظة

– إذا كان هو يسجد أمام النار ، فلماذا تثنى أنت يد الجود ؟[١]

---

(١) الترجمة نقلا عن أريج البستان للدكتور أمين عبد المجيد ، ص ٩٠ – ٩١ والأصل الفارسى :

شنيدوم كه يكهفته ابن السبيل	نيامد بمهما نسراى خليل
زفرخنده خونى نخوردى بكاه	مكر بينوائى در آيد ز راه
برون رفت وهر جانبى بنگريد	بر أطراف وادى نگه كرد وديد
بتنها يكى در بيابان چو بيد	سر ومويش از گرد پيردى سپيد
٥ – بدلداريش مرحبائى بگفت	برسم كريمان صلائى بگفت
كه اى چشمهاى مرا مردمك	يكى مردمى كن بنان ونمك
نعم گفت وبر جست وبرداشت كام	كه دانست خلقش. عليه السلام
رقيبان مهما نسراى خليل	بعزت نشاندند پير ذليل
بفرمود وترتيب كردند خوان	نشستند برهر طرف همگنان
١٠ – چو بسم الله آغاز كردند جمع	نيامد زپيرش حديثى بسمع
چنين گفتش أى پير ديرينه روز	چو پيران نمى بينمت صدق وسوز=

إذا كانت الحكاية تركز على ضرورة أن يبدأ الإنسان أى عمل بـ «بسم الله» كما تبرز كذلك سمة الكرم ، وضرورة أن يكون الكرم بلا غرض ، وشاملاً كل بنى البشر ، فإن الله عز وجل قد عاتب نبيه إبراهيم الخليل ، لأنه طرد مجوسيًا نزل ضيفًا على مائدته مرة واحدة ، بينما كرم الله عز وجل يشمل الجميع مسلمين وكفاراً ، وهاهم جميع المجوس وغيرهم يقبلون على موائد الرحمن سنوات عمرهم ، ولا يطردهم الله ولا يعجل بعقابهم ، حيث إن الله جل شأنه يمهل ولا يهمل مرجئًا الحساب إلى يوم الحساب ، لعل بعض هؤلاء يؤمنون قبل الممات !!

وليس فى استضافة مجوسى أو نصرانى خروج عن جادة الإيمان ، فها نحن نرى العديد من دول العالم الإسلامى تستضيف العمالة الآسيوية والإفريقية التى لا يدين معظمهم بالإسلام ، فيعملون ويأكلون من مائدة المسلمين .

كما أورد جلال الدين الرومى فى كتابه المثنوى العديد من الحكايات المرتبطة بالرسل والأنبياء ومنها حكاية عن ناقة سيدنا صالح ، وكم أنزل الله العقاب والعذاب بأولئك الذين خالفوا أمر الله وعقروا هذه الناقة :

= نه شرطست وقتيكه روزى خورى — كه نام خداوند روزى برى
بگفتا نگيرم طريقى بدست — كه نشنيدم از پير آذر پرست
بدانست پيغمبر نيكفال — كه گبرست پير تبه بوده حال
١٥ - بخوارى براندش بيكانه ديد — كه منكر بود پيش تبه بوده پليد
سروش آمد ازكر دكار جليل — بهيبت ملامت كنان كأى خليل
منش داده صد سال روزى وجان — ترا نفرت آمد ازو يكزمان
گراو ميبرد پيش آتش سجود — تو واپس چرا ميبرى دست جود ؟

(كليات سعدى بوستان نشر فروغى ، ص ٧١ - ٧٢) .

(ناقة صالح)

– كانت ناقة صالح فى صورتها الظاهرة ناقة ، وكان من جهل هؤلاء الحاقدين أن عقروها[1] .

– فهم حين أصبحوا خصوماً لها على الماء ، أعماهم الحرص على الخبز والماء

– كانت ناقة الله تشرب الماء من النبع ومن السحاب ، فحبس هؤلاء ماء الحق عن الحق

– وهكذا أصبحت ناقة صالح ، مثل جسم الصالحين كميناً لهلاك الظالمين .

٥ – لنر ماذا جلب أمر الحق : «ناقة الله وسقياها[2]» على تلك الأمة من أحكام الموت والألم

– فقد قاضاهم محتسب الحق بمدينة كاملة ، دية لناقة واحدة .

– وقد قال صالح : أما وقد أحدثتم هذا الحسد ، فلسوف تقع نقمة الرب بعد أيام ثلاثة[3]

– وسوف تأتيكم من الله آفة ذات علامات ثلاث .

– وسوف يتغير لون وجوهكم ، ويصبح هذا اللون مختلفاً فى نظركم

١٠ – ففى اليوم الأول يكون لون وجوهكم كالزعفران ، وفى اليوم الثانى يكون أحمر كالأرجوان .

---

(١) اشارة إلى قوله تعالى : "فقال لهم رسول الله : ناقة الله وسقياها" الشمس ، أية : ١٣ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : "فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها" الشمس أية ١٤ – ١٥ .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : "فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب" (هود ، أية : ٦٥) .

– وفي اليوم الثالث تصبح كل الوجوه سوداء ، وبعد ذلك يأتي قهر الله .

– فحينما سمعوا هذا الوعيد المظلم ترقبوه ، وانتظروه .

– في اليوم الأول رأوا وجوههم قد اصفرت ، فانطلقت من اليأس آهاتهم العميقة .

– وفي اليوم الثاني احمرت وجوه الجميع ، وضاعت بذلك فرصة الأمل والتوبة .

١٥ – وفي اليوم الثالث علا السواد وجوه الجميع ، فصدق حكم صالح بدون جدال .

– وقد نزل جبريل ببيان هذا في القرآن : «فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين»[١]

– لقد انتظرت ثمود ضربة القهر الإلهي ، فجاءهم ومحا تلك المدينة .

– وذهب صالح من خلوته نحو المدينة ، فرآها مغلفة بالدخان واللهيب .

– وسمع النواح من حطام القوم ، كان النواح ظاهرًا ، أما النائمون فمختفون !

٢٠ – سمع النواح من عظامهم ، كما كانت دموع الندم تقطر كالندى من أرواحهم[٢]

---

(١) سورة الأعراف ، آية ، ٧٨ .

(٢) جلال الدين الرومي : المثنوي جـ ١ ترجمة محمد عبد السلام كفافي ص ٣١٠ – ٣١٢ .

وهذه الحكاية تقع في واحد وستين بيتا ، ويمكن مراجعة الحكاية كاملة بالترجمة العربية للجزء الأولى من المثنوي للدكتور محمد عبد السلام كفافي . وهذا الأصل الفارسي للأبيات التي ذكرنا ترجمتها ؛ كما يلي :

ناقهء صالح بصورت بد شتر	پى بريدنش از جهل آن قوم مر
از براى چون خصمش شدند	نان كور وآب كور ايشان بدند
ناقهء الله آب خورد از جوى وميغ	آب حق راداشتند از حق دريغ

لم تكن هذه الناقة فى رأى جلال الدين الرومى إلا رمزًا يختبر فيه قوم صالح ، فهل يمتثلون إلى نصيحة سيدنا صالح بالامتناع عن عقر هذه الناقة استجابة لأمر الله عز وجل ، أم يركبهم الغرور والصلف ويصرون على معصية الخالق ، وعدم الامتثال إلى نصح صالح عليه السلام ، وقد فشلوا فى الاختبار ، وأقدموا على المعصية والخطيئة وعقروا هذه الناقة الرمز والتى تختلف عن بقية النوق ، وهذا ما لم يكن فى حسبانهم ، ولم يدركوا سرها ، فكان جزاؤهم شر الجزاء ، وحل بهم العذاب والدمار

ناقهء صالح چو جسم صالحان — شد كمينى در هلاك ظالمان

٥ - تابر آن امت زحكم مرگ ودرد — "ناقة الله وسقياها" چه كرد ؟

شحنه قهر خدا زيشان بجست — جونبهاى اشترى شهرى درشت

گفت صالح چونك كرديد اين حسد — بعدسه روزا از خذا نقمت رسد

بعدسه روز دگر از جانستان — آفتى آيد كه دارد سه نشان

رنگ روى جمله تان گردد دگر — رنگ رنگ مختلف اندر نظر

١٠ - روز اول رويتان چون زعفران — در دوم ، رو سرخ همچون ارغوان

در سوم گردد همه روها سياه — بعد از آن اندر رسد قهر إله

چون شنيدند اين وعيد منكدر — چشم بنهادند وآن را منتظر

روز اول خود ديدند زرد — مى زدند از نا اميدى آه سرد

سرخ شد روى همه روز دوم — توبت اميد وتوبه گشت كم

١٥ - شد سيه روز سوم روى همه — حكم صالح راست شد بى ملحمه

در نبى آورد جبريل آمين — شرح اين زانو زدن را جاثمين

منتظر گشتند زخم قهر را — قهر آمد ، نيست كرد اين شهر را

صالح جزاى ايشان مى شنيد — شهر ديد اندرميان دود وتفت

ناله از اجزاى ايشان مى شنيد — نوحه پيدا ، نوحه گويان نا پديد

٢٠ - زا استخوانها شان شنيد آوناله ها — اشك خون از جانشان چون ژاله ها

(جلال الدين الرومى : مثنوى ، دفتر اول ١١١ - ١١٣ تهران ١٣٧١ ش) .

والنكال ، حتى كان الجزاء - كما قال الرومى - تدمير مدينة كاملة فى مقابل عقر ناقة واحدة ، ولكن لم يكن الأمر وكأنه واحدة بواحدة وإنما كان الجزاء مقابل عدم الإيمان بالله وبرسوله وبدعوته ، ولم تكن الناقة والامتناع عن عقرها إلا اختباراً لم يدركوا مغزاه ، وهو الامتثال لأوامر الله وكذلك تحذير وتنبيه لكل من يخرج عن الطريق المستقيم ، طريق الإيمان والتسليم لله عز وجل : وأن مثل هذا الجزاء الذى أصاب قوم صالح ، سيصيب كل من يعصى الله ورسله الكرام فى أى زمان وأى مكان !!

* * *

وهذه حكاية عن سيدنا داود عليه السلام وردت فى كتاب جوامع الحكايات ولوامع الروايات تأليف الأديب العلامة محمد عوفى[1] تدور حول ضرورة كسب العيش بالكد والعمل وعدم الاتكال على الآخرين أو الطمع فى مال الغير ، وملخصها :

حكى أنه فى الأيام الأولى بعد صدور الأمر الإلهى : «يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض» أن خضعت جميع طوائف بنى إسرائيل لحكمه ووضعت رقابها فى ربقة طاعته ، وكان من عادته فى أيام خلافته أنه عندما يجن الليل وينشر الظلام ظلاله الكثيفة على الدنيا ، يخرج داود متنكراً ، ويسأل كل من يقابله : علام تكون سيرة داود معكم وما نصيبكم من نعيم مملكته ، هل هو الشوك أم كأس الإنعام؟ وذات ليلة التقى به جبريل عليه السلام وقد تخفى فى صورة رجل. فسأله داود : ماذا تقول فى داود؟ فقال كل ما يمكن أن يقال إنه نعم الملك ونعم النبى ، ولكن تنقصه خصلة واحدة فقال

---

(١) محمد عوفى : سديد الدين أو نور الدين محمد بن محمد عوفى البخارى. من كبار أدباء إيران فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجريين ، ويقال إنه من ذرية الصحابى الكبير عبد الرحمن بن عوف ، ولذا اشتهر باسم "عوفى" وقد ولد ببخارى فى منتصف القرن السادس الهجرى وبها حصل علومه ، ثم رحل بعد ذلك إلى بلاد ما وراء النهر ، من أشهر مؤلفاته : لباب الألباب وجوامع الحكايات .

داود : وما هى ؟ قال : إنه يأكل من بيت المال ، فلو كان يأكل من كد يده لما نقص من جمال كماله شيء !!

عاد داود عليه السلام إلى محراب عبوديته مهمومًا حزينًا باكيًا ، وأخذ يبتهل إلى الله ضارعًا : يا إلهى لتعلمنى حرفة ، حتى تكون لى عونًا فى كسب قوت يومى .

فأمر الله سبحانه وتعالى بتعلميه حرفة صناعة الدروع ، بهذا جاء الأمر الإلهى : «وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم» .

إذا كان الأنبياء مع ما منحهم الله من جلالة البنوة ، قد أعطاهم القدرة على الكسب من عمل أيديهم ، فإن هذا تنبيه للعقلاء حتى يتحرزوا من الطمع والنظر إلى ما فى يد الغير كى يظفروا بالسعادة فى الدنيا والأخرة[١]

هذه الحكاية دعوة للعمل وعدم التراخى والتكاسل ، وقد منحنا الله القدرة على الكسب بما حبانا به من عقل وصحة وعافية ويدين قادرتين على العمل وساقين تسعيان فى طريق كسب العيش ، لذا يجب علينا أن نحسن استغلال الطاقات التى وهبنا الله إياها ، حتى نكون من عباده العاملين ، فنكون جديرين برضاء الله ورضوانه : «ولكل درجات مما عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون»[٢] وقوله تعالى : « ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»[٣] وقوله تعالى : «أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون»[٤].

* * *

---

(١) محمد عوفى : جوامع الحكايات ولوامع الروايات : جلد أول از قسم سورة ١٣٥٢ ش تهران ص ٧٩ - ٨١ .
(٢) الأنعام ، آية : ١٣٢ .
(٣) النحل ، آية : ٩٧ .
(٤) الأحقاف ، آية : ١٤ .

هذه بعض الحكايات القصيرة التى أوردها الأدباء معبرين عن نفحات من قصص الرسل والأنبياء عليهم السلام ، آخذًا بالعظة والعبرة والتأسى بأخلاقهم الحميدة وسيرهم العطرة ، وقد امتدت هذه الحكايات إلى حياة الأئمة الصالحين الذين أبلوا بلاءً حسنًا فى نصرة الإسلام ، وكانوا بمثابة مصابيح للهداية والإرشاد لعموم المسلمين ، وإذا كنا قد تحدثنا عن مناقب الخلفاء الراشدين فى فصل سابق ، فسنكتفى هنا بذكر حكايتين قصيرتين عن خامس الخلفاء الراشدين ، كما يطيب للبعض أن يطلق عليه ذلك ؛ وهو الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

الحكاية الأولى وردت فى كتاب سياست نامه لنظام الملك وهذه ترجمتها :

قيل إنه فى أيام عمر بن عبد العزيز ألم بالناس قحط فآذاهم وأجهدهم ، فذهب إليه قوم من العرب يشكون قائلين : يا أمير المؤمنين لقد أكلنا لحومنا وشحومنا من القحط ، فهزلت أبداننا وشحبت ألواننا من قلة الطعام ، وإن حظنا لفى بيت المال .. وهذا المال لا يخرج عن أن يكون مالك أو مال الله عز وجل أو مال عباد الله. فإن كان مال عباد الله فنحن منهم ، وإن كان من مال الله ، فما لله فيه من حاجة. فإن كان مالك فتصدق به علينا ، «إن الله يجزى المتصدقين[1]» وإن كان من مالنا فيسره لنا لننجو من هذا الضيق ، فإن جلودنا يبست على أبداننا . فرق لهم عمر بن عبد العزيز، واستعبر وقال : « إنى فاعل ما قلتم». وأمر لساعته بأن تقضى لهم حوائجهم ويبلغ بهم مقصودهم. ولما هموا بالنهوض والانصراف ، قال لهم عمر بن عبد العزيز : أيها الناس؛ إلى أين تذهبون؟ قولوا لله تعال مقالتى كما قلتم لى مقالتكم». يريد أن يدعوا له. فرفع الأعراب وجوهم إلى السماء وقالوا : «يا رب بعزتك افعل بعمر بن عبد العزيز ما فعل بعبادك»! وما كادوا يتمون دعاءهم حتى تلبدت السماء لساعتها وأخذ المطر الغزير يهطل ونزلت من بين البرد آجرة على دار عمر وانكسرت فبرزت منها رقعة ،

(١) سورة يوسف ، آية : ٨٨ .

نظروا فيها فإذا هى مكتوب فيها : هذه براءة من الله العزيز ، من النار إلى عمر بن عبد العزيز»![(١)]

أما الحكاية الثانية فقد وردت فى كتاب «بوستان» للشيخ سعدى الشيرازى وهى مرتبطة بعام القحط الوارد ذكره فى الحكاية السابقة ، وكيف كان عمر بن عبد العزيز مضحياً بكل شيء لمساعدة الناس على تجاوز هذه الأزمة الطاحنة ، وهذه ترجمة لها :

- يحكى شخص من العظماء من أهل التميز حكاية عن عمر بن عبد العزيز
- أنه كان له فص على خاتم ، حار فى تقدير قيمته الجوهرى
- وقضاء حل عام قحط ، فصار بدر سيما الناس ، هلالا
- فأمر أن يبيعوه (أى فص الخاتم) فباعوه ؛ لأنه أشفق على الغريب واليتيم

٥ - وفى أسبوع واحد بدد نقده وثمنه ، حيث أعطاه للفقير والمسكين والمحتاج - فلامه اللائمون قائلين : إنه لن يأتى مثله فى يدك مرة أخرى !

- سمعت أنه كان يقول وأمطار الدمع تهطل على عارضيه مثل دمع الشمع
- الزينة تكون قبيحة على الملك ، وقلوب أهل المدينة قريحة من الضعف
- يليق أن يكون لى خاتم بلا فص ، ولا يليق أن تكون قلوب الخلق حزينة

١٠ - فهنيئاً لمن يؤثر راحة الرجال والنساء ، على تزيين نفسه

- لا يرغب الفضلاء فى سرور أنفسهم ، على حساب غم الآخرين .
- إذا نام الملك ناعماً مستغرقاً ، فلا أظن أن الفقير ينام مستريحاً
- وإذا سهر الليل الطويل ، ينام الناس براحة ودعة[(٢)]

---

(١) سياستنامه ، ص : ٩٣ .

(٢) أريج البستان ص : ٥١ ، والأصل الفارسى هو :

يكى از بزرگـــــان اهـل تميـــــز	حكايت كند زا ابن عـبــد العــزيز
كــه بودش نگينى در انگشــتــرى	فـرومـانده در قـيـمـتش جـوهرى

هكذا كان الخليفة عمر بن عبد العزيز مثالاً يحتذى لأى حاكم مسلم يعتبر الحكم مسئولية كبرى ، وهمًا ثقيلاً أثناء الليل والنهار ، وأن واجبه العمل على راحة مرءوسيه . لا أن يكون الحكم مكانة وأبهة وتسيداً على خلق الله .

* * *

إذا تجاوزنا الحكاية وانتقلنا إلى الأقصوصة فسنجد الأدب الفارسى والإسلامى قد حظى بالعديد منها فى الشعر أو النثر على حد سواء ، وكان بعضها مستمداً من القصص القرآنى وقصص الأنبياء والرسل عليهم السلام ، أو من سير أبطال الإسلام وفتوحاتهم ، وكذلك دحض دعاوى الكفر والطغيان .

وأول هذه القصص القصيرة التى سنعرض لها قصة سيدنا موسى عليه السلام منذ كان نطفة وحتى صار نبيًا ورسولاً ، وقد جاءت هذه القصة فى الجزء الثالث من مثنوى جلال الدين ، جاءت فى حوالى أربعمائة وخمسين بيتًا ، وملخصها كما يلى :

= قضا را در آمد یکی خشکسال	که شد بدو سیمای مردم هلال
بفرمود وبفروختند بسیم	که رحم آمدش بر غریب ویتیم
٥ - بیك هفته نقدش بتاراج داد	بدرویش ومسکین ومحتاج داد
فتادند دروی ملامت کنان	که دیگر بدستت نیاید چنان
شنیدم که میگفت وباران دمع	فرو میدویدش بعارض چو شمع
که زشتست پیرایه بر شهریار	دل شهری از ناتوانی فگار
مرا شاید انگشتری بی نگین	نشاید دل خلقی اندوهگین
١٠ - خنك تکه آسایش مرد وزن	گزینند بر آرایش خویشتن
نکردند بخسبد ملك پروران	بشادی خویش از غم دیگران
اگر خوش بخسبد ملك بر سریر	پندارم آسوده خسبد فقیر
وگر زنده دارد شب دیر باز	بخسبند مردم بآرام وناز

(كليات سعدى ؛ بوستان ص ٣١ - ٣٢)

لما جاء جهد فرعون بلا توفيق ، فإن كل ما كان يرتقه كان مآله التمزيق ، وكان تحت إمرته الآلاف المؤلفة من المنجمين ، ومثلهم العديدون من السحرة ومفسرى الأحلام ، وذات ليلة رأى فرعون موسى فى نومه ، وأنه هو الذى سيحطم فرعون وملكه ، فسيطر عليه الهم والحزن ، واستدعى جيشه من المنجمين ومفسرى الأحلام للبحث فى كيفية تقيه خطر هذا الحلم المفزع والمشئوم ، وقد تدبروا فيما بينهم واستقر الرأى على قطع الطريق على بنى إسرائيل ، بعدم إعطاء الرجال والنساء فرصة اللقاء واحتمال الحمل ، ورأوا أن أفضل طريقة أن ينقلوا منذ فجر ذلك اليوم عرش الملك صوب الميدان ، ثم ينادوا بنى إسرائيل جميعًا لتلبية دعوة الملك حيث سيسفر لهم عن وجهه دون نقاب ، كما سيحسن إليهم ويشملهم بعطفه فى ذلك اليوم وتلك الليلة .

وقد انطلت الحيلة على بنى إسرائيل وأسرع جميع الرجال صوب الميدان ممنين أنفسهم باللقاء وعند وصولهم إلى الميدان كشف لهم الملك عن وجهه وأحسن استضافتهم وأنعم عليهم بعظيم الهدايا والعطايا ، ثم قال لهم : إن كنتم حريصين على أرواحكم ، فهيا ناموا جميعًا فى الميدان هذه الليلة ، فأجابوه : سمعًا وطاعة ، بل إن أردت فسنبقى هنا شهرًا كاملاً !

وكان خازنه عمران – وهو من بنى إسرائيل – فى خدمته وفى معيته ، وعندما عاد الملك إلي المدينة ، عاد عمران معه ، ولكنه قال لعمران : لتنم على هذا الباب ، وإياك أن تمضى إلى زوجتك أو تطلب وصلها !

دخل الملك إلى حجرة نومه ، بينما نام عمران على الباب كما أمره ، وفى منتصف الليل جاءت زوجة عمران إليه ، فسألها عمران لم أتيت فى هذا الوقت من الليل؟ فأجابته من الشوق ! ومن قضاء الله فجامعها وأودع فيها الأمانة ، ثم قال لها : أيتها الحبيبة ليس هذا الأمر هينًا ، وما كان يخشاه فرعون قد وقع بالفعل فى تلك اللحظة التى تم فيها الوصال فيما بيننا ! فإياك أن تقصى هذا الأمر لأحد حتى لا يصيبنى ويصيبك العديد من الأحزان والكوارث. ولسوف تظهر فى النهاية آثار هذا اللقاء عندما تحين الأمارات .

وفى نفس اللحظة تعالت الأصوات من الميدان ، وكانت تلك الصيحات تملأ الفضاء جلبه وضجيجًا ، ووصلت هذه الصيحات إلى مسامع فرعون فهب من نومه مذعورًا ، ونادى عمران قائلا : ما هذا الضجيج وذاك الصراخ؟ فقال عمران : أطال الله عمر مليكنا ، إن بنى إسرائيل مسرورون منك. ولم تكن لدى عمران الجرأة كى يقص على فرعون أمر مضاجعته لزوجته .

أما عن إمرأة عمران فقد ربتت على ظهر عمران حتى يظهر نجم موسى ، فكل رسول توضع نطفته فى الرحم ، يظهر نجمه على السماء ، وهكذا ظهر نجم موسى فى السماء ، برغم فرعون ومكره واحتياله !

على الرغم مما قاله عمران لفرعون ، فإن فرعون ظل فى قلقه وحيرته ، لذا ما كان منه إلا أن أرسل عمران ليستطلع الأمر ، فذهب إلى الميدان ، حيث وجد جميع السحرة والمنجمين فى هلع شديد وحزن عميق ، فسألهم السبب ، فقالوا : مع كل ما فعلناه لم يواتنا الحظ ، ووجد عدو الملك وانتصر ، وظهر الليل نجمه فى السماء ، فما كان من عمران رغم علمه بالحقيقة إلا أن تظاهر بالغضب وقال للسحرة والمنجمين : لقد خدعتم مليكى ! أليس فى هذا طمع أو خيانه؟

وما أن وصل الخبر إلى الملك حتى استدعى جميع السحرة والمنجمين ، وقال لهم بغيظ وحنق : أيها الخونة سوف أصلبكم جميعًا بلا إمهال حيث جعلتمونى أضحوكة وخسرت أموالى بعد أن أنفقتها على الأعداء أملا فى أن يبتعد رجال بنى إسرائيل عن نسائهم فى تلك الليلة ! ليس لكم من جزاء عندى إلا أن أشنقكم وأضرم فيكم النار ، وأقطع أطرافكم وآذانكم وشفاهكم .

فسجد المنجمون والسحرة أمام فرعون ، وقالوا : أيها الملك إذا كنا قد هزمنا مرة ، فقد قمنا عدة سنوات بدفع البلاء عن المليك ، وأفهامنا جد حائرة فيما حدث ، وإذا كان السيف قد سبق العزل ، وحدث الحمل ، وقفزت نطفته واستقرت فى الرحم ؛ فإننا على سبيل التعويض يجب أن نتدارس الأمر قبل يوم الميلاد ، وظلوا فى ترقب لمدة تسعة أشهر يومًا بيوم ، ثم أشاروا عليه بحيلة جديدة ، وهى أن يخرج الملك من عرشه مرة

أخرى إلى الميدان ، ثم ينادى عماله وحجابه موجهين الدعوة إلى النسوة كى يقبلن على الميدان مع أطفالهن الصغار ، وركز النداء على نساء بنى إسرائيل جميعًا ، وكان رجال فرعون ينادون قائلين : هيا أيتها النسوة فالإقبال لكن هذا العام ، حتى تجد كل منكن ما تتمنى . وعلى كل من وضعت هذا الشهر أن تأتى مع وليدها لكى تتسلم هديتها من الملك .

خرجت نسوة بنى إسرائيل جميعهن ، وقد أخذت كل أم وليدها معها ، وما أن تجمعت النسوة جميعهن حتى أخذ عمال الملك كل مولود ذكر من أمه ، وسرعان ما قطعوا رؤس الأطفال جميعًا ، وهم يقولون : إن هذا من الحيطة ؛ حتى لا ينمو خصم الملك ، ويزداد التخبط والاضطراب فى المملكة !

أما امرأة عمران التى حملت موسى فقد ابتعدت عن كل هذا ولم تخرج إلى الميدان ولكن فرعون الماكر كان قد أرسل الحاضنات والمرضعات إلى البيوت من أجل التجسس ، فنقلن إليه أن هناك طفلاً ، لم تأت به أمه إلى الميدان ، فجاءها العسس ولكنها ألقت بطفلها فى التنور بأمر من الله ، إذ أوحى بهذا إلى هذه المرأة حتى تصبح على علم بأن هذا الوليد من نسل الخليل إبراهيم عليه السلام ، وأن لديه عصمة أمر الله تعالى حيث قال : «يا نار كونى بردًا وسلاما» فلا تكون النار عليه حرًا شديدًا .

عاد العسس خائبين من ذاك المكان ، ولكن الجواسيس علموا بالأمر ، فأخبروا فرعون بما كان ، فقال : أيها العسس عودوا إلى ذاك المكان ، وأحسنوا التفتيش جيدًا فى التنور ، فجاءها الوحى آمرًا إياها بأن ألقِه فى اليم وكونى راجية فى الله ، فألقته فى النيل وهى على ثقة بأن الله سيجعلها تلتقى به عزيزًا مكرمًا .

ودارت القصة فى مسيرتها حتى تحدث جلال الدين الرومى بعد ذلك عن عصا موسى وتحولها إلى أفعى ، وخوف الناس من هذه الأفعى ، وفرارهم منها مما أوقع الهرج والمرج الذى نتج عنه بعض القتلى والجرحى ؛ فاستدعى فرعون موسى موبخًا ومحذرًا وقائلاً : لماذا أيها الكليم قتلت الخلق وأوقعت فيهم الرعب ؟ لقد كنت تدعو

الناس إليك ولكن الأمر انقلب إلى ضده ، ولا بد للناس من مخالفتك ، كما أننى سأدبر أمرًا فيه عقابك ، فلا تظن أنك تستطيع خداعى ، أو أن أحدًا سوف يتبعك! وسأجمع لك سحرة الدهر حتى أبدى جهلك أمام المدينة ، ولكن لن يكون هذا فى يوم أو يومين ، بل أمهلنى أربعين يومًا ، فاعترض موسى على طول المهلة ، ولكن الأمر الإلهى جاءه فى التو واللحظة بقبول المهلة ، دون أن يخشى شيئًا .

مما جاءه من الوحى : أعطه الأربعين يومًا مهلة طوعًا، حتى يفكر فى ألوان المكر لونًا لونًا ، وسوف أحبط حيلهم جميعًا ، وكلما زادوا منها ، جعلتها بلا قيمة. فما كان من موسى إلا أنه قال لفرعون : لقد جاء الأمر ، فاذهب ولك المهلة ، أما أنا فذاهب إلى مكانى .

ثم طفق موسى يسير والأفعى تسير فى إثره وكأنها كلب الصياد مدربة مطيعة وعندما وصل إلى قومه ، أمسك بشدقيها ، فانقلبت ثانية إلى عصا ، فاتكأ عليها قائلا : واعجبًا ، إنها بالنسبة لنا شمس ، وبالنسبة للخصم ليل !

وما أن ذهب موسى تاركًا فرعون فى حيرته ، حتى سارع فرعون فى طلب السحرة من كل مكان حيث أرسل فى كل المدائن جامعًا للسحرة لعلهم يتشاورون فيما يمكنهم من إحراز السبق والفوز على موسى وكلما سمع عن ساحر مشهور أرسل فى طلبه عشرة من رسله .

وكان هناك شابان ساحران مشهوران ، بحيث كان سحرهما ينفذ إلى القلب ، وقد وصلتهما رسالة الاستدعاء من فرعون بأن هيا أقبلا ! فقد ظهر رجلان من بنى إسرائيل ، ونصبا حلقة سحرهما على الملك ، وليس معهما إلا عصا تتحول إلى أفعى ، ولا بد وأن يكون هناك حل يقدمه السحرة ، حتى ينجو الملك بروحه من هذين الساحرين موسى وهارون ، وكان لهذين الشابين الساحرين أب قد حاز المكانة العالية فى السحر والدهاء ، ولكنه كان قد أسلم الروح ، فسألا أمهما عن قبر أبيهما ، فأخبرتهما بموقعه ، فذهبا إلى القبر يستغيثان روح أبيهما فيما عرضه الملك ! حيث قالا :

يا أبانا إن الملك قد أرسل إلينا رسالة تبدى خوفه وقلقه من رجلين ضايقاه أشد الضيق ، وأراقا ماء وجهه أمام الجند ، وهذان الرجلان ليس معهما سلاح أو جند ، ليس معهما إلا عصا فيها الشر والفتنة ، فإذا كان هذا سحراً فأخبرنا ، وإذا كان أمراً إلهياً فألهمنا الصواب ، فأجاب الوالد بلا لسان ولا نطق قائلا : يا ولدى الحبيبين إن الجواب صراحة عن هذا الأمر مرهون بشيء ، إننى لست مأذوناً بأن أجيب على الأمر صراحة ، ولكن السر ليس بعيداً عن عينى ، لذا سأبدى لكم أمارة ، حتى يصير هذا السر مكشوفاً لكما ، فعندها تذهبان إلى حيث يوجد ، فتحسسا أين ينام وعندما ينام هذا الحكيم ، اقصدوا تلك العصا ودعكما من الخوف ، فإن استطعتما سرقتها فهو ساحر ، وإن لم تستطيعا فالحذر الحذر فهذا أمر إلهى ، وهو رسول من ذى الجلال ، وواصل الأب حديثه مع أولاده قائلا : يا روح أبيكما ، إذا نام الساحر فلا قوة ولا قدرة له أثناء النوم ، أما إذا كان نبياً مرسلاً فقدرته ومعجزاته فى كل وقت !

قبل كلاهما القبر ومضيا نحو مصر من أجل هذا الصراع المرير ، وعندما وصلا إلى مصر طلبا منزل موسى ، واتفق أنه فى وقت وصولهما أن كان موسى نائماً تحت ظل نخلة وقد أغلق عينيه اللتين فى رأسه ، ولكن العرش والفرش كليهما كانا تحت ناظرية .

وعندما رأياه نائماً ، احتالا من أجل أن يسرقا العصا ، فاتجه هذان الفتيان الساحران بسرعة نحو العصا ، مستديدرين خلف موسى حتى لا يراهما أو يشعر بوجودهما ، ولكن ما أن تقدما لتنفيذ حيلتهما ، حتى بدأت تلك العصا فى الحركة ، فقد تحركت العصا وتلوت حول نفسها ، فتسمر كلاهما فى مكانه خوفاً وهلعاً ، ثم تحولت إلى أفعى وهجمت عليهما ، فهرب كلاهما وقد امتقع لونهما ، فتيقنا أنه من السماء ، وذلك لأنهما كانا يعرفان حدود السحر ، وهكذا ظهر عليهما الوهن وأصابتهما الحمى ، وبلغ بهما الأمر إلى الاحتضار وتسليم الروح ، فأرسلا فى التو واللحظة رجلاً إلى موسى حاملا اعتذارهما ؛ حيث قالا : نحن مجرما فرعون ، فاعف عنا ، يا من أنت فى بلاط الجلالة من خواص الخواص ، فعفا عنهما فارتدت إليهما العافية فى التو واللحظة ، وأخذا فى إظهار الخضوع والذلة أمام موسى .

فما كان من موسى إلا أن طيب خاطريهما ، وطلب منهما الدخول مع السحرة فى الصراع ضده حتى ولو كانا يدركان العاقبة ، فقبلا الأرض بين يديه ومضيا ، وظلا ينتظران يوم الزينة حيث يكون اللقاء والتحدى .

وعندما دخل هذان الساحران مع بقية السحرة على فرعون ، خلع عليهم الخلع الثمينة ، ثم قال : هيا أيها السباقون ، فلو كنتم الغالبين فى هذا اللقاء ، فسوف أنثر عليكم عظيم العظماء ، فقال السحرة جميعًا ، بإقبالك أيها الملك سوف نكون نحن الغالبين ويصير أمره إلى يباب ، نحن فى هذا الفن أبطال صناديد ، ولا أحد فى الدنيا له ما لنا من قدرة فيه[1]

وإلى هنا يتوقف جلال الدين الرومى عن سرد باقى القصة ، وإنما يعلق على القصة قائلاً :

- لقد صار ذكر موسى قيدًا على الخواطر ، فكم من قائل : مالنا نحن وهذه الحكاية القديمة .

- إن ذكر موسى هنا مجرد ستار وحجاب ، ولكن ليكن لك فيه نور موسى أيها الرجل الطيب .

- إن موسى وفرعون فى داخلك ، وينبغى أن تبحث عن هذين الضدين داخلك[2]

---

(١) يمكن مراجعة القصة كاملا بالجزء الثالث من المثنوى ترجمة الدكتور إبراهيم شتا ، نشر المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٧ ص ٩١ - ١٢٢ .

(٢) الأصل الفارسى : المثنوى جـ ٣ ص ٣٨٦ .

ذكر موسى بند خاطرها شدست	كين حكايتها ست كه پيشين بدست
ذكر موسى بهر روپوش است ، ليك	نور موسى نقدتست اى مرد نيك !
موسى وفرعون در هستى تست	بايد اين دو خصم را در خويش جست =

وكأنه يعنى أن الإنسان قد تجمع فيه العنصران ، عنصر الخير ويمثله موسى ، وعنصر الشر ويمثله فرعون ، والواجب على الإنسان أن يناصر موسى الخير فى داخله ، وأن يعادى فرعون الشرير ، وبهذا يكون جديراً برضوان الله العزيز وعطفه !

ثم عاد جلال الدين بعد فترة وأشار إلى قصة فرعون مع السحرة بعد أن آمنوا بدعوة موسى عليه السلام دون إذن من فرعون ، مما جعله يهددهم بالعذاب حيث قال ما ترجمته :

- يهدد فرعون اللعين السحرة بالعقاب فى الحياة الدنيا قائلا لهم :
- لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأهلكنكم ولن أعفيكم من هذا العقاب
- إن كان يظن أنهم لا يزالون مقيمين على نفس الوهن والخوف والوسواس
- وأنهم كانوا يرتعدون خوفًا وهلعًا من الأوهام وتهديدات النفس
- فلم يكن يدرى أنهم قد نجوا ، وجلسوا على كوة نور القلب[1]

هكذا أفاد جلال الدين الرومى من القصص القرآنى ، فقد عرض القرآن الكريم فى العديد من سورة وآياته لقصة سيدنا موسى عليه السلام منذ كان نطفة فى رحم أمه وتخوف فرعون من وجوده وإقدامه على قتل جميع الذكور من بنى إسرائيل الذين سيولدون فى نفس الفترة التى حددتها الرؤية التى رآها فى منامه إلى غير ذلك من الأحداث التى جاءت متفرقة فى ثنايا القرآن الكريم ، وحتى بعثه وتحديه لفرعون

---

(١) المرجع السابق ، ٤٠٦ :

= ساحران را نى كه فرعون لعين	كرد تهديد سياست بر زمين
كه ببرم دست وپاتيان از خلاف	پس در آويزم ، ندار متان معاف
او همه پنداست كايشان درهمان	وهم وتخويفند ووسواس وگمان
كه بودشان لرزه وتخويف وترس	از توهميا وتهديدات نفس
أو غى دانست كايشان رسته اند	بر دريچهء نور دل بنشسته اند

وسحرته وانتصاره بإرادة الله وتوفيقه على كل ألاعيب السحرة ، الذين أدركوا فى النهاية أنه نبى مرسل ، وليس ساحراً بشراً يخادع الناس ويخلب أبصارهم بحيله وألاعيبه ، فما كان منهم إلا أن آمنوا برب موسى ، حتى ولو كان فى ذلك هلاكهم على يد فرعون. ومن الممكن أن يكون جلال الدين الرومى قد أضاف من عنده بعض الأحداث حتى يكمل حبك القصة ، وذلك ماثل فى حديثه عن الساحرين الفتيين ووالدهما المتوفى ، وغير ذلك من الأحداث الجانبية التى لا تؤثر على جلال القصة ، والحكمة من سردها .

* * *

أما الأقصوصة الثانية ، وعنوانها ، «قصة النملة» والملك سليمان عليه السلام[١] وهى مجهولة المؤلف ، وقد عثر على نسختها الخطية بدار الكتب المصرية ، الدكتور شعبان ربيع ، فعكف على نشرها وترجمتها إلى العربية ، كما قدم تعليقات ودراسة لها ؛ وفيما يلى عرض عام لأحداث الأقصوصة :

... يحكى أنه كان حول مكة المكرمة واد يسمى «وادى النمل» على نحو ما ذكر الله تعالى فى كتابه المجيد ، وكان فى هذا الوادى نملة تسمى "مندودة" تتولى حكم مملكة النمل ، وقد اختلفت الروايات فى تقدير حجم هذه النملة ، وهل هى بحجم القطة أم أصغر أم أكبر! وكان جميع النمل فى ذلك الوادى ينفذون أوامرها ويخضعون لحكمها ، وتتبعها جيوش النمل .

وذات يوم اتجه موكب الملك سليمان عليه السلام صوب ذلك الوادى ، وكانت جيوش سليمان تضم فيما بينها شياطين ومردة وإنساً وجنًّا ووحوشاً وطيوراً ، فى أعداد لا يمكن حصرها بالتحرير أو بالتقرير .

---

(١) قصة النملة والملك سليمان عليه السلام : مجهولة المؤلف ، نشر د . شعبان ربيع سوهاج ١٩٨٥ .

ولما وصل أخبار قدوم جيش سليمان عليه السلام إلى أذن مندودة قالت لتوابعها من النمل : انتبهوا ، فإن ركب الملك سليمان متجه إلى هذه الديار ، وحتى لا تكونوا عرضة لأن تطاكم الأقدام الثقيلة لأفراد هذا الجيش عليكم بالعودة السريعة إلى مخابئكم تحت الأرض، وانهمكوا فى عبادة الحق تعالى ، وإذا بالريح قد أوصلت هذا الحديث إلى أذن الملك سليمان عليه السلام ، وأخبرته بأن مندوده نملة شهيرة تقيم مملكة للنمل تحت الأرض بسبعة طوابق ، وقد سمعت بمقدم جيوشكم ، فأمرت رعاياها من النمل بالتزام أماكنها داخل الوادى وعدم مبارحته خوفًا على حياتها .

ما أن سمع الملك سليمان ما نقلته إليه الريح ، أمر جنوده بالتوقف فى ذلك اليوم والإقامة فى ذلك الوادى ، ثم أرسل الهدهد إلى مندودة كى يدعوها إلى الحضور لمقابلة سليمان الملك عليه السلام .

وعندما أبلغ الهدهد مندودة بالأمر سارعت بقطف زهرة من حديقتها كى تقدمها هدية للملك سليمان ، وقالت للهدهد : اذهب أنت ، وسآتى فى إثرك !

وبعد ساعة وصلت مندودة ودخلت الممر الذى يوجد فيه سليمان الملك ومعها الزهرة ، فوصلت رائحة تلك الزهرة إلى مشام الملك من بعيد فقال متعجبًا : ما رأينا أو سمعنا عن مثل هذه الزهرة قط!

وما أن دخلت مندودة إلى بلاط سليمان وكان جالسًا على عرشه ، تقدمت وجلست إلى جواره على العرش ، فتعجب سليمان من جرأتها ، وقال لها : يا مندودة ! إن مائة ألف من الشياطين والطير والأنس والجن يقفون خلفى وأمامى مغلولى الأيدى ، لا يقدرون على النطق دون إذن ، فأى مكانة لك حتى تقتربى منى ، وتجلسى على العرش بجوارى .

فكان رد النملة غاية فى الحكمة والذكاء والفطنة حيث قالت له :

أنت ملك ما فوق الأديم ، وأنا ملكة باطن الأرض ، ولا يليق بالملوك أن يقفوا مغلولى الأيدى بين يدى أى ملك ، فإن كنت لا تدرك أو تعقل هذا الحديث ، وآثرت

الجنوح إلى التكبر ، فأنت رسول ولا يليق التكبر بالرسل ! فقد قال رسول الله : « كل من فى قلبه تكبر ولو بمقدار ذرة من خردل لا يدخل الجنة إلا بعد عذاب»[1]

وقد قرأت فى التوراه أن نبيًا سوف يبعث آخر الزمان تقول أمته «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» وهو حبيب الله تعالى ، وسوف يعرض عليه ملء الأرض ذهبًا ، ولكن الرسول محمدًا لن يقبل ، كما لن يقبل الجلوس على عرش أو كرسى ولن يطلب سوى التراب ، بينما تتكبر أنت ! ولذا سيكون عمرك قصيرًا ، وسوف تموت فى عمر الشباب ، وقد قرأت هذا المعنى فى التوراة .

ولما سمع سليمان من النملة هذا الكلام تحير وتعجب وقال : إنى أرى لك علمًا وفطنة ، زدينى من نصائحك !

فسألته مندودة كيف حصل على الملك وهو أصغر أخوته ، فأخبرها بأن والده الملك داود عليه السلام كان له اثنا عشر ابنا وكان سليمان أصغرهم ، وقد سأل داود أبناءه الاثنى عشر سؤالاً ، ووعد من يجيب على الأسئلة إجابات صحيحة[2] ؛ سيكون الملك والخاتم من نصيبه فأخفق الإخوة جميعًا عدا سليمان ، فكان الحكم والخاتم من نصيبه على الرغم من أنه أصغر الإخوة ولكنه أفطنهم !

ثم سألته بعد ذلك مندودة ماذا طلبت من الله بعد أن أصبحت ملكًا !

فقال سليمان عليه السلام :

لقد طلبت من حضرة الحق سبحانه وتعالى أن تصبح الشياطين والطير تحت حكمى !

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان" .

انظر : ابن ماجه : سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، القاهرة جـ ١ ص ٢٢ .

(٢) يمكن مراجعة الأسئلة وإجاباتها بالرجوع إلى الترجمة العربية للقصة كما ترجمها الدكتور شعبان ربيع طرطور .

فقالت له مندودة : لم تصب فى ذلك ، فإن الشياطين مذهبهم الكفر ويشتغلون بعصيان الحق تعالى ، ولا يجب عليك مصاحبتهم فأنت نبى ويجب أن تكون صحبتك مع الملائكة .

ثم ماذا طلبت بعد ذلك ؟

فقال الملك سليمان : سألت الحق تعالى ملكًا لم يهبه لأحد قبلى ، وألا يعطيه لأحد بعدى .

فقالت النملة : لم تصب فى ذلك أيضًا ، فإن الدنيا مثل ظل جدار ، إذ امتد من هذا الطرف تلاشى من الطرف الآخر ، وليس لها وفاء دائم ، وقد قرأت فى التوراة أن نبيًا سوف يظهر آخر الزمان واسمه محمد صلى الله عليه وسلم وسيكون صاحب فضل ورحمات من بين مائة وأربعة وعشرين ألفًا من الرسل ، وأنه لن يقبل أن يعطيه الله تعالى ملك السماء والأرض ، لذا فقد منحه الله تعالى مرتبة أعلى وهى أن ينقذ أمته من نار جهنم ، حيث يقول جميع الأنبياء يوم الجزاء : نفسى ! نفسى ! إلا حضرة محمد صلى الله عليه وسلم فسيقول : «أمتى ! أمتى!» فلو كنت أيضًا قد اخترت الفقر والفاقة لكنت قد وصلت إلى تلك المرتبة بالتأكيد .

وماذا طلبت أيضًا :

فقال سليمان الملك : طلبت ارتقاء العرش سواء أكنت قاعدًا أو نائمًا ، وألا تطأ قدماى الأرض قط .

فقالت مندودة : لم تصب فى هذا أيضًا ، فإن الحياة فوق الأرض ، والموت فى باطنها ، هما الصواب ، لأن الآدمى خلق من تراب ، وقد اختار محمد المصطفى عليه السلام وجميع الأنبياء العيش والموت على نفس الأرض !

وتوالت أسئلتها وتوالت إجاباته ، وكانت فى كل مرة توضح ما فى إجاباته من خطأ ، مقارنة بينه وبين محمد عليه السلام .

ونتيجة لما أبدته من علم واسع وحكمة وفطنة ، سألها سليمان عليه السلام عن علامات يوم القيامة.

قالت مندودة : بعد مرور ألف وأربعين سنة على وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم يتفشى التكبر والكذب وشرب الخمر وعدم الإخلاص وعدم الوفاء ، ولا يبجل الصغير الكبير كما لا يرحم الكبير الصغير ، ويقل الحلال ويزداد الحرام .. وبعد مرور ألف ومائة وخمسين عامًا لن يعمل العلماء بعلمهم وتقل البركة وتنحسر الزراعة ، ولا يؤدى الأبناء حقوق الوالدين .. ، إلى غير ذلك من الآثام والمعاصى التى تؤدى إلى قلة البركة ، وتفشى الظلم والجور بين الخلق .. وحينما يقترب يوم القيامة يظهر يأجوج ومأجوج[1] وتجف الأنهار ويهلك الناس من العطش والجوع ، ويصبح العالم خرابًا يبابًا .. إلى أن يظهر الدجال ويعم الهرج والمرج كل مناحى الحياة ثم يهبط عيسى عليه السلام من السماء الرابعة ويطبق أوامر الشرع ...

وبعد أن سمع سليمان الملك كل هذا الكلام من مندودة تملكته الدهشة من واسع علمها ، ثم طلب منها الإذن بالرحيل ، ولكنها دعته ليكون ضيفًا عليها فى مملكتها ، على أن تشمل دعوتها كل الحاضرين معه ، قائلة له : أنت لا تعرف مقدار دولتنا ولو يوجد مائة ضعف لجيشك هذا ، فإننا نستطيع استضافتهم فى مملكتنا !

وفعلاً نزل سليمان ضيفًا على مملكة النمل فوجد جميع المحال والمبانى وقد تزينت بالياقوت والجواهر وتمخضت بالمسك والزعفران ، وقد غصت بالعديد من الفواكه التى لا نظير لها على وجه الأرض ، وقد أكل سليمان وجنده من هذه الفواكة التى أعجب بها سليمان الملك وجنوده أيما إعجاب !

بعد ذلك طلب سليمان الإذن بالانصراف ، ولكنه قال قبل ذلك سوف أتجول فى أرضك وأتفقدها بضعة أيام !

فقالت مندودة : ليس هذا شرط الإسلام والإيمان ، لقد أتيت بك ضيفًا إلى دارى، ويجول بخاطرك وضع هذه المملكة تحت تصرفك !

---

(١) قال تعالى : "حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قومًا لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجًا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا" سورة الكهف ، آية : ٩٣ ، ٩٤ .

فقال لها سليمان : ألم تعلمى أن الحق تعالى قد وضع جميع مشارق الأرض ومغاربها تحت تصرفى ، وألا يشاركنى أحد فى هذا الملك ، ولهذا فإن هذه المملكة هى حقى !

فقالت مندودة : بالرغم مما قدمته لك من عظات ونصائح ، إلا أنها لم تؤت ثمارها معك ، وإذا كنت تبغى الرئاسة علينا ، فخذ ما تشاء ولا تقصر ، ولن أدخل فى حرب معك ، لأن الدخول فى حرب مع الأنبياء أمر مرفوض ، فأنا مطيعة للإسلام ومن غير المناسب محاربتكم ، ولكن انظر ماذا سيعمل أتباعى من النمل مع جنودك !

ثم نظرت إلى النمل ، فإذا النمل قد أخذت فى حفر الأرض تحت أقدام جند سليمان ، فهبطت بهم الأرض حتى قاع البحر ، فغرق جيش سليمان من الشياطين والطير ، وبقى سليمان وحيداً حائراً ، فقالت له :

ليس من السهل أن يستولى أحد على هذه المملكة ، بل تلزم فترة حتى يستطيع العبد بالتدبر والتريث أن يأخذ خاتماً كخاتم سليمان الملك ، وعرشه !

فقال سليمان :

سوف أتقبل منك كل هذا النصح والإرشاد ، ولن أورد نفسى بعد ذلك موارد الهلاك !

وأخيراً عاد سليمان مع جنده وحشمه ، ومضى موكبه بأمر الله تعالى ، والله أعلم بالصواب !

* * *

على الرغم من أن مؤلف هذه الأقصوصة غير معروف ، ومجهول الاسم ، فإن ناسخ تلك النسخة التى اعتمد عليها الناشر وهو شاه قادرى ، قد خطها فى ٢٩ من شهر شوال المكرم من عام ١٢٤٣ هجرية. وفى اعتقادى أن مؤلف القصة هذه قد كتبها فى فترة ما بعد الألف الأولى من الهجرة ، لأنه حينما كان يتحدث عن علامات يوم القيامة ، كان يشكو ما ساد الحياة فى زمنه من آثام وأخطاء نتج عنها الكثير من

الكوارث التى ألمت بالعباد ، وحين ذكر أن بعد الهجرة بألف وأربعين سنة سيحدث كذا وكذا من خروج عن جادة الدين ، كان يتحدث عن فترة قريبة العهد بزمانه .

وهذه الأقصوصة مأخوذة عن القرآن الكريم ، حيث جاءت فى سورة النمل تلك الآيات الكريمة :

« وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ، حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة : يايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكًا من قولها ، وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحًا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين»[1] .

وهكذا فإن تعبير وادى النمل مأخوذ عن القرآن الكريم ، وما قالته النملة من تحذير لبقية النمل وارد أيضًا فى الآيات الكريمة ، ثم سماع سليمان عليه السلام لهذا الأمر الصادر من ملكة النمل لأتباعها ، مذكور فى تلك الآيات ، وإذا كان مؤلف القصة قد ذكر أن النمل كانت له مملكة وجند وحشم ، فهذا مصداق لقوله تعالى «وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير ، بجناحين إلا أمم أمثالكم»[2] وما ذكر فى القصة أكثر من مرة بشأن الإشارة فى التوارة ببعث محمد عليه السلام ليكون خاتم الأنبياء مأخوذة من القرآن كذلك . لقوله تعالى : «الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوارة والإنجيل»[3] .

وكذلك قول سليمان أنه طلب من الله العلى القدير ملكًا لم يعط لأحد من قبله ولا من بعده ، قد ورد ذكره فى قوله تعالى : « وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب »[4] .

إلى غير ذلك من الأخبار الواردة فى القرآن الكريم .

---

(١) سورة النمل : آية : ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .
(٢) سورة الأنعام : آية : ، ٣٨ .
(٣) سورة الأعراف : آية : ، ١٥٧ .
(٤) سورة ص ، آية ، ٣٥ .

أما ذلك الحوار الذى دار بين سليمان الملك والنملة فكله من نسج خيال المؤلف الذى جعل النملة تفوق سليمان حكمة وفطنة ، مع أن سليمان عليه السلام كان صاحب تدبر وتفكير حتى عرف باسم «سليمان الحكيم» ؛ وقد قال الله تعالى فى حقه وحق والده داود عليهما السلام : «ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكمًا وعلمًا»[1] وقوله تعالى : «لقد آتينا داود وسليمان علمًا ، وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين»[2] ولعله بذلك أراد تفضيل محمد عليه السلام على كل الرسل ومنهم سليمان عليه السلام ، حيث كانت النملة وهى تبين مجافاة أقوال سليمان الصواب تعرج على ذكر محمد عليه السلام وبيان علو منزلته !

وعلى كل فإن كاتب هذه الأقصوصة ، وما فيها من حوارات وخيال ، لم يكن الوحيد الذى اهتم بهذا الموضوع ، بل سبقه إلى ذلك العديد من كتب التراث الإسلامى التى زخرت بالكثير من الذكر للنمل وبخاصة نملة سليمان عليه السلام ، ومن هذه الكتب : الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وبصائر التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادى ، وصحيح مسلم ، ولسان العرب لابن منظور ، وتفسير الخازن ، ومعالم التنزيل ، وتفسير النسفى ، والبداية والنهاية ، ولطائف الإشارات للإمام القشيرى ...، وغيرها من كتب التراث ، والتى يرجح أن المؤلف قد قرأ بعضها وتأثر بأحاديثها ، وربما قرأ ما جاء فى التوارة ووظفه فيما كتب !

* * *

أما الأقصوصة الثالثة والأخيرة فقد رواها شاعر الإنسانية الشيخ سعدى الشيرازى ، وقد نظمها لكى يسخر من من عبادة الأوثان ، قائلاً بأن البراهمة يدركون جيداً زيف هذه العبادات ، وإنما يحاولون ترويجها جريًا وراء المكاسب المادية والأدبية

---

(١) الأنبياء ، آية ، ٧٩ .

(٢) سورة النمل ، آية : ١٥ .

التى توفرها لهم هذه العبادات المضللة ، وقد اختار لأقصوصته هذه الحديث عن معبد الصنم «سومنات» أكبر أصنام الهند ، ذلك الصنم الذى تم تحطيمه على يد الفاتح العظيم محمود الغزنوى والذى انتشر الإسلام بفضله فى الهند ، وقد حاول البراهمة تقديم فدية كبيرة لإنقاذ هذه الصنم من التحطم ظانين بأن السلطان محموداً قد دخل الهند طمعاً فى المال والثروة ، ولكنه رفض عرضهم هذا وأصر على تحطيم «سومنات» رمز الوثنية وعبادة الأصنام فى الهند ، ولم يكن حديث سعدى الشيرازى عن هذه الفتوحات ، ولكنه تخيل أنه ذهب إلى حيث كان يوجد سومنات ودخل المعبد ورأى زيف البراهمة وكيف أنهم يضللون أتباعهم بادعاء أن صنماً بالمعبد قادر على تحريك يديه استجابة منه لتضرع عباده وتوسلاتهم إليه ، فتحير سعد لهذا الادعاء ، وعقد العزم على كشف الخديعة وفضح المشرفين عليها ، وبيان كذبهم ونفاقهم ، وقد جاءت هذه الأقصوصة الشيقة التى نظمها السعدى فى مائة بيت بكتابة «بوستان» ، كما يلى :

– رأيت صنماً من العاج فى معبد سومنات ، مرصعاً مثلما كان فى الجاهلية مناة .

– وقد صور المثال صورته ، بحيث لا يمكن إبدا ع أفضل منها .

– وقد طمع الراجات – مثل السعدى – فى الوفاء من ذلك الصنم الحجرى القلب !

٥ – وذهب البلغاء فى كل مكان ، متضرعين أمام ذلك الأخرس المعدوم اللسان .

– وعجزت عن كشف تلك الواقعة ، إذ لماذا يعبد الحى الجماد ؟[1]

---

(١) أريج البستان ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ والأصل الفارسى لهذه الأبيات هو :

بتى ديدم ازعـــاج در ســـومنات ... مـــرصع چودر جـــاهليت منات

چنان صـــورتش بســـته تمثـــالگر ... كـــه صـــورت نبندد از آن خـــوبتـــر

زهر ناحـــيت كـــاروانهـــا روان ... بـديـدار آن صـــــــورت بى روان

طـمـع كـــــرد رايان چين وچگـل ... چو ســعــدى وفــا زان بت سنگدل

زبان آوران رفـــتـــه از هر مكان ... تضـــــرع كنان پيش آن بى زبان

فــرومــاندم از كــشف آن مــا جــرا ... كى حــيى جــمادى پرســتد چرا ؟

وكان أحد المجوس يشارك السعدى المسكن ، وكانت بينهما مودة وألفة ، مما شجع السعدى على أن يسأله عن هذا الصنم ذى الصورة المجسمة ، المعنة فى الضلال ، والعاجزة عن الإتيان بأى فعل ، والتى لا تستطيع إن طرحت أرضًا أن تنهض من كبوتها أو أن تدافع عن نفسها . وعلى الرغم مما بينهما من صداقة ، وعلى الرغم من أن السؤال كان غاية فى الرقة والهدوء إلا أن ذلك الصديق البرهمى استشاط غضبًا ، وسارع بنقل الخبر إلى شيوخ المعبد ، فتبدل الحال سريعًا ، وبدأ السعدى يعانى سوء المعاملة من الجميع ، وأمام هذا التصرف العدائى من الجميع ، بدأ السعدى يلجأ إلى المداراة حفاظًا على حياته وسلامته ، حتى أنه اضطر إلى مدح كبير البراهمة ، كما بدأ يتغزل فى جمال ذلك الصنم وحسنه وجمال هيأته ، وإذا كان قد أخطأ فى حقه سابقًا ، فذلك مرجعه أنه غريب عن هذه الديار ولم يكن يدرك مكانة هذا الصنم جيدًا ، وإمعانًا فى المداراة وادعاء الجهل سأل كبير البراهمة ، عن السبب الذى من أجله يقبل العباد عليه ، ويجلونه ويقدسونه .

أعجب كبير البراهمة بالسؤال ، وأدرك أنه ربما يسأل حتى يقتنع وينخرط معهم فى تقديس هذا الصنم ، فقال : ما أكثر الأصنام التى لا قيمة لها فى هذه الحياة ، إلا هذا الصنم الذى يرفع كل صباح يده إلى الله العادل ، وإن كنت لا تصدق ، فلتبق الليلة فى المعبد حتى ترى فى الصباح الصنم وهو يرفع يده ، وبهذا ترى بعينيك ما لم تكن تصدقه من قبل !

بقى السعدى ليلته داخل المعبد مترقبًا ماذا سيحدث ، وأى سر يمكن أن يكشفه ، وبقى معه العديدون من المجوس الذين تجمعوا بلا وضوء أو صلاة ، وقد فاحت الروائح النتنة من أجسادهم ، بقى السعدى فى معاناة شديدة ، وكأنه قد ارتكب إثمًا عظيمًا ، وجزاؤه البقاء تلك الليلة فى ذلك العبد !

وعندما اقترب الصباح ، أقبل ضاربو الطبل وقارعو الكوس ، إيذانًا بحدوث المعجزة، وقد التى أقبل جميع البراهمة فى المدينة وما جاورها كى يشاهدوا الصنم وهو يرفع يده ، وفى هذه الرؤية الخير كل الخير لمن يشاهدها ، ولم يمض وقت طويل حتى

رفع الصنم يده فجأة ، فعلا الضجيج من الحاضرين جميعًا ، وفجأة تهلل وجه البرهمى ونظر صوب السعدى قائلا : لقد صارت الحقيقة أمامك عيانًا ، ولم يعد لديك شك بعد ذلك !

فتظاهر السعدى بالتأثر بما رأى ، ثم انخرط فى البكاء مداراة ، فإذا بكل البراهمة حوله يشاركونه البكاء ويقبلون عليه مخففين عليه حدة التأثر ، ثم تظاهر السعدى بأنه قبل ما هم فيه من ضلال إذا أقبل على الصنم العاجى وطبع قبلة على يده ، فظنوا أنه أصبح برهميًا مثلهم ، ولهذا سمحوا له بالبقاء داخل المعبد عدة أيام .

وما أن اطمأن السعدى إلى عدم الاعتداء عليه ، والسماح له بالمبيت فى المعبد ، حتى أخذ يحاول كشف سر هذا الصنم ، وكيف يحركون يده ، واكتشف بعد فترة وجود ستار مكلل بالذهب ، وخلف هذا الستار يقف برهمى عابد نار وبيده طرف حبل، فأدرك أنه عندما يجذب هذا البرهمى الحبل ، يرفع الصنم يده للتضرع .

عندما أدرك البرهمى أن السعدى كشف سرهم ، تملك الخوف البرهمى وسارع بالجرى ، فجرى وراءه السعدى ولحق به حتى ألقاه منكوسًا مقلوبًا فى بئر ، وذلك لأن السعدى أدرك أنه لو لم يعاجل بالقضاء على هذا البرهمى ، فإنه سيسعى ورفاقه فى الإجهاز على السعدى بعد أن كشف الخدعة ، ولا محالة أنه مذيع لأمرها ! وقد برر السعدى قتله للبرهمى بما ترجمته :

– لأنك إذا تركت ذلك الرذل المجرد من الفضل حيًا ، لن يتركك حيًا بعد ذلك .

– وإذا وضع رأسه على بابك للخدمة ؛ فإنه سيقطع رأسك إذا استطاع .

– لا تضع قدمك ولا تسر على أثر المخادع والمخاتل ، فإذا ذهبت ورأيته فلا تعطه الأمان .

– قتلت ذلك الخبيث (البرهمى) بالحجر ، لأنه لن يأتى من الميت حديث بعد ذلك .

٥ – فلما رأيت أننى أثرت ضجة ، تركت ذلك القطر وفررت .

– إذا أضرمت النار فى قصباء ، فاحترز الأسود إذا كنت عاقلاً .

– لا تقتل صغير الثعبان المؤذى للناس ، وإن قتلته ، فلا تبق فى ذلك البيت بعد ذلك .

– إذا أثرت زنابير البيت ، فاهرب من المحلة والحى ، وإلا فإنك تسقط بشدة .

– لا ترم السهم نحو من هو أمهر وأنشط وأسرع منك ، فإذا وقع ذلك فسارع بالفرار .

١٠ – ليس فى أوراق السعدى مثل هذه النصيحة : إذا هدمت أساس الجدار ؛ فلا تقف !

– لقد جئت إلى الهند ، ولكن بعد تلك القيامة ، توجهت من هناك عن طريق اليمن قاصداً الحجاز[١] .

---

(١) أريج البستان ص ٢٤٠ ، ٢٤١ والأصل الفارسى :

که گر زانده اش مانی ، آن بی هنر ... نخواهد ترا زند گانی دگر
وگر سر بخدمت نهد بر درت ... اگر دست یابد ببرد سرت
فریبنده پای درپی منه ... چو رفتر ودیدی امانش مده
تمامش بکشتم بسنگ ... که از مرده دیگر نیاید حدیث
٥ – چودیدم که غوغائی انگیختم ... رها کردم آن بوم وبگر یختم
چو اندر نیستانی آتش زدی ... ز شیران بپرهیز اگر بخردی
مکش بچهء مار مردم گر ای ... چو کشتی در آن خانه دیگر مپای
چو زنبور خانه بپاشوفتی ... گریز از محلت که گرم اوفتی
بچا بکتر از خود مپناز تیر ... چو افتاد ، دانت بدندان گیر
١٠ – در اوراق سعدی چنین پند نیست ... که چون پای دیوار کندی مایست
بهند آمدم ، بعد از آن رستخیز ... وزآنجا براه یمن تا حجیز

كليات سعدى ، بوستان ؛ ص : ٢١٩) .

لقد زار السعدى الهند ، وهاله ما يعبده البراهمة من أصنام عاجية أو حجرية لا جدوى منها ، لا لنفسها ولا لعابديها ، إذ كيف يعبد الإنسان الحى صنماً أو جماداً لا يحرك ساكناً ولا يستطيع حتى الدفاع عن نفسه وإذا قلبه إنسان رأساً على عقب ، فإن هذا الصنم لن يستطيع أن يقوم من هذه الكبوة ويعدل وضعه كما كان من قبل ولهذا أراد السعدى أن يسخر من هذه العبادات التى يقبل عليها البراهمة دون وعى أو إدراك ، وقد أختار معبد سومنات محوراً للحديث ، لأن هذا المعبد كان أكبر معابد الهند إلى أن حطمها الفاتح الإسلامى الشهير محمود الغزنوى (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) وتبعها بتحطيم كل المعابد التى كانت قائمة فى المناطق التى فتحها وضمها إلى حوزة الإسلام أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين .

وإذا كان السعدى قد تظاهر بالتأثر بما رأى ، وهو ما فسره البراهمة بأنه قد آمن بأصنامهم ، فإن هذا التظاهر والمداراة كانت خدعة منه حتى يجد الفرصة لفضح سرهم وكشف خداعهم ، وهذا ما حدث ! وما أن أكمل المهمة حتى سارع بالتوجه إلى أرض الحجاز ، حيث الكعبة المشرفة ، رغبة منه فى التخلص من أثار هذه المداراة ، ومما عاناه من عذاب نفسى لما أبداه من ميل كاذب للأصنام وضلالهم !

* * *

بعد أن تحدثنا عن القصص القصيرة فى الأدب الفارسى فى صورتيها : الحكاية والقصة القصيرة شعراً أو نثراً . فقد بقى لنا أن نتحدث عن القصص الدينى فى إطار القصة الطويلة أو الرواية ، وسنلتقى بعرض نموذجين فقط لهذا الفن الأدبى الذى يعطى الفرصة للأديب كى يعبر جيداً عن إبداعه وتميزه ، وقدرته على حبك هذه الروايات حبكاً يضمن لها البقاء طويلاً ، وكذلك اهتمام الأدباء والمؤرخين بها ، وهاتان القصتان هما : قصة يوسف وزليخا ، وقصة المعراج :

(قصة يوسف وزليخا)

هذه القصة من أقدم القصص الدينية التى ظهرت فى الشعر الفارسى ، وأكثرها تداولاً بين شعراء هذه اللغة ، وقد قيل بأن الفردوسى شاعر الفارسية الأشهر قد نظم هذه القصة ما بين عامى ٣٨٤ ، ٣٨٦ هـ ولكن البعض يشكك فى نسبة هذه القصة المنظومة إلى الفردوسى ومنهم الدكتور محمد محمدى ، حيث قال :

فى أواخر القرن الخامس الهجرى نظمت إحدى القصص العذبة المشهورة قصة « يوسف وزليخا»، هذه المنظومة هى نفسها التى نسبها أصحاب التذاكر إلى الفردوسى مع العلم بأنها لا تشبه شعره ، ولكن لا شك حاليًا فى بطلان هذه النسبة ، ومن المسلم به أن صاحب هذه المنظومة كان أحد شعراء شمس الدولة أبى الفوارس طغانشاه ألب أرسلان حاكم خراسان فى عهد ملكشاه السجلوقى (٤٦٥ - ٤٨٥هـ) وأنه نظمها بعد الفردوسى بأكثر من نصف قرن[١] .

ويقول بعض الباحثين بأن شاعرين قد سبقا الفردوسى فى نظم هذه القصة أحدهما من بلخ اسمه أبو المؤيد ، والآخر من الأهواز اسمه البختيارى ، وقد ضاعت منظومتاهما جميعًا ، ولم يبق إلا المنظومة المنسوبة إلى الفردوسى - وذلك كما يقول براون - بفضل الدكتور اتيه[٢] الذى نشرها وعلق عليها .

ولم تتوقف قرائح الشعراء فى نظم هذه القصة عن النسخة المنسوبة إلى الفردوسى فقد نظمت بعد ذلك عدة مرات ، كان أهمها جميعًا منظومة نور الدين عبد الرحمن الجامى وذلك عام ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) ، ومنظومة حسين ناظم الهروى عام ١٠٥٨ هـ (١٦٤٨م) ومنظومة لطفعلى بيك آذر بيكد لى عام ١١٥٦ هـ (١٧٦٢م) وغيرها من المنظومات التى عنيت بنظم هذه القصة[٣] .

---

(١) د . محمد محمدى : الأدب الفارسى فى أهم أدواره ، بيروت ١٩٦٧ ، ص : ٢٠٠ .

(٢) براون : تاريخ الأدب فى إيران جـ ٢ ترجمة د . إبراهيم أمين الشواربى القاهرة : ١٩٥٤ ص ١٧٥٠ .

(٣) الأدب الفارسى فى أهم أدواره ؛ ص : ٢٠٠ .

كما يقال بأن محمد عوفى قد أملى جزءاً من قصة يوسف ، ولكن المنية أدركته قبل أن يتمها[1] .

ولعل السبب الأقوى فى شهرة هذه القصة ، كما يقول الدكتور محمد محمدى - اتصالها بالقرآن وورودها فيه وقد عول الشعراء على هذا الأصل ، وأخذوا القصة كما هى فى القرآن وسبكوها فى قالب الشعر ، وربما زادوا فيها أشياء أخذوها من أقوال أصحاب التفاسير وأهل الحديث[2] .

وإلى جانب هذه القصص الطويلة ، وجدت عدة إشارات إلى أحداثها فى منظومات ودواوين العديد من الشعراء ، كمنطق الطير لفريد الدين العطار ، والمثنوى لجلال الدين الرومى ، وبوستان للسعدى الشيرازى ، هذا على سبيل المثال لا الحصر ، ولكننا سنكتفى بالحديث عن أهم منظومتين : الأولى المنسوبة إلى الفردوسى، والثانية من نظم عبد الرحمن الجامى ، راجين من القارئ الكريم الرجوع إلى القصة فى «سورة يوسف» حتى يكون على بينة مما أخذه كل منهما من القرآن الكريم ، وما أضافه من خياله كشاعر إلى أحداث القصة .

* * *

يوسف وزليخا عدن الفردوسى :[1]

منظومة الفردوسى تطابق فى جملتها القصة كما وردت فى كل من القرآن الكريم والتوراة ، وكذلك مع خيال الشاعر المبدع فى نظم القصص. ولعل جنوح الفردوسى إلى ما ورد فى التوراة يرجع إلى اعتماده على رواية اثنين من اليهود الذين أسلموا وهما كعب الأحبار ووهب بن منبه ، فقد قال الفردوسى ما ترجمته :

- رووا عن كعب ووهب ، وعنهما نشروا هذه القصة .

---

(١) راجع ملخص القصة فى : القصة فى الأدب الفارسى ص ٢٣٧ وما بعدها. ويوسف وزليخا للفردوسى نسخة كتابفروشى إسلامية بتهران .

(٢) د. محمد محمدى: الأدب الفارسي في أهم أدواره ، بيروت ١٩٦٧م.

- أنه لما كانت أيام إبراهيم الذى أثنى عليه الله بالوفاء .
- وولد له إسحق الطاهر الرأى ، المميز فى خلقه والمبعوث رسولاً من الله .
- وقد سمعت أن الأنبياء طوال ألفين من الزمان قد جاءوا من أعقابه .
- وكان أول ابن جاء من عقب إسحق ، أن أنجب يعقوب الميمون الأصل[1] .

وهكذا بدأت القصة من عهد إبراهيم عليه السلام ، ثم تحدث عن مولد يعقوب وأخيه عيصا وما كان بين الأخوين من عداوة ، وبعد ذلك تحدث عن مولد يوسف من راحيل زوجة يعقوب وشغف يعقوب بيوسف وإيثاره بحبه على بقية أخوته ، وقيل بأن يوسف رأى ثلاثة أحلام قصها على أبيه ، وقد فسرها له أبوه وبشره بأن سيبلغ منزلة عظيمة ولكن يجب كتمان الخبر ، وذلك حتى لا يوغر صدر أخوته ضده فيكيدوا له . ومع هذا لم يستطع يوسف كتمان الخبر ، وأبلغ أحد أخوته به ، فنقله أخوه هذا إلى باقى الإخوه ، مما جعلهم يزدادون حسداً عليه وتصميماً على الخلاص منه حتى يخلو لهم وجه أبيهم ، فاستأذنوا أباهم فى أن يصحبهم يوسف فى رحلة الرعى ولكن يعقوب أبى ، إلا أن يوسف ألح على أبيه بالموافقة بعد أن أغراه أخوته بأن سيلعب ويمرح كثيراً ، فوافق يعقوب بعد أن أوصاهم عنه خيراً ، ولكن ما أن انفردوا بأخيهم بعيداً عن أبيهم ، حتى تغيرت معاملتهم ليوسف وزادوا من جفائهم معه ، حتى أجمعوا أمرهم على إلقائه فى البئر على الرغم من بكاء يوسف وتوسلاته بألا يفعلوا به ما هم مقدمون عليه .

---

(١) حكيم أبو القاسم فردوسى: تفسير سورة يوسف يا يوسف وزليخا، تهران، تهران، كتابفروشى إسلامية (بدون تاريخ) ص : ٨.

روايت ز كـعب اينچنين كـرده اند   وزايشان چنين قصه گسترده اند
كـه چون روزگـار براهيم بود   كـه اندر وفـا ايزد اورا سـتـود
پسـر بودش اسحق پاكيزه راى   يكى ويژه مـرد ورسـول خـداى
شنيدم كـه پيغمبران دو هزار   ز پشت وى آمـد آنروز گـار
نخستين پسـر كش ز اسحق زاد   بد آزاده يعقوب فـرخ نژاد

ألقوه فى البئر ، ولكن جبريل أدركه وحفظه وأجلسه على حجر بقاع البئر ، بينما عاد أخوته إلى أبيهم يتباكون وقد وضعوا أمامه قميصاً ملوثًا بدم كذب مدعين أن ذئبًا فتك به وهم مشغولون بالرعى ! فانهمرت دموع يعقوب وهو غير مصدق وبخاصة أن القميص لم يكن به أى آثار لتمزيق ، ولما أدرك الأبناء أن أباهم غير مصدق قولتهم ، فإذا بهم يقولون : إن كنت لا تصدق ما نقول ، فسنذهب ونحضر لك الذئب كى تسأله ، فوافقهم يعقوب ، وذهب الإخوة وصادوا ذئبًا آخر ولوثوا مخالبه بدم كذب كذلك ، وإذا بيعقوب يسأل الله أن ينطق الذئب بالحقيقة ، فقص عليه الذئب كيف صادوه ولوثوه بالدماء وأتوا به إليه ، فصبر يعقوب واتخذ لنفسه بيتًا أسماه بيت الأحزان وأقام فيه وحده باكيًا حزينًا حتى فقد بصره .

أما عن يوسف قد بقى بصحبة جبريل فى البئر لمدة ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع أقبلت قافلة وأدلت بدلوها فى البئر فخرج فيه يوسف ، فسارع الغلمان بالبشرى إلى رئيس القافلة الذى اعتبره بضاعة يمكن أن يبيعه ويتكسب من ورائه ، ويقول الفردوسى بأن أخوته كانوا يتابعونه ، وعندما أخرج من البئر ، ادعوا بأنه غلامهم الذى تعود على الهرب منهم ، وقد هددوا يوسف إن كذبهم فسوف يقتلوه ، وأخيراً باعوه لرئيس القافلة بعشرة دراهم ، ثم وقعوا وثيقة ببيعه !

واصلت القافلة رحلتها بعد ذلك حتى وصلت أرض مصر حيث تم بيع يوسف لعزيز مصر ، فتولت زليخا امرأة العزيز تربيته حتى بلغ رشده فعشقته ، وكان يوسف يحاول أن يتلمس أخبار أبيه وقد بلغه بأنه ما زال على قيد الحياة ، وأنه يقيم فى بيت الأحزان وقد كف بصره ، فسيطر الهم والحزن على يوسف وعاد إلى داره يبكى أباه ، وإذا بزليخا قد تزينت وأقبلت عليه متوددة متلاطفة مواسية ، وأخذت تطرى صفاته وتصارحه بهواها ، ولكن يوسف ينكر عليها ذلك ويخرج ولكنها تحاول اللحاق به ضارعة راجية الوجد ، ولكنه يتعذر عن الانسياق معها فى هواها ، لأنه لا يقبل أن يخون ولى نعمته .

سيطر الهم والحزن على زليخا ، وقد لاحظت جاريتها ما ألم بها ، فطلبت منها أن تقص عليها ما يحزنها فقد تساعدها فى الخلاص من همها ، فأخبرتها بأنها تهيم حبًا بيوسف ولكنه يتمنع ويرفض حبها .

فأشارت الجارية عليها بالصبر عامًا تبنى خلاله بيتًا كله مرايا ، حتى إذا جلست فى أى ركن منه مع يوسف انعكست صورتها أمامه فى كل ركن ، فلا يستطيع مقاومة إغرائها بعد ذلك ، ولما انتهى بناء البيت ، دعت زليخا يوسف ليقابلها وقد لبست ثوبًا شفافًا يظهر كل مفاتنها وتعطرت وبدت فى أبهى زينة ودعته للجلوس بجانبها ، وأخذت تكرر على مسامعه حبها وعشقها وعدم قدرتها على التخلص من حبه ، ولكنه كرر عليها خوفه من الله واحترامه لسيد الدار ، ولكنها لم تكف عن مغازلته بل ضمته إلى صدرها وأمطرت وجهه بقبلات حارة ، جعلته يكاد يفقد المقاومة ، ويجاريها فى هواها ، وإذا بيد تظهر من أحد الأركان وتشد أذنه وقد كتب عليها «إن الله يراك» ولكنه لم يفق ، فتظهر اليد مرة أخرى من ركن آخر وقد كتب عليها : «إن هذا العمل القبيح يحرمك من الجنة السعيدة» ولكنه ما زال متأثرًا بالرغبة والشهوة ، وأخيرًا يظهر جبريل عليه السلام فى صورة يعقوب وأخذ يحذره عقاب ربه ، فغشيته رعدة من خوف الله والحياء من أبيه ، فقفز نحو الباب وجرت زليخا خلفه ممسكة بقميصه ، فقد من دبر !

هنا يدخل العزيز كالريح ، وإذا زليخا تدعى الغضب وتتهم يوسف بمحاولة الاعتداء عليها ، ولكن يوسف قال بأنها هى التى راودته وأنه برىء ، وأنطق الله طفلا رضيعًا فى المهد شهد الواقعة ؛ قائلا : إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر ، فصدق وهى من الكاذبين ، وهنا تثبت براءة يوسف حيث قد قميصه من دبر ، وأنحى العزيز باللائمة على زليخا قائلا : إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٌ .

ذاع الخبر ، ولاكته الألسن ، وتناقلته النسوة متهمات زليخا بأنها تراود فتاها عن نفسها ، قد شغفها حبًا فلما سمعت بمكرهن أعدت لهن وليمة وآتت كل واحدة منهن

أترجة وسكينًا ، ثم خرج يوسف عليهن فبهرن بجماله ، وإذا بهن قد قطعن أيديهن بدلا من الأترج ، «وقلن حاش لله ، ما هذا بشر ، إن هذا إلا ملك كريم!»[1] فقالت لهن هذا الذى لمتننى فيه ، أرجو مساعدتكن وإقناعه بمبادلتى حبًا بحب .

فذهبت النسوة إلى يوسف يتوسلنه ، ولكنه رفض توسلاتهن لوصال زليخا ، وهنا بدأت كل واحدة منهن تعرض نفسها عليه ، فإذا به يسخر منهن ، إذ كيف يرفض حب زليخا الأكثر منهن جمالاً وجاهًا ، ويقبل حب إحداهن؟!

بعد أن أدركت النسوة بأنه لا جدوى من محاولات زليخا ومحاولاتهن ، نصحنها بأن تكف عن مطاردته ، ومن الأفضل أن تبعده عنها وذلك بوضعه فى السجن عقابًا على رفضه حبها ، ولعل فى بعده السلوى من هذا الهوى وذلك العشق المتأجج فى قلبها !

أرسلت زليخا يوسف إلى السجن ، وهناك مالت قلوب جميع المسجونين إليه ، وكان من بينهم اثنان من بلاط الملك ، كان أحدهما ساقيه ، والآخر صاحب طعامه ، وقد رأى الأول فى منامه أنه يعصر خمرًا والملك يشرب من يده ، بينما رأى الآخر رؤية مفادها أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه ، فبشر يوسف أولهما بأنه سيعود إلى سابق عمله ويسقى الملك ، أما الآخر فإنه سيصلب وتأكل الطير من رأسه ، وفى الغد أمر الملك بعودة الأول إلى سابق عمله ، وقتل الثانى وصلبه !

وبعدها جاء جبريل إلى يوسف وبشره بقرب خروجه من السجن ، فقد حدث أن رأى الملك رؤية عجز جميع المفسرين عن تأويلها ، بينما طلب ساقى الملك الذى كان مع يوسف فى السجن فى استشارة يوسف فى هذه الرؤية ، فما كان من يوسف إلا أن فسرها - كما جاء ذلك فى القرآن الكريم - لذا سارع الملك بإخراجه من السجن وولاه الإشراف على خزانة المملكة ، وأصبح يوسف رفيع القدر ، لا يعلوه مكانة إلا الملك ، وقد أمر يوسف بإطلاق سراح جميع السجناء ، وسرعان ما أسلم الملك وجيشه ورعاياه على يد يوسف .

---

(١) يوسف ، آية : ٣١

ثم بدأت سنوات القحط كما جاء فى رؤية الملك ، وتبع ذلك وفاة الملك وخلفه يوسف حيث مالت قلوب جميع المصريين نحوه . وفى العام السادس من أعوام القحط هرع إليه الناس من كل صوب يشكون شدة المجاعة ، وحار يوسف فى أمر تموينهم وتموين الوافدين من البلاد الأخرى ، فنزل عليه جبريل وأوصاه بأن يظهر للناس مرة كل يوم ويريهم وجهه فيرجعون راضين شبعين .

ثم عم القحط ديار كنعان كذلك ، فأرسل يعقوب أولاده يمتارون من مصر ، فلما قدموا على يوسف عرفهم وهم له منكرون ، فأكرمهم وزودهم بما يحتاجون ، ثم طلب منهم أن يعودوا ، وأن يأتوه بأخيهم بنيامين ، وبعد فترة عاد الأخوة ومعهم بنيامين وقد دبر يوسف حيلة لاستبقاء بنيامين فجعل السقاية فى رحله كما جاء فى القرآن ، وانتهى الأمر برجوع الأخوة إلى كنعان واحتجاز بنيامين فى مصر نتيجة لاتهامه بسرقة صاع الملك .

وبعد فترة عاد الأخوة إلى مصر برسالة من يعقوب يشكو فيها فقده يوسف ، ويرجو من عزيز مصر استرجاع بنيامين ؛ حتى لا يكون عزيز مصر ذنبًا آخر وأخًا لذئب يوسف !

فوعدهم يوسف خيرًا على أن يقصوا عليه قصة أخيهم يوسف دون نقص أو زيادة ، فأعاد أخوه شمعون على سمعه فرية الذئب ، فأجابه يوسف بأنه لا يصدق روايته ، وأن لديه جامًا ذهبيًا يبوح بحقيقة كل ما يسأل عنه ، ثم وضع الجام فى يده وضرب عليه بقضيب باليد الأخرى ، فصدر عنه صوت استمر طويلاً ، ثم قال يوسف : إن الجام يتهم شمعون بالكذب ويقول إنكم يا أخوة يوسف قد ملأ الحسد قلوبكم ضد أخيكم وألقيتموه فى البئر ثم بعتموه ، وأن الذئب برىء من دمه. فتملكتهم الدهشة جميعًا ، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى إنكارهم وهنا ألقى يوسف إليهم بوثيقة بيعه لرئيس القافلة التى حملته إلى مصر ووقعوها بخطهم ؛ وذلك بحجة أنها مكتوبة بالعبرية ويريد منهم أن يترجموها له ؛ فأدرك الإخوة أنه يوسف ، فقال يوسف : نعم أنا يوسف وهذا أخى بنيامين ، فخروا له ساجدين وعفا عنهم وأحسن إليهم وأرسل

معهم قميصه فألقوه على وجه أبيهم ؛ فارتد بصيراً ، ثم أرسل يوسف قافلة إلى أرض كنعان عادت إلى مصر بأبيه وأهله أجمعين .

ثم يموت يعقوب ويذهب يوسف إلى أرض كنعان كي يوارى جثمان أبيه التراب هناك كوصية أبيه له ! وقبل أن يموت يعقوب استثمر الفردوسى مقدمه إلى مصر فى إتمام الوصال بين يوسف وزليخا ، حيث أضاف الفردوسى فصولاً وأحداثًا لا وجود لها فى رواية القرآن أو التوراة ، بل هى من نسج خيال الشاعر الذى حرص على أن يجمع العاشقين ، فكيف تم ذلك ؟

دارت الأيام دورتها على زليخا وألم بها العجز وكف بصرها ، بينما أصبح يوسف عزيز مصر وكبيرها ، وذات يوم سمعت زليخا ضجيجًا ودقات طبول فسألت جارتها عن السبب ، فأخبرتها أنه موكب يوسف وقد عاد من كنعان مع والده وأهل بيته ، فهمت بالخروج إلى الموكب لعلها تحظى بلقاء يوسف الحبيب ، ولكن قبل أن تخرج كان لديها صنم تعبده ، فتحدثت معه وطلبت منه أن يحقق لها ثلاثة أشياء : أن يعيد إليها بصرها ، وأن يعيدها شابة عذراء ، وأن يهبها جمالا وطهراً ، وقالت : إن لم تحقق لى هذه الأشياء فلست جديراً بأن تعبد ، ولما لم يتحقق لها ما أرادت ، هوت على ذلك الصنم وحطمته .

ثم خرجت إلى الموكب بمصاحبة أمتها ، وعندما مر بها الموكب نادت يوسف ولكنه لم يسمعها لشدة الضجيج وارتفاع صوت الطبول ، ولكن الله أمر الريح فحملت صوتها إلى أذنى يوسف فلما سمعها ورآها على هذه الحال رق لها قلبه ، وأمر حجابه بحملها إلى قصره حتى يعود .

وبعد أن عاد إلى القصر أمر بإدخالها عليه فى خلوته وكان معه أبوه يعقوب ، فتحدثوا جميعًا وتذكر كل منهم ما مر به من مصائب وكوارث ، حتى رق قلب يعقوب لحالها ، ثم أخبرتهما بكفرانها بصنمها وتحطيمها له ، وأنها تشهد الآن بوحدانية الله ونبوة يوسف ، ثم سألت يعقوب أن يدعو الله ليحقق لها أمنيات أربعًا وهى : أن يمن الله عليها بالإسلام ، وأن يعيدها جميلة كما كانت ، وأن يجعلها عذراء طاهرة ،

وأخيراً أن يصبح يوسف زوجها ومحبًا لها. فدعا لها يعقوب بما طلبت فعادت فتاة عذراء فى السادسة عشرة من عمرها ، وانتهى الأمر بزواج يوسف منها بعد أن أقنعه أبوه بذلك .

ولكن الأمر بينهما لم يكن كسابق عهده ، فقد أصبح يوسف العاشق الولهان ، وأصبحت زليخا المعشوقة المتمنعة ، وقد عاتبها يوسف فى ذلك ، وإذا بملك ينزل على يوسف قائلا له : لا تحسبن هذا الإعراض من زليخا ، فإن الله فى يوم عقدك عليها أمرنى أن أضرب بجناحى على قلبها فما أن فعلت حتى زايله حب الدنيا كلية فى لحظة ، وقد أصبحت الآن عفيفة فاضلة كما كنت أنت من قبل ، وكذلك قضى ربك أن يستيقن قلبك بأن الأمر لا يكون كما تريد بل مرده إلى الله وحده ، فامض إلى يعقوب ، وسله أن يدعو الله بأن يصلح بينك وبين صاحبتك ، واستجاب الله لدعاء يعقوب ، وعاد هوى يوسف إلى قلب زليخا ، ونعما معًا بحياة كلها حب وسعادة ، وأخيراً يختم الشاعر قصته بموت الزوجين العاشقين فى يوم واحد !!

* * *

إلى هنا تنتهى القصة المنسوبة إلى الفردوسى ، ونلاحظ أنها جاءت على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : مأخوذ عن التوراة ، وقد أشار الفردوسى إلى هذا الأمر فى بداية نظمه للقصة حين أشار إلى ما رواه كعب ووهب اليهوديين للقصة وتناقل روايتهما بين المؤرخين ، لذا بدأ الفردوسى قصته منذ عهد سيدنا إبراهيم وولده إسحاق ، ثم تحدث عن ولادة يعقوب وأخيه عيصا ، وما كان بين الأخوين من صراع وعداء ، وهو قسم صغير إذا قيس بالقسمين التاليين .

القسم الثانى : وهو مستمد فى معظمه مما ورد فى القرآن الكريم وبخاصة سورة يوسف . وقد بدأ بمولد يوسف وتعلق أبيه به مما أو غر صدر إخوته ضده وتفكيرهم فى الخلاص منه إلى باقى الأحداث الرئيسية حتى رحل يعقوب وأهله إلى مصر للإقامة مع يوسف بعد أن تكشفت كل الحقائق وأدرك أخوته شناعة ما فعلوه بيوسف ، مع التركيز على ما كان بينه وبين زليخا من أحداث وأقوال ، ولكن لم يخل

هذا القسم من خيال الشاعر وعلى سبيل المثال ما ذكره عن الجام الذى ينطق بالحق كلما طرقه ، ولعل هذا يذكرنا بجام جمشيد الذى تحكى الأساطير الإيرانية القديمة أنه كان ينظر من خلاله فيرى العالم كله وهو جالس فى قصره .

القسم الثالث : من نسج الخيال عند الشاعر ، حيث نظمه على منوال القصص الرومانسية التى يزخر بها الأدب الفارسى والتى تنتهى عادة باللقاء بين الحبيبين بعد طول فراق .

وقد بدأ هذا القسم بعد وصول يعقوب إلى مصر ، ورفع يوسف له كى يجلس إلى جواره على العرش ، فكل الأحداث التى ذكرها الفردوسى من سيطرة الكبر والعجز على زليخا وسعيها إلى موكب يوسف بعد أن حطمت صنمها وقبولها الإيمان برب يوسف ، ثم تحولها من عجوز شمطاء إلى يافعة فى سن السادسة عشرة وتزويجها بيوسف حتى موتهما معًا فى يوم واحد . كل هذه الأحداث دخيلة على القصة فى القرآن الكريم ، ومن نسج الخيال عند الفردوسى وربما جاءت نقلاً عن الروايات المختلفة التى ذكرها بعض المفسرين .

وإذا قارنا القسمين الأول والثالث بالقسم الثانى ، فإن القسم الثانى هو المستمد من القرآن الكريم فى قصة يوسف وهو العنصر الأساسى لبناء القصة عند الفردوسى ، أما القسم الأول فهو مجرد تمهيد للقصة ، بينما القسم الثالث فيمثل الحبكة الرومانسية للقصة ، والذى أراد به الفردوسى ، بيان قدراته كشاعر ، النظم دابته والخيال وسيلته للتعبير والإبداع ، وقد نظم الكثير من هذه القصص العاطفية فى الشاهنامة وأشهرها قصة (خسرو وشيرين) .

* * *

يوسف وزليخا عند عبد الرحمن الجامى

استهل عبد الرحمن الجامى قصته بمقدمة متعارف عليها فى المنظومات الفارسية ؛ شملت الابتهال إلى الله عز وجل ، ونعت للرسول الكريم عليه السلام ومعراجه إلى

السماء ، وكذلك التضرع إلى الله طلبًا لشفاعة محمد عليه السلام ، وكذلك الحديث عن سبب نظمه لهذه القصة الدينية التى حظيت باهتمام المفسرين وكذلك الرواة والأدباء فى شتى العصور ومختلف اللغات ، والتى كان لها نصيب الأسد من القصص الدينى فى الأدب الفارسى ، ويكاد جميع النقاد القدامى منهم والمحدثون يجمعون على أن هذه القصة من أفضل ما خلف الشاعر عبد الرحمن الجامى ، وقد قال فى حقها دينسون روس : «تعتبر منظومة الجامى هذه خير ما نظم فى هذا المجال ، وقد نالت شهرة واسعة ، هذه المنظومة من أشهر ما كتب فى هذا المجال ، وأنها أفضل أعمال الجامى قاطبة[1]».

وقد حرص نور الدين الجامى على أن يبدأ قصته من حيث بدأها القرآن الكريم ، حيث تحدث عن مولد يوسف ، وكم كان غاية فى الجمال الآسر للألباب والعقول ، والذى لم يحظ به مخلوق قبله قط ، ومما قاله ؛ ما ترجمته :

- حينما بدأ مفسرو القرآن ، وقارئو صحف السماء .
- كتابة تاريخ الدنيا ، فقد حكوا عن آدم هذا الأمر .
- قائلين : لما أضاء الله عينيه ، عرض عليه صورة أولاده .
- حيث وقفت صفوف الأنبياء ، ووقف كل صف فى مرتبته .

٥ - واتخذت صفوف الأولياء مكانًا آخر ، فوطئت بأقدامها مقام التبعية .

- ومن خلفهم وقفت مجموعة يتباهون بتاج عظمة الملك .
- ثم وقف بقية الخلائق صفًا ، صفًا ، وقفوا بترتيب حسن ونظام بديع .
- وحينما نظر آدم إلى ذلك الحشد ، وأعاد النظر مرة أخرى فى كل مجموعة .
- بدا يوسف أمام عينية بدرًا ، لا ، بل شمس العزة والحياة فى أوجها .

---

(١) راجع مقدمة الترجمة العربية لهذه المنظومة للدكتور عبد العزيز بقوش بمجلة أخبار الأدب، كما يمكن الرجوع إلى القصة في الأدب الفارسي للدكتور أمين عبد المجيد ص ٢٥١-٢٥٧ ، والرجوع كذلك إلى الأصل الفارسى طبعة نادرى ، بومباى عام ١٣٢٢ هـ -١٩٢٣م.

١٠ – فهو يمتاز عن ذلك الحشد كشمع المجالس شامخ برأسه بين الجميع .

– يتلاشى أمام حسنه جمال الحسان ؛ كما يتلاشى ضوء النجم أمام ضوء الشمس .

– فكمال حسنه خارج نطاق الفكر ، وأبعد مدى من حدود العقل .

– تعجب أدم من ذلك الجلال والجاه ، وقال متعجباً !

– من أى دوحة هذا الغصن يا إلهى ! ومن أين له هذا الجمال والجاه الزائد ؟

١٥ – فأتاه الرد : إنه نور عينيك ، ومدخل السرور على قلبك الحزين .

– فهو غصن من روضة يعقوب ، وغزال فى صحراء خليل الله .

– يتجاوز إيوان جاهه السماء ، ويكون له عرش مصر .

– كما يكون مثار غيرة حسان الدنيا ، من شدة الحسن البادى على وجهه .

– ثم ضمه إلى صدره ، وباركه بقلبه الخالى من الأحقاد .

٢٠ – وأخبره بحبه له ، وطبع قبلة أبوية على جبينه(١) .

وكما وصف جمال يوسف ، فقد تحدث عن زليخا ، وقال إنها ابنة الملك طيموس ببلاد المغرب ، وقد أفاض الجامى فى وصف جمالها عضواً عضواً ومع هذا فقد وقعت فى حب يوسف دون أن تراه ؛ ومما قاله فى حقها ما ترجمته :

– أما زليخا التى كانت مثار غيرة الحور العين ، فقد كانت محتجبة خلف ستار العصمة ببلاد المغرب .

– لقد أصبحت أسيرة طيفه فى نومها ، دون أن ترى شعاعاً من نور طلعته .

– كان ببلاد المغرب ملك مشهور ، دقت له الطبول ، واسمه «طيموس» .

(١) المرجع السابق (أخبار الأدب) .

- اكتملت له كل أسباب الملك ، ولم يبق بقلبه أمنية لم تتحقق .

- وكانت له ابنة جميلة تدعى (زليخا) ، كانت سميرته من بين كل الخلائق .

- يجل وصفها عن مقدرة البيان ، وأجدب الطبع مع خيالها[١] .

بعد ذلك انتقل الجامى للحديث عن رؤية زليخا ليوسف لأول مرة فى منامها ، وكيف أنها تعلقت به منذ الوهلة الأولى ، وكيف هبت نسائم السحر فأيقظتها من نومها وهى مشدوهة مبهورة بجمال من رأت ، حيث إن ما طالعته من جمال يوسف لم تر مثله قط بين بنى البشر ، ولهذا بدأ الاضطراب يبدو على تصرفاتها مما جعل الجوارى من حولها يتساءلن عن سبب هذا التغيير المفاجئ فى سلوك ابنة مليكهن .

وفى الليلة الثانية رأت زليخا يوسف للمرة الثانية فى منامها ، فزادتها رؤيته هذه تعلقًا به ؛ حتى وصل عشقها وهيامها بيوسف إلى درجة تكاد تقترب من حافة الجنون ، وفى الليلة التالية عاود الحلم زليخا ، حيث رأته للمرة الثالثة وقد كانت أكثر تماسكًا وإدراكًا لما يحيط بها ، وهنا عرفت من هو يوسف وأنه يعيش فى مصر ، وأن مكانته رفيعة القدر حيث يحظى بتقدير وحب الجميع فى مصر كلها .

وقد حدث وزليخا فى هذه الحال من وجد وهيام بيوسف القاطن مصر ، أن تقدم إلى خطبتها العديد من الأمراء والملوك من كل أنحاء المعمورة دون أن يتقدم إلى خطبتها أحد من مصر ، لذا سارعت زليخا برفضهن جميعًا ؛ لأن قلبها قد تعلق بمصر وهوائها وبحبيبها القاطن هناك والذى رأته فى منامها ثلاث مرات ، وفى هذا الأمر قال الجامى ما ترجمته :

أقبل العديد من أمراء الشام والروم وكل الديار لخطبة زليخا ، فما كان منها إلا أن سألت هل جاء أحدهم من مصر ، فقالوا لا ؛ فكان ردها الرفض!

- حينما وقفت زليخا على هذا الأمر ، اضطرب قلبها من الحيرة .

(١) المرجع السابق (أخبار الأدب) .

وقالت : أمن بينهم رسول من مصر ؛ فإن عشق المصريين قد قصم ظهرى .

- إن قلبى لينجذب نحو المصريين ، وإذا لم يكن بينهم رسول من مصر ، فلست أدرى ما سيحدث .

- إذ إن النسيم الذى يهب من مصر ، ويكحل عينى بغبارها ،

- خير لى مائة مرة من تلك الريح التى تحمل المسك من صحراء التتار(١).

وأمام هذا الصد والتمنع من زليخا ، ما كان من أبيها الحريص على تزويجها إلا أن أرسل إلى عزيز مصر رسولاً من قبله عارضًا عليه الزواج من ابنته زليخا ، وقد قبل عزيز مصر العرض لما يعرفه عن جمال زليخا ورقتها وحسنها .

نقل الخبر إلى زليخا ، فأبدت موافقتها على الزواج من عزيز مصر ، فجهز أبوها قافلة لتقل زليخا إلى مصر كى يتم زفافها إلى عزيز مصر ، وعندما وصل ركبها إلى مشارف مصر ، حطت الرحال فى انتظار مقدم عزيز مصر لاصطحابها إلى قصره ، وإتمام الزفاف ، وعندما وصل عزيز مصر إلى المكان الذى نصب فيه مرافقو زليخا خيامهم ، سارعت زليخا بالنظر من خلال خيمتها لكى تتعرف على عريسها ، ولكن ما أن رأته حتى صاحت قائلة : ليس هذا ذاك الشخص الذى رأيته فى المنام عدة مرات وتحملت من أجله طوال عام كامل تباريح الهوى ، ومع هذا فقد واصلت الرحلة وبرفقتها عزيز مصر ، حيث أحسن المصريون استقبالها ونثروا الجواهر على موكبها ، وقد واصلت الرحلة كى تبحث عن يوسف ، وكم كانت تتلهف إلى لقائه ، حزينة على تلك الليالى والأيام التى تمر دون أن تحظى بوصاله .

وينتقل الجامى إلى جانب أخر من القصة حيث بدأ يتحدث عن علاقة يوسف بأخوته ، وكيف كانوا يحسدونه لفرط اهتمام يعقوب به ، ثم تحدث عن الرؤية التى رآها يوسف وهى سجود الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا له ، وقصةً هذه الرؤية على

---

(١) راجع الترجمة العربية لمنظومة يوسف وزليخا للدكتور عبد العزيز بقوش بمجلة أخبار الأدب .

والده طالبًا منه تفسيرًا وتوضيحًا ، ففسرها له وطالبه بألا يخبر أحدًا من أخوته بهذه الرؤية ، ولكن الخبر تسرب إلى الأخوة فزادهم حسدًا على يوسف وضيقًا به ، فتشاوروا معًا ليدبروا حيلة يبعدون بها يوسف عن أبيه ، لذا ذهبوا إلى أبيهم يستأذنونه فى أن يذهب معهم يوسف إلى الصحراء ، وهناك ألقوه فى غياهب بئر الضلالة والخيانة . ولكن الله أنجاه بوصول القافلة وإخراجه من البئر. ثم وصلت القافلة بيوسف إلى مشارف مصر ، وسماع ملك مصر بمقدم القافلة ومعها يوسف ، فأرسل عزيز مصر لاستقبالهم وإحضار يوسف إلى القصر ، وما أن وصل يوسف إلى أرض مصر حتى توجه إلى النيل واغتسل من غبار السفر ، ثم ركب هودجًا قاصدًا بلاط ملك مصر ، وذلك بصحبة مالكه الذى أخرجه من البئر واشتراه من أخوته!

لما علمت زليخا بما أحدثه وصول يوسف أرض مصر وبلاط الملك من ضجة وضجيج وتجمع الناس حول القصر ، سارعت بالذهاب إلى القصر لاستطلاع الأمر ، وما أن رأت يوسف وجماله حتى تعرفت عليه ، وما أن عرض مالك يوسف بيعه ، سارعت زليخا بشرائه عارضة ثمنًا يفوق بكثير كل ما عرضه الآخرون .

انتقل يوسف للعيش فى قصر العزيز ، وتحت إشراف زليخا ، وحرصت ربة الدار أن توفر له كل أسباب السعادة وفراغ البال ، ثم طلبت من يوسف أن يقص عليها قصته ، وكم عانى فى البئر من آلام وأحزان وهنا أدركت زليخا أن الحزن الذى كانت تعانيه ذلك اليوم وتلك الليلة كان سببه آلام يوسف بالبئر فى ذلك الوقت . بعد ذلك طلب يوسف الاشتغال بالرعى لأنه لم يكن هناك نبى قط لم يشتغل بالرعى ، واستجابت زليخا لما طلب .

بعد أن أدرك يوسف بلوغه ثم رشده ، بدأت زليخا تعبر له عن حبها وطلبت وصاله ، ولكنه تعفف عن ذلك ، مما جعلها تصاب بالاكتئاب والشحوب ، فسألتها مربيتها عن السبب ، فأخبرتها بعشقها ليوسف وتمنعه عليها ، فحاولت المربية الوساطة بينها وبين يوسف ، ولكنه ظل على إبائه وتعففه ، مما اضطر زليخا للذهاب إليه مرة أخرى عارضة نفسها عليه متضرعة أن يستجيب لتوسلاتها ، ولكنه اعتذر ثانية عن تحقيق مرادها ، فحاولت زليخا أن تهيئ جوًا شاعريًا حيث أرسلت يوسف إلى

البستان وحوله العديد من الجوارى العارضات لحسنهن وجمالهن ، ولكن يوسف ظل على عفافه وطهره ، وهنا بدأت ومربيتها فى البحث معًا عن وسيلة أخرى لتحطيم رفض يوسف وتمنعه ، حيث شيدت المربية بيتًا جديدًا صورت فى كل أرجائه جمال يوسف وزليخا بأوضاع مختلفة ، ثم دعت يوسف إلى ذلك البيت ومعه زليخا التى حاولت وصاله دون جدوى ، ثم إدخاله إلى المقصورة السابعة ومحاولة إجباره على تحقيق مقصودها ، فما كان من يوسف إلا أنْ فرَّ ، وترك زليخا حائرة !

فى نفس اللحظة التى جرى فيها يوسف خارجًا ، وصل العزيز إلى البيت ، وسأل يوسف عما يجرى ، فلم يخبره يوسف بشىء ، بينما سارعت زليخا باتهام يوسف بأنه كان يراودها عن نفسها ويحاول الاعتداء عليها ، فما كان من العزيز إلا أن أمر بإيداع يوسف السجن على الرغم من شهادة طفل رضيع ببراءة يوسف ، وقبل إيداعه السجن انتشر الخبر فى المدينة ، ولاكت ألسن النسوة سيرة زليخا ، ولكنها كى تخرس ألسنتهن هيأت لهن جلسة مشاهدة ، وأمرت يوسف بالدخول عليهن فأكبرن جماله ، والتمسن لزليخا العذر فيما فعلته ، وقد حاولت النسوة تشجيع يوسف على قبول غواية زليخا ، ولكنه صمم على الاحتفاظ بعفته وطهره ، فاقترحت النسوة تنفيذ أمر العزيز وإرسال يوسف إلى السجن ، وفعلاً تم إرساله إلى السجن مع ندم كبير من زليخا لإقدامها على تنفيذ هذا الأمر الذى سيحرمها من رؤية يوسف !

ولم يمض وقت طويل على إرسال يوسف إلى السجن ، حتى ألهب العشق عاطفة زليخا ولم تستطع تحمل فراقه ، فكانت تذهب ليلاً مع مربيتها إلى السجن لمشاهدة يوسف والتمتع بالنظر إلى جماله وحسنه ، بل إنها كانت تصعد إلى سطح قصرها نهارًا لمشاهدة السجن من هناك وكانت فى كلتا الحالتين تنخرط فى البكاء والانتحاب لفراق يوسف عليه السلام .

ثم ينتقل الجامى لشرح حال يوسف فى السجن وكيف استطاع أن يحوز رضا وحب واحترام كل من كانوا فى السجن ، حتى أنهم كانوا يعرضون عليه أحلامهم ليفسرها لهم .

وكان من بين هؤلاء السجناء أفراد من خاصة الملك وخدامه ، وكان يوسف يطلب منهم ذكره عند الملك إذا خرج أحدهم ، وما كان من أمر رؤية الملك وتفسير يوسف لها ، فتم الإفراج عنه كي يشرف على خزانة الملك ، وما أن وصل إلى القصر ، حتى سأله الملك عن قصته مع النسوة ، فتيقن من براءة يوسف مما اتهم به. وقد حدث بعد ذلك أن مات عزيز مصر ، وابتليت زليخا بالوحدة والفراق واستيلاء محبة يوسف على قلبها ، وأملاً فى لقائه فقد أقامت كوخًا لها فى طريق يوسف لعله يدرك حالها ويرق قلبه لها ، ولكنه لم يلتفت إليها ولم يعرها اهتماماً ، مما جعلها تسارع إلى بيتها ثائرة فتحطم صنمها ، وإعلانها الإيمان برب يوسف عليه السلام ، ثم عودتها إلى الطريق مرة ثانية ، وهنا حظيت بالتفاته إليها واهتمامه بها .

بعد ذلك نقلت زليخا إلى خلوة يوسف بالقصر ، وقد عاد إليها بصرها واستعادت جمالها وشبابها وذلك بفضل دعاء يوسف لها ، كما جاء الوحى وأمر يوسف بالزواج من زليخا ، فتزوجها وغلب عشقها على قلبه ، مما دعاه إلى بناء معبد لها ، وأخيراً يرى يوسف عليه السلام أبويه فى المنام ، وما صحب ذلك من دعائه الله عز وجل أن يعجل بموته للحاق بوالديه ، وجزعت زليخا من هذا الدعاء ، وأخيراً يموت يوسف عليه السلام فتهلك زليخا أسى على فراقه !

* * *

وهنا تنتهى القصة عند الجامى ، ونلاحظ أنه بدأها من حيث بدايتها كما وردت فى سورة يوسف بالقرآن الكريم ، وكان أكثر التصاقًا بأحداث القصة كما جاءت فى القرآن من تلك القصة التى نظمها الفردوسى قبله ، ومع هذا لم تخل قصته من بعض الإضافات التى لم ترد فى القرآن ، وذلك إتمامًا للحبكة القصصية وزيادة التشويق ، ومن هذه الإضافات أن الجامى أدخل إلى شخوص القصة عنصراً جديداً متمثلاً فى وجود فتاة اسمها (بازغة) وقد رأت يوسف بعد وصوله مصر ووقعت فى حبه وعرضت عليه جمالها ومالها ، ولكنه رفض غوايتها مما جعلها ترجع يائسة وتتخلى عن كل ما تملك ، وتعيش وحيدة منقطعة للعبادة بعد ذلك ، كما أنه تأثر بقصة الفردوسى فى بناء

ذلك البيت الذى شيدته مربية زليخا ، وزينته ، ولكن بالعديد من الصور التى تظهر جمال زليخا ويوسف فى كل وضع ، على عكس الفردوسى الذى جعل جدران القصر كله من المرايا حتى تنعكس صورة زليخا على أى ركن ينظر إليه يوسف عند لقائه بها داخل هذا القصر ، وسواء زين القصر بالصور عند الجامى أو بالمرايا العاكسة عند الفردوسى ، فالغرض هو توفير جو رومانسى يؤثر فى عقل وقلب يوسف ، فيقبل على زليخا ويحقق لها الوصال ، ولكن يوسف لم يتأثر بهذا أو بذاك وظل على تعففه وطهره .

كما وافق جامى رواية الفردوسى فى عودة زليخا إلى شبابها وجمالها واقترانها بيوسف بعد طول انتظار ، وقد تم هذا الاقتران مصداقًا لأمر إلهى . ولكن الجامى اختلف مع الفردوسى فى توقيت الوفاة .. فقد ذكر الفردوسى بأنهما ماتا فى وقت واحد ، بينما ذكر الجامى بأن يوسف ودع الحياة قبلها ، فتملكها الحزن والأسى لفراقه ثم لحقت به بعد ذلك .

* * *

وهكذا كانت قصة يوسف لزليخا نبعًا فياضًا للشعراء الفرس ، وكانت أكثر القصص الدينى نظمًا فى الأدب الفارسى ، سواء فى صورة قصص كاملة أو حتى فى حكايات وردت فى منظومات أخرى ، كما حدث ورود إشارات إليها فى العديد من دواوين كبار الشعراء فى إيران ، ولعل ولع الأدباء الإيرانيين بنظم القصص وبخاصة العاطفية منها ، هو الذى دفع هؤلاء الشعراء وغيرهم للإدلاء بدلوهم فى نظم هذه القصة القرآنية . مضيفًا إليها كل ناظم أو قاص من عنده بعض الأحداث والشخصيات التى تثرى عمله الأدبى ، ودون المساس بقدسية ما ورد فى القرآن الكريم ، ودون الإساءة إلى سيدنا يوسف عليه السلام واتهامه بالخضوع إلى الغواية والهوى ، بل كان فى كل القصص مثالاً للطهر والعفاف والحفاظ على كرامة البيت الذى أواه ورباه ، إنه الرسول المعصوم بفضل الله ، وبركاته ، فكيف يخطئ أو ينحرف مهما كانت الغوايات ، ومهما تعددت محالاوت الإثارة ، وتنوعت أساليبها ومرتكبوها !!

* * *

قصة المعراج

حفلت الآداب الإسلامية العربية والفارسية والتركية والأردية بالعديد من القصص الموحاة من معراج الرسول الكريم محمد عليه السلام. لعل أشهر هذه القصص فى الأدب العربى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، أما إذا انتقلنا إلى الأدب الفارسى ، فسنجد أن كثيراً من الأدباء قد تناولوا الإسراء والمعراج بالحديث والشرح والإشادة فى كثير من كتاباتهم وأشعارهم ، ومع هذا فإن أهم عمل أدبى استوحاه صاحبه من معراج الرسول الكريم عليه السلام ، يتمثل فى منظومة فريد الدين العطار «منطق الطير» .

ولكن قبل أن نفصل الحديث عن هذه المنظومة بعض الشىء ، يجمل بنا أن نشير إلى ما أورده عبد الرحمن الجامى عن حادثة الإسراء والمعراج فى مقدمة منظومته «يوسف وزليخا» إذ تناول هذا الأمر بطريقة مباشرة ، وما حدث فى تلك الليلة ، حيث ذكر أن محمداً عليه السلام كان يبيت فى هذه الليلة المباركة الشبيهة فى مكانتها بليلة القدر فى بيت أم هانئ كرم الله وجهها .

وكانت كل الخلائق تعيش فى وئام وسلام فى هذه الليلة ببركة ذلك الحدث الكبير الذى سيحدث فيها ، ويكون ذا أثر كبير فى سيرة الدعوة الإسلامية ، بل إن الحيوانات قد أعلنت الوئام والسلام فيما بينها ، ولم يعد الذئب يطارد الحمل ، كما استراحت المها إلى جوار الأسد دون خوف على حياتها .

فى هذه الليلة افترش الرسول الكريم الأرض واتخذها مهداً لروحه الرقيقة نامت عيناه ولكن قلبه كان يقظًا ؛ وفجأة دخل عليه جبريل عليه السلام موفداً من الحق سبحانه وتعالى ، ثم أخذ جبريل يوقظ محمداً المصطفى بكل رقه وحنان ، مبلغًا إياه لماذا جاءه فى هذه الساعة ، حيث قال ما ترجمته :

- ربت بجناحيه عليه قائلاً : انهض أيها السيد ، فإن نومك الليلة قد هيأ لك السعادة .

– هيا احمل إلى الخارج متاع وجودك ، فأنت سعادة الدنيا الدائمة أبدًا .

– ما مقصدى إلا حملك إلى حيث العرش ، لذا أحضرت من أجلك البراق السريع .

– إنه ينساب على الأرض كالجواد السريع ، ويسبح فى الفضاء كطائر الهما السعيد .

٥ – ما امتلكت يد إنسان عنانه ، وما لامست قدم بشر ركابه .

– وسلك ذلك البراق السريع الطريق من مكة إلى الأقصى .

– وفى نصف لحظة أو أقل ، دق بحافره حلقة باب المسجد الأقصى .

– وهناك صار النبى عليه السلام إمامًا للأنبياء فى ذلك المسجد ، كما أصبح قدوة للسابقين.[1]

وبعد أن أم الرسول عليه السلام جميع الأنبياء فى المسجد الأقصى ، بدأ رحلة المعراج حيث صعد به البراق إلى السموات ، وكان القمر يحيط به وكأنه الهالة حوله ،

---

(١) نقلا عن ترجمة الدكتور عبد العزيز بقوش بمجلة أخبار الأدب العدد ٣٩ وما بعده والأبيات الفارسية هى : (يوسف وزليخا لجامى ، طبعة ١٣٤٧ هـ ق ، ص : ٩ ، ١٠) .

براو ما ليد پر : كاى خواجه بر خيز ... كه امشب خوابت آمد دولت انگيز

برون بر يكزمان زين خوابگه رخت ... تو بخت عالى بيدار به بخت

بسيج راه عرشت كردم اينك ... براق سير بر آوردم اينك

جهنده پرزمين خوش باد پائى ... پرنده برهوا فرخ جائى

٥ – نه دست كس عنان او بسوده ... نه از پائى ركابش گشه سوده

زد از سم براق آن برق رفتار ... ز مكه كه بر أقصى درم دار

زدش درنيم لحظة بلكه كمتر ... ز دور كاسهء سم حلقه برور

در آن مسجد امام انبيا شد ... صف پيشينان را پيشوا شد

لذا فإن الرسول الكريم قد خط بيده الكريمة على جبين القمر ، وصار هذا الخط وسما للعبودية ، لذا فاز القمر من تلك اللحظة باسم «التمام» وبعد ذلك واصل الرسول عليه السلام صعوده حيث مر بكل من عطارد والزهرة وغيرهما من الأبراج السماوية كالمريخ والمشترى وزحل إلى أن وصل إلى السماء الثامنة ، فاستراح قليلاً حيث أقبلت بنات النعش والثريا مادحة إياه بنظمها ونثرها .

وبعد ذلك واصل المسير إلى سدرة المنتهى ، وهنا وهن جناح جبريل عن الطيران ، وفى ذات اللحظة وثب إسرافيل من مكمنه وجعل الرفرف هودجاً ، وكم تشرف الرفرف بوجود محمد عليه السلام ،ثم سرعان ما استقبله العرش ، حيث حملوه يداً بيد كالوردة من إيوان الدنيا الوضيع إلى ذلك البلاط المقدس ، حيث وجد مكانًا خاليًا فى هذا المكان ، غير مسموح لجسد أو روح بالوجود هناك .. وهنا بقى مع الواحد محرراً من قيد العدد بعيداً عن الكثرة ، مبرأ من القلة ، وهنا يتوقف الجامى عن مواصلة الحديث معلنًا عجزه عن وصف ما حدث بعد ذلك ، ومما قاله فى ذلك ، ما ترجمته :

- رأى ما هو خارج نطاق الرؤية ، ولكن لا تسلنى كيف كان ذلك .

- حيث إن المجال هناك لا يتسع للكم أو الكيف ، فأمسك لسانك عن القلة والكثرة .

- لقد سمع فى ذلك الوقت كلامًا بغير صوت ، كلامًا كله أسرار فى أسرار ، ومعانٍ فى معانٍ .

- لا علم به للفم أو اللسان ، لا يصاحبه نطق أو بيان .

٥ - تعجز آذان الروح عن إدراكه ، ويقصر القلب عن فطنته .

- لذا ينبغى كف اللسان عن الخوض فى هذا الحديث فإنه أسمى من القول والسماع .

- فلا تتجاوز حدك ياجامى ، وانج بنفسك من هذا البحر المهلك للروح .

- ولا تنبس ببنت شفة فى هذا المشهد ، واختم الكلام ، والله أعلم ![1]

* * *

هكذا كان الشاعر الكبير عبد الرحمن الجامى مباشراً فى حديثه عن حادثة الإسراء والمعراج حيث جاء نظمه متسقًا مع ما ذكرته كتب السيرة المحمدية ، أما فريد الدين العطار ، فقد استلهم حادثة المعراج ونظم قصة رمزية تعبر عن عروج الخلق إلى الله عز وجل ، وترفعهم عن دنيا هذه الحياة الأرضية وتطلعهم إلى الارتقاء إلى السموات العلا ، أملاً فى الحظوة بالقبول لدى الخالق البارئ ، ولكن بعد أن تتطهر الأبدان والأرواح من كل العلائق الدنيوية والآثام والخطايا ، كل هذا فى أسلوب قصصى رفيع وعرض أدبى شيق فى كتابه الشهير منطق الطير والذى يعد أفضل كتاب فارسى فى هذا المضمار !

---

(١) لمعرفة المزيد عما نظمه الجامى فى هذا المضمار يرجى الرجوع إلى الترجمة العربية لمنظومة يوسف وزليخا المنشورة بمجلة أخبار الأدب العدد ٣٩ وما بعده ، أما نص الأبيات نقلا عن نسخة ١٣٤٧ هـ . ق ، ص ١١ ، فهو :

بديد آغ ازحد ديدن برون بود — مپرس از ماز كيفيت كه چون بود
ز چندى گنجد آنجا ونه چونى — فروبند ازيكى لب وز فزونى
شنيد آنكه كلامى نه بآواز — معانى در معانى راز در راز
نه آگاهى از آن كام وزبان را — نه همراهى بآن نطق وبيان را
٥ - نه دركش گوش جان را بادور مشت — زحرفش دست دل را گونه انگشت
- ز گفتن برتراست واز شنيدن — زبان زين گفتگو بايد بريدن
- منه جامى ز حد خود برون پاى — وزين درياى جان فرسا برون آى
- درين مشهد ز گويائى مزن دم — سخن را ختم كن ، والله أعلم

منظومة منطق الطير لفريد الدين العطار(١)

تعد منظومة منطق الطير أعظم وأشهر منظومات الشاعر فريد الدين العطار ، ولا يمكن أن يذكر اسم العطار إلا وتذكر منظومته منطق الطير معه ، حتى أصبح فريد الدين العطار علمًا على منطق الطير ، وأصبح منطق الطير علمًا على فريد الدين العطار .

وقد أخذ فريد الدين العطار عنوان منظومته من القرآن الكريم ، حيث قال الله تعالى في سورة النمل : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ».(٢)

وهكذا عنون العطار منظومته بعنوان قرآني ، كما أنه جعل أبطال منظومته جميعًا من الطير ؛ حيث أنطق الطيور وتحدث كل منها بلسانه ، وهذا أمر مستمد كذلك من القرآن الكريم ، وقد أفاد العطار في هذا المضمار من قصة سيدنا سليمان عليه السلام وحديثه مع الطير ، وفهمه للغة الحيوان عندما أدرك ما قالته النملة محذرة جماعة النمل من أن تطأهم بالأقدام جيوش سليمان من إنس وحيوان وجن ، حيث قال الله تعالى :حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ(٣) .

كما أنطق الله سبحانه وتعالى الهدهد ، حيث قال موجهًا حديثه إلى سليمان عليه السلام : «فقال : أحطت بما لم تحط به ، وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ»(٤) .

---

(١) لمعرفة المزيد عن منظومة منطق الطير يرجى الرجوع إلى الترجمة العربية التي قام بها الدكتور بديع محمد جمعة في إحدى طبعاتها الخمس بالقاهرة وبيروت ، أو للأصل الفارسي للمنظومة ، نسخة باريس ١٨٥٧ م ، أو أصفهان ١٣١٩ هـ ، ١٣٢٤ هـ ، أو نسخة طهران : ١٣٤٧ ش .

(٢) سورة النمل ، آية : ١٦ .

(٣) سورة النمل ، آية : ١٨ ، ١٩ .

(٤) سورة النمل ، آية : ٤١ .

إلى غير هذه الآيات التى أنطقت الطير ، بإذن الله ، وبذلك وجد العطار فى القرآن الكريم مادة صالحة لمنظومته منطق الطير .

وإذا كان العطار قد أنطق الطير بدلاً من الإنسان ، وجعلها تسعى جاهدة فى مسيرتها نحو الله سبحانه وتعالى وتقربها منه ، فهذا ليس بغريب ، فإن جميع مخلوقات الله تسبح بحمده ، وكل صنف له تسبيحه ، حيث قال تعالى :

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ»(١) .

ومن الجدير بالذكر أن فريد الدين العطار قد أنهى نظم هذه القصة المعراجية عام ٥٨٣ هـ ، على أرجح الأقوال ، وقد بلغ عدد أبياتها ٤٦٤٧ بيتًا ، وقدم للمنظومة بمقدمة تقليدية شملت الحمد والثناء لله عز وجل ونعت الرسول الكريم ومدح الخلفاء الراشدين ، وقد سبق إيراد بعض الشواهد من هذه المقدمة خلال الفصل الثانى الخاص بالحمد والنعت ومدح الخلفاء .

كما يجب الاعتراف بأن فريد الدين العطار قد نظم قصته هذه متأثرًا فى ذلك إلى جانب القصص القرآنى ، برسالة صغيرة لأبى حامد الغزالى عنوانها رسالة الطير(٢) وهى مؤلفة باللغة العربية ، وفيها تحدث الغزالى عن رحلة معراجية للطيور وصولاً إلى الحقيقة ، فأخذ العطار هذه الرسالة الصغيرة والتى لا تزيد عن ست أو سبع صفحات ونظمها فى رحلة طويلة بلغ عدد أبياتها ما يزيد عن الأربعة آلاف وخمسمائة بيت كما سبق القول(٣) .

---

(١) سورة النور ، آية : ٤١ .

(٢) الجواهر الغوالى من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزالى ، القاهرة ١٩٣٤ م ص ١٤٣ - ١٥١ .

(٣) لمزيد من المعلومات يرجى الرجوع إلى منطق الطير ، الترجمة العربية .

ولكن كيف عالج العطار رحلته المعراجية ؟

اجتمعت طيور العالم جميعًا ، ما كان منها معروفًا وما هو غير معروف ، وقالوا جميعًا فى هذا العصر وذاك الأوان لا تخلو مدينة قط من ملك أو سلطان ، فكيف يخلو عالمنا من ملك؟ ربما لو يساعد بعضنا البعض ؛ لتمكنا من السعى فى طلب هذا الملك، لأنه إذا خلا إقليم من الملك ، فما بقى فيه نظام أو استتباب لدى الجند !

سارعت جميع الطيور إلى الاجتماع بحثًا عن ملك أو سلطان ينظم الأمور ، وأقبل الهدهد مضطربًا لكثرة الانتظار ، أقبل بين الجميع لا يقر له قرار ، وقال : أيتها الطير ؛ إننى بلا أدنى ريب رسول الغيب ، جئت وقد فطرت على أن أكون صاحب أسرار ، جئت ولا صلة لى بأى إنسان ، إذ عندما أكون مشغولاً بالملك ، فإنه لا يمكن أن يصيبنى من الجند أى ألم ، إننى تحدثت مع سليمان كثيرًا ، فلا جرم أن أكون مقدمًا على الجميع ، لقد حملت رسالته ورجعت إليه ثانية ، كما أطلعنى على أسراره الخفية ... لقد سافرت كثيراً مع سليمان ، كما جبت عرصات العالم ، وأظن أننى عرفت ملكنا ، ولكننى لا أستطيع السير إليه وحدى ، فإذا صحبتمونى فى سفرتى ، أصبحتم أصفياء ذلك الملك ، فهيا اطرحوا عنكم معرة الغرور والهوى وتخلصوا كذلك من آلام كفركم وهمومه .. إن لنا مليكًا بلا ريب هو منا قريب ونحن منه جد بعيدين ، وليس لفرد فى كلا العالمين مقدرة حتى يحيط بشىء من كنهه ، إنه الملك المطلق ، .. ولكن كيف يطير الفهم إلى حيث يوجد؟ وكيف يصل العلم والعقل إلى حيث يوجد؟ لا طريق إليه ، حتى ولو كثر المشتاقون من الخلق إليه ، وإذا كان وصفه بعيداً عن قدرة الروح الطاهرة نفسها ، فليس للعقل قوة على إدراكه ، وإذا كانت الروح تحار فى إدراك صفاته ، فأنى للعقل أن يدرك ذاته ؟ ولسلوك الطريق إليه تلزم الشجاعة والتضحية بالروح ، فليكن كل منكم شبيهًا بالرجال كى ينثر روحه الغالية تقربًا إلى الله عز وجل !

وعندما عرفت الطير عزة هذا السلطان ، لم يعد يقر لها قرار فى هذا المكان ، وبدأ الشوق يؤتى ثماره فى أرواحهم ، وعزموا على المسير ، ولكن سرعان مادب الضعف (الإنسانى) فى كل واحد ، وحاول الكثيرون منهم تقديم مختلف الأعذار خوفًا من عدم القدرة على مواصلة الرحلة المعراجية نحو المليك الأكبر .

وقد تحدث العطار عن العديد من الأعذار الواهية التى يسوقها المتقاعسون عن المسير ، وهذه الأعذار هى التى يرددها عادة أولئك الذين لا يخلصون العبادة لله عز وجل ، وتكون أعذارهم مجرد حجج واهية يحاولون بها تبرير تقصيرهم وبعدهم عن طريق الإيمان الخالص لله تعالى ، فمنهم من يعتذر – كالبلبل – بأنه لا يستطيع مفارقة الوردة الحبيبة إلى نفسه ، شأنه فى ذلك شأن المتيم بمعشوقة آدمية تشغله عن الإيمان الخالص وعن أداء العبادات أداء صحيحًا ، ومنهم من يعتذر بسبب قربه – كالطاووس – من الملك ، فلا يستطيع أن يغادر قصر السلطان بعد أن تعود على هداياه وعطاياه ، وهذا شبيه بمن يتقرب من ملوك الأرض مهما كانوا على غير صلاح ، ناسيًا أن المليك الأعظم هو الله عز وجل ، وهو الأولى بأن يتقرب العبد إليه إيمانًا وتسليمًا واعترافًا بجميل أفضاله التى لا تعد ولا تحصى .

إلى غير ذلك من الأعذار التى ساقها العطار على ألسنة الطير ، وكان العطار فى كل مرة يفند زيف هذه الأعذار وضلال أصحابها وضعف إيمانهم ، وذلك عن طريق الهدهد الذى كان يمثل حادى الطريق ، والذى كان يبصّر كل معتذر بخطأ مسلكه وضعف حجته ، وقد عبر العطار عن هذه الأعذار ورفضها بما ترجمته :

بعد ذلك توالت الطيور ، واحدًا واحدًا ، لتقدم أعذار واهية ، وقد قدم كل طائر عذرًا يقطر جهلاً ، وما قال أحدهم عذرًا لائقًا ، بل قال الكل هراءً وهزلاً ، لذا لن أسرد عليك أعذارهم عذرًا عذرًا .. ومن كان عذره واهيًا ، أنَّى له الوصول إلى هذا المليك ؟ أما من يفضل المليك على روحه ، فإنه يخاطر بالروح كالرجال من أجله !

بعد أن سمعت الطيور كلام الهدهد وتفنيده لأعذارهم الواهية ، تولدت لديهم الرغبة فى المسير إلى المليك الأعظم فقد عادوا جميعًا متحابين ، وبدا بينهم الوفاق ، ولكى يواصلوا الرحلة لابد لهم من معرفة رسومها، فطلبوا من الهدهد أن يعتلى المنبر كى يجيب على استفساراتهم وأسئلتهم ، حتى يكون مسيرهم عن بصيرة واقتناع !

وما أن اعتلى الهدهد المنبر ، حتى توالت أسئلة الطير ، جلبًا لمزيد من المعرفة ودرءًا للعديد من الشبهات ، وحتى يكون المسير على بينة وعزم أكيد .

ومن بين ما سألوا الهدهد عنه ، هل المسير إلى المليك مرتبط بالقوة البدنية ، فقال بل مرتبط بقوة العزيمة وبذل الروح مهما كانت الأجساد والأبدان هزيلة نحيلة ، كما سأله آخر بأنه ارتكب العديد من الآثام ، فكيف يستطيع السير بهذه الآثام والخطايا ، فأخبره بأن الله عز وجل قابل التوب ، رافع الآثام ما دامت التوبة صادرة عن قلب صادق ونية أكيدة .

وبعد أن توالت الأسئلة وتوالت إجابات الهدهد عليها ، بدأت الرحلة وطارت جميع الطيور صغيرها وكبيرها وكلها أمل فى الوصول إلى الغاية المنشودة ، ولكن بعد فترة من المسير ، بدأ ضعاف الإيمان يتساقطون طائرًا طائرًا ، وتقل الأعداد تدريجيًا ، وبعد أن كانت أعداد الطيور تصل إلى مئات الألوف لم يصل إلى نهاية الرحلة إلا ثلاثون طائرًا فقط هم الذين أخلصوا النيات وأكدوا العزم وتحملوا الآلام مضحين بأرواحهم ونفوسهم ، وتخلوا عن كل ملذات الدنيا ، أملاً فى الظفر برضاء الله عز وجل والوصول إلى حيث يوجد المليك الأعظم .

وما أن وصلوا حتى طلبوا المثول أما المليك الأعظم ، ولكن قيل لهم هيهات ، هيهات أن يتم لكم المثول فى حضرته! ، فقالوا لقد جئنا ليكون مليكًا علينا ، فقال لهم حاجب الحضرة: أيها العجزة ، إن تكونوا أو لاتكونوا فهو السلطان المطلق الدائم ، ومائة ألف عالم مليئة بالجند والحشم ، ليست إلا نملة على باب هذا السلطان الأعظم .

وأخيراً قدم حاجب الحضرة وثيقة للثلاثين طائراً ، وما أن رأت الطيور هذه الوثيقة حتى تملكهم الفزع ، إذ أن الوثيقة قد سجل فيها كل ما فعلوه ، وحين أمعنوا النظر وجدوا فيها كل ما ارتكبوه من أخطاء ، ولكن رحمة الله واسعة ، فقد شملهم بعطفه ومحا كل ذنوبهم ، وعفا عن كل ما ارتكبوه من المعاصى والآثام ، وتغمدهم بواسع رحمته وعظيم عطفه ، وتقبلهم فى فسيح جناته .

* * *

إلى هنا تنتهى هذه القصة المعراجية ، والتى نظمها العطار بتأثير من ثقافته الدينية ، فاختياره اسم المنظومة مأخوذ من سورة النمل ، وكذلك تحريكه للطير ومنها القدرة على الكلام مستمدة من قصة سليمان عليه السلام مع الطير ، كما أن إدراك الطير بالفطرة بأن لهم مليكاً لا بد من السير إليه لكى تستقيم الحياة ، وأنه لا حياة لأى جماعة دون مليك ينظم شئونهم ، هى نفس الفطرة التى حركت وهدت سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله وحده بعد أن رفض عبادة القمر أو الشمس وأدرك أن الحياة لا يمكن أن تستقيم إلا بوجود هذا الإله المدبر لأمور الكون كله ، وقد قال الله عز وجل فى محكم تنزيله وذلك على لسان إبراهيم عليه السلام : «إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً»[1] وقال تعال : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون»[2] وقال تعالى : «فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله»[3] وهكذا أراد العطار أن يدعو الناس إلى أن يعودوا إلى فطرتهم التى فطرهم الله عليها ، وهنا سيكون الإيمان والصلاح، والتقوى، لأن الفطرة السليمة متجهة صوب بارئها على الدوام .

(١) سورة الأنعام ، آية : ٧٩ .
(٢) سورة يس ، آية : ٢٢ .
(٣) سورة الروم ، آية : ٣٠ .

واختيار العطار للهدهد ليكون هادى الطريق بالنسبة لجماعة الطير ، وقد أطلق على نفسه تعبير (رسول الغيب) ، مستمد من القرآن أيضًا ؛ حيث حظى الهدهد بالذكر فى القرآن ويحمل رسالة سليمان إلى ملكة سبأ ، لذا فهو مقدم على جميع الطيور ، ويمكن أن يكون رمزًا لكل رسول أرسل لهداية الناس ، ويجب على الخلق السير على هدى رسالته .

وحديث العطار عن الصلة بين الخالق والمخلوق وقوله على لسان الهدهد : إن لنا مليكًا لا ريب هو منا قريب ونحن منه جد بعيدين ، يتفق والآية الكريمة : «لقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» .[١]

وعندما سأل طائر الهدهد بأنه أسرف على نفسه بكثرة الذنوب والمعاصى ، فهل سيقبل الله توبته ، أجاب الهدهد بالإيجاب وأن رحمة الله واسعة ، وأن الله يتقبل توبة التائبين ما داموا مخلصين فى توبتهم مهما كان حجم أخطائهم ومعاصيهم وهذا مصداق لقوله تعالى : «قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله». [٢]

وعندما وصلت الطير إلى الحضرة طلبوا المثول أمام الحق ، ولكن قيل لهم هيهات ! هيهات! هذه تذكرنا بمطلب موسى عليه السلام عندما طلب أن يرى الله فكان الرد عليه ماثلاً فى هذه الآية الكريمة : «قال ربى أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى»[٣]

هذه بعض الإشارات السريعة التى تضمنتها رحلة العطار المعراجية من خلال منظومته منطق الطير ، والتى صاغها قصة غاية فى الدقة ، فحازت اهتمامًا كبيرًا بين جميع المهتمين بالأدب الفارسى بخاصة ، والمهتمين بالفكر الإسلامى بعامة ، لذا أقدم الكثيرون على ترجمتها إلى العديد من اللغات الإسلامية والعربية بل إلى معظم لغات العالم شرقه وغربه[٤]

---

(١) سورة ق ، آية : ١٦ .

(٢) سورة الزمر ، آية : ٥٣ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٤٣ .

(٤) لمزيد من المعلومات ، يرجى الرجوع إلى الترجمة العربية لمنطق الطير ، إعداد : بديع جمعة .

الفصل الخامس

الأدب الأخلاقى

الأدب الأخلاقى

١ - الأخلاق فى كتب النثر الفارسى :

تعتبر الأخلاق الفاضلة أسمى أهداف الدين الإسلامى الحنيف ، ومن هنا بعث الله رسوله الكريم (ﷺ) ليعلم الناس الأخلاق الفاضلة ويهديهم سواء السبيل ، ووصفه جل وعلا بقوله : «وإنك لعلى خلق عظيم»(١)، فكان خلقه القرآن. وتعتبر القضايا الأخلاقية التى تناولها قدماء المفكرين فى مؤلفاتهم قبل ظهور الإسلام جزءًا يسيرًا بجانب ما قدمه القرآن الكريم والسنة النبوية ، وقد قال الرسول الكريم عن نفسه : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ، وقال أيضًا : «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق»(٢). وقد فجر الإسلام وتعاليمه السامية ينابيع الفكر والحضارة فى كل الشعوب التى دخلت فيه ، فبرز كثير من المفكرين يؤلفون الكتب وينظمون الشعر فى موضوع الأخلاق المستمدة من تعاليم الإسلام ، ومن هؤلاء الفرس الذين انقسمت مؤلفاتهم فى هذا الصدد إلى قسمين :

أ - مؤلفات تتناول الأخلاق فى ثناياها .

ب - مؤلفات تختص بالحديث عن الأخلاق .

ومن النوع الأول كتاب «قابوسنامه» (مؤلف سنة ٤٦٢هـ) وهو كتاب فى النصيحة

---

(١) سورة القلم ، آية ٤ .

(٢) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين - أبو زكريا يحيى بن شرف النووى - مكتبة التراث الإسلامة - سوريا - حلب . ص ٢٧٣ .

ألفه الأمير عنصر المعالى كيكاوس بن إسكندر بن وشمكر بن زيار ، ويشتمل على أربعة وأربعين بابًا يعالج المؤلف فى كل منها موضوعًا خاصًا ، وتتضمن بعض أبوابه نصائح ذات طابع دينى يوجهها المؤلف لابنه گيلا نشاه ، ومن ذلك الباب الخامس فى معرفة حق الوالدين ، والباب الثانى والعشرون عن الأمانة والباب الرابع والأربعون عن المروءة ، ومن خلال أبواب الكتاب نجد مجموعة كبيرة من الأخبار والحكم والحكايات التمثيلية والآيات القرانية والأحاديث النبوية وأبيات الشعر التى استعان بها المؤلف على تقوية عبارته وتوضيح فكرته .

نماذج من كتاب "قابوسنامه"

النموذج الأول : فى خلق الأنبياء ورسالتهم(١)

«اعلم يا بنى أن الله تعالى ما خلق هذه الدنيا من أجل حاجته ولا خلقها عبثًا، بل فطرها على موجب العدل ، وزينها على اقتضاء الحكمة ، لأنه علم أن الوجود خير من العدم ، والكون خير من الفساد والزيادة خير من النقصان ، والحسن خير من القبح ، وكان على كليهما قادرًا وبهما عالمًا ، ولم يعمل ما لا يليق أن يكون ، أو كان على خلاف علمه ، وعمل فى ميقات ، وكان ما عمله على موجب العدل ، ولم يكن من الجائز أن يكون على موجب الجهل ، فجاء وضعه على مقتضى الحكمة ، حيث صوره على أبدع ما كان . كذلك كان قادرًا على أن يعطى الضوء بغير الشمس والمطر بغير السحاب ، ويركب الأشياء بغير الطبائع ويوجد التأثير بالخير والشر فى العالم بغير النجوم ، ولكنه لما كان الأمر على أساس الحكمة ، لم يوجد شيئًا بغير الواسطة وصير الواسطة سبب الكون والفساد ، لأنه إذا زالت الواسطة زال شرف الترتيب ومنزلته وإذا لم يكن الترتيب لم يكن النظام ولا بد للفعل من نظام ولا بد أيضًا من واسطة ، فأوجد الواسطة كذلك ليكون ثمة قاهر ومقهور ، ورازق ومرزوق ، وهذه الإثنينية شاهد على وحدانية الله تعالى ، ولما كنت ترى الواسطة ولا ترى الغرض ، فإياك أن تنظر إلى الواسطة أو ترى القليل أو الكثير من الواسطة بل من رب الواسطة ، فإذا لم تنبت الأرض ، فلا تضع الغرم على الأرض ، وإذا لم ينصف النجم فلا تضع الغرم على النجم ، فإن النجم يعرف عن الإنصاف والجور بقدر ما تعرف الأرض عن الإنبات ، وكما أن الأرض ليس لها القدرة على أن تبذر فيها البذر الطيب فتنبت الخبيث ، فإن

(١) ترجمة كتاب قابوسنامه - الباب الثانى ص ٥٢ - تعريب محمد صادق نشأت والدكتور أمين عبد المجيد بدوى - القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨ م .

للنجم هذا الحكم عينه ولا يستطيع عمل الخير والشر ، ولما كانت الدنيا قد زينت بالحكمة كان لا بد للمزينة من التزيين. فانظر فى هذه الدنيا لترى زينتها من النبات والحيوان والمأكولات والملبوسات وأنواع الطيبات ، إذ كل هذه زينة قد أوجدت بموجب الحكمة. كما يقول فى كتابه (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهم إلا بالحق)، فإذا عرفت أن الله لم يخلق نعمة فى هذه الدنيا عبثًا ، فمن العبث أن لا يؤدى حق النعمة والرزق ، وحق الرزق أن تعطيه للمرزوق ، ولما كان العدل كذلك ، فقد خلق الناس ليأكلوا ، ولما أوجد الناس ، كان تمام النعمة ، وكان لابد للناس من سياسة وترتيب ، والسياسة والترتيب بغير إرشاد طريقان مبتسران ، لأن كل مرزوق يأكل من رزقه بغير ترتيب وعدل ، لا يعرف شكر الرازق ، ويكون هذا عيب الرازق إذا أعطى الرزق للجاهلين الجاحدين ولما كان الرازق منزهًا عن العيب ، لم يترك المرزوق جاهلا ، كما ذكر فى كتابه (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فأرسل الأنبياء بين الناس فعلموهم أسلوب المعرفة وطريق الارتزاق ، وأداء شكر الرزق ، لكى يكون خلق الدنيا بالعدل ، وتمام العدل بالحكمة ، وتمام الحكمة بالنعمة وتمام النعمة بالمرزوقين ، وتمام المرزوقين بالأنبياء الهادين ، إذ لا يجوز نقصان شىء من هذا الترتيب ، ليكون إرشادًا حقًا ، فإذا نظرت من ناحية العقل فإن كثيراً من الحرم والفضائل التى للمرزوق بسبب النعمة والرزق تستوجب أن يعرف حق هاديه ، ويشر رازقه ، ويعترف بحق رسله ويتبعهم ، ويعتقد صدق الأنبياء جميعًا ، من آدم إلى نبينا (ﷺ) ، وأن يكون مطيعًا فى الدين ولا يقصر فى شكر المنعم ويراعى حق فرائض الدين ليكون حميد الذكر ومحمودًا » .(١)

---

(١)

در آفرينش پيغمبران ورسالت ايشان

بدان اى پسر كه ايزد تعالى اين جهانرا نه از بهر نياز خويش آفريد ونه بر خيره آفريد بلكه بر موجب عدل آفريد وبيار است بر موجب حكمت چون دانست كه هستى به از نيستى وكون به از فساد وزيادت به از نقصان ونيكو به از ز شت وبر هر دو نوع توانا ودانا بود وآنچه نشايد بود نكرد وبر خلاف دانش خود نكرد وبهنگام كرد وآنچه كرد بر موجب عدل بود بر موجب جهل نشايد كه بود پس نهادش بر موجب حكمت امد تا چنانكه زيبا تر بود بنكاشت چنانكه توانا بود كه بى آفتاب روشنائى وبى ابر باران دادى وبى طبايع تركيب كردى وبى ستاره تاثير نيك وبد در عالم پديد آوردى ، اما اچون كار بر موجب حكمت بود بى واسطه هيچ =

النموذج الثاني : في معرفة حق الوالدين(١) .

«اعلم يا بني أن الخالق حين أراد عمارة الدنيا ، أوجد أسباب النسل ، وصير شهوة الوالدين البهيمية سبب وجود الأبناء ، فأداء حقهما واجب على الأبناء بموجب الوجود . إياك أن تقول أي حق للوالدين علي؟ لقد كان غرضهما الشهوة ، ولم أكن أنا المقصود . فإن لهما فضلاً عن الشهوة شفقة بالغة ، وقد احتملوا كثيراً ، وأقل حق الأبوين أنهما الواسطة بينك وبين خالقك ، فينبغي بقدر احترامك لخالقك أن تحترم الواسطة احتراماً يليق بهما ، والوليد ما دام صغيراً لا يحرم من حق الإرشاد وحب

= پيدانكرد واسطه را سبب كون فساد گردانيد زيرا چون واسطه نيز لابد پس واسطه نيز پديد كرد تا يكى قامر بود ويكى مقهور ويكى روزى خوار ويكى روزى ده ، اين دوئى بر يكى بودن ايزد تعالى گواه است. پس چون تو واسطه بيني وغرض نه بيني نگر تا بواسطة ننگرى وكم وبيش از واسطه نه بينى از خداوند واسطه بينى واگر زمين از بر دادن چون زمين را نتواند نمودن چون جهان بحكمت اراسته شد آراسته را از دينت دادن لابد بود ، پس نگر در ين جهان تا دينت بينى از نبات وحيوان وخورشها وپوششها وانوا ع خوبى كه اين همه زينت است از موحب حكمت پديد كرده چنانكه در كتاب خود ميفرمايد. ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق. چون دانستى كه ايزد در جهان هيچ نعمتى به بيهوده نيافريد بيهوده آن باشد كه داد نعمت وروزى ناه داده ماند وداد روزى آنست كه بروزى خوار دهى چون داد چنين بود مردم آفريد تا بخورند چون مردم پديد كرد تمامى نعمت بمردم بود ومردم را لابدست از سياست وترتيب زى رهنمائى خام بود كه هر روزى خوارى كه روزى بى ترتيب وعدل خوردى بى رهنمائى خام بود كه هر روزى خوارى كه روزى بى ترتيب وعدل خورد ياد كرده است : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ودر ميان مردم پيغمبران فرستاد تا راه دانش وترتيب روزى خوردن وشكر روزى گذاردن بمردم آموختند تا آفرينش جهان بعدل باشد وتمامى عدل بحكمت وتمامى حكمت بنعمت وتمامى نعمت بروزى خواره وتمامى روزى خواره به پيغامبران راهنماى كه ازين ترتيب هيچ كم نشايد تا بحقيقت راهنمائى باشد پس چون از سر خرد نگرى چندان حرمت وفضليت كه روزى خواره را بنعمت وروزيست واجب كند كه حق راهنمائى خوش بشناسد واز روزى ده خويش منت دارد وفرستادگان أو را حق شناس باشد ودست بديشان زند وهمه پيغامبران را براست گونى داند از آدم تا پيغامبر ما محمد صلعم وفرمانبر دار باشد در دين وشكر منعم تقصير نكند وحق فرايض دين نگاه دارد تا نيكنام وستوده باشد.

(قابوسنامه - امير عنصر المعالى كيكاووس بن اسكندر بن قابوس بن وشمگير زيارى - زير نظر على حصورى - مهرماه ١٣٤٣ ص ١١) .

(١) ترجمة كتاب قابوسنامه - الباب الخامس - ص ٦٠ .

الأبوين والله عز وجل يدعوهما بأولى الأمر. وكذلك قرأت فى التفسير أن أولى الآمر - على قول - هم الآباء والأمهات ، إذ أن حقيقة الأمر فى العربية اثنان ، الأمر والعمل كلاهما ، وأولوا الأمر يكون لهم الأمر والقدرة على السواء ، وللأبوين قدرة فى تربيتك وأمر فى تهذيبك .

أى بنى لا تستهن بإيلام قلب أبويك ، فإن الخالق عز اسمه يأخذ بحق الوالدين ويقال إنهم سألوا أمير المؤمنين عليًا رضى الله عنه عن حق الوالدين فقال : إنه هذا الأدب الذى جعله الله تعالى فى موت أبو النبى (ﷺ) ، فقالوا : ما هو؟ قال إنهما لو أدركا زمن النبى (ﷺ) ، لكان لزامًا عليه أن يقدمهما على نفسه ، وأن يتواضع لهما ويراعى آداب النبوة. ومن ثم كان يأتى هذا الكلام ضعيفًا حيث قال (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) فإذا لم تنظر إلى الأبوين من وجهة الدين فانظر إليهما من وجهة إنسانيتك ، إذ أن الأبوين سبب خيرك وأصل تربيتك ، وعندما تقصر فى حقهما فإنه يتضح كذلك أنك لست أهلاً لأى خير ، لأن من لا يعرف حق إحسان الأصل لا يعرف قدرًا لإحسان الفرع أيضًا ، وكيف يكون من الخير الإحسان إلى غير الشاكرين؟ فلا تطلب أنت كذلك خير نفسك وكن مع والديك كما تطمع من أولادك ، لأن من يولد لك يطمع فى نفس ما تطمع فيه من أبيك ، إذ مثل الآدمى كمثل الفاكهة والأبوين كالشجرة ، فكلما أثرت تعهد الشجرة آتت ثمرًا أطيب ، وكلما زدت تكريم أبويك كان دعاؤهما وابتهالهما من أجلك سريع الإجابة ، وكنت أقرب إلى رضا الله عز وجل ، وإياك أن تتمنى موت الأبوين ، لأن الرزق مقسوم وكل إنسان يصل إليه ما يكون قد قسم له فى الأزل ، ولا تشق على نفسك كثيرًا من أجل رزقك ، لأن الرزق لا يزيد بالسعى ، فقد قيل (الرزق بالجد لا بالكد) وإذا أردت أن تكون راضيًا عن الله عز وجل من أجل الرزق فانظر فى الصباح إلى من يكون حاله أسوأ من حالك لترضى دائمًا عن الله عز وجل ، وإذا كنت فقيرًا فى المال فاجتهد فى أن تكون غنيًا بالعقل لأن العقل خير من الغنى ، إذ يمكن تدبير المال بالعقل ، ولا يمكن تكوين العقل بالمال ، والجاهل يفلس سريعًا من المال ، ومال العاقل لا يستطيع اللص أن يسرقه ، ولا يستطيع الماء والنار أن يهلكاه ، فإذا ملكت

العقل ، فتعلم الفضل ، لأن العقل بغير الفضل كرجل بغير ثياب ، وشخص بغير صورة ، وجسم بغير روح ، وقد قيل (الأدب صورة العقل)[1] .

---

(۱) باب پنجم

در شناختن حق مادر وپدر

بدان ای پسر که آفرید گار چون خواست که جهانرا آبادان دارد أسباب نسل پدید کرد وشهوت جانور پدر ومادر را سبب وجود فرزند گردانید پس بموجب وجود فرزند واجب است بجای آوردن حث ایشان وتا نگونی پدر ومادر را بر من چه حق است ایشانرا غرض شهوت بود ومقصود نه من بودم که بیرون از شهوت ایشان را بسیار شفقت است وبسیار تحمل کرده اند حق کمتر مادر وپدر آنست که واسطه اندر میان تو وافریدگار تو پس باید که همچندانکه آفریدگار خود را حرمت داری واسطه را در خورد آن حرمت دار وفرزند مادام که خورد باشد از حق راه نمودن واز مهر مادر وپدر خالی نباشد وخدای عز وجل اینها را أولو الأمر میگوید وبیك قول در تفسیر چنین خوانده ام که اولو الأمر مادران وپدران اند که حقیقت امر بتازی دواست هم فرمانست وهم کارست واولو الأمر آن بود که اورا هم فرمان بود وهم توان وپدر ومادر را توانست به پروردن تو وفرمان است به نیکی آموختن تو . ای پسر رنج دل مادر وپدر خوار مدار که آفریدگار عز إسمه بحق پدر ومادر بگیرد ، میگویند که از امیر المؤمنین علی رضی الله عنه از حق مادر وپدر پرسیدند گفت نوع فرمود که اگر ایشان روزگار پیغمبر صلعم در یافتندی بر پیغمبر صلعم واجب بودی ایشان را برتر از خود نشاندن وتواضع کردن وفرزندی بنمودن آنگاه این سخن ضعیف آمدی که گفت : أنا سید ولد آدم ولا فخر . پس پدر ومادر را اگر روی دین ننگری از روی مردمی خود نگر که پدر ومادر سبب نیکی واصل پرورش تواند چون در حق ایشان مقصر باشی چنان نماید که تو سزای هیچ نیکی کردن از خیرگی باشد تو نیز خیر خود مجوی وبا پدر ومادر خود چنان باش که از فرزندان خود طمع داری زیرا که آنکه از تو زاید همان طمع داری که تو از پدر داری که مثل آدمی چون مثل میوه است ومادر وپدر چون درخت هر چند درخت را تعهد بیشتر کنی میوه نیکوتر دهد چون مادر وپدر را آزرم بیشتر داری دعا وآفرین ایشان در حق تو زود مستجاب گردد وبخو شنودی خدای عز وجل نزدیکتر باشی وزینهار که از جهت میراث مرگ پدر نخواهی که بی مرگ مادر وپدر آنچه روزی تو بود بتو رسد که روزی مقسومست بهر کس آن رسد که در ازل قسمت شده است تو از بهر روزی خود رنج بر خود بسیار منهع که بکوشش روزی افزون نگردد که گفته اند : الرزق بالجد لا بالكد . واگر خواهی که از بهر روزی از خدای عز وجل خوشنود باشی بامداد بکسی نگر که حال او از حال تو بتر باشد تا دایم از خدای عز وجل خوشنود باشی بامداد بکسی نگر که حال او از حال تو بتر باشد تا دایم از خدای عز وجل خوشنود باشی اگر بمال درویش باشی در آن کوش تا بخرد توانگر باشی که خرد از توانگری بهر باشد که بخرد مال توان ساخت وازمال خرد نتوان ساخت وجاهل از مال زود مفلس شود ومال خرمند دراز نتواند برد وآب وآتش هلاك نتواند کرد پس اگر خرد داری هنر آموز که خرد بی هنر چنان باشد که مردی بی جامه وشخصی بی صورت وکالبدی بوی بی جان وگفته اند الأدب صورة العقل .

(قابوسنامه ص ۱۹) .

هذه المعـانى التى أوردهـا المؤلف فى هـذا البـاب مـأخـوذة جـمـيـعـهـا من تعـاليم الإسـلام الحنيف الذى يحض المسلم على بر الوالدين وطـاعتهمـا والإحسان إليـهمـا ، لا لكونهمـا سبب وجوده فحسب ، أو لكونهما قدمـا له من الجميل والمعروف ما وجب معه مكافـأتهمـا بالمثل ، بل لأن الله عز وجل أوجب طـاعـتـهـمـا ، وكتب عن الولد برهـمـا والإحسان إليهما حتى قرن ذلك بحقه الواجب له من عبادته وحده دون غيره فقال عز وجل «وقـضى ربك ألا تعبـدوا إلا إياه وبالوالدين إحـسـانا ، إمـا يبلغن عندك الكبـر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريمًا ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرًا» (الإسراء ٢٣ ، ٢٤) .

وقـال سـبـحـانه وتعـالى : «ووصينا الإنسـان بوالديه حـملتـه أمـه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير» (لقمان ١٤) .

وهناك من الأحاديث النبوية الشريفة الكثير الذي يحض فيه الرسول (ﷺ) على بر الوالدين ، ويعتبر عقوق الوالدين من أكبر الكبائر عندما قال : «ألا أنبئكم بأكبر الكبـائر ؟ قالوا : بلى يا رسـول الله ، قـال إلا الشـرك بالله ، وعقـوق الوالدين ، وكـان متكئًا فجلس وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور...»[١]

والمعروف أن الدين الإسـلامى يهدى إلى الأخلاق الفضلى والمثل العليا ، ومـحـور هذه الفـضـائل هو التقـوى التى تشـمـل طاعة الله تعـالى والرغبـة فى ثوابه ، وخشـيتـه سبحانه والخوف من عقابه ، ولاشك أن من يتقى ربه يحبه ويطيعه ويعمل مـا يسـتـحق عليه ثوابه ويكف عمـا ينزل به عقابه. ولن يكون التـقى إلا كريمًا شـجـاعًا عـادلاً أمينًا عفيفًا صـادقًا وفيًا رحيمًا غيورًا ، متحليًا بكل فضيله مبرأ من الجبن والبخل والفـجور والغدر والكذب ومن كل رذيلة .

ولقـد شـغـف النبى (ﷺ)، بمكارم الأخـلاق ، وكـان القرآن منـهل أخـلاقه ، وكـان يقول فى دعائه «اللهم كما حسنت خلقى ، اللهم جنبنى منكرات الأخلاق ، اللهم اهدنى لأحسن الأخـلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت». وكان لايفتأ يحض المسلمين على التحلى

(١) انظر كتاب "منهاج المسلم" لأبى بكر جابر الجزائرى - المدينة المنورة ١٣٨٤ هـ ، ص ٩٩ .

بالفضائل ، وينفرهم من الرذائل ، وله فى هذا أحاديث كثيرة ، منها قوله : «إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا ، الموطأون أكنافًا ، الذين يألفون ويؤلفون». وقوله:«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق». وسئل أى الأعمال أفضل؟ قال: خلق حسن. وقيل له : أى المؤمنين أفضل إيمانًا؟ قال : أحسنهم خلقًا[1] .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «ما من شيء أثقل فى ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء»[2] .

وهكذا نرى أن الرسول (ﷺ) قد حث المسلمين على التحلى بالخلق الحسن ، وبين لهم ما ينتظر صاحب الخلق الحسن وما ينتظر صاحب الخلق السيئ فى الآخرة. - كتاب «كلستان» والأخلاق :

ومن الكتب التى تناولت الأخلاق فى ثناياها أيضًا كتاب «كلستان» أو الروضة ، الذى ألفه سعدى الشيرازى أحد النجوم اللامعة فى سماء الأدب الفارسى (متوفى ٦٩٤هـ) ، ويتناول الشاعر فى أبواب الكتاب الثمانية : سيرة الملوك وأخلاق الفقراء ، وفضل القناعة ، وفوائد السكوت ، والضعف والشيخوخة ، والتربية وآداب الصحبة ، وغير ذلك . والكتاب بصفة عامة عبارة عن مجموعة من الحكايات النثرية التى أضفى عليها مؤلفها مثلاً أخلاقية وحكمًا عملية ، ومزجها بأبيات من الشعر الفارسى والعربى والحكم والأمثال والآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ومن نماذجه الباب الثالث فى فضل القناعة والذى يقول فيه :[3]

حكاية : كان سائل مغربى ينادى فى سوق البزازين بحلب : يا أرباب النعمة لو أنكم كنتم منصفين وكنا نحن قانعين لارتفع رسم السؤال من الدنيا .

(١) انظر كتاب "من أخلاق النبى" تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى - القاهرة ١٩٩٤م - ١٤١٤ هـ ، ص ٣٥ - ٦٢ .

(٢) رياض الصالحين ، ص ٢٧٣ .

(٣) الترجمة العربية لكتاب "كلستان" ص ١٣٣ - ترجمة محمد الفراتى - دمشق ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م .

قطعة

دعـــوتك ياكنز القناعـــة فـــاغننى   أيا بلســـمًــا مـــا مـــثله لكليم

قـد اختـار كنز الصبـر لقمـان حكمـة   فـمن ليس ذا صـبـر فـغـيـر حكيم

حكاية : كان فى مصر ولدا أميرعكف أحدهما على طلب العلم والآخر على جمع المال ، فذاك أصبح علامة الدهر وهذا صار عزيز مصر ، وكان الغنى ينظر إلى الفقير بعين الاحتقار ويقول : أنا وصلت إلى السلطنة وأنت بقيت فى الذل والمسكنة ، قال له الفقير : أيها الأخ هذه نعمة من الله تعالى يجب علىَّ شكرها حيث وجدت ميراث الأنبياء - يعنى العلم - ووجدت أنت ميراث فرعون وهامان ، يعنى ملك مصر .

قطعة

كـنـملة أنـا تـؤذى وهـى غـــــافـلـة   ولم أكن عـقـربًا تؤذى فـتـنجـحـر

فـكـيـف لـى أن أوفـى شـكـر ربى نـعـم   إن لم أطق حـمل مـا تـؤذى به البـشـر

حكاية : سمعت أن درويشًا احترق بنار الفاقة وخاط ثوبه خرقة على خرقة ، وكان على الدوام يسلى نفسه بهذا البيت :

بالدلق مع يابس الخبز اقتنع أبدًا   وأجمل جفاك ولا تحمل جدا بشر

فقال له شخص : ما قعودك على ما أنت فيه وفلان فى هذه البلدة ذو طبع كريم وفضل عميم قد شد وسطه لخدمة الأحرار وجلس على باب إرادتهم ، فلو اطّلَعَ على حقيقة حالك لما تأخر عن مراعاة خاطرك العزيز قبل سؤالك ، فقال له : اسكت فإن الموت بالفقدان خير من عرض الحاجة أمام إنسان لأنهم قالوا :

قطعة

خط رقـعـة فـوق أخـرى إن عـريت ولا   تـخط يومًـــا لملك رقـــعــــة أبدا

فكالجـــحـــيم عـــقـــابًا لا نظيـــر له   بأن تمد لجـــار فـى النـعـــيم يدًا

حكاية : ورد فى سيرة أردشير بن بابك أنه سأل طبيبًا عربيًا : ما مقدار الطعام الذى يلزم للتغذية فى اليوم الواحد ، فقال الطبيب : يكفى وزن مائة درهم ، فقال أردشير : هذا المقدار ماذا يعطى من القوة فأجابه الطبيب : هذا المقدار يحملك ومازاد على ذلك فأنت حامله .

حكاية : نهى أحد الحكماء ابنه عن كثرة الأكل قائلا : إن الشبع يوقع الإنسان بالمرض ، فقال الولد : والجوع يا أبت يهلك ، ألم تسمع قول الظرفاء : الموت بالشبع خير من الحياة بالجوع ، فقال الأب : حسنا ولكن تمسك بالاعتدال كما قال الله تعالى : (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) .

قطعة

أشــــهى المآكل مما قـــد تـســـر بـه ... لو زاد عن حـــده يؤذيك من جـــشع
يضــرك العــسل الماذى مــتــخــمــا ... ويابس الخـــبـــز لا يؤذى بلا شـــبع

حكاية : قال ناس لحاتم الطائى : أرايت أو سمعت بمن هو أعلى منك همة فى هذه الدنيا ، فقال : نعم ، نحرت يومًا أربعين جملاً وخرجت إلى البادية لأدعو أمراء العرب ، فرأيت حاطبًا يحمل على ظهره حزمة شوك يريد بها المدينة فقلت له : لماذا لم تذهب إلى ضيافة حاتم فإن خلقًا كثيرًا قد التفُّوا حول مائدته فالتفت إلى وأنشد :

أرى كل من بالكدح يـــــدرك خبـزه ... فليــس بمحتـــــاج لمنـــة حـــــاتم

فالحق أقول لقد رأيت الرجل أعلى منى همة وأكرم ....»[١]

---

(١) در فضيلت قناعت
حكايت
خواهندهء مغربى در صف بزازان حلب ميگفت ايخداوندان نعمت اگر شمارا انصاف بودى وما را قناعت رسم سؤال از جهان برخاستى .

اى قناعت تـوانگـرم گردان ... كـه وراى تو هيـــچ نعمت نيست
كنج صبـر اختيار لقمانست ... هر كرا صبر نيست حكمت نيست

ومن الكتب التى كتبت فى الأخلاق أيضًا كتاب «تحفة الملوك» ، وهو يتضمن بالإضافة إلى الأخلاق موضوعات أدبية وتاريخية كثيرة ، إلا أن مؤلفه مجهول ، ويوجد من هذا الكتاب نسختان خطيتان إحداهما فى المتحف البريطانى ضمن مجموعة مؤرخة بتاريخ ٧٦١ والأخرى بمكتبة ليدن ، وطبع هذا الكتاب فى طهران عام ١٣١٧ هـ . ش وحققه سيد حسن تقى زاده معتمداً على النسخة الأولى ، وقد ذكر فى مقدمته على الكتاب أنه ألف عام ٦١٨ هـ .

أما عن أسلوب الكتاب فهو فى غاية التناسب ، وقد اعتمد المؤلف على كثير من أشعار الشعراء القدامى والأمثال ، وخاصة من منظومة كليلة ودمنة للشاعر الرودكى

=

حكايت

دو امير زاده در مصر بودند يكى علم آموخت وديگرى مال اندوخت عاقبت الأمر آن يكى علامه مصر گشت واين يكى عزيز مصر شد پس اين توانگر بچشم حقارت از فقيه نظر كردى وگفتى من بسلطنت رسيدم واين همچنان در مسكنت بمانده است گفت اى برادر شكر نعمت بارى عز اسمه همچنان افزونتراست بر من كه ميراث پيغمبران يافتم يعنى علم وتو ميراث فرعون وهامان يعنى ملك مصر .

من آن مورم كه در پايم بمالند — نه زنبورم كه از دستم بنالند

كجا خود شكر اين نعمت گذارم — كه زور مردم آزارى ندارم

حكايت

درويش را شنيدم كه در آتش فاقه ميسوخت وخرقه بر خرقه هميد وخت وتسكين خاطر مسكين را هميگفت :

بنان خشك قناعت كنيم وكامهء دلق — كه بار محنت خود به كه بارمنت خلق

كسى گفتش چه نشينى كه فلان در اين شهر طبعى كريم دارد كرمى عميم ميان بخدمت آزادگان بسته وبر دردلها نشسته اگر بر صورت حال تو چنانكه هست مطلع گردد وپاس خاطر عزيزان منت دارد ، گفت خاموش كه در پستى مردن به كه حاجت پيش كسى بردن.

هم رقعه دوختن به والزام گنج صبر — كز بهر جامه رقعه براى خدايگان نبشت

حقا كه با عقوبت دوزخ برابر است — رفتن بپايمردى همسايه در بهشت

ومنظومة «آفرين نامه» للشاعر أبى شكور البلخى ، وشاهنامة الفردوسى وغير ذلك من المنظومات[1].

ومن نماذج ما جاء فى هذا الكتاب حديث المؤلف عن العلم وأهميته ودور العلماء فى نصيحة الملوك والأمراء ، يقول تحت عنوان «مدح العلم» :

«يعرف أهل الدنيا أن العلم هو أفضل الأشياء .. ويقول الرودكى فى منظومة كليلة ودمنة. شعر :

– منذ أن خلق الله الدنيا من عهد آدم ، لم يكن هناك من يستغنى عن العلم .

– والعقلاء فى كل زمن ، يسعون لمعرفة أسرار العلم بأى لغة .

– فالعلم فى القلب كالمصباح المضىء ، وهو حماية لك من كل سوء .

– وقال أنو شيروان العادل : العلم فى مقدمة كل المحاسن ، والشرف الكبير يتأتى من العلم ، وسعيد الحظ من كان العالم صديقًا له . شعر :

حكايت

یکی از حکما پسر را نهی کرداز بسیار خوردن که سیری مردم را رجور کند گفت ای پدر کرسنگی خلق بکشد نشنیده ای که ظریفان گفته اند بسیری مردن به که گرسنگی بردن گفت اندازه نگه دار : (کلوا واشربوا ولا تسرفوا) .

نه چندان بخـور کز دهـانت براید	نه چندان که از ضعـف جانت بر آید
با آنکه در وجود طعامست حظ نفس	رنج آورد طعـام کـه بیش از قدر بود
کر گلشکر خوری بتقلب زیان کنـد	وز نان خشك دیر خوری گلشکر بود

حكايت

حاتم طائی را گفتند : از خود بزرگ همت در جهان دیده ای یا شنیده ای. گفت : بلی روزی چهل شتر قربان کرده بودم امرای عرب راپس بگوشه، صحرانی بحاجتی برون رفته بودم خارکنی را رسیدم پشته فراهم أورده کفتمش بمهمانی حاتم چرا نروی که خلقی بر سمات او گرد آمده اند گفت :

هـر که نان از عمل خویش خورد	منت از حـاتـم طـائـی نبـرد

من اورا وجوا نمردی از خود دیرم

(کلیات شیخ سعدی ص ۱۲۳ ومابعدها) .

(۱) کنجینه، – تألیف دکتر ذبیح الله صفا – جلد سوم – تهران ۱۳۵۲ ، ص ٢٦٤ وما بعدها .

- يقول العاقل إن التأييد والعظمة ، يلا زمان الناس بالعلم وليس بالذهب .

- وعندما يكون العالم رجلاً كريماً ، فإن الشرف يسعى إليه بكل تأكيد .

وقال منو چهر : إن العلم كالمصباح المضىء ، ورغم أنهم يشعلون منه مصابيح كثيرة إلا أن هذا لا ينقص من ضوئه . وقال الصينيون : إن العلم زينة الدين والدنيا ، وكل الأشياء تقل قيمتها عندما تكثر ، إلا العلم فإنه كلما زاد كلما زادت قيمته.

حكاية : أمر سليمان عليه السلام الرياح بأن تحمل عرشه وتهبط به على بوابة مدينة كتب على بابها : إن أجر سعى يوم درهم واحد ، ومكافأة الوقت الحسن مائة درهم ، وعلم ساعة واحدة لا يقدر بثمن .

وقال بطليموس : إن العلم فى مقدمة كل الآراء والتدابير ، وقالوا إنه إذا لم يكن للعلم فضل وشرف كبير لما نفذ أمر العلماء على الخاصة والعامة والدماء والأموال بهذه الصورة ، ولما بقى اسم العلماء مكرما فى الدنيا ، ولما أخذ الملوك بآراء أهل العلم وأفكارهم .

يقول أبو شكور : شعر .

- مع أن الأصل رفيع ، إلا أنه لا يعلو على العلم ،

وإنما أصبح الأصل عزيزاً بسبب العلم .

وقال الحكماء : إن العلم معين للمرء فى الشدائد ، ورفيق ومعاون ومظاهر له عند العجز .

حكاية : كان حديث العلم مفيداً إلى حد أن الخليفة المعتصم كان قد غضب على أهل مدينة البصرة ، وقاد جيشه ووصل من بغداد إلى أبواب البصرة وأراد الإغارة عليها ، فخرج شيوخ البصرة وأعادوا شراء البصرة بثلاثمائة ألف دينار ، ولم يرض الخليفة . وكان فى البصرة عالم يدعى عبد الرازق صنعانى ، ومن مشاهير علماء

ذلك العصر ، وكان نديمًا لهارون الرشيد ؛ فذهب إلى الخليفة المعتصم وتشفع عنده ، فلم يستجب له ، وقال : اخرج من البصرة أنت ورجالك والتحق بمعسكرنا لتنجو. فقال العالم : يا أمير المؤمنين ، لقد قضيت فى هذه المدينة عشرين عامًا ، وكنت مع سكانها فى وقت الراحة والأمان ، ولا أستطيع الآن الانفصال عنهم فى وقت الشدة . شعر :

– كل من يساعد صديقه ، لا بد أن يكون صديقًا له حتى لو كان كافرًا .

– فعند الشدة يمكن معرفة الصديق ، بينما يوجد فى وقت السعادة مائة ألف .

ونهض ليعود أدراجه ، وكان من جملة مريديه شاب عالم يتسم بإمارات الطيبة ويدعى (حريف) ، فنهض وقال : يا أمير المؤمنين أعف عنهم ، لأنك لو ندمت على عدم معاقبتهم ، فسيكون ذلك دليلاً على أن لديك القدرة على العقاب وتلافيه ، أما إذا عاقبتهم وندمت بعد ذلك على عدم عفوك عنهم ، فلن يفيد الندم ، ولن يتيسر لك ذلك ، لأنهم قالوا : أربعة أشياء لا يمكن الرجوع عنها : قول الكلام ، ورمى السهام ، والحزن على ما مضى وما جرى به القضاء ؛ فأثر هذا الكلام فى المعتصم لأنه كان كلامًا عظيمًا صدر من عالم ، وخلع على ذلك الشاب ، وعفى عن أهل البصرة .

وهكذا كان كلام العلماء مفيدًا . شعر :

– كل من يقضى الزمن فى العلم ، لن يضيع وقته هباء ولا وقت معلمه ،

– إذ يمكن فهم الدنيا بالعلم ، ويمكن حل الأمور بواسطته .

ويقول بقراط : إن ثمرة العلم هى أنه يرفع منزلة المرء الذى يحصله. وقال الهنود : من لا يكون العلم شعارًا ودثارًا له ، يكون فى منزلة العوام . وقال شهربان (أحد حكماء إيران القدماء) : إن العلم كالمطر المنهمر ، إذا طلبته لا بد وأن يمطر عليك ذات يوم. شعر:

– اجتهد حتى تصبح عالمًا بسرعة ، لأنك عندما تصبح عالمًا تصير عظيمًا .

– فليس الأكثر رفعة هو الأكثر علمًا ، بل الأكثر علمًا هو الأكثر رفعة ،

– ألا ترى الملوك على ما لهم من عروش ومكانة ، يستفسرون من العلماء عن الطرق ،

– ومهما عمروا وبقوا فى أماكنهم ، لا يستغنون عن العلماء دومًا ..

حكاية : قدم السلطان ملكشاه إلى نيشابور ، وقد مضى من شهر رمضان تسعة أيام . وكان المسئولون فى الولاية قد غفلوا عن استطلاع رؤية الهلال ، وذهبوا عند بعض العظماء وأخبروهم أنهم رأوا الهلال ، وأطلعت جماعة فى الخدمة الخاصة السلطان على أنه يجب أن يكون العيد غدًا ، فلما صدر الأمر من السلطان سار مناد فى مدينة نيشابور ينادى بأن السلطان يأمركم بأن تعودوا غدًا. فأخبروا الإمام أبا المعالى الذى كان قدوة عصره ، فسار مناد ينادى فى المدينة بأن أبا المعالى يقول بأنه سوف يصوم غدًا ، وكل من يأخذ بفتواه لابد أن يصوم غدًا ، فأوصل المغرضون هذا الكلام بصورة سيئة إلى السلطان ، وقالوا إن أبا المعالى يخالفك ، ولا شك أن الناس سيعملون بفتواه أكثر مما يعملون بما يقوله مناديك ، وسوف يضر هذا بنظام المملكة ، فتغير السلطان ملكشاه – رحمة الله عليه – تغيرًا كبيرًا ، ولكنه كان حسن العقيدة ، يخشى الله ، ويكن احترامًا كبيرًا لأهل العلم. ومع ذلك فقد تغير فكره ، وأمر بعض خاصته قائلاً : إذهبوا واستدعوا أبا المعالى بلطف وأدب . فقالوا : أيها السلطان ، أتحترمه بعد ما فعل من إهانة أمرك ؟ فقال السلطان : طالما أننى لم أسمع كلامه ، فلا يمكننى انتهاك حرمة أهل العلم بناء على كلام الآخرين .

وعندما استدعوا أبا المعالى نهض ولبس عمامته التى كان يرتديها فى المنزل ولبس حذاءه وجاء إلى قصر السلطان . فعندما رأوه وقد ارتدى هذه العمامة الصغيرة، ولم يربط حذاءه. قالوا للسلطان : أبا المعالى لم يقتنع بتنفيذ أوامرك، وزاد فى عناده

الآن لأن الذهاب إلى الملوك على هذا النحو نوع من قلة الأدب. فغضب السلطان من ذلك ، وأرسل الأمير الحاجب يعاتبه على مجيئة بهذه الملابس وهذا الحذاء. فرفع أبو المعالى صوته قائلاً : لا بد أن يستمع السلطان إلى كلامى ، فالأمير الحاجب لن يفهم الكلام جيداً . وعندما أذن له قال : إعلم يا سلطان الإسلام أننى أصلى بهذه الملابس ، والملابس التى تليق بالوقوف بين يدى الله عز وجل تليق بالوقوف بين يدى السلطان أيضًا. إلا أن أهل الدنيا وسلاطين الزمان قد سنوا سنة وقاعدة بألا يذهب أحد إلى الملوك والسلاطين على هذه الشاكلة، وقد أردت الحفاظ على هذه العادة ، إلا أنه عندما وصل إلى أمر السلطان وكنت أجلس بهذه الملابس خشيت إذا ما قمت بتغيير ملابسى أن يكتب اسمى فى صحيفة المتأخرين الذين يعصون السلطان ، وإذا كنت جالسًا مرتدياً سروالاً لجئت به حتى لا تكتب الملائكة أن أبا المعالى قد قصر فى طاعة السلطان . فسر السلطان من هذا الكلام ، وقال له : إذا كانت طاعة السلطان واجبة بهذه الكيفية فلماذا فعلت خلاف ما نادى به المنادى؟ فقال أبو المعالى : يجب علينا أن نطيع كل الأوامر التى تصدر عن السلطان ، ولكن ما يتعلق بالفتوى لا بد أن يسأل فيه السلاطين العلماء ، وهل تطابق أوامرهم حكم الشرع أم لا ، وأما بالنسبة للصيام والعيد ، فهذا أمر يتعلق بالفتوى لا بالأوامر السلطانية. وعندما سمع السلطان ملكشاه رحمه الله هذا الكلام ، أعاد أبا المعالى إلى منزله معززًا مكرمًا. بيت :

- عندما يطهى الشىء المر يصير حلوًا .

- وبالعلم يصبح الكلام مليئًا بالجواهر .

* * *

ومن الذين كتبوا عن الأخلاق أيضًا فى الفارسية نذكر سراج الدين أبا الثنا محمود بن أبى بكر بن أحمد الأرموى من علماء وكتاب القرن السابع الهجرى المعروفين . ولد الأرموى عام ٥٩٤هـ فى مدينة أورمية (رضائية الحالية)، ودرس بها ثم انتقل إلى الموصل ثم دمشق وعاش بهما فترة، ثم انتقل إلى آسيا الصغرى حيث كان يحكم السلاجقة واختار العيش فى مدينة قونية ، وأصبح قاضى القضاة بها ، وكان

يقوم بالتدريس كذلك. واحتل مكانة بارزة لدى عز الدين كيكاوس الثانى (متوفى ٦٥٥ هـ) وركن الدين قلج أرسلان الرابع (متوفى ٦٦٦هـ) وغياث الدين كيخسرو الثالث (متوفى ٦٨٢هـ) ، ولهذا الكاتب مؤلفات باللغة العربية والفارسية فى المنطق والحكمة والفقه والتفسير والحديث والأخلاق ، ومن أهمها كتابان بالفارسية أحدهما يسمى «لطائف الحكمة» والثانى يسمى «مجمل الحكمة» ، والكتاب الثانى ترجمة وتلخيص لرسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، وقد توفى المؤلف عام ٦٨٢ هـ فى مدينة قونية.[1]

ومن نماذج ما كتبه فى كتابه «لطائف الحكمة» ما جاء تحت عنوان «حسن الخلق» يقول فيه : «إعلم أن العاقل يجب أن تكون أفعاله وأخلاقه مطابقة لمصلحة نفسه ومصلحة العالم. وذلك يتحقق بالإسراع إلى عمل كل فعل مستحسن واجتناب كل فعل مستقبح ، وأيضًا بالتحلى بكل خلق مستحسن حتى يصبح ملكًا لأخلاقه كالحلم والسخاء والمروءة والإنصاف وما شابه ذلك ، والبعد عن كل خلق ردئ مستقبح حتى يثبت فى ذاته ما يقابله من أخلاق حسنة بقدر الإمكان. وكلما فعل ذلك يكون حكمه على ذاته عادلاً ، وتتحقق المصلحة الشخصية ومصلحة العالم المنوطة به» .

ويقسم المؤلف حسن الأفعال والأخلاق وقبحها إلى ثلاثة أقسام هى :

«القسم الأول : وفيه يكون حسن وقبح الأفعال والأخلاق ظاهرًا مثل حسن العلم وقبح الجهل ، وحسن العدل وقبح الظلم ، وحسن الصدق النافع وقبح الكذب الضار ، إذ أن الناس جميعًا يعلمون أن العلم والعدل والصدق النافع أمور حسنة ، وأن الجهل والظلم والكذب الضار أمور قبيحة .

القسم الثانى : وفيه يكون حسن وقبح الأفعال والأخلاق ليس ظاهرًا ، إلا أن العاقل يمكنه إدراك حسنها وقبحها عن طريق النظر والتفكير مثل حسن الصدق الضار وقبح الكذب النافع ، لأن كل واحد منهما يشتمل على وجه من وجوه القبح ،

(١) كنجينه، سخن - جلد پنجم - ص ١ وما بعدها.

فالصدق حسن من جهة أنه صدق ، وهو قبيح من جهة أنه ضار ، والكذب النافع قبيح من جهة أنه كذب ، وهو حسن من جهة أنه نافع . ومن ثم فإن العاقل عندما يدقق النظر يرى أن جهة الحسن ترجح على جهة القبح ، فيحكم بحسنه ويمارسه ، وإذا رجح جانب القبح على جانب الحسن يحكم بقبحه ويتجنبه .

القسم الثالث : وفيه يكون حسن الأفعال والأخلاق وقبحها ليس ظاهراً ، ولا يتمكن العاقل من معرفة حسنها وقبحها ، بينما يعرف الشرع حسنها وقبحها مثل حسن صوم آخر يوم فى رمضان وقبح صوم أول يوم من شوال ، ذلك أن اليومين متصلين ببعضها ، ومتساويين فى الماهية الزمانية ، ولكن عندما أوجب الشرع صوم اليوم الأخير من رمضان وحرم صيام اليوم الأول من شوال ، أصبح معلومًا أن ذلك حسن وهذا قبيح .

وإذا كانت هذه المقدمة قد فهمت فإننا نقول : إعلم أن كل ما جاء به الشرع فهو حسن ، وكل ما منعه الشرع فهو قبيح . والشرع لا يمنع مطلقًا ما يحكم العقل بحسنه ، إلا إذا كان شيئًا له وجهان : وجه حسن وآخر قبيح .. واعلم أن الأفعال المكلفة طبقًا لأحكام الشرع خمسة أقسام : الواجب ، والمحرم ، والمندوب ، والمكروه ، والمباح .

ويرى المؤلف أن الخلق على قسمين : أولهما الخلق الحسن ، وثانيهما الخلق السيئ. وتصدر الأفعال الحسنة عن الخلق الطيب ، وتصدر الأفعال السيئة عن الخلق السيئ. ويعرف الخلق بأنه «هيئة راسخة ثابتة فى النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة دون حاجة للتفكير ، ويكمن مبدأ الأخلاق فى أربع قوى هى : قوة العقل ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل .

وهذه القوى الأربع هى أصل جميع الأخلاق الحسنة والسيئة ، ونتيجة كمال قوة العقل تكون الحكمة ، ونتيجة كمال قوة الغضب تكون الشجاعة ، ونتيجة كمال قوة الشهوة تكون العفة ، وكل من تتوفر فيه الحكمة والشجاعة والعفة والعدل يكون قريبًا

من درجة الملائكة ، وبعيداً عن منزلة الشياطين ، وبقدر ما يبتعد الإنسان عن منزلة الملائكة بقدر ما يقترب من «منزلة الشياطين» .

ويذكر المؤلف عدة براهين على حسن الخلق ، منها ما جاء فى القرآن الكريم فى معرض الثناء على الرسول (ﷺ) فى قوله تعالى : «وإنك لعلى خلق عظيم». وقول المصطفى (ﷺ) : أثقل ما يوضع فى الميزان خلق حسن. وقوله عليه الصلاة والسلام: «سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» . وقوله أيضًا : إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق. وقوله أيضًا : إن أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا .

ويذكر المؤلف من هذه البراهين أيضًا ما قاله لقمان الحكيم عندما سأله ابنه : أى الخصال أفضل ؟ فقال له : الدين ، فقال : فإن كانت خصلتان. قال : الدين والمال. وقال : وإن كانت ثلاث خصال. قال : الدين والمال والحياء. قال : إن كانت الخصال خمس. قال : الدين والمال والحياء والخلق والسخاء قال : وإن كانت ست خصال ، قال: أى بنى ، من تجتمع فيه هذه الخصال الخمس فهو نقى تقى ، الله ولى ، من الشيطان برىء.(1)

ومن الذين كتبوا عن الأخلاق نذكر أيضًا «شجاع» ، وهو من كتاب القرن التاسع الهجرى ، وقد ألف كتابًا باسم «أنيس الناس» فى الأخلاق والآداب الاجتماعية ، مستفيداً فى ذلك من الكتب السابقة عليه فى هذا الصدد ، وذلك عام ٨٣٠ هـ ، وأهداه إلى أبى الفتح إبراهيم السلطان التيمورى الذى حكم فى فارس من عام ٨١٧ إلى عام ٨٣٨ ، ويعد نثر هذا الكتاب ضعيفًا فى المواضع التى لم ينقل فيها من كتب القدماء السابقين عليه.(2)

---

(1) انظر كتاب "گنجينه، سخن" – جلد پنجم ، ص ١ وما بعدها ، نقلا عن كتاب "لطائف الحكمة" ص ١٦٧ وما بعدها ، بتصحيح دكتر يوسفى – تهران ١٣٥١ .

(2) گنجينه، سخن – جلد پنجم – ص ١٨٨ وما بعدها .

ومن الموضوعات التى تناولها المؤلف فى كتابه موضوع اختيار الأصدقاء وضرورة أن يكون للإنسان أصدقاء ، يقول : «إعلم أنه طالما بقى الناس على قيد الحياة فلا مناص من أن يكون لهم أصدقاء ، فالإنسان الذى لا أخ له أفضل من الإنسان الذى لا صديق له. فقد سألوا حكيمًا : هل الأخ أفضل أم الصديق؟ قال : الأخ الصديق أفضل .

واعلم أن استحكام الأخوة والقرابة يكون بالصداقة ، كما هو الحال بالنسبة لاستحكام العقل بالتجربة ، واستحكام النسب بالحسب ، واستحكام العظمة بالكرم ، والأخ الذى يعمل لصالحه فقط ليس أخا ولا قريبًا» .

ثم ينصح المؤلف بمراعاة الأصدقاء وحسن التعامل معهم حتى تظل صداقتهم قائمة يقول : «وفكر فى حال الأصدقاء بمراعاة آداب المروءة والإنسانية ، فكل من لا يفكر فى الأصدقاء ، لن يفكر الأصدقاء فيه ، فيبقى بلا أصدقاء . ومن الأمثال قولهم : المرء بلا صديق سيئ الحظ».

ويدعو المؤلف الناس إلى كسب الأصدقاء وتحويل أنصاف الأصدقاء إلى أصدقاء كاملين ، وينصحهم بحسن الخلق معهم وتحملهم والصبر على أفعالهم ، حتى لا ينفروا منهم ، ويربط بين الخلق الحسن واستمرار الصداقة ، وبين الخلق السيئ وانتهائها وذلك من خلال أبيات من الشعر تقول :

- كل من أعطاه الله خلقًا حسنًا ، يكون من الأصدقاء حتى لو كان وحيدًا .

- وإذا اقترن الخلق السيئ بإنسان ، يكون وحيدًا حتى ، ولو كان مع الأصدقاء .

ويرى أن طبقات الناس لا تخلو من ثلاثة أنواع ؛ فإما أن يكونوا أصدقاء ، أو يكونوا لا أصدقاء ولا أعداء ، أو يكونوا أعداء . ويعتقد أن الصنف الأول لا غنى عنه كالأكل والشرب ، أما الصنف الثانى فيمكن الاستفادة منهم عند الحاجة ، أما الصنف الثالث فيجب اجتنابهم ، والبعد عنهم لأنهم يضمرون الشر والعداء . ويستشهد على

ذلك بقول الإسكندر عندما سألوه عن كيفية استيلائه على كل هذا الملك فى فترة قصيرة ، فأجاب : بجعل الأعداء أصدقاء باللطف واللين ، والحفاظ على الأصدقاء بالوفاء .

وينصح المؤلف أيضًا بعدم مصادقة من لا فضل ولا علم له ، لأن الفلاح لا يأتى من الصديق الجاهل ، ولا بد للإنسان من مصادقة الكريم والأصيل ، وعدم مصادقة اللئيم والسفيه .

ومن نصائحه كذلك التكبر مع السفلة وسيئ الأصل ، لأن التواضع معهم يجعلهم يتكبرون ، ويسيئون إلى الأصيل بدلاً من الإحسان إليه ، أما إذا احترم الإنسان من يتميز بالأصالة فإنه يزداد تواضعًا وإحسانًا .

كتاب "مكام الأخلاق" :

أما الكتب التى تناولت الأخلاق بصفة خاصة فنذكر فى مستهلها كتاب «مكارم الأخلاق» تأليف رضى الدين النيشابورى (متوفى ٥٩٨ هـ) ، وهو من علماء وشعراء أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجريين . ولرضى الدين ديوان شعر ، ويقال إنه كان ينشد الشعر بالعربية أيضًا . كما ورد فى كتاب «مكارم الأخلاق» أنه ألّف كتابًا آخر هو «روضة الوفاء» ، ويبدو من عنوانه أنه يتحدث فيه عن الوفاء ، فقد ذكر فى الباب الثامن والثلاثين أنه يكتفى بهذا القدر من الحديث عن الوفاء لأنه فصَّل فيه القول قبل ذلك فى كتاب «روضة الوفاء» .

يبدأ المؤلف كتابه ببيتين من الشعر هما :

الحمد لله حمداً يجلب النعما ويعترى من غوادى فضله الديما
ثم الصلاة على خير الورى شرفا محمد ظل يهدى نوره الأمما

ويضم الكتاب أربعين بابا ، تناول فيها المؤلف الموضوعات التالية : الكرم والخلق أقسام الخلق وما هيته – تطهر النفس من الأخلاق الذميمة واكتساب الخصال الحميدة

- السخاء والبخل - العزة والذلة والإيذاء والاستهزاء - البطالة والكسل - التواضع والتكبر - الثبات والتردد - الجد والجهد - الحياء - الحزم - الحقد والحسد - الخلف والوعد - الدناءة - وضدها - حفظ الغيب وذم الغيبة - الرحمة والقسوة - الصدق والكذب - الصمت وضده - الشجاعة والجبن - الصبر - الضرر والعناء - الطمع - العدل وضده - العتاب - العجب - العشق - العفو - العفة - الغضب والحلم - التفكر - الرفق وضده - القناعة - الشكر - والكفران - كتمان السر - اللعب واللهو - المشورة - السعاية والنميمة - الوفاء - الهداية - اليقين .

ويبدو أن المؤلف اقتبس اسم الكتاب من حديث الرسول (ﷺ) الذى أورده عند حديثه عن فضيلة الكرم والخلق وهو :«إن الله تعالى كريم يحب مكارم الأخلاق» أو قوله : «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

والكتاب مكتوب باللغة الفارسية ماعدا بعض الجمل والعبارات والأبيات التى ترد باللغة العربية ، بخلاف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال العربية. وقد ذكر المؤلف فى كتابه ما يقرب من ٣٣٦ بيتًا عربيًا ، كما تخللت بعض أبواب الكتاب أبيات من الشعر الفارسى يصل عددها إلى حوالى سبعين بيتًا فارسيًا . وقد يؤيد الكاتب وجهة نظره ببعض أقوال حكماء الفرس القدماء ، وقد يأتى ببعض أقوال حكماء اليونان أيضًا . ويدعم المؤلف رأيه دائمًا ببعض الحكايات ، وهذا الأسلوب معروف فى كل كتب الأخلاق والنصيحة الفارسية . وهو ينقل أحيانا قصصًا عربية أو بعض الحكايات التاريخية .

أما عن الأسلوب الذى اتبعه المؤلف بصفة عامة فى عرض موضوعاته الأخلاقية فهو عادة يبدأ بتعريف الفضيلة التى يتناولها ويمدحها ، ثم يذكر آية قرآنية ثم حديثًا شريفًا يشيران إلى هذه الفضيلة . فمثلا عندما يتحدث عن الصبر يقول : الصبر هو الثبات على الامتناع عن المفسدة التى يثيرها الطمع ، وفضيلته كبيرة ، قال تعالى : «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» (الزمر ١٠) ، ويذكر بعد ذلك آية أخرى هى قوله تعالى : «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون»

(السجدة ٢٤) ، ثم يذكر حديثًا شريفًا هو قول الرسول (ﷺ) : « الصبر نصف الإيمان». ويأتى المؤلف بعد ذلك ببعض الحكايات التى تؤيد مقولته ، ويستشهد على ذلك بعدة أبيات من الشعر ، فيورد عن الصبر قول الشاعر :

الصبر أوله مر مذاقته   لكن آخره أحلى من العسل

وعاقبة الصبر الجميل جميلة   وأفضل أخلاق الرجال التفضل(١)

ثم يذكر فى ثنايا حديثه عن الصبر بيتين بالفارسية معناهما :

- إن قدر المرء ومكانته ليست بالادعاء ،

بل إن قيمته تكمن فى قدرته على الصبر

- ولربما رأيت فى المرء العلم والشوكة والبأس ،

ولكن عليك أن تعرفه من صبره .

وقد تأثرت بعض كتب الأخلاق بهذا الكتاب كثيرًا ، نذكر منها على سبيل المثال كتاب «أخلاق محسنى»(٢) لملا حسين واعظ الكاشفى السبزوارى (متوفى ٩١٠ هـ) وقد نقل مؤلفه كثيرًا من الحكايات والشواهد الشعرية من «مكارم الأخلاق» .

ولا شك أن كتاب «مكارم الأخلاق» اعتمد فى كل ما ذكره عن الأخلاق على تعاليم الدين الإسلامى ، واستند على ما جاء فى القرآن والسنة ، وما تشابه معها من أقوال القدماء ، ولم ينحُ فى كتابه منحىً فلسفيًا فى الأخلاق كما فعل غيره من كتاب الفرس.

---

(١) انظر كتاب مكارم الأخلاق ص ١٠٥ - رضى الدين الينشابورى - تهران ١٣٤١ .

نه بدعويست قدر وقيمت مرد   قيمت مرد صبر داند كرد

علم بينى وشوكت وبأس   ليك تو مرد را بصبر شناس

(٢) أخلاق محسنى - لكهنو - يوليو ١٩١٢ م - ١٣٣٠ هـ .

والمؤلف يقدم مكارم الأخلاق بأسلوب سهل مبسط بعيد عن التكلف والزخرف ، ويخلط ذلك بالحكايات التى تعبر عن المضامين الخلقية ، فلا يجد القارىء مللاً عند قراءته ، وهذا الأسلوب هو الذى اتبعه فى الفارسية كثير من كتاب كتب الأخلاق والنصائح والتربية .

نموذج من كتاب "مكارم الأخلاق" :

الباب الثالث والعشرون : فى العدل وضده

قال الله تعالى : «ألا لعنة الله على الظالمين» ، عندما أراد الله تعالى وصف الشرك بغاية القبح سماه بالظلم ، قال تعالى : «إن الشرك لظلم عظيم» .

لما كان أنوشيروان العادل - خفف الله عنه العذاب - عادلاً رغم كفره ، فإن أفضل خلق الله عليه الصلاة والسلام ذكره فقال :«ولدت فى زمن الملك العادل أنوشيروان» بيت :

- لا يوجد عمل أفضل من العدل فى العالم .

ولا نار لملك طالما كان عادلاً .

قال الله تعالى : «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» ، وقال أرباب الحقائق إن كل الشرائع متضمنة فى هذه الآية ، فإذا لم يرافق العدل الحماية ، أوقع أصحاب القوة والشوكة الدمار والأذى بضعفاء الخلق ، وعندما يهلك الضعفاء لن يبقى الأقوياء ، لأنهم ليسوا مستقلين فى معيشتهم .

وقد جاء فى الحديث النبوى : «الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم» .

عندما جاء نصر بن سيار إلى سمرقند ، أرسل ملك تركستان أمه ومعها الهدايا الكثيرة والتحف الوفيرة إلى نصر ، وطلب الصلح . فأجابه نصر إلى ذلك . وفى المجلس الذى حضرت فيه أم ملك تركستان جرى حديث على لسانها كانت كل عبارة

فيه واسطة عقد الحكم ، وختمته بقولها : «لا ملك إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالعمارة ، ولا عمارة إلا بالعدل والسياسة» .

وقال أحد الزهاد ينصح المنصور : إننى وصلت فى رحلاتى إلى بلاد الصين ، وكان ملك الصين قد فقد حاسة السمع ، فجمع الوزراء وقادة الجيش ، وأخذ يبكى إلى درجة جعلت الحاضرين لا يستطيعون الكف عن البكاء معه ، وأخذوا يواسونه بكل العبارات لمساندته ، فقال الملك : إننى أبكى على حاسة السمع ، العاقل يعلم أن الفناء هو عاقبة الوجود ، وأن خاتمة الحياة هى فتور القوى والحواس وضعفها ، أنا لا أبكى على فقدان بعضها ، ولكن أبكى لأن مظلومًا يصيح طالبًا للعدل ولا يصل صوت استغاثته إلى مسمعى ، ثم أمر مناديًا ينادى فى تلك الديار بأن يرتدى المظلومون أردية حمراء اللون حتى يتعرف عليهم وينصفهم .

عاد ملكشاه ذات مرة من الصيد إلى أصفهان ، ونزل في مزرعة تقع على أطراف قرية ، وعثر عدة غلمان فى أطراف تلك القرية على بقرة لم يستدل على مالكها وذبحوا البقرة وتناولوا جزءًا من لحمها ، وكانت تلك البقرة لعجوز تتقوت بلبنها هى وأربعة يتامى ، وعندما علمت العجوز بتلك الحادثة وقع مغشيًا عليها . شعر عربى :

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد.

فذهبت فى جوف الليل إلى جسر (زنده رود) حتى يمر ملكشاه فى الصباح من هناك ، وجلست تنتظر إلى أن وصل موكبه ، فقامت وأمسكت بعنان جواده وقالت : يا ابن ألب أرسلان ، إذا لم تنصفنى على جسر (زنده رود) فبجلال الله لن أتوانى عن مخاصمتك حتى آخذ حقى منك وأنت على الصراط ، فكر جيدًا أى الجسرين تختار. ولما كان حديث العجوز من أعماق قلبها المتألم ومؤثرًا ، فقد وقعت الهيبة فى قلب ملكشاه ، ودب فيه الخوف فقال : يا أماه ليست لدى القدرة على أداء ذلك على الصراط ، من ظلمك؟ حددى من هو حتى أعيد لك حقك ، قالت العجوز إن الظلم قد وقع على منك ، لأن ما يفعله غلمانك يضاف إلى أعمالك ويكون نتيجة غفلتك . فبكى

ملكشاه وأمر بأن يخصص لها فى الحال سبعون بقرة من طريق حلال بدلاً من تلك البقرة ، وعنف غلمانه وعاقبهم عقابًا شديداً .

وبعد أن انتقل ملكشاه من دار الفناء إلى دار البقاء ظلت العجوز على وفائها لحق إنعامه ، فاغتسلت فى منتصف الليل وصلت ركعتين وسجدت على الأرض وقالت تناجي ربها وعيناها تذرفان الدمع : ربى لما كان ابن ألب أرسلان قد أنصفنى وأقام العدل وأدى الفضل ، فتفضل عليه يا أكرم الأكرمين برحمتك .

والخلاصة أن حسن عاقبة الإنصاف غني عن الشرح ، وسوء عاقبة الظلم غنى عن البيان. يقول بزرجمهر : «لا تدع ظالمًا على ظلمه ، فإن ظلمه يكفيك ما تحبه ينزل به من عقوبة» ونعوذ بالله أن ترد دعوة مظلوم من الحضرة الإلهية ، قال عليه الصلاة والسلام : «اتقوا دعوة المظلوم فإنها لا ترد» **بيت عربى :**

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً	فالظلم آخره يأتيك بالندم
نامت عيونك والمظلوم منتبه	يدعو عليك وعين الله لم تنم

بيت :

- عندما يأتى اليوم الذى تكون فيه قادراً على أهل زمانك ،

انظر إلى العاقبة ، وقصر يد الظلم عنهم .

- ولا تمد يد الظلم بهذا القدر ، واعلم

أن الله لا يغلق بابه أمام دعوة مظلوم .

شعر عربى :

كنت الصحيح وكنا منك فى سقم	فإن مرضت فنحن السالمون غداً
دعت عليك القطان ما ظلمت	ولن ترد يداً مظلومة أبداً

ويقول أبو الفتح البستى : **شعر عربى**

يا ظالمًا مرحا بالعز ساعده	إن كنت فى سنة فالدهر يقظان

وجاء فى أمالى السيد الإمام الخطيب المدنى فى سمرقند أنه كان فى بلاد الصغد ظالم تأذى الناس من ظلمه وتعذبوا من تعديه عليهم. وعندما كثرت الشكوى من ظلمه وعدوانه على أعتاب الخالق عز اسمه ، وكان ينام ذات ليلة على سريره فوق سطح منزله ، إذ انطلق سهم ناحية صدره ونفذ من ظهره ، فمات. وفى اليوم التالى وجدوا كتابة على السهم تقول :

شعر عربى :

تبغى وللبغى سهام تنتظر ۝ دموع عينى باكيات فى السحر

أصابع المظلوم فى وقت السحر ۝ أنفذ فى الأضلاع من وخز الإبر

تلك سهام تتقى وتحتذر

شعر :

- تجاوز ظلمك للمسلمين الحد ،

إخشَ الله ، أى عدم إسلام هذا

- ليبعد الله شرّك عن الخلق ،

فليس لوجه الدنيا رونق فى وجودك .

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أمر بالعدل فى كثير من الآيات كقوله تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعًا بصيرًا» (النساء ٥٨)

كما حض الرسول (ﷺ) على العدل فقال : «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان» وقال : « الظلم ظلمات يوم القيامة ». وقال : «من أعان ظالمًا ليدحض بباطله حقًا

---

(١) انظر كتاب "من أخلاق النبى" ص ٩٧ وما بعدها .

باب بيست رسوم

در عدل وضد وى

فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله»[1] .

= قال الله تعالى: "ألا لعنة الله على الظالمين" چون آفريدگار تعالى خواست كه شرك را بنهايت قبح صفت كند ، اورا ظلم خواند ، قال الله تعالى : "إن الشرك لظلم عظيم" .
انو شيروان عادل خفف الله عنه العذاب ، باسمت كفر چون حليهء معدلت داشت ، مهتر عالم عليه السلام ازاو ياد كرد كه : "ولدت فى زمن الملك العادل انو شروان" .
بيت :
به از عدل كاندر كارنيست ملك را كه عادل بود نار نيست
قال الله تعالى : "إن الله يأمر بالعدل والإحسان "أرباب حقيقت گفته اند كه جملهء شرايع مضمون اين آيت است ، چه اگر حمايت معدلت نباشد" أرباب قوت وشوكت دمار از ضعفاء خلق بر آرند ، وچون ضعيف حالان هلاك شدند ، إقوياء برجاى بنمانند ، چه ايشان در معايش مستبد ومستقل خويش نيستند .
ودر لفظ نبوى (ص) آمده است : "الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم" .
وچون نصر بن سيار بسمرقند آمد ، ملك تركستان مادر خود را باهدا ياى بيشمار وتحفهء بسيار بحضرت نصر فرستاد ، وصلحى التماس كرد. ونصر آن التماس را باجابت پيش رفت. ودر مجلسى كه مادر ملك تركستان را بار فرموده بود ، سخنانى برزبان آنزن اتفاق مى افتاد كه هريك واسطت عقد حكم را شايد ، وخاتمت برين كلمة بود كه "لا ملك إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالعمارة ، ولا عمارة إلا بالعدل والسياسة "ملك بى لشكر تمهيد نيابد ، ولشكر رابى مال بر طاعت ملوك اجتماع نباشد ، ومال جزاز بلاد معمور حاصل نگردد ، وعمارت ولايت بى تاب آفتاب معدلت دست ندهد .
ويكى از زهاد در نصيحت منصور چنين گفت كه در اسفار خويش ببلاد چين رسيدم ، وملك چين را حس سامعه باطل شده بود ، وزراء ونقباء لشكر را جمع كرد ، وچنان زار گريست كه جملهء حاضران آب چشم را نتواستند ضبط كردن ، واز براى سلوت پادشاه هر نوع تعذيت وتقويت مى كردند. ملك گفت: بر حس سمع ميگريم ، خردمند خود داند كه عاقبت وجود فنا است ، وخاتمت زندگانى فتور قوى وحواس است ، بر بطلان بعضى نگويم ، بر آن ميگريم كه مظلومى داد خواه بر در فرياد كند ، وصداء استغاثت او بگوش من نرسد. پس منادى را فرمود كه در آن ديار ندا كردند كه جامهء سرخ جز مظلوم نپوشد ، تا بدان علامت برحال مظلومات إطلاع يابد ، وداد إيشان بدهد .
وملكشاه در سپاهان از شكار باز ميگشت ، در مرغزارى برلب ديهى نزول فرمود ، چندتن از غلامان خود بر حوالى آن ديه گاوى يافتند ، كه آن را حافظ وصاحب يدى معين نبود ، گاورا بذبح آوردند ، وپاره أى ازگوشت وى بكار بردند ، وان گاو أز آن گنده پيرى بود كه اورا باچهار يتيم بشيراو تعيش حاصل بود. چون گنده پيررا از آنواقعه خبرشد از خود بيخود گشت.
ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد
چگونه باشد حال كسى كه اورا يكى باشد ، وآن يك نيز از وى غائب شود.
در دل شب بسر پل زنده رود رفت ، كه بامداد گذر ملكشاه خواست بود. وچون آنجا بنشست ، منتظر مى بود ، تا ركاب دولتش برسيد ، برخاست وعنان اوروا بگرفت وگفت : اى پسر الب ارسلان ، اگرداد من بسرپل زنده رود ندهى ، بجلال آفريدگار كه بر سر پل صراط با انصاف خود از تو نستانم دست مخاصمت از دامن تو كوتاه كنم. نيك انديشه كن ، از اين دو سر پل كدام اختيار ميكنى؟ چون سخن پيرزن=

....

= ازدرد دل بود وسوز رقت ، مؤثر افتاد. باطن ملکشاه مستغرق هیبت این سخن شد ، وگفت زینهار ، ای مادر من ، طاقت جواب آن سر پل ندارم ، برتو که ظلم کرده است؟ تعیین کن ، تا انصاف بستانم . پیر زن گفت ظلم برمن تو کرده ای ، که هرچه بندگان تو کنند مضاف برتو باشد ، وثمرهء غفلت تو بود. ملکشاه بگریست وبفرمود: تا همان ساعت یکی ماده گاو را عفتاد گاو از حلالی ترین وجهی معین دادنده ، وغلامان را زجری عنیف وتعریکی بزرگ نمود .
وبعد آز آن بچند گاه چون از دارفنا بدار بقار حلت کرد ، پیر زن را حق انعام ملکشاه دامن گیر شد ، تانیم شب غسل بسنت بر آورد ، ودو رکعت نماز کرد ، پس رو/ی برخاك نهاد ودر مقام منا جات بأب دیده گفت : پاشاها ، پر ورد گارا. چون پسراالب ارسلان بالئیمی خویش در حق من بر عدل اقتصار نفر مود ، هم عدل اقامت نمود وهم فضل بجا آورد ، تو اکرم الأکرمین تفضل فرمای. بعد از آن یکی از در جملهء حسن عاقبت انصاف از شرح مستغنی است ، ووخامت سر انجام ظلم از بیانی بی نیاز.
وبزر جمهر میگوید : "لاتدع ظالما علی ظلمه ، فإن ظلمه یکفیك ما تحبه ینزل به من عقوبة". بر هیچ ظالم دعای بد مکن ، که ظلم أو بهر عقوبت که مراد تست اورا مبتلا کرده اند. ونعوذ بالله که دعای مظلوم از سرسوز بحضرت الهی برای انتصار رجوع کند. قال علیه السلام "اتقوا دعوة المظلوم فإنها لا ترد" بترسید ازدعای مظلوم ، که آن دعابر حضرت آفریدگار رد نیست.
بیت :

لا تظلمـــــن إذا ما کنت مقتـــدرا فالظلـــم آخـــره یأتیـــك بالنـــدم
تـــامـــت عیـــونك والمظلـــوم منتبـــه یدعـــو علیـــك وعین الله لـــم تنـــم

بیت :

روزی که دست یابی براهل روزگار در عاقبت نظر کن وکوتاه دار دست
دست ستم دراز مکن إینقـــدر بدان کایـــزد در اجابـــت مظلوم در نبست

شعر :

کنت الصحیح وکنـــا منك فی سقم فإن مرضـــت فنحن الســـالمون غدا
دعـــــت علیـــك القطـــان ما ظلمـــت ولـــن تـــرد یـــــد مظلومـــة أبـــدا

وأبو الفتح بستی گوید
شعر :

یـــا ظالمـــا مرحـــا بالـــعز ســـاعده إن کنت فی سنـــــة فالـــدهر یقظـــان

ودر أمالی خواجه امام خطیب مدتی نوشته آمده است در سمرقند باسناد که در سغد ظالمی بود خلایق از ظلم اودر رنج ، واز تعدی اودر عذاب. چون شکایت ظلم وعدوان أو بر درگاه آفرید گار عز إسمه بسیار شد ، شبی بر بام خویش بر تخت خفته بود ، تیری بیامد بر سینهء أو که پشت او نفوذ کرد ، ودر آن هلاك شد. روز دیگر دیدند بر آن تیرنوشته ،
شعر :

تبغـــی وللبغـــی سهـــام تنتظر دموع عینی باکیات فی السحر
أصابع المظلوم فی وقت السحر أنفذ فی الأضـلاع من وخذ الإبر
تلك ســـهـــام تتـــقی وتحـــتـــذر.

كتاب "أخلاق محتشمي"

ويأتي بعد هذا الكتاب كتابان آخران هما : «أخلاق محتشمي» و «أخلاق ناصري» لنصير الدين الطوسي (متوفى ٦٧٢ هـ - ١٢٧٣م) ، والكتابان يختلفان عن بعضهما من ناحية طريقة التأليف ؛ فالأول يتناول مكارم الأخلاق من وجهة نظر الآيات القرآنية وأخبار الرسول وأحاديثه وأفكار أئمة الإسماعيلية ودعاتها وأقوال الحكماء والعظماء ، والثاني يتناول الأخلاق من وجهة نظر الفلاسفة ، وقد كتبهما نصير الدين باسم ناصر الدين عبد الرحيم بن أبي منصور محتشم قهستان (متوفى ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧م) .

وننقل هنا نموذجًا من كتاب «أخلاق محتشمي» لنصير الدين الطوسي ، وهو في كل أبواب الكتاب الأربعين يتبع طريقة واحدة في حديثه عن الأخلاق وهي ذكر آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال للأئمة والحكماء حول كل موضوع من الموضوعات مع ترجمة فارسية لها ؛ ومثال ذلك باختصار ما جاء في الباب الرابع والعشرين في حسن الخلق ومكارم الأخلاق[1] :

١ - « وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » (فصلت ٣٤) .

ترجمة : ويكسان نباشد نيكي وبدى ، دفع بوجه أحسن كن : تا آنكس كه دشمن تو باشد مانند دوستى شود خويشاوند ، وتوفيق ندهد درين جز صابران را وخداوندان بهرهء تمام را .

=

= شعر :

كذشت ظلم تو زاندازه بر مسلمانان   زكر دكار بترس اين چه مسلمانا نيست

خداى شر تو از روى دفــع كناد   كه با وجود تو روى جهان بويرا نيست

(مكارم الأخلاق - طهران ١٣٤١ ص ١٢٥ - ١٣٠) .

٢ – ﴿قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذى﴾ (البقرة ٢٦٣) .

ترجمة : سخن نيكو وآمرزش گنا هی ، بهتر از صدقه ايست كه رنجانيدنی در عقب أو باشد .

٣ – ﴿والّذين يجتنبون كبائرَ الإثمِ والفواحش وإذا ما غضبوا هُمْ يغفرون﴾ (الشورى – ٣٧) .

ترجمة : در وصف مؤمنان ميفرمايد : وأنكسانی كه از گناههای بزرگ وزشتيها إجتناب كنند ، چون درخشم شوند عفو كنند .

٤ – ﴿يدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون (٥٤) وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم﴾ (القصص ٥٤ ، ٥٥) .

ترجمة : ودفع ميكنند بنيكی بدی را ، واز آنچه إيشان را روزی داده ايم نفقه ميكنند ، وچون نا فرجام شنوند از آن أعراض كنند گويند مارا ست عمل ما وشمارا عمل شما ، سلامت باد شمارا .

٥ – حسن الخلق نماء . لا حسب كحسن الخلق . إن أحسن الحسن الخلق الحسن . البر حسن الخلق . من سعادة المرء حسن الخلق .

ترجمة : خوی خوش سبب فزودن باشد. هيچ حسب وهنر چون خوی خوش نبود . بهترين چيزی خوی خوش بود . نيكويی خوش خوی است ، از نيكويی مرد باشد خوش خويی او .

٦ – تخلقوا بأخلاق الله ، إن أكثر الناس يدخلون الجنة بتقوى الله وحسن الخلق .

ترجمة : خلق خدا گيريد در كارها . بيشترين مردم را كه در بهشت برد پرهيزكاريست وخوش خوی .

٧ – إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم .

ترجمة : مرا فرستاده اند تا مكارم اخلاق باتمام رسانم ، وآن را بكمال برم . شما نتوانيد كه با مردان بمالها نيكوئى كنيد ، پس بايشان نيكويى كنيد بأخلاق خويش .

٨ - لا تجلسوا على ظهور الطرق ، فإن أبيتم فغضوا الأبصار ، وردوا السلام ، واهدوا بأخلاق الضالة ، وأعينوا الضعيف .

ترجمة : بر راهها منشينيد ، أكر لا بد خواهيد نشست چشم نگاه داريد ، وجواب سلام دهيد ، وگمراه را راه نماييد وضعيفان را يارى كنيد

٩ - من رغب فى المكارم عف عن المحارم . فى سعة الأخلاق كنوز الأرزاق .

ترجمة : هركه در مكارم راغب بود از محارم پرهيز كند ، در خوش خوى گنجهاى ، روزى بود .

١٠ - قدر الرجل على قدر همته ، وصدقه على قدر مروته ، وشجاعته على قدر أنفته ، وعفته على قدر غيرته .

ترجمة : قدرواندا زهء مرد بر قدر همت او بود ، وصدق او بر قدر مروت او ، وشجاعت او بر قدر حميت او ، وپرهيزكارى او برقدر غيرت او .

ويأتى بعد هذين الكتابين كتاب «لوامع الإشراق فى مكارم الأخلاق» المعروف باسم «أخلاق جلالى» لجلال الدين محمد بن أسعد الدوانى (متوفى ٩٠٨ هـ - ١٥٠٢م) ، وقد كتبه مؤلفه باسم السلطان خليل بن اوز ون حسن مؤسس أسرة أق قويونلو ، وطبقًا لما ذكره المؤلف نفسه فقد اقتبس موضوعاته من كتاب أخلاق ناصرى لنصير الدين الطوسى ، كما يحتوى الكتاب على موضوعات فى تدبير المنزل وسياسة المدن ، وأسلوب الكتاب يتميز بالتكلف والصنعة .

كتاب "أخلاق محسنى"

يعد كتاب «أخلاق محسنى» من كتب الأخلاق الهامة ، ومؤلفه هو ملا حسين الواعظ الكاشفى السبزوارى (متوفى ٩١٠ هـ - ١٥٠٤ م) ، يقع الكتاب فى أربعين بابًا، وكتبه مؤلفه باسم أبى المحسن بن السلطان حسين بايقرا ، ولهذا سمى بأخلاق محسنى . ويتناول المؤلف فى كتابه مجموعة من مكارم الأخلاق كالعفو والصبر والحلم والعفة والعدل والصدق والسخاء والإحسان والشجاعة وغير ذلك .

يبدأ المؤلف كتابة بمقدمة[1] يمدح فيها الرسول (ﷺ) ، ويذكر أن الله وصفه بأنه على خلق عظيم ، ويرى أن حسن الأخلاق «نور من أنوار الحكمة الإلهية ، وسر من أسرار العزة الملكية» ، وأن الهدف من بعثة الرسول هو إتمام مكارم الأخلاق الحسنة ومن ثم قال (تخلقوا بأخلاق الله) ، وأول ما يوزن فى ميزان القيامة الأخلاق الحسنة ثم الأعمال الحسنة ، وذكر أن «الحكماء قالوا إن تهذيب الأخلاق طريق مضيء ، ولا يمكن الوصول إلى منزل الشرف والسيادة إلا بالنهج على هذا المنهاج». ثم يتحدث عن ضرورة وجود المكارم لإقامة الشريعة ويذكر فى ختام مقدمته فهرسًا لأبواب الكتاب الأربعين .

ويسير المؤلف فى كتابه على نهج واحد فى عرضه لمكارم الأخلاق ، فهو يضع عنوانًا لكل باب ، ثم يعرف كل مكرمة على حدة ، ويتبع ذلك ذكر بعض الحكايات التى تتخللها أبيات من الشعر وآيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ومثال تعريفاته هذه ما ذكره فى الباب الأول عند تعريفه للعبادة ، ويقول : «المقصود بها عبادة الحق سبحانه وتعالى عن طريق أداء الفرائض والواجبات وترك المساوئ والمحرمات ، والانقياد إلى الأوامر والنواهى ، واتباع سنن حضرة حامل الرسالة ، والمقرر أن عبادة الحق سبحانه وتعالى تؤدى إلى السلامة فى الدنيا وإلى النجاة والكرامة فى الآخرة» .

(١) مقدمة كتاب "أخلاق محسنى" من ص ٢ إلى ص ٦ - طبعة لكهنو يوليو ١٩١٢ م - ١٣٣٠ هـ .

ويذكر فى نهاية هذا الباب حكاية تدل على صحة حديثه وصدق رؤيته.

ويعرف المؤلف الإخلاص فى الباب الثانى فيقول بأنه «تطهر العمل من الرياء والغرض وسائر العلل ، وإخلاص النية مع الله عز وجل» ، ويتحدث عن الدعاء فى الباب الثالث ويعرفه بأنه «عرض الحاجة على البلاط الإلهى ، وطلب المراد من فيضه وفضله اللامتناهيين. والدعاء إما لتحصيل نفع أو لدفع ضرر ؛ ولا مناص للسلاطين من كلا النوعين». أما فى الباب الرابع فيعرف الشكر بأنه هو «شكر المنعم وحمده على إنعامه ، ولما كانت نعمة السلطنة هى أعظم النعم ، فيجب على السلطان القيام بالشكر على هذه النعمة ، ويكون الشكر بالقلب واللسان والأعضاء والجوارح .. وبحكم (لئن شكرتم لأزيدنكم) فإن الشكر يكون سبباً فى زيادة النعمة» .

نموذج من كتاب "أخلاق محسنى" :

الباب السابع عشر[1] :

فى الحلم

«الحلم من الأخلاق الإلهية كما قال الله تعالى «إن الله غفور رحيم» ، وقد كان لكل الأنبياء والأولياء نصيب من هذه الصفة ، حتى يحطموا بقوتها سورة الغضب التى هى مفسدة للإيمان وقائدة لجيش الشيطان وقد جاء فى الحديث الشريف (ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب) .

لا تظن أن الرجل بالقوة والشجاعة   ولكن اعلم أنه كامل إذا تغلب على غضبه

(١) انظر ص ٤٣ - ٤٦ من كتاب "أخلاق محسنى" .

النص الفارسى *

باب هفدهم در حلم

يكى از أخلاق حلم است كما قال الله تعالى (إن الله غفور حليم) وجملة أنبياء وأولياء را ازين صفت نصيبى داده اند تا بقوت أن سورت غضب را كه مفسد إيمان وپيش رو لشكر شيطان است بشكسته اند ودر حديث أمده كه قوى ترين شمانه أنكس باشد كه مردمان را بيفگند واز پاى در أرد قوى تر أنكس كه در حال غضب خودرا بيفگندا ومالك نفس خود باشد. =

وجاء فى الإنجيل أنه يجب على الملوك ترويض أنفسهم على الحلم وتطويعها على الانقياد حتى لا يغضبوا إذا سمعوا ما لا يرضيهم ، لأن لديهم القدرة والاستطاعة ويطيعهم كل من فى خدمتهم ، فإذا لم يتحول غضبهم عليهم إلى حلم ، ويتحكم التحمل فى الغضب ، ويغضبون لكل قول وفعل ، فإنهم بذلك يستأصلون الناس فى كل حين وآن ، ولن يبقى للملك رونق ، ومن أفضل ما قالوا فى هذا الصدد :

إن التحمل خزينة العقل ومن لا يتحلى بالحلم يكون شيطانًا

فالحلم لو تعلم قيد للشيطان والغضب يكون سجنًا بسببه

ومثل الحليم كالجبل إذا سقط السيل فى ممره على حذر فلن يستطيع اقتلاعه ، لا تؤثر فيه نيران الغضب مع أن كرة أثيره تكون فى خطر منها ، ولا يمكن أن تهدأ نيران غضب أى سلطان بدون مدد وعون من الحلم ، ولا يصبر أى حاكم على كلام

= بيت :

مردی گمان مبر که بزورست پر دلی با خشم گر بر آئی دانم که کاملی

در کتاب انجیل مذکورست که ملوك را واجب بود که نفس خودرا ریاضت دهند بحلم ورام سازند در فرما نبرداری تا هر چه بشنوند که خلاف رضای ایشان باشد در خشم نشوند زیرا که إیشان را قدرت وتوانائی هست وزیر دستان مطیع ایشانند اگر خشم زیر دست حلم نباشد وغضب محکوم بردباری نبود وبهر قولی وفعلی خشم گیرند هر آنیة مردم مستأصل شوند وملك را رونق نماند وبس زیبا گفته اند : نظم

بردباری خزینهء خردست هر کرا حلم نیست او چو دوست

دیو بندست حلم اگر دانی غضب از دست اوست زندانی

مرد حلیم آنست که سیلاب غضب او با آنکه کوه شامخ اگر در ممر او افتد بر حذرست او از جای نتواند برد ونائرهء خشم با وجود آنکه کرهء اثیر از إلتهاب آن در خطر ست در وی تصرف نتواند کرد وبی مدد حلم آتش غضب هیچ سلطانی تسکین نباید وبی معاونت بردباری هیچ حاکمی بار گفت وگوی رعایا بر نتابد پس پادشاه عادل آنست که حلم را زیور روزگار خود سازد وبد ستیاری او بنیاد خشم عالم سوز براندازد. نظم :

چو حلم اندر آمد غضب گشت پست غضب را همین برد باری شکست

ستون خرد بردباری بود سبك سر همیشه بخواری بود =

رعيته بدون معونة من التحمل ، فالسلطان العادل هو الذى يزين عصره بالحلم ، ويقتلع أساس الغضب الحارق للعالم بمساعدته ، شعر :

عنـدمـا يدخل الحلم يفـز الغـضب   والتحمل يكسـر الغضب ويحطمـه
وعمـود العقل هو التحـمل والصبـر   ودائمًا يكون خفيـف العقل فى ذلة

روى عن سليمان الوراق أنه قال : كنت يومًا عند المأمون فرأيت فصًا من الياقوت طوله أربعة قراريط وعرضه قيراطان ، وكان كالشمس المضيئة . وككوكب الزهرة الساطع فى صفائه وبريقه ، فاستدعى المأمون صانعًا وقال له : اصنع خاتمًا يمكن أن يكون هذا الياقوت فصًا له ، فأخذ الصائغ الياقوتة ومضى ، وبالصدفة كنت عند المأمون فى يوم آخر ، فتذكر الخاتم وأمر بإحضار الصائغ عنده ، وعندما حضر الصائغ ، رأيته وقد أصابت جسده الرعشة كشجرة صفصاف تهتز ، فسأله المأمون عن سبب تغيره ، فقال : أعطنى الأمان حتى أقص عليك ما حدث. فقال المأمون :

= از سليمان وراق نقل كرده اند كه كفت كه روزى در خدمت مامون بودم نكينى از ياقوت ديدم كه طول او چار انكشت وعرض او دو انكشت ودر صفا روشنى چون خورشيد تابان وناهيد درخشان بود پس زركرى را خواند وكفت خاتمى بسازكه اين ياقوت نكين آن تواند بود وزركر ياقوت بر كرفت وبرفت قضارا روزى ديكر هم در خدمت وى بودم كه از ان انكشترى ياد كرد وبفرمود زركر را بياوردند چون زركر حاضر شد ديدم كه رعشه بر وى افتاده است وچون بيدى لرزد مامون پر سيد كه سبب تغير تو چيست ، كفت : مرا امان ده تا بكويم ، كفت : امان دادم. زركر نكين بيرون كرد بچهار پاده شده ، كفت : اى خليفه انكشترى ساختم وخواستم كه را به نكين دان برم از دست من بر سندان افتاد وچهار پاره شد ، مامون تبسم كرد وكفت برو واين را چهار انكشترى ساز وترادرين هيچ كنا هى نيست واين صورت كه از مامون صادر شده غايت حلم وبردباريست. نظم :

حلم سـرمايهء كمـال بـود   سبـب عـزت وجـلال بـود
حلم شادى فزاى هر خجـل ست   موميـائى هر شكستـه دل ست

نو شيروان از بوزرجمهر پرسيد كه حلم چيست كفت نمك خوان اخلاق است چه حروف آنرا چون بر كرادنند ملح ميشود چنانكه هيچ طعامى بى ملح مزه ندهد هيچ خلقى بى حلم جمال نيمايد ، نو شيروان كفت : علامت حليم كدامست؟ كفت : حليم را سه نشانه است يكى انكه اكر ترش روى وسخت كوى با او سخن تلخ در ميان آرد او بدر برابر آن جواب شيرين بر زبان راند واكر بفعل نيز اورا برنجاند بازاى آن با او احسان نمايد. قطعه : =

أعطيتك الأمان . فأخرج الصائغ الفص وقد تحطم إلى أربعة أقسام ، قال الصائغ : أيها الخليفة لقد صنعت خاتماً وأردت أن أضع الفص بداخله ، فسقط من يدى على السندان وتحطم إلى أربع قطع. فابتسم المأمون وقال : اذهب واجعلها أربعة خواتم ، فلا ذنب لك فيما حدث على الإطلاق ، وهذا التصرف الذى صدر عن المأمون هو غاية الحلم والتحمل. شعر :

إن الحلم أساس الكمال وهو سبب العزة والجلال

والحلم يزيد فرح كل مهموم وهو علاج لكل حزين

سأل أنو شيروان بزرجمهر عن ماهية الحلم فقال إنه ملح مائدة الأخلاق ، لأنه عند قلب حروفه يصبح ملحًا ، وكما أنه لا طعم لأى طعام بدون الملح ، فإن الخلق لا يكون جميلاً قط بدون الحلم . قال أنوشيروان : ما هى علامة الحليم؟ قال : للحليم ثلاث علامات ، أولها : إذا تحدث معه رجل عبوس عنيف الكلام بحديث مر أجابه بإجابة حلوة ، وإذا آذاه بفعل أيضًا أحسن إليه إزاء ذلك .

با تو گويم كه چيست غايت حلم هر كه ز هرت دهد شكر بخشش

هر كه بخرا شدت جگر بجفا همچو كان كريم زر بخشش

كم مباش از درخت سايه فكن هر كه سنگت زند ثمر بخشش

علامات دوم أنست كه در عين آنكه آتش خشم زبانه گيرد وصولت غضب وسطوت آن بغايت رسد خاموش گردد واين دليل اطمينان دل وتسكين روح ست ودرويشان سالك علاج غضب بدين نوع كرده اند . نشانهء سوم خوردن خشم ست اگر كسى فى الواقع مستحق عقوبت بود .

أورده اند كه روزى آن نوازادهء بو ستان ولايت باكورهء باغستان هدايت سبط نبى ونجل ولى حسين بن على رضى الله عنهما با جمعى مهمانان از اشراف عرب بر سرخوانى نشسته بودند خادمش با كاسهء آش گرم درآمد از غايت دهشت پايش بحاشيهء بساط در آمد وكاسه از دستش بر سر شاهزاده افتاد وآشها بر رخسارهء مباركش فروريخت امام حسين از روى تأديب نه راه تعذيب درو نگريست بر زبان خادم جارى شد والكاظمين الغيظ ، حسين گفت : خشم فروخوردم ، خادم گفت : والعافين عن الناس ، گفت : عفوت كردم ، خادم تتمهء أيت بر خواند : والله يحب المحسنين ، حسين گفت : از مال خودت آزاد كردم ومؤنت معيشت تو بر ذمهء خود لازم گردانيدم. مثنوى :

بدى مكافات كردن بدى بر اهل صورت بود بخردى

بمعنى كسانى كه بى پرده اند بدى ديده ونيكوئى كرده اند

در أخبار آمده كه حضرت عيسى على نبينا وعليه السلام سوال كردنده سخت ترين همه چيزها چيست جواب

قطعة

أقـــول لك مـــا هى غـــاية الحلم   امنح سكرًا لكل من يعطيك سـمًـا

وكل من جـرح كـبـدك بجـفـائه   كن مـعه كـالمنجم كـريمًا تهب ذهبًـا

ولا تكن أقل من الـشـجـرة الظليلة   وامنح الثمار لكل من يرميك بالحجر

أما العلامة الثانية ، فهى إذا ما اشتعلت نيران الغضب ، ووصلت صولة الغضب وسطوته غايتها ، التزم الصمت ، وهذا دليل اطمئنان القلب وهدوء الروح. وقد عالج الشيوخ الغضب بهذا النوع. أما العلامة الثالثة فهى كظم الغيظ أمام من يستحق العقوبة فعلاً .

حكى أن بكر بستان الولاية وباكورة حديقة الهداية سبط النبى ونجل الولى الحسين بن على رضى الله عنهما كان يجلس ذات يوم مع جمع من الضيوف من أشراف العرب على مائدة الطعام ، فدخل خادمه حاملا إناء إدام ساخن ، ولدهشته الزائدة تعثرت قدمه فى طرف البساط ، فسقط الإناء من يده على رأس الأمير ، وانسكب الإدام على وجهه المبارك ، فنظر إليه الإمام الحسين على سبيل التأديب لا على سبيل التعذيب ، فقال الخادم : (والكاظمين الغيظ) وقال الحسين : كظمت غيظى ، قال

داد که خشم خدای گفتند بچه چیز از غضب الهی ایمن توان شد فرمود که ترک غضب خویش وحضرت مولوی معنوی در مثنوی إشارتی بدین معنی فرموده. مثنوی :

گفت عیـسی را یکـی هشیـــار سر   چیست در هستی زجمـله صعب تر

گفت ای جـــان صعـب تر خشم خدا   گفت از آن دوزخ همی ترسد چـو ما

گفت زین خشم وشهوت وحـرص آوری   هـــت مـــردی در ره پیغمبـــری

وبباید دانست که غضب در بسیار مواضع از حلم بهتر ست چه غضبی که از جهت حرص وطمع یا بواسطهء تکبر وخویشتن داری بود مذموم است اما برای اعلام معالم دین متین وجهت حفظ مراسم شرع مبین بسیار ستوده پسندیده است ، مثلا اگر کسی از خیانت محرمان حرم خویش حلم ورزد عقلاً وشرعًا وعرفًا مذموم بود واز نظر أهل مروت ساقط شود چون غیرت بی غضبی وخشونتی دست دهد کمال مرد در أنست که محل حلم وموضع غضب را بنظر صحیح تمیز کند تا هرجا انچه مناسب بود بکار برد . بیت :

قهر ولطف اندر محل خود نکوست   جای گل گل باش وجای خار خار

الخادم : (والعافين على الناس) ، قال الحسين : عفوت عنك ، فقرأ الخادم بقية الآية (والله يحب المحسنين) ، قال الحسين : أنت حر والتزم بمؤونه عيشك. مثنوى :

جــــزاء الســـــوء ســــــوء وهذا مــعــقــول عند أهل الصــورة

ولـكـنـه عـنـد أهـل الـتــــقــــوى مــشــاهدة الســوء وفــعل الخــيــر

وجـاء فى الأخبار أن سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام سئل عن أصعب الأشياء فأجاب : إنه غضب الله . فقالوا : كيف يمكن للإنسان أن يأمن غضبه؟ قال : بترك غضبك ، وقد أشار المولوى فى كتابه المثنوى إلى هذا المعنى فقال :

- قـال أحــد الأذكيــاء لعيسى ما هو أصعب شىء فى الوجود؟

- قال يا عزيزى إن أصعب شىء هو غضب الله ، الذى تخشاه جهنم مثلنا ،

- قال كيف يتجنب المرء غضب الله؟ قال عن طريق ترك غضبك فى الدنيا .

- فإذا تركت عضبك وشهوتك وحرصك ، تكن سائرًا على طريق النبوة .

ويجب العلم بأن الغضب يكون أفضل من الحلم فى كثير من المواضع ، فالغضب من أجل الحرص والطمع أو بواسطة التكبر والغرور أمر مذموم ، ولكنه محمود ومقبول جدًا من أجل إعلاء معالم الدين المتين ، وحفظ مراسم الشرع المبين ، فمثلاً إذا تحلى شخص بالحلم إزاء خيانة محارمه ، فهذا أمر مذموم عقلاً وشرعًا وعرفًا ، ويكون ساقطًا فى نظر أهل المروءة ، لأن الغيرة لا تتم بدون الغضب والخشونة ، وكمال المرء أن يميز بثاقب نظره بين موضع الحلم وموضع الغضب حتى يستعمل فى كل موضع ما يناسبه. بيت :

«الغضب واللطف جميلان فى موضعهما فكن وردة فى مكان الورد وكن شوكًا فى موضع الشوك» .

والمعروف أن الحلم من الفضائل الأخلاقية التى دعا إليها الإسلام ، وكان الرسول (صلعم) المثل الأعلى فى الحلم ، لأن الله أدبه فأحسن تأديبه ، أمره بقوله : «خذ العفو

وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين. وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون» (سورة الأعراف ١٩٩ - ٢٠١) ، وبقوله : «سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين» (آل عمران ١٣٣ - ١٣٤) .

ويعتبر كظم الغيظ أقل شأنًا من الحلم ، لأن كظم الغيظ تحلم وتكلف للحلم ، ولا يحتاج إلى كظم غيظه إلا من غضب ، وكان الحلم من شمائل المصطفى ، وكان من الوسائل التى جذبت إليه النفوس وألفت حوله القلوب ، وصدق الحق سبحانه وتعالى فى قوله : «فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك» (آل عمران ١٥٩) . ومظاهر حلمه كثيرة ، ولكن كانت هناك بعض الأحداث لم يكن يستطيع الحلم فيها ، وخاصة تلك التى كانت تصيب الدعوة الإسلامية ، وكيف يحلم على السفهاء الذين يتجرأون على الإسلام ويسخرون بالوحدانية والبعث[١] .

وقد جاء فى كتاب «إحياء علوم الدين»[٢] أن المصطفى (صلعم) كان يقول فى دعائه : «اللهم أغننى بالعلم ، وزينى بالحلم ، وأكرمنى بالتقوى ، وجملنى بالعافية» وقال صلعم : «ابتغوا الرفعة عند الله ، وقالوا : وما هى يا رسول الله؟ قال : تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتحلم عمن جهل عليك» وقال الله تعالى : «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا» (الفرقان ٦٣) ، وقال العلماء إن جهل عليهم لا يجهلون ، وإذا سبك إنسان أو اغتابك أو عيرك فعليك بالحلم ففيه النجاة فى الدارين ، أما فى الحال فإنه يزاد فى احترامه وهو يزيد فى الآخرة جزيل الثواب ، وقال عليه الصلاة والسلام : «إن امرء عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه» .

وهناك من الأدباء الفرس من كتب عن الأخلاق بطريقة مختلفة عن السابقين ، أو حاول أن يبين الأخلاق الفاضلة التى كان يتصف بها القدماء ، والأخلاق الذميمة التى اتصف

---

(١) انظر كتاب «من أخلاق النبى» ص ١١٥ وما بعدها .
(٢) مختصر إحياء علوم الدين للإمام أبى حامد الغزالى - مكتبة مصر - القاهرة ص ١٨٧ .

بها الناس في عهده ، ومن هؤلاء عبيد الله الزاكانى القزوينى (م٧٧١ هـ) وهو من أهم الأدباء الذين سجلوا فى أشعارهم ونثرهم نقداً للأوضاع القائمة فى عصرهم. والمعروف أن العصر الذى عاش فيه عبيد الله كان مليئًا بالمفاسد من جهل وظلم فى ظل حكم التتار . ومن أهم مؤلفاته النثرية فى هذا الصدد رسالة «أخلاق الأشراف» التى أطلق عليها هذا الاسم فى مقابل كتاب «أوصاف الأشراف» الذى ألفه نصير الدين الطوسى (م٦٧٢هـ) ، ويبدو أن الزاكانى قد اختار اسم رسالته من باب الاستهزاء والسخرية من هؤلاء الذين تركوا مكارم الأخلاق واتصفوا بصفات ذميمة لا تليق بالمسلمين. وقد ألف الزاكانى هذه الرسالة عام ٧٤٠ هـ ، وهو ينتقد فيها أخلاق علماء عهده ويوضح فيها فساد المجتمع وينتقد كل العيوب الموجودة فى عصره. وتشتمل هذه الرسالة على سبعة أبواب فى مكارم الأخلاق وهى : الحكمة ، والشجاعة ، والعفه ، والعدل ، والسخاء ، والحلم والوفاء ، والحياء والصدق والرحمة والشفقة . ويقسم المؤلف كل باب من أبواب هذه الرسالة إلى مذهب منسوخ وهو مذهب القدماء الذين كانوا يتحلون بهذه الفضائل ، ومذهب مختار وهو المذهب المناقض لكل فضيلة من هذه الفضائل وهو ما يتبعه المعاصرون للزاكانى ويسيرون على نهجه ، فمثلاً عندما يتحدث عن العدل[1] يرى أن المذهب المنسوخ هو أن السلف كانوا يعتبرون العدل من الفضائل الهامة وعلى أساسه يقوم المعاش والمعاد ، وأن الله يأمر بالعدل والإحسان ، ومن هنا اهتم السلاطين والأمراء بنشر العدل بين الناس والاهتمام بشئون الرعية ، أما المذهب المختار عند أهل عصره فهو أن العدل من أسوأ السير وهو يؤدى إلى خلل كبير ، وأن من يقيم العدل ويتعامل مع الناس معاملة حسنة لا يهابونه ، بينما يخشون الظالم الذى لا يقيم العدل ، وعندئذ ترقى دولته وتتقدم ويضرب مثالاً على ذلك هولاكو وما كان يفعله من ظلم ومذابح ، ولهذا دام الحكم لأسرته مدة تسعين سنة. وهكذا يبين المؤلف كل فضيلة من الفضائل وأهميتها وكيف كان السلف يتحلى بها ، ثم ضياع هذه الفضيلة فى عصره واعتقاد معاصريه بأن اتباعها والتحلى بها أمر غير ضرورى وغير صحيح ، ومن هنا اتصفوا بصفات سيئة وأخلاق غير حميدة ، وهو يوضح كل هذا فى أسلوب ساخر تميز به المؤلف عن غيره من النقاد .

---

(١) انظر كليات عبيد زاكانى - تهران ١٣٤٠ - ص ٢١ .

٢ - الأخلاق فى الشعر الفارسى :

أما بالنسبة للشعر الأخلاقى الذى نظم ليحث الناس على الأخلاق الفاضلة المستوحاة من مبادئ الدين الإسلامى ، فهو يتناثر هنا وهناك خاصة فى المنظومات الصوفية ، وقد بدأ هذا النوع من الشعر يظهر منذ أوائل القرن السادس ، ونراه فى منظومة «حديقة الحقيقة» لسنائى الغزنوى (متوفى ٥٢٦ هـ) مما دعا شعراء أواخر القرن السادس وأوائل السابع إلى تقليده والسير على نهجه فى نظم منظومات صوفية ممتزجة بالمواعظ والحكمة. أما المنظومات التى نظمت فى التربية والمواعظ الأخلاقية بهدف إصلاح المجتمع فهى تبدأ بالشاعر سعدى الشيرازى أعظم شاعر أخلاقى فى إيران. ومن أهم مؤلفاته فى هذا الصدد منظومته المثنوية «بوستان» التى تقع فى عشرة أبواب بعد المقدمة هى :

١ - باب العدل والتدبير والرأى ٢ - الإحسان ٣ - العشق

٤ - التواضع ٥ - الرضا ٦ - القناعة ٧ - التربية

٨ - الشكر ٩ - التوبة والطريق الصواب ١٠ - المناجاة .

والمعروف أن مشرف الدين بن مصلح الدين عبد الله المتخلص بسعدى الشيرازى قد قام برحلات كثيرة تجول فيها فى أنحاء مختلفة من ديار الإسلام ما بين الهند شرقًا إلى الشام والحجاز غربًا ، فهيأ له ذلك معرفة بالشعوب وأخلاقها وعاداتها المتباينة ، ولم يرغب فى أن تكون كل هذه المعرفة والتجارب التى اكتسبها وقفًا عليه، بل أراد أن يطلع عليها الناس ، فكان له هذا النوع من الشعر الأخلاقى التعليمى. ويشير الشاعر فى مقدمة كتابه «البوستان» إلى ذلك تحت عنوان «سبب نظم الكتاب»[1]

---

(١) كليات شيخ سعدى - طهران ١٣٣٧ ص ٢٢٠ .

درا اقصاى عالم بگشتم بسى بسر بردم ايام با هر كسى
تمتع بهر گوشه اى يافتم زهر خر منى خوشه اى يافتم
بدل گفتم از مصر قند آورند بر دوستان ار مغانى برند
دريغ امدم زان همه بو ستان تهى دست رفتم سوى دوستان
مرا گر تهى بود زان قند دست سخنهاى شيرين تراز قندهست
نه قندى كه مردم بصورت خورند كه ارباب معنى بكاء برند

– لقد تجولت كثيراً فى أنحاء العالم ،

وأمضيت بين الناس كثيراً من الأيام .

– وتمتعت فى كل ناحية من نواحيه ،

وحصلت من كل بيدر على سنبلة

إلى أن يقول :

– لقد قلت لنفسى إنهم يأتون من مصر بالسكر ،

فماذا أحمل إلى الأحباب فى عودتى ؟

– عدت آسفًا ، فإنى من كل ذلك البوستان ،

أعود خالى اليد ، لا شىء فيها للأحباب ،

– لكنى قلت ، ولو أن يدك خلت مما تحمله ،

فإنك تملك الكلام ، والكلام عندك خير من السكر .

– ليس هو ذلك السكر الذى يتناوله عامة الناس ،

بل هو السكر الذى يدونه أرباب المعانى .

والشاعر يبدأ منظومته بمدح الذات الإلهية فى حوالى ثمانية وستين بيتًا يبدؤها بالبيت المشهور :

باسم الله خالق الروح الحكيم   الذى أجرى اللغة على الألسنة

ثم يمدح الرسول (صلعم) فى حوالى ثلاثين بيتًا ، والبيت الذى تخيره لمطلعها يدل على أن الشاعر راعى فيه براعة الاستهلال ، فاختار بيتًا عربيًا هو :

كريم السجايا ، جميل الشيم   نبى البرايا ، شفيع الأمم

وكتاب «البوستان» يختلف عن كتاب «كلستان» فى أن الأول شعر كله بينما الثانى نثر فيه بعض الشعر ، كما تبدو فى البوستان الروح التعليمية الأخلاقية أكثر من الكلستان. ومن نماذج شعره الأخلاقى فى البوستان قوله يدعو إلى العمل الصالح[١] :

- ينبغى الآن أن تحسب للعمل كل حساب ،

وليس فى الوقت الذى ينشر فيه الكتاب .

- واجتهد الآن فإن جاوز وسطك ،

لا تتركه حتى يصير سيلا فيتجاوز رأسك .

- وإذا أفلتت من يدك خمسون عامًا ،

- فاغتنم الأيام الخمسة الباقية .

- ومن بذر الشعير وقت الربيع ،

كيف يجنى القمح وقت الحصاد .

- والآن - إذا اجتهدت - وقت البذر ،

---

(١) كليات سعدى ص ٤٠٠ ، سعدى الشيرازى شاعر الإنسانية ص ٤٥٥ تأليف دكتور محمد موسى هنداوى - القاهرة ١٩٥١ م .

كنون كرد بايد عمل را حساب — نه وقتى كه منشور گردد كتاب
كنون كوش كاب از كمر درگذشت — نه وقتى كه سيلاب از سر گذشت
چو پنجاه سالت برون شد زدست — غنيمت شمر پنجروزه كه هست
يكى در بهاران بيفشان جو — كه گندم ستاند بوقت درو
كنون وقت تخمست اگر پرورى — گر اميد دارى كه خرمن بسرى
گر ازدست شد عمرت أندر بدى — تو أنى كه در خرمن أتش زدى
بشهر قيامت مرو تنگ دست — كه وجهى ندارد بحسرت نشست
قيامت كه بازار مينو نهند — منازل باعمال نيكو دهند
بضاعت بچندانكه آرى برى — وگر مفلسى شرمسارى برى
بهشت آن ستاند كه طاعت برد — كرا نقد بايد بضاعت برد

وكنت ترجو الأمل بطيب الثمر .

– وإذا مضى العمر هباء فى الشر ،

فأنت كمن أشعل النار فى البيدر .

– ولا تذهب يوم القيامة ضيق ذات اليد ،

لا وجه لأن تقعد متحسراً .

– ويوم القيامة حين تعقد سوق الجنة ،

توزع الدرجات وفق طيب الأعمال .

– وتكسب البضاعة بقدر العمل ،

فإن كنت مفلساً فتحمل الخجل .

– والذى يكسب الجنة هو من قدَّم الطاعة ،

ومن قدَّم المال تناول البضاعة .

* * *

ويقول فى التوبة والاعتذار عن العمل السيئ (١) :

– إذا أدرك المسىء نفسه ،

---

(١) كليات سعدى ص ٤٠٠ ، سعدى الشيرازى شاعر الإنسانية ص ٤٥٧ .

کسی کرچه بدکرد هم بد نکرد — که پیش از قیامت غم خود بخورد
مگر مرغ دولت زقیدم بجست — هنوزش سر رشته داری بدست
وگر رفت از اندازه بیرون بدی — چو گفتی که بد رفت نیك آمدی
اگر هوشمندی ز داور بخواه — شب توبه تقصیر روز گناه
طریقی بدست آر وصلحی بجوی — شفیعی برا انگیز وعذری بگوی
هنوز از سر صلح داری چه بیم — در عذر خواهان نبندد کریم
فراشو چو بینی در صلح باز — که ناگه در توبه گردد فراز
پیمبر کسی را شفاعت گرست — که بر جادهء شرع پیغمبر ست

قبل يوم القيامة لم تحسب إساءته .

- ولا تقل إن طائر السعادة قد انفلت من القيد ،

فإن طرف الحبل لا يزال باليد .

- وإن جاوزت الحد سيئاتك ،

كنت ظافرًا إذا اعترفت بذنبك .

- وإذا كنت عاقلاً فاسأل الله ليلاً .

أن يعفو عما جنت يداك فى النهار .

- وابحث عن الصلح واتخذ طريقًا لك .

واقصد شفيعًا واعتذر عما قدمت يداك

- وإذا كنت لا تزال ترجو الصلح ، فلا خوف ،

- فإن الكريم لا يغلق الباب فى وجه التائبين .

- واقبل ما دمت ترى باب الصالح مفتوحًا ،

فلعل باب التوبة يغلق فجأة أمامك .

- والنبى الكريم هو من ترجى شفاعته ،

لمن يتبعه وسلك طريق شريعته .

وفى باب التواضع يدعو سعدى إلى التواضع ويرى أن فيه الرفعة وعلو المنزلة ، وليس ما يفهمه الناس حقارة وذلة ، ولا ينسى الشاعر فى مستهل هذا الباب أن يجعل المطلع مناسبًا لهذا المعنى فيقول :

- خلق الله الإنسان من تراب ،

فتواضع أيها العبد وكن كالتراب .

ويردد الشاعر هذا المعنى فى مواضع مختلفة ، فيقول :

- إن التواضع يعلي رأس رفعتك ،

ويقليك الكبرياء فى حضيض التراب .

- وحين تواضعت قطرة الماء أمام البحر ،

تربى الصدف عزيزًا فى أحضانها .

- وحين تواضع التراب خلق منه الإنسان ،

وحين تعاظمت النار خلق منها الشيطان .

ووصف المتواضع بأنه من لا يغتر بعلمه ولا بماله ولا بمركزه ، فقال :

- زعمت أن عقلك مليء بالمعرفة ،

فكيف يتسع الإناء لغير ما يحتمله ؟

- ليس الغنى بماله أفضل الناس ،

فالحمار حمار ولو لبس رداء من أطلس .

- إن كنت شاغلاً منصبًا جليلاً

فلا تسخر من العاجز إن كنت عاقلاً[1]

---

(١) انظر كتاب "سعدى الشيرازى شاعر الإنسانية" ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

زخاك آفريدت خداوند پاك   پس اى بنده أفتادكى كن چو خاك

....

تواضـــع ســر رفعت أفــرازدت   تكبـــر بخـــاك اندر انـــدازدت
چو خود رابچشم حقارت بديد   صدف در كنارش بجان پرورید
چو ان سرفرازى نمود اين گمى   از آن ديـــو كـــردند ازاين آدمى

....

تو خود را گمان بردهء پر خرد   انائى كه پرشد دگر چون برد؟
نه منعم بمال ازكس بهتر ست   خر زرجل أطلس بپوشيد خراست
چو استـــادهء برمقـــامى بلند   بر افتادهء گر هوشمندى مخند

وفى باب القناعة يدعو الشاعر إلى التحلى بهذه الخصلة الطيبة إذ يقول(١) :

– اقنعى أيتها النفس بالقليل ،

حتى ترى السلطان والفقير متساويين .

– والطمع يطردك من كل مجلس ،

فابعده ، حتى لا يطردك أحد من بابه .

– والله لن يرضى عن عبده .

الذى لا يرضى بما قسمه له ،

– ولا ترهب أيها الحبيب أحداً بالشدة والظلم ،

فلعله يرجى أن يكون فيه ماء الحياة .

– ولا تحرق قلبك يائساً بالفكر ،

فإن الليلة حبلى بالنهار .

– والله الذى خلق الناس من تراب ،

عجباً لو ضيع أدميتهم .

– والذى صور الطفل فى الأرحام ،

هو من كتب العمر وكفل الرزق .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢٩ .

قناعـــــت كن إى نفـس بر اندكى — كه سلطان ودرويش بينـــى يكـــى

توقــــع برانـــــد زهـــر مجلــــت — بـران ازخودش تا برانـــد كست

خـداوند ازآن بنـــده خرسندنيست — كه راضي بقســـم خداوند نيـست

ز ظلمت مترس اى پسنديده دوست — كه ممكن برد كاب حيات دروست

دل أز بـــى مــرادى بفكرت مـــوز — شب أبستنست اى بـــرادر بروز

خـــدائى كـــه ازخــــاك مـــردم كند — عجب دارم ار مـــــردمى گـــم كند

نگـــارنـــدهء كـــودك انـــدر شكـــم — نويسنـــــدهء عمـــر وروزيـــت هم

ويقول الشاعر فى تدبر صنع الخالق وشكره على النعم التى أنعم بها على الإنسان(١) :

– انظر لذى الأصبع الواحدة مكونة من كم سلامى ، ووصلها وركبها الله معًا بالصنع الإلهى .

– ومن ثم يكون هوسًا وبلاهة أن تضع إصبعك على كلمة صنعه معترضًا .

– تأمل كم عظمة ركبها ووصلها من أجل سير الإنسان .

– إذ بغير دوران الكعب والركبة والقدم ، لا يمكن رفع القدم من مكانها .

– السجدة ليست صعبة على الآدمى ، لأن الفقرات فى صلبه ليست قطعة واحدة .

– لقد عمل مائتى قطعة بعضها فوق بعض ، حتى أتم قطعة طين مثلك .

– العروق على جسدك يا حميد الخلق ، أرض بها ثلاثمائة وستون نهرًا .

– البصر والرأى والفكر والتمييز فى الرأس ، والجوارح بالقلب ، والقلب عزيز بالعلم والمعرفة .

– البهائم مكبة على وجهها ذليلة ، وأنت قائم على قدميك مثل الألف .

– لقد نكست رؤوسها من أجل تناول الطعام وأنت تأتى بالطعام أمام رأسك بعزة .

---

(١) انظر ترجمة الدكتور أمين عبد المجيد بدوى للبوستان تحت عنوان "أريج البستان" دار الشروق – القاهرة ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م ، ٢٢٨ .

بين تا يك انگشت از چند بند   بصنع الهى بهم در فكند
پس آشفتگى باشد وأبلهى   كه انگشت بر حرف صنعش نهى
تأمل كن ازبهر رفتار مرد   كه چند استخوان پى زد ووصل كرد
كه بى گردش كعب وزانو وپاى   نشايد قدم بر گرفتن زجاى
از آن سجده برآدمى سخت نيست   كه در صلب او مهره يك أخت نيست
دو صد مهره بر يكديگر ساختست   كه گل مهره اى چون تو پراداختست
رگت برتنست اى پسنديده خوى   زمينى در او سيصد وشصت جوى
بعد درسر ورأى وفكر وتميز   جوارح بدل دل بدانش عزيز

- لا يجمل بك مع مثل هذه السيادة ، أن تخفض رأسك إلا للطاعة والعبادة .

- بإنعامه أعطاك الحب لا التبن ، ولم يجعل رأسك فى العشب مثل الأنعام .

- ولكن لا تخدع بهذه الصورة المحببة إلى القلب ، وخذ السيرة الطيبة .

- يلزم الطريق المستقيم لا القامة المستقيمة ، لأن الكافر من حيث الصورة مثلنا .

- الذى أعطاك العين والفم والأذن ، لا تجد ولا تسع فى مخالفته إذا كنت عاقلاً .

- فلأ فرض أنك تدق العدو بالحجر ، لا تحارب الصديق على أى حال بالجهل .

- نو الطباع العاملة الذكية العارفو الجميل والمنة ، يسمرون النعمة بمسمار الشكر .

بهایم برو اندر افتاده خوار | تو همچون الف بر قدمها سوار
نگونی کرده ایشان سراز بهر خور | تو آری بعزت خورش پیش سر
نزیبد ترا باچنین سروری | که سر جز بطاعت فرود آوری
به انعام خود دانه ادات نه کاه | نکردت چو أنعام سر درگیاه
ولیکن بدین صورت دل پذیر | فریبا مشو سیرت خوب گیر
ره راست بایدنه بالای راست | که کافر هم از روی صورت چو ماست
ترا آنکه چشم ودهان داد وگوش | اگر عاقلی در خلافش مکوش
گر فتم که دشمن بکوبی بسنگ | مکن باری از جهل بادوست جنگ
خرد مند طبعان منت شناس | بدوزند نعمت به میخ سپاس

الفصل السادس

أدب النصيحة والحكمة

أدب النصيحة والحكمة

١- النصيحة والحكمة فى الشعر:

اهتم الفرس القدماء بالكتابة فى الحكمة وإسداء النصح، ويضم التراث الأدبى البهلوى قبل الإسلام كتبا ورسائل فى الحكمة والنصيحة، وقد نقل العرب فى مؤلفاتهم كثيراً من حكم الفرس وأقوالهم وتقبلوها بقبول حسن.

ومن أوائل الشعراء الذين نظموا فى الحكمة والنصيحة الشاعر أبو الحسن مجد الدين إسحق الكسائى المروزى وهو من شعراء أواخر القرن الرابع، وقد نظم الكسائى قصائده فى المدح وتتميز معظم قصائده بالمعانى الفلسفية، وقد قلد بعضها الشاعر ناصر خسرو فيما بعد، ويعد الكسائى أستاذاً فى الوصف وإيراد التشبيهات.

كما ينسب إلى الشاعر الرودكى نظم كتاب «كليلة ودمنة» الذى نقله من البهلوية إلى العربية ابن المقفع، إلا أنه لم يبق من هذه المنظومة إلا أبيات متناثرة فى كتب الأدب والمعاجم مثل معجم أسدى الطوسى المعروف باسم «فرهنگ أسدى» وكتاب آخر يسمى «تحفة الملوك» (١).

وأول منظومة متكاملة فى النصيحة تقابلنا فى الأدب الفارسى الإسلامى تلك المنظومة التى تسمى «پندنامه» أى كتاب النصيحة، للشاعر سعدى الشيرازى (متوفى ٦٩٤هـ)، وقد نظمها الشاعر فى مائة وتسعين بيتًا، مقلداً فيها كتاب «پند نامه» لفريد الدين أبى حامد محمد بن أبى بكر إبراهيم بن مصطفى العطار من كبار شعراء إيران (متوفى سنة ٦٢٧هـ)، وهو كتاب صغير مجمل ملىء بالمواعظ الأخلاقية.

---

(١) انظر كتاب: تاريخ أدبيات إيران - دكتر صادق رضا زاده شفق - چاپ يوم - تهران ١٣٥٢

ويمتدح سعدى فى كتابه بعد المقدمة بعض الفضائل كالكرم والسخاء والتواضع والعلم والعدل والقناعة والطاعة والعبادة والوفاء والشكر والصبر والصدق وغير ذلك، كما يذم بعض الصفات السيئة كالبخل والتكبر والظلم والحرص والكذب. ويبدأ الشاعر منظومته بأبيات فى مناجاة الله ومدح الرسول (ﷺ) (١)

- أيها الكريم ارحم حالنا ؛ فنحن أسرى شباك محبتك

- لا معين لنا غيرك ، يا غافر ذنوب المذنبين

- ابعدنا عن طريق الخطأ ، وتجاوز عن أخطائنا ، وأرنا الصواب .

- طالما استقر اللسان فى الفم ، يكون الثناء على محمد شيئًا محببًا للنفس .

- فهو حبيب الله ، أشرف الأنبياء ، ومتكأه العرش المجيد .

ثم يخاطب نفسه فيقول:

- انقضت أربعون سنة من عمرك الغالى ولم يتحول مزاجك عن حال الطفولة .

- وقضيتها كلها خاضعًا لهوى النفس ورغباتها ، ولم تتصرف لحظة بما فيه صالحك .

- فلا تعتمد على عمر غير مستقر ، ولا تأمن لزمن متقلب .

---

(١) كريما ببخشاى بر حال ما ... كه هستم اسير كمند هوا
ندارم غير ازتو فرياد رس ... تونى عاصيان را خطا بخش وبس
نگهدار ما را ز راه خطا ... خطا در گذار وصوابم نما

SADI'S SCROLL OF WISDOM-A. WOLLASTON P. 31 London 1908.

وإذا كان كتاب «پندامانه» للعطار تميز بالسهولة والسلامة فى التعبير، وتقديم النصح للنفس البشرية، فإن منظومة «پند نامه» لسعدى تتميز أيضًا بالسلاسة والعذوبة وتحاول تقديم النصح للإنسانية وبيان التمتع بالأخلاق الفاضلة والبعد عن الأخلاق الذميمة، ويستعين فى ذلك بتجاربه فى الحياة وما اكتسبه خلال رحلاته وأسفاره، ومن أبياته يصف الطاعة والعبادة وينصح بهما: (١)

- من كان الإقبال غلاما له ، مال قلبه نحو الطاعة دائمًا.
- لا يجب على الإنسان التمرد على العبودية ، فبالطاعة يمكن الحصول على السعادة والإقبال.
- فمن الطاعة تتيسر السعادة ويضيء القلب من نور الطاعة.
- فإذا عزمت على الطاعة والتزمت بها ، فتحت باب السعادة الأبدية.
- والعاقل من لا يتمنع عن الطاعة ، إذ لا فضل يفوقها.
- جدد الوضوء بماء العبادة ، لكى تنجو غداً من النار.
- وأقم الصلاة بنية مخلصة ، لكى تحصل على السعادة الأبدية.
- فضياء الروح يأتى من الطاعة ، مثلما تضيء الدنيا بنور الشمس.
- كن عابداً للخالق ، وكن ملازمًا لإيوان الطاعة.

---

(١) کسی راکه اقبال باشد غلام — برد میل خاطر بطاعت مدام
نشاید سر از بندگی تافتن — که دولت بطاعت توان یافتن
سعادت ز طاعت میسر شود — دل از نور طاعت منور شود
اگر بندی از بهر طاعت میان — گشاید در دولت جاودان
ز طاعت نه پیچد خرد مند سر — که بالای طاعت نباشد هنر
بآب عبادت وضو تازه دار — که فردا ز آتش شو رستگار =

- وإذا اخترت عبادة الحق، فستستقر أخيراً فى إقليم السعادة.

- ارفع رأسك من داخل رداء العفة، فالجنة مقر المتعفف الزاهد.

- أنر مصباح الروح بالتقوى، لكى تفوز كالمحظوظين.

- إن من يكتسى برداء الشرع، لا يخاف عذاب يوم الحساب.

ويقول فى بيان الصبر: (١)

- إذا كان الصبر ملازماً لك، ستحصل على السعادة الأبدية

- لأن الصبر من خصائص الأنبياء، ولايلوى المتدينون وجوههم عنه.

- والصبر يحقق للنفس أمانيها، ولا يوجد مفتاح لهذا سواه.

= نماز از سر صدق برپای دار   که حاصل کنی دولت پایدار
زطاعت بود روشنائی جان   که روشن زخورشید باشد جهان
پرستندهء آفریننده باش   در ایوان طاعت نشیننده باش
آگر حق پرستی کنی اختیار   در إقلیم دولت شوی شهریار
سر از جیب پرهیز گاری بر آر   که جنت بود جای پرهیز گار
زتقوی چراغ روان بر فروز   که چون نیکبختان شوی نیك روز
کسی راکه از شرع باشد شعار   نترسد ز أسیب روز شمار

(١) ترا گر صبوری بود دستیار   بدست آروی دولت پایدار
صبوری بود کار پیغمبران   نه پیچند زین روی دین پرو ران
صبوری گشاید در کام جان   که جز صابری نیست مفتاح آن
صبوری بر ارد مراد دلت   که از عالمان حل شود مشکلت
صبوری کلید در آرزوست   گشایندهء کشور آرزوست
صبوری بهر حال اول بود   که در ضمن آن چند معنی بود

- الصبر يحقق مراد قلبك، ويحل مشاكلك فى العالمين.

- الصبر مفتاح باب الأمانى، وفاتح مملكة الآمال.

- والصبر أولى بأى حال من الأحوال وفيه المعانى الكثيرة.

ويمتدح الشاعر فى منظومته الكرم ويعتبره سببًا للشهرة والسعادة فى الدنيا كما يرى أن فى السخاء دواء لكل الآلام والعلل وينصح بالتواضع لأنه يزيد الجاه كما يزداد ضوء القمر من الشمس، ويرفع من شأن الإنسان ويوصله للجنة ويرى أن الإنسان عليه أن يذوب فى طلب العلم كالشمعة ويعتبر طلب العلم فريضة عليه وينصح بالعدل ويضرب مثلاً على ذلك بعدل أنوشيروان ويرى أن عمران الدنيا يقوم أساسًا على العدل. والقناعة من الصفات المحببة التى ينصح الإنسان بالتحلى بها، كما أن شكر الله على نعمائه عمل وفضيلة يجب التحلى بها ومهما شكر الإنسان ربه على النعم فإنه لن يوفى حقه.

وهناك صفات ذميمة نصح الشاعر بالابتعاد عنها كالبخل، ويتحدث عن البخيل ويصفه بالذليل مهما كان مقدار ماله، ويرى أن الكرماء والأسخياء يتمتعون بأموالهم بينما يشقى البخلاء بذهبهم، ويذم التكبر ويجعله من عادات الجهلاء والذين لا يتصفون بالورع والتقوى ويذم الظلم ويصف الخراب الذى يحيق بالدنيا على يد الظالم بالخراب الذى يحيق ببستان مزدهر على يد رياح الخريف، والكذب من الأمور المذمومة أيضًا عنده وينصح بالابتعاد عنه لأنه يسىء للإنسان ويوصله للخراب.

ويختم الشاعر منظومته بأبيات تحت عنوان «فى عدم الأمل فى المخلوقات» يقول فيها: (١)

---

(١) در منع اميد از مخلوقات

ازين پس مكن تكيه برروزگار	كه ناگه ز جانت بر آرد دمار
مكن تكيه بر لشكر بيعدد	كه شايد زنصرت نيابى مدد
مكن تكيه بر ملك وجاه وحشم	كه پيش ازتو بودست وبعدازتوهم =

- لا تعتمد على الزمن من الآن فصاعداً، فجأة سيدمر روحك.

- ولا تعتمد على جيش جرار، فربما لايعينك على الانتصار.

- ولا تعتمد على الملك والجاه والحشم فقد كانوا جميعاً موجودين من قبلك وسيكونون من بعدك.

- لا تخطئ فتسئ إلى صديق حميم، فالبذرة السيئة لن تثمر ثمراً طيباً.

- لا تعتمد على الملك والحكم، ففجأة ستسلم الروح عندما يصدر الأمر.

- فكم من ملوك ذوى مكان رفيع، وكم من أبطال استولوا على الممالك.

- وكم من محاربين حطموا الجيوش، وكم من رجال كالأسود ضربوا بالسيوف.

- وكم من جميلات ممشوقات القد، وكم من لطيفات وجناتهن كالشمس.

- وكم من حسناوات فى ريعان الشباب، وكم من عرائس فى أبهى الزينات.

- وكم من مشاهير وملوك سعداء، وكم من ممشوقات القوام كالسرو ورديات الوجنات.

- مزقوا جميعاً ثياب العمر، وارتدوا ثوب التراب.

- وذهب محصول عمرهم أدراج الرياح، ولا يستطيع أحد العثور على أثر لهم.

فلا يتعلق قلبك بهذه الدار الفانية، فإنك لا ترى فيها قلباً سعيداً.

= مكن بد كه بد بينى ازيار نيك — نمى رويد از تخم بد بار نيك

مكن تكيه بر ملك وفرما ندهى — كه ناگه چو فرمان رسد جاند هى

بسا پادشاهان سلطان نشان — بسا پهلوانان كشور ستان

بساتند گردان لشكر شكن — بساشير مردان شمشير زن

- ولا يتعلق قلبك بهذا القصر الطيب الهواء، فمن سمائه يمطر البلاء.

- وليس للدنيا ثبات يا بنى، فلا تقض العمر فى غفلة.

- ولا يتعلق قلبك بهذا المنزل غير المستقر وتذكر قول سعدى هذا. [1]

وإذا بحثنا عن شعر النصيحة بعيداً عن المنظومات والكتب وجدناه فى بعض القصائد ومن ذلك ما نراه فى قصيدة للشاعر الخاقانى (متوفى ٥٩٥هـ) عنوانها «بحر الأبرار» وقد تأثر هذا الشاعر بالشاعر الصوفى سنائى، وينصح فى مقدمة قصيدته هذه بالقناعة وعدم التمسك بمفاتن الدنيا، ويذم الظلم وما يفضى إليه من سوء المنقلب، وينتقل إلى الترغيب فى الدين والائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه، وها هو ينصح الظالم بالانتباه من غفلته والكف عن أفعاله حتى ينجو فى الدنيا والآخرة، ويقول: [1]

- اخش؛ سهام الضعفاء تنطلق من كمين الليل، فبقدر ما تكون شكواه تكون طعناته.

- واحذر آهات المظلوم فهو يقظ متأهب، وقد يأتيك وابله وأنت نائم على وسادتك.

---

(١) بسا ماهرويان شمشاد قد   بسا نازينان خورشيد خد
بسا دلربا يان نو خاسته   بسا نو عروسان آراسته
بسانا مدار وبسا كا مگار   بسا سرو قد وبسا گلعذار
كه كردند پيراهن عمر چاك   كشيدند سر در گريبان خاك
چنان خر من عمر شان شد بباد   كه هز گز كسى زان نشانى نداد
منه دل برين منزل جانستان   كه دروى نه بينى دل شادمان
منه دل برين كاخ خرم هوا   كه مى بارد از آسمانش بلا
ثباتى ندارد جهان اى پسر   بغفلت مبرى عمر در وى بسر
منه دل برين دير ناپائدار   ز سعدى همين يك سخن ياد دار

(٢) بترس از تيرباران ضعيفان در كمين شب   كه هرگز ضعف نالان تر قوى تر زخم پيكانش
حذركن زآه مظلومى كه بيدارست وخون باران   تو شب خفته ببالين تو سيل آمد زبارانش
(انظر: بين الأدب العربى والفارسى والتركى - دكتور حسين مجيب المصرى - القاهرة ١٩٨٥م ص ١١٢).

وإذا كنا قد تحدثنا عن كتاب «بوستان» للسعدى الشيرازى على أنه كتاب فى الأخلاق فإننا نستطيع أيضًا ضمه إلى كتب النصيحة المنظومة شعرًا؛ ويضم كتابه عشرة أبواب يتناول فيها موضوعات عديدة فى العدل والإحسان والتواضع والرضا والقناعة والشكر والتوبة وغير ذلك، يقول فى الباب الرابع من كتابه عن التواضع ناصحًا به: (١)

---

(١) ترجمة البوستان للدكتور/ أمين عبدالمجيد بدوى ص ١٤٣

بزرگان نکردند در خود نگاه ... خدا بینی از خویشتن بین مخواه

بزرگی بناموس و گفتار نیست ... بلندی بدعوی وپندار نیست

تواضع سر رفعت افرازدت ... تکبر بخاك اندر اندازدت

بگردن فتد سرکش تند خوی ... بلندیت باید بلندی مجوی

ز مغرور دنیا ره دین مجوی ... خدا بینی از خویشتن بین مجوی

گرت جاه باید مکن چون خسان ... بچشم حقارن نگه در کسان

گمان کی برد مردم هوشمند ... که در سرگرانیست قدر بلند

ازین نامورتر محلی مجوی ... که خوانند خلقت پسندیده خوی

نه گر چون توئی برتو کبر آورد ... بزرگش بینی بچشم خرد؟

تو نیز آر تکبر کنی همچنان ... نمائی، که پیشت تکبر کنان

چواستادهء بر مقامی بلند ... بر افتاده گر هوشمندی مخند

بسا ایستاده در آمد زپای ... که افتاد گانش گرفتند جای

گر فتم که خود هستی ازعیب پاك ... تعنت مکن بر من عیبناك

یکی حلقهء کعبه دارت بدست ... یکی در خراباتی أفتاده مست

گر آنرا بخواند؛ که نگذاردش؟ ... ور این را براند، که باز آردش؟

نه مستظهر است آن بأعمال خویش ... نه این در توبه بستست پیش

(كليات سعدى ص ٣١٠).

- العظماء لم ينظروا إلى أنفسهم بإعجاب، لا تطلب مراقبة الله من المغرور.

- ليست العظمة بالكبر والادعاء والكلام، والرفعة ليست بالدعوى والغرور.

- التواضع يرفع رأس رفعتك والتكبر يلقيك فى التراب.

- المتمرد الحاد الطبع يقع على عنقه، إذا أردت الرفعة فلا تتعال ولا تتكبر.

- لا تطلب طريق الدين من المغرور بالدنيا، ولا تطلب مراقبة الله من المغرور المعجب بنفسه.

- إذا أردت الجاه فلا تفعل مثل الأسافل، فتنظر إلى الناس بعين الاحتقار.

- متى وكيف يظن الرجل العاقل أن القدر الرفيع فى الكبر والصلف.

- لا تطلب محلا أشهر وأسمى من أن يدعوك الخلق محمود الخلق.

- أليس إذا تكبر عليك شخص مثلك، لا تراه بعين العقل كبيراً؟

- أنت أيضًا إذا تكبرت، تبدو مثلما يبدو أمامك المتكبرون.

- حيث تكون واقفًا على مقام عال، لا تضحك على الساقط العاجز إذا كنت عاقلاً.

- فكثيراً ما سقط الواقف، فأخذ الساقطون العاجزون مكانه.

- فلأفرض أنك أنت نفسك مبرأ من العيب، فلا تتعنت معى أنا المعيب.

- شخص بيده حلقة باب الكعبة، وشخص واقع سكران فى حانة.

- إذا دعا الله ذلك السكران فمن يمنعه؟ إذا طرد هذا الذى بيده الحلقة فمن يرده؟

- لا ذلك الذى بيده الحلقة مستظهر بأعماله. ولا هذا السكران باب التوبة مغلق أمامه.

ومن الذين نظموا شعرًا فى الحكمة والنصيحة أيضًا الشاعر نور الدين عبد الرحمن الجامى (٨١٧-٨٩٨هـ) الذى يعد من أعظم شعراء إيران كما سبق أن أشرنا إلى ذلك؛ إذ هو صاحب ثلاثة دواوين وسبع مثنويات. بالإضافة إلى ما ألفه فى تفسير القرآن وعلم الحديث وتراجم المتصوفة والصرف والنحو العربيين والعروض والقافية وغير ذلك، ومن كتبه النثرية كتاب «نفحات الأنس» و«شواهد النبوة و«اللوايح» و«بهارستان» وقد ألف الكتاب الأخير على غرار كتاب «گلستان» للشاعر سعدى الشيرازى (متوفى ٦٩١هـ)، وهو يشتمل على ثمانية فصول يتحدث فيها عن كلام الحكماء وعدالة السلاطين والسخاء والكرم وأحوال الشعراء وغير ذلك من الموضوعات، ويختلط النثر فى هذا الكتاب بالنظم.

أما عن مؤلفاته المنظومة فهى سبع مثنويات تسمى «هفت اورنگ» وهى عبارة عن: سلسلة الذهب، سلامان وإبسال، وتحفة الأحرار، وسبحة الأسرار، ويوسف وزليخا، وليلى والمجنون، وخردنامه اسكندرى. أما دواوينه الثلاثة فيسمى الأول فاتحة الشباب، والثانى واسطة العقد، والثالث خاتمة الحياة. وكان الجامى على علم تام باللغة العربية وآدابها، ويتضح ذلك من خلال مؤلفاته وأشعاره على السواء، ويعتبر كتابه «الفوائد الضيائية» الذى ألفه لابنه ضياء الدين يوسف وشرح فيه كافية ابن الحاجب من كتب النحو العربى الهامة. كما يظهر فى شعره تأثير الشعر العربى وأفكاره ومضامينه عليه، وقد اقتبس كثيرًا من معانى االقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة فى مثنوياته، وترجم أربعين حديثًا نبويًا إلى اللغة الفارسية: (١)

---

(١) انظر كتاب «از سعدى تاجامى» - ترجمة على أصغر حكمت - تهران ١٣٥١ ص ٧٤٥ وما بعدها.

چند روزى ز قوى دينان باش ⠀⠀ در بى حاجت مسكينان باش

شمع شو شمع كه خود را سوزى ⠀⠀ تا بآن بزم كسان افروزى

بايد ونيك نكو كارى ورز ⠀⠀ شيوهء يارى وغمخوارى ورز

ابر شو تاكه چو باران ريزى ⠀⠀ بر گل وخس همه يكسان ريزى

چشم از لغرش باران مفكن ⠀⠀ بملامت دل ياران مشكن =

ومن أمثلة شعره الذى يتضمن نوعًا من النصح تلك الأبيات التى يتحدث فيها عن فعل الخير ومساعدة الناس، وهى من منظومة «سبحة الأبرار» يقول:

- كن قوى الدين زمنًا، واسع وراء حاجة المساكين.

- كن شمعة تحترق لتضيء مجالس الأخرين.

- كن حسن الفعال مع الطيب والشرير، واسلك طريق المحبة ومواساة الآخرين.

- كن كالسحاب عندما يمطر، فهو لا يفرق بين الورود والأشواك.

- لا تسلط نظرك على زلل الآخرين وعيوبهم، ولا تؤلم قلوب الأصدقاء باللوم.

- كن طاهرًا خاليًا من التلوث كالبحر، وأزل تلوث الملوثين.

- لا تنظر إلى نفسك بعينك، ولا تنظر إلى نفسك على أنك أفضل من الآخرين.

- فكم من المنازل ما تكون موطنًا للآلام، وكم من الخرابات ما تخفى الكنوز الثمينة.

- ابسط مائدة الكرم للجميع، وابذل عطاياك لهم.

- امتنع عن أذية الخلق، وامدد يدك لمساعدتهم.

- لا تسترد ما تعطى من أحد، ولا تفكر فيه مرة ثانية.

= باش چون بحـر ز آلایش پاك — ببـر آلایش از آلایشناك
همچو دیده بسوی خویش مبین — خویش را از دگران بیش مبین
بس عمارت كه بود خانهء رنج — بس خرابی كه شود پردهء گنج
بسط كن برهمه كس خوان كرم — بذل كن بر همه همیان درم
بازكش پای ز آزار همه — دست بگشای باءیثار همه
هرچة بدهی بكسی باز مجوی — دل زاندیشهء او پاك بشوی

ويقول فى بعض أبيات له يذم فيها الطمع وينصح بالابتعاد عنه والتخلص منه[1]:

- كل من يميل قلبه للعدل، قل له: لا تطمع فى مال الناس.
- فالطمع والعدل كالنار والماء، فكيف يجتمعان فى مكان واحد؟
- عندما يدق الطمع باب المنزل، يفر العدل من النافذة.
- وإذا كان الطمع يجلب العار للفقير، فكيف يليق بالسلطان أن يفعل هذا؟
- وا أسفاه على السلطان العظيم، عندما يستولى عنوة على الذهب والمتاع.

وقال كذلك ما ترجمته:

- إن عظمة السلطان تكفيه فخراً، قل له: لا تشغل فكرك بالذهب والمتاع.

قال المأمون ذات ليلة لابنه: يامن أنت فى السعادة والحظ موفقًا دائماً،

عندما تصل الخلافة إليك، لا تجعل الحرص على الدنيا آفتك.

فالشبع من الذهب والفضة يكون أمراً صعبًا لمن ينتزعهما من الأمَة أحيانًا،

ومن اليتيم أحيانًا أخرى.

---

(١) من منظومة «سلسلة الذهب»:

هر كه را دل بعدل شد مايل ... طمع از مال خلق گو بگسل

طمع وعدل آتش وآبند ... هر دو يكجا قرار كى يابند؟

چون بكيد طمع در مسكن ... عدل بيرون گريزد از روزن

از طمع چون بود گدا را ننگ ... كى سزد شاه را بان أهنگ

حيف باشد ز شاه فرخ فر ... ظلم جوئى پى زر وزيور

زيور شاه وصف شاهى بس ... گو مده دل بزر وزيور كس

ويتحدث الشاعر فى موضع آخر عن الدنيا وما يعانيه الإنسان فيها ويشبهها بالفخ الذى يقع فيه الطائر، فيقول [(١)] :

- نعم نعم فى هذه الدنيا الفانية. تختلط الراحة والمعاناة معًا.

- فالطائر الذكى عندما يرى حبًا على الأرض، يعرف أن فخًا قد نُصب له.

- فيعمل بحزم فترة، ويختار الصبر على الحب،

- حتى تذهب الطيور الأخرى الغافلة إلى الحب قبله،

- فإذا لم تصب بسوء من الفخ، اتجه إلى الحب متبخترًا،

- وإذا أصابهم أذى أو ضرر من الحب، فإنه يفر هاربًا وهو فارغ البال.

- ونحن فى هذا الفخ السفاك للدماء (الدنيا)، أقل من هذه الطيور مائة مرة،

- لأننا لا نخشى أى ضرر من هذا الفخ، بل لا نفرق بين الحب والفخ،

- ونرى الفخ ونظنه حبًا، ولا نعتبر الفخ سوى خرافة.

---

(١) من منظومة «سلسلة الذهب» :

آرى آرى درين سراى سپنج ... باهم آميختست راحت ورنج

مرغ زيرك چو در زمين بيند ... دانه را دام در كمين بيند

يك زمانى بحزم كار كند ... صبر از دانه اختيار كند

تا دگر مرغكان غفلت كيش ... سوى دانه روند ازوى پيش

گر نيايد گزند شان از دام ... كند او نيز سوى دانه خرام

ور رسدشان زدانه رنج وملال ... رو نهد در گريز فارغ بال

ما در اين دام گاه خونخواره ... كم از آن مرغكيم صد باره

هيچ أز أسيب دام نهراسيم ... بلكه دانه ر دام نشناسيم

دام بينيم ودانه پنداريم ... دام را جز ز افسانه نشماريم

٢ - النصيحة والحكمة فى النثر:

من أهم كتب النصيحة الفارسية كتاب «قابو سنامه» الذى ألفه الأمير عنصر المعالى كيكاوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمگير بن زيار، وهو عاشر الأمراء الزياريين (٣١٥-٤٧٠هـ) وسابع ولاتهم. وقد حكم قهستان من سنة ٤٤١ وحتى ٤٦٢هـ. حيث انتقل إلى رحمة مولاه. ويستفاد من كتابه هذا أنه تعلم الفروسية والآداب والفنون والسباحة. واشتغل فترة بمنادمة السلطان مودود بن مسعود كما اشترك فى غزوات الهند والروم وذهب للحج أيام القائم بأمر الله وقد رزقه الله التوبة فى سن الخمسين فعزف عن اللهو والشراب وغلب عليه الزهد والورع، وقد استفاد من تجاربه فى الحياة فى تأليف كتابه هذا الذى قدمه لابنه گيلا نشاه ليعلمه كيف يعيش ويحكم. وتجمع كتب الأدب على أنه ألف كتابه هذا فى أواخر عمره وأنه توفى سنة ٤٦٢هـ. ويضم كتابه قابو سنامه واحداً وثلاثين بيتًا من شعره، مما يدل على أنه كان شاعراً مجيداً، إلا أنه يتميز فى الكتاب عنه فى قول الشعر.

ويسمى هذا الكتاب أحيانًا باسم «كتاب النصيحة» وهو يطابق موضوع الكتاب والغرض منه، وقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات عديدة منها الألمانية والفرنسية والتركية والإنجليزية والروسية، وكذلك إلى العربية[١].

يشتمل كتاب «قابو سنامه» على أربعة وأربعين بابًا، يعالج المؤلف فى كل باب منها موضوعًا خاصًا، وتدل هذه الأبواب على سعة اطلاع مؤلفها وثقافته وتمكنه من العلوم والفنون التى كانت سائدة فى عصره، كما أنه يجسد الأوضاع الاجتماعية والسياسية التى كانت تسود دولة الخلافة العباسية وحواضرها.

---

(١) انظر مقدمة ترجمة قابو سنامه - تعريب محمد صادق نشأت ودكتور/ أمين عبد المجيد بدوى - طبعة القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.

ومن الممكن تقسيم أبواب الكتاب من حيث الموضوع إلى أقسام ثمانية(١):

أولها: فى النصائح التى قل من أن يخلو منها فصل منه وتستغرق الباب الثامن بأكمله فى نصائح أنوشيروان العادل.

ثانيها: فى العظات أى النصائح ذات الطابع الدينى وهى موجودة فى ثنايا المقدمة وأبواب أخرى متفرقة كالأبواب الخمسة الأولى.

ثالثها: فى الحياة وفن المعاشرة، وهى موجودة فى الأبواب: من العاشر وحتى الباب الثامن والعشرين.

رابعها: فى الأخلاق والتربية، وهى موجودة فى أبواب متفرقة.

خامسها: فى طلب العلم وتحصيل الفضل، وهى موجودة أيضًا فى أبواب متفرقة.

سادسها: فى الرياضة، وهى موجودة فى البابين الثامن والتاسع عشر.

سابعها: فى الحرف، وهى موجودة فى أبواب متفرقة من الكتاب.

ثامنها: فى السياسة وإدارة المملكة، وهى موجودة فى أبواب متفرقة من الكتاب.

وفى هذه الأبواب نجد مجموعة من الأخبار والحكم والحكايات والأحاديث والآيات القرآنية وأبيات الشعر استعان بها المؤلف لتوضيح أفكاره وتأييد آرائه.

وإذا تناولنا كل موضوع من هذه الموضوعات على حدة، وجدنا أن النصيحة تعم كل أبواب هذا الكتاب، ويقتصر الباب الثامن على مجموعة من النصائح تنسب إلى أنوشروان العادل يقدمها لابنه. ويقول مؤلف الكتاب فى ختامها «هذه كانت كلمات أنوشروان العادل فإذا قرأتها فلا تختصر هذه الألفاظ فإن أريج الحكمة وعبير الملك يتضوعان من هذه الأقوال لأنها كلام الحكماء وكلام الملوك، وتعلم الآن وأنت شاب

(١) المصدر السابق ص ٣١ وما بعدها.

إذ حينما تصير شيخًا لا تكون بك حاجة إلى سمـــاع وتعـلم النصيحـــة والحكمـة، لأن الزمان نفسه يكون قد علم الشيوخ»[١].

ومن هذه النصائح قول أنو شيروان: [٢]

- لا تصادق الجاهل، فإن الجاهل ليس جديرًا بالحب أو البغض.

- اجتنب من يرى نفسه عالمًا وهو جاهل.

- انصف بنفسك لتستغني عن القاضي.

- قل الحق وإن يكن مرًا، وإذا أردت أن لا يعرف العدو سرك فلا تفشه للصديق.

---

(١) این بود سخنهای تو شیروان عادل چون بخوانی این لفظها را خوار مدار که ازین سخنان بوی حکمت وبوی ملك می آیدکه سخن حکماست وسخن ملوك واکنون آموز که جوانی چون پیر گردی تراخود بشنودن وآموختن پند وحکمت حاجت نباشد که پیرانرا خود روزگار آموخته باشد.

(قابوسنامه ص ٤٢ وما بعدها الترجمة العربية ص ٨٠ وما بعدها).

(٢) با مردم بی هنر دوستی مکن که مردم بی هنر نه دوستی را شاید ونه دشمنی را.

- پرهیز از کسی که خود را دانا داند ونادان باشد

- داد از خود بده تا داور مستغنی باشد.

- حق بگوی اگر چه تلخ باشد واگر خواهی که راز تود شمن نداند بادوست مگوئی.

- هر بزرگ که خود را خرد نگارد بزرگ زمان باشد.

- اگر خواهی که بی رنج تو انگر باشی پسندیده کار باش.

- از گر سنگی مردن به که بنان فروما یگان سیر شدن.

- جرمی بزرگتر از آن نبود که بچیزی دعوی کند که نداند وآنگاه دروغ گوی گردد.

- هر بنده که اورا بخرند وبفروشند آزادتر از آن کس دان که بندهٔ گلو باشد.

- هر کسی که آموزش روزگار اورا دانا نکند هیچ دانا را درآموختن رنج نباید برد.

- اگر خواهی که از رنج دور باشی حسود مباش.

- اگر خواهی که بأبرو باشی آزرم را پیش گیر.

- اگر خواهی که از پشیمانی دراز ایمن گردی بهوای دل کارمکن.

- اگر خواهی که از شمار آزادگان باشی طمع را در دل خود جای مده.

- كل عظيم يعتبر نفسه صغيراً فهو عظيم الزمان.

- إذا أردت أن تكون غنياً بلا عناء فكن حميد الأفعال.

- الموت جوعاً خير من الشبع بخبز اللئام.

- لا جرم أكبر من أن يدعى الشيء من لا يعرفه فيصير كذاباً.

- أعتبر العبد الذى يشترى ويباع أكثر حرية ممن يكون عبداً لبطنه.

- لا ينبغى لأى عالم أن يتعب فى تعليم من لم يؤدبه تعليم الزمان.

- إذا أردت أن تكون بعيداً عن الأذى فلا تكن حسوداً.

- إذا أردت أن تكون محترماً فالتزم الحياء.

- إذا أردت أن تأمن طول الندم فلا تعمل بهوى القلب.

- إذا أردت أن تكون فى عداد الأحرار فلا تدع للطمع موضعاً فى قلبك.

وفى الأبواب التى تشتمل على مواعظ دينية كالباب الأول (فى معرفة الله تبارك وتعالى) ينصح مؤلف الكتاب ابنه بأن ينظر إلى المصنوع ليعرف الصانع، ويتفكر فى آلاء الخالق ولا يفكر فى ذاته كما قال النبى (ﷺ) «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته». ويعظه فى الباب الثالث وينصحه بشكر الله ويقول له: «اعلم يا بنى أن شكر المنعم واجب على جميع الخلق على قدر التكليف لا على قدر الاستحقاق، إذ لو جعلوا جميعاً كل كيانهم شكراً، لا يكونون قد أدوا بعد شكرهم جزءاً من ألف». ويقول: «اعلم أن الصلاة والصوم خاصتان بالله، فلا تقصر فيهما، لأنك إذا قصرت فى الخاص، حرمت من العام، واعلم أن صاحب الشريعة قد عدل الصلاة بالدين كله، فمن ترك الصلاة، فكأنما ترك الدين كله».

وينصح المؤلف ابنه فى الباب الرابع بأداء الزكاة والحج وأن الله عز وجل خص ذوى النعمة واليسار بهاتين الفريضتين، وفى الباب الخامس ينصحه بإطاعة الوالدين وتأدية حقهما.

وفى الأبواب التى يتناول فيها المؤلف الحياة وفن المعاشرة ينصح ابنه بخصوص ترتيب تناول الطعام فى الباب العاشر ويرى أن بعض الناس يتناولون الطعام ليلاً فيصابون دائمًا بالتخمة، والأصوب عنده أن يتناول الناس قليلاً من الزاد فى الصباح ثم يذهبون إلى أعمالهم حتى صلاة الظهر، ويحضرون ما يتناولونه من الطعام معهم ويأكلون، ولا ينبغى أن يأكلوا بعجلة وأن يتمهلوا ويجوز أن يتحدثوا إلى الناس على الطعام، ولكن ينبغى على الإنسان أن يطرق برأسه ولا ينظر إلى لقم الناس. كما ينبغى أن توضع آنية الطعام أمام الضيف قبل أن توضع أمام المضيف.

وفى الباب السابع عشر ينصح ابنه بعدم النوم الكثير لأنه «عادة غير ممدوحة تخمل البدن وتذهل الطبع» كما أن قلة النوم ضارة كذلك، وينصحه بعدم النوم وحيداً فى الليل أو النهار، وأن يتعود على الاستيقاظ مبكرًا وتأدية فريضة الصلاة.

وفى الباب الحادى والعشرين (فى جمع المال) ينصح المؤلف ابنه بأهمية الحصول على المال ويقول له «أى بنى لا تغفل عن جمع المال، ولكن لا تلق بنفسك فى الخطر من أجله، واجتهد فى أن يكون كل ما تحصله على خير وجه ليكون هنيئًا لك، وإذا حصلت عليه فاحفظه، فإن حفظه أصعب من جمعه، وحينما تضطر للإنفاق فاجتهد حتى تضع عوضه سريعًا فى مكانه. واعلم أن زينة المرء فى بذله للمال. ولكن اعلم أن الإسراف عدو الله.

وفى الباب الثالث والعشرين (فى شراء الرقيق) يقول لابنه: «إذا أردت أن تشترى الرقيق فكن فطنًا لأن شراء الآدمى علم صعب.. واعلم أن هنالك ثلاثة شروط فى شراء المماليك: أحدها معرفة عيوب وفضائل ظاهرهم وباطنهم بالفراسة والوقوف على العلل الخفية والظاهرة بالعلامات ثم معرفة الأجناس وعيوب وفضائل كل جنس..» ثم يفصل القول فى كل شرط من هذه الشروط.

وفى الباب الرابع والعشرين (فى شراء البيت والضياع) يقول لابنه: «أى بنى اعلم أنه ينبغى أن تراعى حد الشرع إذا أردت أن تشترى ضيعة أو بيتًا أو أى شىء تريد، واشتر كل ما تشتريه فى وقت الكساد وبع كل ما تبيع فى وقت الرواج، اطلب الربح

ولا تأنف.. وإذا حضرت البيع والشراء وأردت أن تشترى بيتًا فاشتره فى حى صالح أهله، ولا تشتره على حافة المدينة ولا تحت سورها، ولا تبتع بيتًا خربًا لرخصه، وانظر أولاً إلى الجار، فقد قيل الجار ثم الدار..».

وفى الباب الخامس والعشرين ينصحه بالنسبة لشراء الخيل ويقول: «ومعرفة جيد الخيل ورديئها أصعب من معرفة جيد الناس ورديئهم، لأن معنى المرء موجود مع دعواه، ودعوى الحصان رؤيته، ولأجل أن تعرف المعنى انظر أولاً إلى منظره.. فينبغى أن تكون الأسنان متصلة ودقيقة وبيضاء والشفة السفلى أطول من الشفة العليا والأنف عاليًا وواسعًا ومسحوبًا، وأن يكون عريض الجبهة وأملس العذار وطويل الأذن وطرف أذنه مدببًا ومرتفعًا..» ويردد المؤلف كثيراً من الأوصاف التى يجب أن يتصف بها الجواد الجيد.

وفى الباب السادس والعشرين يتناول المؤلف موضوع الزواج وينصح ابنه بقوله: «أى بنى إذا تزوجت المرأة فأحسن رعاية حرمتها، ولا تضن بالمال على أسرتك وولدك،.. أما إذا تزوجت فلا تطلب مال المرأة، أما المرأة فيجب أن تكون طاهرة متدينة وربة بيت ومحبة لزوجها وحيية وتقية وقصيرة اللسان واليد، ومحافظة على المال لتكون صالحة...».

وفى الباب الثامن والعشرين يتحدث المؤلف عن الصداقة واتخاذ الأصدقاء. فيقول: «اعلم يا بنى أنه لابد للناس من الأصدقاء ماداموا أحياء، لأنه إذا لم يكن للمرء أخ فذلك خير من أن يكون بغير صديق... وأحبب الأصدقاء الذين يحبون أصدقاءك، واحذر من الأصدقاء الذين يحبون عدوك...».

أما فى الأخلاق والتربية، فهناك أبواب فى الكتاب تتناول موضوعاتها هذا الجانب، ومثال ذلك ما جاء فى الباب السابع حول الحسن والقبيح فى الكلام، إذ يقول المؤلف لابنه ناصحًا: «أى بنى كن لسنًا ولكن لا تكن كذابًا، ولا تجعل نفسك معروفًا بالكذب وكن معروفًا بالصدق.. وحذار أن تقول كلامًا باردًا، فإن الكلام البارد بذر تنبت منه العداوة، وإذا كنت عالمًا فعد نفسك جاهلاً، لكى ينفتح عليك باب التعلم، ولا تنقض أى كلام أو تمدحه مالم تدرك عيبه وفضله، وتكلم على نسق واحد مع الخاص والعام

حتى لا تخرج عن حد الحكمة.. وانظر لمن تتحدث إليه أهو مشتر لكلامك أم لا، فإذا وجدته مشتريًا فبع، وإلا فقل ما يعجبه ليشترى منك..».

وفى الباب الثانى والعشرين يتحدث المؤلف عن الأمانة وأن الإنسان إذا قبلها لابد أن يحافظ عليها ويعيدها إلى صاحبها سالمة.

وفى الباب الثلاثين يتناول المؤلف موضوع العفو والعقوبة فيقول لابنه: «أى بنى لا توجب على الناس العقوبة فى كل ذنب، وإذا أذنب إنسان فالتمس لذنبه عذرًا فى قرارة نفسك.. ولا تعاقب بالباطل حتى لا تصير مستوجب العقوبة بغير جريرة، ولا تغضب لكل شىء وتعود كظم الغيظ وقت الضجر، وإذا طلب منك العفو عن ذنب فاعف...».

أما فى طلب العلم وتحصيل الفضل، فقد تحدث المؤلف فى الباب الحادى والثلاثين عن طلب علم الدين والقضاء وغير ذلك، وهو ينصح ابنه بتعلم علم الدين ويرى أن «أجل علم هو علم الدين لأن أصوله على الدوام التوحيد وفروعه أحكام الشرع وحرفته نفع الدنيا والأخرة.. فيابنى در ما استطعت حول علم الدين لتظفر بالدنيا والآخرة».

وفى الباب الثالث والثلاثين يتحدث عن علم الطب، وفى الباب الرابع والثلاثين يتحدث عن علم النجوم والهندسة، وفى الباب الخامس والثلاثين يتناول علم الشعر، وينصح ابنه فى الباب الأخير بقوله: «إذا كنت شاعرًا فاجتهد أن يكون كلامك سهلاً ممتعًا، وتحاش الكلام الغامض، ولا تقل ما تعرفه أنت ولا يعرفه سواك فيحتاج إلى الشرح، لأنهم يقرضون الشعر من أجل الناس لا من أجل أنفسهم، ولا تقنع بالوزن والقوافى الفارغة، ولا تقل الشعر بغير صناعة وترتيب.. واعرف علم العروض وتعلم الشعر والألقاب ونقد الشعر.. ويجب على الشاعر أن يكون عارفًا بطبع الممدوح ويعلم ما يروقه، لأنك ما لم تقل ما يريد فإنه لا يعطيك ما يليق بك..».

وفى الباب التاسع والثلاثين يتحدث المؤلف عن الكتابة والإنشاء فيقول لابنه: «إذا كنت كاتبًا فينبغى أن تكون قوى البيان وذا خط حسن وأن لا تعتاد التجاوز فى العبارة وأن تتعود كثرة الكتابة لتصير ماهرًا... وزين كتابك بالاستعارات والأمثال والآيات القرآنية والأخبار النبوية..».

ولم يترك المؤلف مجالاً من المجالات إلا ونصح ابنه فيه، فقد تحدث عن الرياضة فى بابين من كتابه، فتحدث فى الباب الثامن عشر عن الصيد والطرد، وتحدث فى الباب التاسع عشر عن لعب الصولجان. أما بالنسبة للصيد فيقول ناصحًا ابنه: «اعلم يا بنى أن ركوب الخيل والطرد عمل المحتشمين، وخاصة فى الشباب، ولكن ينبغى أن يكون لكل أمر حد ومقدار، ولا يمكن الصيد كل يوم، والأسبوع سبعة أيام، فاخرج يومين للصيد، واشتغل ثلاثة أيام بالطاعة، ويومين بتدبير شأنك..»، ثم يحدثه عن كيفية الصيد وما هى الحيوانات التى يقوم بمطاردتها والحيوانات التى يتجنبها لما تحمله مطاردتها من مخاطر. أما فى لعب الصولجان فينصحه أيضًا بألا يصبح عادة دائمة، بل يلعبه مرة أو مرتين فى السنة.

ويحدث المؤلف ابنه عن بعض الحرف وخصائصها كالتجارة فى الباب الثانى والثلاثين، والغناء فى الباب السادس والثلاثين، والزراعة والصناعة فى الباب الثالث والأربعين، وهو فى حديثه عن كل حرفة من هذه الحرف يظهر براعة وخبرة، ويؤيد رأيه دائمًا بالحكايات.

أما فى موضوع السياسة وإدارة المملكة فقد أفاض فى الحديث عنها، فتحدث عن قتال الأعداء فى الباب العشرين، وينصح ابنه بالقضاء السريع على أعدائه فيقول له: «حينما تكون فى ميدان القتال لا يجوز التراخى والتريث، بل يجب أن تتغدى بعدوك قبل أن يتعشى بك.. ولا تتراجع خطوة فى المعركة مادمت تستطيع التقدم خطوة.. واجعل الموت شهيًا إلى القلب فى ذلك المكان.. وكن مقدامًا...».

وفى الباب التاسع والعشرين يتحدث عن الحذر من العدو وينصح ابنه قائلاً: «اجتهد يا بنى أن لا تعادى، فإن يكن هنالك عدو فلا تخف، ولا تكن حرج القلب، فكل من ليس له عدو يكون كما يشتهى العدو. ولكن لا تغفل عن عمله فى الخفاء والعلن، ولا تأمن شره، واشتغل دائمًا بتدبير المكر به والإساءة إليه ولا تأمن بأى حال من حيلته ومكره..».

وفى الباب السابع والثلاثين يتناول موضوعًا آخر هو «خدمة الملوك» وما يجب على من يقوم بهذه الخدمة أن يفعل، يقول المؤلف: «إذا اتفق أن تكون من جملة حاشية الملك وتتصل بخدمته، فمهما مكنك الملك لديه فلا تغتر بقربه وتباعده، ولكن لا تهرب من الخدمة، إذ من قرب الملك ينشأ البعد، ومن خدمته يحصل القرب، وإذا آمنك يومًا من نفسك فكن غير آمن ذلك اليوم، لأن كل من يسمن على يد شخص يجب أن يتوقع منه الإسراع فى ذبحه.. ولا تقل أى كلام إلا على مراد الملك.. ولا ترشد مليكك إلا إلى عمل الخير، وإذا علمته السوء يسىء إليك...».

وفى الباب الأربعين يتحدث المؤلف عن «شرائط الوزارة» ويقول ناصحًا لابنه كيلانشاه: «أى بنى إذا اتفق لك أن تكون وزيرًا فكن محاسبًا واعرف المعاملة جيدًا واستشعر الصدق مع مولاك، وأنصف ولى نعمتك، ولا تطلب الكل لنفسك، فإنك لا تعطى الكل...».

وفى الباب الحادى والأربعين يتناول نظام القيادة وينصح ابنه إذا كان قائدًا أن يكون محسنًا إلى العسكر والرعية، وأن يبعث فى يوم المعركة إلى الميمنة والميسرة بالقواد الذين مارسوا الحروب وخبروا الدنيا، وأن يقيم أشجع القواد مع خير طائفة فى الجناح، ويجب ألا ينظر القائد إلى العدو على أنه ضعيف مهما كان ضعيفًا، وأن يرسل لاستطلاع حال العدو.

أما فى الباب الثانى والأربعين يتحدث عن «آداب الملك» ويقول لابنه ناصحًا: «أى بنى إذا صرت ملكًا يومًا ما فكن ورعًا، وكف عينك ويدك عن حرم المسلمين،.. وشاور عقلك أولاً فى كل عمل تريد أن تعمله لأن وزير وزراء الملك هو العقل.. ولا ترض الجور، وانظر إلى كل الأعمال والأقوال بعين العدل حتى تستطيع أن ترى الحق والباطل فى كل الأمور.. وكن عزيز اللقاء حتى لا تصير حقيرًا فى أعين الجند والرعية.. وكن رحيمًا بعباد الحق تعالى ولكن لا ترحم من لا يرحمون...».

نموذج من كتاب «قابو سنامه»[1]

الباب التاسع: فى الشيخوخة والشباب:

أى بنى مهما تكن شابًا فكن ذا عقل شيخ، لا أقول لا تكن شابا فتيا، ولكن كن شابًا مسيطرًا على نفسه. ولا تكن من الشباب الذابلين، لأن الشاب الحصيف حسن لطيف كما يقول أرسطاطاليس (الشباب شعبة من الجنون)، ولا تكن أيضًا من الشباب الجاهلين لأن البلاء لا ينشئ الحصافة، ومن الجهل ينشأ البلاء، وخذ نصيبك بقدر الطاقة من أيام الشباب، فإنك إذا صرت شيخًا لا تستطيع أن تستجمع نفسك، كما قال ذلك الشيخ: «لقد تحسرت واغتممت من السنين الطوال قائلاً: عندما أصير شيخًا لا يرغب فىّ الحسان، والآن وقد صرت شيخًا فإنى أنا نفسى لا أرغب فيهن، وإذا أنا رغبت فإنه لا يليق»، ومهما تكن شابًا فلا تنس الله عز وجل ولا تأمن الموت، فإن الموت لا يعرف الشاب ولا الشيخ، كما يقول العسجدى:

لم يكن الموت بالشيخوخة والشباب ولا أن يموت الشيخ ويعيش الشاب

حكاية

يحكى أنه كان بمدينة الرى خياط له دكان فى بوابة الجبانة قد علق كوزًا فى مسمار، وكان له شغف بأن يلقى حصاة فى ذلك الكوز كلما خرجت جنازة من البوابة، ويحصيها كل شهر قائلاً: إنه قد مات فى هذا الشهر كذا شخص، ويفرغ الكوز ويلقى به الحصى ثانيًا إلى الشهر التالى، حتى انقضى على ذلك زمن، ومات الخياط، فجاء رجل فى طلبه، ولم يكن يدرى أنه قد مات، فلما رأى باب الدكان مغلقًا سأل جيرانه أن أين الخياط؟ فقال الجار: إن الخياط وقع فى الكوز أيضًا.

(١) ترجمة قابو سنامه ص ٨٤ وما بعدها.

ولكن يا بنى كن فطنًا، ولا تغتر بالشباب، واذكر الله عز وجل فى الطاعة والمعصية فى أى حال تكون، اطلب العفو واخش الموت حتى لا تقع مثل الخياط فى الكوز فجأة مثقلا بالمعاصى، ولا تجعل كل صحبتك ومعاشرتك مع الشبان، وجالس الشيوخ كذلك، واجعل رفقاءك وندماءك خليطًا من الشيوخ والشباب، حتى إذا قال شاب محالاً بسبب السكر ينبهك الشيخ، لأن الشيوخ يعرفون أشياء لا يعرفها الشباب، ولو أن غالب الشباب يضحكون من الشيوخ لأنهم يرون الشيوخ فى حاجة إلى الشباب، ولهذا السبب يطلبون التقدم على الشيوخ، ويهزأون بهم، ولئن كان الشيوخ يتمنون الشباب فإن الشبان أيضًا بغير شك يتمنون الشيخوخة وقد يبلغونها أو لا يبلغونها. وإذا نظرت جيداً رأيت كلا منهما حسوداً للآخر، ومهما كان الشبان يعدون أنفسهم أعلم الناس فحذار أن تكون على شاكلة هؤلاء الشبان، وقر الشيوخ، ولا تتحدث إليهم جزافًا فإن جواب الشيوخ والعقلاء قاس.

حكاية

سمعت أن رجلاً عمره مائة سنة مقوس الظهر كان يسير متكئًا على عصا، فقال له شاب ساخراً منه، أيها الشيخ بكم اشتريت هذا القوس حتى اشترى أنا أيضًا واحدة؟ فأجاب قائلاً: إذا عمرت وُهبت لك بلا ثمن وإن كنت لا تستحقها.

ولكن لا تجالس الشيوخ البله، فإن صحبة الشبان العقلاء خير من صحبة الشيوخ البلهاء، ومادمت شابًا فكن شابًا، وإذا صرت شيخًا فتشيخ لأن التصابى فى وقت الشيخوخة لا يليق، والشيخ الذى يتصابى كمن ينفخ فى البوق وقت الهزيمة، كما قيل:

بيت

الشيخ الذى يتصابى فى وقت الشيخوخة ، كالنافخ فى البوق وقت الهزيمة.

ولا تكن شيخًا أرعن، واخش الشيوخ الدنسين الجائرين، وأد حق الشيخوخة أكثر مما تؤدى حق الشباب، لأنك ما دمت شابًا يكون لك أمل الشيخوخة، وليس للشيوخ أمل

غير الموت، إذ إن الغلة إذا ابيضت ولم تحصد تناثرت. وكذلك الثمرة التى نضجت، إذا لم تقطف وقعت من الشجرة.

رباعى

- لو وضعت على ناحية القمر قوائم التخت، أو صرت كسليمان فى الدولة والبخت،
- إذا نضج عمرك حزمت المتاع، فالثمرة إذا نضجت سقطت من الشجرة.

(إذا تم أمر دنا نقصه   توقع زوالا إذا قيل تم)

ولتعلم أنك لا تترك لتبقى هكذا، فإذا تعطل شبابك انسد عليك باب النطق والبصر والسمع واللمس والذوق جملة، فلا أنت تسر بحياتك، ولا أحد يسر بك، ويصير وبالاً على الناس، فالموت خير من مثل تلك الحياة، ومثل عمر الإنسان كمثل الشمس، وشمس الشبان فى أفق المشرق وشمس الشيوخ فى أفق المغرب كما قلت:

قطعة

كيكاوس يامن صرت عاجزًا فى كف الشيخوخة، تهيًأ للرحيل فقد أقبلت الثالثة والستون، ولقد شارف يومك صلاة العصر على كل حال، ويقبل الليل سريعًا، إذا حلت صلاة العصر.

لهذا السبب لا ينبغى أن يكون الشيخ شابًا فى عقله وفعله، وكن دائمًا رحيمًا بالشيوخ، لأن الشيخوخة مرض لا يذهب أحد لعيادته، والشيخوخة علة لا يعرف أى إنسان لها دواء إلا الموت، ولهذا لا يستريح الشيخ من ألم الشيخوخة مالم يمت، وكل علة تصيب الإنسان إذا لم يمت بها يصح منها إلا علة الشيخوخة فإنها كل يوم تزداد سوءًا ولا يرجى منها الشفاء.

ومما قرأت فى الكتـاب، أن الرجل حتى الرابعة والثلاثين يزداد كل يوم فى القوة والتركـيب، وبعد ذلك يبقى هكذا حتـى الأربعين لايزيد ولا ينقص، كـالشمس وقـد بلغت كبد السمـاء، تكون بطيئـة السير حتى الزوال، ومـن الأربعـين حتى الخمسـين يرى كل عـام فى نفسـه نقصـانًا لا يكون قد رآه فى السنة الماضـية، ومن الخمسين حتى الستين يجد كل شـهر فى نفسه نقصـانًا لا يكون قـد وجده فى الشـهر الماضى، ومن الستين حتى السبعين يرى كل أسبوع فى نفسـه نقصانًا لا يكون قد رآه فى الأسبوع المنصرم، ومن السبـعين حتى الثمـانين يرى كل يوم فى نفسه نقصـانًا لم يكن قد رآه بالأمس، وإذا جـاوز الثمـانين يرى فى نفسـه كل ساعـة ألمًا وعناء لا يكون قـد رآه فى الساعة الأخرى.

وحد لذة العمر إلى الأربعين، فإذا انقضت الأربعون فقد جلس على درجة السلم العليا، فـتهبط كمـا صـعدت من غير شـك. فـالبرم من يرى فى كل ساعة ألمًا وعناء لم يكونا فى السـاعة الماضية، فيا ولدى ويـا قرة عينى لقد أطلت شكاية الشـيخوخة إليك، لأن منها عنائى، ولا عجب فالشيخوخة لى عدو، ومن العدو تحق الشكوى، كما قلت:

إذا شكوت منها فلا تعجب منى، لأنها بلائى، والشكوى تكون من البلاء.

ويشتكى من الأعداء لأحب إنسان، أرجو من الله عز وجل - أن تبث هذه الشكوى لابنك، ولى فى هذا المعنى بيتان:

قطعة

أواه لمن أشكو الشيخوخة؟ فإن ألمى هذا ليس له دواء آخر غير التوبة

هلم إلى أيها الشيخ حتى أبثك شكواى، لأنه لا خبر للشباب بهذه الحال.

ولا يعرف أحد ألم الشيخوخة خيراً من الشيوخ.

حكاية

كان من جملة حجاب أبى حاجب يقال له مجاهد الحاجب الكامل. وكان شيخًا جاوز الثمانين وأراد أن يشترى حصانًا، فأحضر رائض حصانًا سمينًا، بديع اللون صحيح القوام - فرأى الحصان وأعجبه ودفع ثمنه، فلما رأى أسنانه ألفاه عجوزًا فلم يشتره، فاشتراه رجل آخر، فقلت له: يا حاجب فلان اشترى الحصان فلم لم تشتره؟ قال: إنه رجل شاب وأنا خبير بألم الشيخوخة وضعفها وآفتها، فكيف أكون معذورًا حين اشترى حصانًا عجوزًا؟

ولكن متى صرت شيخًا فاجتهد أن تقر فى موضع، لأن السفر فى الشيخوخة ليس من العقل، وخاصة لمن لا يكون قادرًا، إذ إن الشيخوخة عدو والعجز عدو آخر، فالسفر مع عدوين ليس من الحكمة، أما إذا وقع السفر اضطرارًا وابتعدت عن بيتك ولطف الله تعالى بك فى ذاك السفر وظهر فى تلك الغربة والسفر خير أفضل من ذاك الذى كان فى الحضر، فلا تطلب العودة إلى البيت قط، واستقر حيثما ترى عملك واعتبر ذلك المكان الذى فيه خيرك موطنًا ومقامًا. ومهما قيل إن الوطن هو الأم الثانية فلا تكن مشغولاً به، وحافظ على رونق أيامك، فقد قيل: الخير يطلب السعداء، وللتعساء المولد والمقام، أما إذا رأيت لنفسك رونقًا وظفرت بعمل مفيد، فاجتهد فى أن تثبت ذلك العمل وتحكمه، ولا ينبغى أن تكثر الطلب فى ذاك الثبات الذى تلقاه، لأنك فى طلب الزيادة تقع فى النقص، فإذا كان شىء موضوعًا وضعًا حسنًا فلا تحاول أن تجعله فى وضع أحسن لكيلا تعجز عن ذلك بالطمع فى المحال، ولكن لا تكن غير منظم فى تمضية العمر، وإذا أردت أن تكون محترمًا فى عين الصديق والعدو، فيجب أن يكون وضعك ومقامك متميزين عن عامة الناس.(١)

---

(١) باب نهم

درپيرى وجوانى

اى پسر هر چند جوانى پير عقل باش نگويم كه جوانى مكن ليكن جوان خويشتن دار باش واز جوانان بژمرده مباش كه جوان شاطر نيكوبود وچنانكه أرسطاطاليس گويد الشباب شعبة من الجنون ونيز از =

....

= جوانان جاهل مباش که از شاطری بلانخیزد واز جاهلی بلاخیزد وبهره، خویش بقدر طاقت از روزگار جوانی بردار که چون پیرشدی خودرا نتوانی گرد آورد چنانکه آن پیر گفت که چندین سال حسرت وغم خوردم که چون پیر شوم خوبرویان مرا نخواهند اکنون که پیر شدم من خود ایشانرا نمی خواهم واگر خود خواهم نزیبد، وهر چند که جوان باشی خدای عز وجل را فراموش مکن واز مرگ أیمن مباش که مرگ نه جوان داند ونه پیر چنانکه عسجدی میگوید، بیت:

مرگ به پیری وجوان نیستی   پیر بمردی جوان زیستی

حکایت کنند که در شهر ری درزی بود در دروازه، گورستان دکانی داشت وکوزه، در میخی آویخته بود وهوس آن داشتی که هر جنازه، که از دروازه بیرون شدی او سنگی در آن کوزه انداختی وهرماه حساب آن بکردی کـه درین مـاه چندکس مـرده اند وکوزه را تهی کردی وباز سنگ افکندی تاماه دیگر تابریم رزوگاری بر آمـد وآن درزی بمرد، مردی بطلب درزی آمد وخبرش نبود کـه درزی بمرده است، چون در دکان بسته دید همسایگان وی را پرسید که درزی کجاست؟ همسایه گفت: درزی نیز در کوزه فتاد.. أما ای پسر هشیار باش وبجوانی غره مشو ودرطاعت ومعصیت درهـر حال که باشی خدای عـز وجـل را یا دکن وعفو میخواه واز مرگ می ترس تا چون درزی نا گاه درکوزه نیفتی با بار گناهان، وهمه نشست وخاست، باجوانان مکن با پیران نیز مجالست دار ورفیقان وندیمان پیر وجوان أمیخه دار که اگر از مستی جوانی محالی گوید پیر ترا آگاه کند که پیران چیزها دانند کـه جوانان ندانند. اگرچه غـالب جوانان بر پیران خندند از آنکه پیرانرا محتاج جوانی بینند بدین سبب بر پیران پیشی جویند وبر ایشان بیحرمتی کنند اگر چه پیران در آرزوی جوانی باشند جوانـان نیز بیشك در آرزوی پیری باشند شاید که دریابند وشاید که نیابند، وچون نیکو، بنگری هـر دو حسـود یکدیگر باشند، اگر چند جـوانان خـود را داناترین همـه کس دانند، زنهار از طبع چنین جوانان مباش، پیران را حرمت دار وباپیران سخن بگزاف مگوکه جواب پیران وعاقلان سخت باشد. حکایت: شنیدم که مردی صد ساله، کوژ پشت بر عصا تکیه کرده میرفت، جوانی بریش خند اورا گفت ای شیخ این کمان بچند خریده، تا من نیز یکی بخرم، جواب بداد اگر عمر یابی وصبر کنی رایگان بتو بخشند، هر چند که بدان نمی ارزی.

أما با پیران ابله منشین که صحبت جوانان عاقل بهتر از پیران أبله وتا جوانی جوان باش وچون پیر شدی پیری می کن از آنکه در وقت پیری جوانی نزیبد پیری که جوانی کند همچنان باشد که کسی در وقت هزیمت بوق زند چنانکه گفته اند، بیت:

چون بوق زدن باشد در وقت هزیمت   پیری که جوانی کند اندر گه پیری

وپر رعنا مباش وبترس از پیران ناپاك وبی انصاف وانصاف پیری بیش از ان ده که إنصاف جوانی زیرا که چندان که جوانی ترا امید پیری باشد وپیرا نرا بجز مرگ امید نباشد از انکه چون غله سفید گشت اگر ندروند بریزد همچنان میوه که بخته شد اگر نچینند از درخت بیفتد رباعی: =

....

= گر بـــر ســــرمــاه بـــر نهی پـــایهء تخـــت ور همچو سلیمان شوی از دولت وبخت
چون عمـــر تو پخت گشت بربندی رخـــت میوه چـــو بشـــد پختـــه بیفتد زدرخـــت
إذا تـــم امـــــــر دنـــــا نقصـــــــه تـــو قـــــع زوالا إذا قيـــــــل تـــم

وچنین دان که ترا چنین نگذارند تا همی باشی چون جوانی تو از کار بیفتد در گویائی وبینائی وشنوائی ولس وذوق جمله برتو بسته گردد نه تو از زند گانی خود شاد باشی ونه کس از تو وبر مردمـان وبال گردی پس مرگ از چنان زندگانی بهتر ومثال عمر مردم چون أفتابست وأفتاب جوانان در أفق مشرق باشد وأفتاب پیران در افق مغرب چنانکه. گفته ام، قطعه:

کیکاوس ای در کـــف پیری شـــده عـــاجـــز تدبیر شـــدن سازکه شصت وسه در آمد
روزت بنمــــاز دگـــر آمـــد بهمـــه حــــــال شـــب زود در آیـــد چـــو نمـــاز دگر آمد

ازین سبب نباید که پیر بعقل وفعل جوان باشد، وبر پیران همیشه برحمت باش که پیری بیماریست که کسی بعیادت او نرود وپیری علتی است که هیچکس داروی او نداند الا مرگ از آنکه پیر از رنج پیری نیاساید تا نمیرد وهر علت که بمردم رسد اگر از آن علت نمیرد بهتر شود مگر علت پیری که هر روز بتر بود وامید بهتری نبود از انکه در کتاب خوانده ام که مرد تاسی وچهار سال هر روزه زیاده باشد در قوت وترکیب وبعد از آن تا چهل همچنان بماند زیاده ونقصان نکند چنانکه أفتاب که میان أسمان رسید بطیء السیر شد تا وقت فروگشتی واز چهل سال تا پنجاه سال هر سال در خود نقصانی بیند که در آن سال گذشته ندیده باشد ، واز پنجاه سال تا شصت سال هر ماه در خود نقصانی یابد که درماه گذشته نیافته باشد ، واز شصت سال تا هفتاد سال هر هفته درخود نقصانی بیند که در آن هفته گذشته ندیده باشد، وازهفتاد سال بهشتاد هر روز اندر خویش نقصانی بیند که دی ندیده باشد. واگر از هشتاد بگذرد هر ساعت درخود دردی ورنجی بیند که دران ساعت دیگر ندیده باشد، وحد لذت عمر تا چهل سال است وچون چهل شد بر نردبان پایهء بالا نشست است همچنانکه بر رفتهء فرود أئی بیشك، پس بخشنودی کسی باشد که هر ساعت دردی ورنجی بیند که در ساعت گذشته نبوده باشد، پس یا ولدی ویا قرة عینی شکایت پیری دراز کردم باتو از انکه مرا ازو رنج است، وعجب نیست که پیری مرا د شمن است واز دشمن جای گله باشد چنانکه من گفته ام، بیت:

اگر کنم گله از وی عجب مدآر از من که او بلای منست وگله بود زبلا

ویا دوست تر کسی گلهء دشمنان کنند، ارجو من الله عز وجل که تو این گله با فرزند خود کنی ومرا درین معنی دو بیت است، قطعه:

آوخ گله از پیری پیـــش که کنم مـــن کین درد مـــرا دار وجـــز توبـــه دگرنیست
ای پیر بیا تا گله هـــم بـــاتـــو بگویـــم زیرا که جـــوانانرا ازین حـــال خبر نیست =

رسالة «تحفة الوزراء» والنصيحة:

وردت هذه الرسالة فى كتاب يضم مناجات ومقالات خواجه عبد الله الأنصارى، والمؤلف هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمدٍ الأنصارى الهروى من مشاهير علماء القرن الخامس وكان معاصراً لألب أرسلان السلجوقى والوزير نظام الملك، ويصل نسبه إلى أبى أيوب الأنصارى، وكانت أمه من بلخ، أما هو فقد ولد فى مدينة هرات عام ٣٩٦هـ وبدأ ينظم الشعر بالفارسية والعربية فى سن مبكرة، واشتهر فى شبابه بتمكنه فى العلوم الأدبية والدينية، وخاصة فى حفظ الشعر العربى وعلم الحديث، وكان يتبع فى الفقه مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقد توفى عام ٤٨١هـ.

ورغم أنه نظم شعراً بالفارسية، إلا أنه لم يكن سببًا فى شهرته، بل إن سبب شهرته يرجع إلى ما كتبه من رسائل وكتب ذاع صيتها، ومن ذلك ترجمة وإملاء طبقات

= ورنج پیری بهتر از پیران کسی نداند، حکایت: از جمله‌ء حاجبان پدرم حاجبی بود اورا مجاهد حاجب کامل گفتندی، پیر بود واز هشتاد در گذشته خواست که اسپی خردرا رایضی اسپی آورد فربه ونیکو رنگ ودرست قوایم اسپ را بدید وبپسندید وبها فرو داشت چون دندانش بدید پیرو بود نخرید، مرد دیگر بخرید. من اورا گفتم: ای حاجب آن اسپ فلانکس خرید تو چرا نخر بدی؟ گفت او مرد جوان است واز رنج پیری وضعف وآفت او من خبر دارم آنگاه اسپ پیر خرم معذورکی باشم، اما جهد کن تا چون پیر شدی بیك موضع قرار گیری که در پیری سفر کردن از خرد نیست خاصة کسی که توانائی نباشد که پیری دشمن است وناتو انانی دشمن دیگر پس بادو دشمن سفر کردن نه از دانائی باشد أما باضطرار اگر سفری افتد واز خانه‌ء خود دور افتی وایزد تعالی دران سفر برتو رحمت کند ودر آن غربت وسفر نیکونی پدید اید بهتر از آنکه در حضر بوده باشد هرگز آرزوی خانه مکن وهما نجاکه کار خودرا بینی قرار گیر وزاد وبود آن جایگاه را شناس که ترا نیکونی باشد هر چند گفته اند: *الوطن ام الثانی*. أما تو بران مشغول مباش، رونق روزگار خود نگاه دار که گفته اند نیکبختانرا نیکی آرزو کند وبدبختانرا زاد وبود، أما چون خودرا رونق بدیدی وشغل سودمند بدست آوردی در آن کوش تا آن شغل را اثبات دهی ومستحکم دانی ودران ثبات که یابی بیش طلب نباید کرد که دران طلب بیشی بکمی افتی که اگر چیزی نیکو نهاده باشد نیکوتر منه تا بطمع محال از ان در نمانی، امادر عمر گذرانیدن بی ترتیب مباش، اگر خواهی که بچشم دوست ودشمن بآبرو باشی باید که نهاد ودرجه‌ء تو از مردم عام پدیدار باشد.

(قابوسنامه من ص ٤٢ حتى ص ٤٨) .

الصوفية للسلمى إلى اللهجة الهروية، وتفسير القرآن المعروف باسمه، وعدة رسائل أخرى كتبها بنثر مسجوع مثل: مناجات نامه، ونصايح، وإلهى نامه، وغيرها.

يبدأ المؤلف رسالة تحفة الوزراء بمقدمة يحمد الله فيها ويصلى ويسلم على محمد وآله أجمعين، ويقول إن هذه الرسالة تشتمل على نصائح اختارها الحكماء من كتب القدماء، وهى تتضمن فوائد كثيرة، وكل من يتحلى بتلك الفضائل المذكورة يصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة، ويذكر فى نهاية المقدمة اسم الرسالة «تحفة الوزراء» وأنها مقسمة إلى أربعين باباً، يتضمن كل باب منها أربع نصائح.

ففى الباب الأول يذكر أربعة أشياء يجب على السلطان المحافظة عليها والاحتفاظ بها، وهى الدين، والوزير الأمين المتمكن والعزم، والحزم. وفى الباب الثانى يرى أنه لا يمكن فعل أربعة أشياء، إلا بأربعة أشياء؛ فلا يمكن الحكم إلا بالعدل، ولا يمكن القضاء على العداوة إلا بالمحبة، ولا يمكن زيادة المحبة إلا بالتواضع، ولا يمكن الوصول إلى المراد إلا بالصبر. أما فى الباب الثالث فهناك أربعة أشياء لازمة وضرورية لأربعة أشياء: السياسية للسلطان والأمانة للوزير والتربية والتدريب للجيش، والرعاية للرعية. وفى الباب الرابع يذكر أربعة أشياء تحتاج لأربعة أشياء: السلاطين للوزراء، السلاح للشجعان، السوط للجواد، القبضة للسيف، وفى الباب الخامس يذكر المؤلف أربعة أشياء يجب التحلى بها: اكتساب الأصدقاء، ومعاملة الناس معاملة حسنة، والسعى فى العمران، والعفو عن خلق الله. وفى الباب السادس ينهى المؤلف عن فعل أربعة أشياء حتى لا يصاب الإنسان بالحسرة وهى: إرجاع الأمور إلى من لا يستحقون، والإحسان إلى الوضيع والحقير، والعجلة فى الأمور، والفسق والفجور والعصيان.

وفى الباب السابع يتحدث عن أربعة أشياء حسنة لكل الناس وهى: (١) العدالة والصدق، (٢) والعدل والعقل، (٣) والحلم والوعى والصبر والسكون والتحمل، (٤) والحياد والخجل. وفى الباب الثامن يذكر أربعة أشياء لا تليق بالخلق وهى: الحقد على الناس وحسدهم، الكبر والزهو، والعجب والغضب، والكسل وعدم الصلاة. وفى الباب التاسع يذكر أربعة أشياء تكون من آفات السلطان وهى: غفلة الأمراء، وخيانة الوزراء، وتجرؤ الحقراء،

وحسد الأقران. وفى الباب العاشر يذكر أنه يجب مداراة أربعة أشخاص هم: السلطان الظالم، والمريض، وغير العقلاء، والصديق حسن الفعال. وفى الباب الحادى عشر يتحدث عن أربعة أشياء تؤدى إلى ثبات ورسوخ السلطنة وهى: (١) العدالة، (٢) والشجاعة، (٣) والمروءة والفتوة، والسخاء والعطية، (٤) والرحمة والشفقة. وفى الباب الثانى عشر يذكر أربعة أشياء تؤدى إلى حسن الحظ وهى: الأصل الطاهر، والقلب الطاهر، واليد الطاهرة، والرأى المستقيم من الطبع السليم. وفى الباب الثالث عشر يذكر أن أربعة أشياء تؤدى إلى الألفة والتجمع وهى: الأمن والاستقامة والنعمة والراحة. وفى الباب الرابع عشر يذكر أن أربعة أشياء هى أصل الدولة: العظمة الإلهية، والتأييد السماوى، والإمام المنتخب، والأحكام المقبولة. فى الباب الخامس عشر يذكر أن هناك أربعة أشياء تدل على سوء الحظ وهى: العجز والجهل والغربة والوضاعة. وفى الباب السادس عشر يذكز أن أربعة أشياء تؤدى إلى السعادة وهى: رعاية السلطان، دعاء الزهاد، عطايا العظماء، رؤية الأحباب. وفى الباب السابع عشر يذكر أن هناك أربعة أشياء لا يجب الغرور بسببهم وهى: القرب من السلطان، وزهد الزهاد، ونصيحة الحساد، ومحبة النساء. وفى الباب الثامن عشر يذكر أن هناك أربعة أشياء يشترط على الإنسان مراعاتها وهى: الطاعة، والنصيحة، والشفقة، والأمانة. وفى الباب التاسع عشر يذكر أن أربعة أشياء تنجز الأعمال وهى: الارتباط بالعظماء، والتأمل فى القصص، وتدبير المخلصين، والاستماع إلى الأصدقاء.

وفى الباب العشرين يذكر أن هناك أربعة أشياء تدل على البلاهة وهى: (١) الغرور والتكبر، (٢) والبحث عن عيوب الآخرين، (٣) والبخل، (٤) والاعتماد على السفلة. وفى الباب الواحد والعشرين يذكر أن أربعة أشياء دليل على السعادة هى: القول والعهد الصحيح، والتواضع، وحفظ السر فى كافة الأحوال، والسعى إلى الكسب الحلال، وفى الباب الثانى والعشرين يذكر أن هناك أربعة أشياء تدل على الشقاء وهى: الكلام مع الجهلاء، مصاحبة الأشرار، الاستماع إلى نصائح الفضوليين، العمل بقول النساء. وفى الباب الثالث والعشرين ينصح بالاحتراز من أربعة أشياء وتجنبها وهى: العجلة والتسرع،

والغضب والثورة، والبخل والإمساك، والعجب والتكبر. وفى الباب الرابع والعشرين يذكر أربعة أشياء تؤدى إلى المصائب وهى: الحنث والغيبة، والحسد والوقاحة، والكبر والزهو، والطمع والشهوة. وفى الباب الخامس والعشرين يذكر أن أربعة أشياء تؤدى إلى الرقى والثروة وهى: المروءة مع الأصدقاء، والمداراة مع الأعداء، ترك الهوى والرغبة، والتحمل والصبر عند القضاء. وفى الباب السادس والعشرين يذكر أربعة أشياء لا يمكن تغييرها هى: حكم القضاء والقدر، الحق، سيئ الطبع، رضا الناس، وفى الباب السابع والعشرين يذكر أربعة أشياء تبدو صغيرة ولكنها عظيمة الأثر وهى: العدو، النار، المرض، العلم. وفى الباب الثامن والعشرين يذكر أربعة أشياء تسبب خللاً واضطرابًا فى السلطنة وهى: ظلم الأمير وغفلة الوزير، خيانة الكاتب، إذلال الأسير واحتقاره، ظلم الضعيف. وفى الباب التاسع والعشرين يذكر أربعة أشياء لا بقاء لها وهى: الحاكم الظالم، والكاتب غير الواعى، المال الحرام، العمر. وفى الباب الثلاثين يذكر أربعة أشياء تنتج عن أربعة أشياء وهى: عاقبة العراك الخجل، وعاقبة الغضب الندم، وعاقبة البذاءة العداوة، وعاقبة الضعف والكسل الذل والمسكنة. وفى الباب الواحد والثلاثين يذكر أربعة أشياء تتم بواسطة أربعة أشياء أخرى وهى: العلم بالعقل، والطاعة بالورع، والعمل بالصدق، والنعمة بالشكر. وفى الباب الثانى والثلاثين يذكر أربعة أشياء تتحقق بأربعة أشياء: فالراحة تتحقق بالصمت، والملل يأتى من الفضول، والعظمة تأتى من السخاء والكثرة تأتى من الشكر. وفى الباب الثالث والثلاثين يذكر أربعة أشياء تضعف الإنسان وهى: كثرة الأعداء، وكبر الدين، وكثرة النساء، وكثرة العيال مع قلة المال. وفى الباب الرابع والثلاثين يذكر أربعة أشياء تزيل أربعة وهى: عدم الشكر يزيل النعمة، والظلم يزيل القوة، والكسل يزيل الثروة، والتكبر يزيل المروءة.

وفى الباب السادس والثلاثين يذكر أربعة أشياء لا يمكن استرجاعها أو استردادها وهى: قول الكلام، ورمى السهام، ومضى العمر، وما جرى به القضاء. وفى الباب السادس والثلاثين يذكر أربعة أشياء تتأتى من أربعة أشياء وهى: المذلة من السؤال،

الندم من عدم التدبر، الحقارة من كثرة الهزل، الهلاك من الجرأة على السلاطين. وفى الباب السابع والثلاثين يذكر أربعة أشياء تدل على الجهل وهى: التهور مع غير المجرب. انتظار الوفاء من النساء، الاطمئنان إلى البلهاء والاعتماد عليهم، والتحدث مع الصغار. وفى الباب الثامن والثلاثين يذكر أربعة أشياء فيها نقصان العمر وهى: كثرة الجماع، وكثرة الذهاب إلى الحمام، وتناول غبار الفاكهة والقديد غير المطبوخ. والحديث مع العجائز من النساء. وفى الباب التاسع والثلاثين يتحدث عن أربعة أشياء لا تتوفر عند أربعة أشخاص هى: المروءة عند الكاذب، والسعادة عند البخيل، والراحة عند الحسود، والعظمة عند سيئ الطبع. وفى الباب الأربعين يذكر أربعة أشياء هى أصل السعادة فى الدارين وهى: طاعة الله ورسوله، إرضاء الوالدين والمعلم، وخدمة العلماء والحكماء، والشفقة على خلق الله. ثم ينهى المؤلف رسالته هذه، وهى كما نرى رسالة مختصرة إلا أنها تحتوى على نصائح كثيرة ومعانى وفيرة، يستفيد منها الإنسان فى حياته، وتعبر عن تجارب هذه الشعوب، ونظرتهم إلى الحياة، وطريقتهم فى التعامل مع بعضهم البعض.

كتاب «سياست نامه» والنصيحة:

مؤلف هذا الكتاب هو أبو على حسن بن على بن إسحق الطوسى الملقب بـ«نظام الملك» وقد كتبه بأمر ملكشاه السلجوقى عام ٤٨٤هـ أى قبل وفاته بسنة واحدة مقتولاً، وكان نظام الملك وزير السلاجقة الأكبر، والطريقة التى اتبعها فى كتابه هى أنه كان يتناول ناحية من النواحى الإدارية التى يلاحظ عليها الخلل أو النقص، ويبين طريقة علاجها ثم يسوق مما حفظه أو رآه أو سمعه ما يؤيد ما ذهب إليه فى طريقة العلاج، وهو بهذا يتناول الجانب العملى البحت من السياسة والإدارة. وعلى هذا فالمادة الموجودة فى الكتاب تعكس صورة طيبة لما ضم القرن الخامس من ثقافات ومشكلات اجتماعية ودينية وملابسات اقتصادية.

وقد احتل أسلوب هذا الكتاب منزلة سامية بين الأساليب النثرية لأنه كان يستمد جماله من بساطته ومن خلوه من الزخرفة والمحسنات البديعية.(١)

ويمكننا القول بأن ما ذكره نظام الملك فى الإدارة والسياسة إنما يدخل فى باب النصائح فى هذا المجال، ويمكننا ضمه إلى كتب النصائح الفارسية. ويضم الكتاب بين دفتيه خمسين فصلاً، يتناول فى أولها أحوال أهل العصر ومدح السلطان العادل خلد الله ملكه، ويقصد به ملكشاه السلجوقى، ثم يتحدث فى الفصل الثانى عن معرفة قدر نعمة الله تعالى على الملوك ويقول فى مطلعه:

«إن معرفة قدر نعمة الله تعالى على الملوك رعاية مرضاته عز اسمه. ومرضاة الحق سبحانه فى الإحسان إلى الخلق وإقامة العدل بينهم. وإذا لهج الخلق بدعاء الخير دائمًا استتب أمر تلك المملكة وازداد شأنها يومًا بعد يوم وطاب ذلك الملك بإقباله وعهده نفسًا وفاز فى هذه الدار بحسن الذكر، وفى تلك النجاة وكان حسابه يسيرًا. فقد قال العظماء: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم».

ومن الموضوعات التى يتناولها المؤلف فى كتابه: جلوس السلطان للمظالم وإقامة العدل وانتهاج السيرة الصالحة، والسؤال عن أحوال الوزراء والكتاب، والقضاة والخطباء والمحتسبين وورنق أعمالهم، وأحوال أهل الإقطاع والسؤال عن سيرتهم فى الناس وأحوالهم، ومشورة السلطان للعلماء والحكماء فى الأمور، وأحوال الرسل وترتيب أعمالهم، وفى تعيين أموال الجند، وترتيب عمل الحرس وأصحاب النوبة وحراس الأبواب، وفى تأنى السلطان فى أمور الملك، وفى إجابة المتظلمين وإنجاز أمورهم وإرضائهم، وغير ذلك من الموضوعات التى تخص شئون المملكة والحكم.

(١) انظر مقدمة ترجمة «سياست نامه» العربية للدكتور السيد محمد العزاوى ص ٣ وما بعدها - طبعة دار الرائد العربى القاهرة ١٩٧٥.

والمؤلف فى بداية كل فصل يتحدث ناصحًا الملوك حول موضوع من هذه الموضوعات ويلحق بهذا بعض الحكايات كمثال أو شاهد على ما يقول، وتمثل الحكايات جانبًا تاريخيًا، ولما كان المؤلف رجل سياسة وبلاط ومطلعا على شئون الحكم، فقد ألف هذا الكتاب بطريقة أفضل من غيره وضم فيه الحكمة والنصيحة وتفسير بعض آيات القرآن الكريم وذكر طرفًا من أخبار الرسول (ﷺ)، وقسمًا من قصص الأنبياء وسير الملوك وحكاياتهم. ويقول المستشرق براون فى هذ الصدد: «وكتاب سياست نامه يعتبر فى رأيى من أهم الكتب المتعة القيمة التى كتبت نثرًا فى الفارسية؛ ذلك لأنه من ناحية يشتمل على قدر كبير من الأخبار والروايات التاريخية، ولأنه من ناحية أخرى يشتمل كذلك على الآراء السياسية التى كان يراها واحد من أنبغ الوزراء الذين ظهروا فى المشرق. والذين بلغوا مبلغًا من القوة والحكمة لا نستطيع تقدير مداه إلا بالنظر إلى الفوضى المتصلة والحروب الداخلية المستمرة التى أعقبت مقتله.. وقد خصص نظام الملك سبعة فصول من كتابه (من الفصل ٤١ إلى ٤٧) لمحاربة الملاحدة والمظنون فى دينهم وخاصة فريق الإسماعيلية والباطنية، وهو يشكو مر الشكوى من أن اليهود والمسيحيين والمجوس والقرامطة يوظفون بكثرة فى أعمال الدولة والديوان، ثم يثنى على الخطة الصالحة التى اتبعها ألب أرسلان أثناء حكمه فى منع هؤلاء من تولى هذه الوظائف ومعاملاتهم بشدة وغلظة بالغتين...»(١).

ومن نصائح نظام الملك فى كتابه للملك قوله فى الفصل الثالث بضرورة جلوس السلطان للمظالم وإقامة العدل وانتهاج السيرة الصالحة، يقول: «لا مناص للسلطان من أن يجلس للمظالم يومين من كل أسبوع يأخذ للمظلوم من الظالم وينتصف له، وأن يستمع لرعيته دون وساطة. ويجب أن تعرض عليه بعض المظالم ذات الشأن يضرب فى واحدة منها مثلا وعبرة، حتى إذا فشا فى المملكة أن مولى العالم يدعو بالمتظلمين

---

(١) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى – تأليف إدوارد براون – ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى ص ٢٦١، القاهرة ١٣٧٣هـ – ١٩٥٤م.

وطلاب العدل بين يديه ويستمع لمقالتهم يومين من كل أسبوع ويضرب على أيدى الظالمين كبر ذلك فى الظلمة وخافوا وأقصر عدوانهم ولم يستطع أحد أن يقترف الظلم خشية عقابه» [1].

ويقول فى الفصل الرابع حول عمال الدولة: «يجب أن يوصى كل من يولون من العمال عملاً بالسيرة الحسنة فى خلق الله وألا يأخذوا منهم إلا المال الحق، وأن يطلبوه بالإجمال والرفق، وألا يسألوا الناس شيئًا من هذا المال إلا إذا حصل الارتفاع وحان الحصاد. لأنهم إن طالبوه قبل الارتفاع والحصاد جهدت الناس واضطرت إلى أن تبيع أموالها بنصف قيمتها، وفى ذلك ما فيه من هلاك للخلق وشقاء لهم. وإن عجز أحد من الرعية واحتاج إلى بقرة أو إلى بذور وجب عليهم أن ينسئوه وأن يترفقوا به ليظل مستقرًا فى مقامه لا يتحول عنه ولا يغترب» [2].

وفى الفصل السادس يتحدث عن القضاء والخطباء والمحتسبين وأعمالهم فيقول: «ينبغى للسلاطين أن يعلموا بأحوال قضاة المملكة فردًا فردًا، فيختارون من كان منهم

---

(١) چاره نباشد پادشاه را از آنكه در هفته دو روز بمظالم بنشيند وداد از بيدادگر بستاند وانصاف بدهد وسخن رعيت بشنود بى واسط، وچند قصه كه مهم تر بود بايد كه عرضه كند ودر هر يك مثالى دهد، چون اين خبر در مملكت پراكندى شود دكه خدا وند عالم متظلمان وداد خواهان پيش ميخواند ودر هفته دو روز سخن إيشان ميشنود وظالمان را شكسته ميدارد همهء ظالمان بشكوى هند ودستهاى ايشان كوتاه شود وكس نيارد بيداد كرد از بيم عقوبت او.

(سياست نامه - نظام الملك - بتصحيح عباس إقبال - تهران ١٣٢٠ ص ٩) .

(٢) الترجمة العربية لسياست نامه ص ٥١

عمال را كه عملى دهند ايشان را وصيت كردن بايد تا با خلق خداى نيكو زيند وازايشان جز مال حق نستانند وآن نيز بمدارا ومجاملت طلب كنند وتا إيشان را دست بارتفاعى نرسد آن مال را نخواهند كه چون پيش ازوفت خواهند رعايا را رنج رسد ودرم گانهء. ارتفاعى كه خواهد رسيدن بنيم درك بفروشند از ضرورت، ودر آن مستأصل وآواره شوند واگر كسى از رعيت در ماند وبگاو وتخم حا جتمند گردد اورا وام دهند وسبكباردارند تا بر جاى بماند واز خانهء خويش بغربت نيفتد.

(سياست نامه ص ٢٢) .

أعز علمًا وأزهد نفسًا وأعف يدًا وأقل طمعًا ويولونه هذا الأمر ويعزلون من لم يكن كذلك ويستبدلون به من كان أليق منه. وينبغى أن يجروا على كل واحد منهم الرواتب فلا تلج به الحاجة إلى الخيانة، ولما كان هذا الأمر مهمًا دقيقًا لتسلطهم على دماء المسلمين وأموالهم وجب ألا يسند إلى الجاهل الفاسد بل يفوض إلى العالم الورع، وإذا حكم الحاكم جهلاً أو طمعًا أو إغراضًا حكمًا لا راد له وجب على الحكام الآخرين أن يعلموا به السلطان ليعزله ويؤاخذه ويجب على الوكلاء أن يظاهروا القاضى ويراعوا حرمة عمله، فإذا أخذت أحد العزة وامتنع عن الحضور إلى ساحة القضاء أحضروه عنوة وإكراهًا ولو كان من ذوى الجاه والنعمة. وقد ولى القضاء صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام بأنفسهم ولم يأذنوا لأحد فيه قط لكيلا يقضى فى الأمور بغير الحق. ولم يكن أحد يستطيع أن يتعدى ما حكموا به. ولقد أقام الحكام العدل فى كل عصر وكل مملكة منذ أيام آدم عليه السلام وأقسطوا وسعوا فى إحقاق الحق حتى تدوم دولتهم أعوامًا طوالاً.(١)

---

(١) الترجمة العربية ص ٧٠

النص الفارسى: «بايدكه احوال قاضيان مملكت يكان يكان بدانند وهركه ازايشان عالم وزاهد وكوتاه دست تر وكم طمع تر باشد اورا تربيت كنند وبدان كارنكاه دارند وهركه نه چنين بوداورا معزول كنند وديگرى را كع شايسته باشد بنشانند وهريكى را ازايشان باندازهء كفاف مشاهرت إطلاق كنند تا اورا بخيانتى حاجت نيفتد كه اين كارمهم ونازك است ، از بهر اين كه ايشان برخونها ومالهاى مسلمانان مسلطند. نشايد اين شغل بجاهل ونا پاك دادن الا تفويض اين كار بعالم با روع ، وچون حاكمى بجهل وطمع يا بقصد امضاء حكمى كند وسجلى دهد برحاكمان ديگر لازم شود آن حكم بد را معلوم پادشاه گردانيدن وآن كسرا معزول كردن ومالش دادن، وگما شتگان بايد كه دست قاضى قوى دارند وورنق كار او نگاه دارند واگر كسى تعذرى كند وبحكم حاضر نشود ، واگر محتشم بود ، اورا بعنف وكره حاضر كنند كه قضا بروزگار خود ياران پيغمبر عليه الصلوة والسلام بتن خويش كرده اند وهيچ كس ديگررا نفرموده اند ازبهر آن تا جزراستى نرود وهيچكس پاى از حكم باز نتواند كشيد ، وبهمه روزگار از گاه آدم عليه الصلام تا اكنون در همه ملت ودر همه ملكى عدل ورزيده اند وانصاف داده اند وبراستى كوشيده اند تا مملكت ايشان سالهاى بسيار بمانده است.

(سياست نامه ص ٤٧).

وفى الفصل الثالث عشر من الكتاب ينصح المؤلف ببث العيون وتدبير عملهم على صلاح المملكة والرعية فيقول: «ينبغى أن تذهب العيون دائمًا إلى كل الأطراف فى هيئة التجار والسياح والمتصوفة والعقارين والدراويش ويرسلون عن كل ما يسمعون خبرًا لكيلا يخفى شىء من الأشياء قط. وإذا حدث أمر أو وجد جديد أمكن تداركه على الفور. وكم من حين خرج فيه الولاة وأصحاب الإقطاع والوكلاء والأمراء وأظهروا الخلاف وتآمروا بالملك فلما سأل الجاسوس وأخبر السلطان ركب إليهم من فوره وحشد لهم ووقع عليهم بغتة وأوقع بهم وأحبط كيدهم. أما إذا حشد له ملك من الملوك أو تجمع عليه جيش من الجيوش خفية وسار إليه يطلب مملكته فإنه يتأهب لهم ويدفعهم. وكذلك حدثت العيون بحال الرعية من خير أو شر فابتدرتها الملوك بالعلاج كما فعل عضد الدولة فى وقت من الأوقات.[1]

وفى الفصل الثامن عشر يتحدث المؤلف عن مشورة السلطان للعلماء والحكماء فى الأمور ويرى أن «المشورة من قوة الرأى وتمام العقل وبعد النظر لأنه إذا كان للرجل علم يعلم به كل الأمور فإنه لا يخلو من أن يعرف شيئًا معرفة كبيرة وآخر معرفة قليلة... وقد أجمع العالمون على أنه لم يكن بين بنى آدم من هو أقوى رأيًا من الرسول عليه الصلاة والسلام، ومع ما كان لسيد الأنام من علم وأنه كان يرى خلفه بقدر ما كان

---

(١) الترجمة العربية ص ١٠٧

النص الفارسي: «با يدكه بهمهء أطراف هميشه جاسوسان روند برسبيل بازار كانان وسياحان وصوفيان ودار فروشان ودرويشان، واز هر چه مى شنوند جز مى آورند تا هيچگونه از احوال چيزى پو شيده نماند واگرچيزى حادث شود وتازه گردد بوقت خويش تدارك آن كرده أيد چه بسيار وقت بوده است كه واليان ومقطعان وگما شتگان وامرا سر عصيان ومخالف داشته اند وبر پادشاه بد سگاليده وچون جاسوس برسيد وپادشاه را خبر داد در وقت پادشاه بر نشسته است وتاختن برده ومفاجأ بر سرايشان فروشده است وفرو گرفته وعزم ايشان باطل كرده. واگر پادشاهى يا لشكر بيگانه قصد مملكت او كرده است او كار خويش بساخته است ودفع آن كرده واز حال رعايا همچنين چيزها خبر داده اند خير وشر وپادشاهان تيمار آن داشته اند چناكنه وقتى عضد الدولة كرده است».

(سياست نامه ص ٩٠).

يرى أمامه، وأنه قد عرضت عليه السماوات والأرضين والجنة والنار واللوح والقلم والعرش والكرسى وما بين ذلك وأن جبريل عليه السلام كان يهبط عليه فى كل ساعة بالأخبار والوحى وينبئه بأنباء ما كان وما لم يكن، ورغم ما كان له من الفضائل والمعجزات فإن الله تعالى يأمره بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ أى يا محمد إذا جد لك أمر فدبره مع صحابتك. أمره بالمشورة ومثله غنى عن المشوره والتدبير... إذن فالواجب يقضى على السلطان إذا أراد أمراً أو جَدّ له مهم أن يستشير فيه الشيوخ والأنصار ليقول كل واحد منهم ما يعن له فى هذا الشأن فيقابل السلطان الأقوال برأيه. حتى إذا ما سمع رأى كل واحد ومقاله وما أدلى به وأظهره نتج عن هذا الرأى الصواب. والرأى والتدبير الصواب هو ما أجمعت عليه عقول العاملين. وأما ترك المشورة فى الأمور فمن شأن ضعف الرأى. ومثل هذا الرجل يسمى المستبد. كما أن العمل لا يمكن أن يتم بدون رجل يفعله، كذلك لا يصح الأمر دون مشوره فيه».[1]

---

(١) الترجمة العربية ص ١٢٥

النص الفارسي: «مشاورت كردن أز قوى رأيى بود وازتمام عقلى وپيش بينى چه هر كس را دانشى باشد وهريك چيزى دانند يكى بيشتر ويكى كمتر....، همهء جهانيان متفقند كه از آدميان هيچكس از پيغامبر عليه السلام قوى رأى تر نبوده است، باهمهء دانش كه آن سرور را بود از پس همچنان بديدى كه از پيش ديدى و آسمانها وز مينها وبهشت ودوزخ ولوح وقلم وعرش وكرسى وآنچه در اين ميان است براو عرضه كردند وجبرئيل عليه السلام هر ساعت ميآمد وخبرها همى داد ووحى همى آورد واز بوده ونابوده خبر ميداد، باچندين فضيلت ومعجزات كه اورا بود ايزد تعالى اورا ميفرمايد ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ يا محمد چون كارى ترا پيش آيد با ياران خويش تدبير كن ، جايى كه اورا مشورت فرمود كردن وچون او بى نياز نبود از تدبير ومشورت... پس چنان واجب كند كه چون پادشاه كارى خواهد كرد يا مهمى اورا پيش آيد با پيران وهوا خواهان مشورت كند تا هر كس را آنچه فراز آيد در آن معنى بگويد وآنچه رأى پادشاه ديده باشد باگفتار هريكى مقابلة كند وهر يكى چون گفتار ورزى يكديگر بشنوند وبراندازند رأى صواب از ميان پديد آيد ، وراى وتدبير صواب آن باشد كه عقول همگنان بر آن متفق باشد ، ومشورت ناكردن در كارها از ضعيف رأيى باشد وچنين كس را خود كامه خوانند. چنانكه هيچ كارى بى مرد آن نتوان كرد همچنين هيچ شغلى بى شمورت نيكونيايد....».
(سياست نامه ص ١١٢، ١١٣).

- كتاب «دستور الوزراء» والنصيحة:

إذا كانت هناك بعض الكتب الفارسية تنصح الملوك باتباع سياسة معينة فى الحكم حتى تستقيم الأمور فى البلاد، فهناك كتب أخرى تقدم النصائح والتوجيهات للوزراء، حتى يقوموا بعملهم على أكمل وجه، ويؤدون دورهم الذى من أجله اختارهم السلطان أو الحكام. ونذكر من هذه المؤلفات كتاب «دستور الوزراء» لسلطان حسين واعظ الاسترابادى، الذى كان معاصراً للشاه عباس الأول الصفوى، وأدرك كذلك عهد الشاه عباس الثانى، وقد ألف كتابه هذا بين عامى ١٠٥٥، ١٠٦٤هـ، وأهداه إليهما وذكرهما فى مقدمته على هذا الكتاب.

ويذكر المؤلف فى مطلع كتابه حديثًا للرسول (ﷺ) يقول فيه: «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إن نسى ذكَّره وإن ذكر أعانه». ويؤيد هذا الحديث بحكاية تروى فى كتب التاريخ مفادها أن السلطان ملكشاه السلجوقى كان ينفق مبلغ واحد وعشرين ألف دينار كل عام على الفقراء والمساكين والعلماء الفضلاء، فأشار عليه البعض بإنفاق هذا المبلغ على الجند، لأنه كلما قوى الجيش اتسعت المملكة وكثر دخلها، فأمر السلطان وزيره نظام الملك الطوسى بتنفيذ هذا الأمر، فأطاعه نظام الملك فى بداية الأمر وقال له: الأمر للسلطان، سوف أنفذ ما تريد، إلا أنى أود عرض رأى عليك فى الخلوة، فقال له السلطان: لك هذا. وفى اليوم التالى طلبه السلطان فى الخلوة وقال له: قل ما تريد الآن، فقد فرغت توًا من الصلاة وصدرى منشرح وعلى استعداد لسماع ما تقول. فقال له: يا سلطان الزمان، إذا أعطيت المبلغ للجند فسوف يقومون بحمايتك، وإذا أعطيت المال للعلماء والفقراء، فسوف يستجاب دعاؤهم عندما يدعون لك فى وقت السحر، بينما يكون غيرهم نائمين فى سبات عميق، ونحن جميعًا جنوداً ورعية فى حاجة إلى هذا الدعاء.. فسر السلطان من هذا الكلام وأمر بإنفاق مبلغ اثنين وأربعين ألف دينار على هذه الطائفة، فاتسعت مملكته وعلا شأنه ببركة إحسانه على الجميع.

وينصح المؤلف الوزير بموافقة السلطان على رأيه فى بداية الأمر حتى لو كان على خلاف معه فى الرأى، ومجاراته إلى أن تحين الفرصة لإقناعه برأيه فى لطف ولين،

ويذكر رأى الحكماء فى هذا الصدد؛ إذ يعتبرون الملوك والحكام بمثابة السيل الجارف الذى ينهمر من فوق جبل، ولا يستطيع أحد تحويل مساره إلا بالحيلة والتدبير. وهذا ما فعله نظام الملك فى القصة سالفة الذكر.

ثم يكمل المؤلف الحديث النبوى الشريف: «وإذا أراد الله عز وجل به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسى لم يذكره وإن ذكره لم يعنه» واستشهد على ذلك بحكاية حدثت فى أيام الخليفة المعتضد عندما سمع أن جماعة من الناس تجتمع فى حانوت بائع تبن وتخوض بالباطل فى شئون الحكم، فغضب غضبًا شديدًا، وطلب وزيره عبد الله بن سليمان وقص عليه ما سمعه وسأله عن كيفية معالجة الأمر. فقال له عبد الله بن سليمان: اقبض عليهم، فاشنق بعضهم، وأحرق البعض الآخر، وأحرق أوصال البقية، لأنه كلما اختلفت العقوبات وتنوعت كلها دب الخوف والهلع فى نفوس الرعية أكثر. فقال له الخليفة: والله إن قسوة قلبك قد أطفأت نار غضبى، وحولت خشونتى إلى رفق ولين، فلو أمرت ببعض ما أشرت به على لمنعتنى من الحلم والشفقة وهو ما يجب أن تنصحنى به كوزير، لا والله إن هذا الرأى ليس بالرأى السديد، فالصواب أن تبحث أحوال هذه الجماعة، وتفكر فى أمر معاشهم فتسند عملاً لمن لا عمل له، وتساعد المحتاج منهم من بيت المال، وتنصح الأغنياء بالابتعاد عن الحانوت باللطف واللين، وتحذرهم من وصول كلامهم إلى مسامع الخليفة حتى يمتنعوا عن لغو الحديث. وقام الوزير بتنفيذ ذلك فرجعت هذه الجماعة عما كانت تقوم به.

وهكذا يقوم المؤلف بتقديم النصح للوزراء حتى تكون آراؤهم سديدة ونصائحهم موفقة، ويقدم المؤلف هذه النصائح والعبر لهم من خلال الحكايات والقصص التاريخية.(١)

---

(١) كتاب دستور الوزراء – سلطان حسين واعظ استربادى – تصحيح وتعليق إسمعيل واعظ جوادى – إنتشاران بنياد فرهنگ إيران – تهران ١٣٤٥ (من ص ١٧ إلى ص ٢٣).

كتاب «چهار مقاله» والنصيحة:

ولا تقتصر النصيحة عند الفرس على جوانب الحياة المختلفة كما هو الحال فى كتاب «قابو سنامه» أو على المسائل الإدارية وأصول الحكم، بل تتعدى ذلك إلى النصح فى مجالات الأدب والفنون الأخرى، وخير من يمثل هذا الاتجاه نظامى عروضى السمرقندى فى كتابه «مجمع النوادر» المعروف باسم «چهار مقاله» أو المقالات الأربع، وهو من أقدم الكتب الفارسية التى عالجت جوانب من الحياة الأدبية والعلمية فى الجانب الشرقى من العالم الإسلامى منذ القرن الثالث الهجرى وحتى منتصف القرن السادس. ألف هذا الكتاب حوالى سنة ٥٥٠هـ، وترجع أهميته إلى اشتماله على كثير من الموضوعات التاريخية وتراجم لمشاهير الأعلام الذين لم يرد ذكرهم فى غيره من كتب الأدب والتاريخ.

والكتاب كما يدل عليه اسمه عبارة عن أربع مقالات فى بيان ما تتصف به الطوائف الأربع التى يحتاج إليها الملوك وهم الكتاب والشعراء والمنجمون والأطباء، ويذكر المؤلف ما ينبغى أن يتوفر لكل طبقة من صفات، ثم يعقب ذلك بما يقرب من عشر حكايات تناسب الموضوع. وقد رأينا ضم هذا الكتاب إلى كتب النصيحة الفارسية نظرًا لأن ما ذكره المؤلف فى مقدمة كل مقالة من هذه المقالات يعتبر نوعًا من النصيحة لكل طائفة من هذه الطوائف، كما أن الحكايات التى ذكرها فى كل مقالة كان المقصود منها هو أخذ العبرة والنصيحة فى كل مجال من المجالات التى تحدث عنها المؤلف. أما بالنسبة لأسلوب الكتاب فقد تميز بالصنعة نسبيًا خاصة فى مطالع مقالاته، وقد ألفه نظامى عروض باسم ابى الحسن حسام الدين على من الأمراء الغوريين.

يبدأ المؤلف كتابه بمقدمة طويلة تتضمن عدة فصول أنهاها بما تضمنه الكتاب من مقالات هى: الأولى، فى ماهية الكتابة وصفة الكاتب البليغ الكامل. والثانية، فى ماهية الشعر وصلاحية الشاعر. والثالثة، فى ماهية علم النجوم وتمكن المنجم فى هذا العلم، والرابعة، فى ماهية علم الطب وهدى الطبيب وصفته. وختم هذه المقدمة بقوله: «فقد أوردنا فى رأس كل مقالة ما يليق بهذا الكتاب من الحكمة وأتبعناه بعشر حكايات

طريفة من نوادر هذا الباب وبدائع هذه المقالة التى وقعت لهذه الطبقة، ليتبين للملك ويعلم أن الكتابة ليست أمراً هينا، وأن الشعر ليس شغلاً يسيراً، وأن علم النجوم علم ضرورى، وأن الطب صنعة لازمة، وأن الملك العاقل لا مناص له من هؤلاء الأشخاص الأربعة: الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب»[1].

وفى المقالة الأولى يعرف الكاتب فى مقدمته عليها ماهية الكتابة فيقول: «الكتابة صناعة مشتملة على قياسات خطابية وبلاغية، ينتفع بها فى المخاطبات بين الناس على سبيل المحاورة والمشاورة والمخاصمة، فى المدح والذم، والاحتيال والاستعطاف والإغراء، وتكبير الأعمال، وتصغير الأمور، والصرف فى وجوه الاعتذار والعتاب، وفى إحكام العلائق، والتذكر بالسوابق، وترتيب الكلام وتنظيمه فى كل واقعة على الوجه الأولى والمنهج الأحرى».

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عما يجب توفره فى الكتاب وما ينبغى عليه أن يتبعه فى عمله ليصبح كاتبًا جيداً، وما هى الأسباب التى يأخذ بها حتى يصل إلى مرتبة عالية فى هذا الفن، وإذا نظرنا إلى كل هذه الشروط التى وضعها المؤلف، أو قل كل هذه النصائح التى نصح بها الكاتب، وجدناها تؤدى ولا شك إلى هذه المنزلة العالية فى فن الكتابة، ويبدأ شروطه ونصائحه بشخصية الكاتب ثم ثقافته وسلوكياته فى الكتابة، يقول: «فينبغى أن يكون الكاتب كريم الأصل، شريف العرض، دقيق النظر، عميق الفكر، ثاقب الرأى، وأن ينال الحظ الأوفر، والنصيب الأكبر من الأدب وثمراته، وينبغى ألا يكون بعيداً من القياسات المنطقية، غريبًا عنها، وأن يعرف مراتب أبناء الزمان، ومقادير أهل العصر، وألا يشغل بحطام الدنيا وزخارفها، ولا يلتفت إلى التحسين والتقبيح من أصحاب الأغراض وأولى الإغماض ولا يغتر بهم.

وأن يصون مخدومه فى مقام الترسل عن المنازلة الدنية، والمواضع الخاملة، ولا يشتد فى أثناء الكتابة، وسياق الترسل على أرباب الحرمة وذوى الحشمة، وإن كان بين

---

(١) انظر ترجمة كتاب «چهار مقالة» – عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب – القاهرة ١٣٦٨هـ – ١٩٤٩ ص٢١.

المخدوم والمخاطب خصومة وجب أن يصون قلمه ولا يقع فى عرض المخاطب إلا من جاوز الحد، وخرج عن الصون، فقد قيل: «واحدة بواحدة والبادى أظلم».

وينبغى أن يلتزم الطريق الأوسط فى الألقاب، ويكتب إلى كل إنسان ما يلائم أصله ونسبه وملكه وولايته وعسكره وخزائنه إلا من شدد فى هذا وتكبر وجاوز الحد وزاد فى الانبساط إلى الدرجة التى لا يعدها العقل موافقة للمكاتبة وملائمة للمراسلة. فيجوز للكاتب ولا حرج عليه أن يأخذ القلم ويمضى قدماً، ويبلغ فى هذه السبيل أقصى الغاية، ومنتهى النهاية، فإن أكمل الناس وأفضلهم صلوات الله وسلامه عليه يقول: «التكبر مع المتكبر صدقة»، وعليه ألا يدع غباراً ينال مخدومه فى ميدان المكاتبة من هواء المراسلة.

وينبغى أن يلزم فى سياق الكلام نهجًا - يجعل الألفاظ تابعة للمعانى، ويوجز.

ومن الحكايات التى يستشهد بها المؤلف على مهارة الكاتب وبلاغته نذكر الحكاية الرابعة فى هذه المقالة وهى على النحو التالى:

«كان الصاحب الكافى إسماعيل بن عباد الرازى وزير شاهنشاه. وكان فاضلاً كاملاً، وترسله وشعره، على هذه الدعوى، شاهدا عدل وقاضيا صدق. وكان الصاحب عدلى المذهب، وأصحاب العدل يتشددون فى التقوى والتنسك ويجيزون أن يخلد المؤمن فى جهنم فى شعيرة. وكان أكثر عماله وخدمه وحشمه على مذهبه.

وكان فى قم قاض من قبله. وكان للصاحب اعتقاد راسخ فى نسكه وتقواه. والأخبار عنه تتوالى بخلاف ما يعتقد الصاحب فلا يصدقها حتى شهد اثنان من ثقات أهل قم أن القاضى أخذ خمسمائة دينار رشوة فى خصومة كانت بين فلان وفلان، فأنكر الصاحب هذا إنكاراً شديداً من وجهين، جرأة القاضى وضعف دينه، وكثرة الرشوة، وأخذ القلم فوراً وكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، أيها القاضى بقم، قد عزلناك فقم.

ويعلم الفضلاء ويعرف البلغاء أنْ هذه الكلمات في أي مرتبة في باب الإيجاز والفصاحة. لا عجب أن يكتب الفصحاء والبلغاء هذه الكلمة على القلوب وينقشوها في الأرواح منذ ذلك اليوم.[١]

ويقصر الكلام، فقد قال عظماء العرب: خير الكلام ما قل ودل. وحيثما جاءت المعاني في أثر الألفاظ طال الكلام، ودعي الكاتب مكثاراً (والمكثار مهذار).

ولا يبلغ كلام الكاتب هذه الدرجة حتى ينال من كل علم نصيباً، ويأخذ عن كل أستاذ نكتة، ويسمع من كل حكيم لطيفة، ويقتبس من كل أدب طرفة. فعليه أن يجعل ديدنه قراءة كلام رب العزة وأخبار المصطفى وآثار الصحابة وأمثال العرب، وكلمات العجم، ومطالعة كتب السلف، والاضطلاع على صحف الخلف، مثل: ترسل الصاحب والصابي وقابوس وألفاظ الحمادي والأمامي وقدامة بن جعفر ومقامات البديع والحريري وحميد وتوقيعات البلعمي وأحمد بن حسن وأبي نصر الكندري، ورسائل محمد عبده وعبد الحميد وسيد الرؤساء، ومجالس محمد بن منصور، وابن عبادي وابن النشابة العلوي. ومن دواوين العرب: ديوان المتنبي والأبيوردي والغزي. ومن شعر العجم: أشعار الرودكي ومثنوي الفردوسي ومدائح العنصري.

---

(١) «صاحب كافي اسماعيل بن عباد الرازي وزير شهنشاه بود ودر فضل كمال داشت. وترسل وشعر او برين دعوى أو شاهد عدل اند ودوحاكم راست. ونيز صاحب مردي عدلي مذهب بود وعدلي مذهبان بغايت متنسك ومتقي باشد، وروا دارند كه مؤمني بخصمي يك جا جاودانه در دوزغ بماند ، وخدم وحشم وعمال او بيشتر آن مذهب داشتندي كه او داشت ، وقاضي بود بقم ازدست صاحب كه صاحب را در نسك وتقواي او اعتقادي بود راسخ ، ويك يك بر خلاف اين از وي خبر ميدادند وصاحب را استورا نمي آمد ، تا از ثقات اهل قم دو مقبول القول كفتند كه زمان خصومت كه ميان فلان وبهمان بود قاضي پانصد دينار رشوت بستد. صاحب را عظيم مستنكر آمد بدو وجه : يكي از كثرت رشوت ، ودوم ازدليري وبي ديانتي قاضي ، حالي قلم بر كرفت وبنوشت : بسم الله الرحمن الرحيم. ايها القاضي بقم قد عزلناك فقم، وفضلا دانند وبلغا شناسند كه اين كلمات در باب إيجاز وفصاحت چه مرتبه دارد ، لاجرم از آن روز باز اين كلمه را بلغا وفصحا بر دلها همي نويسند وبر جانها همي نكارند».

(چهار مقاله - عروض سموقندي - باهتمام محمد قزويني - تهران ١٣٤١هـ.ش ص ١٨)

فكل واحد ممن عددت نسيج وحده فى صناعته، وصدر وقته. وكل كاتب يحصل هذه الكتب ويديم مطالعتها يشحذ خاطره، ويصقل ذهنه، وينير طبعه، ويسمو كلامه ويستحق اسم الكاتب.[١]

وإذا نظرنا إلى هذه الشروط السابقة، نرى أن المؤلف لم يترك شاردة ولا وارة ينبغى توافرها فى الكاتب إلا ذكرها، فالعلم والثقافة مسألتان أساسيتان بالنسبة للكاتب، كما أن حسن التصرف والدقة فى التعامل مع الآخرين سواء كانوا من الأعداء أو من الأصدقاء مسائل هامة وضرورية، وكذلك الإيجاز كوسيلة من وسائل حسن التعبير وبلاغة الكلام، ولن يصل الكاتب إلى المنزلة المرجوة إلا باطلاعه على أبرز ما ألفه أدباء عصره والعصور السابقة عليه، ويخص بالذكر فى النهاية القرآن الكريم وأثره على الكاتب.

وفى المقالة الثانية حول ما هية الشعر وصلاحية الشاعر، يعرف المؤلف الشعر أولاً بقوله: «الشعر صناعة بها يؤلف المقدمات الموهمة، والقياسات المنتجة على وجه يجعل المعنى الصغير كبيراً والكبير صغيراً، ويرد الحسن فى زى القبح، ويجلو القبح فى صورة الحسن. ويثير بالإبهام القوى الغضبية والشهوانية فيحدث بهذا الإبهام للطباع انقباض وانبساط، وتنشأ فى العالم الأمور العظام.. فلا غنى للملك عن الشاعر المجيد كى يخلد اسمه، ويبقى ذكره فى الدواوين والكتب، لأن الملك إذا نزل به القضاء لم يبق من جيشه وماله وخزائنه شىء ولكن يبقى اسمه خالداً بشعر الشعراء...».

ويعدد المؤلف أسماء الحكام وأسماء الشعراء الذين خلدوا ذكرهم عن طريق إنشاد الشعر فى مديحهم والثناء عليهم، فظلت ذكراهم باقية. ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الصفات الواجب توافرها فى الشاعر وشعره، ومن هذه الصفات ما يخص شخصية الشاعر، وعلمه وثقافته، يقول: «ينبغى أن يكون الشاعر سليم الفطرة، عظيم الفكرة،

---

(١) انظر ترجمة چهار مقاله ص ٢٢، ٢٣

صحيح الطبع، جيد الروية، دقيق النظر، متنوعًا فى أنواع العلوم، أخذًا بأطراف الرسوم، لأن كل علم يتصل بالشعر كما يتصل الشعر بكل علم.

وينبغى أن يكون الشاعر منطقيًا فى مجلس المحاورة، طلق الوجه فى مجلس المعاشرة. وينبغى أن يكون شعره من الجودة بحيث يكون فى صحائف الزمان مسطورًا، وعلى ألسنة الأحرار مذكورًا. يكتب فى السفائن ويقرأ فى المدائن. وخير ما فى الشعر تخليد الاسم، ولا يبلغ هذا المقصد ما لم يبق مسطورًا مقروءًا. وإذا لم يبلغ الشعر هذه الدرجة لم يبق أثره، ومات قبل قائله وكيف يخلد غيره إن لم يخلد نفسه.

ولا يبلغ الشاعر هذه المنزلة إلا أن يحفظ فى عنفوان الشباب وربيع العمر عشرين ألفْ بيت من أشعار المتقدمين ويجعل نصب عينه عشرة آلاف كلمة من آثار المتأخرين، ويواصل القراءة فى دواوين الأئمة، ويلتقط منها ليعلم كيف تصرفوا فى مضايق القول، ودقائق الكلام حتى يرتسم فى طبعه صور الشعر وطرائقه، ويتجلى له مزايا الشعر ونقائصه فيرتقى قوله، ويعلو طبعه. فإذا رسخ طبعه فى نظم الشعر وانقاد له الكلام عمد إلى علم الشعر وقرأ العروض، وألم بتصانيف الأستاذ ابى الحسن السرخسى البهرامى مثل غاية العروضين وكنز القافية، وقرأ نقد المعانى والألفاظ والسرقات والتراجم وأنواع هذه العلوم على أستاذ يحذقها، ليكون جديرًا بالأستاذية ويظهر اسمه على صحيفة الزمان مع أسماء الأساتذة الآخرين الذين ذكرنا أسماءهم، حتى يستطيع أن يوفى الممدوح حق نعمه، بتخليد اسمه..»[1].

وفى المقالة الثالثة يتحدث عن علم النجوم، ويستشهد فى بداية هذه المقالة بقول أبى الريحان البيرونى (متوفى سنة ٤٤٠هـ) فى كتابه التفهيم فى صناعة التنجيم: «لايسمى الرجل منجمًا مالم يحط بأربعة علوم، الأول الهندسة والثانى الحساب

---

(١) ترجمة چهار مقاله ص ٢٤-٢٨

والثالث الهيأة والرابع الأحكام». ثم يعرف المؤلف كل علم من هذه العلوم، ويختم مقدمة هذه المقالة بالشروط التى يجب توافرها فى المنجم.[١]

وفى المقالة الرابعة يتناول المؤلف علم الطب، وهداية الطبيب ويعرف الطب بأنه «صناعة تحفظ الصحة فى بدن الإنسان حاصلة وتستردها زايلة، وبها يزدان الجسم، بطول الشعر وصفاء البشرة وطيب الرائحة والنشاط». وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الطبيب والشروط التى يجب توافرها فيه، فيقول: «وأما الطبيب فينبغى أن يكون رقيق الخلق، حكيم النفس، جيد الحدس، والحدس حركة نفسية توحى بالآراء الصائبة، أعنى سرعة انتقال من المجهول إلى المعلوم. ولا يكون الطبيب رقيق الخلق مالم يعرف شرف النفس الإنسانية. ولا يكون حكيم النفس مالم يعرف المنطق، كما أنه لا يكون جيد الحدس مالم يكن مؤيداً بالتأييد الإلهى، والطبيب الذى لا يكون جيد الحدس لا يصل إلى معرفة العلة..»[٢]

ويختم المؤلف كتابه فى تواضع شديد فيقول: «ليس المقصود من تحرير هذه الرسالة وتقرير هذه المقالة إظهار الفضل أو إذكاء الخدمة، بل هى إرشاد للمبتدئ وحمد لمولاى الملك العظيم المؤيد المظفر المنصور حسام الدولة والدنيا والدين.. شمس المعالى ملك الأمراء أبى الحسن على بن مسعود بن الحسين نصير أمير المؤمنين أدام الله جلاله، وزاد فى السعادة إقباله...».

كتاب «كليلة ودمنة» والنصيحة والحكمة

أصل هذا الكتاب باللغة الهندية القديمة (السنسكريتية)، ويسمى فى هذه اللغة (كرتكاد منكا)، ألفه بيدبا الفيلسوف للملك الهندى دبشليم، وظل محفوظاً فى خزائن ملوك الهند، إلى أن علم بأمره الملك أنوشيروان الساسانى ووزيره الحكيم بزرجمهر،

---

(١) المصدر السابق ص ٦٦

(٢) المصدر السابق ص ٧٤

فأرسلا الطبيب برزويه الذى كان يعرف اللغة السنسكريتية، واللغة البهلوية لغة إيران، إلى الهند، وسافر الطبيب وأحضر الكتاب وكتبًا أخرى غيره، وقام بترجمته إلى البهلوية. وطلب برزويه من أنوشيروان أن يقوم بزرجمهر بإضافة باب فى بداية الكتاب يتحدث فيه عن بروزيه الطبيب وذهابه إلى الهند، وكان له ما أراد. ثم قام ابن المقفع (متوفى ١٤٢هـ) بترجمة الكتاب من البهلوية إلى العربية، وضاعت بعد ذلك النسخة البهلوية وأصبحت النسخة العربية هى الأصل الذى ترجم عنه كتاب كليلة ودمنة إلى معظم لغات العالم. وقد نظم هذا الكتاب فى العربية عدة مرات: نظمه أبان بن الحميد اللاحقى، وهو من شعراء القرن الثانى الهجرى، ثم سهل بن نوبخت، وعلى بن داود كاتب زبيدة بنت جعفر، وأبو المكارم أسعد بن خطير بن مماتى المصرى (متوفى ٦٠٦هـ)، وجلال الدين حسن بن أحمد النقاش، ونظم ابن الهبارية (متوفى ٤٩٠هـ) كتابه «الصادح والباغم» فى ألف بيت مقلدًا كليلة ودمنة، كما صنف سهل بن هرون للمأمون كتابًا عارض فيه كليلة ودمنة فى أبواب أمثاله.

أما فى الفارسية فقد نظمه الشاعر الرودكى، ولم يبق منه إلا أبيات متفرقة، كما نظمه أيضًا الأمير بهاء الدين أحمد قانعى ملك الشعراء عام ٦٥٥هـ باسم عز الدين كيكاوس من سلاطين سلاجقة آسيا الصغرى. وتعد ترجمه أبى المعالى نصر الله بن محمد بن عبد الحميد الكاتب أقدم الترجمات الفارسية الباقية. وقد قام بها امتثالاً لآمر بهرام شاه الغزنوى سنة ٥٣٩هـ وجعلها باسمه، فاشتهر الكتاب باسم «كليلة ودمنه بهرامشاهى». وأسلوب هذه الترجمة لا يخلو من التكلف. وقد وقع المترجم تحت تأثير الأسلوب العربى، فكانت جمله فى كثير من الأحيان أشبه فى تركيبها بالجمل العربية، ويستشهد الكاتب بآيات من القرآن الكريم، وأشعار وأمثال عربية وفارسية. وفى نهاية القرن التاسع الهجرى وفى زمان السلطان حسين ميرزا بايقرا حفيد تيمور أخرج حسين الواعظ الكاشفى ترجمة أبى المعالى فى ثوب جديد، وغير فى بعض فصولها، وذكر أشعارًا فارسية مكان الأشعار العربية، وأهداها إلى نظام الدولة الأمير الشيخ أحمد السهيلى، أحد أمراء السلطان حسين وسماها «أنوار سهيلى».

وبعد مرور قرن على ترجمة «أنوار سهيلى» أمر أكبر شاه ملك الهند ، المؤرخ المعروف أبا الفضل بن مباركشاه بأن يكتب كليلة ودمنة فى أسلوب أسهل وعبارة أبسط من عبارة «أنوار سهلى» واعتمد فى ذلك على ترجمة أبى المعالى، فأخرج كتاب «عيار دانش» أى معيار المعرفة.

ومع كثرة هذه الترجمات لكليلة ودمنة، فإن ترجمة أبى المعالى تظل هى الأفضل والأشهر وتقع هذه الترجمة فى ستة عشر باباً، يذكر أبو المعالى فى مقدمتها أن عشرة أبواب منها ذات أصل هندى، أما الأبواب الستة الباقية فمن أصل فارسى أضيفت إلى الكتاب، والأبواب الهندية هى:

١ - باب الأسد والثور.
٢ - باب التفحص عن أمر دمنة.
٣ - باب الحمامة المطوقة.
٤ - باب البوم والغربان.
٥ - باب القرد والسلحفاة.
٦ - باب الناسك وابن عرس.
٧ - باب السنور والجرذ.
٨ - باب ابن الملك والطير.
٩ - باب الأسد وابن أوى.
١٠ - باب الأشبال واللبوه.

أما الأبواب الفارسية الستة هى:

١ - باب ابتداء كليلة ودمنة.
٢ - باب برزويه الطبيب.
٣ - باب الناسك والضيف.
٤ - باب البلاد والبراهمة.
٥ - باب السائح والصائغ.
٦ - باب ابن الملك وأصحابه[١].

---

(١) انظر مقدمة عبد العظيم قريب على كتاب كليلة ودمنة لنصر الله بن محمد بن عبد الحميد - تهران ١٣٢٧، ص٩.

ويمتلئ كتاب كليلة ودمنة لأبى المعالى نصر الله بأبيات الشعر العربى التى تحمل معانى فى الحكمة والنصيحة، ولكنه لم يذكر أسماء قائليها، ومن أمثلة ذلك:

- بقدر الكد تكتسب المعالى   ومن طلب العلى سهر الليالى
تروم العز ثم تنام ليلاً   يغوص البحر من طلب اللآلى (ص ١٥)

- إذا ما كنت فى أمر مروم   فلا تقنع بما دون النجوم
ترى الجبناء أن العجز حزم   وتلك خديعة الطبع اللئيم
فطعم الموت فى أمر حقير   كطعم الموت فى أمر عظيم (ص ٥٦)

- إذا المرء لم يرض ما أمكنه   ولم يأت من أمره أزينه
فدعه فقد ساء تدبيره   سيضحك يوما ويبكى سنة (ص ٧١)

- الرأى قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهى المحل الثانى (ص ٧٣)

- ووضع الندى فى موضع السيف بالعلي   مضر كوضع السيف فى موضع الندى
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا (ص ٨٢)

- فلا وأبيك ما فى العيش خير   ولا الدنيا إذا ذهب الحياء (ص ١٥٠)

- قدر لرجلك قبل الخطو موضعها   فمن علا زلقًا عن غرة زلجا (ص ١٩٦)

- إلزم السكوت فإن فيه سلامة   وتجنب الكلام فإن فيه ندامة (ص ٣٢٩)

وتكثر فى هذا الكتاب أيضًا الأبيات الفارسية بين الحين والآخر، لتعبر عن معنى من المعانى التى وردت فى حكايات كليلة ودمنة؛ وتلخص فى نفس الوقت الحكمة التى أرادها مؤلف الكتاب، والنصيحة التى أراد توجيهها، ومثال ذلك:[1]

- يحصل كل إنسان على المال، ولكن التعب كل التعب فى الحفاظ عليه.

- أنا كالشوك والتراب وأنت كالشمس والسحاب، فإذا رعيتنى أخرج لك وردًا وشقائق.

- لا يستقيم أساس الملك بدون حد السيف، فمن أراد الملك لا ينبغى له التخلى عن السيف.

- فإذا لم يعمل السيف عمله بين الخلق، فلن يستقيم عرش الملك لأى ملك.

وأحيانًا ما يذكر المؤلف بيتًا بالعربية وما يساويه فى المعنى من شعر فارسى، مثل:

يخفى العداوة وهى غير خفية   نظر العدو بما أسر يبوح

ازدو ديده زسر أو پيداست   آتشى كزسر عداوت ماست (ص ٨٧)

ومعنى البيت الفارسى:

تبوح عيناه بسره، فتبدو نار عداوته لنا.

---

(١) - مال راهر كسى بد ست آرد   بخش اندر نگاهد اشتن است (ص ٥٣)

- من همچو خار وخاكم وتو آفتاب وابر   گلها ولاله ها دهم ار تربيت كنى (ص ٦٢)

- بنياد ملك بى سرتيغ استورانيست   اورا كه ملك بايد بى تيغ كار نيست

- تا تيغ بى قرار نگردد ميان خلق   بر تخت ملك هيچ ملك پايدار نيست (ص ٨٥)

ومثال ذلك أيضاً:

وبال مــن آمــده همــه دانش من   چــورروباه رامــوى وطـــاوس راپــر

شد ناف معطر سـبـب كشتى آهو   شد طبع موافق سبب بستن كفتـار

الصعــو يصفــر أمنــا فى ســربه   حُبس الهزار لأنه يترنم (ص ٩١)

ومعنى البيتين الفارسيين:

- حلت المصائب على بسبب علمى،

كما تحل المصائب على الثعلب لفرائه، وعلى الطاووس لريشه.

- أصبحت سرة الغزال المسكية سببا فى قتله.

وصار الطبع المناسب سببا فى قيد الضبع.

وبالإضافة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة التى استشهد بها المؤلف فى مواضع كثيرة من كتابه. نرى أيضًا الأمثال العربية التى استعان بها لتأييد فكره ورأيه، ومثال ذلك:

- من سل سيف البغى قتل به. (ص ٧٣).

- من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً. (ص ١١٠).

- والبغى يصرع أهله والظلم مرتعه وخيم. (ص ١١٠).

- العافية فى ترك المجالسة مع السفهاء. (ص ١١٢).

- مقتل الرجل بين فكيه. (ص ١٢٣).

نموذج من كتاب كليلة ودمنة:[1]

«... قال دمنة: زعموا أن غرابًا كان له وكر فى شجرة على جبل وكان قريبًا منه جحر ثعبان أسود فكان الغراب إذا أفرخ، عمد الأسود إلى فراخه فأكلها، فبلغ ذلك الغراب وأحزنه، فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى وقال له: أريد مشاورتك فى أمر قد عزمت عليه، قال له: ما هو؟ قال الغراب: قد عزمت أن أذهب إلى الأسود إذا نام فأنقر عينيه فأفقأهما لعلى استريح منه، قال ابن آوى بئس الحيلة التى احتلت فالتمس أمرًا تصيب فيه بغيتك من الأسود من غير أن تغرر بنفسك وتخاطر بها، وإياك أن تكون مثلك مثل العلجوم (ذكر البط) الذى أراد قتل السرطان فقتل نفسه، قال الغراب: وكيف كان ذلك؟

قال ابن آوى: زعموا أن علجومًا عشش فى أجمة كثيرة السمك فعاش بها ما عاش ثم هرم، فلم يستطع صيدًا، فأصابه جوع وجهد شديد فجلس حزينًا يلتمس الحيلة فى أمره فمر به سرطان فرأى حالته وما هو عليه من الكآبة والحزن، فدنا منه وقال: مالى أراك أيها الطائر هكذا حزينًا كئيبًا؟ قال العلجوم: وكيف لا أحزن وقد كنت أعيش على ما أصيده هنا من السمك وإنى قد رأيت اليوم صيادين قد مرا بهذا المكان، فقال أحدهما لصاحبه إن هنا سمكًا كثيرًا أفلا نصيده أولاً فقال الآخر: إنى رأيت فى مكان كذا سمكًا أكثر من هذا فلنبدأ بذلك فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأتيناه، وقد علمت أنهما إذا فرغا مما هو (هناك) انتهيا إلى هذه الأجمة فاصطادا ما فيها، فإذا كان ذلك فهو هلاكى ونفاذ مؤنتى. فانطلق السرطان من ساعته إلى جماعة السمك فأخبرهم بذلك فأقبلن إلى العلجوم فاستشرنه وقلن له إنا أتيناك لتشير علينا فإن ذا العاقل لايدع مشاورة عدوه، قال العلجوم: أما مكابرة الصيادين فلا طاقة لى بهما ولا أعلم حيلة إلا المسير إلى غدير قريب من هاهنا فيه سمك ومياه عظيمة وقصب، فإن استطعتن الانتقال إليه كان فيه صلاحكن وخصبكن. فقلن له: ما يمن علينا بذلك غيرك، فجعل العلجوم يحمل فى كل يوم سمكتين حتى ينتهى بهما إلى بعض التلال

---

(١) الترجمة العربية لكتاب كليلة ودمنة لابن المقفع - طبعة المركز العربى للنشر والتوزيع بالإسكندرية ص١٠٧-١٠٩.

فيأكلهما، حتى إذا كان يوم جاء لأخذ السمكتين فجاء السرطان فقال له: إنى أيضًا قد أشفقت من مكانى هذا واستوحشت منه فاذهب بى إلى ذلك الغدير، فاحتمله وطار به، حتى إذا دنا من التل الذى كان يأكل السمك فيه، نظر السرطان فرأى عظام السمك مجموعة هناك فعلم أن العلجوم هو صاحبها، وأنه يريد به مثل ذلك، فقال فى نفسه إذا لقى الرجل عدوه فى المواطن التى يعلم أنه فيها هالك سواء قاتل أم لم يقاتل كان حقيقيًا أن يقاتل عن نفسه كرمًا وحفاظًا، ثم أهوى بكلبتيه على عنق العلجوم فعصره فمات وتخلص السرطان وسارع إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن بعض الحيل مهلكة للمحتال ولكننى أدلك على أمر إن أنت قدرت عليه كان فيه هلاك الأسود من غير أن تهلك به نفسك وتكون فيه سلامتك، قال الغراب: ما ذاك؟ قال ابن آوى: تنطلق فتبصر فى طيرانك لعلك أن تظفر بشىء من حلى النساء فتخطفه ولا تزال طائرًا واقعًا بحيث لا تفوت العيون، حتى تأتى جحر الأسود فترمى بالحلى عنده فإذا رأى الناس ذلك أخذوا حليهم وأراحوك من الأسود، فانطلق الغراب محلقًا فى السماء فوجد امرأة من بنات العظماء فوق سطح تغتسل، وقد وضعت ثيابها وحليها ناحية فانقض واختطف من حليها عقدًا وطار به، فتبعه الناس ولم يزل طائرًا حيث يراه كل أحد حتى انتهى إلى جحر الأسود فألقى العقد عليه.. والناس ينظرون إليه وأخذوا العقد وقتلوا الأسود. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الحيلة تجزئ ما لا تجزئ القوة...»[1].

---

(١) النص الفارسى من كتاب «كليلة ودمنة» (ص ٧٢-٧٦):

«.... دمنه گفت آورده اند كه زاغى در كوهى بر بالاى درختى خانه داشت ودر حوالى آن سوراخ مارى بود هرگاه زاغ بچه كردى مار بخوردى زاغ بوجه موعظت نزديك.

شكال براى شكايت برد كه دوست او بود گفت مى انديشم كه خود را از بلاى اين ظالم جان شكر باز رهانم شكال پرسيد كه بچه طريق قدم در اين مهم خواهى نهاد گفت مى انديشم كه چون مار خفته باشد چشم جهان بين اورا بركنم تا در مستقبل نور ديده وميوه دل من از قصد =

....

= او أيمن گردد شكال گفت اين تدبير بابت خرد مندان نيست چه خردمند قصد دشمن بوجهى كند كه در آن خطر جان نباشد زنهار تا چون ما هيخوار نكنى كه در هلاك خرچنك سعى پيوست وجان عزيز را بباد داد زاغ گفت چگونه بود آن.

حكايت - گفت ماهيخوارى برلب أبى وطن داشت وبقدر حاجت ماهى ميگرفت وروزگار در خصب ونعمت ميگذاشت چون ضعف پيرى بدو راه يافت از شكار باز ماند باخود گفت دريغا عمركه عنان گشاده رفت وازوى جز تجربت وممارست عوضى نماند كه وقت پيرى پايمردى يادستگيرى تواند بود وامروز چون از قوت باز ماندم بناى كارخود بر حيلت بايد نهاد پس چون اند وهناك بر كناره‌ء آب نشست خرچنك اورا أز دور بديد پيش أمد بود كه هر روزيگان ودوگان ماهى ميگر فتمى وبدان روزگار بسر ميبردمى مرا سد رمق حاصل ميبود ودر ماهى نقصان نميبود امروز دو صياد إينجا ميگذشتند وبايكديگر ميگفتند در اين أبگير ماهى بسيار است تدبير ايشان ببايد كرد يكى گفت فلان جاى بيشتراست چون از ايشان بپردازيم روى بدينجا نهيم اگر حال چنين باشد مرا دل از جان شيرين بر بايد گرفت وبر نج گرسنگى بلكه بر تلخى مرك دل ببايد نهاد خرچنگ برفت وماهيا نرا خبر كرد جمله نزد او أمدند وگفتند المستشار مؤتمن ما باتو مشورت مى كنيم وخرد مند در مشورت اگر چه دشمن بود چيزى پرسند شرط نصيحت فرو نگذارد خاصة در كارى كه نفع آن بدو باز گردد وبقاء ذات تو بدوام تناسل ما متعلق است در كار ما چه صواب بينى ماهيخوار گفت باصياد مقاومت صورت نبندد ومن در آن اشارت نتوانم كرد ليكن در اين نزديكى أبگيرى دانم كه أبش بصفا زدوده تر از گريه‌ء عاشق است وغماز تر از صبح صادق چنانكه دانه‌ء ريك در قعر آن بتوان شمرد وبيضه‌ء ماهى از فراز آن بتوان ديد.

إذا علتها الصبا أبدت لها حُبُكاً   مثل الجواشن مصقولا حواشيها

لا يبلغ السمك المحصور غايتها   لبعد ما بين قاصيها ودانيها

أگر بدان تحويل توانيد گرد در امن وراحت وخصب وفراغت افتيد گفتند نيكو راى است ليكن بى معاونت تو نقل ممكن نگردد گفت دريغ ندارم أما مدت گيرد وساعت تا ساعت صيادات بيايند وفرصت فائت گردد وبسيار تضرع نمودند ومنتها تحمل كردند تا بدان قرار داد كه هر روز چند ما هى ببردى وبر بالائى كه در آن نواحى بود بخوردى وديگران در تحويل تعجيل ومسارعت مينودند وبايكديگر پيشدستيومسابقت ميكردند واو خود بچشم عبرت در سهو وغفلت ايشان مينگريست وبزبان عظت ميگفت كه هر كه بلابه‌ء دشمن فريفته شود وبر لئيم بد گوهر إعتماد روا دارد سزاى او اين است چون روزها بدان بگذشت خرچنگ خواست كه هم تحويل كند ما هيخوار اورا بر پشت گرفت وروى بدان بالا نهاد كه خوابگاه ماهيان بود خرچنگ چون از دور استخوان ماهيان بسيار ديد دانست كه حال چيست اند يشيد كه خردمند چون دشمن را در مقام خطر بديد وقصد او در جان شيرين خود مشاهدت كرد أگر كوشش فرو گذارد درخون خويش سعى كرده باشد وچون بكوشد اگر پيروز أيد نام گيرد واگر بخلاف آن كارى =

....

= افتد باری حمیت ومردانگی وشهامت او مطعون نگردد وباسعادت شهادت اورا ثواب مجاهدت فراهم آید پس خویشتن بر گردن ماهیخوار افکند وحلق او محکم بیفشرد چنانکه بیهوش گشت ویکسر بزیارت مالك رفت خر چنگ سر خویش گرفت وپاری در راه نهاد تا بنزدیك بقیت ماهیان آمد وتعزیت یاران گذشته وتهنیت حیات باقی ایشان بگفت واز صورت حال إعلام کرد جمله شاد گشتند ووفات ما هیخوار عمری تازه شمردند.

وإن حيـاة المـرء بعـد عـدوه   وان كان يـومـا واحـدا لكثير

دمی آب خوردن پس از بدسگال   به از عمر هفتاد وهشتاد سال

واین مثل بدان آوردم تا بدانی که بسیار کس بکید وحیلت خود هلاك شدند لیکن من ترا وجهی نمایم که اگر بر آن کار کنی سبب بقاء تو وموجب هلاك مار باشد زاغ گفت از اشارت دوستان نتوان گذشت ورأی خردمند آنرا خلاف نتوان کرد شکال گفت صواب آنست که در أوج هوا پرواز کنی وبر بامها وصحراها چشم اندازی تا نظر بر پیرایهء گشاده افکنی که ربودن آن میسر شود فرود آئی وآنرا برداری وهموار بروی چنانکه از چشم مردمان غائب نگردی چون بنزدیك مار رسی بروی اندازی تا مردم که بطلب آمده باشند نخست ترا باز رهانند پس بپیرایه پردازند زاغ روی بآبادانی نهاد زنی را دیدکه پیرایهبرگوشهء بام نهاده بود وخود بطهارت مشغول گشته زاغ پیرایه را در ربود وبدان ترتیب که شکال فرموده بود بر مار انداخت مردمان که در پی زاغ پیرایه را در ربود وبدان ترتیب که شکال فرموده بود بر مارانداخت مردمان که در پی زاغ بودند در حال سر مار را بکو فتند وزاغ باز رست. دمنه گفت این مثل بدان آوردم تابدانی که آنچه بحلیت توان کرد بقوت ممکن نباشد....».

الفصل السابع

من أدب الرحلات

الرحلة الأولى : رحلة الحج

الرحلة الثانية : إلى بيت المقدس

من أدب الرحلات الدينية

كانت ديار العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه خلال القرون السابقة لاتعرف الحدود ولا القيود فيما بينها، وكان المسلم فى أى بقعة منها يستطيع السفر إلى أى ركن من أركان العالم الإسلامى دون تصريح بالدخول أو الخروج (فيزا)، بل كان يستطيع الإقامة ما طاب له البقاء فى أى مصر من الأمصار الإسلامية دون أن يسائله أحد عن أسباب مجيئه، ولا عن أسباب بقائه، ولا يستفسر منه أحد عن متى رحيله، ولهذا فإننا نرى كثيراً من علماء المسلمين وخاصتهم وعامتهم قد ساحوا فى بلدان العالم الإسلامى، وأقاموا هنا أو هناك دون أية قيود، وكان من بين هؤلاء السائحين فى بلدان العالم الإسلامى عدد كبير من الشعراء والكتاب الفرس، وقد حرص بعضهم على تسجيل خواطرهم وانطباعاتهم عن البلاد التى زاروها، سواء فى عجالة أو بتفصيل وإسهاب.

وحتى لا يطول بنا الحديث فسنقصر حديثنا على وصفهم للأماكن الدينية المقدسة فى العالم الإسلام، وعلى رأسها الكعبة المشرفة ومسجد الرسول الكريم محمد عليه السلام وثالث الحرمين بيت المقدس، بل إننا سنقصر الحديث منعاً للإسهاب والإطالة - على الرحلات التى حرص أصحابها على تسجيل مشاهداتهم وانطباعاتهم أثناء هذه الزيارات وبخاصة خلال موسم الحج دون الحديث عن الإشارات السريعة الواردة فى الدواوين والكتب والمقالات.

وقد حظى الأدب الفارسى بكتب كاملة عن السياحة، وكان للسياحة الدينية فيها نصيب وافر، وأذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: سفرنامه لناصر خسرو التى

تحدث فيها عن رحلة استغرقت سبع سنوات بين عامى ٤٣٧-٤٤٤هـ زار فيها الشام ومصر والحجاز واليمن، ووصف فى هذه الديار كل ما شاهده من مبان وعادات وتقاليد، وقد خص الأماكن الدينية بالكثير من حديثه، وبخاصة وصفه للأماكن المقدسة فى مكة والمدينة، أما الكتاب الثانى فهو : «سفرنامه مكه» لمهدى قلى هدايت مخبر السلطنة[1] والتى وصف فيه رحلته التى بدأها عام ١٣٢١ هـ (١٩٠٣م) وزار فيها سيبيريا والصين واليابان وأوربا ومصر والشام والحجاز ولكنه تيمنًا بالكعبة المشرفة، فقد آثر أن يعنون رحلته هذه بكتاب السفر إلى مكة، وكأن الغرض من الرحلة كلها زيارة مكة المكرمة والحج إلى بيت الله الشريف.

ولم يقتصر الحديث فى هذين الكتابين على وصف مكة والمدينة، بل وصف كل منهما بيت المقدس ثالث الحرمين، وكذلك اهتما بوصف بعض المساجد فى البلاد التى زاراها، والآن يجمل بنا أن نعرض ما سجله كل منهما فى رحلته وسياحته عن مكة والمدينة، وما كتبه عن الأماكن المقدسة بهما والتى يتمنى كل مسلم أن يحج إليهما مرات ومرات، والله خير معين ومجيب؛ وسوف نعلق على كل رحلة بعد سرد ملخص واف لها ما أمكن:

---

(١) الحاج مهدى يقلى خان هدايت المعروف بخان الخوانية الملقب بمخبر السلطنة، وهو ابن عليقلى خان مخبر الدولة وحفيد رضا قليخان هدايت، ولد بطهران عام ١٣٨٣ هـ وحصل علومه الأساسية بها ثم سافر إلى ألمانيا مع أخيه لاستكمال دراسته، فأجاد اللغة الألمانية، كما تعلم الفرنسية والإنجليزية فى حين أجاد من قبل علوم اللغة العربية، وقد تولى عدة مناصب فى البلاط القاجارى، وله عدة مؤلفات نثرية وشعرية.

وقد خرج فى هذه الرحلة ضمن ركب المرحوم ميرزا على أصغر خان الأتابك، وذلك بعد إعفاء هذا الأتابك من منصبه وقد استأذن الأتابك مظفر الدين شاه القاجارى فى الخروج فى رحلة حول العالم تنتهى بزيارة مكة المكرمة وأداء مناسك الحج. فوافق الشاه، وقد اصطحب الأتابك بعض أعوانه معه، وكان من بينهم مؤلف هذا الكتاب، وعلى هذا فقد كانت هذه الرحلة وتدوينها، تدور فى فلك هذا الأتابك المعزول، وما كان المؤلف ورفاقه إلا تابعين ومسرين عن هذا الأتابك!

الرحلة الأولى: رحلة الحج

أولاً : سفر نامه (كتاب السفر) لناصر خسرو[1]

لقد أدى ناصر خسرو فريضة الحج أربع مرات كانت أولى رحلاته إلى مكة المكرمة عام ٤٣٨ هـ ونلاحظ أنه أشار إلى هذه السفرة دون ذكر لأية تفاصيل، حيث اكتفى هنا بالإشارة السريعة إلى مشاق الرحلة، أما عن وصفه للأماكن المقدسة فقد ذكر أنه سيرجئ الحديث عنها إلى رحلة أخرى، ومما قاله عن هذه الحجة الأولى، مايلى:

عدت من مشهد الخليل إلى بيت المقدس، وخرجت من بيت المقدس سيراً على الأقدام مع جمع من الحجاج فى طريقنا إلى الحجاز، وكان دليلنا رجلاً جاداً على السير ومن المشائين المحترفين، وكان رجلاً مهذبًا يدعى «أبو بكر الهمدانى» وكان خروجنا من بيت المقدس فى منتصف شهر ذى القعدة سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، وصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مكان يدعى «أرعز» وكان مكانًا وفير الماء كثير الخضرة.

ثم وصلنا إلى مكان يقال له «وادى القرى»، ومن هناك وصلنا إلى مكة المشرفة بعد سير عشرة أيام، ونزلت فى سكة العطارين بمكة شرفها الله، وهى أمام باب النبى

---

(١) حكيم ناصر خسرو قباد يانى مروزى: سفر نامه، باحواشى وتعليقات به كوشش: دبير سياقى سلسلة انتشارات أنجمن آثار ملي، شعاره ١٢٠، سال ١٣٥٤ش، وللكتاب ترجمتان عربيتان، أولاهما للدكتور يحيى الخشاب، نشر دار الكتاب الجديد، بيروت عام ١٩٧٠، والثانية للدكتو أحمد خالد البدلى، نشر عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٢ (١٩٨٢م) وقد اعتمدت عليهما فيما أقدمه من وصف لهذه الرحلة السياحية الدينية، علما بأن الدكتور البدلي يقول عن الترجمة الأولى إنها تمت عن الفرنسية، أما ترجمته قد تمت مباشرة عن النص الفارسي، فى حين لم يشر الدكتور يحيى الخشاب إلى هذا الأمر ولم يذكر فى مقدمة ترجمته أنه أتمها نقلاً عن الترجمة الفرنسية، وعلى كل فقد قرأت الترجمتين ونقلت عنهما بعض ما ترجماه! ويمكن لمن يريد الاستزاده الرجوع إلى الأصل الفارسى أو إلى إحدى هاتين الترجمتين التى لا تغنى إحداهما عن الأخرى!

عليه الصلاة والسلام، وكان يوم عرفة هو يوم الأثنين، وكان الطريق مليئًا بالأعراب الخطرين الذين لا يتورعون عن القتل والسلب.

وفى اليوم الخامس من محرم سنة تسع وثلاثين وأربعمائة وصلت إلى القدس وسأتحدث عن حال مكة والحج فى مكان آخر، إذا قدر لى الحج مرة أخرى![1]

هذا كله ما كتبه ناصرو خسرو عن رحلته الأولى إلى مكة المكرمة وأدائه فريضة الحج، وقد كان فيها فى سياحة بيت المقدس، وقد أشار إلى أن الرحلة من القدس إلى مكة قد استغرقت ثلاثة عشر يومًا، وكان يلزم لكل رحلة مرشد ودليل يعرف دروب الصحراء وطرقها حتى يصل الحجيج إلى مقصدهم سالمين، وذلك لوجود العديد من قطاع الطرق، والذين تحدث عنهم كل من سلكوا هذه الطرق فى ذلك الوقت، وقد ظل خطرهم يتهدد قوافل الحجاج طويلاً حتى قبض الله للأسرة السعودية منذ قيامها القدرة على درء هذا الخطر تمامًا، وقد أمنت جميع طرق الحجيج فى ربوع المملكة كلها ويسرت لتلك القوافل كل وسائل الراحة ومواصلات حديثة ونزل جيدة وتعبيد للطرق، حتى يتفرغ الحجاج طول رحلتهم إلى التكبير والتهليل، فجزاهم الله عن هذا الصنيع خير الجزاء.

بعد عودة ناصر خسرو إلى بيت المقدس، واصل رحلته إلى مصر، حيث أقام فيها ثلاث سنوات، ومن مصر سافر إلى الحجاز أكثر من مرة ونتيجة لتقربه إلى سلطان مصر فى ذلك الوقت؛ فإنه كان يسافر فى كل مرة ضمن أعضاء الوفد الرسمى المصرى الحامل معه الكسوة الشريفة، وقد أشار إلى هذا أثناء حديثه عن سفره لأداء الحجة الثانية، حيث أشار فى البداية إلى كيف يتم الاستعداد للحج فى مصر أيام إقامته فيها، إذ قال: جرت العادة فى مصر أن يُعلم الناس فى منتصف شهر شعبان بالاستعداد للحج فيقرءون على الناس فى المساجد توجيهات السلطان ويخبرهم أن

(١) سفر نامه: الأصل الفارسى ص : ٦٢.

موسم الحج قد أظلهم، وأن قافلة الحج السلطانية ستتحرك يوم كذا من مكان كذا، فإذا كان شهر رمضان كرر المنادى وخطباء المساجد هذا المرسوم السلطانى على أسماع الناس، ويبدأ الاستعداد للحج فى غرة شهر ذى القعدة، فإذا انتصف الشهر خرج من يريد الحج من المصريين واجتمعوا فى مكان معين.. ويظل الركب فى مكة المكرمة عشرة أيام ومجموع الأيام التى يستغرقها المحمل من القاهرة إلى مكة ثم العودة إلى القاهرة ستون يوماً.[1]

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الحجة الثانية له والتى ذهب فيها ضمن الوفد الرسمى المصرى، حيث قال: وفى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة قُرِأ سجل السلطان على الناس فى المساجد.. وقد أرسلت الكسوة عن طريق بحر القلزم، وقد رافقت الكسوة قاصدين الذهاب إلى مكة، وقد غادرت القافلة المكلفة بإيصال الكسوة من مصر فى غرة شهر ذى القعدة وكنت مع القافلة حيث وصلنا إلى بحر القلزم، وركبنا الباخرة وبعد خمسة عشر يومًا وصلنا إلى ميناء الحجاز على ساحل الحجاز، ومن الحجاز اتجهنا إلى المدينة فوصلنا بعد أربعة أيام[2].

وهنا يبدأ الرحالة ناصر خسرو وصفه الشيق لمدينة الرسول عليه السلام، ومن بين ماذكره، أُورد بعض حديثه عنها:

تقع المدينة فى حافة الصحراء، وأرضها رطبة ذات ملوحة، وماؤها عذب إلا أنه قليل وتكثر فيها أشجار النخيل، وتقع قبة مسجد المدينة نحو الجنوب، ومساحة مسجد الرسول عليه السلام تعادل مساحة المسجد الحرام، ويقع قبر الرسول بجانب المنبر، وإذا اتجهت إلى القبلة فإن القبر يكون على يسارك، أما عندما يقف الخطيب على المنبر، فإن القبر الشريف يكون على يمينه، والقبر بناء مخمس الشكل، وعلى القبر

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠١ والترجمة العربية (د.البدلى) ص : ١١٧.

(٢) نفس المرجع، الأصل الفارسى ص ١٠١، ١٠٢ وترجمته د. البدلى، ص : ١١٩.

خمسة أساطين تحنو على القبر، ويربط بين الأبواب الخمسة درابزين يحول بين المرء والولوج إلى القبر الشريف، وعلى طول الدرابزين من الأعلى غطاء مشبك يمنع الطيور من تلويث القبر.

وبين القبر والمنبر مساحة تسمى الروضة، وهى روضة من رياض الجنة كما قال الصادق الأمين رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة»(١).

وللمسجد باب يؤدى إلى خارج المدينة فى الجهة الجنوبية، حيث يوجد قبر حمزة ابن عبد المطلب رضى الله عنه، لذا يسمى المكان «قبور الشهداء».

وقد أخبرنا ناصر خسرو بأن القافلة أقامت فى المدينة يومين فقط عجلت بعدهما بالتوجه نحو مكة، كى يصلوها بالكسوة قبل وقفة عيد الأضحى، وكان وصولهم مكة فى السادس من شهر ذى الحجة عند باب الصفا وكان يوم عرفة يوم الأربعاء فصعدوا بعون الله تعالى عرفة وأدوا مناسك الحج.

---

(١) ناصر خسرو: سفر نامه، به كوشش نادر وزين پور، تهران ١٣٥٤ ش.ص ٧٠-٧١ وبترجمة د. الخشاب ص ١١٠، ترجمة د. البدلى ص ١٢١، ١٢٣والنص الفارسى هو:

مدينة رسول الله عليه السلام شهرى است بركنارهء صحرايى نهادهوزمين نمناك وشوره دارد، وأب روان أست أما اندكو خرماستان است. وآنجا قبله سوى جنوب افتاده است ومسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام چندان است كه مسجد الحرام، وحظيرهء رسول الله عليه السلام در پهلوى منبر مسجد است، چون رو به قبله نمايند جانب چپ، چنانكه چون خطيب أز منبرذكر پيغمبر عليه السلام، كند وصلوات دهد، روى به جانب راست كند، وأشاره به مقبره كند، وانخانه مخمس است، وديوارها ازميان ستونهاى مسجد بر أورده است، وپنج ستون در گرفته است، وبر سراين خانه همچوحظيره كرده به دارا فزين، تا كسى بدانجا نرود، ودام در گشادكى أن كشيده تا مرغ بر آنجا نرود، وميان مقبره ومنبر هم حظيره أى است از سنگهاى رخام كرده، چون پيشگاهى، وأن را روضه گويند، وگويند أن بستانى از بستانهاى بهشت است، چه رسول الله عليه السلام، فرموده است: "بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة.

وهنا أيضًا لم يتحدث حديثًا مفصلاً عن مكة مرجئًا هذا إلى مرة أخرى، حيث قال: وسوف لا أتحدث عن مكة فى هذه المرة، بل سأرجئ الحديث عنها إلى مرة أخرى، فقد أتيح لى فيما بعد الإقامة بمكة ستة أشهر، وسأشرح ما رأيت بالتفصيل.

فى عام أربعين وأربعمائة أتيحت له فرصة الحج مرة ثالثة ومصاحبة البعثة المصرية إلى الحجاز حاملة معها الكسوة الشريفة، وقد سلكت هذه الرحلة نفس الطريق الذى سلكته الرحلة السابقة، ولكنهم قد توجهوا مباشرة هذه المرة من ميناء الحجاز إلى مكة مباشرة وكان ذلك فى الثامن من شهر ذى الحجة، حيث أدى مع رفاقه مناسك الحج بعون الله وتوفيقه، عاد بعدها ناصر خسرو إلى مصر دون أن يتحدث بشيء عن مكة، كما فعل في الحجتين الأولى والثانية.

الحجة الرابعة، وكانت عام اثنين وأربعين وأربعمائة، وقد سافر ناصر خسرو إلى الحجاز عن طريق أسوان وبحر القازم وما أن وصل إلى جدة حتى أخذ فى وصفها، ومما قاله:

جدة مدينة كبيرة ذات سور عظيم وتقع مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر وعدد سكانها فى ذلك الوقت نحو خمسة آلاف نسمة، وتقع إلى الشمال من البحر وبها أسواق نظيفة جيدة، تقع قبلة مسجد الجمعة فى الناحية الشرقية، ولا أثر للعمران خارج أسوار مدينة جدة، إلا مسجد يعرف بمسجد الرسول عليه السلام.

ولسور جدة بابان، باب مما يلى مكة، وباب مما يلى البحر ... وجدة بلد غير ذى زرع، وكل ما فيها يجلب إليها من ريف الحجاز والمسافة بين جدة ومكة اثنا عشر فرسخا وأمير جدة أحد رعايا أمير مكة المكرمة، الذى يعد كذلك أميرًا للمدينة[1].

---

(١) سفر نامه، الأصل الفارسى نسخة تهران ١٣٥٤ ش ص ٨٥:

جده، شهرى بزرگ است، وباره أى حصين دارد، وبرلب دريا، ودر او پنج هزار مرد باشد. بر شمال دريانهاده، وبازارهاى نيك دارد. وقبلهء مسجد أدينه سوى مشرق است. وبيرون از شهر هيچ عمارت نيست، إلا مسجدى كه معروف است به مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام. ودو دروازه است =

ولقد غادرت مدينة جدة يوم الجمعة بعد صلاة العشاء، ووصلت إلى مكة يوم الأحد سلخ جماد الآخر، وقد امتلأت مكة بالعُمّار القادمين من كل أنحاء الحجاز واليمن، فإن رجب من كل عام موسم عظيم، وكذلك فى عيد الفطر، وفى موسم الحج يفد الحجاج إلى مكة من كل أطراف الأرض.. أما سكان أطراف الحجاز واليمن، فإنهم يؤمون مكة فى هذه المواسم الثلاثة لقرب مكة منهم، وأعنى بالمواسم الثلاثة، غرة رجب وعيد الفطر وعيد الأضحى.

ثم ينتقل ناصر خسرو ليصف مدينة مكة وما يحيط بها من جبال، وما تضمه من أسواق وغير ذلك مما توصف به مكة المكرمة وقت زيارته لها عام ٤٤٢ هـ، ومما قاله: تقع مكة فى واد تحيط به الجبال من كل جانب، ولاتبدو مدينة مكة لقاصدها إلا إذا اقترب منها، وأعلى جبل فى مكة هو جبل «أبى قبيس» وهو يشبه قبة عظيمة تشرف على الكعبة وأول ما تشرق الشمس فى مكة يشاهد قرصها مطلا على مكة من أعلى هذا الجبل!

وفى رأس أبى قبيس عمود حجرى يقال إن إبراهيم عليه السلام هو الذى أقامه، كما يشاهد المرء ساحة مبسوطة فى رأس الجبل لاتزيد مساحتها على أذرع قليلة.

وتحيط بالمسجد الحرام أسواق كثيرة ودروب ضيقة تزدحم بالمتاجر، وكلما كان أحد هذه الدروب قريباً من جبل من الجبال فإنهم يبنون عليه سقيفة، ويجعلون لها بوابة للدخول وأخرى للخروج.

= شهر را، يكى سوى مشرق كه رو بامكه دارد، وديگر سوى مغرب كه رو با دريا دارد.. وبدينشهر جده نه درخت است ونه زرع، هر چه به كار أيد از رستا أرند، واز أنجا تا مكه دوازده فرسنگ است. وأمير جده بنده، أمير مكه، ومدينه را هم أمير، وى بود.

ولم أر حول المسجد الحرام أى أثر لأشجار باستثناء باب إبراهيم الواقع فى الجهة الغربية من الكعبة، فقد رأيت بعض الأشجار الملتفة حول حافة بئر ماء هناك، بين تلك الأشجار شجرة ضخمة عملاقة[1].

ويقع فى الجانب الشرقى من الحرم سوق كبيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب، ويقع مدخل تلك السوق الرئيسى فى الجهة الجنوبية التى فى سفح أبى قبيس، أما الصفا فيقع تحت سفح أبى قبيس مباشرة، بل إن درجات الصفا جزء من صخور أبى قبيس، يراه المرء بشكل ظاهر واضح للعيان.

ويصعد الناس فوق درجات محاذية لتلك الصخور ليبدأوا مناسك السعى، وتقع المروة فى نهاية هذا الممر الطويل الذى يبدأ من الصفا، ويرى الساعى المتاجر عن يمينه ويساره خلال سعية بين الصفا والمروة، والمروة أكثر ارتفاعًا من الصفا[2].

(١) أشهد أن حكومة المملكة العربية السعودية قد أولت هذا الأمر كل اهتمامها، فاكثرت من زرع الأشجار فى ربوع مكة، بل فى كل مدن المملكة، وقد أمتد التشجير إلى الأماكن المقدسة كلها، سواء فى عرفة أو منى أو المزدلفة، بل وفى جميع الطرق الواصلة من هذه الأماكن إلى الحرم المكى الشريف. وقد أديت الحج ثلاث مرات، عام ١٩٨٣ وعام ١٩٩١، وعام ٢٠٠٥ كما اعتمرت أكثر من عشر مرات. وكان الفارق بين التشجير فى أول مرة، وأخرها كبيرًا ملفتا للنظر، وذلك تخفيفًا لحرارة الجو، وتوفيرًا لراحة قاصدى بيت الله المعظم.

(٢) ومما قاله ناصر خسرو فى وصف مكة، نذكر هذا النص الوارد: ص ٨٥، ٨٦ من نسخة ١٣٥٤ ش:

شهرمكه اندر ميان كوهها نهاده است بلند، واز هر جانب كه به شهر روند تا به مكه نرسند نتوان ديد، وبلندترين كوهى كه به مكه نزديك است كوه أبو قبيس است، وأن چون كنيدى گيرداست. ودر مشرقى شهر افتاده است. چناكه چون در مسجد حرام باشند به دى ماه، أفتاب از سر أن بر أيد، بر أورده است، وابن عرصه كه در ميان كوه است شهر است. دو تير پرتاب در دو بيش نيست ومسجد حرام به ميانه، اين فراخناى اندر است. وگرد بر گرد مسجد حرام شهر است وكوچه ها وبازارها.. واندر شهر هيچ درخت نيست مگر بر در مسجد حرام كه سوى مغرب است كه أن را باب إبراهيم خوانند، بر سرچاهى درختى چند بلند وبزرگ شده. واز مسجد حرام بر جانب مشرق بازارى برزگك كشيده از جنوب سوى شمال.. وبر سر بازار، از جنب جنوب كوه ابو قبيس است. ودامن كوه ابو قبيس "صفا" ست، وبه آخر بازار از جانب شمال كوه مروه است.

وإذا أراد المرء أن يعتمر خرج من مكة على بعد نصف فرسخ عنها، وهناك يجمع بين الحل والحرم، وفى هذه المواقيت مساجد عامرة يؤدى فيها العمار ركعتى إحرام العمرة.

ولعله بهذا يقصد أولئك المقيمين فى مكة وأرادوا الإحرام، أو الوافدين الذين اعتمروا عقب وصولهم من أوطانهم، ثم خلعوا ملابس الإحرام وارتدوا ملابسهم العادية، وأقاموا بمكة منتظرين مقدم موسم الحج والوقوف بعرفة، فإن أرادوا تأدية العمرة مرة أخرى، فهم يخرجون كالمقيمين فى مكة خارجها إلى هذه المساجد التى أشار إليها ناصر خسرو، ويؤدون ركعتى الإحرام ثم يتوجهون بعد ذلك إلى الكعبة لإتمام العمرة مرة أخرى.

أما كيف يكون الإحرام؟ يقول ناصر خسرو ما ترجمته:

وهيئة الإحرام هى أن يتخلص الإنسان من المخيط، ويرتدى إزاراً لا خياطة به، والرداء مكون من قطعتين، إزار ورداء، يلتف بهما الإنسان ثم يرفع صوته بالدعاء قائلاً «لبيك اللهم لبيك» وينحدر إلى مكة، فإذا وصل المرء إلى مكة دخل المسجد الحرام وتوجه إلى الكعبة، وعليه أن يترك الكعبة على يساره ويستلم الحجر الأسود حيث يبدأ الطواف ويكرره على هذه الهيئة سبع مرات، يرمل فى ثلاثة أشواط، ويسير الهوينا فى الأشواط الأربعة الباقية.

وعندما ينتهى الإنسان من نسك الطواف بالبيت الحرام، يتوجه إلى مقام إبراهيم عليه السلام والمقام فى مواجهة الكعبة، ويقف خلف المقام ويصلى ركعتى الطواف، وبعد الصلاة والدعاء يتوجه المرء إلى بئر زمزم، فإذا شرب من ذلك الماء المقدس وغسل وجهه ويديه غادر البئر إلى باب الصفا، وهو أحد أبواب المسجد الحرام المؤدية إلى المسعى وإذا وصل المرء إلى الصفا ارتقى تلك الدرجات التى فى السفح واستقبل القبلة داعياً، ونوى السعى بين الصفا والمروة سبعاً ثم ينحدر من الصفا إلى المروة ويكون سيره من الجنوب إلى الشمال.

ولقد سعى رسول الله عليه السلام فى هذا المكان، وأسرع، وأمر أصحابه بالإسراع حتى لايظن بهم المشركون ضعفًا أو خوراً، ويهرول المرء مسافة خمسين قدمًا فى هذا المكان، والمكان الذى هرول فيه النبى عليه السلام ظاهر للعيان ومعلم بعلامات بارزة لاتخطئها العين، فإذا واصل الساعى إلى المروة صعد إلى أعلى المروة واستقبل القبلة ودعا بالدعاء المعلوم ثم ينحدر إلى الصفا، ويكرر المرء هذا السعى بين الصفا والمروة، فإذا انتهى إلى الصفا أربع مرات وصعد المروة ثلاث مرات يكون قد أتم مناسك السعى بينهما.

ثم يتحدث ناصر خسرو عما يفعله العمار والحجاج بعد السعى من تقصير للشعر، فقد قال إذا نزل الساعي من المروة فى نهاية السعى فإنه يرى سوقًا كبيراً، وفى هذا السوق أحصيت عشرين دكانًا للحلاقة، يحلقون فيها ويقصرون شعور الحجاج والعمار وتعتبر هذه الدكاكين امتداداً لسوق كبير يقع شرق المسجد الحرام يقال له سوق العطارين، وهو سوق كبير، فى غاية الجمال وأكثر مايباع فيه هى الأدوية والعقاقير الطبية والأعشاب.

ويقدر سكان مكة بألفى نسمة، فيها خمسمائة من الغرباء والمجاورين.

وطقس مكة حار جداً، والخضروات كثيرة بها، فقد رأيت فى أسواق مكة الخيار والباذنجان وغيرهما وكلها طازجة وجيدة[1].

وأخيراً ينهى ناصر خسرو زيارته لمكة المكرمة للمرة الرابعة محدداً المدة وتاريخ زيارته هذه قائلاً:

---

(١) يمكن مراجعة ترجمة الرحلة كاملة فى إحدى الترجمتين العربيتين لسفر نامه، التى أشرت إليهما فى بداية الحديث عن هذه الرحلة، وذلك لمعرفة المزيد من التفاصيل التى تغاضيت عن ذكرها! أو فى الأصل الفارسى لمن يجيد الفارسية ص ١١٨- ١٤٠.

هذه هى المرة الرابعة التى أزور فيها مكة. وقد مكثت بها مجاوراً من غرة رجب ٤٤٢ هـ (١٠ نوفمبر ١٠٥٠م) إلى العشرين من ذى الحجة (٣ مايو ١٠٥١م) وقد أثمر بها العنب فى الخامس عشر من فروردين (مارس/ إبريل) فأحضر من السواد إلى مكة وبيع فى السوق، وكان البطيخ كثيراً فى أول أردبيهشت (أبريل/ مايو) وكانت الفاكهة متوافرة طوال الشتاء ولم تنقطع قط!(١).

وبعد أن انتهى ناصر خسرو من مراسم الحج وكل مناسكه، غادر مكة متجهًا إلى اليمن وبعده بدأ يسجل وصفه للكعبة المشرفة، وبعض الأماكن الأخرى المرتبطة بمناسك الحج، ولنبدأ بعرض وصفه للكعبة بيت الله الحرام، ومما جاء فى وصفه لها ما يلى(٢).

وصف الكعبة:

الكعبة تتوسط المسجد الحرام، والمسجد الحرام يتوسط مكة المكرمة، وطول المسجد الحرام من الشرق إلى الغرب، وعرضة من الشمال إلى الجنوب، ويبلغ طول المسجد من باب إبراهيم شرقًا إلى باب بنى هشام غربيًا أربعة وعشرين وأربعمائة ذراع، بينما يبلغ عرضه من باب الندوة شمالاً إلى باب الصفا جنوبيًا ما بين ثلاثمائة ذراع فى مكان وأربعمائة ذراع فى مكان آخر، ويحيط بالمسجد الحرام رواق يرتفع على أعمدة رخامية، ويتوسط المسجد أربعة مقامات، وفى المسجد مائة وأربعة وثمانون عموداً، .. ومن بين تلك الأعمدة عمود عند باب الندوة من الرخام الأحمر.

(١) آثرت أن أنقل هذه الفقرة عن ترجمة الدكتور يحى الخشاب لأن ترجمة الدكتور البرلى لم تكن واضحة إذ ربط ظهور العنب والبطيخ بشهور الشتاء عامة وهذا غير صحيح.

(٢) يمكن مراجعة هذا الوصف، والمزيد منه بالرجوع إلى الأصل الفارسى، أو لإحدى الترجمتين العربيتين للدكتور يحيى الخشاب، والدكتور أحمد خالد البدلى.

أبواب المسجد الحرام:

للمسجد الحرام ثمانية عشر بابًا، ويعلو كل باب إيوان مغلق ليست له أبواب وقد أقيمت هذه الأبواب على أعمدة مرمرية، ومن هذه الأبواب فى الجهة الشرقية باب النبى عليه السلام؛ حيث كان يدخل منه إلى الحرم وقت الصلاة، ويتلوه باب «على» كرم الله وجه حيث كان يدخل منه هو الآخر إلى المسجد الحرام عند الصلاة، أما على الجدار الجنوبى للمسجد فتوجد سبعة أبواب، الأول منها شبيه بنصف دائرة ويقال له باب الرقاقين، ويتلوه فى الجهة الجنوبية باب الفسانين ثم يتلوه باب الصفا الذى خرج رسول الله عليه السلام منه بعد أن سعى بين الصفا والمروة.

ومن أبواب المسجد الحرام فى الجهة الغربية باب التمارين، ويقال إن منزل أبى لهب كان يقع أمام باب التمارين، ولكنه حول الآن إلى مراحيض، وعلى نفس الجهة الغربية يوجد باب العروة ثم باب إبراهيم، أما أبواب الجهة الشمالية فهى باب الوسيط، وباب العجلة، وباب الندوة وباب المشاورة.

وصف الكعبة المشرفة من الخارج:

الكعبة بناء مربع يميل إلى الاستطالة حيث إن الزاوية الممتدة من الشمال إلى الجنوب تبدو أطول من الزاوية الممتدة من الشرق إلى الغرب، وارتفاع الكعبة ثلاثون ذراعًا، وعرضها تسعة عشر ذراعًا، ويقع باب الكعبة فى الجهة الشرقية، وإذا ولجت داخل الكعبة، فإن الركن العراقى يكون على يمينك والحجر الأسود على يسارك، وتسمى زاوية الكعبة الجنوبية الغربية بالركن اليمانى، كما تسمى الزاوية الشمالية الغربية بالركن الشامى.

أما الحجر الأسود فهو فى الزاوية الجنوبية الشرقية من الكعبة وإذا وقف الرجل معتدلاً كان الحجر مقابل صدره، وطول الحجر الأسود بطول اليد ممدودة مضافًا إليها

أربعة أصابع، أما عرضه فقدره ثمانية أصابع والمسافة بين الحجر الأسود وباب الكعبة أربعة أذرع، ويسمى ذلك الموضع بالملتزم.

وارتفاع باب الكعبة قدر أربعة أذرع. وللكعبة سلم خشبى يُرقى عليه إلى الداخل وقت الحاجة، أما سعة الكعبة من الداخل فتسمح بوقوف عشرة رجال صفا واحداً، وباب الكعبة مصنوع من خشب الساج وله مصراعان، وارتفاعه ستة أذرع ونصف، وقد زينت واجهته وأطرافه بآيات قرآنية مكتوبة بالفضة المذهبة وتتخللها تحاريق سوداء، وقد كتبت عليه هذه الآية حتى أخرها، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[1]. وله حلقتان فضيتان كبيرتان أرسلتا من غزنين[2] وقد ركبتا على مصراعيه مرتفعتين بحيث لا تصل إليهما يد، بينما توجد حلقتان أخريان تحتهما أصغر حجماً ويمكن أن تصل إليهما اليد، وفيهما قفل كبير من الفضة يقفل به الباب.

وصف الكعبة من الداخل :

يبلغ سمك حائط الكعبة ستة أشبار وأرضها مكسوة بالرخام الأبيض وبها ثلاث خلوات صغيرة وكأنها طاقات، تقابل إحداهما الباب، والأخريان على الجانب الشمالى للداخل، والأعمدة التى تسند السقف كلها من الخشب الساج المربع إلا عمود واحد مدور، أما جدران الكعبة من الداخل فمغطاة كلها بألواح الرخام الملون، وعلى الجانب الغربى توجد ستة محاريب من الفضة يبلغ ارتفاع كل منها قامة الرجل ومزينة بنقوش كثيرة من الذهب والفضة، وجدران الكعبة الأربعة خالية من النقوش حتى أربعة أذرع من الأرض، أما بعد ذلك وحتى السقف فمزينة بالرخام المنقوش والموشى أغلبه بالذهب.

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٦.

(٢) غزنين: كانت عاصمة للدولة الغزنوية التى أسسها محمود الغزنوى، وهى تقع الآن داخل أفغانستان.

وفوق كل خلوة من الخلوات الثلاث لوحان من خشب سفينة نوح، طول كل منهما خمسة أذرع وعرضه ذراع واحد، وهناك سلم يؤدى إلى سطح الكعبة يسمى باب الرحمة، وقد صنع هذا الباب ذو المصراع الواحد من الفضة، وعليه قفل من الفضة كذلك، وقد غطى سقف الكعبة بالخشب المغطى بالحرير الذى يحجبه عن الأنظار.

وبين الأعمدة تتدلى ثلاثة قناديل فضية، كما أن للكعبة أربعة مساقط للضوء كل مسقط فى واحد من الأركان الأربع، وقد غطى كل مسقط بغطاء زجاجى يسمح بمرور الضوء ولايسمح بتسرب مياه الأمطار، وميزاب الكعبة يقع فى الجهة الشمالية وطول فتحته ثلاثة أشبار، وقد أحيط بغلاف ذهبى!

أما عن الكسوة التى تغطى بها الكعبة فبيضاء، وقد طرزت فى موضعين عرض كل منهما ذراع ويفصل بينهما مسافة ثمانية أذرع، وعلى هذا فإن الكسوة مقسمة إلى ثلاثة أقسام كل قسم منها عشرة أذرع، يتوسطها القسم المطرز في موضعيه، بينما القسم العلوى، وعرضة عشرة أذرع، وكذلك القسم السفلى وعرضه كذلك عشرة أذرع، فليسا مطرزين، كما نسجت على جوانب الكسوة الأربع محاريب ملونة بخيوط من ذهب، فى كل جانب منها ثلاثة محاريب، الأوسط منها كبير، والمحرابان الصغيران على جانبيه، وبالتالى يكون مجموع المحاريب اثنى عشر محرابًا ويوجد خارج الكعبة من الجهة الشمالية حائط مقوس كنصف الدائرة، يبلغ ارتفاعه ذراعًا ونصف، وتمتد شفتاه إلى قريب من ركنى الكعبة الشرقى والغربى، وقد بلطت أرضيته بالرخام الملون المنقوش، ويسمى «الحجر»، وبه يصب ماء الميزاب، وقد وضعت تحته قطعة من الحجر الأخضر على شكل محراب، وهى قطعة كبيرة يمكن للرجل أن يصلى عليها، وقد وضعت لتتجمع فيها مياه الأمطار.

مقام إبراهيم :

ويقع مقام إبراهيم شرقى الكعبة، وهو عبارة عن صخرة بها آثار قدمى النبى إبراهيم عليه السلام، وقد وضع هذا الحجر فى قلب حجر آخر، ثم أحيط بغلاف مربع

الشكل قدر قامة رجل وهو من الخشب وقد زين بألواح من الفضة، كما أحكم ربط الغلاف بالحائط بسلاسل من الجانبين، وعليه قفلان حتى لايستطع أحد أن يلمس الحجر، والمسافة بين مقام إبراهيم والكعبة قرابة العشرين ذراعًا.

بئر زمزم:

يقع بئر زمزم شرقى الكعبة فى الزاوية المحازية للحجر الأسود، وبين زمزم والكعبة ستة وأربعون ذراعًا، واتساع فوهته ثلاثة أزرع ونصف فى مثلها، وماء زمزم به ملوحة ولكنه مستساغ، وقد بنى حوله جدار ارتفاعه ذراعان، وفى جوانبه الأربعة أحواض يصب فيها الماء كى يتوضأ الناس وأرضها من الخشب المشبك ليسيل الماء الذى يراق بها.

ويوجد أمام البئر جهة الشرق، بناء مربع الشكل تعلوه قبة يسمى «سقاية الحاج» وقد وضعت به أزيار كى يشرب منها الحجاج، ويلى هذا البناء بناء آخر مستطيل عليه ثلاث قباب يسمى خزانة الزيت به الشمع والزيت والقناديل.

وحول الكعبة أعمدة يتصل بعضها بالبعض بواسطة عروق من الخشب عليها زخارف ونقوش من الفضة، وتتدلى منها سلاسل وحلقات يعلق عليها الشمع والمصابيح ليلاً، وتسمى بسكة المشاعل، ويفصل هذه المشاعل عن الكعبة مسافة مائة وخمسين ذراعًا، هى مسافة الطواف وتحت المظلة المحيطة بالمسجد وعلى جميع جوانبه صناديق مليئة بالمصاحف أوقفها المسلمون من كل أنحاء العالم الإسلامى، من المغرب ومصر والشام والروم والعراق (العراق العربى، العراق العجمى) وخراسان وماوراء النهر وغيرها.

وقد حضر ناصر خسرو مراسم فتح الكعبة ذات مرة حيث قال:

فى هذه السنة (٤٤٢ هـ) كنت بمكة مجاوراً منذ أول رجب، وعادة أهل مكة أنهم يفتحون باب الكعبة طوال هذا الشهر فى كل يوم مع إشراقة الشمس!

وصف فتح باب الكعبة:

مفتاح باب الكعبة تحتفظ به قبيلة بنى شيبة، فإذا أرادوا فتح باب الكعبة تقدم زعيم القبيلة وبيده المفتاح ويصاحبه فى ذلك خمسة أو ستة أفراد من ذويه وحينما يقف الزعيم أسفل باب الكعبة، إذا به يأمر عشرة أنفار من الحجاج المتجمعين أمام الباب كى يحضروا السلم الخشبى، حتى يصعد الزعيم ويقف على عتبة الكعبة برفقة اثنين من خواصه حيث يقومان برفع الستار الديباج، ويمسك كل منهما طرفًا منه، بحيث يحجب الشيخ وهو يفتح الباب، وبعد أن ينزع القفل وينفتح الباب يرفع الحجاج أو المعتمرون أيديهم بالدعاء، فيدرك كل من يستمع إلى أصواتهم بأن باب الكعبة قد فتح، فتحدث جلبة فى مكة حيث يرتفع صوت الجميع مهللين داعين، وبعد ذلك يدخل زعيم القبيلة ويصلى ركعتين، وبعدها يفتح الباب على مصراعيه، ثم يقف الزعيم على العتبة ويقرأ الخطبة بصوت مرتفع ويصلى على رسول الله عليه السلام وعلى آله الكرام ثم يقف الشيخ ومعاونوه على جانبى باب الكعبة، كى يأخذ الحجاج فى الصعود ودخول الكعبة حتى يصلى كل منهم ركعتين ثم يخرج، ويدوم ذلك إلى ما يقرب من منتصف النهار وعادة يولى المصلون وجوههم نحو الباب مع جواز التوجه نحو الجوانب الأخرى.. وفى غير رجب يفتح باب الكعبة كذلك أيام الأثنين والخميس والجمعة من أشهر شعبان ورمضان وشوال وإذا جاء ذو القعدة أغلق الباب!

عمرة الجعرانة:

تقع الجعرانة فى الشمال الشرقى من مكة وعلى بعد أربعة فراسخ من البيت الحرام ويقال بأن رسول الله عليه السلام كان فى هذا الموضع عند عودته من غزوة الطائف، وكان ذلك فى الخامس عشر من شهر ذى القعدة من السنة الثامنة للهجرة، وأنه أحرم من هذا الموضع وتوجه إلى مكة وطاف وسعى، وقد اتخذت هذه العمرة النبوية سُنّة تؤدى فى هذا الموسم.

وفى هذا الموضع بئران ماؤهما عذب، أحدهما بئر الرسول عليه السلام، وثانيهما بئر على بن أبى طالب كرم الله وجهه، كما توجد على مقربة من البئرين صخرة كبيرة فيها فجوات كأنها كئوس قيل بأن البنى عليه السلام عجن الدقيق فيها بيديه، لذا فإن من يزورون هذا الموقع الآن يعجنون الدقيق بأيديهم بماء هذين البئرين، كما يقال إنه بالموقع صخرة كبيرة مرتفعة كان بلال رضى الله عنه يقف عليها مؤذنًا؛ لذا فالزائرون يصعدون عليها ويؤذنون.

مشعر عرفات:

تقع صحراء عرفات فى قلب مجموعة من الجبال الصغيرة الشبيهة بالتلال، ومساحتها لاتزيد عن فرسخين فى فرسخين، وكان بها مسجد يقال إن إبراهيم عليه السلام هو الذى بناه، وهو مايعرف الآن بمسجد نمرة، وعندما يحين وقت صلاة الظهر يصعد الخطيب مرتقيًا منبره ويلقى خطبة جامعة، ثم يؤذن للصلاة جامعة، فيصلى الإمام بالناس ركعتين أى صلاة قصر للظهر، ثم يصلى بهم ركعتين أخريين للعصر، وبعدها يركب الإمام جملاً ويتجه إلى الجهة الشرقية من عرفات حيث يرقى جبلاً صغيراً، يسمى جبل الرحمة، حيث يدعو الله ويسأله الرحمة والغفران حتى غروب الشمس وتوجد فى سفح جبل الرحمة أحواض تملأ بالمياه أيام الحج حتى يتيسر الماء للحجيج، كما بنى فوق هذا الجبل مربع كبير، يضعون فوق قبته كثيراً من القناديل والشموع ليلة عرفة ويومه، فيرى نورها من مسافة فرسخين.

بعد قضاء المناسك فى مشعر عرفات يتحرك الحجيج بعد مغيب الشمس قاصدين المزدلفة وهى على بعد فرسخ من عرفات، هناك بناء عظيم يشبه المقصورة يؤدى فيه الحجيج صلاتى المغرب والعشاء قصراً وجمعًا، ومن هناك يلتقطون الجمرات، وعادة يقضى الحجاج هذه الليلة (أى ليلة العيد) بالمزدلفة حتى صلاة الفجر وعند طلوع الشمس يتوجهون إلى منى حيث يضحون ويرجمون، وفى منى مسجد عظيم يقال له مسجد الخيف.

وهذا هو يوم الحجيج الأول بمنى، وهو يوم عيد الأضحى، ولكن ليس من السنة إلقاء خطبة أو صلاة عيد هناك وإنما يقضون يومهم العاشر من ذى الحجة هناك حيث يرمون الجمرات وتفاصيل الرجم متوفرة فى كتب مناسك الحج.

أما فى اليوم الثانى عشر من ذى الحجة فينصرف الناس من منى حيث يسافرون إلى أوطانهم، ومن أراد الذهاب إلى مكة توجه إليها.

* * *

بعد وصفه مناسك الحج ووصفه للمشاعر المقدسة، توجه ناصر خسرو إلى الطائف كى يواصل مسيرته بعد ذلك إلى منطقة الإحساء. ولكن هذا خارج عن نطاق ما حددناه وهو الاقتصار على زيارة الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة المنورة، ولاشك فى أن كتاب سفرنامه، وهو أول كتاب فارسى يفصل الحديث عن هذه الأماكن، وما يؤديه المسلمون من مشاعر هناك، يعد وثيقة مهمة توضح كيف كانت الكعبة المشرفة فى منتصف القرن الخامس الهجرى، وكيف كان الحجيج يؤدون مناسك الحج والعمرة سيراً على الأقدام أو على الإبل متحملين كل مشقة تلبية لنداء الرحمن لكل من استطاع إلى الحج سبيلاً، كما أجاد ناصر خسرو وصفه للكعبة من الداخل ومن الخارج، وكذلك وصفه لكل من الصفا والمروة وكيفية السعى بينهما هرولة أو مشياً، وكذلك حديثة البسيط الواضح عن عرفات والمزدلفة ومنى ورمى الجمرات، وغيرها من الأماكن المقدسة التى يتشوق المسلمون فى كل بقاع الأرض إلى زيارتها، والتمتع بالنفحات الربانية التى يستشعرها الحجاج والعمار فى كل مرة يذهبون إلى هذه الأماكن طائعين مهللين ومكبرين، ولاشك أن وصفه لهذه الأماكن لم يبعد كثيراً عما يؤديه الحجاج حتى يومنا هذا، فالمشاعر هى المشاعر والفروض والسنن هى نفس الفروض والسنن، وإذا حدثت بعض الاختلافات فليست فى الجوهر، وإنما فى التيسيرات التى تحاول الحكومة السعودية جاهدة أن توفرها خدمة لضيوف الرحمن، وذلك لأداء المناسك دون معاناة!.

ومن الملاحظ أن رحلته الأولى كانت من الشام إلى الحجاز عبر بيت المقدس وعبر البوابة الشمالية للأراضى الحجازية، مشيراً إلى أن قافلة الحاج كانت تعترضها جماعات البدو وقطاع الطريق، لذا كانت كل قافلة تستأجر من يؤمن لها الطريق وتدفع مقابل ذلك مبالغ طائلة لزعيم كل منطقة ضماناً لسلامة وصولهم إلى مكة والمدينة وأداء مناسك الحج والعودة سالمين إلى ديارهم مرة أخرى، ولم يشر ناصر خسرو إلى هذا الأمر فى رحلاته الأخرى إلى الحج، إما لأنه كان يذهب ضمن الوفد المصرى الرسمى الذى يحمل الكسوة معه، وكانت الحكومة المصرية توفر لهذه الرحلة الحراسة الكافية أو أن أمير منطقة جدة كان مسئولاً عن وصول الوفد المصرى الرسمى والكسوة بسلام إلى مكة المكرمة، والحمد لله لم يعد هذا الخطر قائماً فقد تكفلت الحكومة السعودية بتأمين جميع طرق الحج وضربت على أيدى الخارجين عن القانون بيد من حديد.

كان ناصر خسرو محدداً فى كل ما يكتب ويصف، فقد كان يذكر تاريخ كل رحلة واضحاً لا لبس فيه، ومحدداً المدة الزمنية التى كانت تستغرقها كل رحلة، بل والفترة الزمنية التى تقتضيها الرحلة فى سفرها من منطقة إلى منطقة، كأنه يكتب مذكرات يومية مرتبة ومفصلة، مثال ذلك فى حديثه عن الرحلة الأولى؛ حيث حدد موعد خروج القافلة قاصدة الحجاز فى منتصف شهر ذى القعدة سنة ٤٣٨ هـ، وكان وصولهم إلى مكان يدعى «أرعز» بعد ثلاثة أيام، ثم واصلت الرحلة المسير مارة بمكان يقال له وادى القرى، ومنها توجهوا إلى مكة فوصلوها بعد مسير عشرة أيام، وبعد أدائهم مناسك الحج، عادت الرحلة إلى بيت المقدس مرة أخرى فوصلتها فى الخامس من محرم سنة ستة تسع وثلاثين وأربعمائة، هكذا حدد أن الرحلة قد استغرقت منذ خروجها من بيت المقدس وعودتها إليه خمسين يوماً تقريباً وإذا كان ناصر خسرو قد فصل الحديث عن المدينة المنورة ومسجد الرسول عليه السلام فى رحلته الأولى، وذلك لأنه كان قادماً من الشام، فإن طريق الحجاج من الشام وفلسطين كان لابد وأن يمر بالمدينة قبل وصولهم إلى مكة المكرمة، فى حين أنه لم يشأ أن يتحدث عن مكة المكرمة والكعبة الشريفة

والمسجد الحرام إلا فى حجته الأخيرة، حيث كان فى كل مرة يجمع بعض المعلومات ويدونها ويستوثق من صحتها، حتى أتيحت له الفرصة فى رحلته الرابعة لأن يقيم بمكة طوال ستة أشهر، فكان حديثه عن الأماكن المقدسة والمشاعر الدينية فى كل من مكة وعرفات والمزدلفة وغيرها حديث خبير، عايش المكان وانفعل به أكثر من مرة، فإن وصفه لهذه الأماكن مازال ينبض بالحياة وكأنه قد تم فى أيامنا هذه ولم يتغير منه شيء إلا فى المواصلات والعديد من التيسيرات التى قدمتها الحكومة السعودية لحجاج بيت الله الحرام وعُمّاره، وكذلك ما أدخلته على المسجد الحرام من توسعات حتى يستوعب الأعداد المتزايدة من الحجاج فى كل عام.

أشار ناصر خسرو إلى أن رحلتيه الثانية والثالثة كانت عن طريق السويس وجبل الطور عبورًا ببحر القلزم (البحر الأحمر)، وأن رحلته الثانية قد توجهت إلى المدينة المنورة أولاً ثم سافرت بعد ذلك إلى مكة المكرمة، فى حين أن رحلته الثالثة قد توجهت إلى مكة مباشرة، هذا ما يحدث مع الحجاج المصريين حتى اليوم؛ فمن يسافر منهم برًا أو بحرًا أو جوًا قبل أداء الحج بفترة كافية، فإنهم يقصدون المدينة المنورة أولاً ليزوروا مسجد الرسول عليه السلام، ثم يتوجهون بعد ذلك إلى مكة لإتمام شعائر الحج، أما من يسافر فى أوائل ذى الحجة، فإن مقصدهم يكون مكه مباشرة، وبعد انقضاء مناسك الحج من اليوم الثانى عشر أو الثالث عشر من ذى الحجة، فإنهم يكملون رحلتهم بزيارة المدينة المنورة.

أما رحلته الأخيرة فقد كانت عن طريق البحر الأحمر (بحر القلزم) كذلك، ولكنه بدأها من مدينة أسوان متوجهًا شرقًا إلى شواطئ البحر الأحمر ومن هناك ركب سفينة إلى جدة، ولم يشر إلى اسم الميناء المصرى الذى أبحر منه جنوبًا، ولعله يقابل اليوم مدينة سفاجا التى تربطها الآن بميناء جدة السعودى خطوط ملاحية منتظمة، تيسر السبل إلى حجاج الصعيد وبعض الحجاج القادمين من وسط إفريقيا للتوجه إلى

ميناء جدة مباشرة دون تحمل عناء الوصول إلى السويس للسفر بحراً، أو إلى القاهرة للسفر جواً.

ومن الملاحظ أن ناصر خسرو لم يكتف بوصفه للأماكن المقدسة فقط، بل كان حريصاً على أن يصف المكان الذى يزوره بمبانيه وأسواقه وفواكهه ومما قاله فى ذلك :

إذا نزل الساعى من المروة فى نهاية السعى، فإنه يرى سوقًا كبيراً، وفى هذا السوق أحصيت عشرين دكانًا للحلاقة، وتعتبر هذه الدكاكين امتداداً لسوق كبير يقع شرق المسجد الحرام يقال له سوق العطارين، وهو سوق كبير غاية فى الجمال، وأكثر ما يباع فيه هى الأدوية والعقاقير الطبية والأعشاب.

ومما قاله عن الفواكة فى مكة: وقد أثمر العنب فى الخامس عشر من فروردين (مارس/أبريل) فأحضر من السواد إلى مكة وبيع فى السوق، وكان البطيخ كثيراً فى أول اردبيهشت (إبريل / مايو) كما كانت الفاكهة متوافرة طوال الشتاء ولم تنقطع قط..

وهكذا كان ناصر خسرو يقدم وصفاً حيًا للمكان ومابه من حركة وحيوية، مما جعل كتابه مرجعاً مهما لحياة أهل الحجاز فى منتصف القرن الخامس الهجرى إلى غير ذلك من الملاحظات التى يزخر بها الكتاب، .. والذى أتمنى أن يرجع إليه القارئ العربى فى إحدى ترجمتيه طلباً للمزيد من الفائدة وزيادة فى تعرفه على هذه الأماكن المقدسة التى نهفو جميعاً إلى زيارتها وأداء مناسك الحج بها ونحن على معرفة جيدة بتاريخ المكان ومناسكه تلك المعرفة التى تزيد من لهفتنا على السفر إليه دوماً.

ثانياً: سفر نامهٔ مكه (كتاب السفر إلى مكة)[1]

سبق القول بأن مؤلف هذا الكتاب الحاج مهديقلى هدايت مخبر السلطنة قد بدأ رحلته هذه عام (١٣٢١ هـ - ١٩٠٣م)، وقد زار عدة بلدان آسيوية وأوربية وإفريقية، لكنه آثر أن يعنون الكتاب برحلته إلى مكة المكرمة حيث زارها وزار المدينة المنورة والمشاعر المقدسة وأدى فريضة الحج بصحبة عدد من رفاقه الإيرانيين الذين وفدوا إلى مصر، ومنها توجهوا إلى الحجاز، مثلهم فى ذلك مثل ناصر خسرو الذى سافر إلى الحجاز فى المرات الثلاث الأخيرة عبر الأراضى المصرية، والآن يجمل بنا أن نعرض لما ذكره المؤلف مرجئين التعليق إلى ما بعد الانتهاء من سرد رحلته كلها: وقد بدأ مهد يقلى هدايت هذه الرحلة بما ترجمته:

فى يوم الجمعة أول ذى الحجة توجهنا صوب مدينة السويس، وكان المطوف الحاج على فى صحبتنا وكان الطريق حتى وادى النيل صافيًا جميلاً ولما خرجنا من هذا الوادى سلكنا طريقًا عبر الصحارى، ولو لم يكن هناك القطار، لكنا فى عداد من ﴿يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾[1] ولكن حمداً لله أننا لم نتأس بأولئك الفاسقين، بل إننا نعمنا بقوله تعالى ﴿وأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾[2] وسمعنا بآذان عقولنا قوله تعالى ﴿وأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾[3] وسمعنا بقلوبنا الهداية المحمدية نداء الحق تعالى ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[4] أما النار التى نظر إليها موسى بجبل الطور فهى نور الإيمان الذى يضىء قلب المؤمن، والسويس فى

---

(١) حاج مهدى يقلى هدايت؛ مخبر السلطنة : سفر نامه، مكة، مع حواشى وفهارس باهتمام دكتور سيد محمد دبير سياقى الطبعة الأولى نشر تيرازه، ١٣٦٨ هـ.ش ص ٢٤٥-٢٧٣.

(١) المائدة، آية ٢٦.

(٢) الأعراف، آية ١٦٠.

(٣) طه ، آية ١٣.

(٤) طه، آية ١٢.

نهاية جبل الطور وعلى حافة الخليج (خليج السويس) وتربطها بمدينة بورسعيد قناة (قناة السويس)[٥].

ولقد بدأنا رحلة السفر إلى جدة مستقلين سفينة تابعة للشركة الخديوية (المصرية) ولم تكن السفينة نظيفة بالقدر المطلوب، وكان بعض عمالها يفتقدون الذوق والمعاملة الطيبة، وكانت مراحيضها فى مواجهة صالة الطعام، ومع هذا فقد كان ربانها، رجلاً ودوداً وخلوقًا وقد توجه معنا بعد ذلك إلى مكة!

وفى مواجهة جحفة، حيث ميقات الشام والعراق، أمرنا المطوف الحاج على بأن نحرم، فخلعنا أرديتنا الشتوية واغتسلنا وأحرمنا.

الوصول إلى جدة:

وصلنا إلى جدة فى صباح الخامس من ذى الحجة وقد وقفت السفينة بعيدة عن الشاطئ؛ لذا لزمت الحاجة إلى عدة قوارب كى تنقلنا من السفينة إلى الشاطئ.. وقد لاحظنا أن معظم عمارات جدة قد بنيت بالأحجار، كما أن غالبيتها تتكون من ثلاثة طوابق.

---

(٥) النص الفارسى؛ ص ٢٤٤، ٢٤٥، وهو:

جمعهء أول ذى حجه بطرف سوئيس رهسپار شديم، حاجى على مطوف از اينجا همراه است، راه تا كنار نيل مي كذر صفائي دارد، از حوضهء نيل كه خارج شد، از تبه مى كذرد. اكر نه راه آهن بود درزمرهء ﴿يتيهون في الأرض﴾ درمى آمديم. لله الحمد تأسى به فاسقين نكرديم، وبه نعمت" ﴿وأنزلنا عليهم المن والسلوى﴾ متنعم بوديم وبه كوش هوش إشاره" ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾ مى شنيديم" وبه بركت هدايت محمدى صلى الله عليه وآله كه نداى ﴿فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾، به سمع دل مى آورديم نارى كه موسى در كوه طور به نظر آورد، نور إيمان است كه در قلب مؤمن تابشى بارد، سوئيس پاى كوه طور در دامنه أى كنار خليج، شهركى است كه از آن به پرت سعيد كانال (ترعه) ممتد است.

وفى اليوم السادس من ذى الحجة نوينا الترحال إلى مكة المكرمة، وقد لاحظت أن قدمى وكذلك قدمى رفيقى عبد الله قد تورمت وهكذا باقى الرفاق ولكن الحالة بالنسبة لى ورفيقى عبد الله كانت أكثر تورمًا، مما لم أعد استطيع لبس الحذاء أو الجورب، وكأن الهاتف قد جاء لى بالأمر الإلهى: اخلع نعليك.

وللسفر إلى مكة ركبنا عدة حافلات تجرها الخيول، بينها حافلات فخمة وأخرى أقل فخامة، بعضها متسع مريح، وبعضها يكاد يفى بالغرض،، وفى الطريق أقيمت بعض النزل وبخاصة فى منطقة بهره أو حدة، وكان بالمنزل خزان للمياه وقد بنيت به حجرتان حقيرتان، وأمامهما إيوان تحيط به بعض الحشائش والخضرة، وكانت مساحته تقترب من ثلثى فرسخ عرضًا وطولاً، وكان النزل على مقربة من مشارف جبل، وعلى بعد مائتى قدم أو ثلاثمائة من خزان المياه مسجد من المستحب أن تصلى فيه ركعتن، الشأن فى ذلك شأن ضرورة الحفاظ على الروح، وقد أدينا ذلك المستحب فى الإيوان، وحول هذا المسجد ضربت عدة خيام سوداء، يقيم فيها الأعراب النازلين بالمكان.

ما إن أقبل الصباح وعم الضياء حتى تحركت القافلة مواصلة المسير، ولكن لم تمض إلا ساعة وفجأة عمت الجلبة والضوضاء؛ حيث هاجم البدو القافلة وقد سمعنا أصوات طلقات الرصاص دون أن نرى من يطلقونها، وكانت خطة هؤلاء الأعراب تتمثل فى إيقاع القافلة بين طرفى كمين، حيث يطلق أحد الأطراف نيران بنادقهم، فيعم الهرج والمرج بين جموع القافلة، فإذا بأفراد الطرف الثانى من هؤلاء الأعراب يندفعون لمهاجمة القافلة وسلب ونهب كل ما تصل إليه أيديهم وإذا حاول أحد أفراد القافلة التصدى لهم فإنهم يسارعون بطعنه بخناجرهم، فيخلفون وراءهم الجريح أو القتيل؛ مما جعلنا نردد قول السعدى:

أيها الحادى ! أين جمال الكعبة، وقد ألم بنا الموت، عبر صحرائها ![1]

---

(١) الأصل الفارسى: ص ٢٤٧، وهو:

ساربانا جمال كعبه كجاست   كه بمرديم در بيابان ش

لقد أخذ الخطر يقترب منا رويداً رويداً؛ فتوقفنا عن المسير، وترجل بعضنا، وقفز البعض الآخر خارج العربات، وتملكتنا الحيرة والدهشة، حيث كان معنا الحاج قاسم نامي الذى يرافق الرحلة من مصر لحمايتها وحراستها، وكانت معه بندقية وبعض الأسلحة البيضاء، ولكنه سرعان مالجأ إلى خلف تبة يحتمى بها مصداقًا للمثل القائل : « عند الامتحان يكرم المرء أو يهان! » ثم نادى أحد الرفاق على بقية زملائه: هيا تعالوا إلى خلف التبة.

وبينما نحن هكذا إذا بالهدوء يعود مرة ثانية، وهنا يرتفع صوت رئيس الحرس قائلاً: لم يعد هناك خطر! ثم أردف قائلاً: لو أن الخطر قد حاق بنا أكثر من هذا لسارعت بالضرب، ومع هذا فقد أصاب هؤلاء الأعراب أحد أفراد القافلة، كما أصبت أنا أحدهم، لذا فقد أدركوا أنه ليس من المتاح لهم أن يقتربوا من القافلة أكثر فاكثر؛ وهذا ما حدث! وبعد انقضاء وقت قصير من حلول الظهر وصلنا إلى واد يمتد حتى يصل إلى مكة، واصلنا المسير حيث وصلنا بعد ساعات ثلاث إلى مرعى يقال له قنقر النگ أو قصر الخورنق، وأملاً فى استعادة العافية خلدنا إلى الراحة بعض الوقت كى نتناول طعامنا.

ثم واصلنا المسير نحو مكة المكرمة وقبل الغروب بساعتين انطلقنالأول مرة ملبين (لبيك اللهم لبيك) فقد أصبحنا على مشارف مكة.

الوصول إلى مكة :

نزلنا بمنزل الشيخ علي محمد محرز الشريف وهو من أفضل بيوت مكة، يتوسطه حوض ماء به عدة فوارات، ويشرف الإيوان على هذا الحوض، بينما توجد الغرف فى الخلف علي طابقين. حيث نزل كبيرنا (الأتابك) فى الغرفة الكائنة بالطابق العلوى، ونزل باقى الرفاق فى الغرف الكائنة بالطابق الأرضى، وفى هذا المنزل التقينا بأولئك الرفاق الوافدين من الشام، وهم مجد الدولة، مستعان الدولة، وأمين الخاقان، وميرازا حسن رشدية ومعز السلطان وابنه.

وبعد انقضاء ثلاث ساعات من حلول الليل، اغتسلنا، وذهبنا إلى الحرم وأدينا العمرة.

وفى ليلة الثامن من ذى الحجة وهو يوم التروية، ذهبنا إلى الحرم مع الغروب وبعد أداء الفريضة والصلاة بالمسجد توجهنا صوب منى، وهى ساحة واسعة تمر فى وسطها قناة زبيدة، وهى قناة مكشوفة يأخذ الحجاج منها حاجتهم من المياه.

ويقال إن عدد الحجاج فى ذلك الوقت كان مائة وخمسين ألف حاج! وفى صباح التاسع من ذى الحجة عزمنا على التوجه صوب عرفات، وكانت المواصلات إليها قاصرة على الجمال، ويتم الوقوف بعرفات طوال نهار التاسع ثم يبدأ الترحال إلى المشعر الحرام مع غروب الشمس ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [1] حيث نصل إلى المزدلفة فيتم جمع الجمرات وكذلك أداء الصلاة قصراً، ثم واصلنا المسير إلى منى.

وفى منى ابتعنا أربعًا وخمسين شاة للتضحية بها، وقد وكلنا أحدهم لذبح هذه الأضاحى، ولكن لم يمض وقت طويل حتى عمت الضجة والضوضاء أرجاء المكان، إذ أقبل الأعراب وأخذوا الأضاحى، ولم يستطع الموكل بالذبح ذبح سوى شاتين فقط!

بعدها شغلنا جميعًا بتناول الطعام وقد تساوى فى ذلك الجميع الخادم منهم والمخدوم، حيث حمل كل حاج وعاء أكله بنفسه وتوجه به إلى خيمته ومما يجدر ذكره بأن يوم عرفة قد صادف فى هذه السنة يوم جمعة وهو ما يطلقون عليه (الحج الأكبر).

---

(١) البقرة، آية : ١٩٨.

والحج الأكبر كما أفهم هو أن نرجم الوسواس ونبعده عن قلوبنا، وأن نغلق عيوننا عن الحرام، وأن نمتنع عن الغيبة والنميمة، وأن نحفظ قلوبنا عن الهوى، وأن نتحرز عما يغضب الله، وألا ينطق لساننا بالفحشاء.

ومما يجدر ذكره أننا بعد الطواف فى صباح العيد والذبح تحللنا حيث لبسنا ملابسنا، فرحين بمقدم العيد حيث يتبادل الناس فيه الزيارات، وفي اليوم الحادى عشر من ذى الحجة رمينا الجمرات، وفى اليوم الثانى عشر أتممنا كل شى وعدنا إلى مكة المكرمة، وإن كان بعض أهل السنة والجماعة يبقون فى منى حتى اليوم الثالث عشر آخر أيام عيد الأضحى المبارك.

ومن المستحب فى منى صلاة ركعتين فى مسجد الخيف ذى الصحن الواسع أما جوانبه فكلها مسقوفة ، وقد لوث الحجاج الصحن كله حتى لم يعد فى الإمكان الوصول إلى الأماكن المسقوفة مما جعلنا نعود حانقين على بعض الحجاج.

وبعد انقضاء مناسك الحج بقينا عدة أيام فى مكة حيث طوفنا ذات يوم بجبل أبى قبيس وزرنا قبور بعض الصحابة هناك.

وذات يوم ذهبنا عصراً إلى الحرم المكى، حيث وجدنا الفرصة سانحه للدخول داخل البيت الحرام. وإذا كنا فى الخارج نوجه أنظارنا نحو الكعبة فى كل صلاة، فإننا فى الداخل كنا نوجه أنظارنا خارجها ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ [1] من المعروف أن المصلين فى مكة تتجه أنظارهم فى الصلاة صوب وسط

---

(١) البقرة، آية : ١٧٧.

المدينة حيث توجد الكعبة الشريفة أيا كان مكان وجودهم شرقًا أو غربًا، شمالاً أو جنوبًا وإذا كان ماء زمزم للتبرك ، فلا ضير فى ذلك ، ولكنه غير مستساغ للشرب أو الأكل حيث إنه يتسم بالملوحة والمرارة!

وحيثما يوجد مقام إبراهيم يوجد حجر عليه أثر لقدم الخليل عليه السلام محفور على أحد الأحجار وقد وضع هذا فى النصب المقام هناك ، ومن الثواب الاهتمام به والحفاظ عليه !

ويقال إن بنى شيبة كانوا يسكنون هذا المكان فى عهد الرسول عليه السلام .

والصفا والمروة إيوانان تفصل بينهما مسافة السعى ، وكلاهما صوب باب النبى القائم فى الجهة الشرقية من الحرم .

أما عن النظافة هنا فلا داعى للحديث عنها وما أكثر التزاحم عند المشى والهرولة .

وذات يوم ذهبنا إلى الحرم قبل صلاة المغرب ، وتصادف عدم وجود كثيرين بالمسجد ، فتوجهنا إلى حجر إسماعيل وشغلنا بالدعاء والمناجاة ، ومن بين ما دعوت به هو : أن تنال إيران استقلالها ، كما دعوت بكل ما جال بخاطرى .

وكتب فى بيان حكمة الحج ؛ ما يلى :

لقد فرض الله الحج لما فيه من خير عميم لجموع الخلق ، فالبيت الحرام منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهو محط اهتمام الناس من قريب أو بعيد ، وفيه يجتمع الناس مرة فى كل عام بعيدين عن الرياء ، كما تتم فى موسم الحج الألفة بين أهل المشرق وأهل المغرب ، وفيه يتدارس المسلمون أحوالهم ، وتتم بينهم الوحدة والاتحاد ، ينزعون عن أبدانهم أردية الكبر والغرور ، ويدركون أن الإنسان لن يظفر بشىء من هذه الدنيا غير كفنه ، وهناك يكون الجميع سواسية لا فرق بين غنى أو فقير ولا بين شريف أو وضيع ، كما أنهم فى هرولتهم يحطمون كل مظاهر الاستكبار .

- الفقير والغنى كلاهما عبيد لهذه الأرض وتلك الأعتاب .

بل إن الأكثر غنى يكون الأكثر احتياجًا![1].

وفى كل عام تفد من كل من الشام ومصر قافلة ، وتحضر كل منها محملا مزينًا ، وما يقدمه الشام منسوب إلى عائشة رضى الله عنها ، وما يفد من مصر منسوب إلى فاطمة رضى الله عنها ، كما تقدم مصر كل سنة كسوة منسوجة من الحرير وموشاة بالذهب ، وذلك من أجل تغطية الكعبة وكسوتها! ومن بين الذين قدموا الكسوة للكعبة كان شاهرخ بن الأمير تيمور !

بنى المسجد الحرام من الحجر الأبيض ، طوله ٢٧٠ ذراع وعرضه ٣١٥ ذراع ، وتحيط به من كل جانب أردفة ويحمل سقفه ١٣٤ عمود ، وتتوسطه الكعبة ، ويوجد بابها جهة المشرق ، ويرتفع عن الأرض بمقدار ستة أذرع ، وطول الباب ستة أذرع كذلك أما عرضه فثلاثة أذرع وعشرة أصابع ، أما طول الكعبة نفسها فيبلغ أربعة وعشرين ذراعًا وشبرا ، بينما يبلغ عرضها ثلاثة وعشرين ذراعًا وشبرا ، أما ارتفاعها فيبلغ سبعة وعشرين ذراعًا ، وللمسجد ثمانية عشر بابا من بينها فى الجهة الشرقية باب النبى الذى كنا ندخل منه ، وعند الدخول يكون مقام إبراهيم فى مواجهة الكعبة أما على الجهة اليسرى منه فيوجد بئر زمزم ومقام ابن حنبل ، وفى الجهة الشرقية مقام مالك ! وفى الطرف الشمالى مقام الحنفية وليس للشافعى مقام !

أما الصفا والمروة فهما فى الجانب الشرقى ، وعلى جانبى باب النبى يوجد إيوانات بكل إيوان منهما كرسى وثلاث درجات ، ودائمًا يُسعى لنظافة طريق السعى بين الصفا والمروة .

---

(١) گفته اند که حکم حج شاید از نظر احسانی نسبت به مردم آن سر زمین باشد ، شبهه نیست که حکمت بسیار در آن هست. خانه از زمان إبراهیم وإسماعیل محل توجه مردم دور ونزدیك بوده است. مرکزی است خالی از جفا وبی ریا که مردم هر دیار نوبتی در سال در آن جمع شوند. ألفت بین شرقی وغربی حاصل شود ، از حال هم استحضار بیابند ، اتحاد ویکانگی بین آنها ایجاد شود ، لباس کبر وغرور از تن دور کنند. بدانند که ، جز چند کز کرباس بهرهء آخره آنها نیست ، درویشی وغنی ، وضیع وشریف خود را در یك مقام بینند ، به هروله در سعی رک استکبار ا بشکنند .

درویش وغنی بنده این خاك ودرند — آنانکه غنیترند محتاجترند

أما الحجر الأسود فقائم فى الركن الجنوبى الشرقى من الكعبة ، وقد تحطم الحجر الأسود أكثر من مرة وهو الآن خمسون قطعة حفظت جميعها ونسقت داخل قالب من الفضة !

وجدران الكعبة من الداخل والخارج من الحجر الأملس ، وتتغطى من الخارج بالكسوة الشريفة ، وفى الداخل توجد قطعة صغيرة من الحجر المنقر تبلغ مساحته شبراً فى شبر ، ويظن أنها أحضرت من بعلبك !

وسقف الكعبة مرفوع على ثلاثة أعواد من الخشب المربع الذى يصل قطر كل عود منها نصف ذراع وهو من خشب العود الذى يعطى رائحة جميلة تعطر الكعبة من الداخل .

إن الطواف يستمر سبعة أشواط تبدأ من محاذاة الحجر الأسود على أن يتم حضور القلب واستجماع الحواس ، بحيث لا يمكن التفكير فى شيئين فى وقت واحد .

أما السعى بين الصفا والمروة فيتم ذهابا وإياباً بين الموضعين على أن تكون البداية من الصفا والنهاية عند المروة ويكون السعى هرولة فى جزء منه! .

الوصول إلى المدينة :

فى يوم عاشوراء وصلنا إلى المدينة المنورة والتى تبدو كساحة منبسطة تحيط بها الجبال من كل جانب وعند المدخل إلى تلك الساحة يوجد مسجد الشجرة على اليد اليسرى وهو ميقات أهل المدينة ويستحب أن تصلى فيه ركعتان ، إذا كان المسجد الحرام بمكة المكرمة يتصف بالسعة والضياء فإن مسجد الرسول ليس على هذا الحال إذ أن معظمه مسقوف ، لذا فهو أقل ضياء ، وليس به ذلك الازدحام الموجود بالكعبة ، وكانت ليلتنا الأولى بالمدينة هادئة ، حيث لم يثر الرعد ولم يومض البرق ، والفرق

العظيم الآخر بين المسجدين يتمثل فى وجود قبر حضرة الرسول عليه السلام ، وحجرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء رضى الله عنهما فى مسجد المدينة ، وهنا يستطيع المرء أن يتصور بعض الوقائع التاريخية التى حدثت فى منزل الرسول عليه السلام والتى واجهها بروحه السمحة ، إن هذا المسجد مهبط الوحى ومسقط رأس الحسن والحسين !

ما أن وصلنا حتى سارعنا بالوضوء حتى نستطيع زيارة الحرم النبوى ، لقد دخلنا من باب السلام ، ولكننا خرجنا من باب جبريل بعد تقديم فرائض الاحترام والتبجيل .

كنا طوال إقامتنا حريصين على الذهاب إلى المسجد النبوى لأداء جميع الصلوات. لذا فقد جاءتنى الفرصة كى أزور الروضة المنورة عوضًا عن والدى الذى لم تتح له الفرصة لمرضه كى يزور المدينة ، وكم كان يأسف لعدم تمكنه من إتمام هذه الزيارة .

وقد طلب بعض السادة من الرفاق ، أن يفتح لهم باب قبر الرسول كى يزوروه من الداخل ، ولكن الأتابك لم يوافق ، ويوجد بويب لقبر الرسول تجاه القبلة ، وهذا القبر قائم فى الركن الشمالى الشرقى من المسجد ، أما قبر أبى بكر وعمر ففى المسافة بين القبر المبارك والجدار .

ولقد غطى القبر بقطعة من القماش ، ومن السقف يتدلى مصباح وتتناثر المباخر فى جميع الأركان ، وفى الطرف الشرقى من المكان المغطى تحت القبة توجد ثلاث حجرات ، عرضها وطولها ثلاثة أذرع فى ثلاثة أذرع ، حيث يسكن الرسول عليه السلام (حجرة عائشة) ، وكذلك كانت تقيم فاطمة الزهراء مع على المرتضى. وفوق مزار الرسول قبة تعلو جميع النوافذ ، وإلى جوار باب جبريل توجد منارة من خمس منارات بالمسجد !

وخارج باب جبريل يوجد خزان للمياه به صنابير للوضوء حيث توضأت هناك ذات مرة .

وفى اليوم التالى ذهبنا عند باب جبريل لزيارة البقيع ، وهى عبارة عن ساحة كبيرة تتوسطها ساحة أخرى أصغر تضم مزارات أئمة الهدى ، ويأتى فى مقدمتها قبر الإمام الحسن وبعده قبر الإمام السجاد ، ثم قبر الباقر ، وأخيراً قبر جعفر الصادق ، بينما يوجد فى الركن الشمالى من هذه الساحة قبر عثمان بن عفان رضى الله عنه !

ومن بين المزارات التى يحرص الزائرون على زيارتها مقابر شهداء أحد وقبر سيد الشهداء حمزة المجاور لجبل أحد والذى يبعد بعض الشىء عن وسط المدينة .

ومما يلاحظ أنه لم يعد بالمدينة أى أثر للخندق الذى حفر حولها أيام معركة الخندق .

وذات يوم ذهبنا لزيارة مسجد قباء ، مسجد القبلتين ، حيث كان المسلمون يتجهون فى صلاتهم أولا صوب بيت المقدس ، ولما صدر الأمر بالاتجاه إلى الكعبة بنيت بالمسجد قبله أخرى صوب الكعبة ، وهذا المسجد يقع جنوبى المدينة وقد وردت الإشارة إليه فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : «لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين»[1] وقد حمل الرسول الكريم بيديه الكريمتين أول حجر فى بنائه .

وكان بناء مسجد الرسول بالحجر والآجر فى عهد قايتباى من سلاطين مصر ، وذلك عام ٨٢٧ هـ وأكمل بناؤه فى عهد السلطان عبد المجيد بعد ذلك . ويحمل السقف والإيوانات به ٢٥٦ عمود ، وللمسجد ستة أبواب هى باب السلام ، باب الرحمة ، باب التوسل ، باب جبريل ، باب النساء ، باب قايتباى .

(١) سورة التوبة ، آية : ١٠٨

وبين مكة والمدينة مسيرة يومين !

* * *

هكذا أنهى مهد قلى هدايت حديثه عن سياحته بين مكة والمدينة ولنا على ما ذكره عدة ملاحظات نجملها فى نقاط محددة وسريعة .

الملاحظة الأولى :

كانت رحلة الحج لهؤلاء الإيرانيين عبر الأراضى المصرية فقد جاءوا سائحين إلى الإسكندرية والقاهرة ثم عزموا على تأدية فريضة الحج فتوجهوا إلى ميناء السويس ، شأنهم فى ذلك شأن الحجاج المصريين المسافرين لأداء فريضة الحج بحراً حيث تنقلهم البواخر الخديوية من ميناء السويس إلى ميناء جدة ، وقد فعل ناصر خسرو نفس الشيء من قبل ، حيث أدى الحج ثلاث مرات عبر الأراضى المصرية ، ومن المعروف أن عدداً كبيراً من الحجاج الإيرانيين كان يفد فيما مضى إلى الأراضى المصرية ويتوجه عبرها بعد ذلك إلي الحجاز لأداء فريضة الحج ، وهكذا كانت الديار المصرية نقطة عبور أمام هؤلاء الحجاج الإيرانيين وغيرهم من الحجاج الذين ما زال بعضهم وبخاصة من البلدان الإفريقية والأوروبية يصل إلى مصر أولا ثم يتوجه بعد ذلك إلى جدة برا أو بحراً لأداء فريضة الحج .

الملاحظة الثانية :

من الملاحظ أن رحلة الحج التى تحدث عنها مهديقلى هدايت فى كتابه هذا تبدو وكأنها رحلة إخوانية ترفيهية أكثر من كونها رحلة عبادة وتبتل إلى الله ، فقد كان

حريصًا على ذكر أسماء مرافقيه ومن قابلهم من نويه فى جدة أو مكة ، إلى جانب الحديث عن بعض ذكر الأمور الذاتية والتقاط الصور التذكارية ، أما وصفه للأماكن المقدسة والشعائر التى يؤديها حجاج البيت الكريم وزوار مسجد الرسول ، فقد جاءت سطحية فى معظمها إذا قورنت بما أورده ناصر خسرو فى كتابه ، وكان المرجو من مهديقلى هدايت أن يثبت قدرته على الوصف والتحليل أكثر مما فعله ناصر خسرو ، وحتى يجد لكتابة الأثر المرجو ، وهذا ما لم يحدث ، حيث ما زال كتاب ناصر خسرو ووصفه للأماكن المقدسة والشعائر الدينية هو المثال الأكبر قيمة وأعلى ذكرًا .

الملاحظة الثالثة :

كان مهديقلى هدايت ذاتيا في رحلته هذه بل كان متبرمًا ناقمًا حريصًا على إبراز السلبيات أكثر من الإيجابيات ، فكثيرًا ما تحدث عن عدم نظافة الأماكن المقدسة ، كما أفرد الحديث عن حالات الإغارة التى تتعرض لها قوافل الحجيج من بعض البدو وقطاع الطرق وسلبهم أمتعة الحجاج بعد ترويعهم ، والحمد لله أنه لم يعد يحدث هذا ، فقد نجحت الحكومة السعودية الحالية فى القضاء على كل هذه السلبيات ، ووفرت الأمن والأمان لجميع حجاج بيت الله الكريم فى ربوع المملكة كلها !

الملاحظة الرابعة :

لم يكن مهديقلى هدايت موفقًا فى ترتيبه لأحداث الرحلة ، فكثيراً ما كان يتكلم عن أمر ما ثم يتركه ويدخل في حديث آخر وبعد فترة يرجع إلى حديثه السابق مما يخل بانتظام سير الرحلة ، فقد تحدث عن وصولهم مكة ثم ذهابهم بعد الاستحمام لأداء الطواف والسعى ، ولكنه لم يتحدث عن الطواف والسعى إلا فى آخر حديثه عن مكة ، وبعد أن يكون قد أدى جميع مناسك الحج ، وتحلل من ملابس الإحرام ، وكان الأولى أن يذكر هذا كله عند دخول المسجد الحرام لأداء المناسك بمجرد وصوله إلى مكة لا أن يرجئ ذلك إلى نهاية بقائه بها !

كما تحدث عما يفعله الحاج خلال أيام عيد الأضحى المبارك وعودته إلى مكة فى اليوم الثانى عشر من ذى الحجة ، وما يفعله الحجاج بعد ذلك ، ثم إذا به يعود للحديث عن منى والصلاة ركعتين فى مسجد الخيف هناك ، ثم وصفه لهذا المسجد ، وذلك الوصف الذى عاب فيه على بعض الحجاج عدم العناية بنظافة المكان نظراً لشدة الزحام ، وكان الأولى أن يتحدث عن هذا المسجد قبل ذلك وبمجرد وصوله إلى منى لا بعد أن غادرها إلى مكة .

الملاحظة الخامسة :

أشار مهديقلى إلى وسائل المواصلات التى استخدمها فى الرحلة وبدأها بالقطار من القاهرة إلى السويس ، ثم الباخرة الخديوية من السويس إلى جدة وهى باخرة كبيرة تستطيع نقل المئات من الحجاج. كما تحدث عن العربات التى استخدمها الحجاج من جدة إلى مكة المكرمة ، وهذه العربات متنوعة ما بين صغيرة وكبيرة تجرها الجياد ، بينما كانت المواصلات أيام ناصر خسرو على ظهور الدواب أو سيراً على الأقدام ، وبالتالى فإن هذه الرحلة الأخيرة قد أشارت إلى بعض الوسائل الحديثة التى ظهرت فى أوائل القرن العشرين والتى جنبت الحجاج تحمل مشاق السفر سيراً على الأقدام أو على ظهور الدواب ، كما أنها قللت من المدة الزمنية التى كان الحجاج يمضونها بين الذهاب والعودة ، والتى كانت تصل إلى الستين يوما بالنسبة للحجاج المصريين على سبيل المثال كما ذكر ناصر خسرو فى كتابه ، حيث كانت الرحلة ما بين ميناء السويس المصرى وميناء جدة السعودى تستغرق خمسة عشر يوماً ، أما فى زمن مهديقلى فكانت الرحلة من السويس إلى جدة تستغرق خمسة أيام فقط لوجود البواخر الكبيرة والسريعة وهكذا تحدث كل منهما - ناصر خسرو ومهديقلى - عما أتاحه له عصره من وسائل الانتقال !

الملاحظة السادسة :

حرص ناصر خسرو فى كتابه أن يكون أسلوبه بسيطًا سلسلا واضحًا بعكس ما يتسم به شعره ، ولعله أراد أن يكون كتابه هذا مرشداً يوضح فيه الشعائر فى صورة واضحة لا لبس فيها ، أما مهد يقلى هدايت فقد جاء أسلوبه فى كثير من المواضع متصعنًا ، مثال ذلك حرصه على أن يزين أسلوبه بالعديد من الآيات القرآنية أو أجزاء من هذه الآيات ، ولو كان استخدامه لهذه الآيات فى محلها لكان شيئًا يحمد له ، أما أن يقحمها فى النص إقحامًا ، فهذا لا يليق بنص أدبى ذى قيمة وعلى سبيل المثال عندما تحدث عن سفره من القاهرة إلى السويس؛ ذكر بضعة آيات قرآنية تشير إلى قصة سيدنا موسى عليه السلام ورحيله إلى سيناء عبر الطريق الذى سلكه القطار بمهد يقلى ورفاقه إلى السويس ، فكانت هذه الآيات مجرد استعراض من الكاتب وتزيد لا يستدعيه النص!

وكذلك حرص المؤلف على أن ينمق أسلوبه بالعديد من الأشعار ، وبخاصة المنسوبة إلى السعدى الشيرازى وناصر خسرو ، وبعضها كان مقبولا فى موضعه ، وبعضها ذكر دون ضرورة تذكر ، وهكذا كان ذكره للآيات القرآنية ، والأشعار نوعًا من إثبات الذات وادعاء التميز فى الأسلوب .

الملاحظة السابعة :

حرص مهديقلى هدايت على ذكر بعض الإشارات التاريخية ومنها أن بنى شيبة كانوا يقطنون أيام الرسول عليه السلام المنطقة المجاورة بمقام إبراهيم ، وقوله : إن من بين الذين قدموا الكسوة للكعبة كان شاهرخ بن الأمير تيمور ، وقوله عن بناء مسجد الرسول عليه السلام بالحجر والآجر إن ذلك كان فى عهد قايتباى سلطان مصر ، وأن السلطان عبد المجيد قد أكمل هذا البناء بعد ذلك ، وكذلك إشارته قبل ذلك إلى مسجد قباء وكونه المسجد ذا القبلتين ، إلى غير ذلك من الإشارات التاريخية التى أوردها فى أثناء وصفه للمشاعر فى مكة أو المدينة .

الملاحظة الثامنة :

قدم مهديقلى هدايت رسمًا توضيحيا للحرم المكى وضح فيه جميع تفاصيل المسجد والكعبة ، وما يضمه المكان من مشاعر مقدسة وهذا مما يحمد للمؤلف ، حيث أن هذا الرسم يساعد القارئ الذى لم يحظ بزيارة الحرم المكى لعمرة أو حج أن يتعرف على المكان وأبوابه ولكل ما يشمله من مشاعر وأماكن تهفو جميع أفئدة المسلمين إلى زيارتها والتمتع بالوقوف خاشعة أمامها .

* * *

وإذا كان لنا أن نقارن فى عجالة بين ما كتبه ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى ، وبين ما سطره مهديقلى هدايت فى بداية القرن الرابع عشر الهجرى ، فإننا نقول بكل اطمئنان بأن ناصر خسرو كان أكثر توفيقًا فيما قال ، وأكثر تدقيقًا فيما وصف ، وأكثر تضرعًا فيما قدم من حديث عن المشاعر وما يؤديه الحجاج من أفعال وما يقولونه من ابتهالات وأقوال ، وكان حديث ناصر خسرو حديث من يعايش ما يكتب ، ومن يحس بكل كلمة ينطق بها أو يسطرها ، أما حديث مهديقلى هدايت : فقد جاء سطحيًا فى كثير مما قاله ، كان حديثه حديث من يكتفى بالنظر من الخارج دون الدخول إلى لب الأمر ، إنه حديث من يكتفى بالعرض دون الدخول إلى الجوهر !! إنه حديث رحالة غير خبير بالمكان وما يمثله من قداسة ، ولعل ضيق الفترة التى قضاها فى مكة – حوالى شهر (من ٦ ذى الحجة ١٣٢١ إلى ٨ محرم ١٣٢٢هـ) لم تتح له الفرصة جيدًا كى يورد وصفًا وتحليلاً ، كالذى قدمه ناصر خسرو فى زيارته الرابعة للأماكن المقدسة ، حيث قضى فى هذه المرة ستة أشهر كاملة وذلك بعد أدائه الحج قبل ذلك ثلاث مرات ، مما جعله يعايش المكان جيدًا ويدرس كل صغيرة وكبيرة فيه ، فكانت الفرصة سانحة أمامه لكى يستوثق من كل كلمة ، ومن كل وصف قبل أن يسطره فى كتابه !

الرحلة الثانية : إلى بيت المقدس

حرص الرحالة المسلمون على زيارة بيت المقدس ، وزيارة ثالث الحرمين بها ووصفه ، ووصف جميع الأماكن المقدسة فى هذه المدينة العربية الإسلامية أبد الدهر إن شاء الله ، ومن بين هؤلاء الرحالة كان ناصر خسرو وكذلك مهديقلى هدايت اللذين أوردنا ما وصفاه فى كتابيهما لكل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث الحرم المكى ومسجد الرسول محمد عليه السلام ، والآن يطيب لنا أن نورد ملخصًا لوصف كل منهما لمدينة القدس ، كى نتذكر ما كانت عليه هذه المدينة الخالدة فى عصر كل منهما ، لعنا نحاول تخليصها من العدوان الإسرائيلى الداعى إلى أن تكون القدس العاصمة الأبدية لدولة إسرائيل كما يقولون ، ولكن إرادة الله فوق إرادتهم ، وإن شاء الله تعود القدس عربية إسلامية مطهرة من كل دنس إسرائيلى ، ولنبدأ بإيراد ملخص لوصف هذه المدينة العريقة كما جاء فى سفر نامه ناصر خسرو .

(أ) وصف ناصر خسرو لبيت المقدس[١]

يقول ناصر خسرو فى أول حديثه عن المدينة : فى الخامس من رمضان سنة ٤٣٨ هـ (١٦ مارس ١٠٤٧م) بلغنا بيت المقدس .. وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس «القدس» ويذهب إلى القدس فى موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات ، فيتوجه إلى الموقف ويضحى أضحية العيد كما هى العادة ، ويحضر هناك لتأدية السنة ، فى بعض السنين ، أكثر من عشرين ألف شخص فى أوائل ذى الحجة ومعهم أبناؤهم ، كذلك يأتى لزيارة بيت المقدس من ديار الروم ، كثير من النصارى واليهود ، وذلك لزيارة الكنيسة والكنيش هناك ... وسواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء والخيرات بها كثيرة ورخيصة[٢] .

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامه الأصل الفارسى ص ٦٤ - ٦٣ ، الترجمتان العربيتان وص : ٥٥ - ٧٦ (ترجمة د ، يحيى الخشاب) ، ص ٥٣ - ٨١ (ترجمة د. البدلى) .

(٢) سفرنامه ، ترجمة الخشاب ، ص ٥٥ - ٥٦ .

ثم قال : لقد سمعت من الثقاة أن النبى صلاة الله عليه وسلامه رأى فى المنام كأن أحد العظماء يسأله قائلاً : يا رسول الله أعنا على اكتساب العيش .، فقال الرسول عليه السلام «أنا كفيل لكم بقمح الشام وزيته»[٢] .

ومن كان الرسول عليه السلام كفيله فلن يستطيع إنسان أن يخذله ، وإذا كان سكان القدس الشريف قد مروا بفترات عصيبة على أيدى الصليبيين سابقًا واليهود حاليًا ، فسينصرهم الله ويعيد مدينتهم حرة خالصة للإسلام والمسلمين ، بعد ذلك يبدأ ناصر خسرو فى وصف مدينة بيت المقدس وسنكتفى بذكر ملخص لهذا الوصف !

وصف بيت المقدس :

مدينة مشيدة على قمة جبل ليس بها ماء غير الأمطار وتعتمد الزراعة فيها على الأمطار والعيون ، والمدينة محاطة بسور حصين من الحجر والجص وعليها بوابات حديدية وكان عدد سكانها وقت زيارة ناصر خسرو لها حوالى عشرين ألف نسمة . بها أسواق جميلة وأبنية عالية ، وكل أرضها مبلطة بالحجارة ، وفى المدينة صناع كثيرون لكل جماعة منهم سوق خاصة ، والجامع شرقى المدينة وسوره هو سورها الشرقى ، وإذا خرجت من المسجد استقبلتك صحراء عظيمة يقال لها الساهرة ، ويزعمون أنها أرض الحشر يوم القيامة ، ولهذا يأتى كثير من الناس إلى هذه الصحراء ويتفرغون للعبادة راجين أن يدركهم الموت فيها ، فإذا جاء وعد الآخرة يكونون أول من يبعثون !

وبين الجامع وسهل الساهرة واد عظيم الانخفاض كأنه خندق ، وبه أبنية كثيرة على نسق أبنية الأقدمين وبه قبة من الحجر مقامة على أحد البيوت ، ويقول العامة إنه بيت فرعون أو يطلقون على هذا الوادى «وادى جهنم» ويقال إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أنزل جيشه أيام خلافته بسهل الساهرة هذا ، فلما رأى هذه الوادى قال : هذا وادى جهنم !

(١) سفرنامه ، ترجمة البدلى ، ص ٥٣ - ٥٤ .

وعلى مسيرة نصف فرسخ جنوب المدينة توجد عين ماء تسمى عين سلوان ، وقد أقيمت حولها عمارات كثيرة ، حيث يقولون إن من يستحم بماء هذه العين يشفى مما ألم به من الآلام والأمراض .

ومسجد الجمعة على حافة المدينة من الناحية الشرقية وإحدى حوائطه تطل على وادى جهنم ، وإذا نظر المرء إلى ذلك الضلع التابع للمسجد الأقصى والمطل على وادى جهنم وجد أن السور يرتفع بمقدار مائة ذراع ، والسور فى ذلك الجانب ذو صخور ضخمة شديدة النتوء ، بينما بقية جدران المسجد الأخرى تتسم بالاستقامة .

وقد بنى المسجد حول الصخرة العظيمة التى يزعمون أن الله أمر موسى عليه السلام باتخاذها قبلة ، وفى عهد سليمان عليه السلام جاءه الأمر ببناء مسجد حول الصخرة ، حيث اتخذ هذه الصخرة بمثابة المحراب للمصلين ، كما كان محمد عليه السلام يتجه إلى هذه الصخر فى صلاته حتى أمر الله بتحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة ، التى زادها الله تشريفًا وتعظيمًا .

وقد كتب فى الجانب الشمالى للمسجد وبالقرب من قبة النبى يعقوب عليه السلام وفى أعلى أحد الأبواب : أن طول المسجد سبعمائة وأربعة أمتار وعرضه مائة وخمس وخمسين مترًا بالمقياس الشاهانى .

وعند المدخل الشرقى للمسجد يوجد رواق عظيم يبلغ ارتفاعه ثلاثين ذراعًا ، بينما عرضه عشرون ذراعًا وللرواق جناحان واجهتاهما وإيوانه منقوشة كلها بالفسيفساء ، وفوق الرواق قبة كبيرة من الحجر المصقول ، وله بابان مزخرفان وواجهتاهما من النحاس الدمشقى الذى يلمع حتى لتظن أنهما طليا بالذهب ، وطول كل منهما خمسة عشر ذراعا والعرض ثمانية أذرع ويسميان «باب داود» عليه السلام .

وبعد اجتياز هذا الباب يوجد رواقان كبيران على يمين الداخل ، ورواق ثالث ممتد على يساره ويوجد بهذه الأروقة مجموعة من الأعمدة حيث يوجد فى كل رواق جهة اليمين تسعة وعشرون عمودًا رخاميا ، وبينما يرتفع عدد الأعمدة فى الرواق الواقع على يسار الداخل إلى أربعة وستين عمودًا رخاميا، بطول المسجد من الشمال

إلى الجنوب ، ولكنه يبدو كساحة مربعة إذا اقتطعت المقصورة منه ، وقبلته فى الجنوب وفى الجانب الشمالى بابان متجاوران عرض كل منهما سبعة أذرع وارتفاعه اثنا عشر ذراعًا. ويسميان "باب الأسباط" ، وكلها مزينة بزخارف من الحديد والنحاس وبعد عبور باب الأسباط فى اتجاه الشرق يوجد باب آخر عظيم مكون من ثلاثة أبواب متلاحقة ، يقال لها باب الأبواب وهو فى نفس حجم باب الأسباط ولكنه كثير الوشى والزخارف وقد سمى باب الأبواب لأنه مكون من ثلاثة أبواب متلاصقة فى حين أن باقى الأبواب مزدوجة .

وعلى مقربة من باب الأبواب وفى الزاوية الشمالية يوجد رواق ذو أبواب ، وله قبة عظيمة ، تبدو قواعدها شبيهة بأرجل الفيلة ، وتضيئها مشاعل كثيرة وتسمى قبة النبى يعقوب عليه السلام ، زعمًا بأن يعقوب كان يتعبد فى هذا المكان .

وعند الركن الشمالى للمسجد رواق جميل وقبة جميلة لطيفة مكتوب عليها هذا محراب زكريا النبى عليه السلام ، ويقال إنه كان يصلى هناك دائمًا ، وعند الحائط الشرقى وسط الجامع رواق عظيم الزخارف من الحجر المصقول ، يبدو كأنه قطعة واحدة ، ارتفاعه خمسون ذراعًا وعرضه ثلاثون ، عليه نقوش وله بابان جميلان ويقال إن سليمان بن داود عليه السلام بنى هذا الرواق لأبيه !

وحين يدخل السائر رواق داود هذا متجهًا ناحية الشرق فإن الباب الواقع فى اليمين يسمى «باب الرحمة» والباب الواقع جهة اليسار هو «باب التوبة» ويقال إن هذا الباب هو الذى قبل الله تعالى عنده توبة داود عليه السلام!

وقد قال ناصر خسرو عند وصوله إلى هذا المكان !

«وقد صليت أنا ناصر ، فى هذا المقام ودعوت الله تعالى أن يوفقنى لطاعته وأن يغفر ذنبى !»[١] .

---

(١) سفرنامه ، ترجمة د . الخشاب ، ص ٦٠ .

وحين يمضى السائر بمحاذاة الجدار الشرقى إلى أن يبلغ الزاوية الجنوبية عند القبلة ، يجد أمام الحائط الشمالى مسجداً بهيئة السرداب ينزل إليه بدرجات كثيرة ، مساحته عشرون ذراعًا فى خمسة عشر ، وبهذا السرداب مهد عيسى عليه السلام ، وهو من الحجر ، حجمه كبير بحيث يصلى عليه الناس وهو المهد الذى أمضى فيه عيسى طفولته ، وكلم الناس منه وهو فى المسجد مكان المحراب أما محراب مريم ففى الجانب الشرقى من هذا المسجد ، وبه محراب ثالث لزكريا عليه السلام وعلى هذين المحرابين آيات القرآن التى نزلت فى حق زكريا ومريم ويعرف هذا المسجد باسم «مهد عيسى» عليه السلام .

المسجد الأقصى :

وحين يخرج السائر من مسجد مهد عيسى متبعًا الحائط الشرقى ، يجد عندما يبلغ زاوية المسجد الكبير ، مسجداً آخر عظيماً جداً وهو أكبر مرتين من مهد عيسى ، ويسمى هذا المسجد الأخير بالمسجد الأقصى ؛ وهو الذى أسرى الله عز وجل بالمصطفى عليه السلام ليلة المعراج من مكة إليه ، ومنه صعد إلى السماء (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)[١]

وبالمسجد الأقصى مساحة كبيرة معظمها غير مسقوف ، أما الجزء المسقوف والذى به المقصورة فيقع عند الحائطين الجنوبى والغربى وطول هذا الجزء ٤٢٠ ذراعا وعرضه ١٥٠ ذراعا وبه ٢٨٠ عموداً رخاميا على تيجانها طيقان من الحجارة ، وقد نقشت تيجان الأعمدة وهياكلها ، وثبتت الوصلات فيها بالرصاص فى منتهى الإحكام وبين كل عمودين ستة أذرع مغطاة بالرخام الملون الملبس بشقاق الرصاص ومقصورة المسجد الأقصى فى وسط الحائط الجنوبى ، وهى كبيرة جداً تتسع لستة عشر عموداً وعليها قبة عظيمة جدا منقوشة بالميناء ، والمقصورة مفروشة بالحصير المغربى ، وبها قناديل ومسارج معلقة بالسلاسل وبها محراب كبير منقوش بالميناء ، وعلى جانبيه

(١) الإسراء : آية : ١ .

عمودان من الرخام لونهما كالعقيق الأحمر ، وإزار المقصورة كله من الرخام الملون ، وعلى يمينه محراب معاوية وعلى يساره محراب عمر رضى الله عنه ، وسقف المسجد الأقصى مغطى بالخشب المنقوش المحلى بالزخارف ، وعلى باب المقصورة وحائطها المطل على الساحة خمسة عشر رواقًا عليها أبواب مزخرفة ، عشرة منها تفتح على الجدار البالغ طوله ٤٢٠ ذراع ، والخمسة الباقية تفتح على الجدار الثانى البالغ طوله ١٥٠ ذراع ، وقد زين باب منها غاية الزينة حتى ليظن أنه من الذهب الخالص ، ويقال إن الخليفة المأمون هو الذى أرسل هذا الباب من بغداد .

وتحت الأرض فى الحرم المسقوف حوض فى مستوى الأرض حين يغطى ، وقد بنى لتتجمع فيه مياه المطر وعلى الحائط الجنوبى باب يؤدى إلى الميضأة .

وقد حفرت فى أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة تتجمع فيها مياه الأمطار ، ولاتضيع سدى وينتفع بها الناس وهذه الأحواض لا تحتاج إلى عمارة أبداً. ويقال إن سليمان عليه السلام هو الذى عمل هذه الأحواض وقد جعل القسم الأعلى منها على هيئة التنور ، وعلى رأس كل حوض غطاء من حجر حتى لا يسقط فيه شىء !

وإذا كانت مدينة بيت المقدس الواقعة على قمة جبل تتسم بأن أرضها غير مستوية فإن أرض المسجد مستوية فخارج المسجد حيثما تكون الأرض منخفضة يرتفع حائطه، إذ يكون أساسه فى أرض واطئة ، وحيثما تكون الأرض مرتفعة يقصر الجدار ، وفى جهات المسجد المقابلة للمدينة والمحال السكنية المنحدرة شقت أبواب فى أصل جبل المسجد حيث نقبت نقبًا فى الحجارة الصلدة ، وهذه الأبواب تقود إلى ساحة المسجد الخارجية ، وأحد تلك الأبواب يسمى باب النبى عليه السلام وهو يواجه القبلة الواقعة جنوب المسجد ، ويقال إن النبى سليمان عليه السلام هو الذى نقب هذه الأبواب ، أما باب النبى محمد فقد قيل بأن محمداً عليه السلام قد دخل المسجد الأقصى ليلة المعراج من هذا الباب ، وهو على جانب الطريق إلى مكة ، وفى عرض المسجد باب شرقى يسمى (باب العين) لأنه يؤدى إلى عين سلوان ، وهناك أيضًا باب تحت الأرض يسمى (الحطة) يقال إنه هو الباب الذى أمر الله عز وجل بنى إسرائيل أن يدخلوا منه إلى

المسجد فى قوله تعالى : «وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين»[1] وهناك باب آخر يسمونه «باب السكينة» فى دهليزه مسجد به محاريب كثيرة ، باب أولها مغلق حتى لا يدخله أحد ، ويقال إن به تابوت «السكينة» الوارد ذكره فى القرآن والذى حملته الملائكة ، كما جاء فى قوله تعالى : «وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنت مؤمنين»[2]

ومجموع أبواب بيت المقدس ما تحت الأرض منها وما فوق الأرض تسعة أبواب!

ويوجد فى الساحة الخارجية للمسجد مقام ضخم[3] أقيم حيث تعذر نقل الصخرة إلى الجزء المسقوف من المسجد لعلوها ، وقد عمدوا إلى هذا البناء وعدوه بمثابة مقام يصعدون عليه لمباشرة بناء الغطاء المطلوب للصخرة ، ومساحة هذا المقام ثلاثمائة وثلاثون ذراعًا فى ثلاثمائة ذراع ، وسطحه مستو ومزين بالمرمر وقد صمموا المقام بطريقة جعلته الطريق الوحيد المؤدى إلى الصخرة وإذا صعد إنسان إلى سطح المقام استطاع أن يشرف على سطح المسجد ، وفى كل زاوية من زوايا المقام الأربع قبة ، وأكبر تلك القباب هى قبة الصخرة والتى كانت قبلة للمسلمين قبل أن يؤمر النبى محمد عليه السلام بالتحول إلى الكعبة!

قبة الصخرة :

بنى المسجد الأقصى بحيث يتوسط المقام ساحته وتتوسط قبة الصخرة مقامه!

والقبة بناء مثمن الأضلاع ، كل ضلع فيه ثلاثة وثلاثون ذراعًا وله أربعة أبواب ، ومحيط الصخرة مائة ذراع ، وهى غير منتظمة الشكل . وقد بنوا على جوانب الصخرة

---

(١) البقرة ؛ آية : ٥٨ .

(٢) البقرة آية : ٢٤٨

(٣) ورد فى النص الفارسى لفظ (دكان) وقد ترجمها د . البدلى بمقام ضخم ، بينما ترجمها د. الخشاب بدكة تأثرا بتعبير المقدسى ، سفر نامه : ترجمة الخشاب ، ص ٦٥ – هامش : ٣ .

الأربعة دعائم مربعة بارتفاع حائط البيت ، وبين كل دعامتين على الجوانب الأربعة ، عمودان أسطوانيان من الرخام بنفس الارتفاع ، وعلى قمة تلك الدعائم وهذه الأعمدة الاثنى عشر بنوا القبة التى تحتها الصخرة والتى يبلغ محيطها مائة وعشرين ذراعًا .

والصخرة في حد ذاتها ليست جرمًا كبيرًا ، ولا تزيد عن طول رجل طويل إلا بقليل ، وقد غلفت بحظيرة رخامية حتى تظل فى مأمن من أن تلمسها الأيدى ، ولون الصخرة أزرق ولم تطأها قدم بشر منذ وقت مديد ، ومع هذا فيرى فى الجانب الموازى للقبلة من الصخرة أثر قدم زعموا أن إبراهيم عليه السلام وقف على الصخرة أيام أن كانت الصخور لينة ، فانطبعت آثار قدمه الشريفة عليها .. كما يقال إن آثار أقدام إسحق وإسماعيل ولدى إبراهيم عليهم السلام هى التى فوق هذه الصخرة .

والمسجد الأقصى هو ثالث بيوت الله سبحانه وتعالى قيمة ؛ إذ المتعارف عليه عند علماء الدين أن كل صلاة فى بيت المقدس تساوى خمسة وعشرين ألف صلاة ، وكل صلاة فى مسجد الرسول محمد عليه السلام تعد بخمسين ألف صلاة ، وأن الصلاة فى الكعبة المعظمة شرفها الله ، تساوى مائة ألف صلاة .

وبعد قبة الصخرة توجد قبة السلسلة ، ويزعمون أن النبى داود عليه السلام علقها هناك ولا تصل يد مخلوق إليها أبدًا ، وهى تعتمد على ثمانية أعمدة مرمريه وجوانب القبة الثلاثة مفتوحة عدا الجانب الموازى للقبلة فإنه مغلق بإحكام ولهذه القبة محراب رائع !

وترى قبة ثالثة فى جوانب هذا البناء العظيم وهو قبة جبريل ، وهى تعلو أربعة أعمدة وهى كسابقتها مفتوحة من جوانب ثلاثة ، والجانب الموازى للقبلة مغلق كذلك ، ويزعمون أن البراق الذى حمل النبى إلى السماء حضر إلى ذلك المكان حتى يمتطيه الرسول عليه السلام ، ثم تأتى قبة النبى عليه السلام ويفصل بينها وبين قبة جبريل عشرون ذراعًا ، وترتفع كذلك على أربعة أعمدة مرمرية ويقولون إن الرسول عليه السلام صلى فى قبة الصخرة ليلة المعراج ، ووضع يده الشريفة على الصخرة ، ولما هم عليه السلام بمغادرة المكان بعد فراغه من الصلاة ، قامت الصخرة من مكانها إجلالاً

لرسول الله ، فوضع الرسول يده الشريفة عليها فعادت إلى مكانها ، ولكنها ظلت إلى اليوم نصف معلقة ثم جاء الرسول إلى الصخرة التى تسمى باسمه اليوم وامتطى البراق ، ولذلك يعظم المسلمون هذه القبة المسماة بقبة الرسول .

المراقى المؤدية إلى المقام بساحة الجامع :

هناك ستة مراق ، لكل منها اسم ؛ فبجانب القبلة طريقان يُصعد فيهما على درجات ، وأحدهما على اليمين ويسمى مقام النبى عليه السلام ، والثانى على اليسار ، ويسمى مقام الغورى ، وقد سمى مقام النبى لأن النبى عليه السلام ، صعد على درجاته ليلة المعراج ودخل إلى قبة الصخرة ويقع طريق الحجاز على هذا الجانب ، وعرض درجاته اليوم أى عام ٤٣٨ هـ عشرون ذراعًا ، أما مقام الغورى فقد أعده أحد ولاة السلطان الغورى سلطان مصر فى أوائل القرن الخامس الهجرى أيضًا .

وعلى الجانب الغربى للمقام سلّمان ، وعلى الجانب الشرقى طريق عظيم ، وأخيرًا يوجد طريق أكثر علوا وأكبر منها كلها وذلك على الجانب الشمالى ويسمى المقام الشامى .

ويختم ناصر خسرو حديثه عن بيت المقدس بقوله :

هذا ما رأيت فى جامع المقدس ، فقد صورته وضممته إلى مذكراتى ومن النوادر التى رأيتها فى بيت المقدس شجرة الجوز[١] .

ويفهم من هذا أن ناصر خسرو إلى جانب وصفه كان يرسم رسمًا توضيحيًا للمكان ولكن للأسف لم تصلنا هذه الرسوم وتلك الصور التى أشار إليها . ولو وصلت لكانت الفائدة أشمل وأعم ومما لا شك فيه أن ناصر خسرو كان دقيقًا فى وصفه ، كما كان حريصًا على ذكر أبعاد كل أثر بل كان يحاول قياس هذه الأبعاد بنفسه كما صرح هو بذلك ، قبل أن يجد أن أبعاد المسجد الأقصى قد سجلت على أحد أبوابه ، فنقلها ، ولم يجد حاجة بعد ذلك للقياس بنفسه .

* * *

سفر نامه ، ترجمة د. الخشاب ص ٧٧٠ .

مشهد الخليل :

بعد أن فرغ ناصر خسرو من زيارته ووصفه لبيت المقدس توجه لزيارة قبر سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وهو فى قرية تقع جنوبى بيت المقدس بمسافة ستة فراسخ ، والمشهد على حافة القرية من ناحية الجنوب ، والمشهد يتكون من بناء ذى أربعة حوائط من الحجر المصقول ، وطوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ، وارتفاعه عشرون ، وبه مقصورة ومحراب ، وبالمقصورة قبران رأسهما إلى القبلة ، الأيمن قبر إسحق بن إبراهيم ، والآخر قبر زوجته عليهما السلام .

وعندما يخرج السائر من المقصورة إلى وسط ساحة المشهد ، يجد مشهدين أمام القبلة ؛ الأيمن به قبر إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهو مشهد كبير ومن داخله مشهد آخر لا يستطاع الطواف حوله ، ولكن له أربع نوافذ يرى منها ، والمشهد الثانى القائم على يسار القبلة قبر سارة زوج إبراهيم عليه السلام .

وبعد هذين المشهدين قبران متجاوران : الأيمن قبر النبى يعقوب عليه السلام والأيسر قبر زوجه .

وبعد ذلك تأتى أماكن الضيافة التى أعدها سيدنا إبراهيم لاستقبال ضيوفه وخارج الجدران الأربعة منحدر به قبر يوسف بن يعقوب عليهما السلام وهو من الحجر وعليه قبة جميلة .

* * *

ومن الجدير بالذكر أن ناصر خسرو قد وفد إلى بيت المقدس فى الخامس من شهر رمضان المبارك عام ٤٣٨ هـ وغادرها قاصداً مكة المكرمة فى الخامس عشر من ذى القعدة من نفس العام ، أى أنه قضى بها شهرين وعشرة أيام ، ثم عاد إليها مرة أخرى بعد قضائه مناسك الحج للمرة الأولى ولكنه لم يذكر كم مكث بها فى المرة الثانية ، ولا شك أن هذه الفترة الطويلة نسبيًا والتى قضاها ببيت المقدس (شهران وعشرة أيام) كانت كفيلة بأن يتعرف على معالم المدينة ويتعرف على سكانها ويسمع

منهم ، وكذلك يدرس تاريخها ، مما ساعده على أن يقدم وصفًا تفصيلاً دقيقًا لكل ما شاهده ، وما سمعه ، فجاء وصفه ينبض بالحيوية والجدة ، ومن يقرؤه اليوم يشعر وكأنه يصور بيت المقدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة . كما هى عليه الآن ، سوى أنها لوثت واضطربت بسيطرة الإسرائيليين عليها ، نسأل الله أن تعود مدينة الزيتون إلى سابق عهدها عاصمة إسلامية خالصة ، عاصمة سلام ووئام لكل الأديان كما كان عهدها دائمًا تحت الحكم العربى .

* * *

(٢) وصف مهد يقليخان هدايت لبيت المقدس :

وصل مهديقليخان إلى بيت المقدس يوم السابع والعشرين من ربيع الأول عام ١٣٢٢ هـ قادمًا من بيروت بالقطار ، وقد بدأ وصفه لبيت المقدس ، بما ملخصه :

يقع بيت المقدس على قمة جبلية جرداء ، بها عمارات متفرقة ، وقد حضر إلى محطة القطار مجموعة من الجنود لاستقباله ورفاقه ، وكان فى مقدمتهم والى المدينة وكذلك بعض رجال الدين وبعض الأعيان ، وقد توجهوا جميعًا بعد هذا الاستقبال إلى الفندق الذى يفوق فندقى بيروت ويافا ...

ويقع المسجد الأقصى فوق قمة هضبة تتكون من عدة طبقات ، وعلى الجانب الآخر يوجد ذلك المسجد المنسوب إلى عمر بن الخطاب ، ويوجد على أطراف هذه الهضبة واد. لم يعد هناك أى أثر لمسجد سليمان ، حيث كانت أعمدته قد أدخلت إلى مسجد عمر ، وجميعها من المرمر الملون ، والصخرة تتوسط المسجد حيث تحيط بها أعمدته ، والصخرة معلقة حيث يبدو ما بأسفلها خاليًا ، وفى الكتابات المسمارية كانت بيت المقدس تعرف باسم (أورساليمو) وفى بعض اللغات القديمة باسم «شلم» أو «يروشا لايم» وفى اليونانية واللاتينية بام «هيروسوليما» أما العرب فقد أطلقوا عليها اسم «القدس الشريف» .

وعندما أصبحت حاضرة لداود ، عمل سليمان على توسعتها وتزيينها .

وموضع مسجد عمر الآن كان قصر سليمان ، وفى الجزء الشمالى الغربى كان يوجد مسجد سليمان (المسجد الأقصى) الذى لم يعد له أى أثر باق اليوم. وفى عام ٥٨٦ ق.م استولى بخت النصر على القدس ، ولكن عندما خلص كوروش اليهود من الأسر أعاد تعمير القدس.

وفى عام ٧٠ ميلادية كانت مصائب اليهود سببًا فى أن سعى طيطوس وهادريان (من أباطرة الرومان) فى تدمير المدينة ، وفى عام ١٣٠ م طرد القائد الرومانى (الياكيبيتولينا) اليهود من المدينة ، وبنى هناك معبد جوبيتر (كابيتلينوس) ودخلت القدس تحت الحكم العربى عام ١٧ هـ وأطلق عليها اسم القدس ووقعت فترة تحت الحكم المسيحى أيام الحملات الصليبية حيث قتلوا أيامها سبعين ألف مسلم ودمروا أثاث المسجد ونهبوه ، وجعلوا المسجد والصخرة زريبة للخنازير ، وظل الأمر كذلك حتى جاء صلاح الدين الأيوبى وطردهم منها .

وقد وفد عدد من الأثريين الفرنسيين والإنجليز والألمان ونقبوا فى بيت المقدس واستطاعوا أن يرسموا خريطة للمدينة القديمة ما أمكنهم ذلك .

وكانت بيت المقدس فى بداية الإسلام هى القبلة الأولى وكانت محل احترام وتبجيل المسلمين «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين»[١] هواؤها معتدل ، وقليلا ما يتساقط الثلج بها ، فواكهها كثيرة منها البرتقال والتمر والتين والموز . مياهها قليلة وهى تعتمد على مياه المطر منذ القدم ، لذا تكثر فيها الأحواض التى تخزن فيها مياة الأمطار .

مسجد عمر

الحرم الشريف (مسجد عمر) يقع فى الجنوب الشرقى من المدينة ، وهو بناء مثمن الأضلاع على مصطبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أذرع يصعد إليها بدرجات من المرمر وسطح الصخرة من المرمر الأزرق اللون ، وطولها ١٦٠ متر ، وعرضها بين ١٢٥

(١) سورة المؤمنون ، آية : ٥٠ .

و١٥٥ متر ، وارتفاع قبة المسجد ثلاثة أمتار وقطرها عشرون متراً ، ويعتمد سقف القبة على أعمدة مرمرية ، والصخرة كما قلنا قبة لهضبة وأسفلها خال وسمك سقفها قرابة المتر وفى أطراف الصخرة إيوان عريض ، يوجد هلى سطح الصخرة آثار قدم يقال إنها آثار قدم إبراهيم عليه السلام وهى شبيهة بما هو موجود فى مقام إبراهيم بالكعبة الشريفة .

ومنذ القدم وتحكى قصص عديدة عن القدس ، ولكل من المسلمين والنصارى واليهود حكاياتهم عن هذه المدينة ، حيث تواصل اهتمام الناس بها طوال ثلاثة آلاف عام .

وتوجد حول القبة الأصلية أربع قباب فى جهاتها الأصلية ، وهى قبة السلسلة وقبة المعراج ، وقبة الخضر وقبة النبى ، وكلها من الرخام المنقوش ، ويوجد فى جنوب الصحن سرداب بعرض عشرين مترا وطوله خمسون متراً وارتفاعه خمسة أمتار وجداره الغربى تظهر من خلاله معظم الآثار القديمة للمدينة .

وطول الساحة المقدسة ألف ذراع وعرضها سبعمائة ، ويقال إنه لما أنهى سليمان بناء المسجد ، جاء النداء أن أطلب منى شيئًا ، فطلب سليمان أن تمحى ذنوبه ، وأجيب طلبه ، لذا فإن الراغبين فى العفو عن ذنوبهم كثيراً ما يفدون إلى المسجد ، ولكن ماذا يقال فى قتلة عيسى وقد وفدوا إلى هذا المسجد ؟

وفى البداية وفد إلى الشام عمرو بن العاص ثم جاء أبو عبيده بن الجراح لإتمام الصلح ، فاشتُرِط أن يكون الخليفة عمر حاضراً هذا الصلح ، فحضر عمر عام ١٧ هـ .

كما أن أهل الروم يفدون إلى المكان لزيارة كنيسة بيعة القيامة .

ويوجد فى الوادى بالجهة الشرقية مغادرة واسعة بها عدة درجات وبها ساحة دائرية شبيهة بمغارة تحت صخرة ، وسقفها منخفض وقد نحت فى جانبها الشرقى طاق ، وبها قبر يعرف باسم قبر مريم .

جبل الزيتون :

وفى متن الوادى عدة حجرات حجرية وقبور العظماء، ومن المعروف أن هذه الأماكن كانت فى الأزمنة السالفة غاصة بأشجار الزيتون لذا أطلق على هذا الجبل «جبل الزيتون» .

ويوجد أعلى جبل الزيتون خانقاه يقال إنها كانت موضع عروج الرسول ، وعن المعراج حدث كلام كثير فمن قائل بأنه كان بالجسد ومن قائل بأنه كان بالروح .

وما أكثر الكنائس والمعابد والأديرة ببيت المقدس ، سواء وسط المدينة أو على جانبى الشارع المعروف باسم «ويادلورزا » (معبد الآلام والأحزان) وقد اشتريت من أحد المحلات بمدخل الفندق سبحة مصقولة من الحجر الأزرق الطيب الرائحة ، وكذلك عدة سبح من الصدف ، والتى زينت بالورد والرسوم الجيدة .

* * *

بعد أن أنهى مهد يقليخان حديثه عن بيت المقدس ووصفه لجبل الزيتون توجه إلى بيت لحم وغيرها من مدن فلسطين والشام ، مما يخرج عن مجال حديثنا . ونلاحظ إن مهديقليخان قد اهتم بذكر الإشارات التاريخية السريعة كذكره لأسماء بيت المقدس عبر عصور مختلة، وكذلك لمحات عن تاريخ المدينة وتعرضها لغزوات بخت نصر والحملات الصليبية، وما لحق بها من دمار خلال هذه الهجمات وغيرها، وما أصاب سكانها من العرب من عنت وشدة نتيجة لحملات المعتدين على المدينة، هذه الحملات التى مازالت تتعرض لها القدس العربية على يد المعتدين الإسرائيليين، ولكن الله كان حاميها فى كل ما مضى، وإن شاء الله سيحميها الآن من المعتدين الجدد، وتعود القدس إسلامية عربية مرة أخرى، وتعود عاصمة لفلسطين المحررة.

أما وصفه للمدينة فلا يقارن على الإطلاق بما أورده ناصر خسرو فى رحلته، وإذا كان ناصر خسرو قد قدم وصفًا تفصيليًا لكل ما شاهده وما سجله، فإن مهدى

قليخان قد تحدث عن بعض الخواطر وبعض الإشارات التى ربما سمعها من سكان المدينة، أو كان قد قرأ عنها فى كتب التاريخ قبل مقدمه إلى بيت المقدس؛ لذا جاءت أحاديثه هامشية متفرقة لا عمق فيها، وكما قلت فى تعليق عن رحلته إلى مكة والمدينة بأنها كانت رحلة ترفيهية أكثر منها دينية، فقد كانت رحلته إلى بيت المقدس ترفيهية كذلك، ليس الغرض منها تقديم صورة حقيقة للمكان أو للزمان بقدر ذكر بعض الانطباعات السريعة والأخبار غير الموثقة.

* * *

وهكذا يظل كتاب (سفرنامه) لناصر خسرو الكتاب الأول من كتب الرحالة الإيرانيين الذين سجلوا انطباعاتهم ومشاهداتهم بالأماكن الدينية المقدسة الأولى فى العالم الإسلامى ألا وهى الحرم المكى، ومسجد الرسول الكريم بالمدينة والمسجد الأقصى ببيت المقدس حفظها الله جميعا وطهر المسجد الأقصى مِن كل دنس وحرره من المعتدين على قدسيته فى كل عصر، سواء كانوا من الصليبيين أو من الإسرائيليين!.

الفصل الثامن

من الأدب الفارسى الحديث

من الأدب الفارسى الحديث

١- الحمد والثناء :

اتسم الأدب الفارسى الحديث بالتنوع والسعة، فقد دخلت إلى مضمار الأدب الحديث فنون جديدة كالقصة القصيرة والرواية والمسرحية والمقال إلى جانب الفنون الأدبية التى كانت متداولة عبر عصور الأدب السابقة من مثنويات وقصائد وترجيعات فى مجال الشعر، وحكايات وتقارير وأدب رحلات وغيرها من فنون النثر، ولكن يلاحظ على الأدب الحديث الميل إلى الاختصار والدخول مباشرة فى الموضوع دون الإسهاب فى المقدمات التقليدية التى كانت تدبج بها صفحات عديدة فى مطلع كل عمل أدبى نثرًا كان أم شعرًا، وخاصة أن هذه المقدمات كانت تشمل غالبًا الحمد والثناء لله عز وجل، ثم نعت الرسول الكريم محمد عليه السلام، وبعدها يأتى مدح الخلفاء الراشدين وبيان فضلهم وعظيم مكانتهم فى الإسلام ولدى المسلمين.

وقد جاء الأدب الحديث خاليًا من هذه المقدمات المطولة، وجاءت الأعمال الأدبية مباشرة فى تناولها لأى موضوع، لذا فإن مشاركة جميع الأدباء فى النظم أو الكتابة فى الحمد والثناء والنعث قد قلت بشكل واضح وملموس، ومع هذا فلم يخل الإنتاج الأدبى الحديث فى صلب المتون من حمد لله عز وجل وثناء وشكر على عظيم نعمائه، وقد جنحت هذه الإبداعات إلى ربط الثناء والشكر لله عز وجل بما يدور فى العصر الحديث من أحداث ومشكلات، واتسمت هذه الإبداعات بروح المعاصرة، ولم تجعلها تكرارًا لما كان موجودًا ومألوفًا عبر قرون سابقة عديدة، ومن هذه الإبداعات الجديدة

مانظمته الشاعرة مهكامه محصص[١] من حمد لله عز وجل وثناء على جميل نعمائه ثم ربطت هذا بما يحدث فى العالم من حروب ودمار وخراب، وقد خربت ذمم الآدميين وتناسوا أنهم أبناء آدم جميعًا، وأن المودة فى القربى يجب أن تسود علاقات هؤلاء الأبناء جميعًا، ولكن الأمانى شىء وما يحدث فى الحياة من واقع مؤلم وعراك وخصام وحروب عالمية نشرت الخراب والدمار والقتل والتشريد، كل هذا شىء آخر، جعل البشرية تفقد الهدف الأصلى من وجودها وهو عبادة الله وحده، وتعمير الكون لاتدميره، وقد جاءت قصيدة مهكامه محصص فى واحد وأربعين بيتًا، أكتفى بذكر نصف هذا العدد تقريبًا:

قصيدة فى مدح الله خالق الدنيا، والشكوى من الزمان

- لقد خلق صاحب الذات الإلهية البشر سواسية،

إذ هو مشيد قصر المساواة وبناية العدل.

- الخلق سواسية فى مصنع خلقه،

فقد خلق البشر جميعًا من جوهر واحد، سواء فى ذلك العالى أو الدانى.

- لا يمكن أن يلحق نقص أو عيب بصنع هذا الصانع،

(١) مهكامه (محصص) الكاتبة والمتحدثة والشاعرة الجيدة التى قضت معظم سنى عمرها فى تعليم النشء وإلقاء المحاضرات وتكوين المجامع الأدبية، وهى من أهالى جيلان، وكان والدها مالكًا لأحد المعاهد العلمية بجيلان وكانت أمها كاتبة مجيدة ورسامة متميزة. وقد ولدت مهكامه عام ١٢٩١ ش (١٣٣٠ هـ = ١٩١٢م) وقد شاركت فى الحركة النسائية فى إيران عام ١٣١٤ ش (١٣٥٣ هـ = ١٩٣٥ م) بعدة مقالات تدعو فيها إلى ضرورة حق المرأة الإيرانية فى التعليم وقد تزوجت من ابن عمها وأنجبت منه أربعة أبناء. وقد نظمت مهكامه فى حدود خمسة آلاف بيت تتسم بالرقة والجزالة وحسن التعبير والتحديث فى الأغراض والفنون، انظر : مشير سليمى: زنان سخنور جـ ٢ ص ٢٧١ - ٢٧٥، طهران، چاپ دوم.

كما لايمكن أن تكون هناك ريبة أو شك في أمر الحق سبحانه.

- كل الوجود في العالم آيات لعظمته وسبحانه،

فإن تبغ إثبات وجوده، فابحث في آيات قرآنه.

٥ - كل الكواكب تستمد ضياءها من نور كوكب الحق،

كما أن الشمس تستمد نورها من بريق شمسه.

- وكل عين وضاءة، نفحة من طلعة مجلسه المنير،

وكل ذرة نورانية، هبة من شمس عالمه المزدان.

- إنني لا أنظم طوال عمري مدحًا في حق أي شخص،

إذ لا أمدح غير العادل سبحانه، وألهج بالثناء عليه.

- من يعرف كنه نفسه، يعرف كنه خالقه،

إذ الإنسان نفسه أعظم آثار خلقه.

- يتكون المجتمع من التآلف بين أفراده،

كما يتكون البحر العماني من اتحاد قطراته.

١٠ - لقد شيد الخالق منذ الأزل بناء الوحدة الإنسانية،

منذ أن خلق الرحمن جل جلاله، جميع الآدميين من طينة واحدة.

- وما أجمل ما قاله سعدي ملك الكلام في هذا المضمار:

" إن جميع بني البشر أعضاء جسد واحد".

- فإذا كان البشر جميعًا أعضاء جسد واحد،

فإن يتألم عضو، فسرعان ما يتألم الجسد كله ويضطرب.

- إذن، فلماذا يثير الإنسان هكذا الحروب والضغائن؟

ولماذا يضل طريق الحياة والسعادة، مما به من جهل؟

- لنبحث عن حل لجميع المشكلات بالتعاون والتآخى،

فبالتعاون والتآخى لن تكون هناك مشكلات، وسيسهل الحل!

١٥- بدلا من إضاعة الوقت فى الحديث عن الوداد والمحبة،

ليكن الحديث دومًا عن العلم والفضل والمعرفة والحرفة.

- ولكن ما أكثر الحديث الآن عن المدفع والدبابة والقنبلة والطائرة،

وعن السفينة والغواصة والمعدات الجهنمية.

- أيها البشر! لقد امتزج وجودكم الآن بالشر،

وإلا، فلماذا تثار هذه الحروب العالمية؟

- لقد خربت آلاف المدن، وعم الهلع والفزع أرجاء العالم،

حيث أصبح ملايين البشر قرابين لهذه الحروب.

- اجتهد - أيها الإنسان - فى أن يعم الصلح والصفاء،

إن كنت تأمل ألا يحيق الدمار والخراب من الحروب مرة أخرى،

٢٠- ولتفعل المعروف دائمًا، وكن خيرًا مع جميع الخلق.

إذ المصلح اسمه باق دائماً، وماعداه فان.

- وأنت أيتها المرأة، لتتزيني بجواهر منجم الفضل،

فهذه الجواهر أكثر ضياءً من جواهر أى منجم آخر![1]

(١) مشير سليمي: زنان سخنور، جـ ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٨، والأصل الفارسي لهذه الأبيات كما يلي:

چكامه دودر ستايش يزدان وآفرينش جان ونكوهش زمان

بيكسان آدمى آفريده ذات ربانى / شده كاخ مساوات وبناى عدل را بانى

بود دركارگاه آفرينش آدمى يكسان / بود آرى زيك گوهر بشر از عالى ودانى

نه نقص وعيب ميباشد بصنع صانع بيچون / نه شك وريب ميباشد به أمر حق سبحانى

همه آيات سبحان آند موجودات أين عالم / تو اثبات وجود أو بجو ز آيات قرآنى

٥- كواكب از فروغ كوكب حق است رخشنده / كه مهر از پرتو مهرش نمايد نور افشانى

ز چهر مجلس آرايش بود هر ديده بى روشن / ز مبهر عالم آرايش بود هر ذرهء نورانى

بعمر خو يشتن مدح وثنا از كس نميگويم / مگر دادار سبحان را كنم مدح وثنا خوانى

شنا سدار كسى خود را، خداى خويش بشناسد / كه إنسان است خود از بهترين آثار يزدانى

برأيد جامعة زا أفراد واز همد ستى آدم / چنان يك گل سرشته أدميرا رب رحمانى

١٠- بناى وحدت إنسان بنا كرد از ازل يزدان / چواز يك گل سرشته أدميرا رب رحمانى

بدين معنى چه خوش گويد خداوند سخن سعدى / بودند أعضاى يك پيكر همه ايناى إنسانى

بشر أعضاى هم تن با شندو گر عضوى بدرد آيد / سراسر كشور تن رونهد سوى پريشانى

چرا اكنون همين آنسان بدينسان جنگ وكين جويد / چرا گم كرده راه زندگانى را ز نادانى

تو حل مشكلات زندگى را جو ز يكر نگى / كه هر مشكل بيگرنگى نگردد حل بآسانى

١٥- بجاى آنكه صحبت از وداد آرند پيوسته / كنند از علم وفضل ودانش وصنعت سخنرانى =

ومن الذين تحدثوا عن لطف الحق تعالى مع عباده، الشاعرة پروين اعتصامى[1]، حيث أشارت إلى قصة إلقاء موسى عليه السلام فى النيل حتى لايأخذه زبانية فرعون كى يقتلوه، وكيف كانت أمه ملتاعة خائفة على موسى، ولكن عناية الله به كانت أكبر من رعاية أمه له، وقد طمأنها الله عز وجل على وليدها، وأنه سيرده إليها كى ترعاه وتشرف على تربيته حتى يصل إلى مرحلة النضج والاعتماد على النفس، وقد حقق الله عز وجل، وعده، وعاد يوسف إلى أمه، وهكذا تحقق قول الله عز وجل فى محكم تنزيله ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾[2]. وقدجاء هذا المثنوى فى ثلاثة وستين بيتًا، نكتفى بذكر ترجمة لبعض أبياته:

= بود صحبت همه از توپ وتانك وبمب وطياره ... ز كشتى وزتحت البحرى وآلات شيطانى

وجودت أى بشر گويابه شر آميخته أكنون ... وگر نه از چه رو برخاسته اين جنگ كيهانى

هزاران شهر ويران گشت ودنيا گشت آشفته ... كه ميليونها بشر گشته است دراين جنگ قربانى

در صلح وصفا ميكوب آبادى اگر خواهى ... كه از جنگ وستيز آخر نيايد غير ويرانى

٢٠- هميشه نيك باش وباعموم خلق نيكى كن ... كه نام نيك ماند باقى، وباقى همه فانى

ز كان فضل ايزن گوهر دانش بدست آر ... كه باشد گوهرش رخشنده تر ازگوهر كانى

(١) پروين اعتصامى. ابنة يوسف اعتصام الملك ولدت فى تبريز عام ١٢٨٥ ش (١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦م)، ثم انتقلت فى صغرها للعيش فى طهران مع أبيها، وبها قضت بقية عمرها. وقد التحقت بالمدرسة الأمريكية بطهران وبعد التخرج عملت معلمة بذات المدرسة، وكانت تجيد الإنجليزية والعربية إلى جانب الفارسية، وقد تزوجت من ابن عمها فى عام ١٣١٣ش (١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤م) ولكن لم يستمر هذا الزواج كثيراً. وقد خلفت لنا ديوانًا يضم قصائد ومثنويات وقطعًا ومقطعات وترجيعات. وقد غادرت الحياة وهى فى ريعان الشباب، وكان ذلك فى ١٥ فروردين ١٣٢٠ هـ ش (١٣٦٠هـ = ١٩٤١م) انظر : بديع محمد جمعة: پروين اعتصامى: صوت المرأة الشرقية فى إيران، القاهرة: ١٩٧٧.

(٢) سورة الشورى ، أية رقم ١٩.

- عندما ألقت أم موسى، بموسى في النيل، وذلك تلبية لأمر ربها الجليل،

- أخذت ترقبه من الساحل وكلها حسرة، وقالت : ياولدى الصغير الذى لم يرتكب أى ذنب.

- إن ينسك لطف الله، فكيف تنجو من هذه السفينة العديمة الربان؟

- وإن لايتذكرك الله الطاهر، فسيسلم الماء ترابك إلى الريح!

٥- فجاءها الوحى قائلاً: أى تفكير باطل هذا؟ إن السالك فى طريقنا يكون فى مأمن دائماً.

- فاطرحى عنك أردية الشك، حتى تدركى أخيْراً فعلت أم خطأ !

- لقد تلقفنا ما ألقيت به، وقد رأيت يد الحق ولكنك لم تعرفيها،

- إن كان ما لديك عشق الأم ومحبتها فقط، فلدينا العدل ورعاية عبيدنا،

- وليس اللعب هو أمر الحق، فلا تضيعى نفسك، إن ما أخذناه منك سنعيده إليك!

١٠- إن سطح الماء أفضل من مخدعه، حيث سيكون السيل مربيته والموج أمه

- فلا تنسبى النسيان إلى ذات الحق، إذ هذا ضرب من الكفر، فألقه عن كتفك؟

- فلتدعى لنا من ترقبينه، إذ متى كنت تحبينه أكثر منا؟[1]

(١) پروين اعتصامى: الديوان، الطبعة الخامسة تهران ١٣٤١ ش ص ٢٣٦، ٢٣٨.

= مادر موسى، چو موسى رابه نيل در فكند، از گفته‌ء رب جليل

ثم أخذت پروین تتحدث عن لطف الله عز وجل مع الرضيع موسى وكيف سخَّر البحر والصخر والرياح وكل الموجودات كي تكون في خدمته، وأن ترعاه حتى يرده الله سالمًا إلى أمه كي تقر عيناها، وتدرك أن وعد الله حق، وأن لطفه بعباده يفوق لطفهم ببعض، ومما قالته پروین في هذا الصدد؛ نذكر ترجمة لبعض أبياتها الواردة في نفس المثنوية "لطف حق":(١)

= خود زساحل كرد با حسرت نگاه
گفت كاى فرزند خرد بى گناه

گر فرا موشت كند لطف خداى
چون رهى زين كشتى بى نا خداى

گر نيارد ايزد پاكت بياد
آب، خاكت را دهد ناگه بباد

٥- وحى آمد كاين چه فكر باطل است
رهرو ما اينك اندر منزل است

پردهء شك را برانداز از ميان
تا ببينى سود كردى يا زيان

ما گرفتيم آنچه را انداختى
دست حق را ديدى ونشناختى

درتو، تنها عشق ومهر مادرى است
شيوهء ما، عدل وبنده پرورى است

نيست بازى كار حق، خودرا مباز
آنچه برديم ازتو، باز آريم باز

١٠- سطح آب از گاهوارش خوشتر است
دايه اش سيلاب وموجش مادر است

نسبت نسيان بذات حق مده
بار كفر است اين، بدوش خود منه

به كه برگردى، بما بسپاريش
كى تو از ما دوستر ميداريش

(١) نقص المرجع السابق، ص ٢٣٧، ٢٣٨.

بحر را گفتم دگر طوفان مكن
اين بناى شوق را؛ ويران مكن

صخره را گفتم، مكن با او ستيز
قطرة را گفتم، بدان جانب مريز

أمر دادم بادرا، كان شير خوار
گيرد از دريا، گذارد در كنار

سنگ را گفتم بزيرش نرم شو
برق را گفتم، كه آب گرم شو =

- قلت للبحر، لاتثر طوفانك مرة أخرى، ولاتدمر بناء الشوق هذا.

- وقلت للصخرة، لا تتعاركى معه، وقلت لقطرات المطر، لاتتساقطى بجانبه.

- وأمرت الرياح بأن تحمل هذا الرضيع من وسط المياه وأن تلقى به إلى الشاطئ.

- وقلت للصخر. لتكن لينًا ناعمًا تحته، وقلت للثلج، لتكن ماءً دافئًا معه!

٥- وقلت للصبح، لتبتسم في وجهه، وقلت للضوء، لتشع الحياة في قلبه.

- وقلت للنرجسة لتتفتحى إلى جواره، وقلت لقطرات الندى، لتغسلى محياه.

- وقلت للذئب، لاتمزق جسده، وقلت للص، لاتسرق أسورته.

- وقلت للحظ، لتمنحه السيادة والعظمة، وقلت للعقل لتمنحه الفطنة والذكاء.

- فمن يفعل هذا الإحساس مع النمرود، كيف يمكن أن يرتكب الظلم مع موسى بن عمران؟

١٠- إن هذا الكلام يا پروين، ليس ضربًا من الهوى، فحيثما يوجد نور فهو من أنوار الله!

= ٥- صبح راگفتم، برويش خنده كن — نور را گفتم، دلش را زنده كن

لاله را گفتم كه تزديكش بروى — ژاله را گفتم، كه رخسارش بشوى

گرگ را گفتم، تن خودش مدر — دزد را گفتم گلو بندش مبر

بخت را گفتم، جهانداريش ده — هوش را گفتم، كه هشياريش ده

آنكه با نمرود اين احسان كند — ظلم، كى باموسى عمران كند

١٠- اين سخن، پروين، نه از روى هوى است — هر كجا نورى است، ز انوار خداست

هكذا تحدثت پروين عن لطف الله بعباده، وأن كل ما يصيب الإنسان مقدر من الله عز وجل، ولايمكن لأى مخلوق أن يأتى بأى تصرف أو فعل إلا بإرادة الله عز وجل، وإذا كانت الشاعرة قد أشارت إلى حادثة عظيمة هى إلقاء يوسف فى النيل وكيف تلقفته عناية الله حتى أوصلته إلى بر الأمان، وأعادته ثانية إلى أمه، فإن المقصود من المثنوى هو أن عناية الله ترعى عباده على الدوام ماداموا مؤمنين بالله سبحانه وتعالى، بل إن عنايته ورعايته تشمل الجميع، العابد منهم والعربيد، لعل هذا الأخير يفيق إلى نفسه، ويكبح جماح شهواته، ويعود إلى جادة الإيمان المطلق بالله صاحب القدرة والتقدير، وأن يدرك هذا المتكبر المتجبر أن قدرة الله تفوق قدرته وجبروته، فيعود إلى حظيرة الإيمان أملاً فى أن يتقبل خالقه صالح أعماله، ويصفح عن سابق أفعاله السيئة، فهو اللطيف بعباده، القابل التوب، الغافر الذنب، سبحانه وتعالى الذى لاتحد قدرته حدود، ولاتقف أمام أوامره أية حواجز أو قيود!

* * *

ومن الذين ابتهلوا إلى الله عز وجل فى أشعارهم، وسألوه الصفح والغفران حيث لا ملاذ للإنسان إلا باللجوء إلى خالقه، صاحب القدرة المطلقة والهمة اللانهائية، وأن الجميع مقرون بربوبيته، وأنهم جميعاً عبيد لله عز وجل. إنها السيدة حشمت درويش(١) "الشاعرة المعاصرة"، ومن بين مانظمته فى هذا المضمار غزلية بعنوان "خدا" أى "الله"، ومما قالته فى هذه الغزلية ماترجمته:

---

(١) السيدة "حشمت درويش" المتخلصة بأحد هذين الاسمين ولدت عام ١٣٠١ش (١٣٤٠ هـ= ١٩٢٢م) فى سنندج، ولكنها من أهالى مازندران، كان والدها فضل الله درويش من الذين أنهوا دراساتهم فى مدرسة سان لويس بطهران، وعمل كرئيس للحسابات ونائب لمدير البنك الوطنى فى إيران، وقد سافرت حشمت إلى معظم مناطق إيران وكذلك إلى العراق بصحبة والدها نتيجة تنقلاته فى العمل،ومع أنها مازندرانية الأصل؛ إلا أن ولادتها كانت فى سنندج أثناء عمل والدها بهذه المدينة. وقد أكملت تعليمها بطهران بمدرسة الفنون النسائية وإلى جانب ذلك أجادت الفرنسية وبعض الإنجليزية، وقد نظمت عدة آلاف من الأبيات فى أغراض عدة. وإلى جانب تميزها فى الشعر فقد كانت لها بعض الأعمال الفنية وفقا لدراستها الفنية فى المدرسة الثانوية.

انظر : [زنان سخنور، جـ ٢ ص ١١٥-١١٧].

- إن صدرى بلاط لحشمتك، وقلبى محرم لزيارتك.

- وكل من يلهث فى إثر مقصوده، سيجد حاجته عند الإقرار بالعبودية لك.

- ومن يضل طريقه فى ظلمه الليل، ستكون شمس طلعتك دليلاً له وهاديًا.

- كم أتأوَّه أملاً فى عونك، وأعظم أمل أرجوه، رحمتك!

٥- كل الخلائق من جماد ونبات وحيوان تتطلع جميعها دائمًا إلى ألفتك ومودتك.

- فالعربيد والعابد والعالم والجاهل، تتعلق عيونهم جميعًا بأعتاب عنايتك.

- وقصر الفردوس وبلاط الجلال، كلها شاهدة على قدرتك.

- وكنز قارون وعظمة بلقيس، كلها ذرة من مقدار همتك.

- أنت منبع الجود والعطاء والسخاء، لمن هم جميعًا عبيد حضرتك.

١٠- أما قلب "درويش" الضعيف المستكين، كم يسعد بالتجوال فى مضمار روضتك[1].

* * *

(١) زنان سخنور، جـ ٣ ص: ١١٧-١١٨.

خـــدا

= سينه أم بارگاه حشمت تست | دل حرمانهء زيارت تست

وهكذا كان شعراء الفارسية وشويعراتها فى العصر الحديث يتابعون سابقيهم فى نظم القصائد والقطع والغزليات وغيرها من فنون الشعر، فى الابتهال إلى الله عز وجل، وتقديم الشكر على جزيل نعمائه وعظيم كرمه، وكانت أشعارهم هذه تنظم لذاتها، وليست كمقدمات لمنظومات تتحدث عن أغراض أخرى غير الابتهال والشكر، كما كان فى الماضى، مما يؤكد عمق الصلة بين الأدباء والشعراء الفرس وخالقهم مهما تعاقبت السنون وتبدلت الأجيال، إذ أن الدين الإسلامى يربى معتنقيه على الإيمان والتعلق بالذات الإلهية واللجوء إلى الخالق البارئ المصور كى يعينهم - وهم عبيده - فى شتى شئون الحياة، وبخاصة فى الملمات.

أنكه وامانده در پى مقصود	حاجتش بندگى حضرت تست
وآنكه درشام تيره گمشده راه	رهروانش ز شمع طلعت تست
كم كمك ناله أم شود فرياد	أى توانگر أميد رحمت تست
٥- از كران تاكران جماد ونبات	حيوان را نظر بالفت تست
رند وصوفى وعالم وعامى	چشم بر درگه عنايت تست
قصر فردوس بارگاه جلال	أينهمه شاهدى ز رت تست
گنج قارون وشوكت بلقيس	ذره بى از حساب همت تست
منبع جود ومكنت وبخشش	خاصهء از بوستان نزهت تست
دل (درويش) مستمند ضعيف	خرم ازبوستان نزهت تست

٢- نعت الرسول:

وإذا كان نعت الرسول الكريم قد ورد كقاسم مشترك فى معظم المثنويات الفارسية التى نظمت فى إيران منذ العصر الغزنوى حتى العصر التيمورى وما بعده، فإن هذا النعت قد وجد أيضاً فى أشعار وأقوال الشعراء والأدباء فى العصر الحديث، وإن كان أقل بكثير مما كان عليه الأمر قبل ذلك. ولكن مهما قل أو كثر، فهو موجود وبخاصة ما كانوا ينظمونه أو يكتبونه فى مناسبة الاحتفال بمولد الرسول الكريم عليه السلام، وممن نظموا فى هذه المناسبة الكريمة الشاعر محمد تقى بهار[١]: حيث نظم مسمطاً فى ذكرى مولد الرسول عليه السلام عام ١٣٠٨ هـ، س (١٣٤٦ ق)، ومما قاله ماترجمته:

المولد النبوى

- فى هذا اليوم وضع رب الوجود على مفرق (الرسول) تاج لولاك !

- فى هذا اليوم سمعت أذن خاتم الأنبياء، "لولاك ماخلقت الأفلاك".

- فى هذا اليوم أشرقت شمس الأزل، فأضاءت البسيطة كلها.

فى هذا اليوم، بمقدم هذا المعظم

شيدت أركان الوجود

- فى هذا اليوم أسبغ الله على الدنيا لطفاً، لم يسبغه عليها من قبل.

---

(١) محمد تقى بهار (١٨٨٧ - ١٩٥٢ م) آخر من تلقب فى إيران بملك الشعراء، ولد بمشهد وورث من أبيه منصب شاعر العتبات بمشهد، ولكنه هجر الوظيفة بعد أن اشتعلت نار المطالبة بالحياة الدستورية فى إيران، فانضم إلى الثوار، وكان من نواب المعارضة فى البرلمان الإيرانى بعد ذلك، حتى أنه دبرت محاولة لاغتياله فى المجلس، ولكنه نجا منها. وقد تقلد عدة مناصب بجامعة طهران ثم وزيراً للمعارف. وقد خلف العديد من المؤلفات أهمها سبك شناسى وتاريخ مختصر أحزاب سياسى إلى جانب ديوان كبير يقع فى مجلدين ضخمين (انظر لغت نامه - شعراء معاصر إيران رخلخالى. كنج سخن وغيرها).

- والنور الذى كانت مشيئته تخفيه، قد بدا اليوم واضحًا جليًا.

- إذ بُعث معلم الوجود، مزودًا بآلاف المعجزات.

إنه نبى آخر الزمان خاتم الأنبياء

ذلك النور القديم الذى لا حد له

- يا من حكمتك معلمة للكون، ويا من استمدت جميع الكائنات وجودها من وجودك.

- يا من أصبحت عونًا لتربية الزمان، ويا من أصبحت سندًا لخليقة الدهر.

- بدونك تلون الحق عدة ألوان، ولكن بشرعك تبدد كل هذا الأمر.

يا من ظلك وحدبك ممتدان عبر الزمان

إن أمتك قد أصابتها الذلة والهوان

- لقد سلب أعداء الدين ما كان للمسجد من حرمة ومكانة.

- وكسوا وجوه دار العبادة بالأتربة والأشواك.

ولم يعد لنا غير السفسطة، حيث أحلوا الأوهام والخرافات محل المعرفة والإدراك.

وأصبح إبليس هادينا ومرشدنا

وأصبحنا بقيده مكبلين[1]:

(١) ديوان بهار، جـ ١، ص ٥٠٢، ٥٠٤. =

وهكذا ربط بهار بين الاحتفال بالمولد الكريم، وكيف كان مولده نعمة وخيراً على الأمة الإسلامية وعلى العالم أجمع، وبين رجال العالم الإسلامى قبل الحرب العالمية الثانية، وما تعانيه من ضعف وخور وانكسار لكثرة الأعداء فى الداخل والخارج، وكيف أن العالم الإسلامى وبخاصة إيران قد انحرفوا عن الطريق السوى الذى بعث من أجله

مولوديه

امروز خدا يگان عالم — برفرق نهاد تاج لولاك
امروز شنيد گوش خاتم — لولاك لما خلقت الأفلاك
امروز ز شرق، اسم أعظم — مهر ازلی بتافت برخاك

امروز ازين خجسته مقدم
اركان وجود شد مشيد

امروز خداى يا جهان كرد — لطفى كه نكرده بود هركز
نورى كه مشيتش نهاد كرد — امروز پديد گشت وبارز
آورد ومربى جهان كرد — يكتن را با هزار معجز

پيغمبر آخر الزمان كرد
نورى كه قديم بود وبيحد

أى حكمت تو مربى كون — وى از تو وجود هر چه كائن
أى تربيت زمانه را عون — وى خلقت دهر را معاون
بيروى تو كشته حق بصد لون — با شرع تو گشته دين مباينس

بر ملت تواست ذلت وهون
أى ظل تو بر زمانه ممتد

حرمت زمزار ومسجد ما — بردند معاندين دين، پاك
پوشيده رخ معابد ما — از غفلت وجهل، خاك وخاشاك
جز سفسطه نيست عايد ما — كاوهام گرفته جاى ادراك

ابليس شده است ها دى ما
ما گشته بقيد أو مقيد

محمد عليه السلام، وأمام هذا التقاعس أصبح إبليس صاحب السيادة وصاحب الكلمة، فياليت المسلمين يتذكرون قول الله عز وجل:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾(١)، فأين نحن الآن من الرعيل الأول من الصحابة والتابعين؟! أولئك هم الذين عملوا بما أرسل محمد عليه السلام، فكانوا سادة العالم وحكامه.

ومن القصائد الجديدة التى نظمت فى نعت الرسول عليه السلام، قصيدة الشاعر أيرج ميرزا،(٢) والتى اعتبر فيها أن حب الرسول عليه السلام خير زاد للإنسان فى رحلته إلى العالم الآخر، وهذه ترجمة لبعض أبياتها:

فى نعت النبى الخاتم

- ليس عاقلاً من يجعل عمره القصير متعلقا بطول الأمل فى هذه الفانية.

- وأن يطوق عنق روحه بحبل من طول الأمل، إذ سيمتد هذا الحبل حتى يوم القيامة!

- فلتبحث عن الخلاص من هذا الحبل قبل فوات الأوان، واطلب الخلاص من ربقته.

- أجمِل بمن حرر روحه من ربقة هذا الحبل، وقد آمن بتقدير ذى الجلال.

---

(١) آل عمران، آية ١١٠.

(٢) أيرج ميرزا (١٨٧٤-١٩٢٦م) أحد أبناء الأسرة القاجارية الحاكمة فى ذلك الوقت، أتاحت له ظروفه الاجتماعية أن يتعلم اللغات الأجنبية وبخاصة اللغة الفرنسية، وقد تقلد بعض المناصب المالية فى الدولة ولكنه آثر الاعتزال فى نهاية حياته، وتحول بيته إلى صالون أدبى، إلى جانب ديوانه الشعرى نظم قصة زهرة ومنوچهر على غرار فينوس وأدونيس لشكسبير، كما نظم عارف نامه، حيث هاجم فيها الشاعر عارف القزوينى لتطاوله على الأسرة القاجارية، ويعتبر شعره من أرق مانظم فى النصف الأول من القرن العشرين فى الأدب الفارسى.

(راجع مقدمة الديوان، والتى كتبها محمد جعفر محجوب، الطبعة الثالثة عام ١٣٥٣ ش).

٥- وخلص نفسه من منة الوضيع أو الشريف، وأنقذ روحه من الخجل من الكريم أو البخيل.

- فكن كالخليل متوكلا على ذى الجلال، حتى تحرر روحك كالخليل من نار الغم.

- إن يكن الحق نصيرك، فنعم النصير! وإن يكن الحق وكيل أمرك، فنعم الوكيل.

- لاتكن رهينًا لأى شخص طلبًا للرزق، فهو - أى الله - المتكفل برزق الجميع.

- فهو كماوهبك الروح، سيهبك الرزق، فلماذا تذل روحك الغالية من أجل فان؟

١٠- أنّى يكون لك جمال الصورة فى الغد، إذا لم تكن جميلة سيرتك اليوم!

- أنت لا محالة مسافر، ولابد لك من زاد، فالزاد ضرورة لكل إنسان وقت الرحيل.

- ولكن أى زاد أفضل من حب الرسول، لأن الولاء له خير دليل يقدمه الخلق للعزيز القدير.

- ليس له ظل ولكن رحمته وعطفه، ظل ظليل على رءوس الضعفاء والمساكين.

- وقد ورد نعته كاملاً فى الفرقان، كما جاء تمام وصفه فى الإنجيل.

١٥ - وتدلت من قصر عظمته تسعة أفلاك، كما تدلت القناديل من قصور الأكاسرة[1]

- وفيما يتسم به من خلق طيب وصفات جميلة وخلقة بديعة؛ لم يخلق الله شبيهًا له ولا عديلاً!

* * *

(١) الديوان، ص ٣٥. ٣٦.

در نعت نبی خاتم

نه عاقل است گه دارد در أين سرای رحيل — قصير عمر خود اندر اميدهای طويل
نهد به گردن جان رشته يی ز طول أمل — كه تا قيامت آن رشته را بود تطويل
مناص جو يی ازاين رشته لات حين مناص — خلاص خواهی از ين عقده لاعليك سبيل
خوش آن كه بگسست اين رشتهء اميد زجان — نهاد بر كف تقدير كرد گار جليل
٥- رهاند خودرا ز منت وضيع وشريف — نجاد داد هم از خجلت كريم وبخيل
خليل وار توكل به كردگار نمای — كه تا رهاند از آتش غمت چو خليل
نصير جان تو چون حق بود، فنعم نصير — وكيل كار تو چون حق بود فنعم وكيل
رهين هر كس ونا كس مشوپی روزی — چو او به روزی هر ناكس وكس است وكيل
همان كه أو به توجان داد، نان دهد چه كنی — ز بهر فای جان عزيز خوار وذليل
١٠- جمال صوت فردا كجا ترا باشد — اگر نباشد امروز سيرت تو جميل
مسافری تو وناچار بايدت زادی — كه زاد بايد مر مرد را به گاه رحيل
كدام زاد نكوترزحب پيغمبر — كه خلق راسوی ايزد ولايی اوست دليل
نداشت سايه ولی رحمت وعطوفت أو — فتاد گان رابر سر فكنده ظل ظليل
بود سر اسر نعتش هر آنچه درفرقان — بود تمامی وصفش هر آنچه در انجيل
١٥- زكاخ خسرويش نه سپهر زنگاری — معلق است چوازكاخ خسروان قنديل
ز خلق نيك وصفات جميل وخلق بديع — نيا فريدش ايزد همال وشبه وعديل

وهكذا نصح أيرج ميرزا الإنسان المسلم بألا يعيش فى عالم الأوهام، معتمداً على آمال وأحلام بعيدة عن عالم الواقع، وأن يكون إيمان المسلم بتقدير ذى الجلال والإكرام راسخًا، ومادام الإنسان يرجو رحمة ربه وعطفه، فإنه لن يسعى إلى وضيع أو شريف طلبًا لكسرة خبز أو طمعًا فى زيادة رزق، فالله سبحانه هو الرزاق الوهاب وهو الذى يرزق السائل والمسئول من البشر، ومادامت نعمة الخالق البارئ تغطى الجميع، فيجب على الإنسان المسلم ألا يسأل أحداً إلا الله عز وجل، وإلى جانب إيمان المسلم بالقدرة الإلهية فهو مطالب كذلك بحب الرسول عليه السلام، لأن حبه خير زاد يتزود به الراحل عن هذه الدنيا الفانية، حتى يكون الرسول الكريم شفيعه يوم القيامة، كما وصف الشاعر محمداً عليه السلام بأن الله قد أمده بكل الصفات والسجايا الحسنة التى لم تعط لغيره، قبله أو بعده، كما أنه وصف محاسنه وسماته التى وردت فى القرآن الكريم، وأنها وردت قبل ذلك فى الإنجيل وكذلك فى التوراة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾(1) وقد كان الرسول عطوفًا رحيمًا، حيث أرسله الله عز وجل رحمة للعالمين جميعًا وهاديًا ومبشراً، فقد قال الله فى حقه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(2).

---

(1) الأعراف، آية : ١٥٧.

(2) الأنبياء، آية ١٠٧.

٣- الحديث عن بعض المقدسات الإسلامية:

ومن الشعراء المعاصرين الذين تحدثوا عن المقدسات الإسلامية ودورها فى بناء البشرية الشاعر عباس شهرى[1]، الذى تحدث عن القرآن الكريم ودوره فى هداية البشرية، حيث جاءت أحكامه خير هاد فى طريق الإيمان والتوفيق، ولو أحسن الناس فهم القرآن وأحكامه وعملوا بها، لأصبحت الدنيا بأسرها روضة من رياض الجنة، ولعمّ السلام والوئام، ولكن ما حدث غير هذا، حيث نسى البعض من ضعاف الإيمان أحكام القرآن، فسيطرت عليهم الأحقاد والضغائن، واشتعلت الحروب وعم الخراب والدمار، فياليتهم يعودون إلى فطرتهم التى فطرهم الله عليها، ويدركون ما فى القرآن الكريم من هداية وإرشاد يأخذ بأيديهم نحو حياة سعيدة رغدة، ومما قاله عباس شهرى ما ترجمته:

القرآن الكريم

- الحمد لله الوهاب، من ذاته خالدة، ومن عاداه فان!

- لقد وهبنا الشريعة والإيمان، فى كتاب مبجل هو القرآن.

- إنه الكتاب الهادى للحق، الكتاب الذى جاء بشريعة الرسالة.

- الكتاب المنقذ من الضلال، مفتاح باب حدائق الجنان.

* * *

(١) عباس شهرى : ولد عام ١٣٨٩ ش (١٣٢٨ هـ = ١٩١٠م) بقرية شهر ستانك من توابع طهران وقد عده سعيد نفيسى من أعظم الشعراء المعاصرين، وقد كان شهرى مهتماً بالنظم فى الأغراض المتعلقة بهموم الناس وآلامهم، حيث كان يعتقد أن مهمة الشاعر تبصرة الناس والأخذ بأيديهم إلى حياة أفضل، لا كغيره من هواة التمويه والغموض، وأن الشاعر يجب أن يكون رقيق الحاشية، ومن المتقربين إلى الله بشعرهم حتى يلهمهم المعانى النبيلة والأفكار الرشيدة.

(تذكره شعراى معاصر جـ ٢، ٢٠١).

- هذا الكتاب السماوى، المصباح الكاشف للطريق، الأكثر ضياءً من الشمس.

- وهو واهب الضياء لروحك وقلبك، والمنتزع من نفسك الطبيعة الشيطانية.

- فلتهتد بالقرآن، حتى تكون صادقًا، إذ القرآن وحى من الله القادر.

- وبالقرآن أصبح الرسول هاديًا لك ومرشدًا، وتضافرت فى ذلك أحكام الله وأحاديث محمد.

* * *

- لو أحسن الخلق اتخاذ القرآن مرشدًا وهاديًا، لأصبحت الدنيا بأسرها جنة فيحاء!

- ولكن ما أن أشحنا بوجوهنا بعيدًا عن القرآن، حتى أصبح نصيبنا الفشل بدلاً من التوفيق.

وما أن أصبح شعار الجميع الحقد والحروب

فسرعان ما ضاقت بنا جنبات العالم![1]

---

(١) تذكرهٔ شعرای معاصر، جـ٢ ص ٢٠٠-٢٠١

قرآن پاك

سپاس خدائى كه بخشنده أوست	همه فانى وذات پاينده أوست
عطا كرد آئين وايمان مرا	گرامى كتابى چو قرآن مرا
كتابى كه مارا بحق رهبراست	كتابى كه قانون پيغمبراست
رهانندهء ماز أعمال زشت	كليد در بوستان بهشت
براه تو اين أسمائى كتاب	چراغيست روشنتراز آفتاب
ببخشد بجان ودلت روشنى	بگيرد ز تو خوى اهريمنى
بقرآن گرا تاشوى رستگار	كه قرآن بود وحى پرور دگار =

وهكذا ربط الشاعر بين مايدور فى عالمنا الحديث من حروب ودمار، وبخاصة تلك الحروب التى تثار بين بلدان العالم الإسلامى، وبين مانحن فيه من عدم الامتثال لأحكام القرآن الكريم الداعية إلى الإخاء والمساواة والمحبة بين جميع الشعوب وبخاصة بين أمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله، تلك الأمة التى شرفها الله بأن أنزل فيهم القرآن الكريم، فياليتهم يرجعون إلى القرآن حتى يعيدوا بناء نفوسهم على المحبة والإخاء ونبذ الحروب والضغائن.

ومن المناسبات الإسلامية التى يحتفل بها المسلمون كل عام، ليلة القدر، لما لها من منزلة كريمة فى نفوسهم وفى عقيدتهم، وقد أشاد بها ملك الشعراء محمد تقى بهار مبينًا مكانتها، وأنها – كما جاء فى القرآن الكريم – خير من ألف شهر، وأنها ليلة سلام حتى مطلع الفجر. ومما قاله، ما ترجمته:

ليلة القدر

- يا ليلة القدر وياخزانة الأجر، سلام عليك حتى - مطلع - الفجر.

- طلعتك البهية أساس كل وصل، وذؤابتك مبددة لكل هجر.

- قلبك الطاهر هو الماء الزلال لأى نبع فياض، وحديثك مفتاح لمخزن الأجر.

أنت واهبة النور ومبددة الألم

أنت أفضل من مائة ألف شهر

= زقرآن نبى شد ترا رهنماى ... چه حكم محمد چه حكم خداى

اگر رهبر خلق قرآن بدى ... سراسر چهان چون گلستان بدى

ز فرمان قرآن چو رخ تافتيم ... بجاى خوشى ناخوشى يافتيم

شعارهمه كينه وجنگ شد

بما عرصه زندكى تنگك شد

- لقد ألمت بى حرقة فراقك، فلا تشيحى بوجهك عنى أنا المكلوم.

- لقد رأيت مطلع - الفجر - من رؤيتك، حيث استمدت الشمس ضياءها منك؛ أيتها الليلة!

- لقد أصبح وصالك أيتها الليلة لى حلالا، والنوم فيك أصبح على حراماً!

عجباً للمحب كيف ينام

كل نوم على المحب حرام[1]

أما پروين اعتصامى فقد تحدثت عن الكعبة المشرفة ومكانتها لدى المسلمين، وقد تمثلت أن الكعبة تحدث نفسها فى يوم عيد الأضحى المبارك، ومما قالته الكعبة، ماترجمته:

---

(١) ديوان ملك الشعراء بهار، جـ١ ص ٢٧٢.

شب قدر

اى شب قدر واى خزانهء اجر	وسلام عليك حتى الفجر
رخ خوبت بنا كنندهء وصل	زلفت فنا كنندهء هجر
دل پاكت زلال چشمهء فيض	دم صحبت كليد مخزن اجر

نور بخش ورخ كاهى تو

بهتر از صد هزار ما هى تو

شدم ز فرقتت بتاب اى شب	از من خسته، رخ متاب أى شب
مطلع ديده أم زديدن تو	شده پر نور آفتاب اى شب
وصلت اى شب بمن شده است جلال	گشته برمن حرام خواب اى شب

عجباً للمحب كيف ينام

كل نوم على المحب حرام

- وقت الإحرام، يوم عيد النحر، حدثت الكعبة نفسها على هذا المنوال :

- إننى مرآة نور ذى الجلال، كما أننى عروس محفل الوصال.

- لقد شيدتنى يد خليل الله، وكرمنى الله ورفع من قدرى.

-ولا يوجد فى ربوع العالم كله، مكان سعيد طاهر مثلى.

٥- ولاتوجد ساحة مشرقة مثل محفلى، ولايوجد قصر آمن مثل مبناى.

- أساس إقليم الإرشاد مستمد منى، وعمد بناء الشوق منى كذلك.

- أبدو فى الصورة قبلة الأحرار، ولكننى فى المعنى حامية الضعفاء.

- كل حجر وطينة وقشة من هذه الأعتاب، تسجد لله فى كل آونة.

- ويردد الباب والسقف هنا قولة "أنا الحق"، كما تلهج بالشكر جميع الأجسام والأجرام.

١٠- وهنا يسبح الملائكة، حيث يقولون كلامًا بالمعنى دون لسان.

- ليس مسموحًا هنا امتشاق الحسام، وليس لشخص أن يعارك آخر.

- وليس فى هذا الجانب شباك أوصياد، فالصياد فى إجازة، والطيور حرة.

- ما أجمل ذلك المبدع الذى خلط هذا الماء والطين، وما أبهى ذلك المعمارى الذى شيد هذا البناء.

- وما أسعد هذا الخياط الذى خاط تلك الكسوة المذهبة، وما أعظم هذا التاجر الذى باع هذه الحلة.

١٥- الشخص الذى تطهرت كعبة قلبه، أنَّى له أن يخاف الدنس والآثام؟[1]

اعتبرت الشاعرة پروين الكعبة قلب هذا العالم، والمحور الذى تدور حوله قلوب جميع المسلمين، والمكان الذى يفوق كل أرجاء الدنيا عظمة ومكانة، وكل ما بالمكان يسبح بحمد الله وعظمته، يتساوى فى ذلك كل الكائنات وكل المخلوقات، بل يشاركهم فى هذا الملائكة دون لسان أو لغة، وأن الكعبة المشرفة مكان سلام ووئام، إذ لايسمح

(١) ديوان پروين اعتصامى، ص: ٢٠٠-٢٠٢.

كعبهء دل

گه احرام، روز عيد قربان — سخن ميگفت باخود كعبه، زينسان
كه من مرآت نور ذو الجلالم — عروس پردهء بزم وصالم
مرادست خليل الله برافراشت — خداوندم عزيز ونامور داشت
نباشد هيچ اندر خطهء خاك — مكانى همچو من، فرخنده وپاك
٥- چو بزم من، بساط روشنى نيست — چو ملك من، سراى ايمنى نيست
اساس كشور ارشاد، أزماست — بناى شوق را، بنياد از ماست
بصورت، قلبهء آزاد گانيم — بمعنى، حامى افتاد گانيم
درين درگاه، هرسنگ وگل وكاه — خدارا سجده آرد، گاه وبيگاه
"أنا الحق" ميزنند اينجا، در وبام — ستايش ميكنند، اجسام واجرام
١٠- در إينجا عرشيان تسبيح خوانند — سخن گويان معنى، بى زبانند
در اينجا رخصت تيغ آختن نيست — كس را دست بر كس تاختن نيست
نه دام است اندرين جانب، نه صياد — شكار آسوده است وطائر آزاد
خوش آن استاد، كاين آب وگل آميخت — خوش آن معمار، كاين طرح نكو ريخت
خوش آن درزى، كه زرين جامه ام دوخت — خوش آن بازار گان، كاين حله بفروخت
١٥- كسى كاو كعبهء دل پاك دارد — كجا از آلودگيها باك دارد؟

لإنسان مهما كان أن يحمل فى رحابها سلاحًا، كما لايسمح بالصيد فى ساحتها، ولذا ترى الحمام والطيور تلتقط الحب من أرضها، أو تحلق فى سمائها، دون أن يتعرض لها أحد بالإيذاء، فالكل فى مضمارها آمن طاهر مشغول بتسبيح الله وشكره، ويا ليت قلب الإنسان الذى يتوسط الجسد، كما تتوسط الكعبة مركز العالم أن يتطهر ويصفو، ويبتعد عن الكراهية والأحقاد والخصام والعراك متشبهًا فى هذا بالكعبة المشرفة المطهرة من أى دنس، ومن أى مسلك يشغل الحجاج والمعتمرين عن العبادة والطواف والسعى والصلاة والانشغال بقراءة القرآن والتسبيح والابتهال.

* * *

٤- من الخلق الإسلامى:

لقد حرص الإسلام على الارتقاء بالإنسان عن طريق حسن تربيته وجميل تهذيبه، وإبعاده عن كل سلوك شائن، داعيًا إلى فتح كل أبواب العمل الصالح، وقد أكثر أدباء الفارسية، شأنهم فى ذلك شأن جميع الأدباء المسلمين فى شتى بقاع العالم، من تناول مايدعو إليه الإسلام من الاهتمام بالعلم والعمل والعطف على الفقراء والمساكين، ونبذ المحرمات إلى غير ذلك من تعاليم الإسلام الحنيف.

وبطبيعة الحال لن نستطيع أن نذكر جميع ما قاله أدباء الفارسية فى العصر الحديث حول هذه الأخلاق الإسلامية السامية، ولاحول هذه الدعوات الإصلاحية المنبثقة من تعاليم الإسلام الحنيف، وإنما سنكتفى بذكر بعض الأمثلة.

وأول ما سنذكر، هو الدعوة إلى بر الوالدين والامتثال إلى نصحهما، والعمل بما يرضيهما حيث إن رضاء هما من رضاء الله عز وجل، وقد نظم ملك الشعراء بهار قصيدة عنوانها " نصيحة الأب"، وقد جاءت فى ستة وأربعين بيتًا وكان بهار قد نظمها عام ١٣٠٩ هـ. س (١٣٤٧ هـ. ق) بمناسبة حلول عيدالنوروز. ومما جاء فيها ما ترجمته:

-- أفق أيها الابن، وليمتثل قلبك لنصائح الأب، فهو أيها الغالى قد اشترى حكمته بنقد روحه.

- وأحسن الإصغاء إلى نصيحة المعلم، وإلا فإن الفلك سيمزق جسدك بسيف المكر والخداع.

- فكل شخص يحسن الإصغاء لنصح العطوف المشفق، سيقطف ورودًا وأزاهير من غصن مراده.

- عندما لم أمتثل مثلك لهذا النصح فى طفولتى، مزقت يد الزمان أرديتى .

٥- لقد استمعت إلى نصح أبى ولومه، ولهذا فقد روضت طبعى بحسن تجربته .

- وعندما لايكون الزمان لى مواتيًا، أكون فى تلك اللحظة التى لم أحسن الامتثال فيها للنصح والإرشاد.

- لقد درست فى مدرسة الحياة أربعين سنة، حتى اسودت أيامي وابيض شعرى.

- لقد ضاعت منى بعض نصائح أبى، ولكن فى مشيبى هذا؛ مازلت أحفظ الكثير منها.

١٠ - لقد رأيت أن نصائح الأب هى ثروة العمر، حيث كان يقدمها لى بعطفه وحنانه.

- مهما طال العمر بتجاربه فهو ليس كافيًا، إلا إذا ربطناه بتجارب الآخرين.

ما أسعد من عرف في صباه قدر أبيه

وما أعظم من استمع في شبابه إلى نصح أبيه[1]

* * *

(١) ديوان بهار، جـ ١، ص: ٥٢٨ - ٥٢٩.

پند پدر

هان ای پسر به پند لاندر دل سپارکاو   أی گوهر گر انرا بانقد جان خرید

ده گوش بانصیحت استاد، ورنه چرخ   گوشت به تیغ مکر بخواهد همی برید

هر کس به پند مشفق یك رنگ داد كوش   گلهای رنگ رنگ ز شاخ مراد چید

من خود بکود کی چو تو نشنیدم این حدیث   تادست روزگار گربیان من درید

٥- پند پدر شنیدم و گفت ملامت است   زینرو از آزمایش آن طبع سر کشید

وانگاه روزگار مرا در نشاید پیش   یك دم ز درس وپند ونصیحت نیارمید

چهل سال درس خواندم در نزد روزکار   تا گشت روز من سیه وموی من سپید

چندی کتاب خواندم وچندی معاینه   دیدم خرام گیتی ز وعد واز وعید

بخش ز پندهای پدر شد درست، لیك   بسیار از آن بماند که پیری فرارسید

١٠- دیدم گه پندهای پدر نقد عمر بود   کان مهربان بطرح بمن برپراکنید

این عمرها به تجربت ما کفاف نیست   تا داشته بتجربت دیگران أمید

خوش آنکه در صباوت قدر پدر شناخت

شاد آنکه در جوانی پند پدر شنید

كما دعا بهار الأبناء إلى الربط بين عبادة الله عز وجل، وحب الوالدين وعدم عقوقهما، وبخاصة الأم التى تمنحهم الحب والحنان والعطف، وضحت براحتها من أجل إسعاد هؤلاء الأبناء، ودعا أيضًا إلى أن يرعى هؤلاء الأبناء والديهما فى حالة الكبر والعجز، وبخاصة الأم، حتى يكون الأبناء بررة راجين رحمة ربهم ورضاه.

الله والوالدان

- أيها الطفل العذب اللسان، لاتغفل عن أمك العطوف.

- لتجعل نصب عينيك هؤلاء الثلاثة: الأول هو الله ثم يأتى من بعده الوالدان.

- الله هو المنعم الرزاق، والوالد هو المربى، أما الأم فكم احترق قلبها من أجلك.

اعبد الله، واحترم والدك

وضحى بروحك من أجل أمك[1]

* * *

(١) ديوان بهار، جـ ١، ص: ٣٣١

خدا ووالدين

أى كودك خوب شيرين زبان	مشو غافل از مادر مهربان
بدار اين سه مقصود را نصب عين	نخستين خدا، زانپس والدين
خدا منعم است ومر بى پدر	بود مادر ازهر دو دلسوزتر

خدا را پرست، وپدر را ستاى

ولى جان بقربان مادر نماى

وشاركت پروين اعتصامى الشاعر محمد تقى بهار فى دعوته إلى الأبناء كى يمتثلوا لنصائح الآباء والأمهات، وإذا كان بهار قد تكلم مباشرة، فقد لجأت پروين إلى استخدام الرمز عن طريق الحيوان، وهذه طريقتها دائمًا فى تقديم النصح والإرشاد ففى قطعة عنوانها "قوس القضاء" تحدثت عن فأر صغير أجهدت أمه نفسها فى نصحه ولفتت نظره إلى الأخطار الجسام التى يتعرض لها إن لم يتوخ الحذر، وأن يحسب لكل خطوة حسابها حتى لايقع فى المهالك، ولكن هذا الصغير لم يعر نصح أمه اهتمامًا، ولم يقبل أن يعمل بنصائحها مدعيًا بأن له عقلاً يستطيع أن يميز به بين الخير والشر؛ وما أن خرج بمفرده باحثًا عن طعام، حتى أرداه عقوقه فى فخ كان فيه هلاكه، وهكذا جزاء أى ابن لايحسن الإصغاء إلى نصح أمه أو أبيه، ومن أبياتها؛ ماترجمته:

- قالت الأم بحنان لفأرها الصغير : ما أكثر المحن والمصائب فى طريقنا.

- فلا تخطف قطعة جبن من حديد معقوف ، فهذه اللقمة ليست غذاء ولكنها الردى والموت.

- غضب الفأر الصغير وقال : صه ! إن عقلى أكبر من عقلك !

- فكل إنسان يعرف مكانه ، ولامكان لنصح الآخرين وإرشادهم !

٥- قال هذا ، وخرج من الجحر ، ونظر نظرة متعجلة صوب الشمال واليمين.

- فرأى فى فخ حديث الطلاء ، قطعة جبن معلقة فى قطعة من حديد.

- قفز الفأر الصغير بلهفة ،ودخل ، وما أن دلف حتى ارتفع صوت الباب.

- فكم أصابته المحن من جراء هذا الطعام؛ وكم أحاطت قطعة الحديد بمعصمة الأيمن !

- وهكذا الطفل الذى يهرب من الوعظ والنصيحة، فإذا سقط في بئر فلا تسل :
لم حدث هذا؟[1]

ومن المعانى الإسلامية السامية والتى اهتم بها الشعراء والكتاب فى العصر الحديث، الدعوة إلى التعاطف بين بنى البشر، وضرورة العطف وتقديم العون إلى الفقراء والمحتاجين. وما أكثر مانظمته الشاعرة پروين اعتصامى فى هذا الشأن، ومنها تلك القطعة وعنوانها "غرور المحظوظين" فقد تحدثت عن عصفور صغير وقع فى الشباك، وحاول الخلاص فلم يستطع، وفجأة رأى أمامه طائر الهما فطلب منه أن يساعده ويخلصه من الأسر، ولكن الهما ترفعت وتعالت عليه، وقالت : كيف تساعد الهما تعس الحظ مثلك؟ ومهما توسل إليها العصفور، فإنها لم تعره التفاتة، وتركته ومضت تتبختر فى الحديقة، وبعد انقضاء يوم كامل أدركت الهما خطأها وأسرعت كى تنقذ العصفور الصغير، ولكن بعد فوات الأوان، حيث وجدته ريشاً مبعثراً، وقد

---

(١) نقلاً عن شاعرة إيران پروين اعتصامى للدكتور بديع محمد جمعة، ص : ٨٤، القاهرة ١٩٧٧، أما النص الفارسى؛ فهو :

موشكى را بهر، مادر گفت	كه بسى گير ودار در ره ماست
ز آهنين ميله، گردگان مرباى	كه چنين لقمه، خون دل، نه غذا است
موشك آزرده گشت وگفت خموش	عقل من بيشتر ز عقل شماست
هركس جاى خويش ميداند	پند واندرز ديگران بيجا ست
اين سخن گفت وشد زلانه برون	نظرى تند كرد، برچپ وراست
ديد دو تلهء نو رنگين	گردكانى در آهنى پيداست
موشك از شوق جست وشد بدرون	تا كه اوجست، بانگ در برخاست
بهر خوردن، چو كرد گردن كج	آهنى رفت بر گلويش راست
كودكى كاو زبند ووعظ گريخت	گر بچاه است، دم مزن كه چراست

أنهت الشاعرة پروين قصتها الرمزية هذه بعدة أبيات تدعو فيها القوى لمساعدة الضعيف، والغنى كى يحسن إلى الفقير، وألا يتكبر الإنسان على المساكين والضعفاء، وألا يعيش المرء فى برج عاجى بعيداً عن مشاكل الفقراء والمعوزين، ومما قالته پروين؛ ماترجمته :

- لقد منحت عين قلبك الضياء؛ حتى تضىء مصباح التعساء.

- ارتفعت شجرة السرو بالحديقة، كى تظلل على ورود الروضة.

- فلتسل عن الضعفاء ما استطعت، ولتخش زمن الضعف.

- وتعلم من الشمس أصول الإشراق، فهى تشع نورها على اليابسة والبحار.

٥- سعيد من استحسن تقديم العون، فما أن ملك الثروة والجاه حتي قدم العون.

- وموفق ذلك الذى أعان ضالا، ورفا الممزقات بلطف وسماحة.

- لا تشح بوجهك أيها الصديق، بعيداً عن المساكين حتى يجنبك الله تكبر الفلك.

- لو جلسنا فى محيط السماء، ولم نطلب الخير لكل شخص؛ كنا غاية فى الخسة[1]

* * *

---

(١) نقلاً عن : شاعرة إيران، پروين اعتصامى ص ١٠٥، ١٠٦، والنص الفارسى هو : =

= - از آنت هست چشم دل، فروزان   كه بفروزى چراغ تيره روزان

- بگلشن، سرو از ان بفراشت پايه   كه بر گلهاى باغ افكند سايه

وكما دعت پروين إلى عدم التكبر والغرور والتعالى على الضعفاء والمساكين، دعت كذلك إلى أن يكون العطف عليهم خالصًا لوجه الله عز وجل، لارياء ولا طلبًا للدعاء، فالنعمة والخير كله لله، وليس الأغنياء إلا حراسًا عليها، وبالتالى فإن أعطوا الفقراء جزءًا مما يحرسونه من نعم الله، فليس العطاء منهم، بل إنهم ينفذون مشيئة المنعم الوهاب، وعلى هذا وجب على الأغنياء أن يتجرد عطاؤهم من أى إيذاء لمن يقدمون لهم يد العون والإحسان، ومما قالته پروين، ماترجمته:

- لا يجوز طلب الأجر من المسكين، كما لايجب سفك دم العطاء والإحسان.

- أحسن إلى المسكين والمعدم، لأن الإحسان نفسه سيجلب الدعاء.

- لقد مُنحت قوة الساعد، كي تأخذ بيد كل ضعيف عاجز.

- ولاتستسلم للغرور، فأول فرض على الأغنياء هو الإحسان إلى الفقراء.

٥- ولتدرك أحوال المحتاجين يامن تملك مصباح السعادة وكنز الغناء.

= - بپرس از ناتوان تا توانی بترس از روزگار نا توانی

- ز قهر، أموز رسم تابنا کی که بخشد نور بر آبی وخانکی

٥ - نکو کار، آنکه همراهی روا داشت نوائی داد، تا برگ ونوا داشت

- خوش انکو گمر هی را جستجو کرد به نیکی، پار گیها را رفو کرد

- متاب ایدوست، بر یرچار گان روی مبادا بر تو گردون تابد ابروی

- اگر بر دامن کیوان نشستیم چو خیر کس نمیخواهیم، پستیم

- وقت العطاء والإنفاق يجب، يابروين، ألا يعمر القلب إلا بالله وحده![1]

* * *

ومن التعاليم الإسلامية السامية دعوة المسلمين إلى العمل والكد فى طلب الرزق، وعدم الارتكان إلى الكسل والتراخي، حتى أن الله سبحانه وتعالى قد ربط فى معظم آيات قرآنه الكريم بين الإيمان والعمل، حيث قال الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [3] وقد ربط الله سبحانه وتعالى الأجر والجزاء بجنس العمل تشجيعًا للمسلمين على العمل والعطاء والكد وعدم الجنوح إلى الكسل، فقد قال سبحانه: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) ﴾[4] كما أن الله عز وجل لن يظلم عاملا قط، ولن يبخسه حقه فى الجزاء والأجر حيث قال تعالى: ﴿ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾[5].

---

(١) المرجع السابق، ص : ١٠٧ والنص الفارسى هو :

- نشـايد خـواست از درويشى پاداش	نبـايد كـشت، إحـسـان وعطارا
- تو نيكى كن بمسكين وتهيدست	كى نيكى، خـود سـبب گـردد دعـارا
- از آن بـازوت را دادن نيـرو	كـه گـيرى دست هر بيـدست وپارا
- مشو خودبين، كه نيكى بافقيران	نخسـتين فـرض بودست اغنيـار
٥- ز محتاجان خبر گير، ايكه دارى	چـراغ دولـت وگـنـج غـنـارا
- بوقت بخشش وانفـاق، پروين	نبـايد داشت در دل جـز خـدارا

(٢) سورة محمد ١.

(٣) سورة التوبة : ١٠٤.

(٤) سورة الأنعام : ١٣٢

(٥) سورة آل عمران: ١٩٤.

وقد أكثر الكتُاب والشعراء فى العصر الحديث من الدعوة إلى العمل الجاد والدءوب، حتى تستعيد الأمة الإسلامية عافيتها وسابق ازدهارها بعد أن تكاسل بعض أبنائها. وتخلوا عن العمل الجاد والدءوب، وركنوا إلى الاعتماد على الغير، وقد عبرت الشاعرة پروين اعتصامي عن هذ الموقف المتخاذل، بأن صورت فقيراً وقد جلس على قارعة الطريق غاية فى الذلة والمسكنة، وقد أخذ يتأوه مما ألم به من فاقة ومسغبة وأنه قد عدم المسكن والمأكل، وكم حاول استجداء الخلق فصدهْ معظمهم، ولما أطال شكايته؛ جاءه الرد من الله عز وجل، على هيئة حديث سمعه بأذن قلبه، ومما جاء فى هذا الحديث ماترجمته:

- تحدث الله الودود فى أذن قلبه، قائلاً: إن لم تكن موفقًا؛ فالجرم جرمك.

- اخط خطوة واحدة فى طريقى، أقربك منى عشرين خطوة.

- نحن لم نرسلك بلا زاد، فقد منحناك مايجب منحه.

- لقد منحناك يدا كي تعمل، فإن وجد الدرهم، بإمكانك جعله ديناراً.

٥- ومنحناك قدمًا كى تسعى من مكان إلى آخر، وتخلص من نفسك من كل ضيق.

- ومنحناك العين حتى يشعر قلبك بالأمان، فيضىء أمامك طريق الحياة.

- نحن لم نترك إنسانًا جائعًا، وقد رفعنا هذا البناء من أجل الخلق.

- هذه القوة الكامنة فى ساعدك، شاهد حظك، وكذلك مافى كتفك.

- أيها الجاحد، منحتك الكنوز التى لايستطيع شخص قط إحصاءها.

١٠- كنزك هو العقل والرأى والعزم والهمة، وأفضل كنز سعيك وكدك.

- حين طلب ذوو البصيرة الحظ منا، طلبوا اليد والساعد القويين.

- نحن لانقول لاتطرق بابنا سائلا، ولكن إن تطرق هذا الباب، فلاتطرق بابًا آخر!

- فمن انكب على موائد الكرام، سمع ألفاظًا نابية من اللئام[1]

* * *

والعاقل هو الذى لايقبل التردد على موائد الكرام، حتى ولو لم يتبعوا صدقاتهم بالمن والأذى، وحتى ولو كان هؤلاء الكرام سيدنا سليمان عليه السلام، فقد رأى سليمان عليه السلام

---

(١) شاعرة إيران پروين اعتصامي، ص ١٢٤، ١٣٥، والنص الفارسي هو:

- گفتش اندر گوش دل، رب ودود ... گر نبودی کار دان، جرم تو بود
- تو براه من بنه گامی تمام ... تا منت نزدیك آیم بیست گام
- ماترا بی توشه نفرستاده ایم ... آنچه می بایست دادن، داده ایم
- دست دادیمت که تا کاری کنی ... درهمی گر هست، دیناری کنی
٥- پای دادیمت که باشی پا بجای ... وارهانی خویش را از تنگنای
- چشم دوام تادلت ایمن کند ... بر توراه زندگی، روشن کند
- ما کسی را ناشتا نگذاشتیم ... این بنا از بهر خلق افراشتیم
- این توانائی که در بازوی تست ... شاهد بخت است ودر پهلوی تست
- گنجها بخشیدمت، ای نا سپاس ... که نگنجد هیچکس را در قیاس
١٠- عقل ورای وعزم وهمت، گنج تست ... بهترین گنجور، سعی ورنج تست
- عارفان، چون دولت از ما خواستند ... دست وبازوی توانا خواستند
- ما نمیگوئیم سائل در مزن ... چون زدی این در، در دیگر مزن
- آنکه برخوان کریمان کرد پشت ... از لئیمان بشنود حرف درشت

نملة تجر ساق جرادة، وقد تحملت العبء الكبير لكي تسحبها إلى جحرها، فسألها لماذا تتحمل المشاق والمتاعب وفى إمكانها أن تذهب إلى موائد كرمه المنصوبة على الدوام فتأكل منها متى تشاء، ولكن النملة التى جبلت على السعى والعمل والكد وعدم الارتكان إلى الكسل، رفضت دعوة سليمان عليه السلام، وآثرت الاعتماد على نفسها فى الحصول على الرزق، ومما جاء فى هذا الحوار الممتع بين سليمان والنملة؛ ماترجمته:

سعى وعمل

- فى طريقه إلى الباب، رأى سليمان نملة، تجاهد فى جر ساق جرادة.

- وقد أجهدت نفسها فى جرها من كل صوب، وقد انحنى ظهرها وألم بها التعب من هذا الحمل الثقيل.

- وكانت تخرج عن الطريق أمام كل ذرة غبار، كما تتطاير كقشة تبن أمام أى هبة ريح.

- وهكذا احتواها طريق السعى والعمل، حتى فرغت من الجميع، عدا نفسها .

٥- لم يعد لها القدرة على السير ومواصلة العمل، كما لم تخالجها الرغبة فى التخلى عن العمل.

- فقال لها بحدة أيتها المسكينة الجاهلة، لماذا بعدت عن ملك سليمان؟

- إن لدى فى قصر العدل، موائد عديدة، وما أكثر الضيوف الملتفين حول كل مائدة.

- فهيا، من هذا الطريق، وتوجهي إلى قصر الملك، وكلي على موائدنا كل ماتبغين.

- وتعلمي منا السعادة والراحة، وكوني مثلنا سعيدة صباح مساء.

١٠- ولماذا تتحملين هذه الآلام والمتاعب، وأن يكون عمرك كله تعب وكد؟

- إن هذا طريق يعبره الخلق، فليجنبك الله أن تطأك الأقدام!

- فلا تجرى عبثًا هذا الحمل الثقيل، ولاتزهقى روحك من أجل الجسد.

- قالت: لتقلل الحديث عن الولائم مع النمل، لأن القناعة أفضل من الولائم لدى النمل.

- فإذا كانت النمال ملوكًا في جحورها، فهى لاتتطلع إلى نوال من الملك.

١٥- فاذهب إلى مكان يتواجد فيه المحتاجون، إذ أننا لسنا في حاجة إلى سليمان.

- وإذا كنا نحن في أنفسنا خادمًا ومخدومًا، فلن نكون محكومين تحت ربقة أي شخص.

- وراحتنا ماثلة في هذا الكد والتعب، لذا فلن أتخلى عن ساق الجرادة هذه ولو بألف كنز.

* * *

- إن كنت تبغي التوفيق دائمًا، فتعلم الصبر من النمل.

- وكن عاقلاً وبعيداً وقت التدابير، ولاتؤخر عمل اليوم إلى الغد.

٢٠- واجتهد فی ربیع حیاتك، حتی یکون شبابك زینة مشیبك(١)

(١) دیوان پروین اعتصامی، چاپ پنجم تهران ١٩٦٢م ص ١٦٠-١٦١.

سعی وعمل

برا هی در، سلیمان دید موری — که با پای ملخ میکرد زوری

بزحمت، خویش را هرسو کشیدی — وز آن بار گران، هر دم خمیدی

ز هر گردی، برون افتادی از راه — زهر بادی، پریدی چون پر کاه

چنان بگر فته راه سعی در پیش — که فارغ گشته از هر کس، جز از خویش

٥- نه اش پروای از پای افتادن — نه اش سود ای کار زدست دادن

بتندی گفت کای مسکین نادان — چرائی فارغ از ملك سلیمان

مرا در بارگاه عدل، خوانها ست — بهرخوان سعادت، میهما نهاست

بیازین ره، بقصر پاد شاهی — بخور در سفرهء ما، هر چه خواهی

ز ما، هم عشرت آموز وهم آرام — چوما، هم صبح خو شدل باش وهم شام

١٠- چرا باید چنین خونا به خوردن — تمام عمر خود را بار بردن

رهست اینجا ومردم رهگذارند — مبادا بر سرت پائی گذارند

مکش بیهوده أین بار گران را — میازار از برای جسم، جان را

بگفت از سور، کمتر گوی بامور — که موران را، قناعت خوشتر از سور

چو اندر لانهء خود پاد شاهند — نوال پادشاهان را نخواهند

١٥- برو جانیکه جابی چاره سازیست — که ما را از سلیمان، بی نیازیست

چوما، خود خادم خویشیم ومخدوم — بحکم کس نمیگردیم محکوم

مرا أمید راحتهاست زین رنج — من أین پای ملخ ندهم بصد گنج

* * *

گرت همواره باید کامکاری — زمور آموز رسم بردبای

که تدبیر، عاقل باش وبینا — ره امروز را سپار فردا

٢٠- بکوش اندر بهار زندگانی — که شد پیرایهء پیری، جوانی

وهكذا وافقت هذه الدعوات الإصلاحية، وضرورة بذل الجهد والعرق من أجل العمل الدءوب الذى يرفع من شأن الإنسان والمجتمع، ما نادى به الإسلام وحث عليه، حتى ارتبط الإيمان فى الإسلام بالعمل الصالح، سواء أكان هذا لصالح الأمة الإسلامية، أو لصالح الفرد نفسه، وما أحوجنا نحن المسلمين الآن للعمل بهذه الأوامر الإلهية وبدعوات المصلحين حتي يستعيد المسلمون تقدمهم وازدهارهم واعتمادهم على أنفسهم، دون حاجة إلى مساعدات من هنا وهناك، تكون فى الغالب الأعم على حساب حريتهم وعقيدتهم.

* * *

وما دمنا نتحدث عن العمل، فيجب أن نتبعه بالحديث عن العلم ومكانته فى الأمة الإسلامية ومكانة المعلم فى الأخذ بيد أمته عن طريق التقدم والصلاح، وما دامت هذه رسالة المعلم، فإن الإسلام قد كرمه ورفع من شأنه حيث إنه مطالب بأن يبلغ بعد الرسل رسالة الله عز وجل، إلى خلقه ويشرحها لهم، ويعاونهم على فهمها والعمل بما جاء فيها من عقائد وعبادات وأحكام، ومن الذين تحدثوا عن هذه الرابطة بين المعلم ورسالة الأنبياء الشاعر صادق سرمد(١)، فقد قال:

- إن كنت لاتدرك قدر المعلم، فإن قدره ليس خافياً عنى.

---

(١) صادق سرمد: شاعر إيرانى كبير نظم الشعر منذ الحادية عشرة من عمره، كان قادراً على النظم فى كل الفنون والأغراض، من منظوماته: خورشيد، وأثينه فلك، وپاتيز كبود، ومهتاب وشهاب، وبدر طالع، نشر العديد من أشعاره جرايد الحيل المتين وشفق وناهيد وارمغان وغيرها.

ولد عام ١٢٨٦ ش (١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧م) بطهران وقد أنهى دراسته للحقوق؛ فكان من الشخصيات القضائية البارزة فى إيران وتولى رئاسة العديد من المؤسسات القضائية كما اشتغل بالسياسة والأدب وكل النشاطات الفكرية والعلوم الاجتماعية، وقد اهتم بالعلم والمعلمين، لذا نظم ثلاث قصائد يوضح فيها مكانة العلم والمعلمين، منها هذه القصيدة التى نستشهد ببعض أبياتها:

(تذكرة شعراى معاصر جـ١. ص : ٢٢٤ - ٢٢٥).

- فلتسل المتعلم عن قدر المعلم، فلن يوفيه أحد حقه مثلى.

- فلتسمع منى، إن بناء هذا العالم، لايمكن أن يستقيم بدون العلم والمعلم.

- إن العرش الإلهى هو كرسى التعليم، لذا فلن يصل إنسان قط إلى رتبة العالم.

٥- لقد كان نبى الإسلام معلمًا، إذ لايمكن أن يكون رسولاً من لم يكن معلمًا.

* * *

- ولكن لتحذر أن تكون معلمًا مغرورًا، وإلا فلن تحظى بالنعم على مائدة الدين.

- ما الدين؟ إنه السير إلى جانب الحق، وما الحق؟ إنه عدم توهم الباطل.

- وما الحق كذلك إلا السير فى مصلحة الخلق، وما الباطل؟ مالا يكون نفعه دائمًا!

- إن الحق متكئ على قوة الإيمان، حيث لاتقاومه أى قوة.

- إذا سار المارق مهما كان علمه صوب البحر المتلاطم؛ فلن يستطيع أن ينقذ السفينة! (١)

---

(١) النص الفارسى هو:

گــر برتو فــاش قــدر مــعلم نيــست — پوشــيــده بر من منتــعلم نبت

قــدر مــعلم از مــتــعلم پرس — كــاينســان بحق چو من مــتكلم نيــست

بشنو ز من كــه قــائمــهء، عــالم — بى علم وبى مــعلم قــائم نيــست

عــرش خــداى كــرسى تعليم است — يعنى كــسى برتبــهٔ عــالم نيــست

٥- زان شــد نبى نبى كــه مــعلم شــد — هر گــز نبى نشــد كــه مــعلم نيــست =

وإذا كان الشاعر سرمد قد حذر من تكبر العلماء وتعاليمهم، فإن ملك الشعراء محمد تقى بهار قد حذر من شرب الخمر، وممن يحتسونها، لأن فيها هلاك من يتجرعونها، وكذا غضب عليهم لإقبالهم على محرم، حيث قال:

- كم تتملكنى الدهشة من هذه الخمر، وممن يقبلون عليها ويحتسونها.
- إن الخمر تسلب الجسم القوة والعقل، وما أكثر الأضرار الكامنة فى الخمر.
- إنها تبدو فى البداية عروسًا جميلة، ولكنها فى النهاية عجوز شمطاء.
- إن الله الذى خلق الخلق للخير، لم يخلق ماهو أسوأ من الخمر.
- ما أكثر القامات السروية التي حطمتها، وما أكثر الأرواح الغالية التي وقعت فى حبائلها.

وما أكثر العظماء الذين احتسوا الخمر
فأذلتهم فى الدنيا، وقضت عليهم![1]

* * *

= هان تا بعلم خود نشود مغرور — آنكو ز خوان دينى متنعم نيست
دين چيست؟ ره بجانب حق بردن — حق نيز، باطل متوهم نيست
حق چيست؟ أنچه مصلحت خلقست — باطل چه؟ أنچه نفعش دائم نيست
حق متكى به قوه‌ء إيمان أست — أنجا كه هيچ قوه مقاوم نيست
بى دين اگر به علم شود دريا — منجى كشتى متلاطم نيست

[خلخالى: تذكره‌ء شعراى معاصر، جـ ١ ص ٢٤٠ - ٢٤١].

(١) ديوان بهار، جـ١، ص ٣٢٦. =

در ذم مى

= خودرا عجب آيد از ابن نبيد — وز آنكو به نبيدش دل آرميد

هذه بعض الإشارات السريعة لما تناوله الشعراء من أفكار منبثقة من تعاليم الإسلام، وحثهم المسلمين على فعل الخير، وسلوك الطريق المستقيم حتي يضمنوا التوفيق والسداد، وكذلك تحذيرهم من ارتكاب المعاصى والآثام، وهذه الدعوات الإصلاحية قد وجدت فى كل عصر وفى كل مكان، مع اختلاف المعالجات وفقًا لطبيعة كل عصر.

* * *

٥- بث الشكوى من حال المسلمين فى العصر الحاضر:

ولكن مما يلفت النظر فى العصر الحديث، حديث الشكوى مما وصل إليه حال المسلمين من تخلف وتدهور، أدى إلى غلبة قوى الاستعمار عليهم لذا حاول المصلحون من ذو الفكر والأدب تنبيه القلوب والعقول لما آل إليه حال المسلمين، وكيف أنهم شاركوا فى هذا التخلف ببعدهم عن تعاليم الإسلام السمحة، ومن هؤلاء المصلحين، بل ويأتى على رأسهم الثائر جمال الدين الأفغانى، الذى قضى حياته كلها متنقلاً بين بلدان العالم الإسلامى محاولاً إيقاظ الوعي الإسلامى والحس الوطنى، وقد بدأ هذه

= مى از تن زدايد توان وهوش / فراوان ضرر است اندرين نبيد

در أغاز، عروسى بودنكو / بفر جام ، عجوزى شود بليد

خدائى كه بخير آفريد خلق / شر انكيز تر ازمى نيا فريد

بسا سرور بلندا كه كردپست / بساجان گرامى كه بشكريد

بسامرد شريفا كه مى بخورد

پليدى بجهان در پرا كنيد

الدعوة منذ شبابه وحتى مماته وكتب العديد من الرسائل إلى كل المسئولين وإلى كل الجمعيات والوطنيين حتي يهبوا دفاعًا عن إسلامهم وأوطانهم، وذلك بعد أن وضح أن مهما أصاب المسلمين من ضعف فإن سببه المسلمون أنفسهم، وقد وضح موقفه هذا منذ إقامته المبكرة بالهند وقبل أن يتوجه إلى العالم العربى وإلى الأستانة حيث مقر الخلافة الإسلامية الممثلة فى الدولة العثمانية، فقد كتب إحدى المقالات والتى ضمنها رسالته الشهيرة "رسالة نيچريه" والتى ترجمها فيما بعد الشيخ محمد عبده تحت عنوان "الرد على الدهرين"، هذه المقالة عنوانها " لماذا ضعف الإسلام" وقد بدأها بالآيتين الكريمتين :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ سورة الرعد : آية : ١١.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ سورة الأنفال : آية : ٥٣.

ثم أتبعهما بقوله:

هذه آيات القرآن الكريم، والكتاب الحكيم، والهادى إلى الصراط المستقيم والداعى إلى الدين الحنيف، لايمكن أن يشك فيه إلا الشياطين الضالون، والزنادقة المخرفون، فقد نزل القرآن من السماء على أفضل الرسل كى يهدى الخلق وينقذهم من وادى الضلالة..

إن الله أصدق الصادقين، وهو صادق الوعد، ورسله وأنبياؤه معصومون، ولايكذبون، ولايفترون وهم يدعون الخلق إلى الهداية.. وهو الحكيم المطلق الذى لايقضى أمرًا إلا لحكمة، وهو يفى بوعده ووعيده ولايغير سننه، وكلامه لايقبل التبديل؛ إذ «لامبدل لكلماته»[1] وهل جاءت الآيات المحكمات بلغة أخرى لا نستطيع فهمها؟

---

(١) الأنعام : ٣٤.

وهل كان الله عز وجل يتحدث بالرمز؟ وهل منع اقتداء الناس بالقرآن؟ أو أننا لم نستطع فهم الإشارات والآيات؟ أو أنها جاءت بلسان غريب وعجيب لايستطيع فهمه غير الرسول؟ استغفر الله، فإن القرآن كتاب الله قد أرسل هاديًا ومرشدًا، وجاء بلسان عربى فصيح مبينًا للخلق مايجب فعله، ذاكرًا مايلزمهم فى المعاد والمعاش، وهو شفاء لداء الضلال وعلاج لمرضى الجهالة، فهو هدى وشفاء لما فى الصدور، إنه ليس لغة طير، ولم يقل رمزًا وتلميحات فى محكم أياته، بل جاء واضحًا صريحًا وبلغة يستطيع أن ينطقها كل من يعرف العربية، إنه مرشد دائم ونموذج أدبى قائم حتى يوم القيامة، ومبدد لكل اشتباه فلا يقترب الباطل منه أبدًا، ولايلحق الخلل به من أى زاوية، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾(1) وقد وعدنا الله تعالى نحن المسلمين عدة وعود فى القرآن الكريم، وبشرنا ببشارات عديدة ومنحنا الرفعة والسيادة، وبناء على هذا يجب أن يعلو الإسلام سائر الأديان ومذاهب العالم، والمسلمون هم زبدة بنى أدم وسادة أهل العالم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(2) وقال فى موضع آخر:﴿كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (3) يعنى أن الله سبحانه وتعالى فرض على نفسه أن يساعد المسلمين والمؤمنين حتى يحققوا الغلبة والظفر على سائر الأقوام. وقال فى موضع آخر: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨﴾ (4) يعنى أن الله سينصر دين الإسلام الحنيف على سائر الأديان والمذاهب حتى يظهره عليها جميعًا، وهو شاهد على هذا العهد، وهناك العديد من الآيات والأحاديث التى لاتعد ولاتحصى فى هذا الأمر ومنها "الإسلام يعلو ولا يعلى عليه.."

---

(1) فصلت : ٤٢.

(2) المنافقون : ٨.

(3) الروم : ٤٧.

(4) الفتح : ٢٨.

حقًا إن الله قد وعد وعدًا صريحًا فى هذه الآيات المحكمات وذلك بالنصر والظفر والعزة وعلو الكلمة، وذلك بقسم لايقبل التأويل، ولايمكن لأى مسلم مؤمن أن ينكر ذلك، إلا ذلك الذى ينحرف عن الصراط المستقيم، فيحرف كلام الله..[1]

---

(۱) سيد جمال الدين أسد آبادى (الأفغانى) رساله‌ء نيچريه، ص ۱٦٤-۱۷۰ وهذا هو النص الفارسى:

چرا اسلم ضعيف شد؟

إن الله لاغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيرواما بأنفسهم.

- اين آيات قرآن كريم است وكتاب حكيم وهادى بصراط مستقيم ومنادى دين حنيف شك نميكنند در أو جر گمراهان ديوانه وزنديقان از خرد بيگانه. قرآن كتاب منزل از اسمانست بر بهترين پيغمبر ان تا خلق را هدايت كند، واز وادى ضلالت نجات بخشد. خداوند راستگوترين راستگويان است در وعده‌ء خود صادق است رسولان وپيغمبر انش هم معصومند دروغ نگويند، افترا نزنند، وخلق را بهدايت دعوت كنند .. حكيم مطلق جز بحكمت كار نكند وبوعد ووعيد ونمايد، سنتتش تغيير نكند، وكلماتش تبديل نپذيرد. «لامبدل لكلماته» آيات محكمات بزبان ديگراست كه ما نبايد بفهميم، آبا خداوند برمز صبحت كرده، وخلق را از هدايت بقرآن منع فرموده آيا اشارات وكناياتى است كه ما أدراك نميكنيم، آيا زبانى عجيب وغريب است كه جز پيغمبر كسى نميفهمد - استغفر الله - قرآن كتاب خداست كه براى هدايت وراهنمائى فرستاده وبزبان عربى ساده بيان فرموده آنچه خلق را بكار آيد ودر معاد ومعاش لازم باشد در أو ذكر نموده وشفاى درد گمراهى است ودرمان مرضى نادانى كه (هدى وشفاء لما فى الصدور) زبان مرغان نيست، رمز واشاره در محكمات آياتش نگفته واضح وصريح بزبانيكه هر عربى دانى ملتفت شود نطق فرموده، يكمر شد دائمى وراهنماى أدبى است كه تا روز قيامت بر قرار است ورافع اشتباه - هرگز باطل باو ترديك نشود واز هيچ سو خلل بدو راه نيابد لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - خداوند متعال در كتاب مجيد خود ما مسلمانان را وعده ها فرموده نويدها داده مژده بزرگى وسيادت داده كه بر حسب آنها بايستى اسلام بر ساير أديان ومذاب عالم برترى داشته مسلمانان زبده بنى آدم وسروران أهل عالم شوند چنانكه ميفر مايد - ولله العزة ولرسوله والمؤمنين ... در جاى ديگر ميفربمايد - وكان فرضا علينا نصر المؤمنين - يعنى برخداوند لازم وواجب است كه مسلمانان ومؤمنان را يارى وكمك كند برساسير مردم غلبه وظفر بخشد نيز جاى ديگر ميفرمايد - وكان فرضًا علينا نصر المؤمنين - يعنى برخداوند لازم وواجب است كه مسلمانان ومؤمنان را يارى وكمك كند برساير مردم غلبه وظفر بخشد. نيز جاى ديگر فرموده - ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا - يعنى خداوند بايد دين حنيف اسلام را برتمام دينها ومذاهب عليه دهد تا انان را سراسر فروگيرد وخودش در اين عهد بكه كرده شاهد كافى است از قبيل آيات بسيار است وأحاديث نيز در اين قبيل آياب بسيار است وأحاديث نيز در أين خصوص بيشمار كه منجمله است - الإسلام يعلو ولايعلى عليه - بلى در اين آيات محكمات خد أوند بما صريحًا وعده نصرت وظفرت وعزت وعلو كلمه داده است بقسمى كه أبدا قابل تأويل نيست وهيچ مسلمان ديندارى نمتواند أنكار انرابنمايد مگر آنكس كه از صراط المستقيم شريعت منحرف گشته كلمات الهى را تحريف نمايد.

هذه ترجمة كاملة لجزء من هذا المقال، وقد تحدث فيه جمال الدين عما وعد به الله عز وجل بنصرة الإسلام والمسلمين، ولكن متى يتم تحقيق هذا الوعد؟

يتم الوعد عندما يعمل المسلمون على حماية دينهم، والحفاظ عليه ضد أى معتد، وقد ظهر هذا فى بداية عهد الدولة الإسلامية، فمع قلة عددها وضعف جندها وضآلة عتادها، فقد رفع الله من قدرها، وأوصلهم إلى أرقى درجات العظمة، وثبت أقدامهم على قمم الجبال الشامخة، كما زلزل الجبال الراسيات تحت أقدامهم، وكانت قلوب الأعداء ترتجف منهم خوفًا وهلعًا، وذلك لأنهم كانوا مع الله، فكان الله معهم، فقد قال الله فى محكم تنزيله ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾[1] ولهذا لم تقف أمامهم أبراج المجوس ولاحصون الرومان، وحيثما توجهوا دانت لهم الجيوش.

ولكن هذا الأمر العظيم تبدد، وأصاب الوهن والضعف هذه الأمة، وذلك بأن نقضوا عهدهم مع الله عز وجل، ولهذا فإننا إن نقارن حال المسلمين الآن بحالهم في الماضى، فسنجد العالم الإسلامى الآن منهوب الخيرات منهوك القوى، مسلوب الإرادة، واحتل الأجانب غير المسلمين ديارهم وأراضيهم، حيث سيطرت إنجلترا على الهند ومصر والسودان وغيرها، كما احتلت فرنسا مراكش وتونس والجزائر، واستولي الروس على التركستان الغربية وما وراء النهر والقوقاز، كما احتلت الصين تركستان الشرقية.

ومحور الحديث أن المسلمين قد بعدوا عن الله وعن دينه الحق، فجزاهم الله شر الجزاء، وتخلى عن نصرتهم، فإن عادوا إلى جادة الإيمان ونصرة دين الحق، حقق الله وعده، ونصر الإسلام والمسلمين وأعادهم سادة العالم وحكامه!

* * *

---

(١) سورة محمد ، آية : ٤٧ .

وقد شارك الشاعر الإيراني الثائر فرخي اليزدي[1]، جمال الدين الأفغاني في بثه الشكوى لما آل إليه حال الإسلام والمسلمين، حيث ربط فرخي بين ما أصاب إيران من ضعف ووهن نتيجة تقاعس أبنائها، وبين ما أصاب الإسلام والوطن الإسلامي كله من تخلف وتقهقر نتيجة أيضًا لانعدام الحمية لدى المسلمين الذين لم يهبوا دفاعًا عن دينهم وأوطانهم، فقد نظم فرخي مربعًا بعنوان "إيران - إسلام" وما قاله : ما ترجمته:

إيران - الإسلام

- أيها الإيراني المحب لوطنه المؤمن بالإسلام

أين الهمة؟ فقد ضاع الوطن كما ضاع الإسلام!

- لقد انتكس علم إيران بفعل الأعداء الحاقدين

كما أدمى جور الظالمين قلب الرسول (عليه السلام)

وألم الحزن بالخلفاء جميعًا، لتفشي الكفر

كما لايمكن وصف حال حيدر، وما ألم به لسطوة الكفر.

- أحيانًا ترتفع الآهات والصيحات والثورات

ضد كل خائن يتاجر بالإسلام

(١) فرخي اليزدي: شاعر الوطنية الأولى في إيران خلال النصف الأول من القرن العشرين، وقد واصل هجومه على حكام الدولة القاجارية التي حكمت إيران قبل عصر رضا شاه البهلوي، لدرجة أن حاكم يزد من قبل القاجاريين اعتقله وخاط فمه، ومع هذا لم يكف عن مواصلة كفاحه الوطني ضد الملوك الضعاف الخائنين، وضد القوى الاستعمارية، وعندما تولى رضا شاه لم يتوقف فرخي عن التعرض له كلما حاد عن العدل والحق، وقد انتهى أمره بالموت غيلة في السجن وذلك عام ١٩٤١م.

- وكم ثارت غيرة الشعوب الإسلامية مدوية.

وكانوا فى ثوراتهم متحدين متعاضدين.

وجاهدوا فى التصدى للأجانب حفاظًا على القرآن

فإمــا أن يوفــقــوا، وإمــا بأرواحــهم مضـحون

- وكى لايتحول المسجد اليوم إلى كنيسة.

وحتى لايصـبح الوطـن فى الغد مستوطـنة للنصارى

- وكى لايكون الوطـن لعاقـدى الزنار وقاطنـى الأديرة

لابد من انتفاضة إسلامية، وإن لم يحدث ذلك،

فستعـانى إيران المظـالم، ويصبح الإسلام غريبا

وسيصيب الدمار كليهما أمام جور أهل الصليب

- ما أجمل ذلك اليوم الذى كان للإسلام مناضلوه.

وكان لهم قائد وزعيم هو الرسول محمد.

- وكان له صدق الصدّيق وفدائية الفاروق.

وسماحة عثمان وشجاعة الحيدر

وأشـــرق وجـــه الإســـلام بأمثـال حمـــزة

كمـا اشتـد عــود الإســلام بمـدد جعفـر

- ليت الإسلام يحظى اليوم بالعديد من المناضلين.

أمثال أبى ذر وسليمان.

- وبأمثال الزبير أشجع الشجعان.

الذين ضحوا بأهوائهم تحت النصال

إذ لعـــل محـــاربو أحـــد وبـــدر فى سبـــات

حيـــث لم يســـارعوا لنصـــرتنا فى هـــذه الأيام

- ولكن لن يصيب الإسلام ما أصاب سالف الأمم من اندثار.

إذ مادام سيف الإسلام موجوداً، فقد حان وقت العمل.

- وأين سعد بن معاذ بن جبل

فقد كان محارباً صلداً لا شبيه له ولا بديل

كى يصون الإيمان والإسلام من حملات الكفار

ويحفظ القـــرآن من جـــبروت أهـــل الإنجيل[1]

---

(١) فرخى اليزدى: الديوان، المطبعة الخامسة ١٣٤١ س تهران ص : ١٥١-١٥٢.

إيران - إسلام

أى وطـن پرور ايرانى اســـــلام پرسـت　　　هـمـــتى ز آنكه وطن رفـت چو اســلام زدست

بـرق ايران از خـصـم جـفـاجـو شـده پـست　　　دل پيـــغـمـــبـر را ظلم ســـتـمكاران خـــست

خلفا را همه دل غرقه بخو نست ز كفر
حال حيدر تتو ان ان گفت كه چونست زكفر

گـاه آنست كه زين ولوله وجوش وخـروش　　　كــه بپـا گـشــتـه زهر خـائن إسـلام فـروش

غـــيـــرت توده اســـلام‌در آيد در جـــوش　　　همگى مــتـحـــد ومـــتــفق ودوش بـدوش=

٦ - الدعوات إلى الاتحاد الإسلامي:

لعل الحديث عن ضعف المسلمين والبكاء على مجدهم الماضي، والشكوى مما ألم بهم خلال العصر الحديث من تدهور وتخلف، لعل هذا الحديث كان الدافع لدى جمال الدين الأفغاني وغيره من ذوي الرأي والمشورة من السياسيين والأدباء لكي ينادوا

= حفظ قرآن را بر دفع أجانب تازند
يا موفق شده يا جان گرامی بازند

مسجد ار بايد امروز كليسا نشود — يا وطن فردا منزلگه ترسا نشود

سبحه زنان وحرم دير بجبرا نشود — شور اسلامی بايست، ولی تا نشود

بود ايران ستم ديده چو إسلام غريب
وين دو معدوم ز جور وستم أهل صليب

حبذا روزی كاسلام طرفداری داشت — چون رسول مدنی (ص) سيدوسالار داشت

صدق صديقی وفاروق فدا كاری داشت — عمر وزن مرحب كش حيدر كراری داشت

روی حق جلوه كراز حمزهء نام أور بود
پشت اسلام قوی از مدد جعفر بود

داشت امروز كر اسلام نگهبانی چند — يا مسلمانی چند بوذر وسلمانی چند

يا كه ما نند زبير اشجع شجعانی چند — كی شدی پآمال از دست غرض رانی چند

غازيان أحد وبدر مگر در خوابند
كی بدنيا ز پی نصرت ما نشتا بند

هرگز اسلام نيد خوار چنين پيش ملل — سيف الله اگر داشت كنون حسن عمل

شد كجا سعد معاذ ابن معاذ ابن جبل — كو "ضرار" آن بل نام آور بی شبه وبدل

تا مصون دارن از جملهء كفر، ايمان را
ز أهل انجيل بجار حفظ كند قرآنرا

بفكرة "الاتحاد الإسلامى" كى يكون السلاح الذى يمكن الدول الإسلامية من التآخى والترابط أملاً فى التصدى لمحاولات الغرب المسيحى والصهيونية العالمية، وحتى يستعيد العالم الإسلامى مجده وعظمته. ومن الشعراء الذين أكثروا من الحديث عن الدعوة " إلى الاتحاد الإسلامى" شاعر إيران الكبير محمد تقى بهار، ولكثرة مانظم فإننا سنورد بعض أبيات من قصيدتين له تحدث فيهما عن هذا الاتحاد الإسلامى المنشود، وبيان فائدته المرجوة، أما العمل الأول فهو ترجيع بند بعنوان "اتحاد اسلام" وقد نظمه فى خراسان عام ١٢٨٧ هـ.ش (١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧م)، محاولاً أن يحرض إيران والإيرانيين على نبذ الاختلافات الذهبية، وتشجيعهم على الاتفاق والاتحاد مع دول العالم الإسلامى، وكذلك محاولة التعفف عن الثنائية والنفاق أملا فى أمة إسلامية موحدة قوية، ومما قاله ماترجمته:

- ما أكثر تساؤلك لم أصيبت الهند وأفغاستان وخوارزم وإيران بالخراب والدمار؟

- ما أكثر تساؤلك، لم استولى الدب المهيب على عرين الأسد؟

- وما أكثر تساؤلك، لم عجزت سواعد الأبطال عن العمل وقت الحاجة إليها؟

- وما أكثر تساؤلك، لم أصبحنا أسرى؟ ولماذا حريتنا مكبلة؟

ولكن، الآن وجبت الثورة والتعاون والتآخى

فاليوم يوم الاتفاق والاتحاد!

- الهند وتركيا ومصر وإيران، تونس وفاس والقوقاز وأفغاستان

- كلها مختلفة فى الهوية متفقة فى الدين، مختلفة فى الأجساد، متفقه فى الأرواح.

- جميعهم أتباع دين أحمد، كلهم تابعون للنص القرآني

- وإن يبكِ مسلم في طنجة، سرعان مايتألم المؤمن في بدخشان

حقا هذا هو طريق العباد

واليوم يوم الاتفاق والاتحاد ![1]

---

(١) ملك الشعراء بهار: الديوان، جـ١، ص ١٥٠-١٥٢، والنص الفارسي هو:

چند گوني چرا مانده ويران   هند وافغان وخوارزم وإيران

چند گوني چرا جسته مأوا   خرس پتياره برجاى شيران

چند گوني چرا روز حاجت   مانده از كار، دست دليران

چند گوني چراما اسيريم   زانكه آزادى ما أسيران

جنيش ودرستي و وداد است
روز يكرنگي واتحاد است

هند وركيه ومصر وإيران   تونس وفاس وقفقاز وافغان

در هويت دو، امّا بدين، يك   مختلف، تن ولى متحد، جان

جملگي پيرو دين أحمد   جملگى تابع نص قرآن

مسلمى گر بگريد به طنجه   مومنى نا لد اندر بدخشان

أرى اين راه ورسم عباد است
روز يكرنگي واتحاد است

أمـا النص الثـاني فـهـو عبـارة عن مـثنوي سـبق وأن نظمـه بهار عـام ١٣٨٦ ش (١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦م)، أي قـبل النص السـابق بعـام، وقـد نظمـه أيضًـا وهـو في خراسان عندما اشتعلت ثورة الشعب في إيران للمطالبة بحياة دستورية، وقد انضم بهار بعد ذلك إلى المطالبين بالحياة النيابية، وقد حاول في هذا المثنوي تقديم النصح للشاه القاجاري كي يحقق أماني الشعب وألا ينساق وراء استبداده وجبروته، ويظن أن اعتماده على القوى الأجنبية الممثلة في كل من إنجلترا وروسيا سيحميه من غضب الشعب، كما حاول أن ينبه الشاه إلى أن الود والسلام مع الدولة العثمانية أفضل من التبعية للمستعمر الأجنبي الذي يحاول تعميق الخلاف بين إيران والخلافة العثمانية بحجة الاختلاف المذهبي بينهما، وقد ركز بهار في تحذيره هذا على المطالبة بالاتحاد الإسلامي، والتعاون بين جميع الشعوب الإسلامية ضد القوى الاستعمارية، لأن في الاتحاد قوة ومنعة، وهذا هو السبيل الوحيد كي تستعيد إيران وكل دول العالم الإسلامي حريتها واستقلالها وسابق مجدها، ومما قاله بهار في هذا المثنوي الذي يصل عدد أبياته إلى المائة والأربعين بيتًا، نذكر ترجمة لعدد قليل من أبياته مركزين على تلك الأبيات التي تتحدث عن الاتحاد الإسلامي وضرورة الود والوئام بين جميع الشعوب الإسلامية وبخاصة بين إيران والدولة العثمانية، ومايتبع ذلك من نبذ لأي عصبية مذهبية افتعلتها إيران منذ قيام الدولة الصفوية الشيعية المذهب (٩٠٥ هـ) وحتي الآن!

- الأمة العثمانية ونحن أمة واحدة، إننا نبدو جماعتين ولكن مبدأنا واحد.

- ونحن وهم جماعتان نبتتا من منبت واحد، لذا فليس بيننا وبينهم حديث عن نحن أو عن الأنا.

- كنا ذات يوم طفلين صغيرين، أرضعتنا أمنا لبن الإسلام.

- وجمعت بيننا المحبة والتعاطف، وعقدنا العزم سويا على خدمة أمنا.

٥- ولكن نتيجة للتحذلق والادعاء، أصبحنا أذلاء مقهورين.

- وأخذ كل منا يجرى وراء أهوائه ومصالحة الذاتية، ويبذل الجهد والعرق لرواج سوقه.

- وقطعنا أواصر الأخوة بيننا، فاشتعلت نار الفتن فى عالمنا كله.

- وقد ألمت بنا الحيرة والاضطراب نتيجة الجهل، ولم ندرك حقيقة هذه المعانى.

- وهكذا عندما يكون الغصن وحيداً، سرعان مايسقط أمام عواصف الخريف.

١٠- ولكن عندما تتجاور الأشجار وتتحد، سرعان ماترتفع الأغصان كبيرها وصغيرها.

- فياليت المسلمين، ياليت ! يرفعون من بينهم الشعور بالإثنينية.

- فإن أمكنهم الاحتماء بحسن الجوار والتعاون، لأمكنهم النهوض كالأسود مرة أخرى.

- فيا أتباع الدين القويم، ويا أبناء الآباء الأقدمين.

- لم التفرقة بين سنى وشيعى؟ ولم السعى للإضرار بهذا أو بذاك؟

١٥- جميعنا مسلمون وأتباع دين واحد، وقد سبق أن تعلمنا جميعًا فى مدرسة واحدة.

- الدين واحد والمقصود واحد، الطريق واحد والعبادة واحدة والمعبود واحد.

- اليوم، وبقوة العلم والفضل، قد تلاشى الجهل وتبدد الظلم.

- وساد العدل الدنيا وانتشر، وتجددت أرواح أهل العقل وقلوبهم.

- وأصبح الصلح عيانًا، واختفت الحروب، ولم يعد هناك مجال للتخلف والتقهقر؛ فلم الاختلاف؟

٢٠- إننا معا خير عون لانتشار القرآن، وعلينا أن نفعل كل ما يليق بذلك.

- إذ أن كل مايرسخ دعائم هذا الدين، قاعدته العمل بالقرآن.

- ولكنكم كم ابتعدتم عن جوهر القرآن! وكم أذيتم روح النبى عليه السلام.

- وما يفعله الصليبيون ويسعون من أجله، هو محاولة التخلص من القرآن.

- ولكن طالما كان القرآن معنا ونحافظ عليه، فسيظل أساس الإيمان قويًا فى معسكرنا.

٢٥- فحينما يوجد القرآن، يوجد الإيمان، ولكن إن فقد أحدهما، فقد الآخر!

- أساس حريتنا فى العصر الحديث كذلك، قائم تمامًا على التمسك بالقرآن.

- وما أجمل أن تنفض الأمة الإسلامية يديها من الحقد والضغينة فيما بينها.

- لأن زيادة الشك وسوء النية بيننا، هما خصم أمتنا وعدوى ديننا.

- ولذا، فلا حيلة لنا غير الاتحاد، وهذا طريق الرشد، ونعم الرشاد!

٣٠- هذه هي النصيحة، فاصمت يابهار، وابحث عن نصيحة غالية لقلبك ألا وهى :

لاحيلة لنا إلا فى التأسى بالدين وكفى!

وهذه خاتمة الخير وكفى![1]

---

(١) ديوان بهار، جـ ٢، ص ١٣٩-١٤٥. =

هذه دعوة من مفكر إيراني وشاعر له مكانته، وقد أدرك أن الخلافات المذهبية التى قامت عليها الدولة الصفوية فى إيران منذ عام ٩٠٥ هـ وماتلتها من دول وحكومات

= ملت عثماني با ما يكى است
ما دو جماعت را مبدأ يكى است

ما دو گروهيم زيك پيرهن
نيست ميانه سخن ازما ومن =

روزى بوديم دو طفل صغير
داد بما مادر اسلام شير

هر دو بهم گرم دل ومهربان
خدمت مادر را بسته ميان

٥- ليك شديم از پى بيرايه أى
هريك مقهور كف دايه أى

جمله پى مصلحت كار خويش
نيز پى گرمى بازار خويش

ما دو برادر را بر هم زدند
اتش از اين فتنه بعالم زدند

اينك از أن جهل خبر گشته ايم
واز سر أين معنى بر گشته أيم

چونكه بتنهائى باشد نهال
ميشود از باد خزان پايمال

١٠- چونكهء تنيدند درختان بهم
شاخه كشيدند چه بيش وچه كم

أى كاش، أى كاش اگر اسلاميان
رسم دوئى را ببرند از ميان

تا كه بهمسايه دليرى كنند
بار دگر جنبش شيرى كنند

أى همگى پيرو دين قويم
أى پسرانى پدران قديم

سنى وشيعى زكه وكيستند ؟
در پى آزارهم از چيستند؟

١٥- جمله مسلمان وزيك مذهبند
جمله سبق خواندهء يك مكتبند

دين يك ومقصديك ومقصوديك
ره يك ومعبديك ومعبوديك

وامروز أن تيروى علم وهنر
جهل واستبداد نهان كرده سر

گيتى از عدل پر آوازه شد
جان ودل أهل خرد تازه شد

صلح عيان گشت ونهان كگشت جنگ
نيست دگر هيچ مجال درنگ

٢٠- هر دو بهم يارى قرآن كنيد
آنچه سزاوار بود أن كنيد

قد أدت إلى ضعف العالم الإسلامى وتفككه وأتاحت الفرصة للصليبيين الجدد فى الغرب من إذكاء نار هذا الخلاف، عملاً بمبدأ فرق تسد، وياليت العالم الإسلامى يدرك خطر هذه الفرقة المذهبية. إلهنا واحد، ونبينا واحد، وديننا واحد وقرآننا واحد"فلم الفرقة؟ ولم التشتت؟ ولم الانقسام؟

* * *

وإذا كان الأدب الحديث فى أى لغة قد اتسعت دائرة فنونه، ولم يعد يقتصر على القصيد وماشابهها من فنون الشعر، أو المقال وما ناظره من فنون النثر التقليدية المتوارثة، فقد استحدثت أنماط وفنون جديدة كالرواية والقصة والمسرحية وغيرها من الفنون التى أثرت الآداب الحديثة، وعلى هذا فإننا سنشير إلى بعض هذه الأنماط

= آنكه مر اين دين را بنيان نهاد　　　قاعده كار بقرآن نهاد

معنى قرآن زميان برده آيد　　　جان پيمبر را آزرده ايد

عيسوبان كاين همه جولان كنند　　　از پى گمنامى قرآن كنند

تا كه بود حمار قرآن بدست　　　باشد مان رشتهء ايمان بدست

٢٥- چونكه بود قرآن، إيمان بود　　　اين رود البته اگر آن رود

مايهء ازادى دوران ما　　　جمله نهفته است بقرآن ما

خوش بود ار ملت اسلام نيز　　　دست بشويند زكين وستيز

زانكه فزون است بدانديش ما　　　دشمن ملك وعدوى كيش ما

چارهء ما نيست بجز اتحاد　　　أين ره رشد است فنعم الرشاد

٣٠- پندهمين است خموش أى بهار　　　جوى دل پند نيوش أى بهار

چارهء ما يا رى دين است وبس

خاتمهء الخير همين است وبس

بصورة سريعة لأننا لن نستطيع أن نلم بكل هذه الأنماط الأدبية فى جزء من كتاب! أملين أن يكون الأدب الإسلامى فى إيران الحديثة موضوع دراسة مستقلة فى المستقبل القريب!.

٧ - من الأدب المسرحى:

وأول هذه الأنماط الأدبية الحديثة الوافدة إلى الساحة الأدبية الإيرانية بتأثير من الآداب الغربية، هو الأدب المسرحى، ومع أن الإيرانيين قد وظفوا هذا الفن فى معالجة قصصهم الأسطورية والشعبية فى المقام الأول، وبخاصة فى معالجة قصص الشاهنامة، إلا أنه قد وجدت بعض المسرحيات المأخوذة عن القصص الديني أو عن المنظومات الأدبية الفارسية الشهيرة، كما وجدت مسرحيات تعالج بعض المشاكل الاجتماعية أو الأنماط الأخلاقية المستمدة من أخلاقيات الإسلام وتعاليمه.

ومن المسرحيات الفارسية التي عالجت واحدة من أشهر القصص القرآنى مسرحية (يوسف وزليخا) تأليف ميرزا سليمان، وقد صدرت هذه المسرحية عن المطبعة الإتحادية فى طهران، دون أن يحدد مؤلفها أو ناشرها تاريخ صدورها، وقد آثرت الحديث بصورة مقتضبة عن هذه المسرحية لأن أدباء الفرس فى العصر الحديث وبخاصة فى الربع الأول من القرن العشرين الميلادى قد حرصوا على محاولة النهوض بأدبهم معتمدين فى ذلك على محاكاة الأدباء المرموقين في العصور الأدبية السابقة، وهذه الفترة تعرف فى تاريخ الأدب الفارسى بفترة اليقظة والإحياء.

ولما كانت قصة يوسف وزليخا من أعظم القصص التى تبارى الشعراء والكتاب الفرس عبر العصور المختلفة فى نظمها وسردها وعلى رأسهم الفردوسى والجامى كما سبق أن تحدثنا عن ذلك، فإن أدباء الفارسية فى العصر الحديث تمشيًا مع سياسة عصر اليقظة والإحياء قد أقبلوا على هذه القصة نظمًا ونثرًا. وحاول الكثيرون منهم

تقليد الأقدمين فيما كتبوا، كما حاول البعض الآخر إعادة صياغتها فى قالب أدبى جديد. ومنهم ميرزا سليمان الذى قدمها لنا فى صورة عمل مسرحى، وبما يستلزمه هذا الفن المسرحى من إعادة الصياغة لأحداثها!

وقد جاءت المسرحية في خمس وتسعين صفحة، أما عدد ممثليها فقد تجاوز الأربعين ممثلاً موزعين بين الأبطال الأساسيين وأهمهم يوسف ويعقوب وزليخا ووصيفتها والعزيز، أما الممثلون المساعدون فمنهم أخوة يوسف وابناه وساقى الملك وخبازه والخدم والجوارى والمغنيات والراقصات والعازفات وبعض الوزراء والمنجمين وكذلك عمال السجن وحراسه، إلى غير ذلك من الممثلين الذين يحتاجهم البناء المسرحى.

وقد قسم المؤلف المسرحية إلى خمسة فصول أساسية، تضم أربعة وعشرين مجلسًا، وكذلك خشبة المسرح تتغير فى كل فصل من فصول المسرحية الخمسة، وأحيانًا كانت تتغير من مجلس إلى مجلس داخل الفصل الواحد مما يقضى على الرتابة ويجدد النشاط لدى المتفرج، فقد جرت أحداث الفصل الأول فى أرض كنعان حيث الصحراء والرعى والبئر وغيرها من المناطق التى تتفق وطبيعة الوهاد والصحارى، أما الفصل الثاني فقد انتقل بنا المخرج إلى قصر زليخا بما فيه من مظاهر أبهة متمثلة فى فرش وثير وخدم وجوار وحفلات غناء وعزف موسيقى، مما يثرى العمل المسرحى بالحركة والنشاط والحيوية.

وفى الفصل الثالث يصور المخرج أرض مصر وبخاصة منزل العزيز وما به من ثراء ونعيم ، وكذلك سوق العبيد حيث عُرض يوسف للبيع وكذلك كثرة الحدائق والقصور التى كانت تنعم بها مصر فى ذلك الوقت، وماكان يقام فيها من حفلات وولائم تقدم فيها أشهى الأطعمة وأعذب الألحان.

وفى الفصل الرابع يتغير المسرح، وإذا به وقد فقد المناظر الخلابة والأبهة التى ميزت الفصلين السابقين، وينقلب المسرح إلى صورة مقبضة، صورة السجن الذى زج بيوسف فيه.

وأخيراً يأتى الفصل الخامس، وقد التأم شمل أسرة يعقوب بعد أن جاء الأخوة إلى مصر طلبًا للعون، وقد أكرم يوسف وفادتهم بعد أن أعطاهم درسًا قاسيًا فيما فعلوه معه.

وبعد أن التأم شمل يعقوب ويوسف وباقى الأخوة تنتهى المسرحية بفاصل غنائى تقدمه سارة ابنة أشر أخى يوسف، وقد لخصت فى هذا الفصل قصة يوسف منذ البداية حتى النهاية، وكأن المؤلف أراد أن يلخص أحداث المسرحية كلها فى هذا الفاصل الغنائى قبل أن تسدل الستار وتنتهى المسرحية.

وهكذا كانت خشبة المسرح تتبدل وتتغير مناظرها حسب المضمون العام لكل مجلس ولكل فصل.

ومادامت المسرحية قد شملت جانبًا غنائيًا، فقد قدم المخرج أكثر من لوحة غنائية إما فى صورة غناء فردى أمام زليخا، وإما فى صورة تابلوه جماعى.

أما الحوار الذى يعد الركن الأساسى للمسرحية، فقد كان متوافقًا مع أحداث كل فصل وكل مجلس، وكان الحوار إلى جانب كونه نثريًا، فقد كانت بعض أجزائه تأتى شعراً، كما جاء على لسان زليخا ويوسف وهى تعرض عليه حبها ويجيبها بالرفض والامتناع عن الانسياق لشهواتها، ومن بين ما قالاه نظمًا وهو يذكرها بأنها زوجة عزيز مصر، وأن زوجها يستطيع أن يوفر لها كل أسباب الراحة والرفاهية، أما هو فليس إلا عبداً ذليلاً؛ مايلى :

زليخا : إنه عزيز مملكة مصر	أما أنت فعزيز مملكة القلب
جميع العشاق قتلاك	من فرط حسنك وبهاك
يوسف : إننى غريب وذليل وضعيف	وليس لى من معين غير الله

ليس هناك من قتلته غير يعقوب المكلوم الحزين ![1]

وكذلك ما نظمته المغنيات بأمر من زليخا حول تقدم عجوز لشراء يوسف مقابل عدة حبال نسجتها بيديها، وهذه ترجمة لهذه الأبيات:

- تلك العجوز الضعيفة الواهنة، كانت قد نسجت عدة حبال.

- فتقدمت وسط هذا الجمع الحاشد قائلة: أيها الدلال الكنعاني.

- إنني جد مضطربة مما بى من رغبة في هذا الغلام، لذا فقد نسجت عشرة حبال.

- خذها مني، وبعه لي، وضع يده في يدى دون تردد أو جدال.

- ضحك الرجل، وقال: أيتها العجوز، ليس في مقدورك شراء هذا الدر اليتيم!

- لقد عرضوا في هذا المحفل ثمانمائة جرة من ذهب، فأين هذا من حبالك أيتها العجوز؟

- قالت العجوز: إنني على يقين بأنه لايوجد شخص سيشترى هذا الغلام بمثل ماعرضت.

---

(1) يوسف وزليخا بشكل درام ص ٤٠.

زليخا: عزيز ملك مصر است أو	عزيز ملك دلى تو
همه عشاق كشته ء تو	ز بس خوب وخوشگلى تو
يوسف: من غريب وخوار وزارم	جز خدا يارى ندارم
كس نباشد كشته ء من	غير يعقوب فكارم

- ولكن يكفينى أن يقول العدو والصديق : إن هذه العجوز كانت من مشتريه ![1]

وقد ذكر المؤلف فى بداية المسرحية أن ما ورد بها من أشعار بعضها منقول عن منظومات السابقين وبخاصة الفردوسى والجامى والبعض الآخر من نظمه هو، وكان يضع ماينقله عن الآخرين بين أقواس حتى لايتهم بالسرقة أما ماكان من نظمه فيكتبه دون أقواس.

ولاشك أن استخدامه عنصر الشعر فى بناء نثرى، كان الغرض منه الارتفاع بمستوى الأسلوب، وكذلك تذكير المتفرج من أنه قد اعتمد فيما ألف على بعض ماجاء فى المنظومات الشهيرة السابقة.

ولكون العمل المسرحى محدود بزمن غالبًا فقد حرص ميرزا سليمان على أن ينهى مسرحيته بمقدم يعقوب وبنيه إلى مصر ولقائهم بيوسف عليه السلام، ولم يحاول أن يواصل أحداث القصة كما جاءت في بعض المنظومات الفارسية، من حديث عن علاقة يوسف بزليخا بعد مقدم يعقوب، وتدخله لإقناع ابنه يوسف بالزواج منها، وما

(١) داستان: يوسف وزليخا بشكل درام؛ ص ٢٥.

أن زن پيرى بخون أغشته بود	ريسمانى چند برهم رشته بود
در ميان جمع أمد با خروش	گفت كاي دلال كنعانى فروش
ز أزوى أين پسر سر گشته أم	ده كلابه ريسمانش رسته أم
أين ز من بستان وبا من بيع كن	دست در دست منش نه بى سخن
خنده أمد مرد را گفت أى سليم	نيست در خورد تو أين در يتيم
هشت صد گنجيش بهادر أنجمن	چه تو وچه ريسمان أى پير زن
پير زن گفتا كه دانستم يقين	كاين پسر راكس نه بفروشد بين
ليك اينم بس كه چه دشمن چه دوست	گويد اين زن از خريداران أوست

تلا ذلك من أحداث سبق الحديث عنها أثناء عرض القصة عند كل من الفردوسى والجامى فى موضع سابق من هذا الكتاب!

* * *

أما المسرحية الثانية فهى من مسرحيات الفصل الواحد، وقد جاءت ضمن مجموعة المسرحيات التي ألفها تقى مشكوتى[1] ونشرها فى طهران عام ١٣٣٥ ش (١٩٥٥م) وقد ضمت هذه المجموعة خمساً وعشرين مسرحية من مسرحيات الفصل الواحد، أقصرها يقع فى أربع صفحات وأطولها يقع في اثنتى عشرة صفحة، وهذه المسرحيات متنوعة الأغراض فبعضها فى قالب فكاهى، وبعضها يعالج موضوعات اجتماعية، والبعض الآخر ذات مغزى أخلاقى...

وقد ذكر المؤلف أنه عنى فى هذه المجموعة بأن تكون جميع مسرحياتها متوخية الأخلاق والتهذيب المستمد من واقع تعاليم الدين الإسلامى الحنيف وطبيعة الشعب الإيرانى، حتى تكون إلى جانب القيمة الفنية، لها قيمتها الموضوعية، وليس الغرض منها الإضحاك للإضحاك ولو حتى فى المسرحيات الهزلية منها، لأن رسالة الأدب يجب أن تكون فى خدمة المجتمع، وأن يكون بمثابة المرشد لقارئيه أو لمشاهدى مسرحياته، وقد ألف هذه المسرحيات إما لعرضها على خشبة المسرح أو لتقديمها فى برامج إذاعية، كما حرص على أن تكون لغتها سلسة حتى يستطيع الجميع من الكبار أو الناشئة قراءتها واستيعاب مضامينها الفنية والأخلاقية.

وقد اخترت من بين هذه المجموعة، مسرحية "بهشت" أى "الجنة" وهى مسرحية ذات مغزى أخلاقى، كما صنفها المؤلف نفسه[2] وهي تقع فى خمس صفحات فقط،

---

(١) تقى مشكوتى: نمايشنامه ها، تهران: ١٣٣٥ ش.

(٢) المرجع السابق، ص : ١٢٣-١٢٧.

وأبطالها ثلاثة، شخصيتان محوريتان هما "ليلا" و "زيلا" وشخصية مساعدة تتمثل فى حارس الجنة.

وتبدأ المسرحية بأن يرفع الستار بمصاحبة عزف موسيقى نشاز يعبر عن القلق ويظهر المسرح كغرفة نوم ترقد بها شقيقتان، والإضاءة خافتة تعبر عن أن الوقت ليل، وفجأة تسيقظ إحدى الفتاتين منزعجة وهى ليلا ويبدأ الحوار.

ليــــــــلا : زيلا! عزيزتى زيل! اصحي، إننى خائفة، زيلا!

زيــــــــلا : تتنهد ثم تغط فى نومها

ليــــــــلا : هيا استيقظى، عزيزتى زيلا، إننى خائفة، زيلا!

زيــــــــلا : ماذا؟ ما الخبر؟ لماذا لاتتركينى أنام؟

ليــــــــلا : عزيزتى زيلا. إننى لا أستطيع النوم هذه الليلة، أرجوك الجلوس معى حتى نتسامر ونتحدث!

زيــــــــلا : عجبًا، أنت "رايقة" إننى راغبة فى النوم، حرام أن أستيقظ، وفى أى شىء سأتحدث معك؟ لعلك جننت، نامى يا أختى! مم تخافين؟

ليــــــــلا : إننى لا أرغب فى إيقاظ أمنا التي أوت إلى حجرتها كى تنام، كل ما أريده أن نتسامر ونتحدث قليلاً حتى يأتينى النوم!

زيــــــــلا : حسنا، انتظرى حتي أضىء مصباح الغرفة (وهنايسمع صوت مفتاح النور) والآن. ماالحكاية ؟

ليــــــــلا : انتبهى إلي ياعزيزتى زيلا: هل تعرفين لماذا يجافينى النوم الليلة؟

زيــــــــلا : لماذا؟

ليــــــــلا : ذلك لأننا ارتكبنا اليوم ذلك العمل الغاية فى السوء!

زيـــــــلا : أى عمل غاية فى السوء هذا؟

ليـــــــلا : اليوم عندما نزعت القفل، وقلت: هيا ساعدينى، وطلبت منى أن أدلف داخل "الخزانة" وأحضر بعض الحلوى، هذا العمل هو السرقة بعينها. ولما كانت أمنا لا تعرف شيئًا عن هذا الأمر، وفعلناه دون علمها، فهذه سرقة!

زيـــــــلا : أفيقى. لقدرغبنا فى الحلوى، فأخذناها، وأكلناها. فأى سرقة هذه؟

ليـــــــلا : لا؛ أفيقى أنت يازيلا العزيزة. إن كل مانحبه ونرغبه تقدمه لنا أمنا وأبونا، ولكن أى شىء يتم دون معرفتها ونأخذه ونأكله، هذا يسمى سرقة! ومصير الإنسان اللص إلى جهنم !

زيـــــــلا : لاشك أن مصيرك إلى جهنم. وفى المقابل سيكون مكانى الجنة!

ليـــــــلا : لا، إنك مخطئة، أنا لا أفعل مثلك بأن أكذب، بأن أكذب دائمًا وألحق الأذى بأمنا، وأتغيب عن درسى! إننى لم أفعل أى سوء بدر منى اليوم. وعاد الجميع؛ أمى وأبى ومعلمتى، راضون عنى، لذا فمكانى هو الجنة! * * *

ويتواصل الحوار بينهما حتى وصلا إلى ماذا يعرفان عن الجنة، ومما قالته ليلاً بما يتفق وتفكيرها وسنها.

ليـــــــلا : لقد قالت معلمتى ذات مرة، إن الجنة مكان طاهر، تكثر بها الفواكه المتنوعة والطيبة، وكذلك الورود الزاهية الألوان، والأشجار المورقة الباسقة وفيها كل ما يتمناه قلبك!

ثم يتواصل الحوار بينهما، وكانت نغمة الحوار الصادر من زيلا ينم عن استخفاف بأختها ليلا وسخرية مما دفع ليلا للقول: ألم أقل لك أكثر من مرة أنك أختى الكبرى ويجب أن تفعلى مايجعلنى أضاعف من احترامى لك.

زيـــــــلا : لماذا تسخرين منى؟

صه. صه. ومن ذا يولى حديثك أى أهمية؟! دعينى أنام!

سرعان ماغطت زيلا فى نوم عميق، أما ليلا فقد أمسكت بكتاب كي تقرأ فيه حتى يغزوها النوم، وقد أدارت المذياع على موسيقى هادئة، وفجأة تستيقظ زيلا.

زيـــــــلا : ليلا! ليلا! استيقظى! لقد رأيت الجنة فى منامى!

لـيـــــــلا : أتقولين الصدق؟ هيا أخبرنى!

زيـــــــلا : لقد رأيت فى المنام عرشًا عظيمًا وأنت تجلسين عليه، ويحيط بك العديد من الملائكة يلبون لك كل ما تطلبين، وقد أحضروا لك كل مالذ وطاب من طعام، وكنت غاية فى السعادة لدخولك الجنة، ولكنى على العكس كنت بائسة، وقد التمست من حارس الجنة أن يدخلنى حتى أري أختى، ولكنه أجاب قائلاً:

حارس الجنة : هل تدركين كم كانت أختك تحبك، وفى المقابل كنت تسخرين منها ولاتأبهين بها ، هل تدركين كم كانت ليلا تحترم والديها وتنفذ أوامرهما بكل دقة وطواعية، وأن أختك كانت جد عطوفة علي الفقراء والأطفال الصغار، وأنها لم ترتكب أى خطأ ولو صغير طوال عمرها . بعكسك أنت، فلا أحد راض عنك وستكونين من بين الذين سيساقون إلى جهنم!

زيـــــــلا : ارتميت على الأرض باكية، وقلت مرة أخرى سأتوب ولن يصدر منى أى عمل سيئ ولن يسمع منى أحد حتي الصغار حرفًا واحدًا يؤذيهم، وسأجتهد فى إرضاء والدى ووالدتى، فقبل حارس الجنة حديثى وسمح لى بالدخول إلى الجنة!

وما أن دخلت زيلا الجنة حتي رحب بها الملائكة معلنين أن أمة تابت إلى ربها، فمرحى مرحى بها! ثم تركوها تمضى إلى حيث توجد أختها ليلا!

زيـــــلا : حقا عزيزتى ليلا. لن أكون مرة أخرى زيلا النافرة العاصية الكاذبة العديمة الأخلاق. سأكون من اليوم فتاة مهذبة أحافظ على دروسى، وأسمع الكلام وأنفذه، وكم أستمسحك أن تصفحى عما بدر منى قبل ذلك فى حقك من كلام سيء

ليـــــلا : لك ما أردت يا أختى العزيزة، أى حديث هذا؟ إننى أحبك كنفسى. وانتهى الأمر بينهما بالعناق. وأسدل الستار!

* * *

وهكذا دار الحديث بين الأختين، عما يجب على الإنسان فعله كي يحظى برضاء الله ووالديه وعامة الناس، ومن حظى بهذه المنزلة كان مآله إلى الجنة ونعيمها، على عكس الإنسان النافر العاصي المذنب فى حق الجميع، فمآله إلى النار والعياذ بالله، وهكذا كانت المسرحية ذات مسحة أخلاقية تتفق والخلق الإسلامى القويم، وما يدعو إليه ديننا الحنيف من عمل صالح وسلوك طيب يضمن لصاحبه خير العاقبة.

والملاحظ أن المؤلف قد كتب مسرحيته بأسلوب سهل بسيط مباشر بعيد عن الرمز والغموض؛ ولعل المؤلف قد كتبها كى تقدم على خشبة المسرح المدرسى، أو فى برامج الأطفال بالإذاعة.

* * *

٨- من الأدب الروائى:

إذا كنا قد تحدثنا عن بعض الأنماط الأدبية النثرية الجديدة فى العصر الحديث والتى تناولت القيم الإسلامية والقصص الدينى، ومنها المقال الذى كتبه جمال الدين الأفغانى وكذلك الأدب المسرحي كما جاء فى الإطلالة السريعة على مسرحية "يوسف وزليخا" لميرزا سليمان، أو مسرحية الفصل الواحد الممثلة فى مسرحية "بهشت" فقد بقيت أنماط أدبية عديدة في العصر الحديث لم تقدم منها نماذج، ولكن لكثرة هذه

الأنماط وتعددها وتشعبها فإننا سنكتفى بإشارة مقتضبة إلى أحد الروايات التى كتبها أحد كبار كتاب الرواية فى الأدب الفارسى الحديث والذى ترجمت له عدة أعمال إلى العديد من اللغات ومنها اللغة العربية، إنه الروائى الشهير جلال آل أحمد، أما روايته هذه فهى "خسى در ميقات" وقد كتبها ليسجل انطباعاته عن رحلة الحج عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٣م)، (١٣٤٣ش) (١٩٨٥م)، ولم يكن الكاتب فى هذه الرواية يكتب أدب رحلات كسابقيه ناصر خسرو ومهد يقلى هدايت، بل كان يكتب انطباعاته وعلى الرغم من أننا قد لا نوافق عل بعض هذه الانطباعات الشخصية، إلا أننا سنذكر بعض الملاحظات والمشاهدات التى لم يرد مثلها في الرحلتين السابق الحديث عنهما من قبل فى هذا الكتاب.

" كانت الرحلة من إيران إلى المملكة العربية السعودية عن طريق الجو، فقد غادرت طائرة الحجاج مطار مهراباد بطهران يوم الجمعة ٢١ من فردرين عام ١٣٤٣ هـ.ش، وكان على متن الطائرة خمسة وثمانون حاجًا، وكان الوصول بعد طيران دام ثلاث ساعات - إلى مطار جدة، ومنها إلى مدينة الحجاج الملحقة به، وهى مدينة جيدة، شيدت لتستقبل وفود الرحمن وحجاج بيته الكريم كى يستريحوا فيها فترة من عناء السفر، وحتى يتم إعداد وسائل النقل التى تنقلهم إما إلى مكة أو إلى المدينة المنورة.

وإلى جانب مدينة الحجاج الملحقة بالمطار، توجد مدينة أخرى للحجاج القادمين عن طريق البحر إلى جدة، وقد كان بناؤهما وتجهيزهما هدفه حسن استقبال الحجاج والعمل على راحتهم حتى يتفرغوا للعبادة والتكبير والتهليل، ومدن الحجاج هذه من الإضافات التي تحمد للحكومة السعودية الحالية والتى تم بناؤها ضمن العديد من الإجراءات التى تحاول الحكومة السعودية توفيرها لخدمة الحجاج، وتزداد هذه الخدمات سنة بعد أخرى!

وأثناء وجوده بمدينة الحجاج الملحقة بالمطار فى انتظار الحافلات التى ستنقله ومرافقيه إلى المدينة المنورة، طوف بفكره حول بعض المعلومات عن جدة والمملكة، فقال

إن تعداد أهل جدة فى ذلك الوقت كان يتراوح بين مائتين وخمسين ألفًا وثلاثمائة ألف من السكان، أما تعداد المملكة فكان يتراوح ما بين سبعة ملايين أو ثمانية ملايين نسمة، كما أشار إلى الصحف الصادرة فى المملكة وذكر منها ثلاث صحف، اثنتان منها يومية وهما "البلاد" و "الندوة" والثالثة أسبوعية وهى "أم القرى".

أما عن سكان المملكة فقد ذكر أن سكان المناطق الشرقية منها يقبلون على شرب القهوة العربية، أما في المناطق الغربية فهم يحتسون الشاى. كما أشار إلى الصرافين الذين يتواجدون بكثرة فى جميع المناطق التى يفد إليها الحجاج، فقال إن معظم الحجاج يذهبون إلى هؤلاء الصيارفة لاستبدال عملاتهم بالريال السعودى دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الذهاب إلى البنوك؛ حيث إن التعامل مع هؤلاء الصيارفة أيسر وأسهل، إذ يتم الاستبدال دون إجراءات مطولة. ويساعد على هذا أن معظم الصيارفة قادرون على التفاهم بكل اللغات ومنها الفارسية والتركية والأردية والجاوية وغيرها ...

ومما قاله أيضا: وعادة تصحب كل بعثة حج رسمية بعثة طبية تكون فى خدمة عباد الرحمن جميعهم دون تفرقة، إذ لايقتصر عمل أى بعثة منها على معالجة مواطنيهم، بل إنهم يعالجون الجميع دون أية تفرقة، وهذا مظهر طيب لروح التآخى والتعاون الإسلامى، وعادة توزع هذه البعثات بمعرفة المسئولين السعوديين على جميع الأماكن التى يتواجد فيها الحجاج بدءًا من مدينتى الحجاج بجدة إلى جميع الأماكن المقدسة بكل من مكة والمدينة ومنى وعرفات ...

وبعد أن استراح الحجاج عدة ساعات ومعهم مؤلف الرواية جلال آل أحمد. حضرت الحافلات لتنقلهم إلى المدينة لزيارة مسجد الرسول عليه السلام حيث كان الوقت يسمح لهم بإتمام هذه الزيارة قبل التوجه صوب مكة.

وقد تحركت الحافلة من جدة فى الثانية عشرة مساءً، وكان وصولها إلى المدينة المنورة فى الخامسة صباحًا)، ونزلت القافلة فى بناية حديثة خارج المدينة بمحلة درب

الجنائز، وهى محطة تحيط بها حدائق النخيل، ومن المعروف أن تمر المدينة من أفضل وأغلى التمور فى الجزيرة العربية كلها...

استراح الحجاج فى هذه البناية طوال النهار، ومع قرب حلول صلاة المغرب توجه الجميع صوب مسجد الرسول عليه السلام، وبعد صلاة المغرب انخرط المصلون فى التكبير والتهليل، وانشغل البعض بعد ذلك بقراءة القرآن الكريم، كما انتشرت حلقات الدرس والوعظ فى جميع أركان المسجد النبوى، وكانت إحدى هذه الحلقات يؤمها الناطقون بالأوردية من باكستان والهند حيث كان المتحدث فيها يقدم وعظه وإرشاداته باللغة الأوردية، وإلى جوارها كانت توجد ثلاث حلقات أخرى، يدور الحديث فيها باللغة العربية ...

وقد لاحظت أن بعض الحجاج يحاول تقبيل الأسوار المحيطة بقبر الرسول عليه السلام، ولكن أفراد الشرطة السعودية كانوا يحاولون منعهم بالحسنى ودون إيذاء أو اعتداء.

ومما يلفت النظر كذلك تطوع بعض العمال والحجاج بحمل المياه والطواف بين المصلين، كى يقدموا لهم مياه الشرب فى أكواب وأباريق صنع معظمها فى بلاد الهند.

وعند الخروج من المسجد يسترعى الانتباه كثرة المحال المحيطة بالمسجد من كل جوانبه، وإلى جانبها أسواق أخرى تفترش الأرض، وكانت حركة البيع على أشدها مما يذكرنا بأسواق عكاظ.

وفى ليلة الأحد ٢٣ فروردين (التاسع والعشرين من شهر ذى القعدة) كانت الاستعدادات جارية لاستطلاع مولد هلال ذى الحجة، وقد جرت العادة أن يتم الإعلان من دار الندوة بما يلى: كل من يرى الهلال فى أى بقعة من بقاع المملكة عليه بإبلاغ رئيس المحكمة الشرعية حتى يعلن ثبوت رؤية الهلال وبذا يتم الإعلان عن موعد بداية شهر ذى الحجة، وعلى أساسه سيتم تحديد يوم عرفة ويوم النحر.

وفى نفس هذا اليوم الأحد قام جلال آل أحمد بجولة حول المدينة حيث زار عدداً من المساجد الموجودة بها ومنها مسجد أبى ذر الغفارى الموجود أمام البوابة الشمالية للمدينة وبعدها زار مسجد أبى بكر ثم مسجد الغمامة، وكان يقرأ فى كل مسجد منها بعض آيات القران الكريم، كما زار مسجد قباء جنوبى المدينة بعد ذلك.

وقد قال عن مسجد قباء: وهذا المسجد هو الذى نزلت فى حقه الآية الكريمة ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾... (التوبة : ١٠٨).

أما يوم الإثنين الرابع والعشرين من فروردين (الأول من ذى الحجة) فقد ذهب إلى البقيع لقراءة الفاتحة على قبور الشهداء وأموات المسلمين، ولكى يبحث عن قبر أخيه المتوفى فى المدينة من ثلاث عشرة سنة حيث دُفن بالبقيع، ولكنه لم يستطع الاهتداء إلى قبر أخيه حيث لاتوجد شواهد للقبور فى منطقة البقيع.

وفى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من فروردين (الثانى من ذى الحجة) توجه إلى مسجد الرسول عليه السلام ودخله كعادته من باب السلام، أوسع أبواب المسجد وأكثرها راحة فى الدخول والخروج. وقال إن طائر الحمام يكثر عند هذا الباب، كما لاحظ أن أسماء الرجال من الصحابة والتابعين فى الصدر الأول من الإسلام قد كتبت على جدران الصحن من جميع الجهات.

أما عن يوم التوجه إلى مكة، فقد كان مساء الجمعة الثامن والعشرين فروردين (السادس من ذى الحجة) حيث تحركت الحافلة الساعة الثامنة والنصف مساءً، وكان الوصول إلى مكة الساعة الرابعة والنصف من صباح السبت (السابع من ذى الحجة)، وقد توقفت الحافلة عند مسجد حلفة خارج المدينة حتى يحرم الحجاج إذ أن هذا المسجد مكان ميقات الحجاج القادمين عن طريق المدينة المنورة، وبعد ذلك تحركت الحافلة مرة أخرى ولم تقف إلا مرة واحدة فى رابغ!

وبعد أن وصلت القافلة إلى مكة المكرمة توجه الحجاج لطواف القدوم والسعى بين الصفا والمروة، وبعد أن أدى جلال آل أحمد هذه المناسك، علق على مكان الطواف وكذلك المسعى بين الصفا والمروة حيث قال:

لقد تم تسقيف دائرة الطواف حول الكعبة، حيث جعلوه من طابقين، وبذا اتسع مكان الطواف حتى أصبح يسع ثلاثة أو أربعة أضعاف الطائفين حول البيت الحرام، كما تم تكسية دائرة الطواف حول الكعبة بالرخام المرمرى.

أما عن المسعى بين الصفا والمروة فقد تم تعبيد الطريق بعد أن كان أرضًا صخرية وذات حصى ورمال، كل هذا فعلته الحكومة السعودية تخفيفًا عن الحجاج وتيسيراً لأداء المناسك دون مشقة وعناء ما أمكن!

أما عن حكمة الحج فقد قال : وحكمة الحج تتمثل فى كونه أكبر تجمع إسلامى، بل إنه أكبر تجمع بشرى فى مكان واحد، واجتماع المسلمين هكذا دليل على قوتهم ووحدتهم، وياليتهم ينتهزون فرصة الحج كمؤتمر عام يعقد سنويًا لتدارس أحوال المسلمين والنهوض بهم وتخطى جميع العقبات التى تعترض طريق توحدهم، واستعادة ريادتهم للعالم !

وكان جلال آل أحمد يتحدث عن انطباعاته عن كل مكان زاره، وعن كل مايوفر للحجاج حجًا هادئًا مقبولاً من الله عز وجل.. وقد عاب على بعض الحجاج الوافدين من وسط إفريقيا أو من شرق آسيا عدم التزامهم بالنظافة العامة فى الشوارع والخيام على الرغم مما تبذله الحكومة السعودية فى هذا المضمار كما عاب على البعض الذين يأخذهم الحماس فى رمى الجمرات، فإذا بهم بدلاً من رمى إبليس بالحصار يسارعون برميه بالنعال التى يرتدونها أو بما شابه ذلك.

كما اشتكى بعض الشىء من سوء بعض الحافلات التى تنقل الحجاج من جدة إلى المدينة أو من المدينة إلى مكة، كما أشار إلى قلة المياه أو انقطاعها أحيانًا فى بعض الأماكن المقدسة كعرفات ومنى إلا أن هذه الأمور أولتها الحكومة السعودية

جل اهتمامها ووفرت الآن أفخم الحافلات المكيفة وكذلك وفرت المياه فى كل الأماكن المقدسة، بل وشجرت هذه الأماكن بشكل كثيف وبخاصة فى منطقة عرفات، ولا تدخر الحكومة السعودية أى جهد فى هذا المضمار، بل إن ما تفعله محسوس ملموس بشكل ملفت للنظر، ولا يستطيع أى إنسان أن ينكره.

وإذا كان قد ذكر بعض السلبيات التى تحدث من بعض الحجاج أو بسبب الزحام الشديد فهو لا يبغى إلا الصلاح - كما يقول - وأن يكون هذا الحدث الإسلامى العظيم فى صورته مطابقًا لقيمته الروحية الإيمانية.

لذا أنهى روايته هذه بما ملخصه:

«لقد سجلت رحلتى هذه لتكون تحت تصرف كل الأخوة الحجاج، ولو فعل كل حاج وكتب انطباعاته وسجل آراءه، وإذا كان ملايين الملايين من الذين أدوا هذه الفريضة طوال الأربعة عشر قرنًا قد سجلوا انطباعاتهم ومشاهداتهم، لكان هذا خير وسيلة لتلافى أى سلبيات ولو كانت بسيطة، ولكانت هذه الرحلة الإيمانية أفضل رحلة: عقيدةً وعملا! ولا ننسى أن هذه الفريضة يجب أن تؤدى على الوجه الأكمل، وبفهم صحيح ووعى كامل، وأن يتوفر للحجاج كل أسباب الراحة حتى يتفرغوا لأداء المناسك فى تبتل وخشوع.

وإلى جانب ذلك أشار إلى هدف آخر كان يسعى إلى تحقيقه من وراء تسجيل انطباعاته هذه، حيث قال:

كما كنت حريصًا على أن أسجل ملاحظاتى ومشاهداتى لندرك الفرق بين ماسجله ناصر خسرو فى كتابه سفر نامه خلال القرن الخامس الهجرى، وما أصبح عليه الحال الآن فى القرن الرابع عشر الهجرى!»[١].

(١) جلال آل أحمد : خسى در ميقات.

ومما يجدر ذكره أن هذه الرحلة الإيمانية قد استغرقت تسعة عشر يومًا حيث كانت عودتهم إلى إيران فى التاسع من أرديبهشت ١٣٤٣ ش (السابع عشر من ذى الحجة).

ومن الجدير بالذكر أنه سجل نقلاً عن الصحف السعودية الصادرة فى ذلك الوقت بأن عدد الحجاج فى ذلك العام بلغ مليونًا وسته وستين ألف حاج تقريبًا، أما الآن فقد تزايد العدد وتخطى المليونين منذ عدة سنوات، ونسأل الله أن يتزايد ويتزايد، ليكون هذا المؤتمر الإسلامى الكبير خير دليل على اتساع رقعة الإسلام وزيادة انتشاره بين الخلق جميعًا من كل الأجناس والأوطان، وعلى الله قصد السبيل!

هذه بعض الإشارات السريعة إلى المعانى السامية التى ضمنها بعض الأدباء والشعراء الإيرانيين فى العصر الحديث فى إبداعاتهم الأدبية المتنوعة.

ولا شك أن الحديث عن أنماط الأدب الفارسى الحديث عديدة ومتشعبة ولا يكفيها مقال أو فصل فى كتاب، لذا اكتفينا بهذه الإشارات المتقضبة والسريعة، لعل الفرصة تسنح بعد ذلك للكتابة فى هذا الموضوع بالتفصيل، وبتقديم نماذج كثيرة تكون أكثر تعبيرًا وأشمل مضمونًا وشكلا.

والله الموفق

الفصل التاسع

اللغة الفارسية وآدابها خارج إيران

اللغة الفارسية وآدابها فى الهند وآسيا الصغرى

يرجع الإيرانيون والهنود إلى أصل واحد هو الأصل الآرى ، وتعتبر اللغة الآرية أصل اللغات الإيرانية ومعظم اللغات الهندية ، كما أن هناك تشابه كبير فى كثير من المعتقدات الدينية والعادات والتقاليد والأساطير عند الشعبين ، وقد نشأت من هذا المنطلق صلات أدبية بين الشعبين منذ زمن بعيد ، ففى زمن الساسانيين - وخاصة فى عهد خسرو أنو شيروان أى فى القرن السادس قبل الميلاد - كان هناك نوع من التبادل الفكرى والمادى بين الجانبين . ومن ذلك ماترجم من كتب هندية إلى اللغة البهلوية بأمر أنو شيروان ، ومثال ذلك ما حدث من ذهاب برزويه الطبيب إلى الهند وإحضاره لكتاب كليلة ودمنة وترجمته إلى اللغة البهلوية ، وهو الكتاب الذى نقله بعد ذلك روذبه المعروف بابن المقفع إلى اللغة العربية ، ثم نقله بعد ذلك أبو المعالى إلى اللغة الفارسية فى القرن السادس الهجرى . وقد تطورت العلاقات الأدبية بين الهند وإيران فى العصر الإسلامى ، ففى أواخر القرن الرابع الهجرى توجه السلطان محمود الغزنوى إلى الهند ، واستطاع خلال فترة تجاوزت العشرين عامًا الاستيلاء على قسم كبير من الهند عن طريق الهجمات المتتالية ، وحكم خلفاؤه تلك البلاد زهاء مائة وثمانين سنة .

وبغض النظر عن المصائب والقتل والغارات التى حدثت خلال تلك الفترة ، فقد أدت تلك الغزوات إلى فتح طريق دينى وأدبى وعلمى بين إيران والهند منذ القرن الخامس الهجرى مما أفاد البلدين فائدة عظيمة ، واتجه كثير من الإيرانيين من العلماء والأدباء إلى الهند ، ومن أمثال هؤلاء نذكر أبا الريحان البيرونى الذى سافر إلى الهند فى أواخر القرن الرابع الهجرى فى رفقة السلطان محمود الغزنوى وجمع هناك

معلومات مفيدة عن أحوال الهنود ومعتقداتهم وعاداتهم ، ضمنها مؤلفاته القيمة وخاصة كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة" وفى هذه الفترة أيضًا تجول شعراء إيرانيون عظام من أمثال الفرخى والعنصرى وأمثالهما فى بلاد الهند برفقة السلطان محمود وسجلوا ذلك فى أشعارهم ، واستمر سفر الشعراء الإيرانيين إلى الهند فى العصر الغزنوى من أمثال أبى الفرج الرونى ومسعود سعد سلمان ، ومن الكتاب عوفى مؤلف كتاب "لباب الألباب" فى تراجم الشعراء ، ومنهاج السراج صاحب كتاب "طبقات ناصرى" وغيرهم.

وكان من نتيجة هذا الاتصال السياسى والأدبى المتواصل أن انتشرت اللغة الفارسية وآدابها فى الهند ، ونشأت لغة جديدة نتيجة اختلاط اللغة الفارسية باللغة السنسكريتية ، وهى التى تسمى باللغة الأردية وهى اللغة الرسمية لباكستان اليوم . ولم يقتصر الأمر على الشعراء الإيرانيين الذين نزحوا إلى تلك الديار ، بل نشأ فى الهند شعراء وكتاب ينظمون الشعر ويكتبون مؤلفاتهم باللغة الفارسية ، ويصل تعداد الشعراء الذين نظموا بالفارسية فى بعض الولايات الهندية إلى المئات ، ومن أشهر الشعراء الذين برزوا فى تلك البلاد ونظموا شعرًا فارسيًا الأمير خسرو الدهلوى (٦٥١-٧٢٥هـ) الذى يطلق عليه لقب سعدى الهند ، نسبة إلى الشاعر الإيرانى سعدى الشيرازى . ومن شعره قوله:[١]

---

(١) هر كه درو سيرت نيكو بود — ادمى از آدميان أو بود
وآنكه مزاجش همه زورست وزور — دور ز ما أديان است دور
نيكى مردم نه نكو روى است — خوى نكو مايه نيكوى است
مرد درون تيره وبيرون سليم — زشت بود استر ديبا گليم
بخل عيان به كه بعشوه نويد — روى سيه به كه زيپسى سفيد
بس بد بدخو كه نكو رو نمود — با خط بد كلك منقش چه سود
باز بسا تلخ كه جوشد چومى — ليك صفا روى نمايد زوى

(انظر : تاريخ ادبيان دير ايران - تأليف دكتر نبيح الله صفا - جلد سوم - بخش دوم - تهران ١٣٥٢ - ص ٧٨٩)

- كل من يتصف بحسن السيرة ، يكون أدميا ينتسب للآدميين.
- وكل من يتصف مزاجه بالعنف والشدة ، يكون بعيداً عنا نحن الآدميين.
- إن حسن المرء ليس فى جمال وجهه ، فالطبع الحسن هو أساس الحسن.
- فالإنسان الذى يبدو مظهره حسنًا وباطنه سيئًا ، يكون قبيحًا كالملابس التى يكون ظاهرها من الحرير وبطانتها من رخيص القماش ورديئه.
- البخل الظاهر أفضل من البشرى المخفية ، والوجه الأسود أفضل من الوجه الأبيض من داء البرص.
- فما أكثر سيئى الطباع الذين يبدون بشاشة ورقة ، ولكن ماذا يفيد القلم الجميل إذا كان سيئ الخط.

وكم من المرارة فى طعم الخمر ، بينما تبدو صافية شفافة للناظرين.

وقد قام كثير من حكام الهند المسلمين بتشجيع الأدب الفارسى ، ويمكن أن نذكر فى هذا الصدد زين العابدين حاكم كشمير (٨٧٢-٨٢٠هـ) ، ومعاصره خسينشاه حاكم البنغال ، اللذين بذلا جهداً كبيراً فى نشر المؤلفات الفارسية وترجمة الكتب من اللغة السنسكريتية إلى اللغة الفارسية.

وقد بلغت اللغة الفارسية وآدابها مكانة عالية أيام المغول الذين حكموا فى الهند أكثر من ثلاثمائة عام ، فكانت اللغة الفارسية هى لغة العلم والأدب ، وقد اجتمع حول جلال الدين أكبر أحد ملوكهم أكثر من مائة شاعر ينظمون الشعر بالفارسية ، منهم من نبغ فى الهند ومنهم من وفد إليها من إيران ، ومنهم فيضى الدكنى الذى يعد أعظم شاعر بعد الأمير خسرو الدهلوى ، ويعتبر أخوه أبو الفضل من فضلاء بلاط ذلك السلطان ، ومن مؤلفاته كتاب "أكبر نامه" ويمكن أن نذكر أيضًا عرفى الشيرازى وظهورى الترشيرى وغيرهما.

ولم يكتف حكام المغول بتشجيع اللغة الفارسية والنظم والتأليف بها ، بل إن بعضهم كان ينظم الشعر مثل بابر وابنه همايون وأكبر شاه وجهانكير . وفى عهد السلطان شاهجهان توجه عدد من الشعراء الإيرانيين إلى الهند من أمثال صائب التبريزى ومن الكتاب نواندمير مؤلف كتاب "تاريخ حبيب السير" ومما يميز الأدب الإيرانى فى الهند موضوع تأليف كتب التراجم أو "التذاكر" وكذلك المعاجم التى حفظت اللغة الفارسية وشرحتها.

وقد استمرت العلاقات الأدبية بين الهند وإيران حتى بعد تقسيم تلك البلاد إلى الهند وباكستان ، ومازال هناك مئات من الكتاب المتخصصين فى الدراسات الإيرانية، ، وكذلك الشعراء الذين ينظمون بالفارسية ، ونذكر من هؤلاء الشاعر ميرزا عبد القادر بيدل (١٠٥٤-١١٣٣هـ) ، ويقرأ شعره الفارسى فى كل أنحاء الهند وباكستان وأفغانستان ، ويكفى أن نذكر كمثال على ذلك الشاعر الباكستانى العلامة إقبال اللاهورى ، وهو نموذج جيد للعلاقات الثقافية بين البلدين والشعبين ، وقد نظم معظم أشعاره بالفارسية رغم أنها لم تكن لغته الأم، وصب فيها كل أفكاره وآرائه.

ولايقتصر انتشار الفارسية وآدابها على بلاد الهند فحسب ، بل إن اللغة الفارسية وجدت طريقها أيضًا إلى آسيا الصغرى ، وقد بدأ التأثير الفارسى فى تلك المنطقة مع حكم سلاجقة الروم (٤٧٠-٧٠٠هـ) . وقد انتقل عدد كبير من الكتاب والشعراء والمتصوفة الإيرانيين إلى تلك البلاد فى العصر المغولى مثل شهاب الدين السهروردى ونجم الدين الرازى ومولانا جلال الدين الرومى وغيرهم ، وساهموا فى نشر تلك اللغة وآدابها ، وكان سلطان ولد ابن جلال الدين أحد بناة ومؤسسى الأدب العثمانى ، وأصبحت مثنويته "ولدنامه" مثالا يحتذى لفترة طويلة.

ولم يقتف الشعراء والكتاب العثمانيون أسلوب ومضامين الأدباء الإيرانيين فحسب ، بل اتخذوا من أدباء إيران قدوة لهم ، وخاصة شعراء التصوف من أمثال جلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى وعبد الرحمن الجامى ، كما أن بعض شعرائهم نظم شعرًا فارسيا وكان من ذوى اللسانين مثل "فضولى".

ولم يكن السلاطين العثمانيون على صلة بالأدب الفارسى فحسب ، بل كان بعضهم ينظم الشعر بهذه اللغة كالسلطان محمد والسلطان بايزيد والسلطان سليم الأول وغيرهم . وقد ألف بعض الكتاب العثمانيين تذاكر - كتب تراجم - حول شعراء إيران ، مثل ضيا پاشا.

وسوف نذكر فيما يلى نماذج لشعراء نظموا شعرهم خارج إيران باللغة الفارسية.

١ - الشاعر محمد إقبال

ولد إقبال فى مدينة سيالكوت غربى باكستان فى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٨٩هـ (=١٨٧٣م) ، وبدأ التعلم على يد أبيه ثم أدخل مكتبا لتعلم القرآن ، وتدل كثرة اقتباساته من القرآن فى شعره على أن القرآن كان دائمًا نصب عينيه وفى قلبه.

ثم التحق الصبى بعد ذلك بمدرسة البعثة الإسكوتية فى سيالكوت ، وظهر نبوغه ونظمه للشعر باللغة الأردية منذ صباه ، إلى أن فرغ من الدراسة بهذه المدرسة عام ١٨٩٥ وسنه زهاء اثنين وعشرين سنة.

انتقل إقبال بعد ذلك إلى مدينة لاهور حاضرة ولاية البنجاب وإحدى مدن الهند الكبرى ، ودخل كلية الحكومة ودرس بها حتى حصل على درجة الليسانس عام ١٨٩٧م ثم درجة الماجستير ، وكان أستاذه فى ذلك الوقت السير توماس أرنولد الذى كان أستاذًا للغة العربية فى جامعة لندن ، ثم أستاذا للفلسفة فى جامعة عليگره ، ثم فى كلية الحكومة بلاهور ، ومن مؤلفاته كتاب "دعوة الإسلام".

فرغ إقبال من التحصيل فى تلك الكلية ، وأختير لتدريس التاريخ والفلسفة فى الكلية الشرقية بلاهور ، ثم نصب لتدريس الفلسفة واللغة الإنجليزية بكلية الحكومة التى تخرج منها . لبث الشاعر النابغ فى لاهور عشر سنين منذ قدم إليها من سيالكوت إلى أن سافر إلى أوروبا ، وقد دوى صوته فى المحافل الأدبية ، وأخذ ينشر قصائده ، وحرصت الصحف على نشر شعره ، وترجم فى هذه المرحلة من عمره قصائد من اللغة الإنجليزية ، ونشر أول كتاب له وهو كتاب فى الاقتصاد باللغة الأردية.

سافر إقبال إلى أوروبا بعد ذلك وهو فى سن الثانية والثلاثين ، فاتجه أولا إلى إنجلترا والتحق بجامعة كمبردج لدراسة الفلسفة ، ونال درجة فلسفة الأخلاق ، ثم سافر إلى ألمانيا والتحق بجامعة ميونيخ وكتب رسالته "تطور ما وراء الطبيعة فى فارس" ، وأهدى الكتاب إلى أستاذه توماس أرنولد ونشر فى لندن ، ثم عاد إلى لندن فدرس القانون واجتاز امتحان المحاماه ، والتحق كذلك بمدرسة العلوم السياسية زمنًا. وكان إقبال كثير التحدث عن الإسلام وثقافته وحضارته فى أوروبا ، وألقى هناك محاضرات حول هذا الموضوع نشرتها أكبر الصحف الأوروبية.

لبث إقبال فى أوروبا زهاء ثلاث سنين ، ثم عاد إلى وطنه عام ١٩٠٨م ، واحتفل أهل لاهور بعودته ، وامتهن مهنة المحاماة هناك حتى سنه ١٩٣٤، قبل وفاته بأربع سنوات عندما اضطره المرض إلى تركها.

وفى سنة ١٩٣٣م سافر إقبال إلى أفغانستان بدعوة من نادرشاه ملك الأفغان وخلد هذه الرحلة فى منظومته (مسافر).

وفى سنة ١٩٢٢م حصل على لقب «سير» وقد توفى عن خمس وستين سنة.

ومن مؤلفاته المشهورة ، منظومة "أسرار خودى" (أسرارِ الذاتية) ، وهى أول دواوينه الفلسفية عام ١٩١٥ ، نظمها على القافية المزدوجة ، وبين فيها فلسفته فى الذات . ويكمل هذا الديوان ديوانه الثانى الذى نشره عام ١٩١٨م بعنوان "رموز بى خودى" (رموز نفى الذاتية) ، وقد بنى إقبال فلسفته على الذات ودعا إلى إثباتها وتربيتها وتقويتها كما هو واضح فى ديوانه الأول ، وأكمل فلسفته بالتأليف بين الفرد القوى ، أو الذات الكاملة ، وبين الجماعة التى يعيش فيها . ويرى إقبال أن الذاتية أو الفردية أساس العالم ، وأن الخير كل الخير فى تقوية ذات الإنسان واستخراج ما فى فطرتها من قدرة . وكذلك يرى أن هذه الذات لاتربى وتكمل إلا فى الجماعة ، فالمنظومة الأولى تتناول الذات وتربيتها ، والمنظومة الثانية تعالج الجماعة ونظامها وكمالها وتنشئة الفرد فيها.

ويقول فى منظومته الأولى : حياة العالم من قوة الذات ، فالحياة على قدر ما فيها من هذه القوة فالقطرة حين تقوى تصير درة . والجبل إذا غفل عن ذاته انقلب سهلا وطغى عليه البحر ، ويرى أن هذه الذاتية تحيا بخلق القاصد والجد فى المسير إليها ، وعلى قدر عظم مقاصدها تعظم ، وعلى قدر المشقة التى تحتملها تقوى.

ويعتقد إقبال بأن الذات تضعف بالسؤال ، وأن الثقة بالنفس والاعتداد والاستغناء بها يقويها ، أما الشك فيها والالتجاء بها إلى الناس فإنه يضعفها ، وعنده لتربية الذات ثلاث مراحل هى : الطاعة وضبط النفس ، والنيابة الإلهية ، ويقصد بالمرحلة الأخيرة أن يكون الإنسان فيها مسيطراً على العالم ، مسخراً قوى الكون ، يهب الحياة بإعجاز العمل ، ويرد العالم إلى الإخاء والسلام.

وتحت عنوان "الوقت سيف" يثنى على الإمام الشافعى الذى أثرت عنه هذه الكلمة ، ويبين الشاعر مذهبه فى الوقت ، ويقول : إن الإنسان توهم الوقت خطراً ممدوداً ، وقاسه بالليل والنهار ، فوقع فى شباك الوقت ، والحق أن الوقت هو الحياة ، هو الأمل والعمل والسير والدأب . ثم يمضى الشاعر فيقول : إن الفرق بين الحر والعبد أن الحر يحتوى على الزمن ، والعبد يحتوى عليه الزمن ، فالحر يتصرف لايحد عمله يوم وغد، ولا نهار وليل ، ولايعتل بحكم الزمان ، وللعبد تعلات من حدود الزمان وأحكام الوقت.

ويبدأ منظومته الثانية بتمهيد فى ارتباط الفرد والأمة ، ثم يعقد عدة فصول منها الفصل الأول الذى يقول فيه بأن الأمة تنشأ من اختلاط الأفراد ، وكمال تربيتها بالنبوة ، وفى فصل آخر يتحدث عن أركان الأمة الإسلامية ويرى أن الركن الأول هو التوحيد ، والركن الثانى هو الرسالة المحمدية التى يقول فيها :

قد هدانا الحق هذا المرسل	فى سبيل الحفل نحن الشعل
بحره أخرج هذا الجوهرا	نحن روح واحد بين الورى
ختم الله علينا شرعيته	وعلى المرسل فينا بعثته
محفل الأيام منا ينظم	ختم الرسل بنا والأمم

ويقول إن الوطن ليس أساس الأمة ، وإن العصبيات الوطنية قطعت أرحام الأمم ، ثم يمضى الشاعر إلى هذا العنوان : لا تنتظم أمة بغير شرعية ، وشريعة الأمة الإسلامية القرآن . ويقول عن القرآن :

الذى يصدع منه الجبل وعلى الأفلاك منه وجل
ذلك الينبوع من آمالنا قد حواه الصدر من أطفالنا

ويذكر إقبال المسلم العربى الذى رباه القرآن حتى :

شمل الدنيا جميعا عدله عرض جم وطئته رجله
مدنًا قد شيدت هبوته ورياضًا أنبتت وردته

ثم يذكرنا بأن نضج سيرة الأمة من اتباع الشرع الإلهى ، وحسن سيرتها من التأدب بالآداب المحمدية ، وأن مركز الأمة الإسلامية هو الحرم ، ويختم كلامه هنا بقوله : يا شاكيا جور الزمان ، ويا أسير الوهم والحسبان ، إجعل قميصك ثوب الإحرام ، وأطلع الصبح فى هذا الظلام ، واستغرق كآبائك فى السجود ، حتى تكون سجدة للواحد المعبود ، إن المسلم الأول خضع للخلافة ، فسيطر على الآفاق ، ومشى على الشوك فى سبيل الحق ، فأنبت الورد فى الغرب والشرق.

ويقول فى موضع آخر : إن هذا العالم مسخر للإنسان ، وإن للإنسان فيه جهادًا ، وإن لذة الإنسان وكماله فى هذا الجهاد ، ويفيض إقبال فى بيان تبعة المسلم فى إعلاء الحق ، وأن دين الإسلام قرين الحياة ، ولاتكون الحياة إلا به.

ويفرد الشاعر فصلا يتحدث فيه عن الأم ويعلى قدرها ويبين خطرها فى الأمة ، ويرى أن المسلم الذى لا يقدر المرأة قدرها ، لم ينل نصيبًا من حكمة القرآن . ويتحدث عن سيدة النساء فاطمة الزهراء ، ويوجه خطابًا إلى المرأة المسلمة ويحذرها من الزمان وينصحها بالعناية بأولادها.

وبالإضافة إلى هذين الديوانين المنظومين باللغة الفارسية نذكر أيضًا :

١ – ديوان بانگ درا (صلصلة الجرس) الذى نشر باللغة الأردية عام ١٩٢٤م ، وفيه شعر لإقبال أنشأ بعضه فى صباه وبعضه الآخر فى سن الخمسين ، وقد جمع فيه القصائد القومية والوطنية وغيرها مما يمثل التطور الفكرى عند إقبال .

٢ – پيام مشرق (رسالة المشرق) باللغة الفارسية ، وقد طبع هذا الديوان أول مرة عام ١٩٢٣م ، وبه مقطوعات يرد فيها الشاعر على الشاعر الألمانى جوته حين أصدر الديوان الشرقى.

٣ – زبور عجم – باللغة الفارسية . وقد نشر عام ١٩٢٩م وهو من أجود شعره وأدقه معنى ، وقد جمع فيه بعض الأناشيد الشعرية.

٤ – جاويد نامة (رسالة الخلود) بالفارسية ، وقد طبع هذا الديوان عام ١٩٣٢م وفيه تورية بين كلمة جاويد التى تعنى خالد أو الخلود ، وبين اسم ابنه جاويد ، وهى منظومة مزدوجة القافية فى الرمل مثل منظومتى الأسرار والرموز ، وهى من أعمق شعره ، ويحكى فيها قصة سفر فى الأفلاك كقصة دانتى الشاعر الإيطالى وتحتوى على زهاء ألفى بيت .

٥ – مسافر ، بالفارسية وهى منظومة ، نشرت عام ١٩٣٤ م سجل فيها الشاعر ما جال بخاطره عندما سافر إلى أفغانستان بدعوة الملك نادرشاه وتحدث فيها عن زيارته لقبر السلطان محمود الغزنوى والشاعر سنائى.

٦ – پال جبريل (جناح جبريل) بالأردية ، نشر عام ١٩٣٥ ، وهو عبارة عن رباعيات ومنظومات متنوعة دعا فيها إقبال إلى الإخلاص والإيمان والحذر من سحر المدنية الغربية ، وأسدى فيها النصح للمسلمين ليخلصوا الإيمان بعقيدتهم وقد تضمنت هذه المجموعة زيارته لأسبانيا وإقامة الصلاة فى مسجد قرطبة .

٧ – بس چه بايد كرد أى قوم شرق (والآن ماذا ينبغى أن نعمل يا أمة الشرق) وهى منظومة بالفارسية نشرها عام ١٩٣٦م وهى فى جملتها حكمة بالغة وشعر بليغ ، نفثها الشاعر حين أحزنته أحوال المسلمين ، وقد نظمها عندما اعتدت إيطاليا على الحبشة .

٨ - ضرب كليم (ضرب الكليم) ديوان بالأردية نشر عام ١٩٣٧م ، وفيه نظرات فى الإسلام والتربية والمرأة والفنون الجميلة والسياسة وغيرها.

٩ - أرمغان حجاز (هدية الحجاز) باللغتين الفارسية والأردية ، وقد نشر هذا الديوان بعد وفاة الشاعر ، وفيه آخر أفكاره وختام نظراته.

أما عن موضوع أشعار إقبال فهو الحياة والعالم ، يبين فيها الحقائق ، ويكشف الأسرار ؛ ويوقظ الإنسان ويدعوه إلى قدر نفسه ، وتقوية ذاته ، ويناديه أنك أعلى الخليقة وأن العالم كله مسخر لك . وأمامه فى هذه الدعوة القرآن الكريم كما فى الآية : "ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً". والآية : "وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه" ، وآيات أخرى كثيرة.

يقول مخاطبًا الإنسان :

أين منك الأفلاك ؟ إنك حر وهى قهر ذهابها والإياب

أما ضروب شعره ففيها القصص ، وأعظم قصصه (جاويد نامه) التى قص فيها رحلته فى الأفلاك ، وقصص أخرى متفرقة فى دواوينه ، وهو يتوسل بها لبيان مقاصد الشعر .

كما تتضمن أيضًا الشعر التعليمى الذى يقصد فيه إلى تعليم فلسفته ومذهبه كما فى منظومتى الأسرار والرموز ، ومنها وصاياه إلى ابنه جاويد وناشئة هذا الجيل. وفيه أيضًا الوصف كوصف الطبيعة والأبنية مثل وصفه لجامع قرطبة وتاج محل.

أما شعره الغنائى والوجدانى فيتميز بالشعر الغزلى الذى كلف به شعراء الفرس.

كتب إقبال باللغتين الأردية والفارسية ونظم بهما الشعر ، على الرغم من أن لغته الأولى هى البنجابية ، وهى ليست لغة علم وأدب ، وقد تفوق فى نظمه بالأردية ، وأما منظوماته الفارسية فقد أخذ عليه أدباء الفرس مآخذ منها : أن لغته وأسلوبه ليسا مطابقين للغة الشعر الفارسى العصرى وأسلوبه ، وأنه يستعمل أحيانًا عبارات تخالف

الفصيح المأنوس فى الفارسية ، وأن له تراكيب لم تؤثر فى الأدب الفارسى من قبل . ونسى المعترضون أن إقبالا لم ينشأ فى بيئة فارسية وأن الفارسية ليست لغته ، ولكنه اكتسبها بالدرس وطول النظر فى دواوين شعرائها ، كما أن بيئته الفارسية فى الهند تختلف عن بيئة الفارسية فى إيران ، ففى الهند استوطنت الفارسية قرونًا ، ونشأ فيها أدباء ، ونبغ شعراء لهم بيئتهم ولهم أحوالهم ، وهى تخالف بيئة شعراء إيران وأحوالهم ، فنشأت فى الهند لغة أدبية تخالف مخالفة ما لغة الأدب فى إيران . ويحمد للشاعر أنه ابتكر تعبيرات وجدد فى المعانى والألفاظ والعبارات ، وأودع اللغة الفارسية هذه الثروة من الفلسفة والآراء.(١)

إقبال والوحدة الإسلامية

آمن إقبال بالوحدة بين المسلمين على أساس من الدين ، ويسمى هذه الوحدة "بالقومية الإسلامية" المناهضة تمامًا للقومية أو الوطنية التى أنشئت فى أوروبا بعد الثورة الفرنسية على الكنائس وسلطاتها وجبروتها ، ويقول إقبال فى بعض مقالاته : إن الإسلام لا يؤمن بالقومية أو الوطنية الإفرنجية ، بل يؤمن بالوحدة الإسلامية التى تتكون من ثلاثة عناصر هامة هى :

أولا: اجتماع المسلمين واتحادهم على أن الإسلام هو قوميتهم ، وليست الأرض أو الطين أو اللون أو النسل أو الأحوال الاقتصادية من عناصر القومية الإسلامية بحال من الأحوال . وتبنى هذه القومية على نفس المبادئ التى يقوم عليها الإسلام ، وهى الإيمان بالله الذى خلق هذا الكون ، والذى لاشريك له ولا ند ، ثم الإيمان برسالة محمد (ﷺ) والتراث الإسلامى كله.

ثانيا: الإيمان بالحضارة الإسلامية ، لأنها تشكل قالبًا للقومية الإسلامية إذا اعتبرنا العقائد الدينية قلبًا لها.

---

(١) استفدت فى هذه المقدمة من كتبا "محمد إقبال ، سيرته وفلسفته وشعره" للدكتور عبد الوهاب عزام – نشر الدار العلمية – بيروت ١٩٧٢م.

ثالثا: يسود الإسلام روح المرونة والسماحة والتجاوب ، ولذا ينبغى للقومية الإسلامية أن تكون سمحة مرنة ومتجاوبة مع العالم المحيط بنا فكراً وحضارة ، لتأخذ أحسن ما فيه من خصائص ومميزات وتذيبها فى القومية الإسلامية وتدفع ركب الحضارة الإسلامية إلى التقدم والازدهار فى مجال العلم والفكر والتكنولوجيا . وعلى الرغم من معارضة إقبال للقومية إلا أنه يؤمن بحب الوطن وتقريظه والثناء عليه والتغنى به ، لأن غريزة الإنسان وطبيعته التى فطر عليها هى أن يحب تراب وطنه ومسقط رأسه ومرتع طفولته وشبابه بتقدير وإعجاب ومحبة ، ولأجل ذلك أعد إقبال منظوماته فى حب الوطن ، وألف مقالات فى مصالح الوطن وتطويره فى مجالات الصناعة والاقتصاد والثقافة.

ولإقبال أهداف أخرى هامة فى دعوته إلى الوحدة الإسلامية ؛ وهى أن الأمة الإسلامية تشكل أكثرية فى آسيا وإفريقيا ، وأن الدول الإسلامية كثيرة ومنتشرة فى هاتين القارتين ، وإذا قامت وحدات إسلامية فى هاتين القارتين على المبادئ الإنسانية العليا التى يتضمنها الإسلام فسوف تلعب هذه الدول الإسلامية دور القنطرة بين حضارتى الشرق والغرب ، وبهذا تصبح الدول الإسلامية ملتقى الحضارات العالمية . وفى هذه الحالة سيكون دور الإسلام فى مجال الحضارات الإنسانية وتنميتها وتطويرها كدوره فى الماضى ، إذ أنه قاد حضارات العالم فى القرون الوسطى.(١)

ونرى إقبال يشير فى شعره إلى أن الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد ولا تحدها الأمكنة ، يقول فى منظومته "رموز نفى الذاتية":

قلبنا الخفاق يأبى موطنا ريحه العاصف تأبى مسكنا

ليس من هند وروم قبلنا ما سوى الإسلام فيه أرضنا

---

(١) انظر كتاب "نظرات جديدة فى شعر إقبال" للدكتور محمد إسماعيل الندوى ، الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م - من ص ١٥٥ إلى ص ١٧٥.

كعب الشاعر فى خير العباد | أنشد المدحة من بانت سعاد[1]
نظم الدر منيراً فى ثناه | من سيوف الهند سيفا قد دعاه[2]
من على الأفلاك فيه رفعة | لم ترقه لبلاد نسبة
قال : سيف من سيوف الله قل | يا نصير الحق زوراً لا تقل

إلى أن يقول :

لا تحد الأرض قلب المسلم | لا يرى فى تيه أنى وكم[3]
ليس للمسلم فى الأرض عطن | حائر فى قلبه كل وطن
حصل القلب ففى وسعته | ضل هذا الكون فى فسحته
عقدة الأقوام حل المسلم | هجر الدار الإمام الأعظم[4]
أمة ملء الدنى قد أسسا | جعل التوحيد فيها أسسا
صارت الأرض لدينا مسجدا | إذا أشاع الفضل فينا وهدى
ذلك المحمود فى الذكر الكريم | ذلك المحفوظ بالله الرحيم

ويرى الشاعر أن الوطن ليس أساس الأمة ، يقول :

قطعوا الأرحام بين الإخوة | صيروا الأوطان أس الأمة
قدسوا الأوطان إعجابا بها | قسموا الإنسان أسرارا بها
طلبوا الجنة فى "بئس القرار" | "فأحلوا قومهم دار البوار"[5]

والأمة المحمدية ليس لها حدود زمانية أيضًا ، يقول الشاعر :

كممات الفرد تفنى الأمم | ولها يومًا قضاء يحتم

---

(١) إشارة إلى قصيدة كعب بن زهير فى مدح الرسول: بانت سعاد فقلبى اليوم متبول.
(٢) إشارة إلى البيت:

إن الرسول لسيف يستضاء به | مهند من سيوف الهند مسلول

(٣) أنى: فى عالم العلل والمقادير
(٤) الإمام الأعظم رسول الله.
(٥) اقتباس من القرآن جاء فى الأصل.

أمــــة الإســــلام تأبى أجــــلا ... أصلها الميثاق فى "قالوا بلى"[١]

لاتخـــاف الموت هذى الأمـــة ... "نحن نزلنا" لديها حـجـة[٢]

دام ذكــر "مـا أقـام الذاكـر ... بدوام الذكــر دام الذاكـر

ذلك الصبــاح أنى يطفـأ؟ ... قال ربى عالما : "أن يطفئوا"[٣]

والأمة المحمدية لا تنتظم بغير شريعة ، وشريعة الأمة المحمدية هى القرآن، يقول :

أمـــة خلت يداها السننا ... ككثـيب من رمــال وهنا

سـيـرة المسلم شـرع وكـفى ... ذلكم باطن دين المصطفى

بانتظام الصوت تعلو النغمة ... وهى من دون نظام ضجة

إنما فى الحلق مـوج من هواء ... يعلق النظم به فـهـو غناء

صـاح هل تعلم ما سنتكا؟ ... أى سـر ضـمنت قـد رتكا؟

الكتـاب الحى والذكـر الحكيم ... حكمـة فى الدهر تبقى لاتريم

إن فـيـه سـر تكوين الحـيـاة ... يستمد النكس أبدا من قـواه

لفظه لاريب أو تبـديل فـيـه ... آيه لا لبس أو تأويل فـيـه

قـوة فـيـه تشـد الخـورا ... وبها يرمى الزجاج الحجـرا

إلى أن يقول عن القرآن الكريم :

الذى يصـدع منه الجـبل ... وعلى الأفـلاك منه وجل

ذلك الينبـوع من آمـالنا ... قد حـواه الصدر من أطفالنا

---

(١) إشارة إلى الآية: "وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين "(الأعراف١٧٢).

(٢) إشارة إلى الآية: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" (الحجر ٩).

(٣) إشارة إلى الآية: "يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون" (التوبة٣٢).

انظر الظمآن في حر القفار | عينه حمراء من وقد النهار
خفقت في قلبه هذى السور | فاستقر الموج فيه كالدرر
قرأ الدرس من الآى المبين | فغدا بالحق حراً لا يلين
حكم الدنيا جميعاً عدله | عرش جم وطئته رجله
مدناً قد شيدت هبوته | ورياضاً أنبتت زهرته[1]

وهو يشير في تلك الأبيات السابقة إلى "جم" وهو مشيد أحد ملوك الفرس القدماء ، وهو يعني بذلك قضاء المسلمين على حكم الأكاسرة ونشر الإسلام في بلاد إيران.

إقبال والعرب

خص إقبال العرب باهتمام كبير في شعره ، وكان قلبه دائماً يهفو إلى أرض العرب وبالتحديد أرض الحجاز موطن أوائل المسلمين ، وهو يخاطب شعراء العرب في ديوانه "آرمغان حجاز" (هدية الحجاز) بقوله :

وقل للشاعر العربي عني | ليا قوت الشفاه البخس مني
قبست النور بالقرآن حتى | جعلت الليل لي فجراً يغني
وفي الأرواح قد أذكيت جمرا | ترابي ما يراه الناس قصرا
غدير ساكن حركت فيه | عباب ثار في النكباء بحرا

فهو يبلغ الشاعر العربي بأنه يغض من قيمة ياقوت الشفاه ، لأنه قبس من القرآن نوراً جعل به الليالي سحراً ، ويعني بهذا أنه استمد من معاني القرآن شعره وصحة فهمه لأحكام الإسلام. وهو عندما يذكر شعراء العرب يريد أن يبوئهم ذروة الفصاحة والبلاغة ويخصهم بذلك دون سائر شعراء الأمم الإسلامية الأخرى.[2]

---

(١) انظر: ترجمة ديوان الأسرار والرموز للدكتور عبد الوهاب عزام - طبعة المكتبة العلمية بلاهور ١٩٧٨م (من ص ١٠٢ رلى ص ١١٢).

(٢) انظر: هدية الحجاز - ترجمة الدكتور حسين مجيب المصرى - القاهرة ١٩٧٥-ص١٠٢، وكتاب: إقبال والعالم العربي - للدكتور حسين مجيب المصرى - القاهرة ١٩٧٦م، ص٢٤.

يا لها من ذكرى لأمجاد العرب آية كبرى وتاريخ عجب

حرروا أقدارهم بالعزمات في جميع الكون في كل الجهات

فازدهى من نورهم كل مكان وتغنى باسمهم كل زمان

لم تدم عزى ولم تبق منات هوت الأصنام تحت الضربات

حين نادى المؤمنون الله أكبر زال كسرى وانطوت أعلام قيصر

أى سيل هادر عم الصحارى أى طوفان جرى يغزو البحارا

هؤلاء العرب الصيد الأباة وحدوا الخلق بتوحيد الإله

شعلة من نورها الحق أضاءا من تحدى نارها أضحى هباءا

قد أبادوا كل شيطان مريد وأزالوا كل جبار عنيد

وسموا فوق الدرارى منزلا كل هذا كان من أنوار "لا"

بينما العالم كالعظم الرميم فى سهوب الأرض أو دير قديم

أنشاوا دنياه فى خلق جديد وأقاموها على النهج الرشيد

أيقظوا الدنيا بتكبير الآذان فجرى الحق على كل لسان

كل خير يرتجى من غرسهم كل نور يجتلى من شمسهم

كل روض بالمعالى مخصب فهو من شاطئ نهر العرب

قد أزال العرب من لوح القلوب نقش غير الله علام الغيوب

فأقاموا فى شمال وجنوب ثورة الإيمان فى كل الشعوب

فترى فى أمم الغرب العبيد حطموا القيد بعزم من حديد

أعلنوا الحرب على ساداتهم واستردوا أمن حرياتهم (١)

---

(١) إيوان إقبال - مختارات من شعره نظمها شعراء الصاوى على شعلان - القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٨ .

ويرى إقبال أن المسلم آية من آيات الله . وآيات الله لا تزول و وأن أعداء الإسلام يريدون القضاء عليه ، وحتى إذا سقطت بعض مواطن المسلمين فالمسلم سيبقى والإسلام لن يفنى ، يقول :

ذلك المسلم من أندلس ... سيعيد العزم فى الشمس مكانه
من سقاه العشق يوما خمره ... لم يعد فى السكر محتاجا لحانه
والليالى علمتنا عبرا ... فى الذى مر به غزو التتار
كفروا ثم اجتلوا الهدى ... فاهتدوا لما رأوا ذاك المنار
عرفوا الإسلام فانقادوا له ... وغدا أعداؤه ركن حماه
عزت الكعبة وانهد الصنم ... وهو الشراء بتوحيد الإله
إن هذ العصر ليل فأنر ... أيها المسلم ليل الحائرين
وسنين الحق فى لج الهوى ... لا يراها غير ربان السفين
أنت كنز الدر والياقوت فى ... موجة الدنيا وإن لم يعرفوك
محفل الأجيال محتاج إلى ... صوتك العالى وإن لم يسمعوك
ليس فى الوقت فراغ فاعتزم ... واملأ الدنيا بأعمال شريفة
أنت نور الأرض تهدى أهلها ... لن يرى غيرك فى الأرض خليفة

ويرى الشاعر أن المصائب التى حلت بالمسلمين فى بعض العصور كانت دافعًا لهم على التقدم والنهوض من جديد والدفاع عن دينهم وحقهم ، يقول :

نحن نهدى الخلق زهرا وثمارًا ... وسوانا يبعث النار ضراما
كل نمرود إذا أوقد نارًا ... عادت النيران بردًا وسلاما
نحن بالإيمان نبنى عزًا ... لانبالى الهول أو نخشى العبابا
وإذا الباغى رمى فى غرسنا ... جذوة الظلم جعلناه ترابا
ذهب اليونان والرومان وال ... فرس قدما وفراعين الزمان
وهدى الإسلام ما زال على ... قمة الدنيا يدوى بالأذان.(١)

---

(١) إيوان إقبال ، ص ١٢٠، ١٢١ .

ويتحدث إقبال كثيراً عن أمجاد العرب وأثر الإسلام فى رقى الأمم، ولا يكتفى بهذا بل يتناول قضايا عربية بحتة مثل قضية فلسطين وسجل أمجاد العرب فى صقلية وقرطبة ونعى على العرب تفرقهم ووجه إليهم فى دواوينه أكثر من خطاب . وقد وجه إلى عرب فلسطين النداء للجهاد وعدم الاستكانة ، يقول :

لا يزال الزمان يصلى بنار	لم تزل فى حشاك دون خمود
لا دواء بلندن أو جنيفا	فوريد الفرغ ملك اليهود
ومن الرق للشعوب نجاة	قوة الذات وازدهار الوجود

ويتحدث عن أمجال العرب فى صقلية التى فتحت على يد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب فى سنة ٢١٢هـ فى عهد الخليفة المأمون ، وقد اهتم المسلمون بهذه الجزيرة منذ عهد معاوية بن أبى سفيان حين غزاها عبد الله بن قيس الفزازى ، ولكن أقدام المسلمين لم تثبت فيها إلا فى عهد الأغالبة ، وقامت فيها حضارة عربية خلفت بها مآثر علمية تدل على عظمة هذه الحضارة . وحين مر إقبال بصقلية عائداً إلى الهند أثار مرآها فى نفسه ذكريات العروبة وأمجاد الإسلام فقال متأثراً باكياً :

أعينى هذا أوان البكا	نشدتكما الله لا تبخلا
وما شئتما من دم فاسكبا	سحائب دمع كقطر الندى
فإنى الغداة أرى من بعيد	ويا لوعة القلب مما أرى
ضريح العلا هاهنا ماثل	ومثوى حضارة أم القرى
وللعرب كانت هنا دولة	تنال براحتها الفرقدا
عمالقة البيد خاضوا البحار	فكانت لأسطولهم ملعبا
قصور الأباطرة المالكيـ	ـن دانت لتوحيدهم سجدا
كأن البروق بأسيافهم	بنت عشها مثل سرب القطا
مبادؤهم أنشأت عالمًا	قوى البناء سنى الجلى
كأن رماحهم المشرعات	قد التهمت كل عصر مضى

بصحيتهم حين دوى الأذان | أفاقت شعوب طواها الكرى
فنادوا ألا أيها الكون قم | فهب وقد كان رهن البلى
أناروا الشعوب بتحريرها | وبالعلم فهو سبيل الهدى
فلا ظلم باغ بذل الشعوب | ولا الوهم فيها يضل الحجا
تغنى العصور بآثارهم | فمنها لكل زمان صدى
فما بال تكبيرهم صامتًا | أيبقى على الصمت طول المدى
صقلية قد طويت السنين | وعصرك فى سفرها ما انطوى
على البحر قائمة كالبشير | يصفو الأمان وقرب المنى

إلى أن يقول :

أعود إلى الهند مستعبرا | بأنبل ذكرى لمجد خلا
هنا قد بكيت وفى الهند أبكى | وأبكى الصديق معًا والعدا
هو القدر اختارنى للرثاء | سأرسله صيحة فى الملا(١)

وفى طريق عودة إقبال من أوروبا سنة ١٩٣٢ زار إسبانيا وحصل على تصريح بأداء الصلاة فى مسجد قرطبة ، وهناك سجل قصيدته (مسجد قرطبة) متأثرًا بما شاهده من آثار وعمائر أصبحت خرابًا فى الأندلس ، والمعروف أن المسلمين قد حكموا الأندلس زهاء ثمانية قرون أقاموا خلالها حضارة عظيمة خلدتهم على مر التاريخ وكان مسجد قرطبة من أروع مبانيهم ، ويقول الشاعر :

إيه أيها المسجد ، يا كعبة أرباب الفن ويا رمز قوة الدين المبين ، لقد نالت بك أرض الأندلس رتبة من أنسام الحرم ، ولا يوجد لجمالك تحت القبة الزرقاء أثر إلا فى قلب المسلم.

---

(١) إيوان إقبال ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

آه لأولئك المسلمين ، رجال الحق وفرسان العرب ، إنهم حاملوا الخلق العظيم ، أصحاب الصدق واليقين ، أسفر عهد حكمهم عن هذا الرمز القائم الغريب ، نهضت وثباتهم بتربية الشرق والغرب . وكانت عقولهم مرشدة هادية فى ظلمات أوروبا ، ومن فضل دمائهم انشرح صدر الأندلس فأصبح نشيط العشرة مشرق الجبين.

وتحس فى الأندلس حتى اليوم عبير اليمن ونسيمها ، ولحن الحجاز فى عذوبة أصواتها ، وجاذبية الظباء فى سهام نظراتها.

واحسرتاه ، إن أرضك أيها المسجد سماء ترنو إليها النجوم ، إن فضاءك منذ قرون ظل صامتًا لم يدو فيه الآذان.[1]

ويخاطب إقبال شباب الإسلام ويذكرهم بماضيهم التليد ، وحالتهم اليوم ، وأنهم تخلفوا عن الركب ، وعليهم أن يلحقوا بركب الحضارة والمدنية ، يقول :

أنسيت عهداً كنت نجم سمائه	من قبل أن تجد النجوم مدارا
أنسيت أنك من سلالة أمة	داست قوافلها أريكة دارا
عرب الصحارى شمسها وغمامها	آساد غايتها حداة جمالها
وهبوا الشعوب بعدلهم مدنية	لم تشرق الدنيا بغير جمالها
نهضوا فكانوا للعصور كواكبا	ملكوا فكانوا للنوال بحارا
الفقر فخرى من حديث نبيهم	قد كان عنوانا لهم وشعارا
لم يطغهم ما بفتنته	ولا ما أدركوا فى العز من تمكين
إن الجمال عن التجمل فى غنى	والحسن لا يحتاج للتحسين
ولربما وعظ الغنى ضميره	عن فعل شر خشية الفقراء
بل خشية الجبار جل جلاله	كانت تضىء لأمة الصحراء

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

قد أحرزوا الدنيا فهم حكامها وبعدلهم أمنت فهم أمناؤها

حراسها أحرارها أقمارها أبرارها أعلامها علماؤها

لو أن شعرى كان ريشة مبدع لم يغن وصف مصور أو شاعر

كيف أنتسب لهم وأين ورثتهم ليكون مجد الأمس مجد الحاضر

دنياك أقوال وعن دنياهم تتحدث الأعمال والآثار

فى رحلة الأيام نجمك ثابت دون المسير ونجمهم سيار

لما تخلف عيشنا عن ركبهم سيرا نواصله بإمعان السرى

رمت السماء فأصبح شأننا بعد الثريا تحت أطباق الثرى

ما أن عجبت لغاصب فى أرضنا سنخط فوق الأرض قبر الغاصب

لكنما أبكي لفقد تراثنا فى الغرب بين متاحف ومكاتب

فكنوزنا فى أرضهم ربح لهم وخسارة نشقى بها فى أرضنا

هيا سراعا يا شباب إلى العلى حتى يرد العزم سابق عزنا[١]

---

(١) إيوان إقبال ، ص ١٩١ .

٢- خليل الله خليلى

الشاعر الأفغانى المعاصر

تمهيد:

أفغانستان هى موطن اللغة الأردية أو الفارسية الإسلامية ، التى ظهرت بعد الإسلام ، وانتشرت وصارت لغة أدبية عظيمة ، قدم بها الأدباء إنتاجهم الأدبى ، وقد ظهر فى هذه المنطقة أدباء كان لهم شأن عظيم فى أدب تلك اللغة.

ازدهر الأدب قديمًا فى تلك المنطقة نتيجة تشجيع الأمراء والحكام والملوك ، وخاصة فى العصر الغزنوى (٣٦٦-٥٧٩هـ) الذى نجد فيه مجموعة كبيرة من الأدباء ، وكانت غزنة - عاصمة السلطان محمود الغزنوى - إحدى المراكز الأدبية فى ذلك الوقت . ونذكر من أهم الكتاب فى ذلك العصر أبا الفتح البستى (متوفى بين سنتى ٤٠١ و٤٠٣هـ) وهو من رجال الأدب المعروفين بالمهارة فى الإنشاء العربى نظمًا ونثرًا وكذلك العلامة الكبير الريحان البيرونى (ولد سنة ٣٦٢هـ وتوفى سنة ٤٤٠هـ) صاحب المؤلفات العديدة مثل: «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» و «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم» و «الآثار الباقية عن القرون الخالية».

وقد اشتهر فى تلك الفترة من الشعراء - وفى منطقة أفغانستان - العنصرى (م٤٣١هـ) والفرخى (م٤٢٩هـ) ومنوچهرى الدامغانى (م٤٣٢هـ) وغيرهم.

وظلت تلك المنطقة موطنًا ومنبعًا لكثير من الشعراء والكتاب فى العصور التالية ، ومن هؤلاء عبد الله الانصارى الذى اشتهر برباعياته ومناجاته (٢٩٨-٤٨٢هـ) ،

وسنائی الغزنوی (م٥٤٥هـ) صاحب المثنويات المشهورة ومنها (حديقة الحقيقة) ، وكذلك حسن الغزنوی (م٥٥٧هـ) المعاصر لبهرام شاه الغزنوی ، وديوانه مشهور . ومنهاج السراج الجوزجانی (م٦٩٨هـ) صاحب كتاب «طبقات ناصری» فی التاريخ ، وغيرهم .

ولا بد لنا حينما نتحدث عن الأدب فی أفغانستان أن نقول إن أفغانستان لم تكن منفصلة عن إيران ولها حدودها المستقلة فی القديم ، ولكنها كانت ضمن أراضی دولة إسلامية كبيرة تشمل آنذاك إيران وأفغانستان ومناطق أخرى فی بلاد ما وراء النهر والهند ، وقد كان الشعراء يتنقلون فی كل هذه المنطقة بحرية تامة ، ويتمركزون فی بلاط الحكام والملوك أينما كانوا ، مثلما حدث أيام السلطان محمود الغزنوی (م٤٢١هـ) صاحب الفتوحات الشهيرة فی الهند والذی جعل من غزنة عاصمة ملكه مركزًا أدبيًا ممتازًا ، جمع فيه كثيرًا من الأدباء والمفكرين فانتقل إلى هذا المركز عدد كبير منهم ، ومن هؤلاء - على سبيل المثال - الفردوسی (م٤١١ أو ٤١٦هـ) صاحب الشاهنامة المشهورة فی تاريخ إيران وملوكها . فلا نستطيع فی تلك الفترة أن نحدد مجموعة من الشعراء تخص أفغانستان وحدها ، وهذا ينطبق أيضًا على إيران، فالأدباء فی ذلك العصر يخصون تلك المنطقة جميعها دون حدود أو فواصل.

على أننا إذا تحدثنا عن الأدب المعاصر فی أفغانستان ، فلا بد أن نرجع إلى تلك الفترة التی انفصلت فيها تلك البلاد عن إيران منذ تولى أحمد شاه الدرانی الأبدالی حكم أفغانستان (فی سنة ١١٦٠هـ) ، لهذا يجب تخصيص عهد جديد فی تاريخ الأدب الفارسی ، ألا وهو عهد الأدب الفارسی فی أفغانستان ، وذلك منذ أواخر القرن الثانی عشر للهجرة.

اهتم شعراء أفغانستان بالأسلوب الهندی فی الشعر اهتمامًا خاصًا ، وذلك نتيجة ارتباطهم وتعلقهم بشعراء الهند وأسلوبهم كصائب التبريزی (م١٠٨٠هـ) وكليم

الهمداني (م١٠٦١هـ) وبيدل[1] (ولد سنة ١٠٥٦هـ وتوفى سنة ١١٣٣هـ) صاحب المثنويات الصوفية المشهورة .

وكان بعض حكام أفغانستان فى تلك الفترة ينشدون الشعر ، وبقيت لهم دواوين حتى الآن ومن هؤلاء : أحمد شاه الدراني وابنه تيمور شاه (حكم من ١١٨٧ إلى ١٢٠٧هـ) ، وشجاع الملك (١٢١٨ - ١٢٢٤هـ) المعروف بشاه شجاع ابن تيمور شاه.

وكانت مجالس الشعر تعقد فى بلاط تيمور شاه وأبنائه ، ويوجه الاهتمام فيها إلى تلك الأشعار المنظومة طبقًا للأسلوب الهندى ، خاصة أشعار بيدل ، بل اقتصرت بعض هذه المجالس على قراءة شعر بيدل فقط وكانوا يسمونها باسم «مجلس بيدل خوانى» أى مجلس قراءة شعر بيدل، وقلما نجد شاعرًا أفغانيًا لم يعبر عن شغفه ببيدل وأشعاره.

غير أن الأدب ظل فى فتور وتخلف فى أفغانستان حتى عصر الأمير شير عليخان (١٢٨٠ - ١٢٩٦هـ) ، وبدأ يزدهر بعد ذلك فى عهد الأمير عبد الرحمن خان (١٢٩٧-١٢٩٦هـ) ، وقد تم طبع بعض المؤلفات الأدبية فى عهد ابنه الأمير حبيب الله خان (١٣١٩ - ١٣٣٧هـ) رائد النهضة الحديثة فى أفغانستان، وكانت كليات بيدل هو أول ديوان شعر طبع فى عصره.

ومنذ أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الهجرى نرى عددًا من الشعراء الذين يعدون فاتحة للنهضة الأدبية فى أفغانستان . وقد أنشد بعضهم قصائد جيدة بأسلوب شعراء خراسان ، ومن هؤلاء : شرر كابلى ، وقد اقتفى بعضهم أسلوب الخاقانى (م٥٩٥هـ) فى قصائده مثل : سيد مير هيراتى (م١٣٢٢هـ) ، وفى ذلك الوقت كان الشاعر واصل الكابلى (م١٣٠٩هـ) ينشد أشعاره بالأسلوب العراقى[2].

---

(١) هو أبو المعاطى ميرزا عبد القادر بيدل ، من شعراء الهند الذين نظموا شعرا باللغة الفارسية ، وله آثار كثيرة بعضها منظوم والآخر منثور.

(٢) انظر مقالة «باز كشت أدبى در أفغانستان» مجله» سخن - شماره» - دوره» نوزدهم - خرداد ١٣٤٨ (ص٦٠).

ويرتقى الشعر بعد ذلك ويكثر الشعراء ، ويحاولون تقليد القدماء أمثال الفردوسى والفرخى وسنائى وغيرهم ، فى جزالة اللفظ وجودة المعنى . ونذكر من هؤلاء الشعراء المعاصرين: سرور خان كويا اعتمادى ، وعبد الحى حبيبى القندهارى ، وأحمد على كهزاد ، وألفت كابلى ، وعبد الحق بيتاب . وشايق الكابلى ، وعبد الرحمن پژواك ، وصلاح الدين السلجوقى .. وغيرهم . ونذكر من بين الشاعرات : محبوبة هروى ، حازقه هروى ، ومخفى بدخشى ، وغيرهن[1].

ونذكر أيضًا من الشعراء الذين يتبعون أسلوبًا جديدًا فى الشعر الأديب الشاعر محمود فارانى ، وهو ينظم شعرًا حرًا ، وله مجموعة أشعار نشرت تحت اسم «آخرين ستاره» وقد ولد فارانى فى كابل سنة ١٣١٧هـ[2].

ويعتبر خليل الله خليلى من الشعراء الأفغانيين القلائل الذين ذاعت شهرتهم فى بلادهم ، كما عرفهم جيرانهم من أهل اللغة الفارسية فى إيران وفى غيرها من البلاد التى تهتم باللغة الفارسية وآدابها .

وترجع شهرة خليلى داخل وطنه إلى أستاذيته فى قول الشعر ، والشعب الأفغانى شعب يقدس الأدب والفن ، ويرفع أصحابهما إلى أسمى الدرجات ، هذا بالإضافة إلى أنه يتحدث بلسان قومه ، إذ هو يشعر بأحاسيسهم ومشاعرهم ، ويصب ذلك فى أبيات شعره ، فيعبر عن آمالهم وأمانيهم أبلغ تعبير.

وأما شهرته فى خارج بلاده فهى ترجع أيضًا إلى جودة شعره من ناحية ، وإلى أسفاره العديدة التى قام بها إلى كثير من بلدان العالم من ناحية أخرى ، إذ شارك فى بعض المؤتمرات الدولية ، وكان يتحين كل فرصة أثناء وجوده بالخارج ليلقى بعض قصائده التى ينظمها ، ليتحدث فيها عن البلد التى يزورها أو عن المناسبة التى جاء من أجل المشاركة فيها .

---

(١) انظر مقالة «أدبيات فارسى در أفغانستان» بقلم أقاى سعيد نفيسى ص٢وص٥ من مجلة: دانش – سال أول شماره، أول – فروردين ١٣٢٨ مارس ١٩٤٩م.

(٢) انظر كتاب «تاريخ زبان وادبيان ايرام درخارج از ايرانش نوشته، بروفسور عباس مهرين شوشترى ؛ تهران ، ١٣٥٢ (ص٢٥٧).

ولد خليل[1] فى عام ١٩٠٧م فى مدينة كابل عاصمة أفغانستان ، وقد ذكر فى أشعاره[2] أن أمه ماتت وهو فى السابعة من عمره ، ثم قتل والده وهو فى سن الحادية عشرة وقد صودرت كل أملاك أبيه ، فأوقعه الزمن من أوج العز والنعمة إلى حضيض الذلة ، ولم يتمكن خليلى من مواصلة الدراسة المنتظمة ، إلا أنه درس بنفسه وعلى يد أساتذة عصره علوم الفقه والأدب والتفسير والمنطق وغيرها . وكان مغرمًا بالشعر ونظمه منذ صباه.

عمل خليلى بالتعليم فى مطلع حياته ، تولى عدة مناصب حكومية كان آخرها تعيينه مستشارًا صحفيًا للملك السابق محمد ظاهر شاه وظل فى هذا المنصب إلى أن عين سفيرًا لأفغانستان فى المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٦م ، ثم سفيرًا لها فى العراق وتوفى فى مدينة بيشاور عام ١٩٨٧م بعد انتقاله للحياة فى باكستان عقب الاحتلال الروسى لبلاده.

هذه لمحة شديدة الإيجاز عن حياة شاعرنا وأود أن أذكر هنا ذلك التشبيه البديع الذى صور به الأستاذ عبد الرحمن پژواك[3] حياة خليلى أبلغ تصوير إذ قال «لقد ولد خليلى فى أحضان الرفاهية والنعيم المقيم ، ورضع لبن الحياة من ثدى اللذة ، حتى علمه الزمن آلام الحياة . وكانت معرفته بتلك الآلام هى بداية علمه الحقيقى ، ذلك لأن ما تعلمه كان قد اتخذه عن أكبر معلم للإنسان ، ألا وهو الألم والعناء ، لقد كان الشاعر يبحث فى أشكال الكائنات عن الخفايا العظيمة والجمال ، وكان يشق طريقه فى عروق الألم واللذة لهذه الأشكال . وكانت تجرى فى هذه العروق أنهار اللبن وبحار

---

(١) استقيت بعض المعلومات عن تاريخ حياته من مقدمة ديوانه ، ومن مقالة منشورة فى جريدة «أنيس » فى ١٥ مارس ١٩٦٦ بمناسبة تعيينه سفيرًا لأفغانستان فى المملكة العربية السعودية.

(٢) ديوانه ص ٥١ .

(٣) كان سفيرًا ورئيسًا لوفد أفغانستان الدائم بالأمم المتحدة وقد نقلت هذا التقرير المذكور عن خليلى من مقدمة الديوان ص ٤ .

الدم ، فكان شعر خليلى أحيانًا قصة نهر اللبن هذا وأحيانًا أخرى رسالة بحر الدم ذاك . وكان يقطف الزهور مما يلقيه هذان المظهران لجريان الإنسان على ساحل الفكر البشرى ، ويرسله كهدية إلى عشاق الجمال المعنوى والجلال الفكرى».

وتفهم من هذا التصور أن حياة خليلى لم تكن على وتيرة واحدة من السعادة أو الألم ، فهى كحياة أى إنسان تتعرض لأحوال مختلفة ، فهى حياة تتميز بالارتفاع والانخفاض ، والاضطراب والثبات ، ويعبر خليلى عن أحواله وآماله وشعره كما سنرى ، وقد طبع له جزآن من أشعاره فى المطبعة الحكومية بأفغانستان ، وطبع جزء آخر من شعره فى طهران ، جمعه ونشره السيد محمد هاشم اميدوار الهراتى تحت عنوان «ديوان خليلى» أستاذ جامعة كابل . وقدم لهذا الديوان أساتذة من أفغانستان ومن إيران[1] ويشتمل ديوانه هذا على أجناس شعرية متعددة كالقصائد والغزليات والمثنويات والتركيب بند والرباعيات ، وقد اعتمدنا على هذا الديوان فى بحثنا هذا .

ولخليلى مؤلفات نثرية عديدة بجانب إنتاجه الشعرى ، فهو باحث فى الأدب والتاريخ ، ومحقق ودارس لبعض المخطوطات ومن أهم مؤلفاته «آثار هرات» وهو مؤلف فى ثلاثة أجزاء ، و «أحوال وآثار الحكيم سنائى» و«سلطنت عزنويان» وغير ذلك من المؤلفات[2].

أما بالنسبة لأسفاره ورحلاته ، فقد سافر بصحبة الملك السابق لأفغانستان إلى الهند ومصر وتركيا ويوغسلافيا ، كما سافر ضمن وفود أدبية إلى إيران وروسيا وفرنسا ولندن والعراق وغيرها والتقى بكثير من علماء البلاد الإسلامية . كما ألقى خطبًا وقصائد فى مؤتمرات عن الرودكى (م٣٢٩هـ) فى تاجيكستان ، وعن محمد فضولى (م٩٧٠هـ) فى باكو ، وعن أبى على بن سينا (٤٢٨هـ) فى السوربون ، وكذلك

---

(١) قدم له من الأساتذة الإيرانيين: بديع الزمان فروزانفر – سعيد نفيسى – دكتور رضا زده شفق – دكتور لطفعلى صورتگر – حبيب يغائى ومن الاساتذة الأفغان: كل شاه ألفت – عبد الرحمن پژواك – سيد شمس الدين مجروح – صلاح الدين سجلوقى ، وكتب عن تاريخ حياته الأديب گويا اعتمادى ، وقد طبع هذا الديوان فى طهران سنة ١٣٤١ .

(٢) انظر ص ٨ من مقدمة الديوان ، وقد عدد كاتبها أكثر من ستة عشر كتابًا بين منثور ومنظوم.

فى مدفن مولانا جلال الدين الرومى (م٦٧٢هـ) بقونية ، وفى المركز العلمى بعليگر ، وفى مؤتمر كتاب شعوب أسيا وإفريقيا فى طشقند . كما سافر إلى إيران مرتين بدعوة من وزارة الثقافة والجامعة ، ونشرت هناك خطبه فى المجلات والصحف وقد حصل خليلى على وسام الطبقة الأولى للمعارف فى بلاده ، كما حصل على وسام «كوماندور» من الأكاديمية الفرنسية.

وأول ما يسترْعى انتباه القارئ لديوان خليلى هو أنه يذكرنا من خلال أشعاره بفحول شعراء الفرس القدامى ، فهو صدى لهم فى كثير من الأفكار والصور ، وهو تابع لهم فى أسلوبهم الجزل الرصين ، ومحافظتهم على قالب الشعر التقليدى وعموده، وليس معنى ذلك أنه مقلد دون تجديد ، أو ناقل دون ابتكار ، فهو يقلد أسلوب العنصرى والفرخى وسنائى ، ويقتفى آثار نظامى الكنجوى (م٦٠٤هـ) فى المثنويات ، ولكنه يصب فى كل ذلك معانى جديدة ، وليدة فكرة الناضج . أما نثره فيمكننا القول بأنه تأثر فيه بأسلوب أبى الفضل محمد بن حسين البيهقى (م٤٧٠هـ) مؤلف كتاب «تاريخ البيهقى» المشهور ويقول الأستاذ فروز انفر فى هذا الصدد: «وبالإضافة إلى أن خليلى كان يراعى أسلوب القدماء وطريقتهم فى تركيب الألفاظ والجمل؛ إلا أنه كان قادراً على ابتكار المضامين وإبداع المعانى الفكرية ، ولذلك جمع بين قوة المعنى والفصاحة والجزالة وحسن التركيب»(١)

وتأثر خليلى بقدامى الشعراء أمر طبيعى ، فلا بد لذلك أنه قرأ دواوينهم واطلع على أشعارهم ، وحفظ منها الكثير ، فتكونت لديه ملكة اتباعهم فى أسلوب النظم . ويمكننا أن نقول أيضاً إنه أخذ عن الفرخى أسلوبه السهل الممتنع الذى كان يتميز به ، وهذا واضح كل الوضوح فى شعره ولم يقف تأثره عند الشكل والمضمون ، بل إنه نظم قصائد على وزن وقافية بعض قصائد الشعراء القدامى ، ومثال ذلك قصيدته التى يصف فيها الربيع على جبال البرز ، ويعطى لنا صورة جميلة لمدينة بلخ، ومطلعها(٢)

---

(١) انظر مقدمة الديوان ص د

(٢) الديوان ص ١٧ .

خـوشـا كـوه البـرز وآن آب ها — خـوشـا پيچ ها وخـوشـا تاب ها

زسنگى بسنگى سـرا زير بين — چوپيـلان لغـز نده سيـلاب ها

والمعنى:

مـا أجمل جبل البرز وتلك المياه الجارية ، ومـا أجمل الالتواءات والانحناءات .

وقد نظمها على وزن وقافية قصيدة الشاعر منوچهرى الدامغانى (م٤٣٢هـ) التى مطلعها:[1]

چو از زلف شب باز شـد تابهـا — فـرو مـرد قنديل مـحـرابهـا

سـپيده دم ازپى سـرمـاى سـخت — پوشـيـد بركـوه سنجـابهـا

والمعنى:

عندما عاد الضياء من بين طرر الليل ، وانطفأت قناديل المحاريب ،

تغطى الجبل بالسناجب ، اتقاء شدة البرد وقت الصباح.

والمعروف أن قصيدة منوچهرى السابقة منظومة أيضًا على وزن وقافية قصيدة الشاعر العربى المعروف أعشى قيس ومطلعها[2].

ألم تنه نفـسك عـمـا بهـا — بلى عـادها بعض أطرابهـا

لجـارتـنـا إذ رأت لمتـى — تقـول لك الويل أنى بهـا

وهو فى أحيان أخرى يضمن أشعاره مصراعًا لشاعر فلوسى آخر إذ يضمن بعض أبياتها مصراعًا للشاعر الفارسى فرخى السيستانى ، يقول على لسان الجبل [3]:

سنگ من ميدان ديو بستر شير ژيان

ريگ من بالين ببر وخواب گاه گرزه مار

(١) ديوان منوچهرى الدامغانى ، ص ٤ - طبعة دبيرسياقى - تهران ١٣٣٨ ش (الطبعة الثانية).

(٢) ديوان الاعشى الكبير - تحقيق الدكتور محمد حسين ص ٢٢ القاهرة ١٩٥٠م.

(٣) الديوان ، ص ٤٣ .

والشطر الثانى من هذا البيت من ديوان الفرخى.

ومعنى البيت :لقد أصبحت حجارتى ميدانًا للشيطان ومرقدًا للأسد المفترس وصارت رمالى وسادة للنمر ومخدعا للثعبان.

وكما كان يفعل القدماء فإن خليلى يختم بعض قصائده بما يسمى بالتأبيد وهو دعاء يربطه الشاعر بشىء أبدى دائم ، ويستخدم عادة فى قصائد المديح الفارسية ، فيدعو الشاعر لمدوحه مثلا بطول العمر طالما كانت الشمس تشرق . ونجد خليلى يستعمل التأبيد فى دعائه لمدينة اسطنبول . يقول[1]:

تابود اين اختران رخشنده در أعماق شب

تابود اين آبهـا مـواج از باد بهـار

ماه نورا تابود از جانب مشرق طلوع

مشترى راتابود برچرخ گردنده مدار

برچم گلگون ماه ومشترى بادا بلند

برسر اين شهر زيبا درقرون بيشمار

والمعنى :

– طالما بقيت النجوم لامعة فى أعماق الليل ، وطالما بقيت المياه متموجة من رياح الربيع.

– وطالما كان طلوع القمر من ناحية المشرق ، وطالما كان لكوكب المشترى المدار حول الفلك الدائر.

– فلتبق رايه القمر والمشترى الحمراء عالية خفاقة ، فوق هذه المدينة الجميلة على مدى قرون عديدة.

ويمتاز خليلى أيضًا بإجادته للوصف ودقة التصوير ، وهو يمزج وصفه بتشبيهات واستعارات وكنايات جديدة رائعة ، وهو فى هذا قد تأثر بشاعر الطبيعة منو چهرى الدامغانى الذى كان يفصل فى صوره ، ويدقق فى تشبيهاته ، ويصف الطبيعة وكأنه

(١) الديوان ، ص ٣٨ .

عالم بكل دقائقها وأسرارها ، وقد امتلا ديوانه بأسماء الطيور والنباتات وغير ذلك مما تحويه الطبيعة . ومن أمثلة دقة التصوير والتشبيه عند خليلى تلك القصيدة التى يصف فيها مدينة اسطنبول عندما زارها ، والتقى فيها بالعديد من علمائها ، وزار معالمها وآثارها ، يقول فيها[1].

درميان مرمره خورشيد هنگام غروب

چون غراب آتشين درآب گردد غوطه خوار

چون نگين هاى زمرد درميـــان برليان

اين جـــزاير درمـيـــان آبهـاى نقـره كـار

عصر درشاخ طلا آتش فتد در روى آب

آب ديدى كــه با آتش كند وبوس وكنار

والمعنى:

– تبدو الشمس أثناء غروبها وسط بحر مرمره ، وكأنها غراب نارى يغوص فى أعماق الماء.

– وتبدو تلك الجزر الواقعة وسط المياه الفضية اللون ، وكأنها فصوص من الزمرد وسط الألماس.

– وعند العصر تسقط النار على سطح الماء فى خليج القرن الذهبى ،

فهل رأيت نارًا تحتضن الماء وتقبله.

وهو فى نفس هذه القصيدة يتحدث عن كمال أتاتورك ، ويقول إن ماء سيفه قد أطفأ نار الظلم التى أشعلتها يد الزمان ، وهذا تصوير بديع:

شير دل مردى كه شد از آب تيغش منطفى

آتشى زاكــز ســتم أفــروخت دست روزگــار

---

(١) ديوانه ، ص ٣٧ .

أى:

أنه البطل الشجاع الذى انطفأت من ماء سيفه ، تلك النار التى أشعلتها يد الزمان من الظلم.

ومن تشبيهاته البديعة أيضًا ، ما يصف به الدنيا فى قصيدة له يتحدث فيها فى ذكرى الشاعر الفارسى سعدى الشيرازى (م٦٩١ أو ٦٩٤هـ) ، وقد أنشدها فى سفارة إيران وبدأها بالحديث عن الشاعر المذكور ، ومن أبيات هذه القصيدة عن الدنيا قوله[1]:

جهان باش چو دريائى پيدا نيست پايانش
حوادث مو ج غلطانش مصايب جوش طوفانش

خرد چنگ اين ديار چون كودك أعمى
كه گه افتد بدا مانش گهى گيرد گريبانش

شكو أن كهنه معموره چون نقشى بود برآب
كه أزيك ذرهء ناچيز برباد است بنيانش

نخيزد زين حريم ياس جزفرياد محرومى
نتابد جز چراغ مرگ از طاق شبستانش

مگر برقى كه مى تابد زسوز سينهء عارف
كه روشن ميشود گيتى بانوار درخشانش

والمعنى:

- تبدو الدنيا وكأنها بحر لا نهاية له ، والأحداث هى موجه الهادر والمصائب هى طوفانه الثائر.

---

(١) ديوانه ، ص ٤٥ .

العقل فى قبضة هذا البحر كالطفل الأعمى ، أحيانًا يسقط على ذيل ثوبه وأحيانًا يتعلق بفتحة قميصه.

– إن عظمة وجلال هذه المعمورة القديمة كنقش وزخرفة على الماء ، إذا اصطدم بذرة صغيرة ضاع أدراج الرياح.

– ولا يصدر عن حريم اليأس هذا سوى أنين محروم.

ولا يضىء خلف نافذة مخدعها سوى مصباح الموت.

– غير أن البرق الذى يشع من حرارة عشق صدر العارف ، يضىء الدنيا بأنواره اللامعة البراقة.

وهو فى بيت أخر يجعل لمعانى الكلام وصوره ملكًا خاضعًا للكاتب ويجعل الألفاظ كالشمع الطيع فى يده ، إذ يقول عند حديثه عن الكاتب المشهور مطيع الدولة حجازى:

ملك معنى شد حجازى را مطيع	لفظ چون موم است اندر چنگ او
مست سازد حيرت آرد جان دهد	بساغر وآئينه وآهنگ او

والمعنى:

– لقد صار ملك المعانى مطيعًا للكاتب حجازى ، وصارت الألفاظ فى قبضته طيعة كالشمع.

– إن مؤلفاته «ساغر» «آئينه» و«أهنگ»[(١)] تسكر وتحير وتعيد الروح.

وقد أجاد فى وصف بلاده فى أماكن متفرقة من قصائده التى اشتمل عليها الديوان ، ويحس الإنسان بعد قراءة ذلك الوصف الذى يتميز بدقة التشبيه وحسن

---

(١) «ساغر» بمعنى الكأس، «أئينه» بمعنى المرآة ، و«أهنگ» بمعنى النغمة واللحن والثلاثة أسماء مؤلفات الكاتب حجازى الذى يتحدث عنه الشاعر.

التصوير أنه زار تلك المناطق ، وتعرف عليها ، ومن ذلك حديثه عن منطقة نورستان التى يصفها وصفا بديعًا ، يقول مثلاً عن النهر[1]:

دريا نگر كه گاه رود راست همچو تير

گاهى دگر خمد چو يكى سيمگون كمان

أى :

- انظر إلى النهر الذى يندفع أحيانًا فى استقامة كالسهم ،

وأحيانًا أخرى ينحنى كقوس فضى اللون

ويصف فى نفس القصيدة السابقة قطرات الماء التى تتساقط من زهور الأقحوان الحمراء ، وكأنها أمطار تسقط من خلال ألسنة النار المشتعلة.

يقول :

انرا كه گفت آب زآتش نهى چكد

گوباز بين چكيدن باران زأرغوان

والمعنى :

قل لمن قال إن الماء لا يتساقط من النار ،

انظر كيف تتساقط الأمطار من الورد الأحمر

والسمة الغالبة على شعر خليلى ، والذى يضمه ديوانه المطبوع فى طهران ، هى أنه شعر مناسبات فمعظم قصائده قد نظمت فى مناسبات مختلفة ، فهى إما فى مناسبة الاحتفال بذكرى شاعر والإشادة بإنتاجه من الشعر ، أو فى تأبين آخر

(١) الديوان ، ص ٥٤ .

ورثائه ، أو فى ترميم أحد المساجد كقصيدته التى يتحدث فيها عن ترميم الرواق الجنوبى للمسجد الجامع بهرات[١] وإما فى مناسبة زيارته لبعض البلاد كما هو الحال بالنسبة لقصيدته عن اسطنبول أثناء زيارة هذه المدينة ، وقصيدته عن نهر النيل أثناء زيارته لمصر[٢]. وإما فى التهنئة بمنصب أو ترقية كما حدث فى قصيدته التى يهنئ فيها الشاعر الأفغانى بيتاب بلقب ملك الشعراء[٣]. كما كتب بعض القصائد تقريظًا لكتاب مثلما حدث فى مدحه لكتاب بعنوان: «روابط مولانا جلال الدين البلخى بأبيه سلطان العلماء».

ومن شعره فى المناسبات أيضًا المثنوى الذى نظمه بمناسبة العيد السادس عشر لاستقلال أفغانستان[٤]، وكذلك قصيدته التى ألقاها فى ذكرى مرور أربعمائة عام على مولد الشاعر محمد فضولى شاعر أذربايجان فى مدينة باكو ، وقد أنشدها أمام ممثلين من تركيا وإيران والعراق والهند ومن أبياتها قوله[٥]:

شاعر آن نبود كه بانيروى الفاظ فصيح

ذره راخورشيد گويد قطره را دريا كند

گه ستايد آنكه راشايستهء نفرين بود

گه فروتر ازخودش رابر فلك بالا كند

هست شاعر ساز فطرت رامبارك نغمه ئى

كز دم جا نبخش چندين مرده را احيا كند

---

(١) الديوان ، ص ٤٧ .
(٢) الديوان ، ص ٤٨ .
(٣) الديوان ، ص ٥٢ .
(٤) الديوان ، ص ١٣٨ .
(٥) الديوان ، ص ١٥٦ .

إلى أن يقول:

شعر آهنگ دلست ونغمهء روح بشر

برنواى دل جهانرا عاشق وشيدا كندا

اين جهان باشد كتاب عشق سرتاپاى آن

شاعر اين الفاظ دلكش رابما معنا كند

هر كجا عشق است شاعر ميكندا انجامقام

هر كجا حسن است انجا آشيان برپا كند

ومعنى الأبيات السابقة :

– ليس بشاعر كل من لا يستطيع بقوة الألفاظ الفصيحة ، أن يجعل الذرة شمساً والقطرة بحراً.

– فاحياناً يمدح من هو جدير بالكراهية ، وأحياناً أخرى يرفع من هو أقل منه إلى عنان الفلك.

– للشاعر الموهوب نغمة مباركة ، فهو يحيى العديد من الموتى بأنفاسه الواهبة للحياة.

– الشعر لحن القلب وأنغام البشر ، وعلى نغمة القلب يظهر فى الدنيا العاشق والمحب.

إن الدنيا من أولها إلى آخرها كتاب عاشق ، والشاعر هو الذى ينقل إلينا معنى هذه الألفاظ الجذابة.

– فأينما يكون العشق يجعل الشاعر مقامه هناك ، وحيثما يكون الحسن يبنى الشاعر عشه هناك.

- وله قصيدة فى الاحتفال الذى أقيم لحركة النهضة النسائية فى أفغانستان ، والتى يقول فى مطلعها[1]:

صد شكر كه ديديم پس از محنت بسيار

كز دا من شب صبح أميد است پديدار

نورى كه نهان بصد پردهء پندار

خنديد ودرخشيد وبتابيد به يكبار

تابيد چو خورشيد ودرخشيد چو أختر

والمعنى:

- نتوجه بمائة شكر وقد رأينا بعد محنة كبيرة ، وأن صبح الأمل فقد طلع من بين ثنايا الليل.

- ذلك النور الذى ظل مختفيًا خلف مائة حجاب من الظن ، أخذ يضحك ويلمع ويضىء مرة واحدة.

فأضاء كالشمس ولمع كالنجم

وخليلى ممن يدعون لحرية المرأة وهو ينادى دائمابتحرير نصف المجتمع الأفغانى، ويحث المرأة على التعليم والثقافة حتى تربى أجيالاً صالحة ، وأن تعمل جنبًا إلى جنب مع الرجل ، ليتقدم المجتمع الأفغانى ويرقى ، وتظهر تلك الدعوة فى كثير من شعره ، ونذكر من ذلك قصيدته التى أهداها إلى روح الآنسة زينب عنايت سراج التى ساهمت بجهد كبير فى الرقى بالمرأة الأفغانية ، ويوجه حديثه إلى الفتيات الأفغانيات فيقول[2]:

---

(١) الديوان ، ص ١٩٦ .

(٢) الديوان ، ص ١٩١ .

أی شاخه کل شکسته تاچند ؟ ای سرو روان نرسته تاچند ؟
أی مرغ بهشت خسته تاچند ؟ درج کنج قفس نشسته تاچند ؟

بشکن قفس وچمن بیارای

بی روی تو زندگی نکو نیست درباغ أمید رنگ وبونیست
هردل که هوای تو در أو نیست جاییست که شمع آرزو نیست

در قلب سیه دلان مکن جای

ويحضهن على العلم والعمل بعد ذلك فيقول:

علم تو یگانه زیور برتست أفکار توگنج گوهر تست
عقل توچو تاج برسرتست نوررخ تو ز جوهر تست

أين نور برنگ ها مالای

دای که حیات نیست جز کار ؟ بی کار بقای تست دشوار
دستی که چو نخل میدهد بار حیف است بدوش دیگری بار

از زحمت دیگران میاسای

أی نخل امید تاجهان باد گلهای تو دور از خزان باد
أفکار توتازه وجوان باد محکوم قضای آسمان باد

هر پنجه که بفشرد ترا نای

والمعنى:

إلى متى تظل مكسوراً ياغصن الورد ؟

وإلى متى لاتنبت أيها السرو الباسق ؟

إلى متى تظل مريضًا ياطائر الجنة ؟

وإلى متى تظل منزويًا فى ركن القفص ؟

حطم القفص وزين المرج

بدون وجهك تكون الحياة قبيحة

ولا يكون لبستان الأمل لون أو رائحة

إن كل قلب لا يحبك ، ليس موطنًا لشمع الأمان

فلا تقيمى فى قلوب القساة

فالعلم هو زينتك الوحيدة ؟ وأفكارك هى كنز جوهرك

وعقلك كالتاج فوق رأسك

ونور وجهك ينبع من جوهرك

فلا تلطخين هذا النور بالألوان

ألا تعلمين أن الحياة ليست سوى العمل

وأن بقاءك أمر صعب بدونه

إن اليد التى تثمر وتنتج كالنخلة

من الظلم أن تعتمد على الآخرين

فلاتستريحى بتعب الآخرين

فطالما بقيت الدنيا يانخلة الأمل

فليبتعد الخريف عن أزهارك اليانعة

ولتكن أفكارك جديدة وشابة

ولتكن خاضعة لقضاء السماء

وإلا كانت قبضة تضغط عليك

وخليلى لا يتأثر بأحداث بلاده وما يجرى فيها فحسب ، بل هو يتأثر بكل ما يجرى حوله فى عالمنا الكبير ، فيتابع كل الأحداث وينفعل بها ، ويصب ذلك فى شعره ذاكرًا رأيه ، ومن هنا يتضح لنا السبب فى أن خليلى لا يكثر من الأشعار التى يتحدث فيها عن نفسه وعن آلامه وأحلامه ، وإنما حديثه كله عن الآخرين من مواطنيه ، وعن الإنسان عمومًا أينما كان ، وحتى إذا تحدث عن نفسه وما يشعر به ، فهو ينطق بما يحس به الآخرون . فنراه مثلا يتحدث عن كفاح شعب الجزائر ، وينظر إلى جهاده نظرة احترام وتقدير ، وإنتصارهم على المحتل الغاضب ويقول فى قصيدة له تحت عنوان «على روح شهداء الجزائر»(١):

از تف الجزائريان	شعله ها در جهان نخواهدشد ؟
آبيار نهال آزادى	اشك اين بيكسان نخواهدشد ؟
صبحگاهى بمرگ استعمار	عيد آزاد گان نخواهدشد ؟

والمعنى:

- ألن تشتعل المشاعل فى العالم من حرارة آهات الجزائريين ؟
- ألن تصبح دموع هؤلاء الذين لا سند لهم سقاة لغرس الحرية ؟
- ألن يصبح الصباح بموت الاستعمار عيدًا للأحرار ؟

وشاعرنا يتحدث عن الحرية كثيرًا فى شعره ، ولا يرى طعمًا للحياة بدونها ، وقد تحدث الشعراء قديمًا عن الربيع ووصفوا الطبيعة وما يحدث فيها من ازدهار وبهاء ، إلا أن شاعرنا يشترط فى وصفه لجمال الطبيعة أن يكون مقترنا بالحرية ، فالطبيعة مهما كانت جميلة وبديعة ، فهى قبيحة وكريهة بدون الحرية ، ونراه يؤكد على ذلك فى شعره إذ يقول(٢):

---

(١) ديوانه ، ص ٢٣ .

(٢) انظر : مقدمة ديوانه ، ص ٣١ .

طبيعت هرچه باشد نغز وزيبا

چو آزادی نباشد سخت زشت است

جهان من پرتو آزادی ومهر

اگر زشت است وگر زيبا بهشت است

والمعنى:

مهما كانت الطبيعة جميلة وبديعة ، فهى قبيحة جداً إذا لم تتوفر الحرية ،

فالدنيا فى ضوء الحرية والمحبة ، هى الجنة إن كانت قبيحة أم جميلة .

وهو إلى جانب دعوته للحرية ، يدعو أيضًا للسلام بين شعوب الأرض ، ومن قصائده في هذا المعنى قصيدة بعنوان «رسالة السلام» ومطلعها[1]:

أدمى راگرچه از مشت غبارى پيكراست

جلوه گاه عظمتش از باختر تاخاور است

والمعنى:

رغم أن الإنسان جسد من حفنة تراب ،

إلا أن موضوع تجلى عظمته يمتد من الشرق إلى الغرب.

فهو يمجد الإنسان في هذه القصيدة ، ويود له لو أنه سخر تفكيره وعقله في نشر السلام في ربوع الأرض ، ويذم الذين يسعون إلى تدمير العالم وخرابه ، ويبين نتائج الحروب ودمارها ، وخصوصاً الحرب الذرية التي يمكنها أن تبيد الأسرة الإنسانية في لحظات قليلة . ويقول في نهاية القصيدة إن السلام هو سلاح العقلاء العظماء ، ويختمها بمدح بلاده التي قدمت العديد من المصلحين ودعاة السلام كجمال الدين الأفغاني وغيره.

---

(١) ديوانه ، ص ٢٠ .

(٢) انظر : مقدمة ديوانه ، ص ٣١ .

ومن السمات التي تغلب على شعره أيضًا نبرة الحزن والشكوى إذ ينبعث الأنين من هنا وهناك في ديوانه ، شاكيًا الزمان وتقلباته ، وما أصابه منه من ظلم وألم ، ومثال ذلك ما نراه فى قصيده يقول في مطلعها[1]:

از درد ولم بسوخت جانم	آى چرخ بس است امتحانم
آخر نه زا آهن است جسمم	آخر نه زسنگ استخوانم
ديرز بهار آرزو بود	در گلشن تن دل جوانم
امروز شده چو آمال	من بر سر قبر نوحه خوانم

والمعنى:

- لقد احترقت روحى من الألم والعناء ، فكف عن امتحانى أيها الفلك.
- فليس جسدى في النهاية من الحديد ، وليست عظامى أخيرًا من الحجر.
- بالأمس كان ربيع الأمل ، وكان قلبى شاب فى روضة الجسد،
- واليوم صارت الآمال قبرًا وأنا أنوح فوق هذا القبر.

وهو في قصيدة أخرى يذم الدنيا ، ويعتبر نفسه ممن ظلموا فيها ، وأن الفلك يتسبب في إيلامه ، ويرميه بكل سهم جارح وأن المروءة ليست من طباع الزمان الغادر ، وأن الحياة كلها خرافة ، وحقيقتها ليست سوى آلام ومصائب، يقول[2]:

مائيم ستمكشان مظلوم	زين شاه سياه وأختر شوم
بنياد أمل رذست داده	بنيان عمل زيا افتاده
اند كف روز گارچون موم	بازيچه اشكهاى مشئوم
هرتير كه چرخ دركمان بست	اندر دل ما نشان بست

(١) ديوانه ، ص ٥٣ .
(٢) ديوانه ، ص ٩٦ .

دل نی هدف سـيـاه بخـتـی	آمـاج بلا ورنج وسـخـتـی
در طبع زمـانه مـرمـدی نیـست	زین بزم امـیـد خـرمی نیـست
سـر تاسـر زنزگی خـرافـات	انـدوه وبـلا ورنج وافـات

والمعنى:

- نحن المظلومين المعتدى عليهم ، من الليل الأسود والنجم المشئوم ،
- إن الإنسان في كف الزمان كالشمع ، وهو ألعوبة الدموع المشئومة ،
- وكل سهم يثبته الفلك في قوسه ، إنما يصوبه إلى قلوبنا المتألمة العاجزة .

إن القلب ليس هدفًا لسوء الحظ ، بل هو هدف للبلاء والآلام والشدائد

فليست المروءة من طبع الزمان ، ولا أمل في السرور من هذا المحفل

إن الحياة كلها خرافات

وحزن وبلاء وألم وآفات .

والإنسان يولد في نظره مقيدًا ، وفي جو مشحون بالدم والصياح ،

ويقول[1]:

كـه مـيـگويد بشـر آزاد زاده ؟	كـه اين بيـچـاره بس شـاد زاده
به بند افـتـاده در روز نخـسـتـين	به خـون غليطده بافـريد زاده

من يقول إن الإنسان يولد حرًا ؟ إن هذا المسكين ولد بائسًا .

وقد قيد منذ اليوم الأول لولادته ، وتدحرج في الدم وولد مع الصياح.

وهو في أبيات أخرى يتحدث عن شدة مرارة الحياة وقسوتها، فيقول[2]:

---

(١) ديوانه ، ص ٢٦٠ .

(٢) ديوانه ، ص ٢٦٢ .

زبس بگذشت عمرم درجهان تلخ مرا گردیده استخوان تلخ
اگر موری خورد خاك وگل من بود تا محشرش كان ودهان تلخ

المعنى:

- من كثرة ما أمضيت عمرى فى الدنيا المرة المذاق ، أصبحت عظامى مرة المذاق.

- فإذا أكلت نملة من ترابى وطينى بعد موتى ، فستظل المرارة في حلقها وفمها إلى يوم حشرها.

ويقول في موضوع آخر[1]:

بهر جائى كه كارم تخم اميد جاى گل همه آزار رويد

أى:

حيثما أزرع بذور الأمل ، تنبت كلها ألما مكان الورود.

وتظهر في شعره أحيانًا نبرة التشاؤم ، فنراه يقول في قصيدة له[2]:

چشم أميدم كورشد شهد جوانى شور شد

زخم كهن ناسور شد گرديد گلها خارها.

والمعنى:

لقد عميت عينى آمالى ، وأصبح شهد الشباب مالحا ،

وصار الجرح القديم ناسورا ، وأضحت الورود شوكا

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان ابن الألم[3]:

(١) ديوانه ، ص ٢٦٢ .
(٢) ديوانه ، ص ١٨ .
(٣) ديوانه ، ص ٨١ .

زادهء دردم وپروردهء رنج ومـــحنم　　بجفـاء دگر اى چرخ مكن ممتحنم
بسكه در ساغر من تلخى غم ريخت سپهر　　زجر آلوده شده شهد سخن در دهنم

والمعنى:

- إننى وليد الألم ومربى العذاب والمحن ، فلا تمتحنى أيها الكون بظلم آخر
- فمن كثرة ما صب الدهر في كاسى من مرارة الغم ، أصبح شهد حديثي ملوثًا بالزجر في فمي.

وهو يعتبر الموت أفضل من الحياة التي تمتلئ بالآلام والمتاعب ، كما أن الإنسان مهدد فيها كل لحظة بما يخبئه له القدر من مصائب ونكبات ، ويعبر عن ذلك في قصيدته السابقة بقوله:

مرگ خو شتر زحيا تيست كه هر لحظه سپهر
دست بر تيغ گـــذارذ كـــه زنم يا نزنم

والمعنى:

إن الموت أفضل من الحياة ، فالدهر في كل لحظة
يضع يده على سيفه ليفكر هل يطعنني أم لا .

ومن الأفكار التي تغلب على شعره فكرة حب الوطن ، وهو موضوع محبب إلى نفسه يكرره بين الحين والآخر ، ويفخر ببلاده في كل مناسبة ، ويود لو رآها في مصاف الدول العظمي ، ويذكر شبابها بتاريخها المجيد الذي تمتلئ صفحاته بالبطولة والرقى ، وهو في كل هذا فخور بها وبمن أنجبت ، ونجد مثالاً حيًا على ذلك قصيدته التي يتحدث فيها عن مدينة غزنة والحروب التي دارت فوق أرضها ، وعن السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى (حكم من سنة ٣٨٧هـ إلى سنة ٤٢١هـ) وفتح أجزاء كبيرة من الهند ونشر الإسلام في ربوعها ، وكان بلاطه غاصًا بالشعراء والكتاب . ويتحدث كذلك في هذه القصيدة عن الصفاريين والسامانيين وهما الأسرتان اللتان حكمتا قبل

الأسرة الغزنوية ، كما يتحدث عن الكاتب المعروف أبى الفتح البستى ، وعن الفروسى الطوسى الذي نظم ملحمة الفرس الخالدة «الشاهنامة» ، وعن الشاعر سنائى الغزنوى ونراه يقارن بين حال غزنة بالأمس واليوم ، ويخاطبها بقوله[1]:

الاتو مهد دليران وكشور شيران　　قرار گاه بزر گان وخانه ابرار
الاتو مهبط علم ومحيط فضل وهنر　　الاتو قبه اسلام وقبلهء احرار
الا فرشته وش واى مادر بهشت قرين　　الاكه دامنت آورد شير مردان بار
به آب وخاك تو پرورده روزگاركهن　　سران باج ستان وشهان تاج گذار
به ويژه خسروكيتى سنام عالم گير　　كه برق تيغ وى افكند در زمانه شرار
بيمن ملت ودين حامى مفاخر شرق　　فروغ ديدهء گيتى ونخبهء اعصار
تو غزنه نيستى اى مادر عزيز دگر　　نمى كنم بتو من نام غزنه را تكرار
توشهر آتش وخونى تومهد علم وفنون　　تو يادگار قرونى ز گردش ادوار
تو مظهر حسناتى تو مايهء بركات　　توسر نوشت حياتى وتو عروس ديار
تومهد عظمت شرقى اگرچه هست امروز　　شباهت توبه تابوت مردگان بسيار
بيك تجلى نور توخيره شدتا حشر　　ضياى بتكده ، آئين مغ ، فروغ بهار
به بيش بيرق گلگون تو بخاك افتاد　　لواى دولت سامان وپرچم صفار
كدام بيكر قدسى بخاك پاك تو خفت ؟　　كه بوى عشق برون آيداز در وديوار
زمين قدس توپهناى أسمهان باشد　　دو أو زمردم بخرد ثوابت وسيار
بفضل ودانش بو الفتح تاجهان باشد　　زمانه باز دبيرى دگر نيارد بار
به محضر توشر فنامهء كيانرا مهر　　نمود شاعر طوسى بوه معجز گفتار
بلى سخن زصفاى محيط گردد نغز　　چنانچه دل شودز بادمهر گان ستوار
سخنوران تو مرغان عرش را مانند　　بجاى نغمه بر آرند آتش منقار
دل سنائى تو طرفه ژورف دريائى　　كه نى كرانه پديد است مرورا نه كنار
زرشحه قلمش باغ معرفت خرم　　زموجهء هنرش ساحت سخن گلزار

(١) ديوانه ، ص ٣٩ .

ومعنى الأبيات السابقة:

ألا إنك مهد الأبطال وموطن الأسود ، ومقر العظماء ومنزل الأبرار.

ألا إنك مهبط العلم ومحيط الفضل والفن ، ألا إنك قبلة الإسلام وقلبة الأحرار.

ألا إنك ملائكية الوجه أيتها الأم الشبيهة بالجنة ، ألا إنك تنجبين أبطال الرجال.

لقد ربى الزمن العتيق على مائك وترابك ، القادة جباة الضرائب والملوك المتوجين.

وخاصة الملك الذى استولى على العالم بأسره ، وكان الشر يتطاير من برق سيفه آنذاك.

إنه يمين الملة والدين ، حامى مفاخر الشرق ، نور عين الدنيا ، وخيرة رجال العصور والأزمنة.

أنت لست غزنة أيتها الأم العزيزة الأخرى ، ولن أكرر اسم غزنة كاسم لك.

أنت مدينة النار والدماء ، ومهد العلم والفنون ، أنت تذكار القرون على مر العصور .

أنت مظهر الحسنات وأساس البركات ، أنت ترجمة الحياة وعروس الديار.

أنت مهد عظمة الشرق ، رغم أنك اليوم تشبهين إلى حد كبير تابوت الموتى.

لقد انطفأ إلى يوم القيامة - بتجلى نورك لمرة واحدة - ضياء معابد الأصنام والأوثان والدين الزردشتى.

وسقط على الأرض أمام بيرقك الأحمر ، لواء «السامانيين» وراية «الصفاريين».

أى جسم مقدم نام على أرضك الطاهرة ، حتى يفوح عبير الحب من كل جنباتك.

إن أرضك المقدسة لها اتساع السماء ، وفيها من نجوم العلماء والعقلاء الثابتة والسيارة.

فطالما كانت الدنيا ، فلن ينجب الزمان مرة أخرى كاتبًا آخر يفضل «أبى الفتح» وعلمه.

ولقد ختم الشاعر «الطوسى» فى حضرتك رسالة شرف الملوك ومجدهم بمعجز قوله.

نعم إن الكلام يصير بديعًا لصفاء جوك ، كما أن القلب يثبت من رياح الخريف.

أدباؤك كطيور العرش ، يخرجون من مناقيرهم النار بدلا من النغمات.

إن قلب شاعرك «سنائى» كأعماق البحر ، ولا حدود له ولا نهاية.

وهو الذي ازدادت برشحات قلمه «حديقة» المعرفة[1] وأصبحت ساحة الكلام مزدهرة بأمواج فنه.

ومن شعره الذي نظمه في الفخر ببلاده وكفاحها ضد الإنجليز تلك الأبيات المذكورة في ديوانه تحت عنوان «آخرين سواره» أى «الفارس الأخير» وهى تحكى كيف أن المجاهد الأفغانى أكبر خان غازى استطاع أن يقضى على القوة الإنجليزية في كابل نهائيا، ويقى منها فارس واحد فقط هو الدكتور «برايدن» الذي استطاع بعد مشقة بالغة أن يصل إلى معسكر إنجليزي آخر في مدينة «جلال أباد» حيث الجنرال «سيل». ومن أبياته التي يصف فيها حال ذلك الفارس عند قدومه إلى معسكر الجنرال «سيل» قوله[1].

ديد كز دور سوارى پيداست	لزر لرزان چويكى سايه بر آب
گاه ى افتد وگه خيزد	دست رفته زعنان باز ركاب
برسر اسب (برايدن) بود	خسته وزار ونحيف ورنجور
شبح بى روح وى اندر ظلمات	چون يكى مرده برون جسته زگور

---

(١) يقصد «حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة» وهى مثنوية للشاعر سنائى شاعر القرن السادس الهجرى المشهور ، ويبلغ عدد أبياتها إحدى عشر ألف بيت وقد قسمها الشاعر إلى فصول أو كتب وأهداها للشاه الغزنوى وتتصل موضوعاته بالأخلاق والتصوف.

(٢) ديوانه ، ص ١٦٩ .

- رأى (سيل) فارساً يظهر من بعيد ، مرتجفًا كظل إنسان على الماء.

- فهو يسقط أحيانًا وينهض أحيانًا ، وقد أفلت الزمام من يده والركاب من قدمه،

- وكان فوق هذا الجواد الفارس (برايدن) متعبًا ضعيفًا نحيفًا متألمًا.

- وكان شبحه الذى لاروح فيه في الظلمات ، كميت وثب من قبره.

ويصف برايدن مارآه من الأفغان ، وأنهم يتصفون بالشجاعة والبطولة. ويصف جيشهم بأنه كان في القتال كالسحاب الأسود الذي يتساقط منه الموت على رؤوس الجيش الإنجليزي ، ويتناثر منه الحقد والضغينة كألسنة اللهب ، وعيونهم تلمع غيظًا ، وصدورهم تغلى حقدًا ، ويحملون على عدوهم كالبرق الخاطف . ويأمر القائد سيل أن ينفخ في النفير ، فيجتمع جنده ويشعلون نارًا حتى يهتدى إليهم كل من ضل من الجند ، وفي الصباح لم يعد أحد فجلس سيل أعلى قلعته متألما يبكى حظه العاثر عندئذ رأى عقابا يأتي من بعيد ، وقد حمل في مخلبه قطعة قماش تقطر دمًا ، فقال «هذا دم قلب جندى». وارتفعت بذلك راية الحق ونكست أعلام الظلم. وقد أجاد خليلي في تصوير هذه الواقعة الحربية ، وزخرت أبياته بالصور والتشبيهات الرائعة ، وهو بهذا يذكر أبناء وطنه بماضيهم التليد وكفاحهم ونضالهم من أجل حياة أفضل ، ونراه في مواضع أخرى يلفت أنظارهم إلى الحضارة التي تغمر العالم ، ويحثهم على التقدم والنهوض ببلادهم أسوة بأجدادهم العظماء ، يقول في قصيدة يخاطب فيها أبناء الوطن[1].

همه بيدار وتو خواب گرانى تاكى؟ غافل از سر ترقى جهانى تاكى؟

چشم برراه كمال دگرانى تاكى؟ توباين پرده تاريك نهانى تاكى؟

هله برخيز زجا غفلت بى جا تاكى؟

خواب نوشين چو قدر تشنه صهبا تاكى ؟

---

(١) ديوانه ، ص ١٠٢ .

إلى أن يقول:

أى پســر چشم ســوى توبازست هنوز
قــوم راجــانب تـو دست درازست هنوز
مملكت رابتو صد گونه نيازاست هنوز
فـرصـتى خـدمت تودور ودرازست هـنوز
وقت بازى نبـود فـرصت كـارست بيـا
اى پســر كـار نكـردن بتـو عـارست بيـا

والمعنى:

إلى متى تغطون في سبات عميق والجميع يقظى؟ وإلى متى تغفلون عن سر رقى الدنيا.

إلى متى تنظرون إلى طريق كمال الدين ؟ وإلى متى تختفون خلف ستار مظلم.

- هيا انهضوا من أماكنكم ، فإلى متى هذه الغفلة التي لا محل لها.

- يا من تغطون في النوم ، إلى متى تكونون عطشى للشراب.

- يابنى إن عين الوطن تنظر إليك الآن وإن قومك يمدون إليك يدهم الآن.

- وبلادك تحتاج إليك في أشياء عديدة الآن ، وفرصتك اليوم كبيرة لتخدمها.

- ليس الوقت وقت اللعب ، تعال فالوقت وقت العمل.

- يابنى أقبل فإن البطالة عار عليك.

ومن المعانى الطريفة التي طرقها الشـاعر في ديوانه تصويره لضعف الإنسان وغروره ، ودعوته إلى التحلى بعدم الغرور ، فكل إنسان سيصير بعد قليل إلى تراب تذروه الرياح ، بعد أن يصبح جسده طعامًا للحشرات ، والإنسان في رأيه مخلوق

ضعيف يتركب من جعبة عظام وقدحين من الدم ، فلماذا يعتز بقوته وعظمته ؟ ويتجلى هذا المعنى في بعض رباعياته ، ومنها قوله[1].

ای غــره اینکه دهر فــرمــا نبــر تــست

وین مــاه وســتــاره وفلك چاكــر تــست

آن مــور چگان کــه رزقــشــان پیکــر تــست

ای مشت گل این غرور بیجای تو چیست ؟

یك بار بخود نگر که معنای تو چیست ؟

یك جعبهء استخوان ، دو پیمانهء خون

پنهان توچیست ؟ آشکارای تو چیست ؟

والمعنى:

- يامن تظن أن الدهر مطيع لك ، وأن القمر والنجوم والفلك خدمك،

- أخشى أن يظن النمل إنك خادمه ، عندما يصير جسدك رزقًا له وطعامًا.

- ما هذا الغرور الذي لا محل له ياحفنة الطين ؟ انظر إلى نفسك مرة واحدة ، فما هو معنى وجودك ؟

- أنت جعبة مليئة بالعظام وقدحان من الدم ، فما هو الواضح فيك وما هو الخفى؟

وشاعرنا يمجد العلم والعلماء ، ويمدح العلم في بعض قصائده، وقد عمل في التعليم كما ذكرنا من قبل ، وهو يصف المعلم بأنه ينقل الناس من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة ، ويعتبره في مرتبة تلى مرتبة النبوة لمكانته وفضله ، يقول في قصيدة له[2]:

(١) ديوانه ، ص ٢١٤ .

(٢) ديوانه ، ص ٦١ ، ٦٢ .

ملك دانش ملك وى أمانه باتيغ وسپاه

عرش حكمت زان وى ليكن نه با انگشترى

محو گشت آن روز هاكز روم تا اقصاى چين

گوش ها مى گشت كر ا ز نوبت اسكندرى

ليك آواز ارسطو تا هنوز آيد بگوش

از در هر مدرسه گر باتأمل بگذرى

اين جهان يك سر دبستان است وما شاگرد آن

هان توتنها طفل را شاگرد مكتب نشمرى

خود معلم نيز شاگرد است پيش روز گار

نوبنو درسى دهد مارا جهان بنگرى

والمعنى:

- إن ملك العلم هو ملكه، ولكن ليس بالسيف والجند ،

وعرش الحكمة له ولكن بدون خاتم .

- فمن ضيائه تظل سماء الفضل مضيئة إلى الأبد .

كما يضيء الفلك الدائر بنور القمر والمشترى ،

- لقد محت تلك الأيام ما حدث في بلاد الروم وحتى أقصى الصين ،

وصمت الآذان عما حدث في عصر الإسكندر ،

إلا أن صوت أرسطو مازال يدوى في الآذان حتى اليوم ،

إذا مررت متأملاً بباب كل مدرسة ،

إن الدنيا كلها مدرسة ونحن تلاميذها ،

نعم لا تعتبر الطفل هو تلميذ المدرسة الوحيد .

- فالمعلم نفسه تلميذ أمام الزمن أيضاً.

وإذا تأملت فستجد أن الدنيا تعطينا درساً تلو الآخر .

مبشر خان الطرازى شاعر تركستان

ومثنوى "يادگار زندان" أو "آيينهء جهان"

ناظم هذا المثنوى هو السيد مبشر خان الطرازى الحسينى ينتسب إلى أسرة شريفة النسب اشتهرت بالعلم والعرفان فى تركسنان الغربية ، وهو أحد زعماء هذه المنطقة البارزين.

بدأ شاعرنا فى نظم مثنويه فى السادس من سبتمبر عام ١٩٤٧ وانتهى منه فى الواحد والعشرين من نوفمبر ١٩٤٧، وذلك أثناء الفترة التى قضاها فى السجن فى مدينة كابول منذ عام ١٩٤٣م ولمدة خمس سنوات وثلاثة أيام، وأطلق على هذا المثنوى اسنم «يادگار زندان» أو «تذكار السجن» ، وكان قد أطلق سراحه قبل صيف عام ١٩٤٨م. أما اسم المنظومة الآخر وهو «أيينهٔ جهان» فقد أطلقه سيد على أكبر شاه حسينى وكيل وزارة المعارف بولاية السند بباكستان وعضو البرلمان الباكستانى، وطلب من المؤلف أن يسجله عليها . ولهذا سميت المنظومة بهذين الاسمين معًا ، والملاحظ أنهما ينطبقان على مضمونها ، فهى تحتوى على قسم كبير يتحدث فيه عن السجن والمسجونين من المجاهدين . ويصف ما حدث فى تلك الفترة له ولزملائه . كما أنها تحتوى فى نفس الوقت على الأحداث التى تدور فى عصر الشاعر ، ويخص كثيرًا من دول العالم وخاصة العالم الإسلامى وما أصابه من فرقة وتفكك ، وأخطار الشيوعية على هذه الدول.

ومن هنا نرى أن منظومته كانت مرآة ينعكس فيها كل ما يجرى من حوله من أحداث جسام . وقد صرح هو فى ثنايا منظومته بأنه نظمها من أجل أن يستفيد بها المسلمون وأن تظل تذكارًا للفترة التى قضاها فى السجن.

يصل عدد أبيات هذه المنظومة إلى حوالى أربعة آلاف بيت نظمها فى قالب مثنوى الذى تكون فيه القافية فى جزئى البيت الواحد وتتغير بعد ذلك بتغير الأبيات ، وهذا القالب هو الذى نظم فيه شعراء الفارسية منظوماتهم الطويلة التى تتناول قصص البطولة أو مسائل الأخلاق والتصوف والحب ، أما الوزن الذى صيغت فيه فهو وزن الرمل ، وقد ذكر الشاعر فى نهاية منظوممته أنه نظمها فى وزن منظومة «مثنوى معنوى» لجلال الدين الرومى شاعر الصوفية الكبير[1].

ورغم تعدد الموضوعات التى تناولها الشاعر فى منظومته إلا أن هناك خيطًا يربط بين كافة هذه الموضوعات ، وهو يتلخص فى توجيه النصح والإرشاد للفرد المسلم ولجماعة المسلمين فى شتى بقاع الدنيا ، فالسمة العامة التى تغلب عليها هى النصيحة من خلال الحديث المباشر والاستعانة ببعض القصص التى تؤيد وجهة نظر المؤلف وهذه الطريقة نجدها فى كثير من المنظومات أو الكتب النثرية الفارسية وخاصة فى المنظومات الصوفية والأخلاقية.

وقد وضع المؤلف "عناوين" لكل موضوع من الموضوعات التى طرحها ، ولم يترك الموضوعات تتداخل وتختلط ، ويحس القارئ لهذه المنظومة بقوة إيمان ناظمها وعمق تدينة وتوكله على الله ، وهذا واضح فى ثناياها ، ومثال ذلك حديثه إلى المناضلين المسجونين معه من أجل تحرير تركستان ، ودعوته لهم بالاعتماد على الله والصبر حتى يتحقق لهم النصر.

أما عن أسلوب الشاعر فى منظومته فيتميز بالسهولة وعدم التكلف ، وربما جنح شاعرنا إلى هذا الأسلوب حتى تنتقل أفكاره وآراؤه إلى كافة المستويات الثقافية التى ستقرأ هذه المنظومة ، وهو فى هذا يتبع الأسلوب الذى يجرى على ألسنة من يقومون بالوعظ والإرشاد.

---

(١) حمد لله اين كتاب مثنوى بروزن مثنوى مولوى ، (ص٢٤٨).

يبدأ الشاعر منظومته بشكر الله ومناجاته ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذه المقدمة عادة ما تبدأ بها المنظومات الفارسية الطويلة ، ويقول فى مطلع المثنوى[1]:

أحمد الله الأبدى حمداً لاحد له — وهو الحى القيوم القادر ذو الجلال
لا يعترى ذاته أى نقص أو عيب — ولايخفى على علمه أى غيب
كل صفاته فضل وكمال — لاتشوبه شائبه أويحيق به زوال
لامكان له ومنه يكون المكان — لازمان له ومنه يكون الزمان

ويشير إلى أن الله خلق كل ما فى الكون لكى يعبدوه ، وأن مخلوقاته كلها مظهر لقدرته ودليل على عظمته وبرهان على وجوده وصفاته ، وأن الأبصار لا تدركه وهو يدركها[2].

ويناجى ربه ، ويسوق خلال هذه المناجاة قصة يوسف وزليخا وقصة أيوب وما أصابه من بلاء وقصة النمرود وإبراهيم ، وينتقل إلى ليلى والمجنون ، وقصة فرهاد وشيرين ، ثم يتحدث عن نفسه وما أصابه من بلاء من يتم وغربة عن الوطن وسجن ، وأنه راضٍ بكل ما يحكم الله به عليه ، وأن شكواه ليست من عدم الرضا ، فالله عالم بحاله ولا تخفى عليه خافية ، يقول[3]:

---

(١) حمد بيحد مرخداى لايزال — حى وقيوم وتوانا ذو الجلال
ذات أوراهيج نقص وعيب نيست — نزد علمش هيج پنهان غيب نيست
هم صفاتش سربسر فضل وكمال — نى مراورا شائبهء شين وزوال
لامكان ست ومكان ازوى پديد — لازمان ست وزمان ازوى دميد (ص١)

(٢) ديده عا ازديدار أو عاجز بود — درك ذاتش برهمه معجز بود (ص٢)

(٣) اتكا از من بتو برذات توست — تسليهء خاطر مرا آيات توست
حال من ازعلم توبو شيده نيست

(٤) گردهن شد از مرضها بى مزه — بى مزه در ذوق آن شد بامزه
بى مزه در ذوق آن شد بامزه
ور رمد در چشم انسان شد پديد — روشنى مهر تابان رانديد

- إذا أصبح الفم لا يتذوق بسبب المرض ، فإن الطعام غير المقبول يصبح سائغًا.
- وإذا أصاب الرمد عين الإنسان ، فإنها لا ترى ضوء الشمس الساطعة.

ويتحدث بعد ذلك عن صفات الرسول وأن الله مدحه بقوله : «وإنك لعلى خلق عظيم» (سورة القلم آية ٤) وقوله : «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (الأنبياء ١٠٧) وأن دينه يصلح لكل زمان ومكان ، وأنه نسخ كل الأديان السابقة عليه ويختم مدحه للنبى بقوله[1]:

- فتعال يا أيها المنصف الحق ، واحن الرأس احترامًا لخاتم الأنبياء.
- واهتف قائلاً من صميم قلبك وصدق إحساسك : يا مصطفى روحى فداك.

يانبى الله سلمت إليك ، يا رسول الله صلى الله عليك.

ويتحدث عن والدى الرسول وزوجاته وآل بيته فاطمة والحسن والحسين وعن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ويتوسل إلى الله ويدعوه أن يرحمه ويغفر له خطاياه وسهوه ونسيانه بحق المصطفى (ﷺ) ، وأن يحفظه من الفقر والكفر ومن التقلب والتغير، ويثبت أقدامه فى طريق الخير والصواب ويحفظه من شر إبليس ولا ينسى أن يدعو لأولاده وأهله ووطنه ، ومن دعائه قوله[2].

- اللهم ابعد عن قلبى حب غيرك واصقل صفحة مرآتى.
- وأذب جسدى وروحى فى طريق عشقك ، وأظهر لروحى العلاج يا إلهى.

---

(١) پس بيا أى منصف متقن بيا — گردنى خم كن به خاتم انبيا
از صميم قلب وصدق إمتساك — خود بگويا مصطفى روحى فداك
يا نبى الله سلمت إليك — يارسول الله صلى الله عليك ص٨

(٢) صاف كن ازعشق غيرت سينه ام — صيقلى ده صفحهء آيينه ام
دره عشقت تن وجانم گداز — چارهء روحم نما آي چاره ساز
بهر عشق اين دلم پر درد كن — ازشئون دنيوى دل سرد كن (ص١٥)

واملأ قلبى بآلام عشقك واجعل قلبى فاتراً عن شئون الدنيا.

ومن الأبيات السابقة وغيرها نلاحظ النزعة الصوفية التى تسيطر على ناظم هذه المنظومة، فحديثه عن العشق الإلهى فى جنباتها، ويبرز بين الحين والآخر على الرغم من أن المنظومة تتناول موضوعات مختلفة ومتعددة.

وشاعرنا كمتصوف يستخدم أقوال الصوفية فى شعره أحيانًا، متأثراً بما قرأ فى هذا المجال ومن ذلك تضمينه لقولهم «من عرف نفسه فقد عرف ربه» فى أحد أبياته[1].

بعد هذه المقدمة الطويلة والتى استغرقت أكثر من مائتى بيت يبدأ الشاعر قسماً آخر من منظومته بعنوان «فى السجن» ويتحدث فى بدايته عن هجر وطنه واصطحاب ابنه نصر الله معه وسجنه فى ليلة السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٢ هـ = ١٣ حمل ١٣٢٢ هـ. ش = أول أبريل ١٩٤٣م، ويشير إلى الرضا بالقضاء والقدر وأنه خاضع لهما، وأن تقدير الله لا بد أن يكون لحكمة سواء كان ما يصيب الإنسان خيراً أم شراً، وحكمه نافذ على كل إنسان سواء كان ملكًا أو أميراً أو وزيراً أو عظيماً أو ضعيفًا، فكيف يتردد الإنسان فى قبول هذا الحكم؟[2].

- حكمه نافذ على كل شخص، فكيف يجوز للإنسان أن يتردد فى قبوله؟

- فسواء كان الإنسان امبراطوراً أو ملكًا أو أميراً، أو عظيماً أو وضيعًا أو وزيراً.

فلا بد أن يحنى رأسه خضوعًا على أعتاب تقديره وأن يكون رهين أمره وتدبيره.

ولقد كان شاعرنا قدوة للمؤمنين المسجونين معه، وهو يحمد الله على حاله هذه فيقول[3]:

---

(١) ميشنا سد خالق خود اينچنين من عرف نفسه عرف ربه همين (ص٢)

(٢) بهر هركس حكم او نافذ بود كى تردد بر كسى جائز بود؟

كرشهنشاه است وياشه يا أمير يا كه است ويا مه است ويا وزير

سرخم اند درگه تقدير اوست يا رهين امر او تدبير او ست

(٣) بودم اندر زمرهء زند انيان شكر لله قدوهء إيمانيان

الحمد لله لقد كنت فى زمرة المسجونين ، قدوة للمؤمنين.

ورغم أنه كان فى كابول عندما قبض عليه إلا أنه يخيل إليه أنه فى موسكو وأنه بين يدى أعدائه ، وأن أعداءه هم الذين احتجوا على جهاده وكفاحه من أجل وطنه واستقلاله، فأوصوا حكومة كابول بإيجاد حل لذلك ، فكان السجن له ولرفاقه.

ويشغل الشاعر نفسه فى السجن بالصلاة مع رفاقه أو بالحديث معهم ، أو بالرد على أسئلتهم وتفسير أحلامهم كما كان يفعل سيدنا يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، وكان يرى أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض عليه والتزام بسنة خير الأنام كما كان ينصح البعص حتى لا يضلوا الطريق.

ويصف أحوال المسجونين فيقول إنها مختلفة فبعضهم يشغل نفسه بالعبادة ليلاً ونهاراً والبعض الآخريغفل عن ذلك ، وبعضهم حزين يشكو ماضيه ، والبعض الآخر يعترف بذنبه ، ومنهم من يعتبر نفسه بريئًا ، وهذا يأخذ الفأل من القرآن ، وذالك يأخذه من ديوان حافظ الشيرازى . والمسجونون جميعًا رغم ما هم فيه من هم وحزن إلا أنهم يأملون جميعًا فى الفرج . ويصف بعضهم بعدم الصبر والتحمل ، ويرجع ذلك إلى أن الإنسان بطبعه فيه شىء من الهلع والجزع إذا مسه الشر ، ثم يوجه النصح لهذا النوع من الناس ويرد على شكواهم ويتضح من كل هذا إيمانه العميق بالله عندما يرد على من أصابهم القلق على أسرهم وأولادهم وهم فى السجن ، يقول[1]:

- إن الخالق هو الكافى لأهلك وأولادك، وإذا اعتبرتهم ضعفاء فهو سندهم .
- فالرازق يكفل الرزق لكل دابة ، والعناية والرحمة من صفاته.
- فسلم أمرك لله واخضع لحكمه وعظمته.

وفى هذا إشارة إلى قوله تعالى : «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها» (هود٦) ، وقوله تعالى «فالله خير خافظًا وهو أرحم الراحمين».

---

(١) أهل وأولاد ترا خـــالق بس اســت — گـــربدانى بى كــــسـان را اوكس است
رزق فـــــر جنبـنـده بر رازق اســت — حـفظ ورحم ازخـصلت آن خالق است
كـــارخـــود رابر خـــدا تـسليم كن — بهر حكمش سرخم وتعظيم كن (ص٢٩)

ويحلو للشاعر بين الحين والآخر أن يذكرنا بقصة يوسف ، وهى تتناسب كثيراً مع وضعه فى فترة الحبس ، ويروى لنا فى هذا القسم قصة الأصمعى والإمام زين العابدين، وذلك عندما رأى الأصمعى شخصاً يتعلق بأستار الكعبة ويطلب المغفرة من الله ويبكى ثم يسقط مغشياً عليه ، وعندما يقترب منه يكتشف أنه الإمام زين العابدين ، فيتعجب مما يفعله وهو من آل البيت وذرية النبى (ﷺ) ويذكره بما قاله الله تعالى فى حقهم : «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»، إلا أن الإمام يرد عليه بآية أخرى هى قوله تعالى : «فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون» (المؤمنون ١٠٢، ١٠٢ ، ١٠٣).

ويؤيد ناظم المثنوى رأى الإمام زين العابدين ويقول رغم أن الأصمعى أيد كلامه بآية قرآنية إلا أنه كان يقصد التخفيف عن الإمام زين العابدين، ويؤيد هذا الرأى أيضا بقصة نوح وإبنه كنعان الذى رفض أن يركب السفينة مع أبيه وغرق ، ووصفه القرآن بأنه عمل غير صالح ، ولم ينفعه نسبه فى هذا المقام ، كما يؤيده أيضاً إبراهيم وأبيه آذر ، عندما دعا إبراهيم ربه بأن يغفر لأبيه لأنه كان من الضالين فيقول الله تعالى «إنى حرمت الجنة على الكافرين» وهنا لا ينفع الابن أباه أيضاً ثم يعود فيشرح لنا ثلاث كلمات وردت على لسان الإمام زين العابدين من قبل وهى : التوحيد والشفاعة والرحمة.

ويعتبر التوحيد أساس ديننا وأنه يعنى نفى ماسوى الخالق وإثبات ذاته ، ويدعونا إلى التفكير فى خلق الله ويرى أن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمن الموحد الذى يرضى الله عنه ، ويروى أن المؤمنين العصاة يطلبون الشفاعة يوم القيام من الأنبياء والرسل كنوح

---

(١) ميكنم يارب بتواين التجاء	بر حضورت ايت تضرع اين رجاء
از شفاعت تومرا محروم مكن	نام من در محرومان مرقوم مكن
كر نباشد شافعم روز جزا	در هلاكم جزاى باسزا
كر شفاعت بهر عاصى ميشود	كر شفاعت بهر جافى ميشود
كر شفاعت بهر شخص شرمسار	بى بضاعت هم پريشان روز گار
بس إلها مستحق آن منم	چون غريق بحربس عصيان منم ص (٥٤)

وإبراهيم وموسى وعيسى ، إلا أن مقام الشفاعة لا يكون إلا لمحمد (ﷺ) الذى تقبل شفاعته ، ويختم حديثه بالتضرع وطلب الشفاعة ، فيقول[1]:

- إننى ألجأ إليك يارب وأتقدم إليك بتضرعى ورجائى.

- ألا تحرمنى من شفاعتك ولا تسجل اسمى ضمن المحرومين.

- فإذا لم يكن هناك من يشفع لى يوم الحساب فسأهلك لما استحقه من عقاب.

- ولو كانت الشفاعة لكل عاص ، ولو كانت لكل جاف ،

- ولو كانت لكل نادم لا بضاعة له ومضطرب الأحوال ،

- إذن فأنا من يستحقها يا إلهى فأنا غريق فى بحر العصيان.

ثم يتحدث عن الرحمة ويشير إلى الآية «قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعًا ، إنه هو الغفور الرحيم» (سورة الزمر – ٥٣) : ثم يروى عدة أحاديث منها حديث ابن مسعود الذى رأى فقيهًا يعظ الناس فى المسجد ويحدثهم عن جهنم وأهوالها فقال له : لماذا تجعل الناس يقنطون من رحمة الله؟ ثم قرأ عليهم الآية السابقة فزال الخوف من قلوب الناس وزاد الأمل فى نفوسهم.

ويتحدث عن القرآن الكريم وأنه يشتمل على كل شىء من سياسة واجتماع وعلوم ، فأين منه القوانين الوضعية التى يضعها البشر ويقول إن هناك فرقًا بطبيعة الحال بين ما ينزله الله وبين ما يضعه البشر (وضع الخالق والمخلوق) ، وأن الأوروبيين أخذوا ببعض أحكام الدين الإسلامى كالطلاق والصيام الذى اتخذونه وسيلة لعلاج بعض الأمراض ، وكذلك منع تناول المسكرات ، ويذكر أن كثيرين من الأجانب من غير المسلمين شهدوا بمعجزة القرآن ، وكان الطرازى قد فصل القول فى هذا الصدد فى مؤتمر عقد فى شهر إبريل عام ١٩٣٦ فى مدينة لاهور بباكستان بدعوة من الدكتور محمد إقبال شاعر باكستان وفيلسوفها العظيم ، وذكر فى محاضرة له بعنوان «وجوب اتحاد إسلامى» (ضرورة الوحدة الإسلامية) اعترافات خمسة وثلاثين أجنبيًا حول هذا

الموضوع وقولهم بأن القرآن يصلح لكل الأمم ولكل زمان ومكان . ونشرت بحثه هذا «جمعية حماية الإسلام» (انجمن حمايت إسلام) التى كان يرأسها إقبال ، ويورد الشاعر رأى برنارد شو فى الإسلام وأنه سيأتى يوم يعتنق فيه الغرب هذا الدين.

ويعقب ذلك بحديث عن الدنيا وما فيها من اضطرابات تدور فى عصره ، فيذكر الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية وما جرتهما على العالم من دمار وخراب ، ومع ذلك فإن البشر يسعون إلى حرب عالمية ثالثة ، والدلائل كلها تشير إلى هذا فى رأيه ، ويتناول تشرشل وسياسته، ثم يتحدث عن فرنسا وأنه ستظل فى خطر طالما بقى فيها الحزب الشيوعى ، ويطلق هذا الكلام على إيطاليا، أما بالنسبة للبلقان فقد خضعت للنفوذ الشيوعى ، وهو دائماً يحذر من خطر الشيوعية. ثم يتحدث عن اليونان وتركيا وإيران ، ويشير إلى الأخطار التى تحدق بهذه الدول من قبل روسيا ، ولكنه يذكر أن تركيا ستتمكن من دفع هذا الخطر عن نفسها لما لها من ماض عريق فى الدفاع عن الإسلام ، أما إيران فنفوذ الروس فيها معروف وقد ارتبطت بمعاهدة مع روسيا ، ثم فسخت هذه المعاهدة عن طريق البرلمان الإيرانى ، وغضب السوفييت من هذا ، ثم يدعو الله لكى يحفظ ملك إيران . وعندما يأتى الدور على أفغانستان يقول عنها :

- إن بلاد الأفغان بلاد أرضها طيبة ، وأهلها من ذوى القلوب الطاهرة .

– فهم قوم متدينون ذوو غيرة ، وهم مشهورون فى تاريخ العالم.

– مخلصون لأرباب الكمال ، أى أنهم أهل علم وتقوى وأخلاق حميدة[١].

ويشير من خلال ذلك إلى محمد نادر شاه الذى حرر تلك الديار من قبضة الإنجليز ، ثم ذكر الملك محمد ظاهر شاه ، وأن أفغانستان ليست بعيدة عن الأطماع

---

(١) ملك أفغان سرزمين نيك خاك — آنكه دارد ملت أو قلب پاك
ملت بادين وباغيرت تمام — بين تاريخ جهانى نيكنام
ملت مخلص بأرباب كمال — يعنى أهل علم وتقوى حسن حال (ص١٠٩)

الروسية، وأن روسيا تتربص بها دائمًا لأنها عدوة للإسلام وللمسلمين يقول[1]:

هى ليست بعيدة عن الأطماع الروسية ، وهذه الحقيقة لاتخفى على أحد .

– فالروس يتربصون بها فى كل لحظة وحين ، لأنهم أعداء الإسلام وخصوم المسلمين .

– وهم جيران السوء فى كل زمان ، ولا يوفوا بمواثيقهم .

– ويسعون لتحقيق أغراضهم الدنيئة ، ولا يصدر عن الأشرار إلا كل شر .

– خاصة من أتباع الإلحاد ، فكيف يكون حسن الجوار مع الأشرار؟.

ثم يدعو الله أن يحفظ تلك البلاد ، فيقول [2]:

– يارب بحق جاه محمد المصطفى ، وحق آله وصحابته الطاهرين .

– احفظ هذه الديار وهذه البلاد ، من دسائس الروس المشئومة ومكرهم وغدرهم.

– واجعل هذه البلاد حرة إلى يوم القيامة ، واجعل الدين والدنيا عامرين فيها.

---

(١) ليك از أطماع روسى دور نيست   اين حقيقت ازنظر مستور نيست
روس باشد هردم آز وى كمين   دشمن اسلام وخصم مسلمين
همجوار بد بود درهر زمان   بى وفادر وعده وعهد وامان
أو بود هر دم پى أغراض بد   برنيايد ازبدان جز كاربد
باالخصوص از پيروان ملحدى   كى بود همسايكى خير ازبدى؟ ص ١١٠
يا رب از جاه محمد مصطفى   حق آل وحق صحب باصفا
حافظ فرما اين ديار ومرز بوم   ازد سيسه ومكر وغدر روس شوم
تا قيامت اين زمين آزاد باد   دين ودنيا اندر ان آباد باد

ويتحدث عن الصين والنفوذ الشيوعي الذي تسلل إليها ، وأنها ستقع فريسة له لا محالة في النهاية . ويعود فيرجع كل ما حدث في تلك البلدان من اضطرابات وفوضى ومذابح إلى الشيوعيين ، ويدلل على صدق قوله بدليل عايشه هو وقاسى منه وهو ما حدث في بلاده تركستان . ويصف هذه البلاد بأنها كانت موطنًا للعلم والعلماء من مفسرين ومحدثين وعلماء في الفقه والكلام ، كما أن أهلها يتصفون بعزة النفس والتقوى والكرم ، ويحس القارئ هنا وفي هذا الجزء بالذات نبرة الحزن والألم التي تسيطر على الشاعر نتيجة ضياع هذا الوطن وخضوعه للاحتلال الروسي . ويتناول أقسام هذه البلاد فيتحدث عن فرغانة وبخاري وخيوة ، ومقاومة أهلها في مواجهة المستعمر الروسي الغاضب ، إذ تم الاستيلاء على خيوة عام ١٩٢٠م وعلى بخارى عام ١٩٢١م.

ويذكر بعد ذلك جهاد شعب التركستان ومواجهة الشيوعيين الروس ، ويعدد أسماء أبطالهم وقوادهم مثل أنور باشا قائد المجاهدين في بخارى الذي استشهد في ٥ أغسطس ١٩٢٢م، وبهرام بيك قائد المجاهدين في سمرقند الذي أستشهد في عام ١٩٢١م ، وقور باشي إيزكش قائد المجاهدين في خوقند مركز فرغانه الذي استشهد عام ١٩٢٠م أيضًا.

والشاعر لا يفقد الأمل مطلقًا ، فهو يأمل أن يأتي اليوم الذي تتحرر فيه هذه المناطق وتعود إلى حظيرة الإسلام من جديد ، يقول[١]:

- إذا كانت ظلمة الليل قد طالت ، فيسشرق الفجر من جديد ويعود الضياء، ويصف الشيوعية فيقول[٢]:

---

(١) كرچه تاريكى شب كشته دراز   صبح دم خواهد دميد وگشت باز ص ٣١٨

(٢) بد ترين مسلك بود اندر جهان   نيست قبحش نزد هر عاقل نهان

پيرو وى منكر الله بود   منكر وحي ورسول الله بود ص ٢١٩

- إن الشيوعية أسوأ نظام فى العالم ، ولا يخفى قبحها على عاقل فطن.
- فمعتنقها ينكر الله ، وينكر الوحى ورسول الله .

ويصف حال من يخالف المذاهب ، فهو إما أن يقضى عليه أو يفر هاربًا من دياره، ويذكر ما حدث لبلاده بعد الاحتلال الروسى : فلا حرية للصحافة والنشر ولا حرية للفكر ، ولا طباعة للقرآن الكريم . أما بالنسبة للتعليم ، فلا تعليم إلا للعلوم الدنيوية ومذهب الشيوعية ، والمرء لا يستطيع حتى أن يعلم أبناءه العلوم الدينية وإلا تعرض للعقاب طبقًا للقوانين الشيوعية . كما أن تعليم، التاريخ مرتبط بالمذهب الشيوعى وحياة لينين وستالين وإنجلز وكارل ماركس وثورة أكتوبر ونتائجها وما إلى ذلك.

ويروى لنا قصة ابنه فضل الذى ذهب إلى المدرسة ولم يعجبه هذا النوع من التعليم الإلحادى فترك المدرسة وهرب ، ولكنهم أخذوه للمدرسة مرة ثانية ولما لم يجدوا سبيلاً إلى إقناعه بنظرياتهم وضعوا له السم فى الطعام فمات ، يقول الشاعر [1].

- هجموا على حياته وظلموه فراح الطفل البرىء الطاهر ضحية ،
- ضحى بروحه الطاهرة ، فى سبيل توحيد الله .
- كيف يتسنى لى أن أروى هذه القصة ، تلك القصة المليئة بالمحنة والغصة .
- إن قلبى يتمزق إربًا إربًا من سرد قصة هذا الطفل البرىء الطاهر .

---

(١) بر حياتش حمله كردند وجفا — گشت قربان طفل پاك باوفا
در ره توحيد قدسى خدا — كرده روح قدسى خود رافدا
كى توانم شرح حال قصه را — قصه ، پر محنت پر غصه را
سينه زين قصه بگردد چاك چاك — قصه، اين طفلك معصوم پاك ص ١٢٦

وبالنسبة للمدارس والمساجد ، فقد هدم الشيوعيون معظمها واستولوا على ما فيها ، وهذا ما حدث بالنسبة لمسجد أبيه فى مدينة طراز . كما جعلوا الأوقاف فى يد طائفة فاسدة ، وأغفلوا دار القضاء وأصبح سكان تلك البلاد خاضعين للقوانين الروسية . ثم يصف أحوال أهل تركستان وما أصباهم على يد الروس، فمنهم من أدخل السجن ومنهم من قضى عليه ، ومنهم من فر هاربًا وترك دياره ، وهو يحسن تصوير من يهجر وطنه وما يصيبه فى الغربة عندما يقول(1):

- من الأفضل أن تكون فى وطنك حتى لو كنت شحاذًا ولست ملكًا .

- وكيف يكون الإنسان ملكًا سعيدًا وهو فى الغربة ؟

- وكيف يرضى بالغربة عن طيب خاطر ، من ترك قومه وأهله ؟

ويصف بعد ذلك تفرق مهاجرى تركستان فى الدنيا ، فمنهم من ذهب إلى أفغانستان ومنهم من ذهب إلى السعودية ، ويذكر الملك عبد العزيز ملك السعودية ومدى حفاوته بهم وبه هو شخصيًا عندما التقى به عام ١٣٥٠هـ فى القصر الملكى ، وكذلك ولى عهده فى ذلك الوقت سعود ، كما انتشروا أيضًا فى تركيا وإيران وباكستان والهند ومصر والشام والعراق والأردن وأمريكا وأوروبا .

وهو يحذر العالم من خطر انتشار الشيوعية ، ويصف كيف وقعت أوروبا الشرقية كلها تحت تأثير هذا الوباء ، ويصف الشيوعية بأنها كالميكروب أو الكوليرا التى تنتقل من مكان إلى مكان دون أن تجد التطعيم الواقى والدواء الناجح لها . ويصف موقف أمريكا الضعيف فى مقابل انتشار هذا الوباء ويجل من القرن العشرين إنسانًا يبكى على ضحايا هذه الآفة ، يقول(2):

---

(١) به بود در وی گدایی از شهی ... شه بغربت کی بود اندر بهی؟
کی شود راضی بغربت آشکار ... ترك داده قوم وملت در دیار؟

(٢) قرن بیستم این عجوز پر محن ... بر دریده از مصیبت پیرهن
برسرش بنشسته ازافسوس وسوز ... گریه خواهد کرد شبها یاکه روز
لیك خواهد رفت اشکش بر هدر ... مرده از گریه نباید سوی در
شاید اندر این مثالم اي جوان ... درك کردی این خطر را در جهان (ص١٣٧)

– مزق القرن العشرين – ذلك العجوز المنكوب – قميصه مما أصابه من مصائب.

– سيبكى على ضحايا الشيوعية ، ليلا ونهاراً من الحسرة والألم.

– لكن دمعه سيجرى هباء فالميت لا يعود من قبره ،

– وربما فطنت أيها الشاب إلى هذا الخطر الذى يهدد العالم ، من المثال الذى ضربته لك.

ويتحدث عن مصر وقضيتها فى ذلك الوقت وكفاحها من أجل إجلاء الإنجليز عن ديارها وعناد المستعمر الغاضب فى هذا الصدد ، وينهى حديثه بأن مصر لم ترضخ للمستعمر ولن ترضخ له ويصف شعبها ، فيقول :

– إنهم قوم يتصفون بالحكمة والتدبير والحلم ، مشهورون بالفن والعلم.

– معروفون بحب الوطن ، مشهورون بالشجاعة فى ميادين القتال عند المحن.

– إنهم قوم أصحاب صناعة وحرف ، ذوو غيرة وهمة .

– مشهورون بالابتكار ، معروفون بالعمل والعرفان.

– أصحاب مجد وعز وإباء لهم عظمة إفريقيا.

– سيسعى الشعب جاهداً ، حتى يحقق هدفه بالعزم والتصمم[1].

والمعروف أنه قدم إلى مصر عام ١٩٤٩م وقدمت عائلته بعد ذلك عام ١٩٥٠م واستقبلته حكومة مصر كزعيم إسلامى ، وقضى فى مصر سبعة وعشرين عاماً.

---

(١) ملت باحكمت وتدبير وحلم — ملت باشهرتى در فن وعلم

ملت معروف در حب وطن — باشجاعت در ميادين ومحن

ملت باصنعتى باحرفتى — ملت با غيرتى با همتى

ملتى كودر تخلق اشتهار — دارد ودر علم وعرفان اعتبار

ملت بامجد وابعز وابا — ملت باعظمت أفريقا

سعى خواهد كرد اين ملت تمام — تابمقصد برسد ازعزم تام (ص١٢٠)

يصف بعد ذلك حال سورية ولبنان وما أصابهما من عدم استقرار نتيجة التدخلات المغرضة ، أما بالنسبة للعراق فحاله ليس بأفضل من جيرانه ، ويذكر أحوال أندونيسيا والاستعمار الهولندى ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الهند وباكستان وقيام الدولة الثانية ومؤسسها محمد على جناح ومشكلة كشمير.

وعندما يتحدث عن فلسطين يقدم لذلك بحديث عن العرب وفضلهم على العالم ، ثم يقول إن هذا المعسكر ضم اليهود من شتى بقاع العالم، أقامه الاستعمار على أرض فلسطين ليكون شوكة فى جانب العرب ، وحتى يجعل الشعب العربى ينزف دائمًا ، كما أن التقسيم الذى حكمت به الأمم المتحدة غير عادل ، فكيف يحكم بتقسيم دار لإنسان بينه وبين غيره . وعندما ينتهى من وصف أحوال هذه البلاد جميعًا يرى أن العيش فى هذا العالم المتناحر أمر صعب للغاية ، ويقول[1]:

- لو لم يكن هناك فضل خالق هذه الدنيا ، فالعيش فى هذا الزمان أمر صعب.

كما يرى أن الحل الوحيد الذى تلجأ إليه الشعوب هو القرآن الكريم فتعمل بما فيه لصالح دنياها وأخراها ، ويذكر أن ماجرى لهذه الشعوب من مصائب إنما يرجع إلى تركهم لتعاليم القرآن الكريم ، يقول[2]:

- ينبغى أن يكون القرآن دستوراً عاما للشرق والغرب وللدين والدنيا .

وإذا ما تم تنفيذ هذا فستخلو الدنيا من الكراهية والبغضاء والحسد ، وسيسود السلام . وعلى المسلمين أن يتحدوا ويتكاتفوا ، فالقرآن يدعو إلى الوحدة قال تعالى : «وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» (المؤمنون ٥٢) ، وقال «واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا» (آل عمران ١٠٣) وقال «ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم».

(١) كر نباشد فضل خلاق جهان زيستن مشكل بود دراين زمان (ص١٤٦)

(٢) ميسزد قرآن شود دستور بهر دنيا غرب وشرق اندر نظام (ص١٤٩)

ويسرد المؤلف بعد ذلك الخلافات التى حدثت فى عصور الإسلام الأولى ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الخلافات بين السنة والشيعة ، ويرى أن مثل هذه الخلافات توجه ضربات للمجتمع الإسلامى ، يقول[1]:

- لكنى أقول إن هذا الشقاق والخلاف والصدام والنفاق القائم بين الفريقين.

- قد وجه ضربات قاصمة ظاهرة وخفية للمجتمع الإسلامى.

- فأفاد هذا أعداءه عن طريق إفساد العامة وإغوائهم.

ويشير فى هذا الصدد إلى حديث الرسول (ﷺ) «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وإلى قوله : «إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون» (الحجرات١٠).

ويروى المؤلف السؤال الذى وجهه له شاعر باكستان العظيم الدكتور محمد إقبال أثناء لقائه فى منزله بلاهور ، وكان مدعو لإلقاء محاضرة عن «ضرورة الاتحاد الإسلامى» قال له إقبال : إن رجال السلف الصالحين كانوا لا يرهبون الموت إلا أننى أرى المسلمين الآن يخافون فما هو السبب؟ وما هو الفرق بين السابقين واللاحقين؟ ويرد عليه شاعرنا بقوله :

در جوابش گفتم أى صاحب نفس   قوهء إيمان وضعف آن وبس (ص١٥٧)

أى أنه يرى أن الإنسان عندما يكون ضعيف الإيمان يخشى الموت من مواجهة الأعداء ، بينما قوى الإيمان لا يخشاه . وقد لخص فى هذا البيت الإجابة تلخيصًا بديعًا . ويدلل على هذا بقصة عمير الصحابى الذى سمع الرسول (ﷺ) يقول :

---

(١) ليك گويم بين هرد واين شقاق   اين تخالف اين تصادم اين نفاق
داد بهر جامعهء اسلاميان   ضربه آشكارا ونهان
بر مفاد دشمنانش شد تمام   ازره افساد واغواي عوام (ص١٥٥)

«والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» فأخذ عمير يقاتل حتى نال الشهادة.

والسبيل الثانى للخلاص فى نظره هو التمسك بسنة المصطفى (ﷺ) فقد قال تعالى : «وماآتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» . ثم يوجه المؤلف بعض النصح كترك عقوق الوالدين ، وعدم ترك الصلاة وعدم ارتكاب المعاصى ، ويحض على ذكر الله ويذكر الآيات والأحاديث التى وردت فى الذكر.

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن قصة وفاة جده ، يقص علينا تفاصيل ما حدث له على فراش الموت وأنه كان يذكر الله ، ويقدم لذلك بحديث عن مدى علمه وفضله وتقواه وأنه كان حنفى المذهب ، سنى العقيدة ، نقشبندى المشرب ، من علماء متكلمى الماتريدية ، ويوجه النصح لابنه بألا يغفل عن ذكر الله وأن وفاة الأب تكون نذيراً للابن وأن الجميع إلى الموت سائرون ، أما الباقى فهو الله ، يقول:

اندرين دنيا نماند هيچ كس   آنكه باقى بس خداوند وبس (ص١٨٦)

هذا البيت يتضمن معنى قوله تعالى : «كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» (الرحمن ٢٦،٢٧).

ويوصى ابنه بأن يلقنه الشهادة عند احتضاره ، وألا يبكى عليه بعد موته ، ثم ينصحه بالتوبة والاستغفار . ويربط الشاعر بين السجن والتوبة ، ويصف السجن بأنه كالجحيم أو البرزخ ، فالجحيم تقبل فيه التوبة والبرزخ يمكن أن يعفى فيه عن المذنبين ، وفى السجن كم من مذنب تاب بداخله وكم من شقى أصبح سعيداً بعد أن اقترب من الحق سبحانه وتعالى.

وينصح ابنه بالتوكل على الله ويشير إلى الحديث الشريف: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغذو خماصاً وتعود بطاناً» ويذكر عدة قصص تؤكد أهمية التوكل على الله.

يصف الشاعر لنا بعد ذلك قصة حجه ، وذلك عندما انضم إلى وفد أفغانستان الرسمى فى عهد محمد نادر شاه ونزل ضيفًا على الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٣٤٩هـ ١٩٣١م. ثم سفره إلى السعودية فى العام التالى (١٩٣٢م) وفى موسم الحج أيضًا ، وذلك لعقد معاهدة صداقة بين البلدين وإقامة تكية للحجاج الأفغان ، وقد عقدت هذه المعاهدة وكتبها الشاعر باللغتين العربية والفارسية بقلمه ، وكان يرأس هذا الوفد الأمير أحمد شاه خان ابن عم محمد نادر شاه ، وكان الشاعر نائبًا له ، ويشير شاعرنا إلى أن الفضل فى كل هذا يرجع إلى توكله على الله يقول(١):

- ليس من معين فى الحياة سوى الله سواء فى شئون الحياة أو فى الممات.
- فأنا وحيد بلا أهل وذاته أفضل أهل ، وهو الكافى لحل كافة مشكلاتى.

لقد سلمت له أمرى ، فهو الإله وأنا المحتاج إليه.

وتلى ذلك أبيات نظمها عند زيارته لمكة، ثم أبيات فى المناجاة عند مقام إبراهيم يدعو فيها ربه قائلاً:

- اجعل وجهى أبيض بماء رحمتك ، ولا تبعدنى عن أعتابك يائسًا.
- فأنا لا أملك أفعالاً طيبة وكل ما أملكه ذنوب سيئة.
- فشأنك العفو وشأنى ارتكاب الذنوب ، وشأنك الستر وشأنى العيب.
- فكيف يصيب النقص بحر الكرام ، إذا أنت عفوت عن الواقفين على بابك.
- فيا إلهى طهر القلب من حب غيرك ومزق لبة ثوبى بعشقك.

---

(١) من ندارم جز خداكس در حيات　　در شئون زندگى همچون ممات
بيكسم من ذات او بهتر كس است　　بهر حل مشكلاتم او بس است

– وأغرقنى فى بحار المعرفة ، واجعلنى أقف على ما هية صفاتك[1].

ينظم الشاعر عدة أبيات عند زيارته للمدينة ، ثم يتحدث عن الصلاة على النبى وفضل ذلك ، ويشير فى هذا الصدد إلى الآية الكريمة : «إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا» (الأحزاب ٥٦) وإلى الحديث الشريف : «من صلى على آحاد صلى الله عليه عشرًا» و«من صلى على واحدًا صلى الله عليه عشر صلوات ، وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات»، كما يقول بأن محبة الرسول ضرورة لإيماننا ، ولا بد أن تكون محبته أكثر من حب الوالد والولد ، ويذكرنا بالحديث الشريف : «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» . فحبه ينير القلب ويعلى النفوس[2].

– إن حب النبى ينير قلبك ويجعل جسدك أتونًا وروضة.

– وحبه يسمو بحالك ، فتعلو روحك وتطير من عشقه.

ويتناول بعد ذلك شروط وآداب الدعاء ، ثم آداب قراءة القرآن ومنها ضرورة الوقوف على قواعد التجويد والترتيل والوضوء والاتجاه للقبلة ، والتوجه بالقلب للخالق ، وتأدية السجدة فى مواضعها ، وعدم التسرع فى التلاوة ، ويختم الشاعر منظومته بالحديث عن تحديد مدة ختم القرآن ، وينهى المنظومة بأبيات يقول فى مطلعها[3]:

الحمد لله أننى نظمت هذا المثنوى على وزن مثنوى المولوى.

---

(١) روسفيدم كن به آب رحمتت — بس مران مايوس از اين در گهت
هيچ نيكى من تدارم از خردى — هرچه دارم گناه است بدى
كارتو عفواست وكار من ذنوب — شان تو ستراست وشان من عيوب
كى رسد نقصى بد ريارى كرم — گربيخشي واقفان اين حرم
سينة ام ازمهر غيرت پاك كن — هم گريبانم بعشقت چاك كن
غرق سازم در بحار معرفت — واقفم كن از شئونات صفت.

(٢) عشق أو لب ترا روشن كند — قالبت را گلشن وگلخن كند
عشق أو حال ترا بالا برد — روح تو از عشق زو بالا پرد (ص٢٣٤)

(٣) حمد الله اين كتاب مثنوى — بر وزن مثنوى مولوى
يادگار دورة زندان من — بهر توده ملت واخوان من

- حتى يكون تذكاراً لفترة سجنى ، ولكل قومى وإخوانى.

وبعد هذا العرض الموجز لموضوعات المنظومة يتضح لنا أن الشاعر قد تأثر فى منظومته بالثقافة الإسلامية وباللغة العربية ، فتأثر إلى حد بعيد بالقرآن الكريم ، وهو فى الغالب يقتبس من معانيه ويضمنها أبياته ، وهذا أمر طبيعي لعالم من علماء الدين ، خاصة أن المنظومة تتضمن كثيراً من النصح والإرشاد والدعوة إلى الدين والحق واتحاد المسلمين والتوكل علي الله ، وغير ذلك من الموضوعات التي تحتاج إلي شواهد من القرآن السنة ، ونذكر علي سبيل المثال لا الحصر قوله (ص١٩).

هون وحزن از نقص إيمان آمده   اين سخن نص قرآن آمده

وهذا إشارة إلى قوله تعالى:

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» (آل عمران ١٣٩).

ويقول (٢٥):

صبر كن بهر بلا صبر جدا   همره صابر بود بى شك خدا

وهذا إشارة إلى قوله تعالى:

« ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين».

(البقرة ١٥٣)

ويقول (ص٢٥)

خلق كرد خالق ترا بين كبد   پس توهستى در مشقت تا أبد

وهذا إشارة إلى قوله تعالى:

«ولقد خلقنا الإنسان فى كبد» (البلد آية ٤).

ويقول (ص٣٠):

وعـده الله بود وعــده‌ء يقــين　　چونكه فرموده است ننجى المؤمنين

وهذا إشارة إلى قوله تعالى:

«وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين» (الأنبياء ٨٧ ، ٨٨).

ويقول:

آيتــى را از ألم نشرح بخــوان　　مطمئــن گردد ترا خاطر ازان

وهذا إشارة إلى قوله تعالى:

«فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا» (سورة الشرح ٥،٦)

ويقول:

وعده‌ء حق را پسر ايندام بدان　　«سنريهم» گفته حق اندربيان

إشارة إلى قوله تعالى:

« سنريهم أياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق» (فصلت ٥٢)

ويقول:

آن خدايي كو ورا آورده است　　حفظ أورانيز وعده داده است

إشارة إلى قوله تعالى:

«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (الحجرات ٩).

كما أن تأثره بالأحاديث النبوية واضح جلى فى كل صفحة من صفحات منظومته،

وهو راجع إلى موضوع المنظومة من جهة وإلى رغبة الشاعر فى التدليل على ما يقول بآيات من القرآن الكريم وبأحديث نبوية لتؤكد وجهة نظره فى كل الموضوعات التى طرحها فى منظومته ، ومثال ذلك قوله (ص١٠):

كرده پيغمبر ابو ذر را خطاب	خود بفرمود اين كلام باصواب
در سلامت باشي تاكه ساكتى	هان ندارد نقص برتو صامتى
چونكه گفتى برلهت باشد سخن	بر عليهت يا بود آرد محن

وهذا إشارة إلى الحديث الشريف:

«اللهم أغننى بالعمل ، وزيننى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية».

ويقول «ص٤٤):

از تفكر كشف گردد كائنات	رفع گردد پرده ها از مضمرات

إشارة إلى الحديث الشريف:

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

ويقول (ص٤٨):

گفت پيغمر آنكس كه بمرد	حالت إيمان خود جان را سپرد
آن يقين بر وحدت الله داشت	هم عقيده بر رسول الله داشت
اين موحد داخل جنت شود	نزد الله صاحب نعمت شود

إشارة إلى الحديث الشريف:

«من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة».

كما تأثر أيضًا بالأحاديث القدسية ومثال ذلك قوله (ص١):

كرد ظاهر قد رتش شمس وقمر　　تاب فتــد بــر مؤثر چــون آثر

وهذا إشارة إلى الحديث القدسى:

«كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق».

والشاعر متأثر باللغة العربية ، والمعروف أن اللغة الدرية المستعملة فى أفغانستان قد حافظت على بقائها أكثر من الفارسية المستعملة فى إيران ، ومن خصائص هذه اللغة كثرة استخدام المفردات العربية ، فلم تبذل محاولات لإبعاد هذه المفردات أو تنقية اللغة الدرية منها كما هو الحال بالنسبة لفارسية إيران ، ومازلنا نري أهل أفغانستان يحافظون على هذه الألفاظ والتراكيب العربية فى لغتهم . وفى هذه المنظومة تبرز هذه السمة بوضوح نظراً لموضوعها الذي يغلب عليه الطابع الدينى ، فنجد عبارات بأكملها باللغة العربية ، من أمثلة ذلك : الصبر مفتاح الفرج (ص٣٠) شعار أهل الكفر (ص٣٠) ، رب رحيم (٣٣) ، أصل ومنبع (٣٤) حر قرشى وفريد (٣٤) ، حر ونسيب (٣٥) رحمة الله عليهم أجمعين ، رب فاجعلنا لهم من تابعين (٤٠) ، خير العباد (٥٦) ، أهل جهاد (٥٦) ، بأبى أنت وأمى يارسول (٥٧) ، يا إلهي أنت رب العالمين ، غافر الذنب كل المذنبين (٧٣) ، خنق نفس (١٠٦) حق تقرير المصير (١٣٥) ، إلى يوم الحساب (١٤٩) ، استجب يا ربنا أنت المجيب ، أنت للدعوات رب مستجيب (ص١٩٠).

ويتأثر شاعرنا بالشعر العربى قديمه وحديثه ، وهذا ليس بغريب على من ينظمون بالفارسية فما من ديوان أو منظومة فارسية ، إلا ونرى فيها اقتباساً من معانى الشعر العربى ومضامينه ، ومن أمثلة ذلك قوله:

وه چه خوش گفته است آن مرد عرب　　سلك نظمش مطرب أهل ادب

بعض روزى بر عليــه مــا بود　　روز ديگر بر له مــا مــيــبــود

بعض روزى مــيــرســد بر مــا بدى　　روز ديگر مــيــرســد برمــا خــوشى

إشارة إلى قوله:

فيـــوم علينـــا ويـــوم لنـــا ويومًا نُســـاء ويـــومـًـا نُسَرّ

ويقول:

شـاعر قوم عرب خوب گفته است در فنون شاعـرى دَر سـفـتـه است
ها مكن مـــارا مـــلامت اى نديم گـــر شـــد بي طاقت از حـــال اليم
قلب من در خلقتش يكپاره ايست به زآهن نه زسنگ خـــاره ايست
مطلب من فـوت گـرديد از قـضـا هجـــر وتركم داده مـــحـبـــوبم مـــرا
ســوزد احـشـاى من از هجـران وغم پشت من خم كـــرده است بار ألم

وهذا المعنى مأخوذ من قول بهاء الدين العاملى فى قوله:

لاتلومـــونى على فـــرط الضـــجـــر ليس قلبى من حـــديد أو حـــجـــر
فـات مطلوبى ومـــحـبـــوبى هجـــر والحـــشـــا فى كل آن فى اشـتـعـــال

وتأثر شاعرنا أيضًا بالأمثال العربية ومن ذلك قوله:

مـــرد عـــاقل را اشارت بـــس بـــود رمز كافي بهر آن كوكس بود (ص١٣)

وأيضًا قوله:

ليـــك باش بهـــر عـــاقل اكـــتفاء أزاشارت حرف ورمزى بى خفاء (ص١٣٥)

وفى هذا إشارة إلى المثل العربى القائل «العاقل تكفيه الإشارة».

بل إن بعض أبياته تصلح لأن تجرى مجرى الأمثال السائرة لما تتضمنه من حكمه كقوله (ص ١١٧):

خوى بد اندر طبيعت گرنشســت كى رود تا ســـاعتِ مردن زد ست

أي:

إذا جبل الإنسان على الطبع السيئ ، فكيف يتخلص منه إلى أن يحين أجله .

ويشير شاعرنا إلى العديد من الكتب الإسلامية ، وخاصة كتب الفقه والحديث والتفسير وغير ذلك ، كما تتضمن منظومته إشارات إلى بعض العادات والتقاليد أو طرز المعيشة السائدة فى المناطق التي عاش فيها ، ومن ذلك قوله (ص٢٢):

آن يكي بى طاقت ودر ضيق حال ازكتاب خواجه گيرد فتح فال

وآن دگر فالش به قرآن ميكند زينجهت تسكين وجدان ميكند

وهو فى هذين البيتين يشير إلى عادة موجودة فى بعض البلاد الإسلامية وهى أخذ الفأل من القرآن الكريم ، كما يشير إلى عادة مماثلة لذلك يقوم بها الشعب فى إيران وأفغانستان وهى أخذ الفأل من ديوان الشاعر الإيرانى حافظ الشيرازي ، وهو يصف هنا طائفة من المسجونين معه بعضهم يأخذ الفأل من القرآن وبعضهم يأخذه من ديوان حافظ حتى تطمئن نفوسهم.

ومن ذلك أيضًا قوله (ص٢٢):

گر كسى را چشم وابرو ميپرد مژده گويد يا ازان ميپرد

ور زكوزه آب ريزد زاتفاق مى بگويد روشنى هست بى شقاق

وفى البيتين السابقين إشارة إلى بعض العادات السائدة أيضًا وهى أن البعض يتفاءل برفرفة العين والحاجب والبعض الآخر يتشاءم منها ، كما هو الحال بالنسبة لسقوط الماء من الإناء صدفة.

ويشير فى بعض أبياته إلى نوع من أنواع الطعام المعروف فى تركستان وبخارى ويسمونه «پلو» ويعرف فى أفغانستان باسم «قابلى» وهو طعام من الأرز ، ويقول ص ٢٢:

آن يكى را بيت خوانى ورباب   ميكند گـه قابلى گاهى كبـاب

وأسلوب الشاعر فى هذه المنظومة سهل بسيط يعبر عن المقصود بصورة تخلو من التعقيدات اللغوية والاهتمام بالمحسنات البديعية ، ويمكننا أن نقول إن هذه المنظومة خطاب مباشر إلى المناضلين فى سبيل الحرية والاستقلال وإلى الأمة الإسلامية ، دون محاولة لإبراز المهارة اللغوية أو الصنعة البديعية ، وقد استخدم الشاعر تعبيرات جميلة عبرت عما يجيش فى صدره ، وصورت آماله وأحلامه بصورة جيدة ، من ذلك قوله: گوهرى از قطرهاى اش سفت» (ص٣٢)، أى «سلك جواهر من قطرات الدمع» وقوله: «خون اشكم بر رخش افتيد خال» (ص٣٣) أى: «انهمر دمعى الدامى على وجهى فصار كالخال».

ومن المصطلحات التى شاع استعمالها عنده:

سر خم كردن بمعنى الخضوع.

دل از خلق اين جهان سرد گشته = دل چيرى سرد گشتن

دل از شئون دنيوى سرد كن = دل از چيزى سرد كردن

كناية عن : إنصراف القلب عن الشيء وعدم الاهتمام به.

خنزيران: كناية عن الكفار والمشركين.

واستخدم بعض المفردات الأجنبية الشائعة فى اللغة الدرية ومنها على سبيل المثال:

أتوم = الذرة ، ساينس دانان = العلماء ، جهان يورپى : أوروبا ، قارئ يورپ، ملك يورپ = القارة الأوروبية . اعتصاب فبريك : إضراب المصنع.

ويستخدم الشاعر فى منظومته بعض الألفاظ الشائعة فى اللهجة الأفغانية ، وهذا ناتج بطبيعة الحال عن إقامته فى هذه الديار وتأثره بالبيئة المحيطة به، ومن أمثلة ذلك الكلمات:

پهره بمعنى حارس ، گپ بمعنى كلام ، شيطان بمعنى جاسوس ، اغتشاش بمعنى إنقلاب أو ثورة ، يونو بمعنى هيئة الأمم المتحدة ، سائس بمعنى سياسى ، مكتب بمعني مدرسة ، نفس: كلمة يخاطب بها الشخص العزيز.

وختامًا فهذه المنظومة من أطرف المنظومات الفارسية التى قرأتها ، وهي تعبر تعبيرًا صادقًا عن ناظمها ، فالقارئ يعايشه فى كل بيت من أبياته ، ويتعاطف معه فى محنته وغربته ومأساة بلاده ، ويشعر من خلال كلماته وعباراته بصدقه فى التعبير عن كل ذلك، فهو يعبر عن واقع حياته وواقع عصره الذي عاش فيه ويضمن منظومته مجموعة من الأحداث والوقائع التي ما زلنا نعيش تحت تأثيرها.

وها هو الشاعر يحذر من الأخطار التى تحيط بالأمة الإسلامية كالشيوعية وغيرها ، وينادى بالوحدة الإسلامية فى مواجهة هذه الأخطار ، ويدعو إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وكأنه فى منظومته هذه يتنبأ بما يحدث الآن فى أفغانستان المسلمة التى امتدت إليها يد الشيوعية الغاشمة ، ثم تركتها ممزقة متناحرة.

ورغم طول هذه المنظومة وتكرار التعبيرات والمصطلحات أحيانًا وتشابه الموضوعات والأفكار فى أحيان أخرى ، إلا أن القارئ لا يشعر بأى ملل أثناء قراءتها ، ذلك لأن ناظمها ينقله إلى خضم الحياة المعاصرة ويصورها له بأسلوب سهل بسيط ، فيحيط القارئ علمًا بكل ما يدور فى هذه الفترة من خلالها ، وكأنه يقرأ قصة متصلة الأحداث ، مترابطة الوقائع.

ويحس القارئ للمنظومة بأنه هو المقصود بهذا النصح ، فقد وجه الشاعر كثيرًا من النصح والإرشاد إلى الإنسان المسلم عمومًا ، وإلى ابنه أحيانًا . فحديثه ونصحه يخصنا جميعًا ، وموجه إلينا كافة ، ولا يمكننا إغفاله أو تجاهله . ومن هنا يمكننا القول بأن حديث الشاعر فى هذه المنظومة خرج من القلب إلى القلب . وحبذا لو ترجمت هذه المنظومة إلى اللغة العربية بأكملها حتى يرى فيها الشباب المسلم قصة كفاح عظيمة ، وملحمة نضال رائعة يفخر بها كل مسلم.

المؤلفان فى سطور:

- أ. د. بديع محمد جمعة

- أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب - جامعة عين شمس .
- رئيس قسم اللغات الشرقية الأسبق لدورتين
- عضوا بالمجالس القومية المتخصصة - لجنة الآداب .
- عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة (عدة دورات) .
- مستشار بالمركز القومى للترجمـــة .

من أهم مؤلفاته :

- ترجمة منطق الطير لفريد الدين العطار من الفارسية .
- پروين اعتصامى - صوت المرأة الشرقية فى إيران .
- دراسات فى الأدب المقارن .
- من روائع الأدب الفارسى .
- من قضايا الأدب الفارسى فى النصف الأول من القرن العشرين .
- ڤينوس وادونيس (دراسة مقارنة بين خمس لغات) .
- شاه عباس الكبير .
- قواعد اللغة الفارسية .
- من وحى الشرق : مجموعة مقالات .

- إلى جانب العديد من المقالات المنشورة بالداخل والخارج .

- الاشتراك فى العديد من المؤتمرات العلمية والندوات فى مصر وخارجها .

- المشاركة فى الدراسات الصادرة عن المجالس القومية المتخصصة .

- الإشراف على العديد من الرسائل فى معظم الجامعات المصرية .

- مراجعة العديد من إصدارات المركز القومى للترجمة .

٢- أ.د. محمد نور الدين عبد المنعم عبد القادر

حاصل على دكتوراه الآداب فى اللغة الفارسية وآدابها من كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٧٢م .

يعمل حاليا أستاذاً متفرغاً للغة الفارسية وآدابها بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر .

تولى عدة مناصب إدارية وفنية هامة منها :

رئيس قسم اللغة الفارسية بكلية اللغات والترجمة .

وكيل كلية اللغات والترجمة .

عميد كلية اللغات والترجمة .

مقرر لجنة ترقية أساتذة اللغات الشرقية .

رئيس لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

قام بالتدريس فى عدة جامعات بالداخل والخارج منها :

جامعة الأزهر - جامعة المنصورة - جامعة القاهرة - جامعة الإسكندرية - جامعة عين شمس - جامعة بغداد بالعراق - جامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية .

- ألف وترجم ما يقرب من خمسة وثلاثين كتاباً أهمها :

دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى - اللغة الفارسية : بحوث فى النشأة والتطور - جوانب من الثقافة الإيرانية - البلاغة العربية وأثرها فى نشأة البلاغة الفارسية وتطورها - معجم النور لمعانى ألفاظ القرآن الكريم (عربى - فارسى) - معجم المصطلحات السياسية والعسكرية - معجم المصطلحات الفلسفية - ترجمان البلاغة - كمال الدين بهزاد المصور الإيرانى المبدع - أوزان الشعر الفارسى .

- كتب ما يقرب من خمسة وسبعين بحثًا ومقالا منشورًا ، منها :

الألفاظ الفارسية فى العامية المصرية - كلمات فارسية فى شعر أبى نواس - وصف مصر فى كتاب حدود العالم - تأثيرات عربية فى كتب البلاغة الفارسية - البازار ودوره فى المجتمع الإيرانى - ترجمة فارسية منظومة لمعانى القرآن الكريم - المخطوطات الفارسية بدار الكتب المصرية - المصاحف الإيرانية المخطوطة فى مكتبات مصر ومتاحفها - المجمع اللغوى الايرانى - المقاهى الإيرانية ودورها الاجتماعى والثقافى .